@ketab_n
Follow Me
10.6.2015

أليف شافاك

الفتى المتيَّم والمعلِّم

ترجمة: د. محمد درويش

رواية

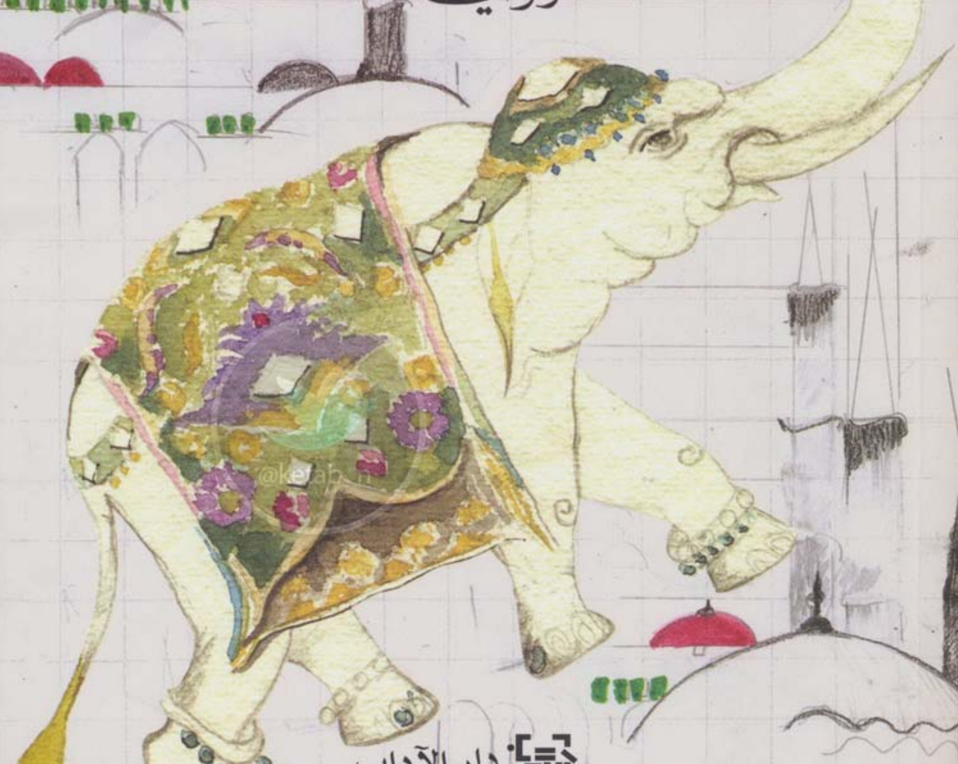

دار الآداب

أليف شافاك

الفتى المُتَيَّم والمعلِّم

رواية

ترجمة محمّد درويش

@ketab_n
Follow Me

دار الآداب - بيروت

Twitter: @ketab_n

الفتى المُتَيَّم والمعلِّم

Twitter: @ketab_n

الفتى المُتيَّم والمعلّم
أليف شافاك / كاتبة تركيّة
الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-493-5
THE ARCHITECT'S APPRENTICE
by Elif Shafak
Copyright © 2014 Elif Shafak
http://www.elifshafak.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana.adab@hotmail.com
Website: www.daraladab.com
Facebook: Dar Al Adab
/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Twitter: @ketab_n

مقدّمة المترجم

مدينة الحبّ والتّناقضات

أليف شافاك، على حدّ تعبيرها في عديد اللّقاءات والنّدوات والكتابات، كاتبة روائيّة ملتصقة بإسطنبول، مدينة التاريخ العريق، وكيف لا وهي الّتي كانت على مدى قرون عاصمة إمبراطوريّة امتدّت شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، وحاربت مرّات ومرّات أقوى إمبراطوريّتين هما البيزنطيّة والفارسيّة، وانتصرت عليهما في أكثر من موقعة؟ شافاك ملتصقة بهذه المدينة الّتي تحبّها حبًّا جمًّا، وإن كانت تحبّ التّنقّل بين البلدان والمدن والثّقافات واللّغات، وتكتب عن الآخر! فهي تقضي نصف وقتها في لندن، الّتي استقرّت فيها قبل بضع سنوات إثر مغادرتها الولايات المتّحدة، وتقضي النّصف الآخر في إسطنبول الّتي تعود إليها كلّما استبدّ بها الحنين إلى شواخص الإمبراطوريّة ورموزها على امتداد تاريخها الطّويل، فتنهل منها وتجسّد ما هضمته من ذلك التّاريخ في أعمال روائيّة وقصصيّة تختلف اختلافًا جذريًّا عن كلّ ما يكتبه أقرانها من الأدباء الأتراك لأسباب كثيرة. لعلّ أهمّها لانمطيّة الشّخصيّات الّتي تختارها لأعمالها الإبداعيّة. إنّ ما تريد شافاك تحقيقه بهذه الكتابات ليست

Twitter: @ketab_n

الشّهرة الّتي يطمح إليها الكاتب المبدع، لكنّها تريد أن تكتب وتواصل الكتابة لأنّها تعتقد أنّ الكتابة هي أشبه بالصّمغ الّذي يلصق أجزاء كيانها المبعثرة. وهذه الكتابة، كما ترى المؤلّفة، هي نتاج التّجربة الحياتيّة العميقة، التّجربة الّتي ينبغي للمرء، على وجه العموم، أن يظلّ يتعلّم منها، فضلًا عن التّجربة الثّقافيّة المحلّيّة والإقليميّة والعالميّة الّتي يتعيّن على أي أديب أن يطّلع عليها. لهذا، فهي تؤكّد، على سبيل المثال، أن القارئ ينبغي له أن يقرأ أعمال نجيب محفوظ مثلما يقرأ مؤلّفات بلزاك، وأن يقيم حوارًا متّصلًا مع الثّقافات الأخرى، مجاورة كانت أم بعيدة. وهذا ما يتّضح في عموم أعمالها الصّادرة حتّى الآن[١]؟

من هنا، تبرز أهمّيّة الكتاب وأهمّيّة القصص في حياة الفرد، لأنّ الكتاب والقصص تغيّر من الفرد وحياته وتطلّعاته وتساعده في فهم الأمر، بل إنّها تجعلنا، كما تؤكّد، نضع أنفسنا في محلّ هذا الآخر. والسّبب الّذي يدفع شافاك إلى اتّخاذ مثل هذا الموقف هو، كما يتّضح من سياق أحاديثها، أنّها تعرف الكثير من القرّاء في تركيا ممن لديهم تعصّب تجاه الهويّة أو الجماعة، ولكنّهم إذا ما قرأوا الرّواية، فإن في وسعهم التّماهي مع الأبطال القصصيّين، ويرجع هذا إلى أنّ الحدود العقليّة في حياتنا اليوميّة تتبخّر وتزول عندما نقرأ قصّة أو رواية. ثمة فسحة أكبر لما هو إنسانيّ في الأرض القصصيّة وفسحة أكبر للتّعاطف.

يُدفع هذا باتّجاه كون القاصّ أو الرّوائيّ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالوضع الإنسانيّ، ولهذا لا يستطيع هذا القاصّ أو الرّوائيّ أن يكون غير سياسيّ، وبخاصّة إذا كان أديبًا قادمًا من بلدان مضطربة وديموقراطيّات هشّة مثل باكستان ومصر وتركيا، على حدّ تعبيرها. ولمّا كان الأديب

(١) انظر رويات أليف شافاك الصّادرة بترجمتنا عن دار الآداب ببيروت «قواعد العشق الأربعون» و«شرف» و«لقيطة إسطنبول» الّتي توضّح بجلاء مدى اهتمامها بثقافات الآخر. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

يحاول أن يفهم الماضي والحاضر والظّلم والأحزان، فإنّ فسحة صغيرة من السّياسة تصبح ضروريّة، وإن كانت ترى أن السّياسة لا ينبغي أن تقود الأديب، لأنّ مثل هذا الاتّجاه سيُلحق الضّرر بالرّواية.

إذا كانت الولادة في ستراسبورغ بفرنسا، فإنّ الطّفولة والمراهقة كانتا أساسًا في مدريد وفي عمّان وفي كولون بألمانيا. أمّا سنوات عمرها وهي في الثّلاثينيّات، فكانت في الولايات المتّحدة، في بوسطن أولًا، ثمّ في ميتشيغين وآريزونا. وإذا كان جزء من نشأتها في ولاية فلوريدا، كما تقول، فإنّ مدرستها الدّاخليّة كانت في آلاباما، وعاشت مدّة من الزّمن في مدينة تاكسون أيضًا. والدها هو الفيلسوف نوري بيلجين، ووالدتها الدّيبلوماسيّة شافاك أتايمان. أخذت أليف اسمها الأوّل من حرف الألف في الألفباء العربيّة والثّاني من اسم والدتها الأوّل (الّذي يعني شَفق بالعربيّة كما ذكرت في إحدى المقابلات الأدبيّة).

في تركيا، أكملت دراستها في جامعة الشّرق الأوسط التّقنيّة وحازت منها شهادة الماجستير في الدّراسات النّسويّة والدّكتوراه في العلوم السّياسيّة، وهي عن (التّصوّف الإسلاميّ وفهم الزّمان فهمًا دائريًّا) فمنحها معهد علماء الاجتماع جائزة قيّمة. أمّا كتاباتها الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، فتظهر في عدد من الصّحف والمجلّات العالميّة مثل الـ «غارديان» اللّندنيّة و«لو موند» الفرنسيّة والـ «برلينر زايتونغ» الألمانيّة والـ «نيويورك تايمز» والـ «وول ستريت جورنال» والـ «واشنطن بوست» والـ «تايم الأميركيّة».

صدرت هذه الرّواية الّتي نقدِّم ترجمتها العربيّة الكاملة للقرّاء العرب في أواخر عام ٢٠١٤، وأشادت بها الصّحافة الأدبيّة في مختلف دول العالم. وقد كتبتها المؤلّفة باللّغة الإنكليزيّة مباشرة كما هو شأنها في أكثر من رواية سابقة لها. عوالم الرّواية عجيبة وغريبة، إذْ تنتقل الرّوائيّة هنا إلى عالم سلاطين آل عثمان كما يراه جَهان، الصّبيّ الهنديّ القادم

Twitter: @ketab_n

من بلاد الهند برفقة فيل، هديّة يقدِّمها إلى السّلطان العثمانيّ، وما يصادفه في إسطنبول من أحداث ودسائس ومؤامرات أثناء عمله مروِّضًا للفيل وسائسًا له في سراي السّلطان، وحبّه لابنة السّلطان حبًّا استحوذ عليه تمامًا مُذ أن رآها أوّل وهلة، فضلًا عن عمله تلميذًا في البناء بإشراف معلّمه معمار سنان الّذي خلّد اسمه في كثير من الشّواخص العثمانيّة ذات التّصاميم المعماريّة المذهلة.

رواية حافلة بالشّخصيّات، فيها النّبيل والوضيع، الأمين واللّص، النّزيه والسّكّير، الصّالح والطّالح، الطّيّب والشّرّير، الورِع والآثم، الظّالم والمظلوم، الحاكم والمحكوم، الشّريف والمثليّ (الشّاذّ)، ومن الأماكن ما لا يعدّ ولا يحصى، كالقصور والبحار والسّجون وبيوت الدّعارة والخانات والحانات والسّفن والعربات والمدن والبلدان والقرى والأرياف والجسور والقناطر والمساجد والكنائس والمعابد وميادين القتال وساحات الوغى والحرب والسّلم. فيها المشاعر الإنسانيّة واللّاإنسانيّة من حبٍّ وكراهيّة وعشق وحقد وفرح وغيرة وحسد وألم وإيثار وأنانيّة وسعادة وعذاب ورياء. فيها المسلمون والنّصارى واليهود والإفرنج والغجر، وفيها الجواري والمحظيّات والسّراري والخدم والخصيان والوضيعات والحريم وكلّ ما يشغلهنّ من أسرار وحكايات. فيها أيضًا الدّين والسّحر، الصّلاة والشّعوذة، الإيمان والدّجل ومختلف صنوف الحيوانات والطّيور الّتي برعت المؤلّفة في تعدادها وذكرها ووصفها في مأوى الحيوانات، وفي الزّرائب والحظائر.

إنّها رواية غير قابلة للتّلخيص، لأنّها إذا لُخِّصت لحق بها التّشويه. باختصار هي واحدة من أروع روايات العصر لواحدة من أبرز الأديبات التّركيّات في هذا القرن.

الدكتور محمد درويش

بغداد ٢٠١٥

Twitter: @ketab_n

إلى التّلاميذ في كلّ مكان

لم يخبرنا أحد بأنّ الحبّ كان أشقَّ الفنون تعلُّمًا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أحببتك من النّظرة الأولى بألف قلب

دعِ المتزمّتين يظنّون الحبّ إثمًا . . .

لا بأس

فدعني أحترق في نار جحيم ذلك الإثم.

مهري خاتون، شاعرة عثمانيّة من القرن السادس عشر

بحثت في العالم، فلم أجد ما هو جدير بالحبّ،

لهذا أنا غريبة بين أقربائي

وبعيدة عن صحبتهم.

ميراباي، شاعرة هندوسيّة من القرن السّادس عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لم يكتشف إلّا قليلٌ من النّاس الّذين خلقهم اللهُ وضلّلهم الشّيطانُ، مركزَ الكون ـ حيث لا وجود للخير ولا للشّرّ، ولا للماضي ولا للمستقبل، ولا للـ «الأنا» ولا للـ «الأنت»، ولا للحرب ولا السبب في الحرب، بل لبحر من الهدوء لا نهاية له. والّذي وجدوه كان غايةً في الجمال أدّى بهم إلى أن يفقدوا قدرتهم على الكلام.

وهنا أشفقت الملائكة عليهم فمنحتهم خيارَيْن. فإذا ما أرادوا استعادة أصواتهم، فينبغي لهم أن ينسوا كلّ ما رأوا على الرّغم من أنّ إحساسًا بالغياب سيمكث في أعماق أفئدتهم. ولكنْ، إذا آثروا أن يتذكّروا الجمال، فسترتبكُ عقولُهم ارتباكًا شديدًا يفقدون بسببه معرفة الفارق بين الحقيقة والوهم. لهذا، فإن القليلين الّذين عثروا مصادفةً على ذلك المكان السّرّيّ، غير المؤشّر إلى أيّ خريطة، رجعوا وقد استبدّ بهم شعورٌ بالحنين إلى شيء ما، لا يعرفون كنهَه، أو بأسئلة لا تُعدّ ولا تُحصى. وسوف تطلَقُ على أولئك التّوّاقين إلى الكمال صفةُ «العشّاق»، وعلى المتطلعين إلى المعرفة صفةُ «المتعلّمين».

هكذا كان المعلّم سنان يعلّمنا نحن تلاميذه الأربعة، وهو ينظر إلينا عن كثب، مائلًا برأسه إلى أحد الجانبين، كأنّه يحاول أن يخترق أرواحنا. كنت أعلم أنّني مختال، وأنّ الخُيَلاء لا تناسب غلامًا بسيطًا مثلي، ولكنْ

Twitter: @ketab_n

في كلّ مرّة كان معلّمي يسرد هذه الحكاية، كنت أظنّ أنّ كلماته كانت موجّهةً إليّ لا إلى الآخرين، فقد كانت نظرته تتركّز على وجهي وقتًا طويلًا، كأنّه كان يتوقّع شيئًا سأقوله. كنت أشيح بنظري خشيةَ أن أخيّب رجاءه، وجلًا من الشّيء الّذي لم يكن في وسعي منحُه إيّاه - وإنْ كنتُ لا أفقه ماهية ذلك الشّيء. أفكّر في الشّيء الّذي رآه في عينيّ: هل تراه توقّع ألّا يُشقّ لي غبارٌ بخصوص التّعلّم، ولكنّني سوف أخفق إخفاقًا ذريعًا في الحبّ بسبب سماجتي؟

أتمنّى لو كان في مستطاعي أن أنظر إلى الوراء، وأن أقول إنّني تعلّمتُ كيف أحبّ بقدر ما أحببتُ أن أتعلّم. غير أنّني لو أسرفتُ في الكذب، لكان ثمّة مرجل يغلي من أجلي في الجحيم غدًا. ولكن من ذا الّذي يطمئنني إلى أنّ الغد ليس قريبًا منّي، بعد أن أصبحتُ عجوزًا مثل شجرة بلّوط، ولم يُعهد بي إلى القبر؟

كنّا ستّة: المعلّم والتّلاميذ والفيل الأبيض. وقد شيّدنا كلّ شيء معًا: مساجدَ وجسورًا ومدارسَ وخاناتٍ وملاجئ للفقراء وقنواتٍ للمياه... مرّ زمن طويل ظلّ فيه عقلي منشغلًا بتليين أشدّ الملامح حدّةً، وإذابةِ الذّكريات لتصبح ألمًا سائلًا. وكان من الممكن استدراج الأشكال الّتي تطفو في رأسي كلّما عدت إلى تلك الأيّام للتّخفيف من خطيئة نسيان وجوههم. لكنّني على الرّغم من ذلك أتذكّر الوعود الّتي قطعناها، ولم نتمكّن بعدذاك من الوفاء بها، بكلّ وعد منها. العجب أنّ الوجوه، بما تتّصف به من قوّة ووضوح، تتبخّرُ في حين تمكث الكلمات وهي المصنوعةُ من الأنفاس.

لقد غابت عن الذّاكرة، وجهًا إثر وجه. الله وحده، ولا أحد غيره، يعرف لماذا اندثرتْ وبقيتُ أنا على قيد الحياة إلى أرذل العمر. أفكّر في إسطنبول كلّ يوم. لا بدّ من أنّ النّاس الآن يجتازون صحون المساجد. لا يعرفون ولا يشاهدون، بل يظنّون أنّ المباني المشيّدة من حولهم، إنّما شُيِّدت منذ زمن نوح. لا، ليس صحيحًا، لأنّنا نحن مَن شيّدها: مسلمين

Twitter: @ketab_n

ونصارى وحرفيّين وعبيد سفنٍ وبشرًا وحيوانات، يومًا بعد يوم. غير أنّ إسطنبول مدينةُ النّسيان السّهل: الأشياء فيها تُكتب بالماء، باستثناء كلمات معلّمي المنحوتة في الصّخر.

دفنتُ سرّي تحت صخرة، ومضى وقت طويل على ذلك، ولكن لا بد من أنّه لا يزال في موضعه، منتظرًا مَنْ يكشف عنه. أفكّر إن كان في وسع أيّ شخص أن يعثر عليه، ولكنْ هل في وسع أحد أن يفهمه إذا ما عثر عليه؟ لا أحد يعرف هذا الشّيء، ولكنْ تحت واحد من مئات المباني الّتي شيّدها معلّمي يكمن مركزُ الكون متواريًا عن الأنظار.

أغره[1]، الهند ١٦٣٢

(١) أغره: Agra مدينة في الهند على جمنه بولاية أُتر برادش، عاصمة المغول من عهد أكبر (١٥٤٢ - ١٦٠٥) إلى شاه جَهان (١٥٩٣ ـ ١٦٦٦) وعاصمة الثقافة الإسلامية في الهند. أهم آثارها ضريح تاج محل ـ المترجم).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إسطنبول ٢٢ كانون الأوّل ١٥٧٤

كان الوقت قد تجاوز منتصف اللّيل عندما صكّ سمعَه زعيقٌ هائل صادر من جوف اللّيل البهيم، فأدركه من فوره. فهو صوت صادر عن أكبر هرّ في قصر السّلطان. هرّ نمريّ قزوينيّ، كهرمانيّ العينين وذهبيّ الفراء. جفل في مكانه وهو يفكّر في الشّيء ـ أو الشّخص ـ الذي يمكن أن يكون قد أثار اضطراب البهيمة. لا بدّ من أنّ الكلّ نائم نومًا هانئًا في مثل هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل ـ البشر والحيوانات والجنّ. ففي مدينة التّلال السبع، لا أحد يظلّ يقظًا باستثناء صنفين من النّاس في هذه السّاعة: أولئك الّذين يؤدّون الصلاة، والذين يرتكبون الإثم، فضلًا عن الحرّاس اللّيليّين المنتشَرين في الشوارع.

كان جَهان مستيقظًا أيضًا، منهمكًا في عمله.

وكان معلّمه يكرِّر على مسامعه دومًا:

ـ العمل صلاة لأمثالنا من النّاس، وهو الأسلوب الّذي نتحدّث به إلى الله.

ـ وكان جَهان قد سأله في يومٍ ما، وهو أصغر سنًّا:

ـ ولكن، كيف يردّ علينا؟

ـ بمنحنا عملًا أكثر.

Twitter: @ketab_n

فكّر جَهان في أنّه إذا صدّق ذلك الكلام، فلا بدّ من أنّ معلِّمه يقيم صلة وثيقة بالله لأنّه كان يعمل بجدّ في حرفتين بدلًا من حرفةٍ واحدةٍ، فهو سائس الفيل وواضع التّصاميم. كان يعمل في مهنتين، ولكنْ لم يكن لديه سوى معلِّم واحد يكنّ له الاحترام والإعجاب ويتمنّى سرًّا أن يبزّه. كان معلِّمه هو سنان سيّد المعماريّين الملكيّ.

كان لسنان مئاتُ التّلاميذ وآلافُ العمّال وعدد كبير من المريدين والمساعدين، لكنّه على الرّغم من ذلك كلّه، فإنّه لم يكن لديه سوى أربعة تلاميذ يتدرّبون على يديه. وكان جَهان فخورًا لأنّه كان واحدًا منهم، فخورًا لكنّه كان أيضًا مشوّش الفكر، وكان المعلّم قد اختاره خادمًا بسيطًا ومدرّبَ فيلةٍ متواضعَ الشّأن عندما كان لديه عدد كبير من المبتدئين الموهوبين في مدرسة القصر. وكان إدراكه هذا الأمر مثارَ خشيته من شرٍّ مرتقب بدلًا من أن يعظّم غروره، وراح التّفكير يقضّ مضجعه ويؤرّقه ليلَ نهارَ رغمًا عنه، معتقدًا أنّه سوف يخيِّب ظنّ الشّخص الوحيد الّذي يؤمن به في الحياة.

كان الواجب الأخير الّذي عهد به إليه هو تصميم حمّام، وكانت تعليمات المعلِّم واضحة، وتضمّنتْ: حوضًا رخاميًّا مرتفعًا يُسخّن من الأسفل، وفوّهات في الجدران تسمح بخروج الدّخان، وقبّة مرتكزة على أقواس، وبابين يؤدّيان إلى شارعين متقابلين للحيلولة دون رؤية الرّجال والنّساء بعضهم بعضًا. في تلك اللّيلة المشؤومة، كان جَهان منهمكًا في شغله، جالسًا إلى منضدة خشنة الملمس في سقيفته في مأوى حيوانات السّلطان.

مال إلى الخلف وعقد حاجبيه متفحّصًا التّصميم، فوجده خشنًا وخاليًا من البراعة والانسجام. وكما هو مألوف، فإنّ رسم خريطة الكرة الأرضيّة أسهل من رسم خريطة القبّة. وعلى الرّغم من أنّه تجاوزَ الأربعين ـ وهي السّنّ الّتي أصبح فيها محمّد نبيًّا ـ وهو ماهر في

Twitter: @ketab_n

حرفته، فإنّه كان لا يزال يفضّل حفر الأسس بيديه العاريتين بدلًا من الاضطرار إلى الانشغال بالأقواس والسّقوف. وتمنّى لو أنّ ثمّة وسيلة للاستغناء عنها كلّها، وتمنّى لو أنّ في وسع البشر العيش تحت السّماء، من دون غطاء ولا خوف، يرنون إلى النّجوم وهي تراقبهم، لا يملكون شيئًا يُخْفونه عنها.

شعر بالإحباط وهو يوشك أن يبدأ تخطيطًا جديدًا ـ بعد أن سرق ورقًا من النّاسخين في القصر ـ عندما تناهى إلى سمعه صوتُ الهرّ النّمريّ. تصلّب ظهرُه وانتفختْ ذقنه، وهو يقف ثابت الجنان، مصغيًا. إنّه صوت تحذير، جريء تقشعرّ له الأبدان، موجّه إلى عدوٍّ محذّرًا إيّاه من الاقتراب.

فتح جَهان الباب بهدوء ونظر إلى الظّلمة المحيطة بالمكان. صدرتْ صيحةٌ أخرى، لم تكن مثل الصّيحة الأولى في قوّتها، لكنّها تشبهها في وعيدها. وعلى حين غرّة، انفجرت الحيواناتُ ومرجت. فزعق الببّغاء في الظّلمة، وجأر الخرتيت، وتذمّر الدّبّ في ردّه تذمّرًا غاضبًا. وعلى مقربة، أطلق الأسد زئيرًا سرعان ما تبعه همسُ الفهد. وفي مكان ما إلى الخلف، انبعث صوتٌ متواصلٌ وهائجٌ مصدرُه قوائمُ الأرانب الخلفيّة عندما يشعر بالخوف. أمّا القرود الّتي لا يتجاوز عددها الخمسة، فقد انغمست في الصّياح والصّراخ، وراحت الجياد تصهل وتدور في إسطبلاتها. واستدلّ جَهان وسط الضّجيج على جلبة الفيل الّتي كانت قصيرة وبطيئة، لأنّه كان متردّدًا في الانضمام إلى ذلك الصّخب. شيء ما كان يثير رعب تلك المخلوقات. هنا رمى جَهان العباءة عن كتفيه والتقط المصباح الزّيتيّ وانسلّ إلى الفناء.

كان الهواء منعشًا يختلط بعطرٍ ينبعث من ورود الشّتاء والأعشاب البرّيّة. وما كاد يسير خطوتين إلى الأمام حتّى لاحظ بعض مروِّضي الحيوانات متجمِّعين تحت إحدى الشّجرات يتشاورون ويتهامسون. ولمّا

Twitter: @ketab_n

شاهدوه قادمًا إليهم، رفعوا أبصارهم منتظرين ومترقِّبين، غير أنّ جَهان لم تكن لديه أيّة معلومات، بل كانت لديه أسئلة: ما الّذي يحدث؟

قال مروِّض الزّرافة دارا هلعًا ومتوتّرًا: الحيوانات خائفة.

ردّ جَهان ملمِّحًا: ربّما ثمّة ذئبٌ.

حدث مثل هذا الأمر من قبلُ. قبل سنتين. ففي مساء شتائيّ قارس، هبطت الذّئاب إلى المدينة، وراحت تجول في أحياء اليهود والمسلمين والنّصارى على حدٍّ سواء. وتمكّن عدد قليل منها من التّسلّل إلى وراء البوابات، ولا يعلم إلّا الله كيف تسلّلت، وهاجمت إوزّ السّلطان وبطّه وطواويسه محدثةً جلبةً وصخبًا. وتطلّب الأمر بضعة أيّام متتالية لإزالة الرّيش المضرّج بالدّماء من تحت الأدغال والعوسج. أمّا اليوم، فإنّ المدينة ليست مكسوّة ثلجًا كما أنّ الجوّ ليس شديد البرودة. ومهما كان السّبب الّذي جعل الحيوانات تستشيط غضبًا، فإنّه كانَ منبعثًا من داخل القصر.

قال مروِّض الأسود أوليف ـ وهو رجل ضخم الجثّة، أخرق الشّكل، أشعث الشّعر، شارباه مفتولان: فتّشوا في كلّ ركن.

ما من قرار يُتّخذ في هذا المكان من دون علمه ومعرفته. وكان الخدم كلّهم ينظرون إليه نظرةَ تقديرٍ عالٍ لما يتمتّع به من حماسة وحميَّة وعضلات مفتولة. كما أنّ الإنسان الّذي يأتمر الأسدُ بأوامره جديرٌ بأن يحظى بقليلٍ من إعجاب السّلطان.

توزّعوا هنا وهناك، وراحوا يفتّشون حظائر الحيوانات والإسطبلات والزّرائب وقنّ الدّجاج والأقفاص للتّأكّد من عدم هروب أيّ حيوان. وبدا أن كلّ حيوان من حيوانات القصر الملكيّ في مكانه: الأسود والقرود والضّباع والأيائل المسطّحة القرون والثّعالب والقواقم والوشق والماعز البرّيّ والقطّ البرّيّ والغزلان والسّلاحف العظيمة والنّعام واليأمور والإوز والنّيص والسّحالي والأرانب والأفاعي والتّماسيح

Twitter: @ketab_n

والزّباد والفهد والحمار المخطّط والزّرافة والنّمر والفيل.

عندما ذهب جَهان لرؤية شوتا ـ وهو فيلٌ آسيويٌّ أبيضُ على نحو غير مألوف ويبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا، وطوله ستّة أذرع ـ وجده عصبيّ المزاج، مضطربًا، رافعًا أذنيه مثل شراعينِ في مهبّ الرّيح. ابتسم جَهان للحيوان الّذي كانت عاداته مألوفة لديه تمامًا.

ـ ما خطبك؟ هل تشمّ رائحة الخطر؟

قال جَهان، وهو يربِّت على جنبه ويقدّم له حفنةً من اللّوز الحلو المذاق الّذي كان يحمله دائمًا في زناره.

ولمّا لم يكن شوتا يرفض أيّ طعام يقدّم إليه، فقد مدَّ خرطومَه ووضع اللّوز في فمه وإنْ كانت نظراته مسدّدة إلى البوّابة. مال إلى الأمام واعتمد بكامل ثقله على قائمتيه الأماميّتين المثبتتين على الأرض، وتسمّر في مكانه جاهدًا كي يلتقط صوتًا قادمًا من مكان بعيد.

قال جَهان وإن كان لا يصدِّق ما يقول مثلما لم يصدّقه الفيل: اهدأ! كلّ شيء على ما يرام.

ورأى جَهان في طريق عودته أوليف يتحدّث إلى المروِّضين، حاثًّا إيّاهم على الانصراف: فتّشنا في كلّ ناحية! لا يوجد شيء!

لكنّ أحدهم احتجّ قائلًا: غير أنّ الحيوانات...

وهنا قاطعه أوليف مشيرًا إلى جَهان:

ـ الهنديّ على حقّ. لا بدّ من أنّ ثمّة ذئبًا أو ابن آوى، كما أعتقد. على أيّ حال، لقد ولّى الأدبار. اخلدوا إلى النّوم.

لم يعترض أحد على كلامه، بل أومأوا برؤوسهم وتمتموا بضع كلمات، وعادوا أدراجهم إلى فُرُشِهم المصنوعة من القشّ الّتي كانت المكان الوحيد الّذي يعرفونه آمنًا ودافئًا، رغم خشونته، ووخزه وامتلائه بالبراغيث.

Twitter: @ketab_n

هتف مروِّض التّماسيح كاتو: ألن تأتي يا جَهان؟

ردّ جَهان: بعد لحظة واحدة. ثم اختلس نظرة باتّجاه الفناء الدّاخليّ، حيث سمع من فوره صوتًا غريبًا مكتومًا.

وبدلًا من أن ينعطف شمالًا باتّجاه سقيفة الخشب والحجارة، انعطف يمينًا ناحية الجدران العالية الّتي تفصل بين الفناءين، وسار بتؤدة وحذرٍ كأنّه ينتظر عذرًا من الأعذار كي يغيّر رأيه، ويعود أدراجه إلى رسومه. ولدى وصوله إلى شجرة اللّيلك في أقصى المكان، لمح ظلًّا غريبًا ومعتمًا كأنّه شبح، وكاد يهرب بعيدًا لو لم يلتفت إليه ويكشف له عن وجهه: إنّه تاراس السّيبيريّ الّذي نجا من كلّ الأمراض والكوارث، فعاش هنا عمرًا أطول من عمر أيّ إنسان آخر. رأى سلاطين يذهبون وسلاطين يأتون، ورأى الجبابرة وقد أصابهم الذّلّ والهوان، وشاهد الرّؤوس الّتي كانت تتربّعُ عليها أروع التّيجان وقد تدحرجت في الوحل. وسمع تهكّم الخدم مردّدين: «شيئان اثنان قويّان لا غير وهما تاراس السّيبيريّ وبؤس الحبّ، وما عداهما فزائل».

سأل تاراس: أهذا أنت أيّها الهنديّ؟ هل أيقظتك الحيوانات؟

ردّ جَهان: نعم، وهل سمعت صوتًا قبل قليل؟

أطلق العجوز صوتًا يمكن أن يعبِّر عن نفي أو إيجاب. لكنّ جَهان أردف وعنقه وهو يشرئبّ بعنقه: جاء الصّوت من ذلك المكان.

ثم حدّق إلى الجدار الممتدّ أمامه، وهو كتلة عديمة الشّكل بلون العقيق الّذي امتزج بالظّلمة من دون درزة. وتولّد لديه في تلك اللّحظة الانطباع بأنّ سديم منتصف اللّيل محتشد بالأرواح والأنين والحداد، فاقشعرّ بدنه لهذه الفكرة.

تردّد في الفناء صوت ارتطام شيء مجوّف، أعقبه وقع خطوات وكأنّ حشدًا من النّاس يهرول. وندّت من أعماق القصر صرخة امرأة

Twitter: @ketab_n

فيها من القوّة والعنف ما يجعلها بعيدة من صفة البشر، لكنّها سرعان ما انقلبت إلى نشيج. ومزّقت سكونَ اللّيل صرخةٌ قادمةٌ من ركن آخر، ربّما كانت صدًى للصّرخة الأولى. وعلى حين غرّة، خيّم الهدوء والسّكون كأنّ شيئًا لم يكن. هنا اتّجه جَهان بدافع غريزيّ إلى الجدار الماثل أمامه.

همس تاراس وعيناه تومضان بالفزع: إلى أين أنت ذاهب؟ ممنوع!

قال جَهان: أريد أن أعرف ما يحدث.

قال العجوز: ابتعد.

فتردّد جَهان وإن لبرهة وجيزة، وأضاف: سأُلقي نظرة وأعود سريعًا.

قال تاراس وقد ندّت عنه حسرة: ليتك لا تذهب، ولكنّك عنيد. تأكّد من عدم الابتعاد من الحديقة وظهرك إلى الجدار. هل سمعتني؟

ـ لا تقلق. سوف أسرع وأحترس.

ـ سوف أنتظرك، ولن أخلد إلى النّوم حتّى تعود.

ابتسم جَهان ابتسامة شيطانيّة وقال:

ـ أتمنّى ألّا تنتظر، لكنّك عنيد!

كان جَهان قد اشتغل حديثًا برفقة معلّمه في ترميم المطابخ الملكيّة، وعمل الاثنان معًا في توسعة أجزاء من جناح الحريم ـ وتلك ضرورة أملاها ازدياد النّساء زيادة ملحوظة في الأعوام الأخيرة. وعمد العمّال إلى إيجاد طريق مختصر بفتح منفذ في الجدران كي لا يلجأوا إلى استخدام البوّابة الرّئيسيّة. وعندما تأخرّت إرساليّة الآجر، اضطرّوا لغلق المنفذ بالطّين وبآجر غير مشويّ.

نقر جَهان على الجدران وهو يمشي الهوينا حاملًا مصباحًا في يد، وعصا في الأخرى. ولم يسمع في برهة وجيزة سوى الصوت الخفيض نفسه وهو ينبعث مرارًا وتكرارًا. ثمّ سمع صوتًا أجوف، فتوقّف، وجثا

Twitter: @ketab_n

على ركبتيه ودفع الآجر في الأسفل بكلّ ما لديه من قوّة، فوجده عصيًّا عليه أوّل الأمر، لكنّه ارتخى في نهاية المطاف. ترك المصباح خلفه عازمًا على أن يحمله في طريق عودته، وزحف داخل المنفذ المؤدِّي إلى الفناء الآخر.

كان ضوء القمر قد أسبغ وهجًا غريبًا على حديقة الورود الّتي باتت اليوم مقبرة ورود، حيث الأعشاب والأدغال الّتي كانت تحفّ بها الألوان الحمر والورديّة والصّفر البرّاقة على امتداد فصل الرّبيع، أضحت اليوم ذابلة وبرّاقة ومنتشرة مثل بحر فضّيّ. كان قلبه يدقّ دقّات عنيفة وعالية جعلته يخشى أن يسمعها أحد. وسرت في جسده قشعريرة عندما تذكّر حكايات تدور عن خصيان سُمموا ومحظيّات خُنقن ووزراء قُطعت رؤوسهم وأكياس رُميت في مياه البوسفور وما تزال محتوياتها تصارع من أجل البقاء في قيد الحياة. تجد في هذه المدينة بضع مقابر منتشرة على التّلال، أما البقيّة فعلى عمق مئة قامة(١) تحت سطح البحر.

أمامه نبتة دائمة الخضرة، لها مئات الامتدادات والأشرطة والملحقات المتدلِّية من أطرافها ـ إنها شجرة الأمنيات. وكلّما كان لمحظيّة أو لجارية في جناح الحريم سرّ لا يعلم به أحد إلّا الله، كان في وسعها إقناع خصيّ بالمجيء إلى هذا المكان ومعه حلية صغيرة من مقتنياتها، تربطها بأحد الأغصان بجانب حلية أخرى لافتة للنّظر. ولمّا كانت تطلّعات امرأة ما تصطدم في أغلب الأحيان بتطلّعات امرأة أخرى، فإنَّ الشجرة تتكدّر بتلك الرغبات المتصارعة والادعية المتطاحنة. ومع هذا، وفي هذه الآونة، بدت الشّجرة تنعم بالهدوء في وقت راح النّسيم يداعب أغصانها ويخلط بين الرّغبات. الحقّ أنّها كانت في هدوء تامٍّ لم يتمكّن معه جَهان من السّير نحوها على الرّغم من أنّه

---

(١) قامة Fathom: مقياس لعمق المياه يساوي ستّة أقدام (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أكّد لتاراس أنّه لن يصل إلى ذلك الحدّ.

لم تكن تفصله عن المبنى الحجريّ المشيّد في الخلف، أكثر من ثلاثين خطوة، فعمد إلى الاختباء خلف جذع شجرة الأمنيات وراح يختلس النّظرات من حوله في بطء شديد. لكنّه توقّف، ولم يجرؤ على النّظر من جديد.

ثمّة مجموعة من الصّمّ البكم يهرولون يمينًا وشمالًا، ويتنقّلون من مدخل إلى آخر. وكان عدد منهم يحمل ما يشبه الأكياس، وكانت المشاعل بأيديهم تترك أثرًا بنيًّا مصفرًّا في الهواء، وفي كلٍّ مرَّة يلتقي فيها مشعلان، تبدو الظلال وقد ازدادت طولًا على الجدران.

لم يفقه جَهان معنى المشهد، فما كان منه إلّا أن أسرع في الجري ناحية الجهة الخلفيّة من المبنى، متنشّقًا رائحة التّربة النّفّاذة، خطواته الواسعة غير محسوسة كالهواء الّذي كان يتنشّقه. دار نصف دورة، فوصل إلى الباب في الطّرف الأقصى، فلاحظ مستغربًا حين رآه بلا حراسة! فما كان منه إلّا أن دلف إلى الداخل من دون تفكير، إذْ لو فكّر في ما أقدم عليه لأدرك أنه سوف يصاب بالشّلل.

كان المكان في الدّاخل رطبًا وباردًا. تحسّس طريقه في العتمة، وواصل سيره على الرّغم من أنّ مؤخِّر رقبته راح يوخزه، ووقف شعر رأسه. فات الأوان على النّدم، إذْ لا سبيل إلى العودة من حيث أتى، ولم يعد في وسعه إلّا المضي قدمًا، فزحف إلى حجرة باهتة الضياء، محاذيًا الجدران، مبهور الأنفاس. جال ببصره حوله، فشاهد طاولات مصنوعة من عِرق اللّؤلؤ، على كل واحدة منها أوانٍ زجاجيّة، وآرائك مزوَّدة بوسائدَ وإطارات مرايا منقوشة ومذهّبة وسجّادًا يتدلّى من السّقف. أمّا الأرض، فكانت عليها تلك الأكياس المنتفخة.

اختلس جَهان نظرة ليتأكّد من عدم مجيء أحد، وسار متمهّلًا إلى

Twitter: @ketab_n

الأمام، فإذا به يرى مشهدًا جعل الدّم يتجمّد في عروقه. شاهد يدًا شاحبة ومرتجفة، على رخام بارد وتحت قطعة قماش كأنّها طائر ميت. في هذه الأثناء، شعر جَهان بقوّة خارجيّة تدفعه إلى فتح أكياس الخيش، واحدًا تلو الآخر، إلى منتصفها. فرمشت عيناه واضطرب، رافضًا أن يعترف بما استوعبه قلبه. كانت اليد متّصلة بذراع، والذّراع متّصلة بجذع بشريّ صغير الحجم، ليست أكياسًا، لا، ليست أكياسًا أبدًا، بل جثث. جثث أطفال.

أربع جثث لأطفال ذكور، أحدهم مسجًّى إلى جانب الآخر، الجثّة الأطول فالأقصر. أكبر الجثث لصبيّ مراهق، والأصغر لطفل رضيع. أزياؤهم الملكيّة مرتّبة ترتيبًا يحافظ على هيبة الأمراء وهم في موتهم. ارتكزت نظرة جَهان على أقرب الجثث، وهي جثة صبيّ أبيض البشرة، متورِّد الوجنتين، وحملق في خطوط كفّه: خطوط منحنية ومائلة يتداخل أحدها بالآخر، كأنّها علامات على الرّمل.

وسأل جَهان نفسه: أيّ عرّاف في هذه المدينة تنبّأ بمثل هذا الموت المفاجئ والحزين لأمراء من أصل عريق، وذوي حسب ونسب؟

بدوا هادئين مطمئنّين، ومشرقين، كأنّ ثمّة نورًا يتوهّج في أعماقهم، ما جعل جَهان يعتقد أنّهم لم ينتقلوا إلى جوار ربّهم، لا، حقًّا، بل توقّفوا عن الحركة، توقّفوا عن الكلام، وانقلبوا إلى شيء ما يتجاوز حدود فهمه وإدراكه، إلى شيء ما هم وحدهم الّذين يعرفون ماهيته، لهذا كانت وجوههم توحي بابتسامة.

وقف جَهان في مكانه مرتعش اليدين، مرتجف السّاقين، لا يقوى على الحركة. ولم ينتزعه من وهدة الاضطراب والحيرة سوى سماعه صوت وقع أقدام يقترب منه، ولم يتمكّن إلا بعد جهد جهيد من أن يستجمع قوّته، ويجد الوقت الكافي ليغطّي الموتى ليندفع بعدئذٍ إلى أحد الأركان، ويتوارى عن الأنظار وراء سجّادة من نسيج صوفيّ مطرّز تتدلّى

Twitter: @ketab_n

من السّقف إلى الأرض. وبعد لحظة واحدة، دخل الصّمّ البكم الحجرة حاملين جثّة أخرى ووضعوها بجانب بقيّة الجثث بحيطة وحذر.

في تلك اللّحظة، تنبّه أحدهم إلى أن قطعة القماش الّتي تغطّي الجثّة البعيدة منه قد انزلقت من موضعها، فما كان منه إلّا ان اقترب وجال ببصره حوله قبل أن يشير إلى رفاقه لأنّه لم يكن متأكدًا ما إذا كانوا هم الّذين تركوها في ذلك الوضع، أم أنّ شخصًا ما تسلّل إلى الحجرة بعد أن كانوا غادروها. توقّفوا جميعًا، وراحوا يفتّشون في أرجاء الحجرة.

كان جَهان مبهور الأنفاس، يرتعد خوفًا وهو وحيد في ركنه، لا يفصله عن القتلة سوى حاجز مهلهل من القماش. فكّر في نفسه: هكذا هي الأمور إذًا، وضاعت مساعيه أدراج الرّياح، وذهبت حياته سدًى. أكاذيب وخيانات لا عدَّ لها ولا حصر أوصلته إلى ما وصل إليه. وتذكّر، ويا للغرابة، المصباح الّذي تركه قرب سور الحديقة يومض في مهب الرّيح، وشعر بالحزن! ترقرقت عيناه بالدّموع عندما فكّر في فيله وفي معلِّمه: لا بدّ أنّهما يغطّان في سباتٍ عميق الآن. ثمّ فكَّر في المرأة الّتي كان يهواها. ففي الوقت الّذي ترقد فيه رفقة الأخريات، تراودهنَّ الأحلام في أمن وسلام، فإنَّه سوف يُقتل لأنّه جاء إلى مكان لا يُفترض به أن يأتي إليه، ولأنَّه رأى ما لا ينبغي أن يراه. كلّ هذا بسبب فضوله، هذا الفضول الوقح الّذي لا يكبح جماحه، والّذي جعل حياته ملأى بالمتاعب. ولعن نفسه سرًّا، وفكّر في أنّ بلاطة قبره ينبغي أن تكتب عليها الأبيات الآتية بحروف جميلة:

هنا يرقد إنسان طغى فضوله على طيبته،

مروِّض حيوانات وتلميذ معمار.

صلّوا من أجل روحه السّاذجة.

وا أسفاه! ليس ثمّة من ينقل هذه الأمنية الأخيرة إليه.

Twitter: @ketab_n

في ذلك المساء، وفي منزل يقع في الجانب الآخر من إسطنبول، كانت مسؤولة الخدم مستيقظة، تتدلّى من يدها سبحة، وهي تسبّح بها، متغضّنة الوجه مثل الزّبيب اليابس، محدودبة الظّهر، ضعيفة القوام، وهن بصرها مع تقدُّمها في السّنّ. وعلى الرغم من هذا، فإنّ بصرها حديد ما دامت قابعة في حدود منزل المعلّم، تعرف كلّ زاوية وصدع، وكلّ مفصّلة باب، وكلّ سلّم في حاجة إلى إصلاح... ما من أحد تحت هذا السّقف يعرف البيت معرفة حسنة كما تعرف هي، لا أحد مثلها يكنّ الاحترام والإخلاص لربّ البيت وسيّده. كانت متأكّدة من هذا تمامًا.

كلّ شيء هادئ في الجوار، باستثناء ذلك الشّخير المنبعث من أماكن سكن الخدم. وكانت بين حين وآخر تُسمع صوت أنفاس ضعيفة لا يكاد أحد يحسّ بها قادمة من وراء باب المكتبة المغلق. كان سنان ينام في ذلك المكان بعد أن يكون قد اشتغل حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل. وكان من مألوف عادته أن ينفق الأماسي برفقة أسرته، قبل أن يلوذ بجناح الحريم قبيل العشاء حيث تقيم زوجته وبناته، وهو الجناح الّذي لا يملك أيّ تلميذ الجرأة على انتهاكه. لكنّ سنان كان في هذه اللّيلة، كما هو شأنه في عديد اللّيالي الماضية، قد عاد إلى رسومه بعد

Twitter: @ketab_n

أن أفطر، وخلد إلى النّوم وسط كتبه وأوراقه، في الحجرة الّتي كانت تستقبل أشعّة الشّمس قبل بقيّة أرجاء المنزل الرّحبة. وكانت مسؤولة الخدم قد أعدَّت له فراشه، وهو فراش يتكوّن من حصيرة مفروشة على السّجّادة.

كان يشتغل أكثر ممّا ينبغي، رغم أنّه في سنّ الخامسة والثّمانين، وعلى من كان في مثل سنّه أن يخلد للرّاحة، ويأكل طعامًا جيّدًا ويؤدّي صلاته، وأن يكون محاطًا بأولاده وأحفاده. أمّا ما تبقّى من قوّته الجسديّة، فينبغي له أن يوفِّره من أجل الذّهاب إلى الحجّ في مكّة. وإذا انتقل إلى جوار ربّه وهو في طريقه إلى هناك، فذلك أفضل لروحه. لماذا لا يستعدّ المعلّم للحياة الآخرة؟ وإذا كان مستعدًّا لها، فما الّذي يفعله إذًا في مواقع البناء الّتي تجعل قفطانه الجميل وسخًا ومغبّرًا؟ مسؤولة الخدم لم تكن غاضبة بسبب عدم اهتمام المعلّم بصحّته فحسب، بل كانت غاضبة من السّلطان ومن كلّ وزير كان يدفع بالرّجل إلى مثل هذا العمل الشّاقّ. ولم تستطع كظم غيظها من تلاميذ سنان، لأنّهم لم يبذلوا أيّ جهد لتخفيف العبء الإضافيّ الملقى على عاتق معلِّمهم. صبيان كسالى! لقد تجاوزوا مرحلة الصّبا. وكانت تعرف أربعتهم منذ أن كانوا مبتدئين لا يفقهون شيئًا. نيقولا أكثرهم موهبة وأشدّهم جبنًا، داؤود الجادّ والتّوّاق إلى التعلُّم لكنّه قليل الصبر، يوسف الصامت المليء بالأسرار مثل غابة كثيفة لا يمكن اختراقها وجَهان ذلك الهنديّ الذي لا يتوقّف عن طرح الأسئلة: لماذا هو هكذا؟ كيف يفعل هذا الشّيء؟ لكنّه نادرًا ما كان يصغي إلى أيّ إجابة.

حدَّقت مسؤولة الخدم متأمِّلة في صلاتها إلى أعماق عينيها، ارتخت سبابتها وإبهامها وإصبعها الوسطى الّتي كانت تدفع خرز السّبّحة الكهرمانيّة اللّون، كما تباطأت تمتماتها «الحمد لله» «الحمد لله». وتهدّل رأسها وفغرت فاها وأطلقت شهقة.

Twitter: @ketab_n

وبعد مرور لحظة أو ساعة، إذْ لم تكن متأكّدة من الوقت، استيقظت إثر سماعها ضوضاء على بعد مسافة. إنّها ضوضاء سببها وقع حوافر خيل ودوران عجلات على حصى الشّارع. ثمّة عربة تسير بسرعة فائقة، وهي متّجهة إلى ناحيتهم بفعل الصّوت الصّادر عنها. هل ينبغي للعربة أن تنعطف من حول الناصية؟ لا يمكن أن تكون قادمة إلّا إليهم، لا إلى أحد سواهم. وسرت في جسدها قشعريرة بعد أن ارتعدت فزعًا.

تمتمت بدعاء لطرد الأرواح الشّرّيرة ونهضت واقفة في خفّة رغم سنوات عمرها، وهبطت السّلالم وهي تخطو خطوات قصيرة مترنّحة، وسارت على امتداد الممرّات وخرجت إلى الصحن. كانت الحديقة تملأ قلب كلّ زائر غبطة وسرورًا لما يراه فيها من جوانب مرتفعة وبركة مياه، وأريج روائح هي من أعذب ما يكون. كان المعلّم قد صنعها بنفسه، ونقل المياه إلى المنزل بإذن خاصٍّ من السلطان. وبهذا، أثار غيرة أعدائه وامتعاضهم. كان دولاب الماء يدور هادئًا، يؤكّد لها خرير مائه تنبّؤًا طالما كانت الحياة تفتقر إليه.

كان القمر من فوقها منجلًا فضّيًّا، متواريًا وراء سحابة. وفي لحظة عابرة، امتزجت الأرض والسماء بلون رماديّ داكن. وفي أسفل الممرّ إلى يمينها، ثمّة أيكة منحدرة الجانب، وعلى مسافة بعيدة منها بستان زُرعت فيه الأعشاب والخضراوات. إلّا أنّها سلكت دربًا آخر، يؤدّي بها إلى أعلى نحو الفناء. في أحد الجانبين ثمّة بئر، ماؤها بارد برودة الثلج، صيفًا شتاءً. وفي الجهة الثانية تنتشر مجموعة من بيوت الخلاء، فتجنبّت المرور من أمامها كما هو دأبها على الدّوام، إذْ كانت تعتقد أن الجانّ يعقدون زواجهم فيها وكل من يزعجهم في ظلمة اللّيل يصاب بالشّلل إلى يوم الدّينونة. ولهذه اللّعنة من القوّة ما يجعلها تتطلّب سبعة أجيال كي تزول. ولمّا كانت تكره استعمال «النّونيّة» أكثر من اللّجوء إلى بيوت الخلاء ليلًا، فقد كانت تتوقّف العجوز بعد غروب الشّمس عن

Twitter: @ketab_n

تناول الطّعام والشّراب، كي لا تكون تحت رحمة جسدها.

وصلت إلى البوّابة المؤدّية إلى الشّارع مذهولة مرتبكة، إذْ كانت لا ترجو خيرًا من ثلاثة أشياء في هذه الحياة: رجل باع نفسه للشّيطان، والمرأة المختالة بجمالها، والخبر الّذي لا يمكنه الانتظار حتّى الصّباح كي يتمّ نقله.

بعد وقت قصير، توقّفت العربة في الجانب الآخر من السّور العالي. صهل جواد وانساب إلى السّمع صوتُ وقع أقدام ثقيلة. شمّت مسؤولة الخدم رائحة عرق تنبعث في الجوّ، لكنّها لم تعرف ما إذا كانت صادرة عن الحيوان أو الرّسول. ولم تكن في عجالة من أمرها كي تعرف هذه العجوز هويّة هذا الدّخيل. كانت في أوّل الأمر بحاجة إلى أن تقرأ سورة الفلق سبع مرّات:

قُل أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ(١) مِن شَرِ مَا خَلَقَ(٢) وَمِن شَرِ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(٣) وَمِن شَرّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَد[1].

في هذه الأثناء، كان الرّسول يطرق الباب، طرقًا مؤدّبًا، وإن كان متّصلًا. طرقًا من النّمط الّذي يتصاعد فيصبح عنيفًا إذا لم يردّ أحد في الوقت المناسب ـ والحقّ أنّه سرعان ما تحوّل طرقًا عنيفًا.

هرع الخدم الّذين استيقظوا لتوّهم ناحية الحديقة واحدًا في أثر الآخر، حاملين المصابيح وهم يرمون بأوشحتهم من فوق أرديتهم. ولم تستطع مسؤولة الخدم الانتظار أكثر ممّا انتظرت، فنطقت بالبسملة وفتحت الباب.

ظهر رجل غريب الشّكل في الوقت الّذي انسلّ فيه القمر من وراء السّحب، وكان قصير القامة، ممتلئ الجسم، وتبيّن من شكل عينيه أنّه من التّتار. وكان يحمل جرابًا من الجلد معلّقًا على كتفه، وكان مزدهيًا

---

(١) هكذا أوردت المؤلّفة السّورة من دون إكمالها (المترجم).

Twitter: @ketab_n

في وقفته. قطّب حاجبيه، ولم يُخفِ انزعاجه عندما شاهد هذا العدد الكبير من النّاس يراقبونه.

أعلن بصوت عالٍ على نحو غير ضروريّ:

ـ جئت من القصر.

كان الصّمت المطبق الّذي أعقب كلامه يوحي بكلّ شيء سوى التّرحيب.

قال الرّسول:

ـ إنّني مضطرٌّ لأن أكلّم المعلّم.

اعتدل في وقفته، وكاد يدخل عندما رفعت مسؤولة الخدم يدها عاليًا وأوقفته.

ـ هلّا قدّمت رجلك اليُمنى وأنت تدخل.

ـ ماذا؟

ـ إذا أردت دخول هذا المكان، فينبغي لك أن تقدّم رجلك اليّمنى أوّلًا.

ألقى نظرة إلى قدميه كأنّه يخشى أن تفلتا منه، ثمّ خطا خطوة حذرة. وعندما أصبح في الدّاخل، أعلن أن السّلطان نفسه هو الّذي أرسله في مهمّة عاجلة، على رغم أنّه لم يكن مضطرًّا للتّفوّه بمثل هذا الكلام، لأنّهم كانوا كلّهم قد فهموا الموضوع. وأضاف:

ـ جئت لأصطحب سيّد المعماريّين.

ارتجفت مسؤولة الخدم وامتقع وجهها، فتنحنحت وغصّت بالكلمات الّتي تجمّعت في فمها، ولم تطق التفوُّه بها. كانت تفضّل أن تخبر هذا الرّجل بأنّها لا تستطيع إزعاج سيّدها الّذي لم يمضِ على خلوده إلى النّوم سوى وقت قصير، لكنّها لم تقل شيئًا من هذا الكلام، بل تمتمت:

Twitter: @ketab_n

ـ انتظر هنا.

التفتت إلى الجانب، عيناها تحدّقان في الخواء، وقالت مخاطبة أحد الغلمان وكان حاضرًا، كما تعلم، لأنّ رائحة الدّهون والحلوى كانت تنبعث منه بعد أن يلقمها بفمه خفيةً:

ـ رافقني يا حسن.

انطلقا، تتقدّمه في الطّريق وهو يتبعها حاملًا مصباحًا. كانت الأرضيّة تصدر صريرًا من تحت أقدامهما، فابتسمت، إذْ إنّ المعلّم شيَّد أبنية رائعة في كلّ مكان، قريبًا وبعيدًا، لكنّه نسي إصلاح الأرضيّة في منزله الشّخصيّ.

وعندما دخلا المكتبة، أحاطت بهما رائحة عطرة، روائح الكتب والحبر والجلد وشمع النّحل والسّبّحات المصنوعة من خشب الأرز، والرّفوف المصنوعة من خشب الجوز.

همست مسؤولة الخدم بصوت ناعم مثل الحرير:

ـ استيقظ أيّها الأفندي.

تسمّرت في مكانها مصغية لصوت أنفاس سيّدها وصدره يعلو ويهبط. نادته من جديد، بصوت أعلى من المرّة الأولى، لكنّه لم يتحرّك.

في هذه الأثناء، راح الغلام ينظر نظرة فاحصة إلى المعلّم، وهو الّذي لم يكن يومًا ما قريبًا منه كهذا اليوم: الأنف الطّويل المقوّس، والجبين العريض المتغضّن بغضون غائرة عميقًا، واللّحية الكثّة البيضاء الّتي كان يشدّها في قلق عندما يستغرق في التّفكير، والنّدبة الواضحة على حاجبه الشّماليّ، وهي تذكار يرجع إلى أيّام صباه عندما كان يعمل في محلّ نجارة والده وسقط على قطعة خشب. وانتقلت نظراته إلى يديّ المعلّم اللّتين كانتا يديّ رجل اعتاد العمل في الهواء الطّلق نظرًا إلى ما

Twitter: @ketab_n

تتّصفان به من أصابع قويّة ونحيفة وكفّين خشنتين متصلّبتين.

بعد أن نادت مسؤولة الخدم عليه للمرّة الثّالثة، فتح عينيه وجلس في فراشه، وسقط ظلٌّ على ملامحه عندما شاهد الشّخصين الواقفين بجانبه. كان يعلم أنّهما لا يملكان الجرأة على إيقاظه من نومه في مثل هذه السّاعة ما لم تكن قد حدثت مصيبة، أو أنّ المدينة أتت عليها النّيران وأحرقتها تمامًا.

قالت مسؤولة الخدم موضّحة:

ـ وصل رسول، وهم ينتظرونك في القصر.

نهض سنان ببطء من فوق فراشه، وقال:

ـ خيرٌ إن شاء الله.

مدّ الغلام يده بطاس وراح يصبّ الماء من دورق مزهوًّا، وساعد سيّده في غسل وجهه وارتداء ثيابه، وهي عبارة عن قميص باهت اللّون وقفطان قديم، بنّيّ اللّون، سميك ومكسوٌّ بطبقةٍ من الفرو، ثمّ هبط الثّلاثة السّلالم.

انحنى الرّسول عندما شاهدهم قادمين، وقال:

ـ أعتذر لإزعاجك أيّها الأفندي، ولكن لديّ أوامر بمرافقتك إلى القصر.

قال سنان:

ـ ليس على المرء إلّا أن ينفّذ الواجب الملقى على عاتقه.

قاطعته مسؤولة الخدم بقولها:

ـ هلّا رافق الغلام المعلّم؟

رفع الرّسول حاجبيه، وحدّق مباشرة إلى سنان، وقال:

ـ تلقّيت تعليمات بأن أحضرك أنت وحدك ولا أحدَ سواك.

شعرت مسؤولة الخدم بغضب مرير، وكان في وسعها أن تردّ لو لم يضع سنان يدًا مهدّئة على كتفها ويقول:

Twitter: @ketab_n

ـ سيكون كلّ شيء على ما يرام.

خرج المعمار والرّسول تحت جنح الظّلام. لم يكن ثمّة مخلوق على مرمى البصر، ولا حتّى أي سائب من تلك الكلاب الّتي تعجّ بها المدينة. وبعد أن اتّخذ سنان مكانه في العربة، أغلق الرّسول الباب وقفز على رجل واحدة، وجلس على المقعد بجانب الحوذيّ الّذي لم ينطق بكلمة. ترنّحت الجياد، لكنّها سرعان ما انطلقت مسرعة وسط الشّوارع المغبّرة، تنطّ إلى أعلى وإلى أسفل.

فتح سنان السّتائر جانبًا، وحدّق إلى الخارج في محاولة منه لإخفاء ضيقه. وبينما كانت العربة تشقّ طريقها في شوارع متعرّجة وتمرّ تحت أغصان مائلة من ثقل الأحزان، فكّر في النّاس الرّاقدين في بيوتهم، الأغنياء في قصورهم والفقراء في أكواخهم.

ومرّوا بالحيّ اليهوديّ والحيّ الأرمنيّ وأحياء اليونانيين وسكّان البلاد الواقعة في منطقة الشّرق الأوسط. وشاهد سنان الكنائس التي لم يكن يسمح لأيّ واحدة منها أن تكون ذات أجراس، والمعابد اليهوديّة ذات الباحات المربّعة الشّكل، والمساجد ذات السّطوح المشيّدة بالرّصاص، والبيوت المشيّدة بالخشب والآجر المصنوع من الطّين والمائل بعضها على بعض كأنّها تنشد السّلوى. وكانت لعامّة النّاس أيضًا بيوت مبنيّة بالآجر المشويّ الرّخيص. وفكّر للمرّة الألف، وتساءل: كيف يمكن لمدينةٍ تتمتّع بمثل هذا الجمال الباهر أن تكون محتشدة ببيوت مبنيّة بناءً بائسًا؟

وصلوا إلى القصر في نهاية المطاف، وتوقّفت العربة في نهاية الفناء الأوّل، فأسرع سعاة القصر إليها لمدّ يد العون، وكانوا خفيفي الحركة، وأصحاب خبرة وتجربة في مثل هذا العمل. اتّجه سنان والرّسول ناحية البوّابة الوسطى الّتي لا يدخل منها أحد سوى السّلطان نفسه ممتطيًا صهوة جواده، وسارا من أمام نافورة مياه مشيّدة بالرّخام، وكانت تتلألأ

Twitter: @ketab_n

وسط الظّلام مثل كائن من عالم آخر. وكان السّرادق المطلّ على البحر يلوح للنّاظر من مكان بعيد في الأفق ويبدو مثل عملاق واجم، عبوس. كان سنان يعرف المكان معرفة جيّدة، فهو الّذي عمل مؤخّرًا على توسعة أجزاء من جناح الحريم وتجديد المطابخ الملكيّة. وعلى حين غرّة، توقّف عن السّير عندما شاهد عينين تنظران إليه من جوف الظّلام. إنّهما عينا غزال، واسعتان وصافيتان وجميلتان. ثمّة عدد آخر من الحيوانات في الجوار ـ طواويس وسلاحف ونعام وظباء. وكانت كلّها مستيقظة ومذعورة لسبب لم يستطع فهمه.

كان الهواء باردًا ومنعشًا مضمّخًا بعطر الآس والخريف وإكليل الجبل. كانت السّماء قد أمطرت في وقت مبكر من مساء ذلك اليوم، فتداعى العشب تحت أقدامهما. تنحّى الحرّاس جانبًا ليفسحوا لهما الطّريق للمرور إلى أن وصلا أخيرًا إلى مبنًى حجريٍّ عظيم الشّكل، بلون سحب العواصف. واجتازا ردهة مضاءة بشموع مصنوعة من شحوم الحيوانات، ترتعش تحت تيّار الهواء. وبعد أن مرّا بحجرتين أخريين، توقّفا في الحجرة الثّالثة. ولدى وصولهما إليها، اعتذر الرّسول من سنان وتوارى عن الأنظار. وهنا ضيّق سنان جفنيه كي تعتاد عيناه رحابة المكان، فلاحظ أن كلّ دورة وكلّ وسادة وكل زخرفة تلقي ظلالًا قابضة للصّدر، تتلوّى وتلتفّ على الجدران، كأنّها توّاقة لكي تخبره بشيء ما.

كان الضوء في الجهة المقابلة مريحًا للنّظر، وعندما شاهد سنان الأكياس على الأرض انتابته قشعريرة، إذْ استطاع أن يشاهد من فتحة صغيرة وجه جثّة، فغارت كتفاه واغرورقت عيناه بالدّمع، عندما لاحظ أنّ الجثّة لصبيّ صغير السّنّ. وفهم كلّ شيء. فقد انتشرت إشاعات مفادها أن هذا الأمر سوف يحدث، وإن كان رفض أن يصدّقها. أصيب بالذّهول وانتابه الهلع وهالته الصّدمة، فمال إلى الجدار، وراح يتمتم بدعاء، كلماته الّتي عثر عليها انسابت ببطء، لكنّها كانت متقطّعة لأنّه

Twitter: @ketab_n

كان يشهق في كلّ مرّة ضاقت فيها أنفاسه.

لم يكن قد تفوّه بكلمة «آمين»، ولم يكن قد مسح وجهه بيديه عندما صكّ سمعه صوت صرير من ورائه. وبعد أن أنهى دعاءه، حدّق إلى السجادة المعلّقة على الجدار لأنّه كان متأكّدًا من أنّ الصّوت انبعث من جهتها. كان فمه يابسًا كالطبشور، وهو يتوجّه إلى السجّادة وجذبها جانبًا فقط ليجد أمامه شخصًا مألوف الوجه يرتعش، ممتقع الوجه من شدّة الخوف.

ـ جَهان؟!

ـ مولاي المعلِّم؟!

ـ ماذا تفعل هنا؟

وثب جَهان من مكانه وتوجّه بالشكر والثّناء لحظّه السعيد ـ الحظّ الّذي لم يرسل إليه الصّمّ البكم ليكتموا أنفاسه، بل أرسل إليه الشخص الوحيد في العالم كلّه الّذي يمكنه أن يأتي لإنقاذه، فجثا على ركبتيه وقبّل يد العجوز ووضعها على جبينه، وقال له:

ـ أنت ملاك أيّها المعلِّم. كنت أرتاب في ذلك، ولكنّني أعرف الآن. فلو خرجت من هذا المكان حيًّا، فسوف أخبر النّاس أجمعين.

ـ صه! كفاك سخفًا، ولا تصرخ. كيف دخلت هذا المكان؟

لم يكن ثمّة وقت لتوضيح كلّ ما حدث، إذْ تناهى إلى أسماعهما صوت وقع أقدام ثقيلة على امتداد الممرّ، يتردّد صداه في السّقوف العالية والجدران المزخرفة. نهض جَهان على قدميه واقترب من معلِّمه آملًا بأن يتوارى عن الأنظار. وفي اللّحظة التالية، دخل مراد الثّالث[١]

(١) مراد الثّالث (١٥٤٦ ـ ١٥٩٥): سلطان عثماني ١٥٧٤. ابن السلطان سليم الثاني: انتصر على الفرس ١٥٧٦، واحتل جورجيا. قضى على الأمير قرقماز في لبنان ١٥٨٤. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الحجرة ومن ورائه بطانته. لم يكن السّلطان طويل القامة، بل كان بدينًا، أقنى الأنف، طويل اللحية، شقراء اللون إلى حدٍّ ما، بنيّ العينين جريئهما تحت حاجبين مقوسّين. توقّف وفكّر في النّبرة الّتي سوف يستخدمها: اللّينة أو الخشنة أو الغليظة جدًّا.

سرعان ما لملم سنان شجاعته المبعثرة، واستعاد رباطة جأشه، وقبّل طرف قفطان السّلطان. أمّا تلميذه، فقد انحنى انحناءة كبيرة وتسمّر في مكانه لا يستطيع أن يرفع بصره إلى ظلّ الله على الأرض. ولم يذهل جَهان كثيرًا بالسّلطان نفسه، بقدر ما ذهل واحتار عندما وجد نفسه في حضرة جلالته، بعد أن أصبح سلطانًا على أثر تعثّر أبيه السّلطان سليم السكّير من فوق بلاطة رخاميّة مبلّلة في الحمام وانتقل إلى جوار ربّه مسطولًا من شدّة السّكر، كما تقول الإشاعات، وإن كان قد تاب عن تصرّفاته، وأقسم على ألّا يقترب من الخمرة ثانية. وقبيل غروب الشّمس بوقت قصير، وفي خضمّ المديح والتّملّق والألعاب النّاريّة، وقرع الطّبول ونفخ الأبواق، قُلّد مراد بسيف جدّه عثمان ونُصّب ملكًا جديدًا.

أمّا خارج القصر، وعلى مسافة بعيدة، تنهّد البحر وتحسَّر. وانتظر جَهان من دون أن يتجرّأ على الإتيان بأيّ حركة. كان هادئًا هدوء القبر، يتفصّد جبينه عرقًا. وأصغى إلى الصّمت الّذي أثقل كاهله، وقرَّب شفتيه من الأرض حتّى كاد أن يقبّلها مثل عاشق بارد.

وبعد أن اختلس السّلطان نظرة سريعة على الأكياس المرميّة على الأرض، سأل:

ـ من الّذي جاء بالجثث إلى هنا؟ ألا تخجلون؟

فما كان من أحد التّابعين إلّا أن ردّ من فوره:

ـ عفوًا سيّدي، ظننّا أنّك ترغب في إلقاء نظرة أخرى عليها، وسوف ننقلها إلى مستودع الجثث، ونتأكّد من أنّها سوف تلقى كلّ

Twitter: @ketab_n

الاحترام الجدير بها.

لم يقل السّلطان شيئًا، بل التفت إلى الشّخصين الجاثيين على ركبتيهما أمامه وسأل:

ـ هل هذا أحد تلاميذك أيّها المعمار؟

أجاب سِنان:

ـ نعم يا صاحب السّموّ، إنّه واحد من التّلاميذ الأربعة.

ـ طلبت أن تأتي بمفردك، فهل عصى الرّسول أوامري؟

ـ قال سنان:

ـ الغلطة غلطتي. سامحني، فأنا أحتاج إلى من يساعدني، وأنا في هذه السّنّ.

فكّر السّلطان لبرهة في هذه الإجابة وسأل:

ـ ما اسمه؟

ـ جَهان يا صاحب السّعادة. ربّما تتذكّره، فهو الّذي يهتمّ برعاية الفيل الأبيض في القصر.

قال السلطان متهكّمًا: مروِّض حيوانات ومعمار. كيف حدث ذلك؟!

ـ كان في خدمة جدّكم المعظّم السّلطان سليمان تغمّده الله برحمته. وعندما رأينا موهبته في بناء الجسور، نقلناه إلينا ودرّبناه منْذ كان صغيرًا.

تمتم السّلطان كأنّه يكلّم نفسه غير مبالٍ: كان جدّي سلطانًا عظيمًا.

ـ كان يستحقّ الثّناء والمديح مثل النّبيّ الّذي سمّي على اسمه، أيّها السّلطان.

سليمان العظيم، القانونيّ، أمير المؤمنين وحامي المدن المقدّسة ـ الرّجل الّذي حكم ستًّا وأربعين شتاءً، وأنفق على صهوة جواده وقتًا

Twitter: @ketab_n

أطول ممّا أنفقه على عرشه. وعلى رغم أنّه دُفن في أعماق الأرض، فقد تحلّل كفنه ولا يمكن مخاطبته إلّا بنبرة واطئة.

ـ تغمّده الله برحمته. فكّرت فيه في هذه اللّيلة. وسألت نفسي: ما عساه يفعل لو كان في مكاني.

قال السّلطان مراد ذلك في صوت متهدِّج للمرّة الأولى، وأضاف: كان في وسع جدّي أن يفعل الشّيء نفسه، ليس ثمّة خيار آخر.

استبدّ الهلع والرّعب بجَهان معتقدًا أنّ السّلطان يتكلّم عن الموتى.

أردف السّلطان: إنّ إخوتي في صحبة حافظ الكون.

قال سنان بهدوء: أسكنهم الله فسيح جنّاته.

ساد الصّمت إلى أن تكلّم السّلطان من جديد: لقد أمرك والدي المبجّل السّلطان سليم أن تبني له ضريحًا، صحيح؟

ـ نعم يا صاحب السّموّ، فقد أراد أن يُدفن قرب آيا صوفيا.

ـ هيّا إذًا، أبدإِ العمل من دون تأخير، ولديك تفويض منّي بأن تفعل ما هو مناسب.

ـ حاضر يا مولاي.

ـ إنّ أمنيتي هي أن أدفن إخوتي بجانب أبي. إِجعل المشهد غاية في الرّوعة حتّى يتمكّن النّاس من الحضور والدّعاء لأرواحهم على مدى قرون.

أمسك السّلطان عن الكلام، ولكنّه استرسل بعد تفكير: لكن... لا تبالغ كثيرًا في جعله مهيبًا، بل يجب أن يكون بالحجم المناسب.

تمكّن جَهان من أن يرى بطرف عينه وجه معلِّمه وقد امتقع لونه، وشمّ رائحة شيء ما في الجوّ، أو على وجه الدِّقّة مجموعة روائح ربّما كانت منبعثة من أغصان البتولا والعرعر، ومعها رائحة دردار محترقة. وسواء كانت صادرة عن السّلطان أو من سنان، فإنّ الفرصة لم تكن

Twitter: @ketab_n

متاحة له لمعرفة ذلك. استبدّ به الهلع وانحنى من جديد ولامست جبهته الأرض، وتناهى إلى سمعه صوت السّلطان وهو يتنهّد، وكأنّه يبحث عن شيء، وبدلًا من ذلك اقترب أكثر فأكثر منَ الشّمعة فحجبت قامته ضوءها، فارتعش جَهان تحت أنظار السّلطان وشعر بأنّ قلبه توقّف لحظة، وفكّر: هل ارتاب السّلطان في انتهاكه الفناء الدّاخليّ في هذه الليلة؟ وشعر جَهان من جديد بأنّ العينين الملكيّتين تنظران إليه برهة أخرى من الزّمان، ومضى بعدها في سبيله وفي أعقابه وزراؤه وحرّاسه.

وهكذا، ففي شهر كانون الأوّل، وفي يوم من أوائل أيّام شهر رمضان من عام ١٥٧٤، أوكلت إلى سنان بصفته رئيس المعماريّين الملكيّ وتلميذه جَهان الّذي لم يكن له أيّ دور في هذا اللّقاء ولكنّه كان حاضرًا، مهمّة تشييد نصب داخل حدائق آيا صوفيا على سعة وأبّهة ويكفي كي يضمّ داخله إخوة السّلطان مراد، لكنّ سعته وأبّهته لا ينبغي أن يكونا على النّحو الّذي يذكّر أي إنسان بكيفيّة خنقهم بناءً على أوامره في اللّيلة الّتي اعتلى فيها العرش.

غير أنّ ما لم يدركه أحد من الحاضرين هو أنّ سنوات سوف تمرّ على ذلك اليوم، ويتوفّى السّلطان مراد، وفي مثل هذه اللّيلة الّتي عوت فيها الرّيح وزعقت الحيوانات، سوف يُخنق أولاده - وعددهم تسعة عشر ولدًا - بخيط من حرير كي لا يُراق دمهم النّبيل، ويتمّ دفنهم في المكان نفسه الّذي شيّده المعمار وتلميذه. يا للأقدار!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ما قبل المعلِّم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كان للنّبيّ يعقوب اثنا عشر ولدًا وللنّبيّ عيسى اثنا عشر حواريًّا. أما النّبيّ يوسف الّذي وردت قصّته في السّورة الثّانية عشرة من القرآن الكريم، فكان الطّفل المفضّل عند أبيه. كما وضع اليهود اثني عشر رغيفًا من الخبز على موائدهم. وكان اثنا عشر أسدًا تحرس عرش سليمان الّذي تفصله عن الأرض ستّ درجات. ولمّا كان للصّعود نزول، كان يعني أنّ ثمّة ستّ درجات تُستخدم للهبوط، ما معناه أنّ المجموع الكلّيّ اثنتا عشرة درجة. وفي بلاد الهندوس، ثمّة اثنتا عشرة ديانة رئيسيّة، في حين جاء من بعد النّبيّ محمّد اثنا عشر إمامًا حسب معتقدات الشّيعة. وتزيّن اثنتا عشرة نجمة تاج مريم، والصّبيّ المدعو جَهان لم يناهز الثّانية عشرة من عمره عندما شاهد إسطنبول للمرّة الأولى في حياته.

كان جَهان لا يناسب سنّه لأنّه كان نحيلًا، لوّحته الشّمس، وقلقًا مثل سمكة وسط تيّار ماء. خصلات شعره الأسود تنمو منتصبة إلى الأعلى وتتربّع على رأسه مثل مخلوق يحيا حياته الخاصّة به. ثمّ هناك الأذنان، كلّ واحدة بحجم قبضة سفّاح، غير أن أمّه كانت تردّد أن الفتيات سوف يقعن أسرى سحره وفتنته يومًا ما بسبب ابتسامته الآسرة

Twitter: @ketab_n

والغمّازة الوحيدة التي على وجنته الشّمال مثل بصمة إصبع طبّاخ على عجينة رخوة. هذا ما كانت تقوله، وهذا ما كان يؤمن به.

شفتان حمراوان مثل وردة صغيرة، شعر لامع كالحرير، خصر أشدّ نحولًا من غصن الصّفصاف، رشيقة الحركة مثل غزال، قويّة مثل ثور، محظوظة بصوت مثل صوت عندليب ـ تشدو به لأطفالها الصّغار وليس لتجاذب أطراف حديث تافه ولا لتحدّي زوجها ومشاجرته. هكذا هي الصّفات التي كانت أمّه تريدها لعروسه إذا ما بقيت على قيد الحياة. لكنّها انتقلت إلى جوار ربّها ـ مثل بخار، على تعبير الطّبيب، وإن كان جَهان يعلم أنّ وفاتها كانت بسبب الضّرب المبرح الّذي كانت تتلقّاه من زوجها الّذي كان عمّه أيضًا. وقد بكى هذا العمّ بكاء يقطّع نياط القلوب، كأنّ شخصًا آخر هو الّذي تسبّب في موتها المبكر. لقد كرهه جَهان بكلّ كيانه منذ ذلك اليوم. وعندما ارتقى متن هذا المركب، ندم لتركه المنزل من دون أن ينتقم لها. بيد أنّه كان يعلم أنّه إذا ما مكث هناك، فإنه سوف يقتل عمّه أو أن عمّه سوف يقتله. ولمّا كان لا يزال غضًّا، طريَّ العود، فلربّما كان عمّه هو الّذي سوف يقضي عليه. وعندما تحين اللّحظة المناسبة، فإنَّ جَهان سيعود أدراجه من أجل القصاص، وسوف يجد حبّه، وسوف يتزوّجان في احتفال يستمرّ أربعين يومًا وأربعين ليلة، ويأكلان من الفواكه المجفّفة ويضحكان حتّى يشبعا. وسوف يسمّي ابنته باسم أمّه. وهذا حلم لم يخبر أحدًا به.

وعندما اقترب المركب الصّغير من المرفأ، راح الولد يشاهد الطّيور بأعداد أكثر، وبمختلف الأنواع: نوارس وزمار الرّمل والكروان والعصافير وأبو زريق والكندش ـ وكان أحد هذه الطيور ـ يحمل حلية رخيصة بمنقاره. بعض تلك الطّيور الشّجاعة أو البلهاء ـ كانت تحطّ على الأشرعة، على مقربة شديدة من البشر. وكان الهواء عابقًا برائحة جديدة في الأسفل، غريبة وعفنة.

Twitter: @ketab_n

بعد رحلة دامت أسابيع في البحر الشّاسع، كان لمشهد المدينة أثر غريب في خيال جَهان ـ وبخاصّة في يوم ضباب كهذا اليوم. فسرح ببصره أمامه نحو الخطّ الّذي يتداخل فيه الماء بالشّاطئ، وهو خطّ رصاصيّ اللّون، ولم يتمكّن من أن يستدلّ على طريقه: هل تراه يتّجه إلى إسطنبول، أم إنّه يبتعد عنها. وكلّما أطال النّظر، لاحت له اليابسة وكأنّها امتداد للبحر. مدينة مسبوكة تتربّع على حافّة الموج، متأرجحة، متغيّرة على الدّوام، تثير الذّهول. هذا هو انطباعه الأوّل عن مدينة إسطنبول، وهو انطباع كان يجهل أنّه لن يتغيّر طوال حياته.

سار الفتى سيرًا وئيدًا على ظهر السّفينة، وكان البحّارة منشغلين انشغالًا شديدًا، فلم يتنبّهوا له وهو يمرّ من بين أقدامهم. ووصل إلى نهاية مقدّم المركب، وهو جزء لم يسبق له أن وصل إليه، وتجاهل الرّيح الّتي كانت تلطم وجهه ونظر إلى قلب مدينة إسطنبول، وهو ما لم يستطع أن يراه رؤية واضحة حتّى الآن. ثمّ راح الضّباب ينقشع رويدًا رويدًا كأنّ شخصًا ما جذب ستارة إلى الجانب. اتّضحت المدينة في هذه الأثناء وبدت أمامه برّاقة، لامعة. أنوار وظلال. قمم ومنحدرات. لاحت له مثل كيس دهنيّ مملوء بالمتناقضات عندما لاحظها تعلو وتهبط بين التّلال، تكسوها هنا وهناك بساتين أشجار السّرو، تتنكّر لنفسها في كلّ خطوة، تقلّب مزاجها في كل حيّ، حريصة وغليظة القلب في الوقت نفسه وافرة العطاء، لكنّها تستعيد في الوقت عينه هبتها. ولمّا كانت مدينة واسعة، فقد امتدّت يمينًا وشمالًا، مثلما امتدّت طولًا وتسامقت ناحية قبّة السماء الزّرقاء، جاهدة في الصّعود، توّاقة إلى ما هو أكثر، من دون أن تكتفي. غير أنّها على الرّغم من كلّ ذلك، مدينة آسرة الجمال. وتعجّب الصّبيّ وهو الغريب على أساليبها كيف يمكن للمرء أن يقع تحت سطوة سحرها.

هرع جَهان إلى مخزن المركب، فوجد الفيل في قفص، منتفخًا،

Twitter: @ketab_n

فاتر الهمّة، وقال: لقد وصلنا. انظر، أنت هنا!

نطق بالكلمة الأخيرة بارتعاشة خفيفة، لأنّه لم يكن يعلم بعد ما نوع هذا المكان. لا يهمّ. لا يمكن لأيّ شيء ينتظر الحيوان في هذه المملكة الجديدة، أن يكون أسوأ من الرّحلة البحريّة الّتي تحمَّلها قبل قليل.

كان شوتا يجلس على عجيزته، ساكنًا لا يأتي بأيّ حركة حين خيّل للفتى أنّ الحيوان توقف قلبه عن الخفقان، غير أنّ جَهان انفرجت أساريره قليلًا عندما لاحظ أنفاس الحيوان الهادئة عندما اقترب منه، غير أنّ الألق غاب من عيني الفيل، مثلما زال بريق جلده، فهو لم يأكل ولم ينم في اليوم السّابق، فثمّة ورم يثير المخاوف وراء فكَّيه، كما أنّ خرطومه كان متورّمًا على نحو واضح. رشّ الفتى الماء على رأسه، وكان غير مرتاح بسبب استعمال ماء البحر من جديد، وهو الماء الّذي ترك آثاره على جلده مسبّبًا له حكّة على وجه التّأكيد.

وعده جَهان قائلًا: سوف أحمِّمك بماء عذب لدى وصولنا إلى القصر.

ثمّ راح يضع مقدارًا من الكركم على ورم الفيل متوخّيًا الحذر والعناية، كان الحيوان قد فقد شيئًا من وزنه، وكانت المراحل الأخيرة من الرّحلة شاقّة له على وجه الخصوص.

قال جَهان: سوف ترى أن السّلطان سيصبح شغوفًا بك، وأنّك ستكون محبوب المحظيّات.

ثمّ أضاف، كأنّ فكرة أخرى عنَّت على خاطره: وإذا رأيت أنّهم لا يشعرون بالرّأفة نحوك، فما عليك سوى أن تهرب، وسأهرب معك.

كان في وسع جَهان أن يستمرّ في مثل هذا الكلام، غير أنّه سمع وقع أقدام على السّلّم، اندفع بعد ذلك أحد الملّاحين وهو يصرخ به:

Twitter: @ketab_n

يريد القبطان أن يراك، الآن!

بعد مرور برهة، كان الفتى يقف أمام باب القبطان، مصغيًا لأصوات السّعال والبصاق وهي تنبعث من الدّاخل. كان يخشى الرّجل، وإن حاول ألّا يكشف عن خوفه الآن، لأنّ هذا القبطان واسمه غاريث كان معروفًا بين النّاس بأنّه غاريث الكافر أو القبطان المجنون. فتارة تراه يمزح ويضحك مع أحد البحّارة، وطورًا تراه يمتشق سيفه ليمزّقه إربًا إربًا. وقد رأى جَهان ذلك بأمّ عينه.

ولد هذا الملّاح الماهر في بلدة إنكليزيّة ساحليّة، ولم يكن يحبّ شيئًا أكثر من حبّه لشريحة لحم من بطن خنزير مشويّة على نار هادئة ومقدار من الجعّة، ولكن لم يفهم أحد السّبب الّذي دفع بهذا الرّجل إلى أن يخون بني جلدته وينضمّ إلى القوّة البحريّة العثمانيّة، ويحتفظ بالأسرار لنفسه. وجعله إقدامه وجسارته عزيزًا على القصر، فأصبح لديه أسطول خاصّ به. وابتهج السّلطان سليمان ابتهاجًا عظيمًا وهو يراه يهاجم سفن النّصارى، وينهبها بقوّة لم يظهرها أيّ ملّاح عثمانيّ. ومنحه السّلطان الحماية، لكنّه لم يثق به لأنّه كان يعلم أنّ من يطعن رفاقه في ظهورهم لن يكون صديقًا مخلصًا لأيٍّ كائن آخر. فالمخلوق الّذي يصل بابك بعد أن عضّ اليد الّتي أطعمته الطّعام طوال الوقت، لن يتردّد في غرز أسنانه في لحمك عندما يدخل البيت.

عندما دخل الفتى الغرفة، وجد القبطان جالسًا وراء طاولته. كان نحيفًا، بارز العظام أكثر ممّا هو مألوف. ولم تكن لحيته الّتي غسلها ومشّطها ووضع عليها دهنًا بلون الكستناء الغامقة الّذي كانت عليه على مدى الأسابيع الماضية، بل كانت تميل إلى اللّون البنّيّ الضّارب إلى الصّفرة. وثمّة ندبة تمتدّ من أذنه الشّماليّة إلى زاوية شفتيه، فيبدو فمه كأنّه امتداد للجرح. وكان قد خلع قميصه الكهرمانيّ الّذي كان يرتديه يوميًّا، ولبس قميصًا فضفاضًا ذا لون فاتح وسروالًا، ووضع حول رقبته

Twitter: @ketab_n

خيطًا فيه خرز شذريّ اللّون لطرد عين الحسد. وعلى الطّاولة المنتصبة أمامه، ثمّة شمعة محترقة كليًّا تقريبًا وسجلّ كان يدوّن فيه الغنائم الّتي استولى عليها في طريق رحلته. تنبّه الفتى إلى أنّه غطّى الصّفحة، وإن لم تكن ثمّة ضرورة لذلك لأنّ جَهان لم يكن يعرف القراءة، فهو ليس صديقًا للحروف، بل صديقًا للصّور والأشكال. وكان يستطيع الرّسم على أيّ شيء مثل الطّين والوحل وجلد الماعز وجلد البقر وغيرها من السّطوح. وعلى امتداد الرّحلة، كان قد أنجز تخطيطات لا حصر لها تمثّل البحّارة والمركب.

قال القبطان غاريث وهو يبصق بقوّة: هل رأيت؟ أنا رجل ملتزم بوعدي، فقد أحضرتك إلى هذا المكان من دون أن تتعرّض للأذى.

قال الفتى محدِّقًا بالمبصقة الّتي سقط فيها البلغم: الفيل مريض، وأنت لم تسمح لي بإخراجه من قفصه.

قال القبطان بنبرة استرضائيّة: سوف يشفى عندما تطأ قوائمه أرضًا صلبة. لكن، ما شأنك به، فهو ليس ملكك؟!

ـ لا، إنّه ملك السّلطان.

ـ حسنًا أيّها الفتى. إذا نفّذت ما أقول، فسوف يعود الأمر علينا بالنّفع.

خفض جَهان بصره، فقد سبق لهذا الرّجل أن ذكر هذا الموضوع، لكنّ جَهان كان يأمل بأن ينساه الرّجل، لكنّه لم يغب عن ذهنه على ما يبدو.

قال القبطان غاريث: القصر مملوء بالذّهب والمجوهرات. جنّة لأي لصّ. وعندما تصل إلى هناك، فسوف تسرق من أجلي. لا تحاول أن تنهب المكان برمّته ـ فالأتراك سوف يقطعون يديك، بل اسرق ببطء، شيئًا فشيئًا.

Twitter: @ketab_n

ـ لكنّ الحرّاس منتشرون في كلّ مكان، ولا يمكنني. . .

وهنا انقضَّ القبطان على الفتى بسرعة البرق، وقال: هل تعني أنّك لن تسرق من أجلي؟ هل نسيت ما حدث لذلك المروِّض؟ هه؟

قال جَهان ممتقع الوجه: لا، لم أنسَ.

ـ تذكّر أنّك قد تلاقي المصير نفسه. لولاي لما بقي فتًى مثلك في قيد الحياة.

قال الفتى بهدوء: إنّني في غاية الامتنان.

ـ أظهر امتنانك بالمجوهرات، وليس بالكلمات الجوفاء.

ثمّ سعل وسال اللّعاب من شفتيه، وجذب الغلام إليه وأردف: كان يمكن للرفاق أن يمزّقوا الفيل إربًا إربًا ويطعموه لأسماك القرش، وأنت. . . كان في وسعهم أن يجعلوا منك مطيّة ويضاجعوك كلّهم، وعندما يشعرون بالملل من مؤخّرتك، فسوف يبيعونك إلى بيت من بيوت الدّعارة. لهذا أنت مَدين لي أيّها النّصّاب الصّغير. سوف تذهب إلى القصر مباشرة، وسوف تزعم أنّك مروِّض الحيوان.

قال جَهان: وإذا لاحظوا أنّني لا أفقه شيئًا في أمور الفيلة؟

قال القبطان غاضبًا: هذا يعني أنّك فشلت، لكنّك لن تفشل، فأنت ولد ذكيّ. وسوف أنتظرك إلى أن تتمكّن من الوقوف على قدميك. سوف أحضر وأعثر عليك. وإذا ما انقلبت عليَّ، فإنني أقسم بالله أن أُخرج أحشاءك من بطنك وأنت حي! وسوف أخبر النّاس في كلّ مكان أنّك دجّال مشعوذ. أنت تعرف كيف يعاقبون من يكذب على السّلطان. إنهم يرفعونه عاليًا، ثمّ يرمون به إلى أسفل، على سنّارة. ويستغرق موته ثلاثة أيّام. تخيّل، ثلاثة أيّام قاتلة! وسوف تتوسّل إلى أيّ شخص كي يضع حدًّا لحياتك.

تململ جَهان بين يدي الرّجل، واندفع خارج المقصورة، وعبر ظهر

Twitter: @ketab_n

المركب وجرى ناحية المخزن، حيث تكوّر بجانب الفيل الّذي كان صديقه الوحيد، وإن كان مريضًا وصامتًا. وهنالك، راح يبكي بكاء الأطفال.

وعندما رسا المركب، انتظر النّاس إفراغ حمولته، وأصغى الغلام إلى الجلبة في الطّبقة العليا ولم يتجرّأ على الإتيان بأيّ حركة، وإن كان مشتاقًا لتنفّس الهواء النّقيّ، وكان يتضوّر جوعًا. وفكّر في المكان الذي يمكن الجرذانَ أن تكون قد ذهبت إليه، وما إذا كانت القوارضُ تشبه المسافرين فتهبط في صفوفٍ عندما يتوقّف المركبُ عند الرصيف. وتخيّل أنّه رأى عشرات الأذناب السّود الضّاربة إلى الحمرة تسرع في كل الاتجاهات، وتتوارى عن الأنظار في مجموعة من الأزقّة والشّوارع الّتي تتألّف منها إسطنبول.

ولمّا عجز عن الانتظار مدّة أطول، صعد إلى ظهر المركب الذي وجده لحسن الحظّ خاليًا. وعندما نظر أمامه، وجد القبطان يكلّم رجلًا يرتدي رداءً فاخرًا وعمامة مرتفعة. ممّا لا ريب فيه أنّه موظّف كبير. وعندما رآه الاثنان، أشار إليه القبطان بأن يتقدّم نحوه، فما كان من جَهان إلّا أن عبر من فوق اللّوح الخشبيّ المتقلقل ووثب إلى أسفل، وسار في اتّجاههما.

قال الموظّف: أخبرني القبطان بأنّك مروّض الحيوانات.

تردّد جَهان لحظة قصيرة ـ وراوده ذلك الشّكّ الّذي يساور المرء عندما يوشك على أن يتفوّه بكذبة، وقال: نعم، أيّها الأفندي. لقد جئت من هندستان برفقة الفيل.

ـ حقًّا؟

قال الموظّف بعد أن لاحت على وجهه ظلال الشّكّ. وأضاف: وكيف تعلّمت الكلام بلغتنا؟

Twitter: @ketab_n

كان جَهان يتوقّع هذا السّؤال، فردَّ: لقد علّموني اللّغة في قصر السّلطان، وازداد تعلّمي على ظهر السّفن، وقد ساعدني القبطان في ذلك.

قال الموظّف: حسنًا جدًّا. سوف نخرج الفيل بعد ظهر يوم غد. لا بدّ أوّلًا من إفراغ حمولة المركب.

رمى جَهان بجسده على الأرض مذعورًا ومشدوهًا، وقال: لو سمحت لي أيّها الأفندي، إنّ الحيوان مريض وسوف ينفق إذا ما لبث ليلة أخرى في المخزن.

ران صمت غير متوقَّع، إلى أن قال الموظّف: اهتمّ أنت بالحيوان.

نظر القبطان بعينين هادئتين على رغم ابتسامته، وقال: إنّه فتًى طيب.

أوكل خمسة بحّارة مهمّة إخراج الفيل. نظروا إلى الحيوان نظرة ازدراء وهم يسبّون ويشتمون، وربطوا الحبال حوله، وجذبوه بكل ما أُوتوا من قوّة وعزم، لكنّ شوتا لم يتحرّك قيد أنملة. شاهد الفتى الرّجال وهم يبذلون قصارى جهدهم، وازداد توترًا بمرور الوقت. وبعد جدال طويل، قرّروا ألّا يلجأوا إلى العنف في إخراج الفيل، وأن يرفعوا القفص وهو بداخله. وعمد فريق من النّاس إلى إزالة أغطية المخزن، وتركه مفتوحًا تمامًا، وربط الحبال الغليظة من جهات القفص الأربع وشدِّها حول أشجار البلّوط المعمّرة. ولمّا صار الفريق على أهبة الاستعداد، راح يجرّ جرّة رجل واحد، أذرع أعضائه تهتزّ واحدة بعد الأخرى، وجناتهم متهدِّجة بسبب ما يبذل من جهد جهيد. وعندما جذبوا للمرّة الأخيرة، أفلت لوح حشبيّ كبير وهوى على الأرض محدثًا

Twitter: @ketab_n

جلبة قويّة لكن، ويا للعجب، من دون أن يلحق أذًى بأيّ شخص. وشيئًا فشيئًا، ارتفع القفص، ثمّ توقّف، إذْ فغر النّاس المحتشدون أفواههم مندهشين من الفيل الّذي كانوا يرونه من خلال القفص، فقد كان متدليًّا في الهواء كأنّه نصف طائر ونصف ثور، دابّة الأرض الّتي قال الأئمة إنّها ستظهر يوم الدّينونة. وهرع عدد من النّاس إلى المكان، وازداد عدد النّظّارة المتجمهرين، وسرعان ما أخذ كلّ فرد في الميناء يراقب أو يجذب، وجَهان يركض في كلّ الاتّجاهات محاولًا أن يقدّم يد العون، وإن كان لا يعرف كيف.

وعندما حطّ القفص على الأرض، ارتطم مُحدثًا ضجّة قويّة، واصطدم رأس الفيل بأعلى القفص. وخاف أولئك الّذين كانوا يتولّون مهمّة الجذب والسّحب، إخراج الفيل من القفص خشية أن يهاجمهم. وبذل الفتى قصارى جهده كي يطمئنهم إلى أن الفيل لن يهاجمهم.

وما إن خرج الفيل حتّى خارت قواه بخاصّة ساقيه، وهوى مثل دمية من الدّمى المتحرّكة، لكن من دون خيوط، وراح يعرج بسبب الإنهاك الّذي شعر به ورفض أن يتحرّك، وأغمض عينيه كأنّه أراد أن يزول هذا المكان وأن يتوارى عن الأنظار هؤلاء الأشخاص الّذين راحوا يدفعونه بعنف ويرفعونه ويضربونه. وفي نهاية الأمر، أفلحوا في دفعه إلى عربة ضخمة تجرّها مجموعة من الخيول. وفي اللّحظة الّتي كاد فيها جَهان أن ينطّ على العربة، أمسكت ذراع قويّة بمرفقه.

كان هو ذراع القبطان غاريث الذي قال له بصوت عالٍ يسمعه المتجمهرون: وداعًا يا بني: ثم خفض صوته، وأضاف: اذهب الآن يا لصّيّ الصّغير، واحضر لي المجوهرات والياقوت، وتذكّر أنّني سوف أقطع خصيتيك إذا خدعتني.

غمغم جَهان: ثق بي.

Twitter: @ketab_n

غير أنّ الكلمتين ذهبتا أدراج الرّياح في اللّحظة الّتي نطق بهما، ووثب إلى العربة.

تنحّى الأهالي جانبًا في هلع وفي فرح في كلّ شارع من الشّوارع الّتي راحت عربة الفيل تمرّ بها. وضمّت النساء أطفالهنّ إلى صدورهنّ ذعرًا، وأخفى المتسوّلون الطّاسات الّتي يستخدمونها في التّسوّل، وأمسك الشّيوخ برقابهم وكأنّهم يدافعون عنها، ورسم النّصارى علامة الصّليب، وردّد المسلمون آيات قرآنية لطرد الشّيطان وتضرّع اليهود طالبين البركات. وبان على وجوه الأوروبيين مزيج من البهجة والخوف. وامتقع وجه أحد مواطني كازاخستان كأنّه رأى شبحًا وإن كان أسمر البشرة مفتول العضل. وارتسمت على وجهه تعابير طفوليّة من شدّة هلعه، ما دفع جَهان إلى أن يضحك ضحكة قصيرة. أمّا الأطفال، فهم وحدهم الّذين رفعوا أبصارهم وومضت عيونهم وهم يشيرون إلى الوحش الأبيض.

لمح جَهان بنظرة خاطفة وجوه الإناث المتواريات من خلف النّوافذ المشربيّة، والأقفاص المزخرفة المعدّة لإيواء الطّيور على الجدران، والقباب الّتي يلامسها آخر ما تبقّى من شعاع الشّمس، فضلًا عن أعداد كبيرة من أشجار الكستناء والزّيزفون والسّفرجل. وحيثما التفت، وقعت أنظاره على النّوارس والقطط، وهي الحيوانات الوحيدة الّتي كان لها مطلق العنان في الجوار. وحلّقت النوارس عاليًا، رشيقة، متباهية ومفعمة بالحيويّة والنّشاط، في حلقات دائريّة، لتهبط وتلتقط الطُّعم من دلو صيّاد سمك أو الكبد المقليّ من على صينية بائع جوّال في الشّارع أو الفطيرة الّتي تُركت لتبرد على حافّة نافذة. لم يبدُ أحد ما معترضًا على كلّ هذا. وإذا أرادوا مطاردة الطّيور وإبعادها، فإنهم كانوا يطاردونها متردّدين، على سبيل التظاهر لا غير.

عرف جَهان أن للمكان أربعًا وعشرين بوّابة وأنّها تتألّف من ثلاث

Twitter: @ketab_n

مدن: إسطنبول وغالاتا وسكوتاري. ولاحظ أنّ الأهالي يرتدون ثيابًا مختلفة الألوان، وإن صعب عليه أن يفهم القاعدة الّتي يستندون إليها في اختياراتهم تلك الألوان. ثمّة دوارق للمياه وأكواب أنيقة من الخزف الصّينيّ وباعة جائلون ينادون على بضاعتهم المتنوّعة بدءًا بعطور المسك وانتهاء بالسّمك المجفّف. ولاحظ هنا وهناك سقيفات خشبيّة صغيرة تباع من تحتها المشروبات بأكواب فخّاريّة. قال الموظّف: شربت، ثمّ تلمّظ، غير أنّ جَهان لم تكن لديه أدنى فكرة عن مذاقه.

وبينما كانت العربة تسير على امتداد الطّريق، أوضح الموظّف قائلًا: *هذا الرَّجل من جورجيا وهذا أرمنيّ. أمّا ذلك الرّجل فهو درويش، ومن يقف إلى جانبه ترجمان. وهذا الرّجل ذو الثّياب الخضر إمام، لأنّ هؤلاء وحدهم الّذين يرتدون ثيابًا ذات اللّون الّذي كان يفضّله النّبيّ. هل ترى ذلك الخبّاز حول ناصية الشّارع؟ إنّه يونانيّ. اليونانيّون معروفون بصناعة أجود أنواع الخبز وإن كانوا كفّارًا، فلا تتجرّأ على تناوله أبدًا لأنّهم يرسمون إشارة الصّليب على كلّ رغيف. وإذا ما أكلت لقمة واحدة من ذلك الخبز، فسوف تصبح واحدًا منهم. أمّا صاحب هذا المحلّ فيهوديّ، يبيع الدّجاج لكنّه لا يستطيع ذبحها، فتراه يدفع المال للحاخام ليذبحها. وهذا الرّجل الّذي يضع على كتفيه جلد الغنم، والأقراط في أذنيه، فهو رجل مقدّس كما يقول البعض من النّاس، أمّا أنا فأقول إنّه رجل كسلان. انظر إلى هؤلاء الانكشاريّة! وهم غير مسموح لهم بإطالة اللّحى، بل مسموح لهم إطالة الشّوارب.*

كان المسلمون يعتمرون العمائم، واليهود يضعون القبّعات الحمر، والنّصارى القبّعات السّود، ويسلك العرب والكرد والنّساطرة والجراكسة والكازاخستانيّون والتّتار والألبان والبلغار واليونانيون والأنجاز والبوماك... دروبًا متباينة، لكنّ ظلالهم تتقاطع وتتلاقى.

قال الموظّف: ثمّة اثنتان وسبعون قبيلة ونصف القبيلة، لكلّ واحدة

Twitter: @ketab_n

منها منطقة، ونحن نعيش في سلام ما دام كلّ واحد يحافظ على حدوده ولا يتجاوزها.

سأل جَهان: ما نصف القبيلة الّتي ذكرتها؟

ـ آه، إنّها مجموعة الغجر الّتي لا يثق بها أحد. هؤلاء الغجر لا يمتطون سوى الحمير، أمّا الجياد فممنوعة عليهم، كما لا يسمح لهم بالإنجاب، لكنّهم يتكاثرون على أي حال، ولا حياء عندهم، ابقَ بعيدًا من كلّ هذه المجاميع الملعونة من الوثنيين القذرين!

أومأ جَهان برأسه عازمًا على الابتعاد من أيّ شخص يشبه الغجر.

ورويدًا رويدًا، بدأ عدد البيوت يتناقص، والأشجار تزداد طولًا ويخفت الضّجيج.

قال جَهان: ينبغي لي أن أجهّز الفيل قبل أن نقدّمه إلى السّلطان، إذْ لا بدَّ من أن تكون هديّة شاه الهند جميلة.

رفع الرّجل حاجبه، وقال: ألا تعلم أيّها الغلام؟ لقد رحل الشّاه الّذي تتكلّم عنه.

ـ ماذا تعني أيّها الأفندي؟

ـ السّلطان همايون[1]... فعندما كنت على ظهر المركب فقد عرشه، وكلّ ما تركه هو زوجته وخادمان كما تناهى إلى مسامعنا. ولم يعد حاكمًا بعد اليوم. إنّ الفيل سينفق على ظهر المركب إذا طلب

---

(١) السّلطان همايون (١٥٠٨ ـ ١٥٥٦): إمبراطور المغول في الهند. ابن بابر وخلفه. ملك في دهلي (١٥٣٠ ـ ١٥٤٠). هزمه وعزله شيرشاه سوري ملك الأفغان واستولى على دهلي وأصبح إمبراطورها. لجأ إلى طهماسب الأوّل ملك إيران الّذي مدّه بجيش قوي ساعده ضدّ الأفغان. أخضع كابل بعد وفاة شيرشاه في ١٥٤١، ثمّ انتصر على اسكندر بن شيرشاه واستعاد دهلي في ١٥٥٥. أديب وشاعر، مات في سقوطه من مكتبته. خلفه ابنه أكبر أعظم أباطرة المغول، وقد بلغت الدولة في عهده أوج مجدها. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

السّلطان سليمان إعادته إلى بلاده.

فقال مضطربًا: لن يتمكّن شوتا من البقاء على قيد الحياة إذا ما أعيد من طريق البحر مرّة أخرى.

قال الموظّف: لا تقلق، فهم لن يعيدوه. فنحن لدينا مختلف أنواع الحيوانات في القصر، ولكنّنا لا نملك فيلًا أبيض.

ـ أتظنّه سيروقهم؟

ـ لن يعيره السّلطان بالًا، لأنّ لديه مهمّات مهمّة، لكنّ السّلطانة...

لزم الموظّف الصّمت، ولاحت على وجهه أمارات غريبة عندما حدّق طويلًا، إلى شيء ما بدأ له من بعد. وعندما اقتفى جَهان إثر نظراته، لاح له من مسافة بعيدة هيكل بناء ضخم، تتألّق مشاعله في الظّلمة، وبوّاباته موصدة مثل شفاه تطبق على أسرار مكنونة.

همس جَهان: أهذا هو القصر؟

قال الرجل متباهيًا وكأن القصر ملك أبيه: هذا هو. أنت الآن في قصر سيّد الشّرق والغرب.

أشرق وجه جَهان وانفرجت أساريره وفكّر في أنّ كلّ غرفة تحت سقف ذلك القصر لا بدّ أن تكون عامرة بالحرير والمطرّزات، ولا بدّ أن كلّ ردهة تردّد صدى ضحكات بهيجة، وأن مجوهرات السّلطان كبيرة جدًّا وتحمل كلّ واحدة منها اسمًا أجمل من اسم أيّ جارية.

وصلوا إلى البوّابة الملكيّة تحت أنظار الحرس الشّاخصة الّذين لم يظهروا أيّ اهتمام بشوتا كأنّهم اعتادوا رؤية فيل أبيض كلّ يوم. وعندما وصلت الجماعة إلى البوّابة الوسطى ذات البرجين المخروطين الواقعين على كلّ جانب من جانبيها، والمزوّدين مشاعل وهّاجة، ترجّلوا من العربة. في تلك اللّحظة، تغيّر اتّجاه الرّيح الّتي كانت عابقة برائحة

Twitter: @ketab_n

العفن. في هذه الأثناء، رفع جَهان بصره إلى أعلى بدافع غريزيّ، ونظر إلى الظّلال في الجهة الخلفيّة، فتجمّد عندما لمح المشانق وكان عددها ثلاثًا. واحدة قصيرة والاثنتان الأخريان أطول من الأولى. وكان في كلّ مشنقة رأس مقطوع، يتعفّن بهدوء وصمت، متورّمًا، مزرقًّا، محشوّ الفمّ بالقشّ. ولمح الصّبيّ حركة لا تكاد تكون محسوسة: يرقات نهمة لا تشبع تزحف داخل لحم البشر.

قال الموظّف بصوت منخفض وهو يبصق على الأرض: خونة...

سأل جَهان بصوت ضعيف: لكن، ما ذنبهم؟

ـ الخيانة، على الأرجح. إمّا الخيانة أو السّرقة كما أظنّ. تلك هي العاقبة. أكيد. هذا ما يحلّ بكلّ من تسوّل له نفسه ارتكاب الخطأ.

مرّ جَهان من البوّابة العظيمة مذهولًا، مذعورًا، شاحب الوجه، تكاد تحجبه عن الرّؤية الطّوابير أمامه، وتخونه الكلمات فجأة. وعلى رغم أنّ رغبة عارمة اجتاحته للهروب، إلّا أنّ نفسه لم تطاوعه على التّخلّي عن الفيل. وكما هو حال المدان الّذي يسير متثاقلًا إلى المشنقة، ومستسلمًا للمصير الّذي لا يمكنه أن يتجنّبه أو يقبل به، فإنّه اقتفى أثر الموظّف ودخل قصر السلطان سليمان.

Twitter: @ketab_n

كان كلّ ما لمحه الصّبيّ في تلك اللّيلة واللّيالي الّتي أعقبتها، هي الأسوار العالية وباب ضخم بمسامير من حديد وفناء يبلغ من السّعة ما يكفيه لابتلاع العالم كلّه. ورأى أسوارًا وأسوارًا، وفكّر في أنّ في وسع المرء أن يعيش في قصر طوال حياته، لكنّه لن يراه كلّه.

اقتيدوا إلى مخزن ذي أرضيّة ترابيّة وسقف عالٍ وسطح من قشٍّ ونحوه ـ إنّه بيت شوتا الجديد. وكان داخل المخزن رجل قويّ البنية، مقطّب الحاجبين، يتعذّر تحديد عمره. كانت أصابعه سحريّة تشفي الحيوانات من أمراضها، لكنّها عديمة النّفع والفائدة على البشر لأنّها لا تستطيع شفاء أمراضهم. كان اسمه تاراس السّيبيريّ. وعلى الرّغم من أنّ المكان كان يخلو من الجياد، إلّا أنّه كان في الإمكان سماع صهيل بعض منها على مقربة، إذْ لا بدّ أنّها انزعجت وتضايقت من الحضور. كانت الجياد تمقت الفيلة، على حدّ تعبير تاراس، منذ الأزل. وأضاف أنّه لا بدّ أن يكون خوفًا لا صحّة له يراود الخيل لأنّه لم يسمع في حياته عن فيل يكيل اللّكمات واللطمات لجواد.

فحص تاراس فم شوتا وعينيه وخرطومه وبرازه. وحدَّج جَهان بنظرة ثاقبة، لامه فيها على ما أصاب الحيوان من سوء الحال كما هو واضح. فشعر جَهان بانحطاط قدره، وبالخجل. لقد كان الاثنان على متن الرّحلة نفسها، لكنّ شوتا أوشك على الانهيار في حين أنّه لا يزال مفعمًا بالحيويّة والنّشاط مثل الهلال العالي.

وضع المداوي مقدارًا من المرهم تفوح منه رائحة عفنة على أورام شوتا بمهارة وحذر، ولفّ خرطومه بنسيج قنّبي غليظ محشوّ بأوراق

Twitter: @ketab_n

مطحونة ومادّة صمغيّة عطرة الرّائحة علم جَهان لاحقًا أنّها تستخرج من نبتة المرّ. ولمّا لم يعرف الفتى كيف يمدّ يد العون لتاراس، فقد أتى بدلو من ماء نقيّ وضعه بجانب أكداس الأعشاب والتّفّاح والكرنب والتّين، إنّها مأدبة بعد ذلك الطعام الفظيع في المركب. غير أنّ شوتا لم يلتفت إلى كلّ ذلك.

أكلت الغيرة قلب الغلام، وكان ممزّقًا، معذّبًا، تارة يتمنّى من كلّ قلبه بأن يتمكّن هذا الرّجل من شفاء الفيل، وتارة يخشى أن يحبّ الفيل هذا المداوي أكثر من حبّه له بعد أن يتمكّن من الوقوف على قدميه. قد يكون شوتا هديّة للسّلطان سليمان، لكنّ جَهان كان يؤمن من كلّ أعماقه بأنّه ملكه.

اقتيد جَهان إلى الخارج وهو مثقل بهذه الأفكار المهلهلة، فوجد رجلًا آخر يرحّب به ويبتسم له ابتسامة عريضة. إنّه هنديّ، واسمه سانغرام، وكان يبتهج كثيرًا عندما يلتقي شخصًا ما يتكلّم بلغته الأم، فاتّجه نحو الفتى كقطّ يتّجه نحو مدفأة طلبًا للدّفء.

ـ أهلًا وسهلًا. هذا هو بيتك الآن(١).

حملق جَهان مصعوقًا. فقال له سانغرام متسائلًا باللّغة التّركيّة: ما خطبك؟ ألا تفهم ما أقول لك؟

قال جَهان في عجالة: لغتنا مختلفة.

ثمّ أخبره عن القرية الّتي جاء منها، وهي قرية تقع في أعالي الجبال الّتي ترقد فوق السّحاب، بين الأرض والسماء. وكلّمه عن شقيقاته وعن أمّه الرّاحلة، في صوت مرتعش إلى حدٍّ ما.

رمقه سانغرام بنظرة تنمّ عن حيرة، وبدا كأنّه يوشك على أن يتفوّه بشيء مخيف، غير أنّه تجنّب قول ما كان يريد أن يقوله، وتنهّد وابتسم

---

(١) نطق الرّجل هذه العبارة باللّغة الهنديّة ما أثار حيرة الفتى (المترجم).

Twitter: @ketab_n

من جديد، وقال: حسنًا. دعني أصحبك إلى السّقيفة، لتلتقي بالآخرين.

وفي حين كان سانغرام يتحدّث عن أساليب العثمانيّين، سار الاثنان على امتداد ممشى متعرِّج بين سرادق الحديقة وفي اتّجاه بركة مياه كبيرة تحتوي على كلّ أنواع الأسماك. كانت أسئلة كثيرة تتزاحم في رأس الفتى يريد أن يطرحها عن الحياة داخل القصر، لكنّه كان في كلّ مرّة يتلقّى همسة مقتضبة جوابًا على كلّ سؤال. ومع هذا، فقد تمكّن من أن يفهم بعض الأمور. وعلم أن المكان يحتوي على أسود وفهود وقطط وحشية وقرود وزرافات وضباع وأيائل مسطّحة القرون وثعالب وقواقم وأنواع من السّباع وكلاب وقطط بريّة وقطط الزّباد، كلّها موجودة وإن كان لا يزال بحاجة إلى أن يراها أو يسمع أصواتها. وكانت تنتصب من تحت أشجار الآكاسيا، في الجهة اليمنى من المكان، أقفاص الحيوانات الوحشيّة، الحيوانات الموكل إلى بعض المشرفين أمر إطعامها وتنظيفها وتهدئتها والحفاظ عليها ليلًا ونهارًا. وقد وصل مؤخّرًا خرتيت من الحبشة، لكنّه لم يعش طويلًا. وعندما لا يكون ثمّة طلب على الحيوانات، فإنّها تُرسل إلى أماكن أخرى من المدينة برفقة مروِّضيها. وكانت الحيوانات الكبيرة الحجم تقيم في القصر القديم، إذْ بات اليوم مأوًى لحيوانات السّلطان، ذلك القصر الملكيّ الّذي كان مقرّ إقامة نبلاء بيزنطة والذين تجري في عروقهم دماء الملوك. أمّا بقيّة الحيوانات، فكانت تقيم في كنيسة قديمة بالقرب من آيا صوفيا. وقد كان منَ المرجّح أن يُرسل شوتا إلى الكنيسة، لكن بسبب صغر سنّه وبياضه الغريب والاستثنائي، تقرّر أن يبقى في قصر السلطان في الوقت الراهن.

كان بعض المشرفين قد قدموا من كلّ أرجاء الإمبراطورية، والبعض الآخر من جزر غير موجودة على الخريطة. وكان المسؤولون عن الطّيور والدّواجن يقيمون في بيت آخر غير هذه البيوت، جنوب وكنات الطّيور. وكانت الغزلان والطّواويس والنّعام تتجوّل من شروق

Twitter: @ketab_n

الشّمس حتّى غروبها داخل هذه المباني وخارجها. كان قصر السّلطان عالمًا في ذاته. وإذا كان مملوءًا بمخلوقات وحشيّة، فإنّه لم يكن على وجه العموم أشدّ وحشية من المدينة نفسها.

تنقسم الحياة الوحشيّة في الدّاخل قسمين اثنين هما، الحيوانات المفترسة وحيوانات الزينة، ويرجع السّبب في هذه التّسمية إلى أنّ النوع الأوّل ذا طبيعة وحشيّة، والنوع الثاني ذا طبيعة ساحرة وبهيجة. ومثلما لا يختلط النّمر بالعنادل، فإنّ المشرفين عليهما لا يختلط بعضهم ببعضهم الآخر. كما كان مدرّبو الحيوانات المفترسة مجموعة مختلفة. فمن بين مئات العبيد بين هذه الجدران، فإنّهم لم يكونوا من بين الذين يتلقّون أعلى الأجور أو أفضل الطّعام، وإن ظلّوا الأكثر مدعاة للاحترام والتقدير.

كان نزل جَهان يتألّف من كوخ مشيّد بالخشب والآجر المشويّ، وفيه تسعة رجال: رجل ضخم الجثّة، أحمر الشّعر، وأحمر الشّارب يتولّى مسؤوليّة الأسود ويدعى أوليف، ومدرِّب زرافات مصريّ، أحول العينين، ويلقب دارا، ومروِّض تماسيح أفريقي تغطّي النّدوب كلّ أنحاء جسده وينطبق عليه الاسم كاتو، وتوأمان صينيّان يهتمّان برعاية القرود وهما من مدمني الحشيش، وهو ما سوف يكتشفه جَهان قريبًا، ومدرِّب دببة يدعى ميركا يشبه بمكنبيه العريضين وساقيه الثّقيلتين الدّبّ نفسه. وثمة اثنان من سائسي الخيل يهتمّان برعاية الجياد والعناية بها، فضلًا عن تاراس السّيبيريّ وهو المداوي الّذي التقاه من قبل. حيّاه الرّجال بصمت يثير الانزعاج وهم مندهشون من صغر سنّه، وتبادلوا النّظرات الخاطفة كأنّهم أدروكوا شيئًا ما فيه لكنّه لم يفهمه.

أحضر سانغرام له طاسةً من الرّزّ المطبوخ بالحليب الحلو، وقال له: خذ قليلًا، فهذا له مذاق طعام البيت، ثمّ أضاف بنبرة تأمّريّة هامسًا: إنّ طعامهم ليس طيّب المذاق مثل طعامنا، ويستحسن بك أن تعتاده.

التهم جَهان الطّبق بينما راح الآخرون يراقبونه بفضول صامت. لم

Twitter: @ketab_n

يشبع جوعه. ولكن لم يقدّم له أحد أيّ شيء آخر يأكله، كما أنَّه لم يطلب مقدارًا آخر من الطعام. ثم غيّر ثيابه ولبس الثياب التي أعطوه إيّاها وكانت تتكوّن من قميص باهت اللّون بردنين عريضين وكنزة صوفيّة وسروالٍ، إضافة إلى حذاء جلديّ طويل السّاق. وبعد ذلك، خرج هو وسانغرام يتجوّلان. وضع الخادم مادّة شمعيّة مدوّرة في فمه ولم يعرف الفتى أنّها عجينة مكوّنة من التّوابل والأفيون. وبعد برهة، لانت ملامح وجهه وانطلق لسانه، فأخبر جَهان عن قانون السّلطان سليمان الخاصّ بالصّمت، وأضاف أن المتوقّع من كلّ فرد أن يلتزم بالهدوء، وإن كان القانون تطبيقًا صارمًا في الصّحنين الأوّل والثّاني على العكس من الصّحنين الثّالث والرّابع، وأنّ الكلام والضّحك بصوت عالٍ والصّراخ أمورٌ ممنوعة.

ـ وماذا عن الغناء؟ إنّ شوتا يروقه أن يستمع للغناء قبل أن يخلد إلى النّوم.

قال سانغرام مكرِّرًا وكأنّه يحاول أن يشرح شيئًا ما لم يستطع هو نفسه أن يفهمه: الغناء... الغناء مسموح به إذا كان غناءً بصمت.

توقّف الاثنان لدى اقترابهما من أسوار الحديقة، حيث عثرا على أيكة التّنوب الطّويلة كأنّها مثل جنود حراسة في حالة الاستعداد التّامّ. وكانت أغصانها قد شكّلت مظلّة.

قال سانغرام بصوت صارم: لا تذهب إلى ما وراء هذا السّور.

ـ لماذا؟

ـ لا تسألني، بل أطع الأوامر.

شعر جَهان بضيق في بطنه، ربما كان واضحًا، لأنّ سانغرام قال له: وجهك غير مألوف تمامًا.

ـ ماذا؟

ـ يبدو أنّك مسرور. أنت خائف. الخوف ظاهر عليك، ثمّ هزّ

Twitter: @ketab_n

رأسه، وأضاف: لا تستطيع النساء إخفاء مشاعرهنّ لأنّهنّ ضعيفات ولحسن حظهنّ، تراهنّ يتوارين خلف النِّقاب. أمّا الرّجل، فينبغي له أن يتعلّم كيف يخفي مشاعره.

سأل جَهان: ما الّذي يتعيّن عليَّ فعله؟

قال سانغرام: اخفِ وجهك، واختم على فؤادك، وإلّا لن يطول بك المقام حتى يجعلوا من كليهما هريسةً.

بعد قرابة ساعة واحدة، بات جَهان ليلته الأولى في إسطنبول متخشِّبًا فوق حشية خشنة الملمس، مصغيًا لأصوات المساء. فهذه بومة تنعق على مقربة منه، والكلاب تنبح في مكان ما على مسافة بعيدة. أمّا داخل السّقيفة، فلم يكن المكان أقلّ ضجيجًا، إذْ كان رفاقه يشخرون ويتقلّبون ويتحدّثون ويضرطون ويصرّون على أسنانهم في نومهم، كان أحدهم يتكلَّم، وإن كان لا يدري من هو، بلغة لم يسبق له أن سمعها، هذا إن كانت لغة على أيّ حال. وانضمّت معدته إلى الجلبة وراحت تقرقر. فكّر في الطّعام، لا سيّما فطائر اللّحم المتبّلة بالبهارات، غير أنّ هذا التّفكير جعله يستعيد صور أمّه دائمًا، فتوقّف عن الاسترسال في تلك الأفكار. استدار نحو النّافذة وحدّق إلى السّماء، فرآها لا تشبه تلك الّتي كان يشاهدها كلّ يوم عندما كان على ظهر المركب، وظنّ أنّه لن يتمكن أبدًا من أن يحظى بقسط من النّوم، غير أنّ إرهاقه تغلّب عليه.

استيقظ جفلًا، على أثر أحلام مضطربة مشؤومة. ثمّة مَنْ يتنفّس فوق رقبته ويحتكّ بمؤخّرته، بينما غطّت يدٌ فمَه وجذبت يدٌ ثانيةٌ سرواله. ارتبك جَهان واضطرب وحاول أن يتملّص، غير أنّ الرّجل كان أشدّ قوّة وبأسًا منه، فدفعه وضغط عليه بكلّ ما يملك من قوّة. ضاقت أنفاس الفتى ولم يستطع التّنفّس، وفي تلك اللّحظة، أدرك الرّجل أنّه يوشك أن يخنق جَهان، فأبعد يده جانبًا. وفي تلك اللّحظة أيضًا، غرز جَهان أسنانه بكلّ ما يستطيع من قوّة في إبهام المهاجم، فندت عن

Twitter: @ketab_n

الأخير شهقة ألم، مرّة ومفاجئة. ووثب الفتى على قدميه مرتعشًا، ورأى تحت نور الشّمعة المغبرّ، مروِّض الدّببة.

همس ميركا: تعال إلى هنا.

وأدرك جَهان من نبرة الرّجل أنّه لا يريد أن يكتشف أمره، فصاح بأعلى صوته منتهكًا كلّ قوانين الصّمت، من دون أن يحسب حسابًا لما قد يحدث إن سمعه الحراس: إذا لمستني ثانية فسوف يسحقك فيلي، بل سوف يقتلك!

نهض ميركا واقفًا على قدميه وجذب سرواله إلى أعلى، وسار باتّجاه فراشه من دون أن ينظر إلى بقيّة المروِّضين الّذين استيقظوا على أثر الجلبة، وتمتم: فيلك صغير جدًّا.

لكنّ جَهان زعق: سوف يكبر.

لاحظ الفتى أنّ أوليف كان يراقبه بنظرة مودّة واستحسان، فهتف مدرِّب الأسود من مكانه: أيّها الشّاذّ ميركا، إذا لمست الفتى الهنديّ ثانية فسوف أدقّ خصيتيك بحجر. هل تسمعني؟

قال ميركا: عليك اللّعنة!

اتّجه الفتى إلى فراشه وقلبه يخفق خفقانًا عظيمًا، لكنّه رقد موليًا ظهره إلى النّافذة هذه المرّة، كي يتمكّن من مراقبة الغرفة بدقّة. وأدرك أنّه يتعيّن عليه أن يكون يقظًا ومحترسًا طوال الوقت، حتّى في نومه، داخل القصر. إنّه لا يستطيع البقاء في هذا المكان مدّة طويلة. وينبغي له أن يعثر بأقصى سرعة على المكان الّذي يخبّىء فيه السّلطان ثروته، وأن يملأ حقائبه ويرحل. وأدرك بحزن أيضًا أنّه يتعيّن عليه أن يفارق الفيل الأبيض ويتخلّى عنه. شوتا مخلوق ملكيّ. أمّا جَهان فليس ملكيًّا.

لم يعرف جَهان أنّ شوتا كان مستيقظًا أيضًا في سقيفته، مصغيًا وقلقًا، ففي جوف اللّيل البهيم الّذي كان سواده يطغى على كلّ لون آخر، شمّ رائحة الحيوان الوحيد الّذي كان يملأ قلبه رعبًا ـ النّمر.

Twitter: @ketab_n

لا يعرف أحد عدد هؤلاء النّاس الّذين يعيشون في القصر، لكنّ تاراس السّيبيريّ الّذي أنفق مدّة أطول من غيره في المكان، يتذكّر، إذْ قال إنّ عددهم يوازي عدد النّجوم في السّماء، وعدد الشّعرات في لحية الحاج، والأسرار الّتي تحفل بها رياح البحر العاتية. بيد أنّ آخرين يعتقدون أنّ العدد لا يقلّ عن أربعة آلاف نسمة. ووجد جَهان نفسه مرّات ومرّات يحدِّق إلى البوّابات العملاقة الّتي تفصله والآخرين عن الصّحون الدّاخليّة، وتساءل عن نوع النّاس الذين يعيشون في الجانب الآخر.

لم يكن جَهان الشّخص الوحيد الّذي يؤرقه فضوله، إذْ كان كلّ من يعرفه من مروِّضي الحيوانات يثرثر ويهذر بنبرات خفيضة وخافتة عن مختلف الناس الّذين يعيشون في القصر ـ المسؤول عن صانعي الحلويات، رئيس التّشريفات، متذوِّقو الطّعام الّذين يتفحّصون الأطباق قبل تقديمها للسّلطان. ولمّا كان المروِّضون توّاقين إلى اكتشاف ما هو أكثر وأكثر عن سكّان القصر، فقد انشغلوا بالقيل والقال انشغالًا جادًّا، مستمتعين بكلّ جزء من ثرثرة يجدونها حلوة وعذبة مثل قطعة من السكَّر الذّائب في الأفواه. وكانوا مفتونين في المقام الأوّل بالسّرايا والجواري اللّواتي كنّ بعيدات عن أعين الرّجال جميعًا باستثناء السّلطان والخصيان، ما دفع المروِّضين إلى أن يتخيّلوهنّ بأيّ صورة يتمنّونها. وكانوا يرسمون في مخيّلتهم بكلّ حرّيّة وجوه النّساء من دون تفاصيل واعدة وكأنّها صحائف بلا كتابة. ليس في وسع المرء أن يثرثر عن المفضّلات لدى السّلطان، ولا حتّى همسًا، إلّا إذا كانت السّلطانة نفسها الّتي كان الآخرون يكرهونها على ما يبدو، ويشعرون بأنّها تستحقّ السّبّ والقذف.

Twitter: @ketab_n

كانوا قد سمعوا حكايات لا تنتهي عن الحريم، بعضها حقيقيّ، والقسم الأعظم منها متخيَّل. فالبوّابات يحرسها الخصيان السّود الّذين تعرّضوا للخصي بفظاعة ولم يعد بإمكانهم التّبوّل إلّا بوساطة أنبوب يحملونه بين طيّات زنانيرهم. ولمّا كان الإسلام يحرِّم الخصي مهما كان نوعه وشكله، فقد عمد التّجّار النّصارى واليهود إلى استخدام التّجّار العبيد لممارسته في مكان آخر. فكان يُجرى القبض على الغلمان من مجاهل أفريقيا ويتمّ تجريدهم من رجولتهم. أمّا الّذين ينجون برجولتهم فيؤتى بهم إلى القصر وينقلوا إلى إسطنبول. وقد توفّي عدد كبير من هؤلاء أثناء الرحلة، وأُلقي بجثثهم في عرض البحر. وإذا كانوا على درجة من الموهبة والحظّ، فإنّهم يتقدّمون في مواقعهم. هكذا، فإنّ الخطيئة تستمرّ، يساهم فيها كلّ فرد، وإن لم يكن أحد يتحمّل وزرها. وقال سانغرام إنّ بيضات هؤلاء الرجال لم تكن قد أُزيلت وحدها، بل أيضًا في كثير من الأحيان قلوبهم وحدها، أزيلت أيضًا، وأنّ الرّحمة الّتي لم تشملهم في الماضي، لن تشمل الكلّ الآن. وإذا ما حاولت إحدى الجواري أو السّرايا الهروب، فإنّ هؤلاء الخصيان هم أوّل من سيعثر عليها.

كانت الحريم يشغلن حياة القصر برمّتها، صحيح أنّهنّ كنّ يعملن من وراء السّتار، غير أنّ قوّتهنّ عظيمة. وكان يُطلق عليهنّ تعبير «بيت السّعادة». وتمضي الأقاويل بتأكيد أنّ كلّ حجرة من حجرات هذا البيت وكلّ ردهة من ردهاته، متّصلة بحجرة نوم الوالدة، أمّ السّلطان. فعلى امتداد الأعوام، كانت هي وحدها الّتي تتأكّد ممّا تأكله مئات النّساء وما يشربنه وما يلبسنه في كلّ يوم. وما من كوب شاي يُحضّر، ولا أغنية تُغنّى، وما من جارية تأسر عين السّلطان من دون بركات الأم. وكان كبير الخصيان الأسود البشرة أذنيها وعينيها، لكنّها انتقلت إلى جوار ربّها الآن وانتقلت كلّ سلطاتها، وسلطات أخرى أكثر منها، إلى يدي السّلطانة.

Twitter: @ketab_n

كان اسمها خرَّم، لكنّ الكثيرين كانوا يلقبونها بالسّاحرة. وكانت كثيرة الأعداء وكثيرة الأصدقاء في الوقت نفسه. وقيل إِنّها كانت تسحر السّلطان وإِنَّها تدسّ السّمّ في عصيره المصنوع من ثمار الكرز الحامض وترشّه تحت وسادته، وتعقد ثيابه في اللّيالي الّتي يكون فيها القمر بدرًا. وبخلاف التّقاليد الّتي مضى عليها ثلاثمئة سنة، تزوّجها السّلطان في احتفال مهيب ظلّ حتّى اليوم مدار حديث كلّ مشرب ومبغى، وحانة أفيون في البلدة.

كان الفتى على دراية بتلك المشارب والحانات وبيوت الدّعارة، لكنّ سانغرام كان يروقه أن يروّج الأقاويل، وكانت كلّ مصادر معلومات جَهان عمّا يحدث داخل القصر وخارجه تأتيه منه.

سواء أكانت السّلطانة ساحرة أم لا، فإنَّه كان لديها نقطة ضُعفٍ تجاه الأشياء التي تُثير الفضول، فراحت تجمعها: كأصغر فتاة قزمة في الإمبراطوريّة، أو صندوق موسيقى بأقسام سرِّيَّة أو فتاة قرويّة ذات جلد يشبه جلد السحليَّة، أو بيت دمية مزيَّنة بالمجوهرات. وكانت تستحوذ على كلٍّ واحدة منها بالبهجة نفسها. وكانت تتقبّل كلّ واحدة من هذه الحكايات بالبهجة. ولمّا كانت تهيم حبًّا بالطّيور، فقد دأبت على زيارة وكنات الطّيور، وكانت تفضّل أحد الببّغاوات، له بطن أخضر وجناحان قرمزيّان وكانت علّمته كلمات كثيرة راح الطّائر يردّدها بصوته القبيح العالي كلّما اقترب السّلطان سليمان منه، فيجعله يبتسم. وقد استمتعت خرّم بإطعام الغزلان والمهور، غير أنّها لم تنفق أيّ وقت برفقة الحيوانات المفترسة. وفكّر جَهان في أنّ هذا شيء حسن ما دام كان يخاف منها، وكيف لا يخاف من امرأة تقرأ الأفكار وتسرق الأرواح؟!

مرَّت الأسابيع الأولى في «بيت العرس» من دون حوادث، تعافى فيها شوتا رويدًا رويدًا؛ واستعاد وزنه ومزاجه الرّائق، ومُنح سرجين، الأول من المخمل الأزرق المطرّز بخيوط من فضّة ويُستخدم للاستعمال

Twitter: @ketab_n

اليوميّ، في حين يستخدم السّرج الثّاني في أيّام الاحتفالات، وهو غطاء من نسيج ذهبيّ سميك الملمس. راق جَهان ملمس وأشغال الإبرة على أطراف أنامله، ولم يعد يرثي للأقمشة الغالية الثّمن الّتي كان شاه همايون قد أرسلها برفقة الفيل، والّتي نهبها منه بحّارة القبطان غاريث من دون خجل في تلك السّفينة المشؤومة.

وفي اللّيل، وبعد أن يغمض عينيه بوقت قصير، كان يتراءى له وجه زوج أمّه من وراء العتمة. كان يشتاق إلى حدٍّ ما إلى العودة إلى قريته، ليقتله. يا للأسلوب الّذي اتّبعه فقضى به على أمّه! ركلها في بطنها حتى وهو يعلم، وكيف لا يعلم أنّها كانت حبلى؟! من ناحية أخرى، كان ثمّة جانب أكثر حكمة يهمس في أذنه بوجوب عودته، ولكن ليس الآن. ما الضّرر الّذي يمكن أن يلحق به إذا ما احتفظ لنفسه ببعض المجوهرات بعد سرقتها؟ فالقبطان غاريث لن يكتشف ذلك أبدًا، عندذاك يمكنه الرّجوع إلى دياره ثريًّا، وقويًّا، وسوف ترحّب به شقيقاته، وبقدر ما كان حزنهنّ طاغيًا بسبب رحيله عنهنّ، فإنّ فرحتهنّ الكبيرة لمرآه عائدًا من جديد إليهنّ سوف تزيل كلّ حزن. وسوف يقبّلن يديه، إذْ سيرمي جَهان بالثّروة على أقدامهنّ: ألماس وزمرد وياقوت.

ثم يصادف في يوم من الأيّام فتاةً شابّة، جميلة كالبدر، أسنانها كاللّؤلؤ، نهداها مثل حبّتي سفرجلٍ ناضجتين، وسوف تبتعد عنه لكنّها سوف تنعم عليه بابتسامة عابرة قبل ذهابها. وسوف ينقذها من خطر ماحق (غرق أو عصابة من اللّصوص أو حيوان مفترس - هذا الجزء من الحلم يتغيّر كثيرًا). وسوف يتذوّق طعم شفتيها بعد أن يقبّلها فيحسّ بهما كأنّهما بطعم قطرات المطر، وستكون معانقتها أعذب من التّين الحلو. وسوف يغرم أحدهما بالآخر، وستغمره بعناقها كأنّه مياه عطرة، وتكون سعادتهما نقيّة وطاهرة حتّى وإن مرّت سنوات على وفاتهما بعد عمر طويل، أحدهما في حضن الآخر، وسوف يتذكّرهما النّاس كأسعد

Twitter: @ketab_n

زوجين تحت سماء الله.

لولا مروِّض الأسود أوليف الّذي وضعه تحت رعايته، وهو الرّجل الّذي يتّصف بشجاعة لا تضاهيها شجاعة وإقدام أيّ إنسان آخر، وإن كان له شاربان غريبان، يمشّطهما ويدهنهما ويعطّرهما خمس مرّات في اليوم الواحد، لكانت أيّامه الأولى في ذلك البيت، شاقّة. كان شأنه شأن جَهان، فقد كانت له أسرة تنتظره في مكان ما، حياة فقدها عندما أخذته، وهو في سنّ العاشرة، مجموعة من تجّار الرّقيق. وقد قرّر مصيرَه شعْرُه الأحمر وبنيانُه المتين وبسالته. وبعد أن سُرِقَ من أسرته، جيء به إلى القصر العثمانيّ الّذي لم يغادره منذ ذلك الوقت.

كان المروِّضون يغسلون فجر كلّ يوم وجوههم من نافورة رخاميّة، ماؤها البارد يزيد من توهُّج حمرة أيديهم. وقبل الظّهر، يتناولون معًا شوربا القمح والخبز. وفي المساء، يأكلون الرّزّ المطبوخ بشحم الخروف. وعندما يهبط الظّلام، يضعون رؤوسهم على أكياس خشنة تحتشد بأسراب من القمل الزّاحف الّذي ينتشر في كلّ مكان، والبراغيث المتنقّلة من الحيوانات إلى البشر ومن البشر إلى الحيوانات. وإذا ما عضّ برغوث، وهو ما يفعله دومًا، فإنّه يترك أثارًا تثير الغضب تنتفخ كثيرًا إذا تعرَّضت للحكّ. وكان المروِّضون يعمدون مرّات ومرّات إلى فحص حيواناتهم، كبيرة كانت أم صغيرة، ويفركون أجسامها بمسحوق الكافور والهال وعشب اللّيمون. لكنْ، بغض النّظر عن دقّة تفتيشهم وبحثهم، فإنّ أيّ برغوث من هذه البراغيث ينجو، كان يكفي للتّكاثر.

كان رئيس الخصيان الأبيض المعروف لدى كلّ امرئ باللّقب كامل آغا القرنفلي يزور المكان مرّتين في الأسبوع لإجراء التّفتيش. ولم يوبّخ أحدًا ولم يرفع صوته، لكنّه كان على الرّغم من كلّ ذلك واحدًا من أكثر النّاس إثارة للهلع في القصر، وكان عبوسه أشدّ حدّة من الفولاذ، كانت بشرته من الشحوب بحيث كان من الممكن أن يرى المرء أثار العروق

Twitter: @ketab_n

الدقيقة من تحتها. ثمّة حلقات في الممرّات، لأنّه لم يكن قادرًا على النّوم أكثر ممّا تنام بومة تقتفي أثر طريدتها. وكان المروِّضون ينهمكون في التّنظيف إلى ما لا نهاية وهم يعلمون أن أقلّ قذارة تؤدّي إلى وقوف شعره. فكانوا ينظِّفون البول من المغاسل ويرفعون القاذورات ويغسلون الأكواب بعد استعمالها. لم يكن جَهان متأكّدًا من أنّ الحيوانات تفكِّر كثيرًا في هذا السّعار لأنّها كانت محرومة من الرّوائح الطّبيعيّة ـ روائحها وروائح بقيّة الحيوانات ـ فتراها تضطرب ولا تستدلّ على مواقعها. ولم يكن أحد من المروّضين يملك من الشّجاعة ما يكفي لكي يفصح عن ذلك للمخصيّين. ولكن، على الرّغم من ذلك، كانوا يبذلون عناية فائقة في رعاية حيواناتهم، إذْ كانت حياتهم تعتمد على رفاهيّتها. فإذا ما تحسّنت أحوالها، تحسّنت أحوالهم أيضًا، وإذا فقدت الحظوة الّتي كانت تتمتّع بها، فإنَّهم يفقدونها أيضًا.

في يوم من أيّام منتصف شهر نيسان، حدث حادث غريب، إذْ كان جَهان في طريقه لإعادة شوتا إلى مكانه، عندما ترامى إلى مسامعه حفيف من وراء صفّ من الشّجيرات ـ وكان حفيفًا واهنًا، لكنّه قريب جدًّا، ما دفعه إلى الخوف. بيد أنّه لبث يقظًا، متظاهرًا بأنّه لم يلحظ أيّ شيء. ولم يمض وقت طويل حتى ظهر من تحت العشب نعل موشّى بالحرير، وكأنّه ثعبان صغير، لم يدرك أنّه في العراء.

أدرك جَهان الآن أن ثمة فتاة مختبئة في ذلك المكان، فقدح زناد فكره، وأعمل ذاكرته بمن تكون، إذْ ليس من بين المروِّضين أيّ فتاة، ولا يمكن السّراري أن يخرجن إلى مثل هذا المكان النّائي، بل يستحيل خروجهنّ من دون وصيفة مصاحبة لها. ولمّا لم يرغب في بث الرّعب

Twitter: @ketab_n

في قلبها، فقد نأى بنفسه عنها مفترضًا أنّ كلّ ما كانت تبغيه هو مشاهدة الفيل الأبيض عن قرب، لهذا واظب على عمله وتركها تتجسّس عليهما، غير أنّها كانت تتحرّك في مكانها، إذْ كان في وسعه أن يسمع صوت تكسّر الأغصان الصّغيرة من تحت قدميها وحفيف ردائها، وهي متخفيّة دومًا. ومع اقتراب الشّهر من نهايته، كان جَهان قد اعتاد على المتطفّلة الغامضة. وكان رضاه بها وكثرة اختبائها قد دفعا بكليهما إلى عدم تجاذب أطراف الحديث لولا زنبور.

ففي صباح ذلك اليوم، كان جَهان ينظِّف كتلة من التّربة عالقة بذيل شوتا عندما صكّ سمعه زعيق يشقّ عنان السّماء، واندفعت فتاة من وراء العوسج، يتطاير شعرها في كل اتّجاه، ومرّت أمامهما وهي تلوِّح بيديها وتهتف بكلمات متتالية غير مفهومة، واندفعت إلى مأوى الفيل وأغلقت الباب بقوّة جعلته ينفتح ثانية.

أمسك جَهان بورقة كبيرة، وراح يهزّها في وجه زنبور كان يطاردها، وقال: هيّا.

ظلّ الزّنبور يصدر أزيزًا عاليًا ويدور بضع مرّات محبطًا، وبعد أن شعر بالإنهاك، اتّجه إلى أقرب عشبة.

قال جَهان: لقد ولّى.

ـ سوف أخرج. اخفض رأسك أيّها الخادم.

وظهرت الفتاة، فارعة القدّ، نحيلة، رشيقة الحركة، وقالت وهي ترفع أنفها: أرجو من الله أن يغفر لي ما تفوّهت به، لكنّني لا أعرف سبب خلقه الزّنابير.

تقدَّمت نحو الفيل، يدفعها حبّ الفضول لرؤية الحيوان عن قرب. اختلس نظرة عابرة في اتّجاهها، ولاحظ النّمش الصّغير المنتشر على وجنتيها مثل ورود مخمليّة. ولاح رداؤها بلونه الأخضر الفاتح وكأنّه

Twitter: @ketab_n

أبيض تحت نور الشّمس، كما ظهر شعرها المتموّج من تحت وشاحها الّذي كانت تلفّ به رأسها على نحو فضفاض.

وسألت: هل شاهد صاحب الجلالة أبي المعظّم هذا الحيوان؟

بلع جَهان ريقه بعد أن أدرك الآن هويّة المتحدِّثة، فانحنى إلى أدنى حدّ ممكن، وقال: يا صاحبة السمو مِهرماه!

أومأت الأميرة برأسها من دون اكتراث، كأنّ لقبها لا يهمها. أمّا عيناها الكهرمانيّتان فقد عادتا إلى شوتا.

- هل ترغب صاحبة السّمو في التّربيت على الفيل؟

- وهل يعضّ؟

ابتسم جَهان، وقال: «يمكنني أن أؤكِّد لسموِّك أنّ شوتا لا يتّصف إلّا بالرِّقّة واللّطف.

اقتربت من الحيوان بحذر واحتراس ولمست جلده المتغضِّن. في تلك اللّحظة، سنحت لجَهان فرصة أخرى لكي ينعم النّظر إليها، فلاحظ قلادة ثمينة تحتوي على سبع لآلئ بيضاء اللّون كالحليب، كلّ واحدة منها أكبر من بيضة عصفور. وانتقلت نظرته إلى يديها. يا لهما من يدين رقيقتين! رفعتهما إلى صدرها تارة وشبكتهما تارة أخرى بتوتّر. وكانت هذه الحركة الأخيرة هي التي جذبت انتباهه، وشعر بأنّ الفتاة تحمل تحت الألوان والمتناقضات روحًا مضطربة مثل روحه، وإلّا لما امتلك الجرأة على أن يقول ما قاله بعد ذلك: النّاس يخشون الحيوانات، لكنّنا قساة القلوب، أمّا هي فليست قاسية. إنّ التّمساح أو الأسد لا تبلغ بهما القسوة ما تبلغه بنا.

- يا له من كلام يثير الضّحك! هذه حيوانات مفترسة، لهذا السّبب نحتجزها في أقفاص، لأنّ في وسعها أن تلتهمنا.

- مذْ جئت إلى هنا يا صاحبةَ السّموّ، لم أسمعْ عن حيوان يهاجم

Twitter: @ketab_n

أيَّ شخص إلّا إذا تركْناه يتضوّر جوعًا حتّى الموت، وإذا لم نزعج هذه الحيوانات، فإنّها لن تزعجَنا. أمّا البشر، فليسوا كذلك، لأنّ الإنسان ميّال إلى الشرّ سواء أكان جائعًا أم لا. أين يمكنك أن تنامي في أمان وسلام، بجانب شخص غريب ببطن مملوء، أم بجانب أسد يحظى بطعام جيّد؟

تأمّلته برهة، وقالت: أنت فتًى غريب. كم عمرك؟

ـ اثنا عشر عامًا.

ـ قالت: أنا أكبر منك، فأنا أكثر علمًا.

ظلّ جَهان منحنيًا، لكنّه لم يستطعْ منعَ نفسه من الابتسام، فهي لم تقل حتّى الآن ما هو واضح تمامًا: إنّها كريمة المحتدّ وإنّه نكرة. قالت إنّها أكبر سنًّا وكأنّهما متساويان أو أنّهما سيصبحان متساويين يومًا ما. وعندما استدارت على عقبيها، سألته ما اسمك؟

شعر بالخجل لأنّه إذا ذكر اسمه فسوف يرتبك، ويشعر بالإلفة إلى حدٍّ كبير. فقال: إنّ اسم الفيل شوتا يا صاحبة السّموّ. أمّا اسمي فهو جَهان، لكنّ والدتي...

ـ ما خطبها؟

لم يسبق له أن ذكر لأحد ما سيقوله الآن، ولم يعرفِ السّبب الّذي دفعه إلى ذلك، لكنّه قال في نهاية الأمر: لقد سمّتني بالاسم هايسينيث[١].

ضحكت مِهرماه، وقالت: يا له من اسم مضحك لا يناسب الفتيان!

وعندما شعرت بأنّه أهين بكلامها، أضافت بهدوء أكبر: لماذا؟

---

(١) هايسينيث Hyacinth: هو لون يتراوح بين البنفسجيّ الخفيف والأرجوانيّ المعتدل (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ـ عندما ولدتُ، كان لون عينيّ أرجوانيًا غريبًا، فقالت أمّي إنّ سبب ذلك يرجع إلى أنّها كانت تأكل نبتة الحدقيّة عندما كانت حبلى بي.

تمتمت: عينان بهذا اللّون... وأين هي والدتك الآن؟

ـ لم تعد في عالم الأحياء يا صاحبةَ السّموّ.

قالت: إذًا أنت يتيم. أنا شخصيًّا يراودني الشّعور نفسه أحيانًا.

ـ إنّ والديك النّبيلين على قيد الحياة، وأتمنّى أن يمدّ الله في عمريهما.

في تلك اللّحظة، انساب إلى سمعِهما صوت امرأة من ورائهما، قائلة: كنت أفتِّش عنك في كلّ مكان يا صاحبة السّموّ. لم يكن ضروريًّا مجيئك إلى هنا بمفردك.

بانت للعيان امرأة ممتلئة الجسم، متورِّدة الخدّين، ثاقبة النّظرات، رقيقة الشّفتين تزمّهما استهجانًا. وكانت ذات فكّين حادّين يوحيان بأسنان مطبقة. سارت باتّجاههما من دون أن تلتفت إلى الفيل أو سائسه، وكأنّ هذه الحديقة المترامية الأطراف، المحتشدة بالأزهار والحيوانات لا تحتوي على شيء كي تركِّز نظراتها فيه، ولو لبرهة ـ سوى الأميرة.

التفتت مِهرماه إلى جَهان وهي مغتبطة اغتباطًا شيطانيًّا، وقالت: مربّيتي قلقة عليَّ دائمًا.

قالت المرأة: كيف لا أقلق عندما يكون حبّي ضوءًا ساطعًا والعالم غارقًا في الظّلمة؟

ضحكت مِهرماه، وقالت: مربّيتي لا تروقها الحيوانات، لسوء الحظّ، إلّا قطّها كارداموم.

تبادلت الاثنتان نظرة خاطفة، غامضة ومراوغة، لا سبيل إلى

Twitter: @ketab_n

فهمها، فجأة بدت مِهرماه مرتبكة، وقالت: هل استفسرت مولاتي الأمّ عنّي؟

ـ الحقّ أنّها استفسرت، فأخبرتها بأنّك في الحمّام، تستحمّين يا صاحبة السّموّ.

قالت مِهرماه مبتسمة: ألستِ منقذتي؟ ماذا أفعل من دونك؟

ثمّ رفعت يدها، كأنّها تلوّح بمنديل متخيّل، وقالت: وداعًا يا شوتا، ربّما سآتي من جديد وأراك.

هكذا عبّرت عن أمنياتها الطّيّبة للفيل، من دون أن تقول كلمة واحدة لجَهان، واتّجهت ناحية ممشى الحديقة وفي أعقابها المربية، وظلّ جَهان وحده، فوقف برهة، ناسيًا أين هو وماذا يفعل، تدور في رأسه أسئلة بلا إجابات، وعطر يملأ أنفاسه وخضّة في صدره لم يعرفها من قبل.

Twitter: @ketab_n

ظنّ جَهان أنّها لن تأتي مرّة أخرى أبدًا، لكنّها أتت، مبتسمة وحاملة بعض الطّعام للفيل ـ ليس كمّثرى ولا تفّاحًا، بل طعامٌ شهيٌّ يتكوّن من التّين والقشطة والشّربت البنفسجيّ اللّون وعجينة من اللّوز المطحون والسّكّر وزلال البيض، يعلوها مربًّى مصنوع من تويج الأزهار أو الكستناء الممزوجة بالعسل، وهذه الأخيرة تكلِّف، كما يعلم جَهان، ثمنًا باهظًا. وراحت الأميرة تزور الفيل الأبيض في كلّ مرّة كانت تتضايق فيها من سراي السّلطان أو تكون مثبطة الهمّة، وتراقبه في دهشة، كأنّها متعجّبة من هدوء هذا الحيوان الضّخم واستسلامه. كان الفيل هو سلطان المكان، لكنّه لا يشبه والدها أبدًا.

لم تخضع زياراتها لأيّ نظام. ففي بعض الأحيان، كانت تغيب على مدى أسابيع متواصلة، فيظلّ جَهان يفكِّر في ما عساها فاعلة في صندوق تلك الأسرار الّذي يعرف باسم الحريم. ثمّ تظهر بعد ظهر كلّ يوم تقريبًا، وكانت مربّيتها حسنة خاتون تلازمها كظلّها، وإن كانت تبدو مرتبكة في كلّ الأحيان لإظهار الأميرة مثل هذا الاهتمام بالحيوان. وعلى الرّغم من أنّ المرأة كانت تستهجن اهتمام مِهرماه بالفيل وحبّها له، إلّا أنّها كانت حريصة في الوقت نفسه على الاحتفاظ بذلك سرًّا من الأسرار.

مرّت سنة كاملة، وحلّ صيف يصيب المرء بالإغماء من شدّة الحرّ. وكان جَهان يدّخر الأشياء القليلة الّتي كان يسرقها: مسبحة فضّيّة (من رئيس البستانيّين) ومنديل حريريّ مطرّز بالذهب (من خصيّ جديد) ومرطبان لوز وفستق (من الحجرة الملكيّة لحفظ أدوات المائدة

Twitter: @ketab_n

والأطعمة) وخاتم ذهبيّ (من مبعوث أجنبيّ زار مأوى الحيوانات). كان يعلم أنّها أشياء صغيرة تافهة ولا تكفي لإرضاء القبطان غاريث، لكنّه كان ما يزال عاجزًا عن معرفة المكان الّذي يحتفظون فيه بمجوهرات السّلطان، والحقّ أنّه لم يعد يفكّر في هذا الأمر إلّا قليلًا، بعد أن اعتاد الحياة في المأوى بمرور الوقت. كما لم يطرق سمعه شيء من القبطان غاريث منذ ذلك اليوم، وإن كان الرّجل لا يزال يلازمه في أحلامه، خطرًا يتهدّده قادمًا من بين الظّلال. ولم يستطع جَهان أن يحلّ لغز اختفاء القبطان، غير أنّ كلّ ما كان يعرفه هو أنّه قد يكون مسافرًا في رحلة بحريّة وأنّه انتهى نهاية تعيسة.

كانت كلّ الكلمات الّتي تبادلها جَهان والأميرة تدور تقريبًا عن الفيل الأبيض الّذي راح ينعم بالصّحّة والعافية ويزداد وزنه وطوله. لهذا، فوجئ جَهان يومًا ما عندما سألته مِهرماه على حين بغتة عن حياته الّتي أمضاها في هندستان، وكيف انتهى به المطاف إلى هذا المكان ـ وهذه هي الحكاية الّتي راح يحكيها لها في اليوم التّالي، إذْ جلسَتْ تراقبُه، في حين لم يتجرّأ هو على رفع بصره إليها، وكانت شديدة القرب منه، فتمكّن من أن يشمّ رائحة العطر في شعرها، عاجزًا عن نسيان حقيقة مفادها أنّ عوالم كثيرة تفصل بينهما:

الحكاية الّتي رواها المروّض للأميرة

كان يعيش في بلاد هندستان العظيمة والغنيّة صبيّ فقير اسمه جَهان، بيته كوخ على مرمى حجر من الطّريق الّذي كان يسلكه الجنود جيئة وذهابًا إلى قصر شاه همايون. وكان جَهان ينام تحت السّقف نفسه الّذي تنام تحته شقيقاته الخمس وأمّه وزوج أمّه الّذي كان أيضًا أكبر أعمامه سنًّا. كان جَهان فتًى محبًّا للاستطلاع، يهوى تركيب الأشياء بيديه، مستخدمًا لذلك الطّينَ أو الخشبَ أو الحجارةَ أو الرّوثَ أو

Twitter: @ketab_n

الأغصانَ الصّغيرة. وفي إحدى المرّات، صنع فرنًا كبيرًا في الباحة الخلفيّة اغتبطت له أمّه اغتباطًا شديدًا، لأنّه لم يكن يبعث دخانًا أسود مسبّبًا الدّوار مثل الفرن الّذي كانت تملكه سابقًا.

ولم يبلغ جَهان سنّ السّادسة من عمره حتى تبخّر والده في الهواء ـ وكان له والد ذات يوم. وكلّما سأل أمّه عن مكانه كانت تردّد الجواب نفسه: لقد سافر بحرًا، على متن سفينة متّجهة إلى مدينة الأنوار والظّلال تقع في بقعة نائية ـ حيث يحكم شاه أو سلطان آخر، وحيث توجد كنوز تفوق الخيال.

لو كان ثمّة غلام آخر لاكتشف أكاذيبها، لكنّ جَهان لم يكتشف. وتطلّب الأمر منه سنوات حتّى يفهم الأكاذيب اللّطيفة والمهلهلة الّتي كانت تنسجها والدته من حوله مثلما ينسج العنكبوت بيته هنا وليس هناك. وحتّى عندما تزوّجت أمّه بعمّه ـ وهو رجل ظلّ يهزأ بها طوال الوقت ـ فإنّ الفتى رفض الإقرار بأنّ والده لن يعود. وراقب بغضب لا أمل فيه عمّه يجلس على كرسيّ أبيه وينام في سريره ويلوك أوراق بيتاله من دون أن يتفوّه بكلمة شكر وامتنان واحدة. ولم يشعر الرّجل بالرّضى من أيّ عمل تؤدّيه والدتُه. فالنّار الّتي تضرمها ليست دافئة بما يكفي، والحليب الّذي تلمسه يفسد، وطعم الكعكة الّتي تعدّها ليس بأفضل من طعم التّربة، والجسد الّذي تمنحه إيّاه كلّ ليلة لا يفي بأيّ غرض، ما دام أنّها لم تنجب له ولدًا حتّى الآن.

وكان زوج أمّه يشعل حرب فيلة إذا لم يشكُ أو يتذمّر، أو يسبّ ويشتمّ. فعلّم هذه الحيوانات كيف تطارد وتقتل. وساعدته شقيقات جَهان، لكنّ جَهان لم يساعده. وبلغت بجَهان الكراهية لزوج أمّه حدًّا جعله يبتعد عن الرّجل وحيواناته باستثناء بكيزة ـ أنثى الفيل.

مرّ ألف يوم، وما زالت بكيزة لم تلد بعد. مرّت ثلاثة فصول من الخريف وثلاثة فصول من الشّتاء، وعاد الرّبيع من جديد. وأينعت شجرة

Twitter: @ketab_n

أمالتاس في نهاية الشّارع، وانتشرت الزّهور البرّيّة على المنحدرات، واستيقظت الأفاعي من سباتها العميق ـ لكنّ الوليد لم يولد. وازداد وزن بكيزة حتّى لم تعد تطيق الحركة إلّا نادرًا. وكانت كلّ يوم مكتئبة، فاترة الهمّة، أجفانها ثقيلة ثقل قلبها.

كان جَهان يأتيها صباح كلّ يوم بالماء العذب وبمقدار كبير من العلف، ويضع يده على جلدها المتغضِّن ويتمتم: «لعلّ اليوم هو اليوم الكبير. من يدري؟».

وكانت بكيزة ترفع رأسها مشيرة إشارة بطيئة ومتردِّدة، لكنّها كافية كي توضِّح أنّها سمعته، وأنّها تشاطره أمله على الرّغم من إعيائها. ثمّ تبدأ الشّمس بالتّسلّل إلى الجانب الآخر من السّماء، مطليّة الأفق بخيوط قرمزيّة، وعندذاك يشرف يوم آخر على النّهاية. وفي الأسابيع القليلة الأخيرة الّتي تسبق موسم المطر ورطوبة الجوّ الّتي تصبح خانقة، يصعب تحمّلها، ساورت جَهان الشّكوك في أنّ شيئًا ما ربّما قد أصاب رحم الحيوان، بل فكّر أيضًا في أنّ بكيزة ربّما تعاني من انتفاخ بطنها، وأنّ لا شيء وراء ذلك الانتفاخ سوى الخواء. لكنّه كلّما وضع أذنه على بطنها الكبير المتهدّل الّذي يكاد يلامس الأرض، سمع نبضات قلب وئيدة، لكنّها ثابتة. الفيل الصّغير موجود إذًا، لكنّه لأسباب يجهلها الكلّ، يتحيّن الفرصة المناسبة ليخرج، وينتظر مختبئًا.

في تلك الأثناء، راحت بكيزة تشتهي الأشياء الغريبة، فأخذت تلعق بشهيّة البرك الطّينيّة وتتلمّظ لمرأى الطّين الجاف وتلتهم براز البقر الصّلب، وكلّما سنحت لها الفرصة، تراها تمضغ قشرة جدران المأوى المطليّة بالبياض، مشجّعة عمّ جَهان بذلك على جلدها.

كانت جماعة بكيزة من الفيلة تزورها بين يوم وآخر لمعرفة حالتها، وبعد اجتيازها الغابة، تتمهّل في سيرها واحدًا إثر آخر وعيونها ثابتة على الممشى المغبرّ. خطواتها تضرب الأرض على وقع لا يسمعه غيرها.

Twitter: @ketab_n

وعندما تصل إلى غايتها، يلتزم الذّكور الصّمت في حين تقترب الإناث منادية بألسنتها القديمة. وفي الفناء، ترفع بكيزة أذنيها، وتردّ عليها بين وقت وآخر، وتطلب منها، بما تبقّى لديها من قوّة قليلة، ألّا تقلق عليها. وكانت تلبث ساكنة في معظم الأحيان، فلا يعرف جَهان ما إذا كان ذلك بسبب الخدر من شدّة الخوف أو الحبّ الّذي أُغدق عليها.

جاء الأهالي من كلّ حدبٍ وصوب لرؤية المعجزة، وتزاحم الهندوس والمسلمون والسّيخ والنّصارى حول كوخهم، وأحضروا معهم أكاليل الورود، وأوقدوا الشّموع وأشعلوا البخور وتغنّوا بالألحان. وقالوا إنّ الجنين لا بدّ من أن يكون مباركًا، إذْ إنّ الحبل السّرّيّ قد التصق بعالم غير مرئيّ، فربطوا قطعًا من القماش بشجرة ضخمة من أشجار تين البنغال، آملين بأن تصل دعواتهم إلى السّماء. ولمس الزّوّار بكيزة قبيل مغادرتهم، وتعهّدوا بألّا يغسلوها إلّا بعد أن تحقّق أمنياتهم. أمّا أشدّ النّاس وقاحة، فحاولوا نزع شعرة أو شعرتين من ذيل الحيوان، لهذا لبث جَهان منشغلًا في مراقبتهم.

وبين حين وآخر، كان يأتي أحد المعالجين إلى بابهم، إمّا بدافع الرّغبة في المساعدة أو حبًّا للإستطلاع، وكان أحد هؤلاء سيّد زيشان، وهو رجل هزيل ذو حاجبين واسعين، اعتاد معانقة الأشجار والصّخور والجلاميد كي يشعر بالحياة في داخلهما. وكان قبل عام واحد، فقد توازنه وسقط من على جرف عالٍ أثناء محاولة بذلها لمعانقة الشّمس بذراعيه، وظلّ طريح الفراش على مدى أربعين يومًا، ساكنًا، لا يتكلّم ولا تندّ عنه أيّ حركة باستثناء ارتعاشة عصبيّة صادرة من وراء جفنيه، وكأنّه ما يزال في حالة سقوط مستمرّ حتّى وهو في نومه. وراحت زوجته منذ ذلك الوقت تحزن عليه حتّى حلّ عصر اليوم الحادي والأربعين، فنهض واقفًا على قدميه المرتعشتين ومشى. ومنذ ذلك الوقت، ظلّ عقله متنقّلًا بين الماضي والحاضر، وكأنّه منشار يتحرّك، وانقسمت الآراء

Twitter: @ketab_n

بخصوص ما آلت إليه الحادثة، إذ اعتقدَ بعضُ النّاسِ أنّه حلّق بذلك إلى ملكوت أعلى لم يسبق لأحد أن وصل إليه من قبل، بينما اعتقدَ البعضُ الآخر أنّه فقد عقله، ولم يعد مقدّسًا.

لكن، بغض النّظر، ومهما كانت الأحوال، ها هو أمامنا، يضع أذنه على بطن بكيزة، مغمض العينين. وتكلّم بصوت خفيضٍ وأجشّ، كأنّه قادم من أعماق تلك الهاوية السّحيقة الّتي هوى إليها: الصّغير يصغي.

حبس جَهان أنفاسه، وجلًا ومتحمّسًا.

ـ أتعني أنّه يستطيع سماعنا؟

ـ على وجه التّوكيد. إذا ما صرخت وصببت اللّعنات، فلن يخرج أبدًا.

جفل جَهان إذْ تذكّرَ سيلَ اللّعنات والخصام المتردّد في أرجاء المنزل. الواضح أن عمّه المتوحّش أثار الرّعب في نفس الصّغير، وجعله يفقد صوابه.

لوّح المعالج بإصبع مشوّهة، قائلًا: اسمعني يا بني، ليس هذا وليدًا اعتياديًّا.

ـ ماذا تعني؟

ـ هذا الفيل... عاطفيّ أكثر ممّا ينبغي. وهو لا يريد أن يولد، فما عليك سوى طمأنته، وأخبره بأنّ الأمور ستكون على ما يرام، وأنّ هذا العالم ليس مكانًا سيّئًا إلى هذا الحدّ، وعندئذٍ سيخرج خروج السّهم من القوس. أغدقْ عليه الحبّ، وستجد أنّه لن يفارقك أبدًا.

ثمّ غمز بعينه لجَهان، كأنّهما يعرفان وحدهما سرًّا مشتركًا، بالغ الأهمّيّة.

في عصر ذلك اليوم، راقب جَهان السّماء وهي تزداد حلكة، فقدح

Twitter: @ketab_n

زناد فكره: كيف يمكنه إقناع هذا الصّغير بأنّ العالم يستحقّ أن يكون مكانًا لولادته؟ فالفيلة كانت تتجاذبُ أطرافَ الحديث طوال الوقت وهي تدمدم وتزعق وتصيح. يضاف إلى ذلك، أنّ المهمّة تفوق مقدرته لأنّه لا يتكلّمُ لغتَها أوّلًا، ولأنّه لا يملك ما يقول ثانيًا، إذْ ماذا يعرف عن الحياة وراء هذه الأسوار ووراء قلبه الدّفين؟

برقٌ من البعد. انتظرَ جَهانُ هزيمَ الرّعد الّذي لم يأتِ. وكما كان يتوقّع حدوث شيء ما، فإنّ فكرة واتته بغتة من وهدة ذلك المكان. إنّه لا يعرفُ الشّيءَ الكثير عن العالم. صحيح. لكنّه يعرف شعوره عندما يخاف منه. فعندما كان طفلًا صغيرًا ينتابه الخوف، كان يتوارى تحت شعر أمّه الّذي كان طويلًا جدًّا يبلغ ركبتيها.

هرع جَهان إلى المنزل ليعثر على أمّه وهي تحمّمُ زوجَها في حوض خشبيّ، وتفرك له ظهره. كان عمّه ينفر من أوقات الاستحمام، ولا يوافق عليها لولا البراغيث. كان يخرج من الماء وقد تغيّر لون بشرته وليست شخصيّته. أمّا الآن، فهو مستلقٍ في الحوض مغمض العينين في حين بدأ زيتُ الكافور فعل الأعاجيب. أشار جَهان إلى أمّه، متوسّلًا لها أن تلحق به إلى الفناء. ثمّ نادى شقيقاتِه للخروج من البيت، وكنّ جميعًا قد ورثنَ عن والدتهنّ شعرها، ولكنّهنّ لم يرثن نظراتها الجميلة جدًّا. وطلب منهنّ بنبرة لم يعرف أنّه يتمكّن منها الوقوف بجانب بكيزة. وارتاح ارتياحًا شديدًا عندما نفّذن طلبه وهنّ واقفات متماسكات الأيدي، تغيب عن ثغورهنّ الابتسامات، كأنّ الأمرّ يخلو من أيّ غرابة. اقتربن لمّا طلب منهنّ، يتطايرُ شعورُهنّ في كلّ اتّجاه وتلامس بطن بكيزة الضّخمة، وهنّ يولين ظهورهنّ للرِّيح، حانيات الرّؤوس إلى أمام، وصنعن غطاءً معلّقًا في منتصف المسافة بالهواء مثل بساط سحريّ. وتمكنّ جَهان من أن يسمع صوت عمّه يزعق من داخل المنزل. ممّا لا ريب فيه أنّ أمّه سمعته أيضًا، ولكن على الرّغم من ذلك، لم يتحرّك

Twitter: @ketab_n

أحد. ثمّة شيء جميل في الجوّ. وإذا كانت لديه كلمة لوصفه بها فهي كلمة «بركة». في تلك اللّحظة العابرة، همس الفتى للصّغير وهو في رحم أمّه: أرأيت؟ ليس الحال بتلك السّوء في الخارج، وفي وسعك الخروج الآن.

وفي وقت لاحق، ضرب عمُّه والدتَه لعصيانها أمره، وعندما أراد جَهان أن يتدخّل، نال نصيبه من الضّربات. وفي تلك اللّيلة، نام في المخزن. وفي صباح اليوم التّالي، استيقظ ليجد كلّ شيء هادئًا هدوءًا غريبًا. وهتف: أمّاه، لكنّ لم يردّ عليه أحد.

كان واقفًا بجانب بكيزة الّتي كانت تبدو في مظهرها مثل أيّ يوم عندما رأى الجزء الأوسط منها ينتفض ويتشنّج مرّة ومرّتين. وعندما لمح الجانب الخلفيّ منها منتفخًا، نادى أمّه من جديد، ثمّ نادى شقيقاتِه، وإن كان أدرك الآن أنهنّ لسن في البيت. وراحت بكيزة تنفخ بصوت عالٍ وجرابها يتلوى ويرتجف ويتوسّع على نحو رهيب. كان جَهان قد رأى من قبلُ حيواناتٍ وهنّ يلدن: جياد وماعز، لكنّه لم يشاهد ولادة فيل قطُّ. وذكّر نفسه بأنّ هذه هي سادس ولادة لها وأنّها تعرف ما تفعل، لكنّ صوتًا حكيمًا حذّره من أعماقه بألّا يثق بالطّبيعة كي تأخذ مجراها، ولا بد له من أن يمدّ يد العون ـ لكنّ الصّوت لم يقل شيئًا، لا الآن ولا لاحقًا.

وظهر كيس مبلّل وغرويّ مثل صخرة نهر، وسقط على الأرض مرسلًا معه نافورةً من سائلٍ ما. وبسرعة مذهلة، خرج الفيل الصغير، وعليه بقع من دماء ومادّة سائلة باهتة كأنّها شفّافة. ذكر! نظر إلى أسفل وهو هشّ ذاهلًا، كأنّه قدم من مسافة بعيدة. شمّت بكيزة رائحة الصّغير ولكزته لكزًا رقيقًا بحافّة خرطومها وراحت تلوك الكيس الشّبيه بالزّجاج. في هذه الأثناء، وقف الفيل الصّغير على قائمتيه، لا يبصر شيئًا كأنّه خفّاش، تغطي بدنه شعيرات عاجيّة اللّون. واحتارَ جَهانُ وارتبك لمرأى

Twitter: @ketab_n

حجم الفيل ولونه، لأنّه شاهد أمّامه أصغر فيل في الإمبراطوريّة. كما أنّه كان أبيض اللّون مثل رزّ مطبوخ.

كان حجم صغير بكيزة يوازي نصف حجم غيره من الفيلة المولودة حديثًا. وكان خرطومه أصغر ممّا ينبغي، مثلها تمامًا، لهذا كان في حاجة إلى استعمال فمه كي يشربَ الرّضعة الأولى من الحليب، إلّا أنّه كان مختلفًا عنها من حيث إنّ رأسَه لم يصلْ إلى ركبتي أمّه. وفي السّاعة التّالية، راح جَهان يراقب الفيلة الأم وهي تنخس صغيرها وتحثّه، على نحو، رقيق أوّلًا، لكنّها سرعان ما نفدَ صبرُها وراحت تتوسّل إليه ليقترب منها، من غير طائل.

اقتنع الفتى بوجوبِ أن يفعل شيئًا ما، فهرع إلى الجهة الخلفيّة من المخزن حيث مختلف أنواع الأشياء الغريبة. ففي ركن من الأركان، ثمّة برميل خشن الملمس، نصفه مملوء بعلف مخصّص لإطعام الحيوانات شتاءً. فجأة، وثبَ جرذٌ أمامَه عندما دفعه جانبًا، غير أنّ جَهان انهمك في إفراغ البرميل من محتوياته فيما غطّت طبقة من التّراب الموغل في القدم قدميه، وبدأ يدحرجه إلى حيث كانت الفيلة الأم وصغيرها يقفان. ثمّ هرول إلى البيت ليأتي بقدر. وأخيرًا دفع البرميل إلى أقرب مكان من بكيزة ووثب فوقه.

فوجئ جَهان بمرأى ضروع الفيلة المتورِّمة، فراح بكلّ هدوء وحذر يمسك بأحدها ويضغط عليه بإبهامه وسبّابته آملًا بحلبه كالمعزة. لكنّه لم يشاهد قطرة حليب واحدة. فحاول استخدام أصابعَ أكثر وقوّة أكبر، فجفلت الفيلة وكادت تطرحُه أرضًا. بذل جَهان قصارى جهده كي يمتصّ الحليب محاولًا أن يضع شفتيه حول إحدى حلماتها. وما إن نزلت القطرات الأولى من الحليب في فمه حتّى نأى بنفسه عنها، إذْ أثارته الرّائحة وشعر بالغثيان، ولم يدر في خلده أنّ الحليب يمكن أن يكون فاسدًا إلى هذا الحدّ. ولم تكن محاولته الثّانية ولا الثّالثة بناجحتين أكثر

Twitter: @ketab_n

من الأولى. وقبل أن يدرك ما حدث، كان قد خرج إلى الصّحن وراح يتقيّأ. لم يكن حليب الفيل يشبه أي شيء آخر سبق له أن تذوّقه فهو حلو وحامض في الوقت نفسه، كثيف ودسم. كان مؤخّر عنقه ينزّ عرقًا، وشعر بالدّوار، وتحسّنت حاله عندما وضع منديلًا على أنفه، إذْ تمكّن بعد ذلك من المضيّ إلى أمام، فراح يمصّ ويبصق السّائل في القدر، يمصّ ويبصق. ولمّا امتلأ ثلث القدر حليبًا، نزل من فوق البرميل وحمل الهديّة متفاخرًا إلى الفيل الصّغير.

كرّر جَهان هذا العمل طوال عصر ذلك اليوم، وكان الحليب الّذي يجمعه بصعوبة بالغة يكرعه الفيل الصّغير كرعة واحدة سعيدًا بها. وبعد محاولات كثيرة، منح الفتى نفسه استراحة، وأثناء ذلك، اختلس وهو يفرك فكّه المتألّم، نظرة إلى الفيل الصّغير الّذي كان قد لوى فمه على نحو لا يمكن وصفه إلّا أنّه ابتسامة شيطانيّة. فابتسم له جَهان مدركًا أنّهما اصبحا أخوين في الرّضاعة.

قال جَهان: سوف أدعوك شوتا[١]، لكنّك سوف تكبر وتصبح قويًا.

فصدر صوت مضحك من الفيل الصّغير علامة الموافقة. وعلى الرّغم من أنّ ثمّة كثيرين يرغبون في أن يعيدوا تسميته باسم آخر حسب مشيئتهم، فإنّ الحيوان لن يردّ أو يستجيب في أيّ مرحلة حالية أو لاحقة على أي اسم سوى الاسم الّذي اختاره له جَهان. هكذا كان، وهكذا ظلّ شوتا. وفي غضون ثلاثة أسابيع، ازداد طولًا، فأصبح قادرًا على الوصول إلى ضروع أمّه. وسرعان ما راح يجول في الصّحن مطاردًا الدّجاج، مثيرًا الهلع في نفوس الطّيور، مستغرقًا في اكتشاف العالم، وعشقته ودلّلته كلّ الإناث في القطيع، فراح يمازحها. كان فيلًا شجاعًا، لا يهاب الرّعد ولا

(١) شوتا Chota: بمعنى صغير.

Twitter: @ketab_n

السّوط، لكنّ شيئًا واحدًا كان يملأُ قلبَه رعبًا وهلعًا، صوتًا قادمًا بين وقت وآخر من جوف البرّيّة، منطلقًا وعابرًا جنبات الوادي مثل نهر مظلم ومشاكس. صوت النِّمر.

عندما فرغ جَهان من رواية حكايته وهو لا يزال جاثيًا على ركبتيه، وبعد أن تحدّث في السّاعة الماضية حول حزمة من العشب، لم يتجرّأ على الجلوس معتدلًا، ولا على النّظر إليها. ولو بذل جهدًا قليلًا واختلس نظرة إليها لشاهد شبح ابتسامة على شفتيها، رقيقة رقّة ضباب الصّباح.

قالت مِهرماه: قل لي، ماذا حدث بعد ذلك؟

لكن، قبل أن يفتح جَهان فمه، انبرت المربّية قائلة: الوقت متأخّر يا صاحبة السّموّ، كما أنّ والدتك قد تعود في أيّة لحظة.

تنهّدت مِهرماه، وقالت: حسنًا يا دادا، يمكننا أن نمضي الآن.

عدّلت الأميرة قفطانها الطّويل ونهضت واقفة على قدميها، وهبطت بخطوات متأرجحة على ممشى الحديقة. راقبتها حسنة خاتون بهدوء برهةً، وعندما أصبحت الأميرة على مسافة مناسبة تكفي كي لا تسمع شيئًا من الكلام، قالت المربّية بنبرة فيها من النّعومة والحرص ما جعل جَهان لا يفهم التّأنيب الضّمنيّ فيها إلّا بعد أن توارت عن الأنظار بدورها: عينان بنفسجيّتان وأرجوانيّتان، صحيح. أخ بالرّضاعة مع فيل. أنت غريب أيّها الهنديّ. أو أنّك كذّاب موهوب. فإذا كان ذلك صحيحًا، وإذا كنت تخدع صاحبة سموّيّ الطّيبة والحلوة المعشر، فإنّني أقسم على أن أكتشف حقيقتك وأن أجعلك تندم على ذلك.

Twitter: @ketab_n

في اليوم التّالي الّذي جاءتا فيه لرؤية الفيل، كانت المربّية على بعد سبع خطوات إلى الخلف، صامتة مثل جثّة. أمّا الأميرة، فقد فكّر جَهان في أنّها ظهرت أكثر سحرًا وجمالًا من أي مرّة سابقة بعد أن انعكس عليها الضّوء المتلاشي في عصر ذلك اليوم المتأخّر. شعَّ على إصبعها بريق ماسة بحجم ثمرة جوز وبلون دم حمامة. وأدرك جَهان أنّه لو تمكّن من وضع يديه عليها لأصبح ثريًّا طوال حياته، بيد أنّه عرف أيضًا إلى حدٍّ ما أنّه لا يمكنه أن يسرق شيئًا منها أبدًا. وجلست تحت شجرة ليلك بعد أن اطعمت شوتا بعضًا من ثمار الخوخ المجفّف، تنبعث من شعرها رائحة زهور وأعشاب بريّة.

ـ أودّ أن أسمع ماذا جرى من بعد ذلك.

شعر جَهان بقشعريرة تسري في أنحاء بدنه، لكنّه تمكّن من أن يقول: كما تشائين يا صاحبة السّموّ.

الحكاية الّتي رواها المروّض للأميرة

بعد مرور سنة على ولادة شوتا، استقبل شاه همايون زائرًا غريبًا في قصره المنيف، وهو أدميرال عثمانيّ فقد نصف طاقمه البحريّ، وكلّ أسطوله في عاصفة عاتية. وبعد أن أصغى الشّاه لبلواه، وعده بمركب شراعيّ جديد حتّى يعود به إلى دياره.

قال العثمانيّ: لقد انطلقت لمحاربة الكفّار، غير أنّ ريحًا شديدة هوجاء هي الّتي أتت بي إلى هذه اليابسة، وأنا الآن اعرف السّبب. لقد أراد الله أن أشهد على كرم الشّاه، وأن أخبر سلطاني بذلك.

اغتبط الشّاه لهذا الكلام، فمنحه ثيابًا ومجوهرات، وراح بعدها إلى

Twitter: @ketab_n

جناحه الخاصّ، حيث واتته فكرة وهو في حوض استحمامه المملوء بالزّهور، أنّ متاعبه لا حدود لها وأنّ أعداءه كثيرون من ضمنهم الأقرباء الأدنون. وكان والده قد نصحه نصيحة محدودة وواضحة وهي: لا تؤذِ إخوانك حتّى لو كانوا يستحقّون الأذى. وفكّر همايون: كيف يستطيع مقاتلتهم من دون إلحاق الأذى بهم. وكيف يمكنه أن يبقى في السّلطة إن لم يهزمهم؟ ها هو هنا، عار كما كان في السّاعة الّتي ولد فيها، يستنزفه البخار، مفكّرًا في هذه الورطة، عندما جذبت إحدى الأزهار انتباهه، وراحت تنزلق ناحيته، سابحة في رشاقة وجمال، كأنّ يدًا خفيّة تقودها وتشدّ نفسها بصدره.

شهق همايون، الكريم المحتدّ بالولادة والصّوفيّ الهوى. المؤكّد أنّ هذا نذير، فقد كشفت الزّهرة عن أضعف جانب فيه، ألا وهو قلبه، ولكن لا ينبغي له أن تضعفه مشاعره. وكلّما فكّر في ذلك، ازداد إيمانًا بأنّ القبطان الّذي تحطّمت سفينته قد جاء إليه مثلما جاءته تلك الزّهرة. كان الله يوحي له بأنّ عليه أن يشنَّ حربًا على أعدائه، وإذا اقتضت الضّرورة، أن يحصل على الدّعم من العثمانيّين. فما كان منه إلّا أن خرج من الحمّام مبتهجًا، يقطر ماءً.

ثمّة مبادلات متفرّقة بين السّلطنتين الإسلاميّتين - تجّار ومبعوثون وصوفيّون وجواسيس وحرفيّون وحجّاج قادمون وذاهبون. وكانت ثمّة هدايا أيضًا، تأتي بمختلف الأحجام: حرير ومجوهرات وسجّاد وتوابل وخزانات مرصّعة بعرق اللّؤلؤ وأدوات موسيقيّة وأسود وقردة وثعابين وسراري وخصيان. وكانت الرّسائل تنتقل من حاكم إلى آخر ومعها هبات سخيّة، وكانت تقابلها، سلبًا أو إيجابًا، حماسًا متبادلًا.

كان همايون، واهب السّلام وظلّ الله على الأرض، فضوليًّا إزاء سليمان الحاكم على البحر والأرض، وظلّ الله على الأرض. وكان قد سمع من جواسيسه أنّ السّلطان كان قبيل أن يخلد للنّوم في كلّ ليلة،

Twitter: @ketab_n

يضع في إصبعه خاتم سليمان، ذلك الخاتم الّذي منح اسمه السّيطرة على الحيوانات والبشر والجنّ. كانت قوى سليمان ظاهرة، ولكنّ ما هي نقاط الضعف والمخاوف المنتشرة تحت ألبسة القفطان الثمينة التي، كما تقول الشائعات، لم يكن يرتديها إلّا مرَّة واحدة؟

كان همايون قد طرق سَمعه أيضًا أنّ خرّم ـ ملكة حريم سليمان الّتي كانت قد طلبت مؤخّرًا ألف زوج من الحمام البرّيّ من بلاد مصر، دُرِّبت لتكون حمامًا زاجلًا ينقل الرّسائل الّتي هي قصاصات ورق صغيرة يجري ربطها بمخالبها. وقد أُرسلتْ هذه الطيور إلى إسطنبول عابرة البحار والأنهار، وعندما أُطلقت تحوّل لون السّماء من فوقها إلى الأسود مثل القار، وهرع النّاس إلى المساجد، يخشون يوم الحساب.

قرّر همايون أن يثير إعجاب السّلطانة العثمانيّة بهديّة لا يضاهيها أيّ شيء. صحيح أنّ هديّته سوف تشرّف السّلطان، لكنّها في الوقت نفسه، سوف تذكّره بالبلاد الّتي لا يقدر على الوصول إليها، وبهذا فهي خارج حدوده. فارتدى رداءً بلا كمّين وطرحه على كتفيه ونادى حامل إبريقه جوهر الّذي كان يثق بحكمته.

ـ قل لي، ما الهديّة المناسبة الّتي يمكن إرسالها إلى رجل يملك كلّ شيء؟

أجاب جوهر: ليست حريرًا ولا مجوهرات، وليست ذهبًا ولا فضّة. أريد أن أقول إنّ الهديّة عبارة عن حيوان، لأنّ للحيوانات شخصيّات، وكلّ شخصيّة مختلفة عن غيرها.

ـ ما الحيوان الّذي سيرمز إلى عظمة إمبراطوريّتنا؟

ـ فيل يا سيّدي، لأنّه أكبر حيوان على وجه البسيطة.

فكّر شاه همايون في هذا الكلام برهة.

ـ وإذا أردت أن ألمّح إلى أن مملكتي بحاجة إلى دعمه وإسناده وإن كانت عظيمة وفيها مثل هذا الفيل؟

Twitter: @ketab_n

ـ في هذه الحالة أرسل له فيلًا صغيرًا يا سيدي، فذلك هو أسلوبنا في القول إنّنا لا نستطيع خوض المعركة الآن، وإنّنا بحاجة إلى العون والمساعدة، بيد أنّنا سوف نقوى ونقاتل، وعندما نقاتل، فإنّنا سوف ننتصر بإذن الله.

في صباح اليوم الّذي وصل فيه جوهر برفقة كتيبة من الجند، كان جَهان يطعم شوتا، الّذي بات وزنه في هذه الآونة ثمانية قناطير[1] ولونه بلون العاج.

طأطأ عمّ جَهان رأسه وانحنى وابتهج لمرأى مثل هذا الضّيف الجدير بالاحترام في فناء الدّار، وقال: كيف يمكنني أن أساعدك أيّها الخادم النّبيل لشاهنا النّبيل؟

قال جوهر: طرق سمعي أنّ لديك فيلًا أبيض، وينبغي لك أن تعطينا إيّاه، لأنّ الشّاه يرغب في إرساله إلى العثمانيّين.

ـ على وجه التّوكيد. يا له من شرف لنا.

لكنّ صوتًا من الخلف هتف: لن تعطي شوتا لأحد!

استدار الكلّ، فرأوا جَهان.

رمى العمّ نفسه على الأرض، وقال: رحماك يا سيّدي المبجّل، فقد انتقلت أمّه إلى جوار ربّها قبل شهر على أثر مرض عضال بعد أن كانت موفورة الصّحّة والعافية، لكنّها توفّيت بعد يوم واحد. كان لديها طفل مسكين، وهذا الصّبيّ لا يفقه ما يقول، وفقد صوابه بسبب الحزن.

---

(١) مفردها قنطار، وزن اختلف مقدار موزونه مع الأيّام وهو يعادل مئة رطل، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ـ توفّيت أمّي بسبب قسوتك، إذْ كنت تضربها في كلّ يوم...

وهنا ضربه زوج أمّه ضربة سقط أرضًا على أثرها من دون أن يكمل عبارته.

قال جوهر: لا تضرب ولدك!

هتف جَهان وهو في المكان الّذي سقط عليه: إنّني لست ولده.

فابتسم جوهر، وقال: أنت ولد شجاع، صحيح، اقترب، ودعني أنظر إليك.

فامتثل جَهان للأمر تحت أنظار عمّه الغاضبة، فسأله جوهر: لماذا لا تريد أن نأخذ الحيوان؟

ـ إن شوتا لا يشبه أيّ حيوان آخر: إنّه مختلف. وهو لا يقدر على الذّهاب إلى أيّ مكان.

قال جوهر: أنت تحبّ الحيوان، وهذا شيء جميل، لكنّه سيكون بخير، وسوف يعامل معاملة الأمير في القصر العثمانيّ. وسوف تتلقّى أسرتك مكافأة.

وهنا أشار حامل إبريق الشّاه إلى أحد الخدم، فأخرج هذا كيسًا من تحت ردائه.

لمعت عينا عمّ جَهان لمرأى النّقود، وقال: لا تلتفت إلى الفتى يا سيّدي، فهو لا يفقه شيئًا. والفيل الصّغير فيلك، افعل به ما تشاء.

* * *

ما إن تقرّر مصير شوتا حتّى تعهّد جَهان بإعداد الفيل للرّحلة الطّويلة. فأطعمه أعشابًا علاجيّة تسهّل له عمليّة هضمه، وغسل بدنه، ووضع عليه الزّيت والعطر وقلّم أظافره واعتنى بقوائمه ـ مدركًا طوال الوقت أنّه ليس الشّخص الّذي سوف يرافق شوتا عندما يحين الوقت

Twitter: @ketab_n

لارتقاء متن المركب. وأوكلت المهمة لمروّض آخر أكبر منه بخمسة أعوام وأكثر تجربة وخبرة على ما يبدو، مربوع القامة، بارز الذّقن، قرّاص العينين، يدعى غراب، وهو اسم لن ينساه الفتى، لأنّ المرء لا ينسى اسم عدوّه.

أرسل القصر قفصًا هائلًا بضخامة حجمه، واستخدم الذّهب والفضّة في لحيم أركانه، وزيّنت قضبانه بالورود والشّراريب. وعندما شاهده جَهان، فاضت عيناه لأنّ شوتا، الفيل الّذي ينطّ فرحًا ويتّصف بطيبة النّفس منذ يوم ولادته، سوف يكبّل بالأغلال ويحبس في قفص مغلق بالمفتاح مثل أيّ مجرم عاديّ. وحاول أن يتقبّل هذه الوسيلة على أنّها الوحيدة الّتي يمكن بها نقل الحيوان بحرًا، لكنّه لم يستطع تحمّل الفكرة. فاختلى ببؤسه وتعاسته، ولم يأكل أو يتحدّث إلّا قليلًا، فساور القلق شقيقاته، كما أنّ عمّه تركه وشأنه أيضًا.

كان غراب يأتي للزّيارة بين حين وآخر لمعرفة مجريات الأمور، ولكي يألف الحيوان على حدّ تعبيره. فراقبه جَهان مثل صقر، وابتهج قلبه سرورًا عندما رأى الفيل لا يلتفت إلى مروِّضه الجديد.

كان غراب يصيح به وهو يرفع عصاه بيده: امسك هذه!

غير أنّ شوتا كان يظلّ متسمّرًا في موضعه، بل لا ينظر إليه أبدًا.

فيصيح به جَهان من مكان آخر: تعال وامسك هذه العصا!

فيأتي الفيل إليه، مطيعًا إيّاه كدأبه.

وفي بعض الأحيان، كاد الفتيان يتبادلان الضّربات. ولكن، على الرّغم من ذلك، ولمّا كان شوتا لا يستمع إلّا إلى جَهان، ومن أجل تسهيل مجريات الأمور، فقد جرى الاتّفاق على أن يسافر الفتى وإيّاهم إلى مرفإ غوا، حيث ينقل الفيل بعد ذلك إلى متن مركب يأخذه إلى إسطنبول، في حين يعود جَهان إلى أغرا.

في صباح يوم السّفر، جذبت جَهان شقيقته الكبرى وتنحّت به

Twitter: @ketab_n

جانبًا. وعلى الرّغم من أنّها كانت تتنفّس تنفّسًا بطيئًا دائمًا، فإنّها عمدت أيضًا إلى حبس أنفاسها في رئتيها هذه المرّة، وهي غير مستعدّة بعد لإطلاق أنفاسها أو للسماح لأخيها أن ينطلق في رحلته.

قالت وكأنّها بحاجة إلى أن تفصح علانيّة عن الخبر: أنت مسافرٌ.

قال جَهان وهو يضع الخبز الّذي خبزته له في كيسه: سوف أساعد شوتا وأعود برفقة عمّي. بضعة أيّام لا أكثر.

ـ قد يكون الطّريق طويلًا أو قصيرًا. من يدري؟ لقد سألت نفسي في صبيحة هذا النّهار، لو كانت أمّنا على قيد الحياة، فما الّذي سوف تشير عليك به؟ لقد دعوت الله أن يشير عليَّ حتّى أخبرك، لكنّه لم يستجب لي.

طأطأ جَهان رأسه، فقد كان يريد بدوره أن يعرف ما ستقوله أمّه له لو كانت على قيد الحياة. وعندما نظر إلى الخارج، شاهد الفيل متألّقًا، إذْ عمد الفلّاحون إلى طلاء خرطومه بألوان ملتفّة كالدّوّامة، وزيّنوا رقبته بزينة برّاقة. وبينما هو يراقبه، خرجت هذه الكلمات من فمه: ربّما كانت ستقول لي: كن رقيقًا مع الحيوان، ورقيقًا مع الضّعيف.

أشرقت عينا شقيقته السّوداوين، المهمومتين، وقالت: هذا صحيح. فمهما تفعل، فإنّ من شأنها أن تقول لك لا تؤذِ أحدًا ولا تدع أحدًا يؤذيك، لا تفطر القلوب، ولا تكن مفطور القلب.

انسحبت الغيوم فوق مرفإ غوا على امتداد السّماء الرّماديّة، حاملة إليها ريحًا مناسبة متوقّعة منذ أيّام. ورُفِعَتِ المراسي، ونُشِرَتِ الأشرعة، ورُمي ببنطال عتيق وممزّق في المياه لطرد الحظّ السيّئ. وكان غراب

Twitter: @ketab_n

يرتدي سترة مزركشة بلون أوراق الشّجر الميتة. لكنّ ثيابه لامعة مثل ثياب مهراجا مقارنة بثياب جَهان المهلهلة. وقال غراب مقطّبًا حاجبيه في وجه الفتى: يستحسن بك أن تذهب وشأنك، فنحن لسنا بحاجة لك بعد الآن.

ـ لن أذهب إلى أيّ مكان إلى أن تغادر السّفينة.

قال غراب:

ـ يا لك من صبيّ مزعج!

دفعه جَهان، فتدحرج من هول المفاجأة، واتّسخت سترتُه، لكنّه عاد ووقف على قدميه وهتف: سوف أقتلك.

تمكّن جَهان من تفادي الضّربات بسهولة، مدركًا كيف يحمي نفسه، بفضل التّدريب الّذي تلقّاه على يدي عمّه الّذي كان يشاهد المشاجرة مسرورًا من جانب واحد. ولمّا كان غراب أطول قامة وأكبر سنًّا من جَهان، كان في وسعه أن يضربه، لكنّه أمسك عن ذلك، إذْ شاهد الشّرر يتطاير من عيني الفتى وشاهد تلك الوحشيّة. ففي رأيه، لم يكن شوتا سوى فيل واحد بين عديد الفيلة. أمّا بالنّسبة إلى جَهان، فإنّ شوتا ليس له مثيل ـ إنّه صديقه المفضّل، وأخوه بالرّضاعة.

قال غراب بعد أن توقّف عن القتال: عليك اللّعنة!

اتّجه جَهان إلى شوتا وهو لا يزال يرتجف، وكان وقوفه بجانبه قد زاد من عمق الحزن الزّاحف إلى فؤاده، وقال: وداعًا يا أخي.

هزّ الفيل خرطومه وهو لا يزال مقيّدًا.

ـ سوف تكون على ما يرام، وسوف يرحّب بك السّلطان، كما ستهيم بك السّلطانة. هذا عهد منّي.

بعد أن تلفّظ بهذه الكلمات ابتعد الصّبيّ وهو يمسح دموعه، وإن لم يكن قادرًا على المضيّ بعيدًا، فتوارى بدافع غريزيّ عن الأنظار

Twitter: @ketab_n

واختبأ وراء جدار، وراح يختلس النّظرات. وبعد برهة، عاد غراب بعد أن نظّف سترته، وقال هازئًا وهو مزهوّ بالتّخلّص من خصمه: آهِ أيّها الوحش الكبير! من الآن فصاعدًا، لا يوجد سوانا، أنا وأنت. فإذا لم تطعني، فسوف أتركك تموت جوعًا.

لم يكن إرغام الفيل على ركوب السّفينة أمرًا سهلًا، لأنّ شوتا لم ينظر إلى قفصه حتّى ولو نظرة خاطفة. وعندما حانت اللّحظة، أمر غراب الفيل بالتّحرّك ـ لكنّ أمره لم يلقَ آذنًا صاغية من الفيل. فضرب الفيل بعصاه، غير أنّ شوتا لم يحرّك ساكنًا، فضربه غراب من جديد، وهنا راح دماغ جَهان يغلي لأنّه إذا ما ترك أخاه بالرّضاعة تحت رحمة هذا الشّخص الرّهيب، فإنّه لن يصل حيًّا إلى بلاد العثمانيّين.

في هذه الأثناء، اكتمل نقل الحمولة إلى السّفينة، وكان شوتا وقفصه من بين آخر الأشياء على رصيف الميناء. ولدى مناداة غراب، تقدّم أربعة رجال وربطوا الحبال حول بدن شوتا، فما كان من الأخير إلّا أن هدر وزمجر لأنّه لم يرقه ذلك قطُّ. كان قويًّا وإن لم يتجاوز عمره سنة واحدة، وازداد عدد الرّجال إلى عشرة بدلًا من أربعة وراحوا يجذبونه تارة، ويدفعونه تارة أخرى بوتيرة واحدة. وما إن أُدخِلَ الفيلُ القفصَ حتّى أُغلِقَ البابُ وأُوصِدَ بالمزلاج. استدار شوتا إلى الخلف ببطءٍ، وفي عينيه نظرة حزينة لأنّه لم يدرك إلّا الآن أنّه وقع في الفخّ. كان القفص مربوطًا بالسّلاسل من فوقُ، وجرى رفعه إلى أعلى بوساطة مجموعة حبال وبكرات. حدّق شوتا حوله بعد أن بات معلّقًا في الهواء، وإن لم تكن نظراته مسدّدة إلى أيّ شخص معيّن، بل إلى الغابات البعيدة الوافرة الخضرة وإلى الوديان المليئة ضبابًا، حيث تجول الفيلة في أنحائها بكلّ حرّيّة وجسارة.

في تلك اللّحظة، جذب شيء ما أنظار جَهان، فأمامه قفص مرميّ على الأرض، بعض ألواحه مخلوعة تاركة فتحة يمكنه من خلالها أن

Twitter: @ketab_n

يرى ما في داخله من محتويات: رزم ملفوفة بقماش، لا بدّ من أنّها ستنقل إلى السّفينة في نهاية المطاف. اختلس نظرةً خاطفة إلى القفص. ولمّا تأكد من أنّ أحدًا لا يراقبه، انسلّ إلى القفص الممتلئ إلى نصفه بالمحتويات، ولوى شفتيه مبتسمًا لمّا فكّر في عمّه وهو منشغل، يفتّش عنه في كلّ مكان. انتظر جامدًا في مكانه، وبعد لحظة خالها دهرًا، شعر بخضّة وهزّة رجّتا كلّ عظم من عظام جسده. الحمّالون ينقلونه، ولكن ليس بالرّقّة الّتي كان يأمل بها. وبعد أن أُلقي بالقفص جانبًا ارتطم ارتطامًا قويًّا دقّ رأسه بألواح القفص الخشبيّة. إذًا بات على متن السّفينة.

كان اسم السّفينة الّتي وجد جَهان نفسه على متنها «الشّمس المتوهّجة»، وفيها أربعة أسوار وقلاع كبيرة من أوّل المركب وآخره. وعلى السّارية الرّئيسيّة، حيث كان بحّار لوّحته الشّمس جالسًا داخل مقصورة غراب، ثمّة أشرطة يُمكن زيادة عددها حسب نزوات الرّيح. أمّا البحّارة، فعددهم ثمانية وسبعون بحّارًا، يضاف إليهم، عددٌ قليلٌ من المبعوثين والحجّاج والتّجّار والمتسكّعين والمبشّرين.

حرص جَهان على ألّا يخرج من مخبئه في ضوء النّهار السّاطع، لهذا، تسلّل بعد أن تلاشى شعاع الضّوء من على ألواح الأرضيّة وراح يفتّش عنِ الفيل، ولم يستغرق وقتًا طويلًا حتّى عثر عليه، إذْ وجده في الجانب الآخر من عنبر السّفينة الّذي كان مظلمًا ورطبًا إلى درجة فظيعة، غير أنّه لم يجد مروّضه. وعندما شاهد الفيلُ جَهانَ، أطلق صوتًا عذبًا وجميلًا، فجلس الفتى بجانبه وأخبره بأنّه يريد أن يطمئنّ على وصوله إلى اسطنبول سليمًا معافًى، وأنّه لن يعود إلّا بعد ذلك إلى شقيقاته.

خرج جَهان في صباح اليوم التّالي إلى ظهر السّفينة، خاوي البطن مثل بئر جافّة، وتمكّن من الحصول على شيء من الماء والخبز من بحّار ليست لديه فكرة عن هويّته، حتّى إنّه لم يهتمّ للأمر أصلًا. وفي طريق

Twitter: @ketab_n

عودته، زار شوتا، ولبث وحيدًا من جديد. الواضح أنّ غراب لم تكن لديه نيّة في قضاء الوقت داخل العنبر، ما شجّع جَهان على زيارة شوتا بين وقت وآخر، إلى أن أُلقي القبض عليه.

هدر صوت مألوف: أنت؟!

استدار جَهان ليجد غراب واقفًا قرب الباب، مقوّس الحاجبين في منتصف الجبين.

ـ اللّعنة عليك! لماذا أنت هنا؟

ـ ولماذا أنت لست هنا؟ كلّما أتيت إلى هنا، وجدت شوتا بمفرده.

ـ تبًّا! وما شأنك أنت؟ إنّه حيوان السّلطان، وليس حيوانك.

لبث الاثنان يصيح أحدهما على الآخر، ولم يرغب أيّ واحد منهما في تبادل الضّربات. هرع البحّارة عند سماعهم الجلبة وأخذوهما إلى القبطان ـ وهو رجل داكن البشرة، ميّال إلى تعاطي الأفيون، ينتعل حذاءً جلديًّا عالي الكعبين يصدر صوتًا أثناء السّير.

قال القبطان: فيل واحد ومروّضان. مروّض واحد أكثر من اللّازم.

قال غراب: جرى اختياري لهذه المهمّة، أمّا هو فليس سوى صبيّ.

فندّد به جَهان قائلًا: أنا الّذي أعتني بالحيوان، أمّا هو فلا يهتمّ به...

قال القبطان: اسكت! أنا الّذي يقرّر من يبقى ومن يرحل.

بيد أنّه لم يقرّر شيئًا، ولبث جَهان وغراب يومًا بعد يوم في حال من التّرقّب، يتجنّب أحدهما الآخر، يراقبان الفيل مناوبةً، وعوملا معاملة حسنة وعاشا على ما يقدّم لهما من لحم مملّح وبسكويت وبسكويت البحر الخاصّ بالبحّارة والفاصوليا. أمّا شوتا، فقد راح يفقد من وزنه يومًا بعد يوم، لأنّه غير سعيد بما يقدّم له من طعام، ولا في جوّ العنبر.

Twitter: @ketab_n

كان البحّارة يؤمنون إيمانًا عميقًا بالخرافات. فثمّة كلمات لا ينبغي للمرء أن يتلفّظ بها لأنّها تجلب الحظّ السّيّئ، ومنها على سبيل المثال: يغرق أو صخور أو كارثة... كما لا ينبغي للمرء أن يتفوّه بكلمة عواصف حتّى لو وجد المرء نفسه في خضمّ إحداها. وإذا ما تناهى إلى سمعك غناء حوريّات البحر، فينبغي لك أن ترمي بقليل من الملح وراء كتفك الأيسر، لأنّ ذلك معناه أن الشّيطان يناديك. وكان لطاقم البحّارة تعاويذُ يكرّرونها في أغلب الأحايين. فهم يصفرون، ولكن ليس في اللّيل. وكلّما تناهى إلى مسامعهم صوتٌ لا يروقهم، بصقوا وداسوا بصاقهم بأرجلهم. وكانوا يرون في بعض الأشياء نذيرًا بيوم القيامة ـ كالدّلاء المقلوبة والحبال المتشابكة والمسامير الملتوية والنّساء الحوامل على ظهر السّفينة.

واستبدّت الدّهشةُ بجَهان عندما علم أنّهم مولعون بالجرذان. ولمّا كانت القوارض معروفة بترك السّفينة الموشكة على الغرق، فإنّ وجودها ضمان أكيد أنّ كلّ شيء على ما يرام، ولكن عندما يحطّ أيّ غراب على سارية ما، فإنّ البحّارة ينهالون عليه باللّعنات ويطاردونه. وأوضح أحدُ البحّارة للفتى أنّه ذهب إلى أحد السّحرة قبيلَ رفع المرساة واشترى منه ثلاث أدوات نفخ موسيقيّة من أجل الرّحلة، وأنّه كان يودّ أن يشتري كمّيّة أخرى، كما قال، ولكن كانت تلك الأدوات الثّلاث هي كلّ ما استطاع الحصول عليه بقطعة نقده الفضّيّة.

لكن، على الرّغم من كلّ ذلك، توارت الجرذان عن الأنظار في عصر يوم من الأيّام، وانقلبت السّماء الزّرقاء إلى أخرى سوداء. وسرعان ما جاء ذلك الشّيء الّذي لا ينبغي ذكره بصوت عالٍ، إذْ هطلت الأمطار المفاجئة غزيرةً على وجوههم. وراحت الأمواج الّتي ازدادت علوًّا وعتوًّا مع مرور اللّحظات تنهال على سطح السّفينة. واستحال رفع أشرعة العواصف، وانكسرت دفّة السّفينة وانجرفت. وظنّ جَهان أنّها النهاية،

Twitter: @ketab_n

ولم يكن يعرف أنّها فعلًا النهاية، وإن كانت نهايته ونهاية الفيل فقط.

وفي ثالث أيّام العاصفة، هبطت مجموعة من البحّارة إلى العنبر، وعندما رأى جَهان وجوههم الكالحة المتجهِّمة، تجمّد الدّم في عروقه.

قال أحد البحّارة وهو يزمّ شفتيه: هه! ينبغي التّخلّص من الحيوان.

وقال رفيقه: ما كان ينبغي لنا أن ننقله إلى متن السّفينة. فيل أبيضُ نذير شؤم، وكلّ ما حدث بسببه.

قال جَهان: هل تظن أنّنا أتينا بالعاصفة؟! هل جننت؟!

لكنّ كلمات جَهان ضاعت وسط تذمّر البحّارة، ولم يصغِ له أحدٌ.

فالتفت الفتى إلى غراب، وقال: لَمَ لا تفعل شيئًا؟

أجابَ غرابٌ وهو يهزّ كتفيه: ما عساي أفعل؟ اذهبْ، وكلِّم القبطان.

اندفع جَهان خارجًا، وارتقى درج السفينة إلى ظهرها، فرأى الجحيم بعينه، حيث كانت أمواج البحر الهائلة تلطم الكلّ من كلّ الاتجاهات. عثر جَهان على القبطان وهو يصدر أوامره بصوت عالٍ، شعر بالدّوار وتبلّل بالماء، فأمسك بالحواجز كي لا تجرفه الأمواج بعيدًا. وأمسك بالقبطان من ذراعه وتوسّل إليه أن يهبط إلى أسفل ويهدّئ من روع رجاله قبل أن يلحقوا الأذى بالفيل.

قال القبطان: الرّجال في حالة توتّر وانزعاج، ولا يريدون فيلًا أبيضَ على متن السّفينة، فلا تلقِ باللّائمة عليهم.

ـ إذًا، سترمي بنا إلى البحر؟

حدّق القبطان ببلاهة إلى الفتى، كأنّ هذه الفكرة لم تخطر له على بال، وقال: يمكنك القول إنّنا سوف نتخلّص من الحيوان.

ـ لا يمكنني تركُ شوتا يغرق.

ـ بوسعه السّباحة.

Twitter: @ketab_n

صاح جَهان بأعلى صوته: ـ في هذا الطّقس؟

ثمّ واتته فكرة جديدة، بصيص أمل. ـ ماذا تظنّ سيقول السّلطان سليمان عندما يعلم ما فعلته بهديّته؟

ـ الأفضل تحمّل غضب السّلطان بدلًا من غضب البحر.

ـ أنت تقول إنّ الفيل الأبيض على ظهر السفنية يجلب الحظّ السّيئ، فماذا سيحدث إن قتلته؟ إنّه حظٌّ أكثر سوءًا!

قال القبطان وهو يلوك شاربه: سوف أعطيك قاربًا، فثمّة جزيرة على مقربة من هنا، وسوف يكون كلّ شيء على ما يرام.

أُنزِلَ قاربُ تجذيف، فحدّق إليه غراب وجَهان بذهول. قال القبطان: اقفز.

قال غراب: هه! لا شأن لي بالفيل، وهو ليس ملكي.

قال القبطان لجَهان: حسنًا. . . وأنت؟

لم يشعر الفتى بأنّه سوف يتّخذ قرارًا بقدر ما سيقبل بقرار اتُّخذَ بالإنابة عنه، لهذا لم ينبس بكلمة، بل وثب إلى القارب، وجلًا، مخبولًا.

قال القبطان قبل أن تضرب موجة أخرى ظهر السّفينة: إنّ الأمر أشبه بقصّة النّبيّ سليمان. فثمّة امرأتان زعمت كلّ واحدة منهما أنّها والدة الطّفل نفسه. قالت المرأة المزيّفة: اشطره نصفين، لكنّ الأمّ الحقيقيّة لم توافق على ذلك. والآن نحن نعرف من هو المروّض الحقيقيّ، ومن هو الدّجّال.

جيء بشوتا إلى ظهر المركب، وراحت قوائمه تنزلق على الأرضية المبلّلة بعد أن هاج وماج من شدّة الرّعب. وبعد محاولات قليلة، تخلّوا عن فكرة نقله إلى قارب آخر، وقذفوا به إلى البحر، فسقط وهو يصرخ صرخة تشقّ الآذانَ. وفتحت المياه المظلمة والهائجة فاهًا وابتلعت الحيوان، كأنّه ليس سوى محارة فارغة.

Twitter: @ketab_n

عندما أمسك جَهان عن الكلام، رأى الأميرة مِهرماه تحدّق إليه بهلع، وسألته: وكيف نجوت؟!

أجاب: قذفت بنا الأمواج إلى شاطئ جزيرة، حيث أنقذتنا سفينة أخرى من هناك، وكان اسمها فرس النّهر.

انفرجت أسارير الأميرة بارتياح، وقالت: هل كانوا لطفاءَ مع الفيل؟

ـ لا يا صاحبة السّموّ، بل كانوا فظيعين، ففي منتصف الطّريق، داهم البحّارةَ المرضُ. كان مرض الأسقربوط وهو أسوأ أنواع الأمراض. وقال أحدهم إنّ لحم الفيل هو العلاج وكادوا يقتلون الفيل، لكنّ القبطان غاريث أنقذنا، ونحن مدينون له بحياتنا. أمّا بقيّة الحكاية، فأنت تعرفينها، فقد وصلنا إلى إسطنبول، وجيء بنا إلى هنا.

قالت مِهرماه متنهدة: وا أسفاه! لقد انتهت حكايتك لو واصلت الحديث لألف يوم آخر، لأصغيت إليك من دون توقّف، فأنا أحبّ أحلام اليقظة عن مآثرك وأعمالك البطوليّة الفذّة.

شعر جَهان بالهول عندما أدرك أنّه كان غبيًّا جدًّا، إذْ أنهى حكايته، وكان في وسعه أن يجعلها أطول بكثير، وفكّر في أن الأميرة كانت سترحل ولن تعود ثانية، فانتابه الذّعر والهلع. وبينما كان يقدح زناد فكره بحثًا عن وسيلة أخرى للاستمرار في حكايته، طرق سمعَه صوتُ أنفاسٍ ثقيلة وسعالٌ متقطّعٌ. كانت حسنة خاتون منحنية إلى أمام، متورِّدة الوجه، تنتابها الشّهقات أثناء تنفّسها. لقد داهمتها نوبةٌ من نوبات الرّبو، فما كان من الأميرة والمروِّض إلّا أن مدّ كلّ واحد منهما ذراعه لها، وسارا بها إلى الشّجرة وساعداها في الجلوس. وجذبت مِهرماه بكل

Twitter: @ketab_n

رشاقة كيسًا من داخل زنّار المربّية وفتحته، وقرّبته من أنف المرأة، فانتشرت في الجوّ رائحة حادّة. وقال جَهان: هكذا الأمر إذًا. فالرّائحة التي داعبت أنفه من الأميرة مرّات ومرّات كانت منبعثة من الأعشاب البرّيّة الّتي كانت المربّية تحملها معها حيثما ذهبت. في هذه الأثناء، راحت المرأة تتنشّق بعمق، وشيئًا فشيئًا هدأت أنفاسها.

قالت مِهرماه: لنذهب يا مربّيتي، إذْ لا ينبغي لنا أن نرهقك.

ردّت المرأة وهي تعدل منديلها ووردتها: نعم، يا صاحبة السّموّ الجليلة.

التفتت مِهرماه إلى الفيل، وقالت بنبرة رقيقة: إلى اللقاء يا شوتا. لقد مررت بالكثير من الأحداث القاسية، وفي المرّة المقبلة، سأحضر لك أطيب ما في القصر من مأكولات، ثمّ أضافت وهي تنظر نظرة خاطفة إلى جانبها: أنا مسرورة، لأنّك لم تتركِ الفيلَ وشأنه أيّها الفتى، أنت غاية في العطف والحنان.

قال جَهان: يا صاحبة السّموّ...

لكنّه لم يتمكّن من إكمال عبارته، إذْ فعلت شيئًا في تلك اللّحظة لم يتخيّل قطُّ أنّها ستفعله، ولا حتّى بعد مئة سنة. لمسته. ووضعت يدها على وجهه وضغطت برفق على خدّه، كأنّها تبحث عن الغمّازة الوحيدة التي تتوارى الآن خلف تورّد وجنتيه ارتباكًا.

قالت: أنت طيّب القلب أيّها المروّض. أتمنّى لو استطعنا قضاء أوقات أخرى معًا.

انتاب جَهان الذّهول، وأصبح متيّمًا بعطفها ومودّتها، فلم يستطع حراكًا، وشقَّ عليه التّنفّس، فضلًا عن عجزه عن التّفوّه بكلمة واحدة تنمّ عن الشّكر والامتنان لها. لم يكن لديه وقت للفرح، ولا لاختراع حكايات جديدة. مرّة أخرى، لم يعد في وسعه أن يفعل شيئًا سوى مراقبتها، وهي تتوارى عن أنظاره متسائلًا ما إذا كانت ستأتي مرّة أخرى يومًا ما.

Twitter: @ketab_n

ـ هه أيّها المروِّض، أين أنت بحق الجحيم؟

ذهب جَهان لمعرفة مَنْ يناديه خارج السّقيفة، فوجد أمامه، رئيس الخصيان الأبيض، واضعًا يديه على خاصرتيه. ـ أين أنت؟

ـ كنت أنظِّف...

ـ اذهب واستعدّ، فالمفتي الكبير بحاجة إلى الحيوان.

ـ لماذا؟

فما كان من كامل آغا القرنفلي إلّا أن تقدّم خطوة واحدة إلى أمام، وصفعه على وجهه.

ـ ماذا قلت؟ افعل ما قلت لك.

شدَّ جَهان بمساعدة المروِّضين، الهودجَ على ظهر الفيل وعندما أضحى شوتا جاهزًا، نظر إليهم الخصي نظرة أقرب إلى الازدراء والاحتقار.

ـ اذهب. سوف يريك سانغرام الطّريق. ثمّة مهرطق تُجرى محاكمته الآن.

قال جَهان: وإن لم تكن لديه فكرة عن معنى كلامه: ـ نعم أيّها الأفندي.

كان صباح يوم الجمعة مطيرًا، يزخر بهواء نشيط.

جلس جَهان وسانغرام داخل الهودج على ظهر الفيل الّذي راح يشقّ طريقه وسط الشّوارع الكثيرة المرتفعات. تمكّن جَهان من أن يعرف من سانغرام ما رفض رئيس الخصيان الأبيض الكشف عنه. فقد كانت مهمّتهما تنطوي على اصطحاب المفتي الكبير وحمله إلى الميدان، حيث

Twitter: @ketab_n

سيحقّق مع خطيب صوفيّ معروف بآرائه الشّنيعة المستخفّة بالمقدّسات. وكان أسلوب السّلطان في إظهار دعمه للعلماء متمثّلًا بتوكيل المسؤول الدّينيّ الكبير مهمّة العناية بالفيل الملكيّ. ولم يكن مقرّرًا حضور السلطان جلسة المحاكمة ـ بعد أن أهمل دعوة المفتي الكبير ـ وهي إشارة تدلّ إلى أنّه كان يرغب في تجنّب الجدال الدّينيّ.

وبينما كان الرّكب يمرّ من أمام المقبرة القديمة المطلّة على القرن الذّهبيّ، توقّف الفيل بغتة، فحثّه جَهان بعصاه، بيد أنّ الفيل لبث مسمرًّا لا يتحرّك.

قال سانغرام: طرقت سمعي أشياء غريبة عن هذه الحيوانات، مفادها أنّها تختار المكان الّذي يروقها لتموت فيه. يبدو لي أن هذا الحيوان قد وجد مكانه.

اعترض جَهان مضطربًا على الكلمات الّتي سمعها من سانغرام، وقال: ماذا تقول؟ إنّ شوتا فيل صغير.

هزّ سانغرام كتفيه، ولحسن الحظّ استأنف شوتا سيره من جديد، وجرى تجاهل الموضوع بالسّرعة نفسها الّتي بدأ فيها.

قبيل الظّهيرة، وصل الرّكب إلى منزل المفتي الكبير، وهو منزل يحتوي على برج حمام منحوت من حجر الكلس، وعلى تعريشة تعلوها نوافذ بارزة، وفوق كلّ نافذة ظلّة، تطلّ على البوسفور. أنعم جَهان النّظر في المكان باهتمام، ولاحظ أنّ معظم النّوافذ لجهة الشّمال، وأنّ قسمًا قليلًا منها يحتوي على الزّجاج الملوّن، وهو بحسب رأيه، يبعث على الأسى لأنّ هذه النّوافذ لا تتعرّض لتغيّر جهة الضّوء. وفكّر في أنّه لو استطاع أن يسرق بعض الورق من مكان ما، لتمكّن من أن يرسم هذا المكان على النّحو الّذي يتخيّله.

في هذه الأثناء، ظهر المفتي الكبير للعيان، فحيّاه جَهان تحت

Twitter: @ketab_n

أنظار زوجاته وأبنائه الّذين كانوا يختلسون النّظر من وراء السّتائر والأبواب، لأنّهم لم يسبق لهم أن رأوا فيلًا من قبلُ. وتمكّن الرّجل العجوز من أن يتّخذ مجلسه داخل الهودج بواسطة سلّم ومجموعة من الخدم. أمّا جَهان، فجلس كدأبه على رقبة شوتا، في حين مشى سانغرام على قدميه.

قال المفتي الكبير لحظة الانطلاق: هل سبق لأحد أن سقط من هذا المكان العالي؟

ـ يمكنني أن أؤكّد لك أيّها الشلبي أنّ شيئًا كهذا لم يحدث قطُّ.

ـ إن شاء الله، فأنا لا أريد أن أكون أوّل من يسقط.

استولت الدّهشة على جَهان وهو يشاهد الرّجل العجوز ينجح في الرّكوب أيّما نجاح. وساروا في شوارع فسيحة متجنّبين الأزقّة الّتي تضيق ضيقًا شديدًا، فيصعب على الفيل المرور فيها. يضاف إلى هذا انطباعٌ تولّدَ لدى جَهان أنّ المفتي الكبير، أراد أن يراه أكبر عدد ممكن من النّاس ما دام أنّ المرء لا تسنح له الفرصة كلّ يوم كي يمتطي ظهر فيل السّلطان سليمان.

دخلوا الميدان، حيث كان قد احتشد جمع غفير من النّاس ينتظر وصولهم. فحيّاهم هذا الجمع بالهتاف وتلويح الأيادي، وإن كان يصعب معرفة من الّذي كان موضع ترحيب أكثر: شوتا أم المفتي الكبير. ثمّة حماسة وانفعال في الجوّ، وتوقّع حدوث شيء باهر. وبعد أن أُنزِلَ المفتي الكبير، تقدّم ليؤمّ المصلّين في صلاة الجمعة، كان وراءه العلماء ومئات الأهالي من أبناء المدينة. انتظر جَهان وسانغرام بجانب الفيل يتهامسان، وراح الاثنان يختلسان بين الفينة والأخرى النّظر إلى المكان الّذي وقف فيه أربعة من الحرّاس. وكان من بينهم، رجل غريب يصلّي بمفرده، فيجثو على ركبتيه تارة ثم ينهض واقفًا على قدميه تارة أخرى.

Twitter: @ketab_n

كان رجلًا طويل القامة، رشيق الحركة، دقيق الوجه، قصير اللّحية.

قال سانغرام إنّ اسمه ليلي، لكنّ الأهالي كانوا يطلقون عليه اسم «شيخ مجنون»، وكان اصغر علماء الصّوفيّة، وأصغر خطباء الجمعة، رماديّ العينين مثل مطر الخريف، ويعلو وجهه نمش أشبه بنقاط من طلاء. أمّا شعره فكان أشعث، أشقر. كان رجل متناقضات رهيبًا، له حبّ فضول الأطفال في آليات العالم الدّاخليّة وحكمة الحليم ورباطة جأش. كان شجاعًا إلى درجة التّهوّر، لكنّه كان خجولًا، عديم الثّقة في نفسه، مفعمًا بالحيويّة تعلو وجهَه مسحةٌ منَ الحزن، حسن الألفاظ، حاذقًا في العلوم والمعارف، لهذا كانت خطبه شعبيّة يحضرها المؤمنون والمتشكّكون من كلّ أنحاء الإمبراطوريّة. وعندما ينفعل في خطبته، تجد صوته الرّخيم والهادئ اكتسب إيقاع لثغة واضحة. كانت تعاليمه تثير ذهول العلماء واضطرابهم وفزعهم. وكان النّفور متبادلًا، إذْ لم يمرّ يوم واحد من دون استهزاء مجنون شيخ بالمؤسّسة الدّينيّة، أو إثارة غضبها وكدرها. كان يقول: «عندما يبلغ المرء أعلى درجات الوعي، فإنّه غير مضطرّ للاهتمام بالحرام والحلال قدر اهتمامه بجوهر الإيمان». ولمّا كان المتصوّفون قد أدركوا أعلى درجات الفهم، فإنّهم لا يخضعون لقوانين العلماء، لأنّ هذه القوانين وُضعَتْ لعامّة النّاس، للّذين لا يريدون التّفكير والّذين يتوقّعون من الآخرين أن يفكّروا بالإنابة عنهم.

تكلّم شيخ مجنون عن الحبّ ـ عن الله والبشر، وعن الكون بكلّ ما فيه، وعن أصغر ذرّة فيه. وقال إنّ الصّلاة ينبغي أن تكون إعلان حبٍّ، وينبغي للحبِّ أن يكون مجرّدًا من كلّ خوف وانتظار. ولا يتعيّن على المرء أن يخشى عذاب النّار، ولا يتمنّى الحوريّات العذارى ما دام أنّ للجنّة والنّار، العذاب والفرح وجودًا هنا والآن. وسأل: إلى متى ستظلّ تهاب الله في حين أنّ في وسعك أن تحبّه بدلًا من ذلك؟ وكان أتباعه، وهم مجموعة من عناصر شتّى من الحرفيّين والفلّاحين والجنود،

Twitter: @ketab_n

يصغون إلى خطبه مسحورين، مذهولين. وكانت أفكاره تجذب الفقراء والمعوزين، ويجذب سلوكه الأثرياء والموسرين. وقيل إنّ النّساء، بل حتّى الجواري الجاهلات والخصيان المستائين كانوا يعتزّون به. وكذا الحال مع اليهود والنّصارى والزّرادشتيّين الّذين لديهم كتاب لم يره أحدٌ إلى الآن.

انتهت صلاة الجمعة واستقرّ العلماء في أماكنهم، وضغط شيخ مجنون على عينيه مثل طفل صغير يفرك النّوم من عينيه، وأنعم النّظر في المحقّقين واحدًا فواحدًا.

سأل المفتي الكبير: هل تعرف التّهمة الموجّهة إليك؟

أجاب: يقال إنّها الهرطقة، لكنّ التّهمة لا أساس لها من الصّحّة.

ـ سوف نتحقّق من هذا. هل صحيح أنّك أعلنت أنّك الله، وأنّ كلّ شخص هو الله؟

ـ إنّ ما قلته هو أنّ الخالق يحلّ[1] في كلّ شخص، سواء أكان الشّخص من يعالج الخيل ويسمّر نعالها أو كان باشا، فنحن نشترك في دم الحياة مثلك تمامًا.

ـ وكيف يمكن هذا؟

ـ لسنا مخلوقين على صورته فحسب، بل على جوهره أيضًا.

ـ هل صحيح أنّك قلت إنّك لا تخشى الله؟

ـ ولماذا أخشى حبيبي؟ هل تخشى أحبّاءك؟

---

(١) مفهوم فلسفيّ دينيّ هو عند بعض العلماء اتّحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى آخر كمحلول ماء الورد في الورد ومنه مذهب الحلول الّذي يعتقد أصحابه أنّ الله حالّ في كلّ شيء وفي جزء من كلّ شيء متّحد به، حتّى صار يصحّ أن يطلق على كلّ شيء أنّه الله تغليبًا للّاهوت على النّاسوت. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ندت عن جمهور الحاضرين همهمة، وصاح أحد الأهالي: سكوت!

ـ إذًا، أنت موافق على أنّك زعمت بأنّك تشبه الله؟!

ـ أنت تعتقد أن الله يشبهك: غاضبًا ومتشدّدًا وراغبًا في الانتقام... أمّا أنا، فأقول: بدلًا من الاعتقاد أن أسوأ ما هو موجود في البشر يمكن أن يكون موجودًا عند الله، فإنّ عليك أن تؤمن بأنّ أفضل ما موجود عند الله يمكن أن يكون موجودًا في البشر.

طلب أحد العلماء، وهو أبو السّعود أفندي، الإذن بالتّدخّل.

ـ هل تدرك أنّ ما تفوّهت به قبل لحظات هو الكفر بعينه؟

توقّف شيخ مجنون، كأنّه يفكّر في الاحتمال.

ـ حقًّا؟

اكتسى وجه أبو السّعود بغمامة.

ـ بدلًا من الشّعور بالنّدم، يبدو أنّك تهزأ من المحكمة العليا. الواضح أن عقلك فيه انحراف.

ـ لم أكن هازئًا، يُضافُ إلى ذلك، أنّنا لسنا مختلفين إلى ذلك الحدّ، أنا وأنت. ألا تظنّ أنّ كلّ ما تكرهه فيّ موجود فيك؟

أجاب أبو السّعود: لا، على وجه التّوكيد! لا يمكننا أن نكون أكثر اختلافًا ممّا نحن عليه. كما أنّ ربّك لا يشبه ربّي إطلاقًا.

ـ آه، لكن ألا يرقى كلامك هذا إلى الشّرك وأنت تتكلّم عن ربّي وعن ربّك، كأنّ ثمّة أكثر من ربٍّ واحد؟

دار الهمس بين الحشد. تدخّل المفتي الكبير وهو يسعل: إذًا، أخبرنا عمّا تعرفه عن الله.

كان ردّ شيخ مجنون على طلب المفتي الكبير هو أنّ الله لم يكن ملكًا أو راجا أو شاهنشاه جالسًا على عرشه السّماويّ، يراقب من

Twitter: @ketab_n

الأعلى ويدوّن كلّ خطيئة كي يعاقب البشر عندما تحين السّاعة.

ـ ليس الله تاجرًا ـ هل ثمّة سبب يجعله يجري عمليات حسابيّة؟ كما أنّه ليس كاتبًا ـ هل ثمّة سبب يدفعه إلى الكتابة؟

لم يرق المحكمة هذا الجواب، فراحت تحقِّق معه من جميع الجوانب، لكنّها كانت تحظى بأجوبة متشابهة في كلّ مرّة. في نهاية المطاف، سمعت هذه الكلمات من المتّهم: عندما ترسم خطًّا وتطلب منّي أن أتوقّف، فتلك ليست سوى البداية في نظري. وما تصفه بالحرام ليس إلّا حلالًا عندي. أنت تطلب منّي أن أسكت، لكن كيف يمكنني أن أسكت عندما يتكلّم الله من خلالي؟

هبط الظّلام. وانقلب لون السّماء قرمزيًّا من فوق التِّلال. ولاح من على بعد مسافةٍ ضوءُ مصباحٍ خافت في زورق. وزعقت النّوارس، وتشاجرت من أجل قطعة لحمٍ عفنة. وانتاب الملل نفوس الأهالي بعد أن زال أثر الحماسة الّتي اشتعلت في السّاعات الأولى من المحاكمة، لا سيَّما أنّ لكلّ شخص عملًا لا بدّ له من أن ينجزه، ومعدة يملأها، وزوجة يرضيها. ورويدًا رويدًا، مضى النّاس في سبيلهم، ولم يبقَ موجودًا سوى أنصار المهرطق الّذين لاحت على وجوههم أمارات النّصر والتّأييد له.

قال المفتي الكبير: سنمنحك آخر فرصة، فإذا اعترفت بأنّك تكلّمت بسوء عن الذّات الإلهيّة، وأقسمت بألّا تتفوّه بمثل هذه البذاءات مستقبلًا، فإنّنا قد نغفر لك. والآن قل لي، مرّة واحدة وأخيرة، هل أنت نادم؟

قال شيخ مجنون وهو يعتدل في وقفته، كأنّه يوشك أن يتّخذ قرارًا: علامَ سأندم؟ إنّني أحبّ المحبوب مثلما يحبّني المحبوب. ما السّبب الّذي يجعلني أندم على حبّي؟ لا بدّ من أشياء أخرى تتطلّب النّدم.

Twitter: @ketab_n

الجشع والقسوة والغش. أمّا الحبّ. . . فلا يتطّلب النّدم.

لم يتنبه جَهان إلى أنّه كان في غمرة قلقه يشدّ لجام شوتا شدًّا قويًّا، ما جعل الفيل يصدر صوتًا ينمّ عن ضيقه وعدم ارتياحه، فتنبّه له الأهالي.

قال شيخ مجنون وهو ينظر إلى شوتا نظرة إعجاب: أليس هذا المخلوق دليلًا على جمال الكون وتنوّعه؟ ألا ترون أنّه يعكس الوجود كلّه، وإن كان البعض سيقول إنّه ليس سوى حيوان؟ عندما نموت، فإنّ أرواحنا تنتقل من جسد إلى آخر. لهذا ليس ثمّة موت، ولا جنّة حتّى ننتظرها أو جحيم حتّى نهابه. أنا لست مضطرًّا للصّلاة خمس مرّات في اليوم أو صوم شهر رمضان كلّه، لأنّ الّذين ارتقوا العلالي، لا يعيرون اهتمامًا لقوانين عامّة الناس. ساد الصّمت واستطال حتّى أصبح انتظارًا مربكًا، وفي خضمّه، أعلن المفتي الكبير: ليكن معلومًا أنّ المتّهم مُنح فرصة لرؤية الخطأ في أساليبه، وقد قرّر نهايته بيده، وسوف يُعدم عند غروب الشّمس بعد ثلاثة أيّام من الآن، كما سيُقبَضُ على أتباعه. أمّا الّذين سيعلنون عن توبتهم، فسوف يُطلق سراحهم، في حين سيلقى الآخرون المصير نفسه الّذي سيلقاه.

خفض جَهان بصره، عاجزًا عن النّظر بعد كلّ هذا، وجفل عندما انساب إلى سمعه ذكر الفيل من جديد.

قال أبو السّعود أفندي: لديّ فكرة إذا سمح لي المفتي الكبير. كما تعلمون، فإن أهالي إسطنبول يحبّون فيل سلطاننا الأبيض. لماذا لا نجعل هذا المرتدّ يلقى مصرعه تحت قوائم الحيوان؟ وستكون ميتة لا تُنسى.

لاح الارتباك والحيرة على وجه المفتي الكبير.

ـ هذا ما لم يحدث سابقًا قطُّ.

Twitter: @ketab_n

ـ أيّها السّادة، إنّ مثل هذه العقوبة مطبّقة في بلاد هندستان، وغالبًا ما تترك الفيلة تدوس اللّصوص والقتلة والمغتصبين، وثبتت فاعليتها وجدواها. لنتركِ الفيل يدوسه ويكون أمثولة لأولئك الّذين يشاركونه مثل هذه الآراء.

استغرق المفتي الكبير في التّفكير برهة، ثم قال: لا أرى أيّ مانع في ذلك.

عندذاك دارت الرّؤوس ناحية جَهان وشوتا، وفتح المروِّض فمه، لكنّه لم يستطع أن ينبَسْ ببنتِ شفة نظرًا إلى الهلع الّذي استبدّ به بداية، وراح قلبه ينبض نبضات قويّة، لكنّه أفلح في نهاية المطاف بالقول: أتوسّل إليكم أيّها السّادة العلماء المحترمون. إنّ شوتا لم يسبق له أن قام بمثل هذا العمل، فهو لا يعرف ماذا يفعل.

سأل أبو السّعود أفندي بريبة: ألست قادمًا من بلاد هندستان؟

ردّ جَهان ممتقع الوجه: بلى أيّها الأفندي.

هنا قال المفتي الكبير كلمته: حسنًا إذًا. علّمه. أمامك ثلاثة أيّام.

بعد مرور ثلاثة أيّام على المحاكمة، كان جَهان يرتعش مثل ورقة شجرة في عاصفة هوجاء فوق ظهر الفيل، محدِّقًا إلى أسفل باتّجاه بحر من النّظّارة. ومرّت عيناه بسرعة خاطفة ـ عليهم وعلى الرّجل المستلقي على ظهره فوق الأرض على بعد ذراع واحدة لا أكثر. كانت يدا شيخ مجنون وقدماه محكمة الوثاق وعيناه معصوبتان. وكان يدعو بنبرات هادئة، ابتلعها ضجيج الحشد حوله.

هتف جَهان، وإن كان هتافه أمرًا يفتقر إلى القوّة: انطلق يا شوتا!

Twitter: @ketab_n

لكنّ الفيل رفض أن يتزحزح.

ـ تحرّك أيّها الحيوان!

نخس جَهان الفيل بعصا، ثمّ بهراوة خشبيّة وصبّ اللّعنات، وهدّده وتوعّده، وقدّم له المكسّرات والتّفّاح، ولكن بلا فائدة. وعندما أبدى شوتا اهتمامه بالحركة في نهاية الأمر، فإنّه بدلًا من أن يدوس على المحكوم عليه، تراجع خطوة إلى الوراء وانتظر، وراح يهزّ أذنيه بتوتّر شديد.

ولمّا رأى المحلّفون الجمهور وقد أظهر مللـه، عمدوا إلى تغيير الحكم في اللّحظة الأخيرة، وقرّروا قتل المهرطق وأتباعه على نحو تقليديّ.

في نهاية المطاف، شُنق شيخ مجنون وتسعة من مريديه وأتباعه، وألقيت جثثهم في البوسفور. أمّا التّابع الأخير الّذي كان هرب لأنّه كان مسافرًا أثناء المحاكمة، فقد انتظر عند الخليج، في منطقة نتوء اليابسة على البحر. وكان يعرف أنّ المدّ البحريّ سوف يحمل الجثث. وعندذاك حمل الجثث، واحدة إثر الأخرى، ونظّفها وقبّلها ودفنها. وبخلاف كل قبور المسلمين في إسطنبول، فقد بقيت قبورهم من دون بلاط.

Twitter: @ketab_n

توقّع جَهان منذ يوم وصوله إلى مأوى الحيوانات أن يستفسر السّلطان سليمان عنِ الفيل، لكنّ الأسابيع والشّهور مرّت من دون أيّ إشارة تدلّ إليه، فهو إمّا في ساحة المعركة أو في طريقه إلى خوض إحدى المعارك. وفي المناسبات القليلة الّتي كان يلبث فيها داخل القصر، يكون غارقًا في شؤون البلاد إن لم يكن متورِّطًا في شؤون الحريم. وراح جَهان ينتظر قدوم السّلطان، لكنّ السّلطانة هي الّتي جاءت بعد ظهر أحد الأيّام.

غافلته السّلطانة بسرعة الرّيح وهدوء القطّ الّذي يلاحق حمامة. وفي اللّحظة الّتي خلت فيها الحديقة من النّاس، جاءت وحاشيتها تنتظرها على إستحياء على بعد سبع خطوات من ورائها. كانت ترتدي سترة قرمزيّة قصيرة بياقة من الفرو، وغطاء رأس بشرابات زادت من حدّة ذقنها، وفي إصبعها الوسطى زمرّدة أكبر من بيضة طير داجن غريب.

وقفت وراء الأمّ المنتصبة القامة وعلى مسافة بعيدة من كلّ واحدة وكلّ شيء، الأميرةُ مِهرماه وقد تدلّت الأوشحة الرّقيقة الشّفّافة من غطاء رأسها. وتراقص بريق أشعّة الشّمس منعكسًا على شعرها. وأشرقت عيناها اللّامعتان مثل حصى في قعر غدير ماء عندما لمحتا نظرته المنطوية على الإعجاب. وافترّ ثغرها عن ابتسامة، فكشفت بذلك عن فجوة بين سنّيها الأماميّتين، ما منح وجهها مظهرًا شيطانيًا ملؤه البهجة والحبور.

فتح جَهان فمه وأغلقه كأنّه لا يدري أنّ لسانه كان يتوق إلى الكلام معها. وكاد يخطو باتّجاهها خطوة واحدة عندما صفعه خصيّ على رقبته.

Twitter: @ketab_n

ـ اركعْ! يا لَجرأتك!

جفل جَهان وانحنى انحناءة واطئة وسريعة حتى اصطكَّت ركبتاه بالصخور. فندت ضحكة بين الحاضرين جعلت وجهَه يحمرّ خجلًا حتّى أذنيه.

تجاهلت خرّم المشهد ومشت، وكانت ثيابها تمسّ جبين جَهان وسألته: من يهتمّ بأمر هذا الحيوان؟

ردّ جَهان: أنا يا سلطانتي.

ـ ما اسمه؟

ـ شوتا يا صاحبة السّموّ.

ـ ماذا يستطيع أن يفعل؟

وجد جَهان السّؤال غاية في الغرابة، ما تطلّب منه بعض الوقت كي يجيب. ـ إنّه . . . إنّه حيوان نبيل.

تمنّى لو كان في وسعه أن يخبرها بأنّ الفيلة ليست ضخمة بأبدانها فحسب، بل كبيرة بقلوبها أيضًا. وهي بخلاف غيرها من الحيوانات، تستوعب مغزى الموت، وأنّ لديها طقوسًا للاحتفال بولادة الفيلة الصّغار أو الحزن على فقدان قريب من الأقرباء. الأسود شرسة والنّمور مهيبة والقرود ذكيّة والطّواويس مثيرة للإعجاب ـ لكنّ الفيل وحده هو الّذي يمكنه ان يجمع كلّ هذه الصفات.

قالت خرّم متغاضية عن أفكاره: أظهر لنا بعض الحيل.

سأل جَهان: حيل؟ إنّنا لا نعرف أيّة حيل.

لم يستطع رؤية التّعابير الّتي لاحت على وجهها، لأنّه لم يقدر على رفع بصره إلى أعلى، بل راح ينظر إلى قدميها - الطّويلتين الرّشيقتين المنتعلتين نعلًا حريريًّا - وهي تمشي بضع خطوات، ثمّ توقّفت أمام الفيل وأمرت جواريها بإحضار غصن صغير. وسرعان ما جئن بأحد

Twitter: @ketab_n

الأغصان، فخشي جَهان أن تضرب الفيل، لكنّها لوّحت به في الهواء، وسألت: هل يستطيع الحيوان أن يمسك هذا الغصن؟

قبل أن يتمكّن الفتى من الإجابة، قذفت بالغصن إلى أعلى، باتّجاه الفيل، فصنع قوسًا على هيئة هلال، وسقط على مقربة من قائمتي شوتا الخلفيّتين، فهزّ الحيوان خرطومه كأنّه يريد أن يبعد ذبابة غير مرئيّة، ولبث ساكنًا، بهدوء تامّ.

أصدرت السّلطانة صوتًا ينمّ عن سخرية، وفي تلك اللّحظة، رأى جَهان شوتا بعينيها ـ مخلوقًا ضخمًا يأكل ويشرب أكثر ممّا ينبغي من دون مقابل.

قالت خرّم: هل تعني أنّ هذا الحيوان لا يستطيع عمل أيّ شيء؟

ـ هذا فيل يُستخدم في الحروب يا صاحبة الجلالة، وكذلك كان شأن أجداده. صحيح أنّه صغير، لكنّه أثبت توًّا شجاعته في ميدان المعركة.

استدارت نحوه، نحو هذا الفتى الّذي لم يألف أساليب القصر على ما يبدو.

ـ قلت إنّه محارب؟

ـ نعم يا صاحبة السّموّ. إنّ شوتا محارب.

شعر جَهان بالضّيق، على الرّغم من خروج الكلمات من فمه، وندم على كذبته.

تنفّست السّلطانة نفسًا هادئًا، وقالت: إذًا أنت محظوظ، إذْ سرعان ما ستنشب الحرب.

ثمّ التفتت نصف التفاتة إلى رئيس الخصيان الأبيض، وأضافت: تأكّد من انضمام هذا الحيوان إلى جنودنا البسلاء، ثمّ اندفعت مبتعدة وخلفها جواريها ومحظيّاتها، ولحق بهنّ كامل آغا القرنفليّ، بعد أن نظر

Twitter: @ketab_n

نظرة جامدة إلى الفيل ومروِّضه.

لم ينصرف كلّ الّذين كانوا حاضرين، إذْ ظلّ شخصان واقفين وراحا ينظران إلى الفتى ـ الأميرة ومربّيتها.

قالت مِهرماه: لقد أزعجت مولاتي الأمّ. لا أحد يزعج أمّي.

تمتم جَهان وهو يوشك أن يبكي: لم يكن ذلك هدفي.

ـ قل لي سبب ضيقك؟

ـ الفيل لا يعرف كيف يقاتل يا صاحبة السّموّ.

سألته منشرحة أكثر مما هي خائفة: إذًا كذبْتَ على والدتي؟ انظر إليّ أيّها المروّض.

ما إن رمى جَهان الأميرة بنظرة خاطفة، حتّى أسرع بخفض بصره خجلًا في تلك اللّحظة العابرة، شاهد عينيها الواسعتين في وجهها البيضاويّ، الموروثتين عن والدتها اللّتين كانتا تشعّان ببريق المشاكسة.

قالت: أنت أحمقُ أكثر ممّا كنت أظنّ. قل لي، هل سبق أن خضت حربًا؟

هزّ رأسه نافيًا. ومن شجرة قريبة، تناهى إلى سمعه صوت غراب، صارخًا صرخة تحذير عالية وقويّة.

قالت: حسنًا، أنا أيضًا لم أشهد حربًا، لكنّني سافرت أكثر من مولاتي الأمّ، بل حتّى أكثر من إخوتي النّبلاء. لقد أحبّني والدي حبًّا جمًّا، وكان يطلب منّي أن أرافقه في سفره إلى بلدان كثيرة. وحدنا، لا أحد معنا.

شاب صوتَها شيءٌ من الحزن.

ـ لكنّه لم يعد يصطحبني إلى أيّ مكان بعد الآن، وهو يقول لي: أنت تجاوزت الطّفولة، وأنّني يجب أن أبقى بعيدًا من أعين الغرباء. أمّا إخواني، فهم أحرار كالطّيور المهاجرة. ليتني كنت غلامًا.

Twitter: @ketab_n

أبقى جَهان رأسه مطأطأً بعد أن أذهله هذا الكلام، لكنّ إذعانه على هذا النّحو بدا مقلقًا لها.

ـ انظر إلى نفسك وانظر إليّ! أنت فتًى، لكنّك تهاب ساحات القتال. وأنا فتاة، لكنّني أتحرّق شوقًا للذّهاب إلى الحرب برفقة أبي. أتمنّى لو كان في وسعنا أن نتبادل مواقعنا، مدّة قصيرة من الزّمن.

في ذلك المساء، استجمع جَهان شجاعته، وذهب للقاء رئيس الخصيان الأبيض، وشرح له أنّ شوتا لا يزال صغيرًا، وأنّه غير مستعدّ لخوض الحرب. وهذر ولغط مكرِّرًا عباراته ليس لأنّه ظنّ أنّ الرّجل لم يفهم، بل لأنّه إذا أمسك عن الكلام، فإنّه سوف ينفجر بالبكاء.

قال رئيس الخصيان الأبيض: ما الّذي يحتاج إليه كي يكون مستعدًّا؟ أليس هو فيل حرب، أم إنّ الشّاه خدعنا؟

ـ آه، إنّه فيل حرب. لكنّه لم يدرَّب بعدُ، فثمّة أشياء لا يزال خائفًا منها.

ـ مثل ماذا؟

بلع الفتى ريقه بصعوبة، وقال: النّمور. لقد لاحظت أنّ الحيوان ينكمش على نفسه كلّما رأى نمرًا. لا أعرف سببًا لذلك سوى...

قال كامل آغا القرنفليّ هازئًا: في هذه الحالة لا تقلق، إذْ لا توجد أيّة نمور في بلاك بوغدانيا.

ردّ جَهان: بلاك بوغدانيا؟

ـ إنّه المكان الّذي يتّجه إليه جيشنا، والآن اغرب عن وجهي، ولا ترجع إليَّ بمثل هذا الكلام الفارغ.

Twitter: @ketab_n

كان أوليف مروّض الأسود هو الذي أتى لمساعدته، فأوضح لجَهان أنّ ثمّة أمرًا لا بدّ من تنفيذه بعد صدوره. ولا بدّ لهم من ترويضه في الوقت المتبقّي.

إذا كان الحيوان يخشى النّمور، فينبغي تدريبه على كيفيّة التّغلّب على ذلك الخوف. لهذا الغرض، عثر أوليف على جلد نمر. الله وحده يعلم من أين أتى به، ثمّ طلب من سانغرام أن يأتي بخروف. هو حيوان بريء ذو عينين بنّيتين تنمّان عن عدم الاهتمام، وتركوه يرعى الكلأ أثناء النّهار، ووضعوه في الزّريبة اثناء اللّيل. في تلك الأثناء، سلّم أوليف أحدَ غلمان المطبخ مكيالًا يعادل ربع برميل، وطلب منه أن يملأه بالدّم عندما تذبح دجاجة في المرّة القادمة.

في صباح اليوم التّالي، وعندما كان جَهان في الفناء، طلب أوليف من الفتى نفسه أن يرتدي جلد النّمر، فوضعه على كتفيه وربط أطرافه حول رقبته، ثمّ طلب أوليف منه أن يدبّ على يديه ورجليه حول الفيل مزمجرًا وهادرًا.

ـ اقلب الدّلو!

وعندما راح الفتى ينفّذ ما طلب منه، راقب الفيل هذا المخلوق الغريب بطرف عينه. وفي ذلك اليوم، لم يقدِّموا له طعامًا ولا ماءً، بل عمدوا إلى شحذ أنيابه وأبقوه مقيّدًا. وفي اليوم التّالي، حشا أوليف جلد النّمر بالبطاطا، ووضعه على مقربة من قفص شوتا. ولم يضعوا هذه المرّة أيضًا أيّ طعام أو غذاء، بل مقدارًا ضئيلًا من الماء. ولم يسمح له بالخروج أيضًا. ظلّ الفيل ينظر إلى جلد النّمر نظرات خاطفة متضايقًا

Twitter: @ketab_n

ومنزعجًا معتقدًا أنّه سبب تعاسته.

في اليوم الثّالث، أحضر أوليف الخروف، وربط جلد النّمر على ظهره، فحاول الحيوان المسكين أن يبعده عنه، لكنّ أوليف كان قد وضع مادة لاصقة من الدّاخل، وجرَّ الخروف وهو في هذه الحال إلى داخل حظيرة شوتا. وبعد ساعة واحدة، سمح للفيل أن يدخل. في هذه الآونة، كان شوتا يتضوّر جوعًا وعطشًا، في حين جنّ جنون الخروف من شدّة الهلع والخوف. وهنا أخرج أوليف المكيال المملوء وسكب الدم على الخروف، فتبلّل جلد النّمر وصوفه باللّون الأحمر. كانت رائحة الدّم نفّاذة، تثير الغثيان، ثمّ غطّى رأس الخروف بقطعة قماش، فاستشاط غضبًا بعد أن بات عاجزًا عن رؤية أيّ شيء، وانتقلت عدوى غضبه إلى شوتا الّذي أخذ يضرب بقدميه الأرض. وراح الخروف يركض يمينًا وشمالًا وهو في ذهول حتّى اصطدم أخيرًا بالفيل الّذي هزّ خرطومه وضرب الخروف بكلّ ما أوتي من قوّة، فانقلب الحيوان على الأرض، وتمكّن بعد ذلك من الوقوف على قوائمه مطلقًا أصواتًا رهيبة ستؤرق جَهان على مدى الأسابيع المقبلة.

أغلق جَهان البوّابة وراءَهما وهو يرتجف، وانتظر، واضعًا أذنه على الباب، ممسكًا بالمقبض بكلّ قوّة حتّى آذته أصابعه. وصكَّ سمعه ثغاء الخروف الّذي لم ينتهِ ـ مثل عويل تقشعرُّ له الأبدان، كأنّه قادم من الجحيم. ورويدًا رويدًا، تلاشت الأصوات كلّها، ثمّ فتحوا الباب فوجدوه ملطّخًا بالدّماء، والبول والبراز، وشاهدوا الخروف قد نفق، ومقطّع الأوصال.

في تلك اللّيلة، جلس جَهان في مأوى الحيوانات برفقة بقيّة المروِّضين الّذين تحلّقوا حول النّار العابقة برائحة خشب الأرز، وتجاذبوا أطراف الحديث بأصوات خافتة، والدّخان يتصاعد ملتفًّا في الهواء من نرجيلاتهم، بينما استغرق التّوأمان الصّينيّان، وهما في نشوة

Twitter: @ketab_n

الحشيشة، يضحكان على أشياء غير مرئيّة.

أطلّ القمر كبيرًا ومنخفضًا على مدينة إسطنبول. وكانت السّماء أشبه بمنخل فيه من الثّقوب ما لا يُعدّ ولا يُحصى، تخلّل منها ضوء النّجوم على المدينة الغافية. وحلّ محلّ الحماسة الّتي دبّت في نفس جَهان، إرهاقٌ روحيّ. ما الّذي يفعله في هذه الحديقة بين الحيوانات المتوحِّشة بعيدًا من أصدقائه وجيرانه وأقربائه؟ المؤكّد أنّ شقيقاته تزوَّجن في هذه الآونة، وربّما رُزقَتْ كلّ واحدة منهنّ بأطفال. امتلأ قلب جَهان أسًى ويأسًا وهو يفكِّر فيهنّ جالسات حول نار أخرى ـ نار بعيدة لا تبعث الدّفء في أوصاله. عليه أن يعود إلى دياره، وإلّا سوف يذهب إلى الحرب.

Twitter: @ketab_n

أصدر السّلطان أمره بعد صلاة يوم الجمعة أن يُقرع طبل الحرب، وهو طبل دائريّ عملاق مصنوع من البرونز، وكان يُقرع سبع مرّات عادة قبيل كلّ حملة عسكريّة. وهدر ضجيج يقشعرّ له البدن في الرّدهات الرّخاميّة واهتزّت ورود الحدائق وأقفاص الحيوانات في الأحياء السّكنيّة الّتي يقطنها الأغنياء والفقراء على حدٍّ سواء.

رأى جَهان بأمّ عينه المدينة كلّها تستعدّ للمعركة، فكان أولاد الأمّهات من دون استثناء جنودًا حتّى وإن كانوا يفتقرون إلى الكفاءة. وخرج الانكشاريّة من ثكناتهم العسكريّة، وأسرج الباشوات صهوات جيادهم وامتطوها. وحمل الحرفيّون وأصحاب الدّكاكين السّلاح شأنهم في ذلك شأن البستانيّين والخبّازين والطّبّاخين والخيّاطين والمراكبيين وبائعي الفراء والإسكافيّين والخزّافين والنّسّاجين والعمّال الفنيّين والدّبّاغين والبقّالين والزّجاجين ونشّاري الخشب والبنّائين والصّفّارين والنّجّارين والسّمكريّين والحبّالين وصيّادي الجرذان والطباشريّين وصانعي السّهام والمجذّفين وبائعي السّمك وبائعي الدّواجن، وحتّى العرّافين. وفي كلّ نقابة، ثمة اهتياج ونشاط، وضمن ذلك، نقابة المومسات.

لكن، على الرّغم من ذلك، انتظر كلّ هؤلاء رئيس الفلكيّين الملكيّ حتّى يعلن عن يوم ميمون لشنّ الحرب. ثمّة وقت مناسب لكلّ شيء ـ احتفالات، زفاف، ختان، حرب، وأخيرًا وبعد مرور ليالٍ جرت فيها مراقبة النّجوم، حُدِّد اليوم الموعود. فبعد عشرين غروبًا، سينطلق الجند في طريقهم.

Twitter: @ketab_n

لمّا كانت الحرب تعني إيجاد العدوّ إذا لم يجدك هو أوّلًا، فإنّ على هؤلاء الجند قطع المسافة بين القرن الذّهبيّ ونهر بروث. صدرت الأوامر إلى الفتى والفيل للتّقدّم في الخطوط الأماميّة، ما أثار اضطراب جَهان وارتباكه، إذْ لم يكن يرغب في أن يكون بتلك الدّرجة من القرب من أصحاب الرّؤوس المخبولة الّذين كانوا يرتدون الفرو وتعلو الوشوم أجسادهم، من قمّة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، وكانت آذانهم مثقوبة أيضًا ورؤوسهم حليقة. كانوا متقلّبي الأطوار، خشنين ومتوحّشين. وكان من بينهم عدد من عتاة المجرمين، ينفخون الأبواق ويقرعون الطّبول المختلفة الحجم والصوت، كأنّهم يريدون بها إيقاظ الموتى، يصنعون جلبة كفيلة بأن تقشعرّ لها أبدان العدوّ ـ ويرتبك لها الفيل.

فكّر جَهان في أفضل وسيلة يكشف فيها عن مخاوفه، لكن تبيّن أنّ لا ضرورة لذلك. ففي الصّباح الّذي انطلقوا فيه إلى بلاك بوغدانيا، تسبّبتِ الضّوضاءُ الهائلةُ في اهتياج شوتا اهتياجًا عنيفًا حتى كاد يدوس أحد الجنود. وقبيل حلول الظّلام، نُقل الاثنان إلى الصّفوف الخلفيّة ليكونا برفقة الخيّالة. لكنّ الجياد هي الّتي جفلت في هذه الحالة. وفي نهاية المطاف، كان لا بدّ من إيجاد مكان آخر لهما، وهو بجانب فيلق المشاة.

سارت الأمور بعد ذلك سيرًا حسنًا، وراح شوتا ينطّ هنا وهناك، مستمتعًا بالهواء الطّلق والسّير المتواصل بعد أشهر على وجوده داخل حدائق القصر. وتمكّن جَهان من أن يشاهد وهو جالس على رقبة الفيل كلّ ما تحته ووراءه، فتعجّب عندما وجد نفسه يحدّق إلى بحر من الأجساد لا نهاية له. ورأى الجمال تحمل المؤن والثّيران تجرّ المدافع والمنجنيق وحملة الرّماح من أصحاب الضّفائر والّذين تتدلّى شعورهم من تحت قبّعاتهم؛ والدّراويش وهم يبتهلون، وآغا الانكشاريّة جالسًا بكلّ فخر وكبرياء على ظهر جواده، والسّلطان ممتطيًا جوادًا عربيًّا،

Twitter: @ketab_n

يحيط به الحرّاس من كلا الجانبين ـ رماة السّهام الّذين يرمون بشمائلهم من جهة الشّمال، والّذين يرمون بأيمانهم من جهة اليمين. وكان يسير أمامه حامل البيرق المرسوم عليه ذيول سبعة جياد سود اللّون.

كان آلاف الفانين يتقدّمون إلى أمام حاملين البيارق وذيول الجياد على أوتاد، ورافعين الرّماح والسّيوف المقوّسة والفؤوس والأسلحة النّارية القديمة المعروفة بالهراكيب والبلطات والعصي الحديديّة والتّروس والأقواس والسّهام. لم يسبق لجَهان أن شاهد مثل هذا الجمع الغفير الذي لم يكن حشدًا من الرّجال قدر ما كان كتلة عملاقة. وكان وقع الأقدام وحوافر الخيل المتناغمة تقشعرّ له الأبدان، مروِّعًا في الوقت نفسه ـ وسار الجيش صعودًا نحو أحد التّلال بعكس اتّجاه الرّياح، يشقّ طريقه مثلما تشقّ السّكّين جسم الإنسان.

وبين الفينة والفينة، راح جَهان يثب من فوق الفيل كي يمشي قليلًا، وهكذا التقى أحد الجنود المشاة وكان مفعمًا بالحيوية والنّشاط مثل دجاجة مرحة، وكان يحمل قربة ماء على ظهره.

قال الجنديّ: عندما تقتل عدوًّا، فإنّه يحسب لك لأنّك تحصل على بيت في الجنّة مقابل رأس كل نذل وخسيس.

لبث جَهان هادئًا، لأنّه لم يكن يفقه الشّيء الكثير بشأن الجنّة، ولا حاجته للبيوت هناك. كان هذا الجنديّ قد حارب في معركة موهاكس[١]، الّتي لقي فيها كفّار كثرٌ مصرعهم ـ وسقطوا على الأرض كأعداد كثيرة من الطّيور الهالكة. وأصبحت الأرض تحتشد بالجثث وهي ما تزال متشبّثة بسيوفها.

وقال وهو يخفض صوته حتّى كاد يستحيل همسًا: كان المطر يهطل

---

(١) موهاكس Mohacs: مدينة في المجر على الدّانوب قرب حدود كرواتيا. ألحق فيها سليمان الأول هزيمة ساحقة بالمجر في ١٥٢٦م، وقتل لويس الثاني، وانتصرت فيها النمسا على الأتراك في ١٦٨٧، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

طوال الوقت. . . لكنّني شاهدت نورًا ذهبيًا.

سأل جَهان: ماذا تعني؟

ـ أقسم لك أن النّور كان ساطعًا جدًّا، منتشرًا في الحقل. كان الله إلى جانبنا.

وعلى حين غرّة، اخترقت كلماته صرخةٌ حادّة من الألم، فهرع الجند يمينًا وشمالًا، يصدرون الأوامر، وانتشرت الهمهمات من صفّ إلى آخر، وحلّ محلّ الأرض الصّلبة حفرة واسعة مثل محجر فارغ متّجه نحو السّماوات. لقد فتحت الأرض فاهَا، وابتعلت مجموعة من الخيّالة الّذين سقطوا في حفرة ذات أوتدة حادّة في قعرها ـ فكانت فخًّا متقن الصّنع والإخفاء تركه العدوّ. وسرعان ما لقي الخيّالة حتفهم، ولم ينجُ سوى جواد أسود اللّون ظلّ يتنفّس، رغم إصابته بجرح في رقبته، عاجله أحد الجنود بسهم كي يضع حدًّا لمعاناته.

ودار نقاش واسع من بعدُ، حول ما إذا كان ينبغي إخلاء موقع المعركة من القتلى ودفنهم أم تركهم في أماكنهم. كان ضوء النّهار قد راح ينحسر في الأفق. الوقت ثمين، لهذا تقرّر دفن الموتى معًا: الجياد والجنود في القبر نفسه. وفكّر جَهان في أنّ العدالة غائبة لأنّ البشر سيذهبون إلى الجنّة بعد أن استشهدوا في المعركة، في حين أنّ الحيوانات الّتي رافقتهم ولقيت مصرعها من أجلهم ستُطرد من بوّابات الجنّة. فكرة لم يعرف كيف يتصرّف إزاءَها، فبقيت حبيسة في أعماقه.

في الأيّام المقبلة، راح الجيش يشقّ طريقه وسط وديان لؤلؤيّة البريق، وتلال وعرة الممرّات، فيمضي قدمًا نهارًا، عند طلوع الشّمس، وينصب خيامه بحلول الظّلام. بهذا، وبعد بزوغ الفجر ستّ مرّات وغروب الشّمس خمس مرّات، وصل الجيش إلى ضفاف نهر بروث. ثمّة ستارة من ضباب تخيّم على النّهر، ووجد الجند أنّهم لا يملكون وسيلة يعبرون بها النّهر، فمنهم بلا قوارب ولا توجد جسور. فصدرت

Twitter: @ketab_n

الأوامر لهم بنصب الخيام، وأخذ قسط من الرّاحة والتّفكير بحلٍّ لهذه المشكلة.

اندفع شوتا باتّجاه منحنًى في النّهر الضّحل المياه، وألقى بنفسه في البركة يخوض فيها ويزعق. كان في غاية الفرح والسّرور، ما جعل أفراد الجيش كلّهم يتوقّفون ويراقبون.

قال جنديّ المشاة: ما الّذي يفعله؟

ـ يغطّي نفسه بالوحل.

ـ ما الّذي يدفعه إلى هذا التّصرّف؟

قال جَهان: هذه الحيوانات لا تتعرّق مثلنا، والماء يحافظ على برودتها، والوحول تحميها من الشّمس. لقد علّمني تاراس هذا الأمر.

ـ من هو تاراس؟

قال جَهان من دون اهتمام: مروّض عجوز في القصر، وهو يعرف كلّ شيء عن كلّ حيوان.

أنعم الجنديّ النّظر إليه مومض العينين.

ـ إذًا، تعلّمت أساليب الفيل من تاراس. لماذا لم تتعلّم شيئًا من حيوانك؟

تحاشى جَهان نظرات الجنديّ المشاة وانتابه ضيقٌ مفاجئٌ. لقد أطنب في الحديث. وفي كلّ مرّة كان يسمح فيها لأحد الأشخاص، أي شخص، أن يفتح فمه، تجده يندم على ذلك من فوره.

سرعان ما بدا واضحًا أنّ شوتا كان المستفيد الوحيد من تلك الفجوة. وتضايق الانكشاريّة الّذين كانوا يتوقون إلى النّصر وإلى الحصول على الغنائم، نتيجة وقوفهم وانتظارهم إلى ما لا نهاية على شاطئ النّهر. وكانت الرّيح الّتي لفحت وجوههم أثناء المسير قد هدأت، لكنّ المكان راح يعجّ الآن بالبعوض الّذي كان يعضّ منتقمًا، كأنّ العدوّ هو الّذي درّبهم على ذلك. كان الجنود متوتّرين والجياد متململةً

Twitter: @ketab_n

بعصبيّة. وشعر الغزاة بالإنهاك وهم يبحثون عن الطّعام في القرى نفسها، وبدا مذاق الشّوربا خاليًا من أيّ طعم بمرور الأيّام.

في هذه الأثناء، راح فيلق من الرّجال يشيّد جسرًا، وبدا أنّه يؤدّي عملًا جيّدًا إلى أنِ انهارت إحدى دعائم الجسر تبعتها بقيّة الدّعائم على نحو غير متوقّع بفعل الشّيطان. وقبل أن ينتهي الأسبوع، وُضعت أسس جسر ثانٍ. وعلى الرّغم من أنّها كانت أشدّ متانة وسمكًا من دعامات الجسر الأول، إلّا أنّ كتفيْ القنطرة انهارتا بسرعة أكبر. ولقي أحدُ الجنود مصرعَه وجُرِحَ ستّة آخرون نتيجة ذلك. أمّا الجسر الثّالث، فلم يكن سوى محاولة ضعيفة، إذْ كانت التّربة رخوة جدًّا، وكان تيّار النهر عنيدًا لا يُقاوم، حتّى خارت قوى البنّائين وضعُفَتْ معنويّاتُهم، فراحوا في خدر وسبات أدّى إلى سقوطهم في الماء وابتلاعهم ابتلاع المستنقع تحت أقدامهم. لم يجد جَهان ضرورة في الاستفسار من جنديّ المشاة عن رأيه في الورطة الّتي وجدوا أنفسهم فيها، لأنّه كان يعلم أنّه سيقول إنّ الله الّذي أتى بهم إلى هذه المنطقة الكئيبة، نسيهم على حين غرّة. وإذا ما ظلّتِ الأمور تسير على هذا النّمط، فإنّ من شأن الجيش العثمانيّ أن يهزمَه نفادُ صبرِه حتّى قبل أن تبدأ الحرب.

Twitter: @ketab_n

المعلِّـــــم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

انتظر الجيش بالقرب من نهر بروث الّذي كان ماؤه يجري جريانًا عنيفًا وقويًا بين الجيش العثمانيّ والعدوّ. وكان الانكشاريّة يتوقون إلى العبور إلى الضّفّة الأخرى متعطّشين للنّصر.

في صباح أحد الأيّام، شاهد جَهان آمر الوحدة المسؤولة عن المنجنيق يركض بأسرع ما تستطيع أن تساعدَه ساقاه، متّجهًا ناحيته. ولمّا كان متحمّسًا لمعرفة ما يجري، فقد تأخّر في الابتعاد من طريق الرّجل.

قال وهو يعتدل بعد أن كاد يصطدم اصطدامًا بسيطًا بجَهان: كيف حال الحيوان أيّها المروّض؟

ـ إنّه بخير أيّها الأفندي، وعلى استعداد للقتال.

ـ قريبًا إن شاء الله. لا بدّ لنا أوّلًا من عبور هذا النّهر اللّعين.

تفوّه الرّجل بهذه الكلمات، ثمّ غاب عن الأنظار، إذْ دلف إلى خيمة مرتفعة يحرسها جنديّان. كان ينبغي لجَهان أن يقف هناك، لكنّه لم يتوقّف. وفي غمرة عدم تفكيره بهويّة صاحب الخيمة، تقدّم إلى أمام بخطوات ثابتة، حتّى إنّ الحرس ظنّوا أنّه أحد التّابعين للآمر، فسمحوا له بالدّخول.

كان المكان محتشدًا بالنّاس داخل الخيمة، فلم يعره أحدٌ أيَّ اهتمام، وسار جَهان على رؤوس أصابعه وبهدوء الفأر، واتّجه إلى ركن قبالة الباب، وانحشر بين غلامين. جدران من قماش ووسائد مطرّزة وسجّاد بألوان تخلب اللّب وأطباق تتكدّس فيها مختلف المأكولات الشّهيّة، ومصابيح ومواقد وبخور عطر الرّوائح. وفكّر في أنّه يستطيع أن يسرق بعض الأشياء ليعطيَ القبطان غاريث إيّاها، لكنّ التّفكير وحده بالسّرقة أثار هلعه.

Twitter: @ketab_n

كان الصّدر الأعظم حاضرًا، تزيّن عمامتَه ريشةُ مالك الحزين.

وكان السّلطان في الطّرف الأقصى من المكان مرتديًا قفطانًا كهرمانيّ اللّون، مهابًا مثل تمثال. كان يجلس على عرش مرصّع بالمجوهرات وموضوع على منصّة ما منحه فرصة الدّرس. وكان شيخ الإسلام وآغا الانكشاريّة وغيره من الوزراء قد اصطفّوا على كلا جانبيه، يزوّدونه بالملاحظات، وكان الحاضرون يناقشون إمكانيَّة تغيير طريقهم، لكي يعثروا على منعطف في النّهر تكون فيه الأرض صلبة بما يكفي لبناء جسر. وهذا لا يعني ضياع أسابيع من الوقت، وربّما شهرًا واحداً، فحسب، بل ضياع الطّقس المواتي أيضًا.

قال لطفي باشا: مولاي الجليل، ثمّة شخص يمكنه أن يبني لنا جسرًا قويًّا.

وعندما سأل السّلطان عمّن يكون هذا الشّخص، قال لطفي باشا: إنّه واحد من نخبة حرّاسك، اسمه سنان وهو عبدك الانكشاريّ الخاصّ الّذي يرافقك إلى المسجد والصّيد.

ولم يمضِ وقت طويل حتّى جيء برجل وأُدخل إلى الخيمة، فجثا على ركبتيه، على بعد خطوات من المكان الّذي كان يقف فيه جَهان. كان عريض الجبين، منحوت الأنف، أسمرَ البشرة، داكنَ العينين ما يجعلهما تنطويان على هدوء. وعندما طُلب منه أن يتقدّم إلى أمام، سار متمّهلًا مطأطأ الرّأس كأنّه في مهبّ ريح عاتية. وعندما أصغى سنان للسّبب الّذي جيء به إلى هذا المكان، قال: إن شاء الله سنبني جسرًا يا سلطانيَ الموفّق.

سأل السّلطان سليمان: كم يستغرق تشييده برأيك؟

توقّف سنان هنيهة، وقال: عشرة أيّام يا مولاي.

- ما الّذي يجعلك تظنّ أنّك سوف تنجح في ما أخفق فيه الآخرون.

- لقد بدأ الآخرون يا مولاي بنيّة صادقة لا يرقى إليها شكٌّ في

Twitter: @ketab_n

البناء من فورهم. أمّا أنا، فسوف أبني الجسرَ في مخيّلتي، ولن أبدأ ببنائه على الأرض إلّا بعد ذلك.

على الرّغم من غرابة الإجابة، إلّا أنّها بدت مُرضيةً للسّلطان. فاوكلت المهمة لسنان، وعاد من حيث أتى من غير عجالة. وبينما هو يمر من أمام جَهان، رنا إلى وجه الفتى، ثمّ فعل شيئًا لم يسبق لجَهان أن رأى أحدًا في مثل مقامه يفعله. لقد ابتسم له.

وهنا داعبت فكر الفتى فكرة. فلو اشتغل برفقة هذا الرّجل، لأصبح قريبًا من ثروة السّلطان سليمان، وكان كلّ فرد يردّد أنّ السّلطان جاء محمّلًا بصناديق مملوءة بالنّقود والمجوهرات ليوزّعها على أولئك الّذين يظهرون أكبر قدر من الشّجاعة في ساحة القتال.

انسلّ جَهان إلى الخارج ولحق بالمعلّم، وهتف: انتظر أيّها الأفندي. إنّني مروّض الفيل.

ـ أعرف من أنت، فقد شاهدتك وأنت ترعى الحيوان.

ـ إنّ شوتا أقوى من أربعين جنديًا، ويمكنّه أن يكون عظيم النّفع والفائدة لك.

ـ حسنًا، هل تعرف شيئًا عن البناء؟

ـ لقد... لقد اشتغلنا برفقة سيّد البنّائين في هندستان.

فكّر سنان في هذا الكلام وهو ينظر مليًّا إلى عيني الفتى.

ـ ماذا كنت تفعل في خيمة الوزير الأعظم؟

قال جَهان من دون أن يكذب هذه المرّة: لقد دخلت خفية.

هدأت نظرات سنان، وقال: يمكن الفيل أن يكون مفيدًا. كما أنّ فتًى ذكيًّا محبًّا للاستطلاع مثلك، يمكن أن يساعدنا أيضًا.

شعر جَهان بوجنتيه تحترقان، إذْ لم يصفه أحد طوال حياته، وفي العالم كلّه بأنّه ذكيّ. وهكذا انضمَّ الفيل والمروّض إلى جيش البنّائين وراحا يعملان مع هذا الرّجل الغريب المدعو سّنان.

Twitter: @ketab_n

كان العمّال حريصين على بذل أقصى جهدهم في العمل، فانقضى اليوم الأوّل من دون أن يتذمّر أيّ واحد منهم، وكذلك انقضى اليوم الثّاني. وبدا سنان متلكّئًا ومتباطئًا: يسير ذهابًا وإيابًا بمحاذاة النّهر، محدِّقًا في الأفق، يدسّ العصيّ في الماء، يقيس ويحمل لفافات الورق، يدوّن الأرقامَ، ويرسم أشكالًا لا تقلّ إبهامًا عن تلك الاشكال المرسومة على رسوم الكهنة. غير أنّ التّوتّر راح يدبّ في نفوس الجند، يتساءلون عن جدوى انتظارهم وسببه. وراجت إشاعات ليلًا، في الخيام وحول النّيران، مفادها أنّ سنان على ما يبدو ليس هو الرّجل المناسب لهذه المهمّة.

وفي اليوم الثّالث، أعلن سنان أنّهم سوف يبدأون عمليّة البناء. واستولت الدّهشة على كلّ شخص عندما اختار سنان موقعًا على مسافة دونمين[١] في أعلى الضّفّة، حيث يمتدّ النّهر أعرض وأوسع. ولمّا سألوه عن السّبب الّذي دفعه إلى نقلهم إلى مثل ذلك المكان البعيد البعيد، أجابهم أنّ الجسر قد يكون قصيرًا أو طويلًا، وتلك قضية عديمة الأهمّيّة، لكن ينبغي لأسسه أن تكون صلدة مثل حجر الغرانيت.

حمل شوتا الإطارات والألواح الخشبيّة، ونقل الصّخور إلى مواقعها لحماية الهيكل من ضغط التّيّار وقوّته. وأثبتت قدرته على الخوض في المياه بيسر وسهولة على أنّها شيء مناسب، إلى ذقونهم. واستخدموا براميل هائلة، لا ينفذ إليها الماء، سُدّت من الدّاخل بالملاط

(١) دونم Donum: هكذا وردت في النّصّ والدّونم يساوي ألف متر مربّع (المترجم).

Twitter: @ketab_n

والصّلصال وأُنزلت إلى حفرة محفورة حديثًا. وبذل جَهان جهوده الجبّارة في العمل مع العمّال، يغطّيه الطّين والأوساخ ويتفصّد عرقًا. كانوا حقًّا رجالًا غير اعتياديّين. صحيح أنّهم كانوا أشدّاء، قليلي الكلام، إلّا أنّ بعضُهم كان مهتمًّا ببعضِهم الآخر. وكانوا يضعون أيديهم اليمنى على قلوبهم كلّما طرق سمعهم شَخص ما يذكر النّبي شيت والنّبي إبراهيم والقدّيسين الّذين يرعون البنّائين والمعماريّين. وراح جَهان يشعر بين ظهرانيهم براحة لم يشعر بها من قبلُ في أيّ مكان آخر. ووجد، مثلهم، فرحة سريّة غامرة، في بناء الحجارة، واحداً فواحدًا. وبعد مرور الأيّام العشرة على تكليف سنان المهمّة، أكملوا بناء الجسر.

كان السّلطان أوّل العابرين، بعد أن امتطى صهوة جواده، ممسكًا اللّجام إمساكًا قويًّا بإحدى يديه. وعبر وراءه الصّدر الأعظم الّذي لحق به الآخرون، ومن بينهم لطفي باشا الّذي هنّأ نفسه لعثوره على المعمار. وعندما وصلت حاشية السّلطان إلى الضّفّة الأخرى، ابتهج كلّ واحد وراح الجيش يعبر الجسر، ستّة جنود في كلّ مرة، وترامت إلى المسامع أصوات الابتهالات والأدعية ـ فالرّجال لا يهابون سفك الدّماء، لكنّهم يخافون المياه. وتحرّك جَهان والفيل عندما أتى دورهما في العبور، لكن سوباشي أوقفهما قائلًا: على الحيوان أن ينتظر لأنّه ثقيل جدًّا.

جاء سنان في هذه اللّحظة لينقذهما.

ـ أيّها الأفندي، إنّ الجسر يستطيع أن يحمل خمسين فيلًا إذا اقتضتِ الضّرورة.

وافق سوباشي متذمّرًا:

ـ إذا كنت أنت توافق. . .

قال سنان ملتفتًا إلى جَهان: تعالَ، سوف أسير برفقتك.

وهكذا عبرا الجسر معًا، ووراءهما الفيلُ.

Twitter: @ketab_n

عندما وصلا إلى الجانب الآخر، استُدعي سنان لأمر عاجل، فحثّ خطاه. ولحق به جَهان وكذلك شوتا لأنّ أحدًا لم يطلب منهما البقاء حيث هما.

كان يقف أمامهما الوجهاء وهم يتجادلون بشأن ما سيحدث للجسر بعد أن يرحل الجيش، ولاحظ جَهان أن التّوتّر أخذ يلوح على محيّاهم. كان لطفي باشا يريد بناء برج مراقبة وتخصيص مفرزة لحراسة الجسر. أمّا الصّدر الأعظم والحاكم العام على الرّوملي[1] سوفو محمد باشا، فلم يوافقا، وقرّرا استشارة المعمار لمّا عجزوا عن التّوصّل إلى اتفاق.

قال سنان: أيّها السّادة! لو شيّدنا برجًا، فإنّ العدوّ سوف يستولي على البرج والجسر معًا، لأنّ في وسعهما نصب كمين لنا من الخلف.

سأل الوزير الأعظم: ماذا تقترح؟

ردّ سنان: لقد شيّدناه بأيدنيا، ويمكننا أن نهدمه بأيدينا أيضًا. وعند عودتنا نستطيع بناء جسر آخر.

هاج لطفي باشا وماج لأنّه كان يتوقّع من سنان أن يوافقه على رأيه، بخاصّة أنّه هو الّذي أوصى به في الدّيوان، وقال: يا لك من جبان! أنت تخاف البقاء هنا لحراسة البرج.

امتقع وجه سنان، لكنّ كلامه جاء هادئًا ورزينًا.

ـ أيّها السّادة، إنّني انكشاريٌّ. إذا أصدر السّلطان أوامره إليّ ببناء برج وحراسته، فإنّني سأنفّذ ما يقول، لكنّكم أردتم معرفة رأيي، وهذا ما فعلته.

قال الحكم العام في خضمّ الصّمت المطبق: حسنًا، إنّ العرب يحرقون سفنهم.

---

(١) الرّوملّي Rumelia: (بلاد الرّوم): اسم أطلقه العثمانيّون على ولايتي تراقية ومقدونيا في البلقان، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

قاطعه لطفي باشا، ورشق سنان بنظرة باردة: هذه ليست سفينة، ونحن لسنا ببدوٍ!

هكذا انتهى الاجتماع من دون التّوصّل إلى حلّ. وفي وقت لاحق من عصر ذلك اليوم، أعلن السّلطان قراره بعد أن تناهى إلى سمعه الجدال. الواضح أنّه فضّل اقتراح سنان على اقتراح لطفي باشا، وسوف يتمّ هدم الجسر.

سرعان ما تبيّن لجَهان أن هدم الجسر أسهل بكثير من بنائه، ولكنّه على الرّغم من ذلك، شعر بالألم عندما شاهد الحجارة الّتي بذلوا جهودًا شاقّة في جمعها ورصفها، وهي تنهار. وعارض سنان أكثر من أيّ شخص آخر، إذْ كيف يمكن لإنسانٍ أن يوصي بهدم الجسر، كأنّ عرق جبينهم لا يعني شيئًا له.

وعندما سنحت الفرصة لجَهان كي يكلِّم سنان، راح يتخبّط في كلامه: سامحني أيّها الأفندي. إنّني لا أفهم السّبب الّذي يدفعنا إلى هذا الهدم. لقد بذلنا جهودًا شاقّة في بنائه.

ـ سنبذل جهودًا أكبر في المرّة القادمة.

ـ نعم، ولكن... كيف يمكنك القول بكل سهولة: سوف نهدمه؟ ألا يجعلك ذلك تشعر بالحزن؟

نظرَ سنان إلى الغلام، كأنّ أحدهما عرف الآخر في وقت غير هذا الوقت، وقال: كان معلّمي الأوّل هو والدي، وكان أفضل نجّار في المنطقة، وهو الّذي درّبني منذ صباي. وكان يصوم أربعين يومًا كلّما حلّ عيد الفصح الأرمنيّ. في هذه الأثناء، كان يطلب منّي أن أنحت

Twitter: @ketab_n

حملًا صغيرًا من الخشب، ليقول لي بعد ذلك إنّه ليس نحتًا بارعًا، ويأخذه منّي ويقول بعد بضعة أيّام: لقد حطّمته، اذهب واصنع غيره. كنت أستاء من ذلك الكلام، ولكنّ الحملان بدت أفضل.

تشنّج ظهر جَهان وهو يفكِّر في زوج أمّه، وتذكّر كيف أنّ الرّجل استهزأ به عندما بنى فرنًا في الفناء لتستعملته أمّه. واليوم، وبعد مرور سنوات على ذلك الحدث، لم تستبدّ به الدّهشة ليدرك أنّ الغضب الّذي بان عليه سابقًا لا يزال كامنًا في فؤاده.

استرسل سنان في كلامه من دون أن يلتفت إلى أفكاره: عندما انتقل أبي إلى رحمة الله، وجدنا صندوقًا في سقيفته، وفي داخله كلّ الحملان الّتي صنعتها في صباي. كان أبي قد احتفظ بكلّ واحد منها.

ـ أفهم أنّه صنع منك حرفيًّا أفضل، لكنّه جرح مشاعرك.

ـ أحيانًا، لا بدّ من أن ينفطر قلبك يا بنيّ حتّى تزهر روحك.

ـ إنّني لا أفهم أيّها الأفندي، فأنا لا أريد أن يحطّم أيّ شخص ما أفعله.

ـ إذا أردت أن تصبح معلِّمًا قديرًا، يتعيّن عليك أن تهدم وتحطّم قدر ما تركّب وتبني.

قال جَهان مجازفًا: وعندذاك لن تقوم قائمة لأيّ مبنًى في العالم، لأنّ كلّ شيء سوف يهدّم.

ـ إنّنا لا نهدم المباني يا بنيّ، بل نحطّم رغباتنا في تملّكها. الله وحده هو المالك. مالك الحجارة والمهارة.

قال جَهان من جديد، وإن لم يكن كلامه بصوت عالٍ هذه المرّة: إنّني لا أفهمك.

هكذا تركوا وراءهم على ضفّة نهر بروث عرقهم وإيمانهم وعملهم، أطلالًا لا تعطي أيّ انطباع بأنّ جسرًا عظيمًا كان يومًا مشيّدًا في تلك البقعة.

Twitter: @ketab_n

كانت اللّيلة الّتي تسبق المعركة، وليست اللّيالي الّتي ستعقبها، هي الّتي ستبقى محفورة في روح جَهان ـ عندما كان لا يزال سليمًا وكاملًا ومن شأنه أن يظلّ كذلك لو كان العالم غير هذا العالم. كان جَهان مضطجعًا على فراشه، مستغرقًا في التّفكير في مِهرماه. لم تكن بيده حيلة. فكانت عيناه تبصران على الرّغم منه، تشاهدانها وهي تمشّط شعرها، أو تتنزّه وسط حدائق الزّهور، توزّع ابتساماتها في كلّ مكان. وكانت أذناه تسمع صوتها، عاجزًا كلّ العجز في وقت راحت حواسه تستحضرها من بين طيّات الهواء.

بدأت الحالة المزاجيّة في المعسكر تتبدّل بعد أن أزفت الشّمس بالمغيب واستبدّ الملل والسّأم فيه. وحين أرخى الظّلام سدوله تمامًا، ساد نوع من التّوقّع باحتمال حدوث أمر ما في الجوّ، وكان لذلك التّوقّع من القوّة ما جعله محسوسًا جدًّا. وعرف كلّ الجنود في المعسكر، بغض النّظر عن صغر رتبهم أو علوّها، أنّ السّماء المحتشدة بالنّجوم الّتي يتطلّعون إليها يمكن أن تكون سماءهم الأخيرة. ففي الغد، عندما تكون الشّمس قد أشرقت وأضحى العدوّ على بعد مسافة قصيرة، فإنّ أحدًا منهم لن يتردّد في فعل ما ينبغي عليه فعله. أمّا الآن، فهم معلّقون في عالم النّسيان بين الشّكّ والإيمان، الشّجاعة والجبن، الإخلاص والخيانة.

مزّق أعصابَهم شعورٌ ينذر بالشّؤم، لم يكن سببه هذا الوادي الكئيب المحكوم عليه بالدّمار، حيث تمنّوا أن يموتوا فيه، وأن تمزّق النّسور أجسادهم وتلتقط أجزاء منها، وتصبح عظامهم بلا بلاطة،

Twitter: @ketab_n

وأطيافهم تهيم إلى أبد الآبدين. كانوا يفضّلون لو يتمّ دفنهم في مقبرة هادئة، تنمو فيها أشجار السّرو والأزهار اليانعة، حيث الأرض معروفة والنّاس تعرف أسماءهم فيبتهلون بدعاء أو دعاءين من أجل أرواحهم. صحيح أنّ الوعد بالنّصر والغنائم شيء جميل، لكنّ الحياة أجمل. وفكّر الكثيرون في امتطاء صهوات جيادهم والهرب، لكنّهم لم يعد في مقدورهم الذّهاب إلى مكان بعد الآن لأنّهم عجزوا عن العودة إلى ديارهم.

على الرّغم من قرع طبل اللّيل، إلّا أنّ الجنود وجدوا صعوبة في الخلود إلى النّوم. ونشطت إشاعات داخل الخيام بعد أن راح الجنود يتبادلون الحكايات ويكشفون الأسرار ويقطعون الوعود ويبتهلون بالأدعية والصّلوات. سار جَهان أمام سرداق مخصّص للمدفعيّين، وشاهد أحد رماة القنابل يغنّي بلغة غريبة. كان الانكشاريّون ينتمون إلى أصول مختلفة، ومن بينهم أبناء البلقان والأناضول. وكانت ذكرياتهم عن حياتهم السّابقة محفوظة في صناديق مغلقة، مفاتيحها رميت بعيدًا. لكن، في مثل هذه الأوقات وعندما يصبحون وجهاً لوجه أمام الموت، تنفتح الصّناديق من تلقاء نفسها وتتحرّر أجزاء من طفولتهم مثل حلم راودهم في يوم من الأيّام، لكنّهم لا يستطيعون جمع تلك الأجزاء.

هام جَهان على وجهه حول المعسكر حاملًا دلوًا بإحدى يديه متعلّلًا بأنّه يريد إحضار الطّعام للفيل. وصادف في طريقه دراويش يرقصون رقصات دائريّة الواحدة داخل الأخرى، رافعين أيمانَهم باتّجاه السّماء، وخافضين شمائلهم باتّجاه الأرض، يأخذون ويعطون، يحسبهم النّاس موتى، ولكن ربّما كانوا مفعمين بالحياة أكثر من غيرهم. وشاهد تقاة المسلمين يصلّون على سجّادات صغيرة، تعلو جباههم علامات صغيرة لا تكاد تبين من فرط السّجود. والتقى مقاتلًا احتفظ بعقرب داخل علبة في زنّاره، موضحًا أنّ هذا العقرب سوف يلدغه إذا ما وقع

Twitter: @ketab_n

أسيرًا في أيدي عبدة الأوثان. كما طرق سمعه مصادفة صوت انكشاريّين وهم يستنزلون اللّعنات بصوت خافت، وكانت تلك مشاجرة بين رفاق سرعان ما سوف يتمّ نسيانها في صباح اليوم التّالي. ورأى ثلاث مومسات يطفن خلسة بين الخيام وإن كنّ قد مُنعن من ممارسة عملهنّ في اليوم الّذي يسبق المعركة. كانت هذه اللّيلة هي أكثر اللّيالي المدرّة للرّبح لأنّ عددًا كبيرًا من الرّجال كان في أمسّ الحاجة إلى الحصول على ما يقدّمنه من متعة وسلوى.

كانت أمامه ثلاث مومسات، وجوههنّ نصف متوارية عن الأنظار تحت أغطيتهنّ. ولمّا كان جَهان فضوليًّا، محبًّا للاستطلاع كدأبه على الدّوام، فقد راح يلحق بهنّ. وتوقّفت إحداهنّ واختلست نظرة سريعة إلى الوراء، وكانت شابّة رشيقة ترتدي ثياب اليهوديّات.

قالت في صوت ناعم ورخيم: جنديّ شجاع. ألم تقدر على النوم؟

قال جَهان: لست جنديًّا.

ـ لكنّك شجاع. أنا متأكّدة من ذلك.

هزّ جَهان كتفيه لا يعرف كيف يردّ عليها.

افترّ ثغرها عن ابتسامة عريضة.

ـ دعني أنظر إليك.

جفل جَهان لمّا لمسته، وشبكت ذراعها بذراعه وتشبّثت بيده تشبّثًا قويًّا حتّى لم يعد في وسعه جذب يده بعيدًا منها. كانت ناعمة الأصابع يضوع جسدها برائحة دخان الحطب والعشب الرّطب. أفلح أخيرًا في التّحرّر من قبضتها في محاولة لإخفاء الرّجفة الّتي اعترته.

توسّلت إليه مثل عاشقة محطّمة الفؤاد، لا تذهب.

كان طلبها غير متوقّع وغاية في البراءة، ما زاد في إرباكه وحيرته. وعندما بدأ يسير، اقتفت أثره، فذكّره حفيف ثوبها بصوت الحمام تخفق

Twitter: @ketab_n

أجنحته من تحت الأفاريز، لكنّه مضى قُدُمًا في دربه محدّقًا أمامه، كأنّ اللّيل يحمل له أحجية يتعيّن عليه إيجاد حلٍّ لها. كان الوقت متأخّرًا، لهذا كان سيره حول المعسكر وفي إِثره إحدى الغواني ينطوي على خطر كبير. فما كان منه إلّا أنِ اتّجه إلى خيمته على مضض، فوجد فيها ثلاثة من سائسي الدّوابّ.

سأل أحدهم: هه أيّها الفتى الهندي، ماذا أحضرت لنا؟ غزالة؟ أيه؟

ردّ جَهان بقسوة: جاءت من تلقاء نفسها.

استبدّ بهم الصّمت برهة، لا يدرون ما يفعلون، لكنّ السّائس الأكبر سنًّا اصطحب الغانية إلى فراشه، وكان يملك حذاءً جميلًا طويل السّاق أراد مقايضته.

انسحب جَهان إلى ركنه وفرش فراشه متظاهرًا باللّامبالاة. كان النّوم قد جفاه، وبان على وجهه امتعاض وهو يصغي إلى صوت اللّهاث وتصاعد الأنفاس. ولمّا ظنّ أنّ كلّ شيء قد انتهى، اعتدل قليلًا معتمدًا على مرفقه واختلس نظرة حوله، فشاهدهما، وكان السّائس يتمايل فوق الغانية، في حين ظلّت هي ساكنة بلا حراك تحته تحدّق بعينين واسعتين إلى ظلّ شيء ما لم يكن موجودًا، ثمّ التفتت إلى أحد الجانبين، فالتقت نظراتهما، ولمح في عينيها عالمها الواسع، ورأى وحدته في وحدتها، فشعر بالدّوار والغثيان في تلك اللّحظة، كما شعر بقوّة هائلة تتأجّج في قلبه على رغم شكوكه ومخاوفه. ثمّة جانب مظلم في طبيعته، قبو سرّيّ تحت بيت روحه الّذي لم يزره بعد، وإن كان يشعر على الدّوام بأنّه موجود.

وثب على رجليه، وداس على الأرض بقوّة، متّجهًا إلى السّائس الّذي لم يتنبّه له إلّا بعد فوات الأوان. فدفعه جَهان من فوق الغانية وضربه ضربًا مبرحًا ألحق الأذى بيده أكثر ممّا ألحق الأذى بذقن السّائس الّذي نظر إليه نظرة ملؤها الذّعر، ذهوله يطغى على هيجانه،

Twitter: @ketab_n

والتوَت شفتاه ازدراءً عندما أدرك ما حدث، فأطلق ضحكة. وضحك السّائسان الآخران أيضًا، وعندما نظر جَهان إلى الغانية، رآها تضحك بدورها عليه.

انسلّ جَهان مرتعدًا إلى خارج الخيمة وكان محتاجًا إلى رؤية شوتا الّذي كان على الدّوام رائق المزاج، هادئًا، لطيفًا، لا يعرف غطرسة ولا حقدًا بخلاف بني البشر. كان الفيل غافيًا على قوائمه كدأبه. ولم يكن لينام أكثر من بضع ساعات يوميًّا. وبينما غيّر جَهان له ماءه وتأكّد من وجود طعامه، راودته صور الغانية - لمسها إيّاه ولحاقها به واضطجاعها على الفراش القذر شبه عارية. ومع هذا، فعندما استلقى على كومة من القشّ وأغمض عينيه، لاحت أمام ناظريه صورة مِهرماه من جديد، مائلة فوقه تريد تقبيله. فتح عينيه مذعورًا، مرتبكًا لجسارته على تفكيره بها على هذا النّحو ـ وهي المرأة الكريمة المحتد وليست كتلك العاهرة المحطّمة المجهولة الأصل. لكنّه، على الرّغم من بذله قصارى جهده، لم يتمكّن من طرد العاهرة من مخيّلته ولا التّوقّف عن الاسترسال في الحلم بالأميرة.

استيقظ جَهان في فجر اليوم التّالي على صوت الأذان. كان ساسة الدّوابّ قد نهضوا من نومهم واستعدّوا. وبحث جَهان عن أدنى أثر يشير إلى خطيئتهم أو إرهاقهم، لكنّه لم يجد شيئًا، كأنّ اللّيلة الماضية لم تكن.

بدأت مقدّمات الحرب بطيئة ومملّة. أمّا المعركة نفسها فكانت سريعة ـ أو هكذا بدت لجَهان. فقد صكّ سمعه صوت هدير يصم الآذان، بعيدًا أوّل الأمر، لكنّه اقترب كثيرًا بعد ذلك. ولم يعد العدوّ ظلًّا غامضًا، بل له وجه ـ ألف وجه، يختلس النّظر من تحت الخوذ. سدّد جَهان نظره وهو على ظهر الفيل إلى ميدان المعركة، فشاهد الألوان تمتزج لتصبح رماديّة في المنطقة الّتي اصطدم فيها الجيشان. والتمع

Twitter: @ketab_n

وميض الضّوء وخبا، ومض وخبا مثل سيوف تلتمع عندما تتلامس ضرباتها. وحيثما التفت، شاهد الحديد والبشر. رماح وسيوف وسكاكين، أجساد تلقى على السّهل، مترنّحة، وساقطة.

كان الصّوت يصمّ الآذان، مزيجًا من وقع حوافر الخيل الحديديّة وقعقعة الفولاذ وضربات المنجنيق، والصّراخ والزّعيق والاختناق وتكرار كلمة: الله، الله[1]. كانوا يحاربون في سبيل السّلطان. يحاربون في سبيل الله، وكذلك من أجل الظّلم الّذي لحق بهم مُذ كانوا صبيَةً، والسّياط والعصيّ والضّربات الّتي تحمّلوها. وانتشرت الدّماء غزيرة على رقع الأرض الّتي أضحت سوداء اللّون. وانتفخت أوداجهم، وعلا الزّبد أفواههم، وانطلقت الجياد مسرعة فرسانها واقفون على سروجها، وانتشرت سحب الدّخان بعيدًا، وعلى مسافة شاسعة. وعلى الرّغم من أنّ الوقت كان عصرًا، إلّا أنّ نور الشّمس راح يتلاشى وغدت السّماء حجابًا من دخان.

سار شوتا في غمرة ذهوله واهتياجه سيرًا متثاقلًا محدثًا جلبة ذات اليمين وذات الشّمال، متضايقًا من وطأة الدّرع الحديديّ الضّخم الّذي لم يألفْه بعد، وكان ناباه قد باتا مثل نصل حادّ، حاول جَهان أن يكلّمه، لكنّ كلماته ضاعت في خضمّ الضّجيج. واستطاع أن يشاهد ضمن مدى بصره حركة ما، لفرنجيّ ضخم وعلى كتفه قوسٌ ونشّابٌ على هيئة المنجنيق، ويتمايل في طريقه إلى أمام من وراء أحد الانكشاريّين الّذي تعثّر وسقط منه رمحه، فوقع على الأرض وارتبك من فوره، وتمكّن من تحاشي ضربة السّيف الأولى، لكنّ الضّربة الثّانية اخترقت كتفه. وفي لمح البصر، قاد جَهان الفيل إلى ناحيته، فأقحم شوتا نفسه في الفرنجيّ

(١) كان المسلمون يهتفون في غزواتهم تكبيرة «الله أكبر» لذا اقتضى التنويه (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ورفعه عاليًا في الهواء بعد أن خرقه بنابه في بطنه.

هتف جَهان: كفى يا شوتا. هيا بنا!

امتثل الفيل للأمر، وفي لحظة سريعة، رمى بالجنديّ الّذي كان يزعق ويصرخ على الأرض، لكنّه سرعان ما عاد إليه ورفعه إلى أعلى من جديد، وغرز نابه في صدره، فتدفق الدّم من فم الرّجل ولاحت في عينيه نظرات تنمّ عن عدم تصديقه بأنّ نهايته حلّت على أيدي حيوان. راقب جَهان المشهد بفزع، ولم يدرك إلّا في هذه اللّحظة أنّه لم يكن آمر شوتا، بل إنّ شوتا كان آمر نفسه.

شعر جَهان بعد ذلك بأنّه ليس سوى مشاهد، إذْ راح شوتا يتقدّم نحو خطوط العدوّ، فيلتقط الجنود ويرفعهم إلى أعلى ويقذف بهم إلى أسفل. وسحق اثنين من الفرنجّة تحت ثقله. لكنّه استغرق وقتًا أطول مع أحد الجنود وراح يتصرّف وإيّاه تصرّف القطّ والفأر، كأنّه يريده أن يتعذّب أكثر. كما هاجم أحد الانكشاريّين أيضًا، لا يميّز بين عدوٍّ وصديق، وكان الحظّ وحده هو الّذي أنقذ الرّجل من تحت قوائم الفيل.

نعم، جرت المعركة على جناح السّرعة، على الرّغم من أنّ جَهان سيظلّ يتخيّلها بعد ذلك ألف مرّة. وراحت صور الموت الّذي شهده من دون أن يراه، والصّرخات الّتي مرّت به ولم يسمعها تندفع من جديد نحوه. وسيجد جَهان نفسه بعد مرور عقود من الزّمان، بعد أن يكون قد أصبح شيخًا عجوزًا، متذكّرًا عصر ذلك اليوم: درع ملطّخة بالدماء في الوحول، وسهم حارق التصقت به قطع من لحم بشريّ، وجواد مقطّع الأوصال، وفي مكان ما، وراء حاجز الزّمان، وجه غانية تطارده دومًا وتضحك منه.

وعلى بعد مسافة، وفي خضمّ اللّهيب، شاهد جنديًّا يترنّح، وجهه قناع منحوت، وقد اخترق رمح الجزء الأوسط من جسده. واستدلّ جَهان على جنديّ المشاة الّذي صادفه في طريقه.

Twitter: @ketab_n

هتف: توقّف يا شوتا! أنزلني!

لكنّ الفيل عصا كلا الأمرين، فما كان من جَهان إلّا أن رمى بنفسه من فوق ظهر الفيل، فسقط بقوّة على جنبه. وصل إلى جنديّ المشاة الّذي كان قد سقط على ركبتيه والتفّت أصابعه كأنّه يمسك حبلًا غير مرئيّ. خرج الدّم من أنفه، وسقطت بضع قطرات على الطّلسم الملتفّ حول رقبته. خلع جَهان سترته وضغط بها على الجرح الّذي بان رأس الرمح منه، وجلس بجانبه، ممسكًا يده بكفّيه، فشعر بنبضه ضعيفًا.

افترّ ثغر جنديّ المشاة عن ابتسامة، ولكن يستحيل معرفة سببها: هل لأنّه ارتاح لمرأى وجه مألوف أم لأنّه ظنّ أنّ جَهان كان شخصًا آخر. كانت أسنانه تصطكّ، ويتلعثم بكلمات غير مفهومة. انحنى جَهان فوقه، وأصغى إليه، أنفاسه الدّافئة تلامس وجنة الرّجل.

ـ الضّوء... هل... رأيته؟

أومأ جَهان برأسه إيماءة حميميّة، وقال: رأيته... إنّه جميل.

فلاح ظلّ عزاء على وجه جنديّ المشاة، لكنّ جسده بات أشدّ ثقلًا، وتدلّى فمه، وظلّت عيناه مفتوحتين كأنّهما تنظران نظرة ثابتة إلى سحابة مرّت قبل قليل.

في وقت لاحق، وعندما انتهى كلّ شيء وانتصر الجيش العثمانيّ، لم يتمكّن جَهان من الانضمام إلى القصف والعربدة. فمشى بتثاقل وبطء منهكًا، وابتعد من المعسكر واتّجه ناحية قلب المنطقة الّتي دارت فيها رحى المعركة. كان ذهابه إلى هناك تهوّرًا وطيشًا لأنّه لم يكن يملك سلاحًا باستثناء خنجر غير متأكّد من أنّه قادر على استعماله. لكن، على الرّغم من ذلك، جرّ رجليه بصعوبة ومشقّة إلى الجهة الأخرى من

Twitter: @ketab_n

الوادي، يكتنفه الضّباب، وشقّ طريقه في الحقل الّذي تبعثرت فيه الجثث الّتي كانت قبل بضع ساعات أبناءً وأزواجًا وإخوة. ساوره شعور بأنّ هذه المنطقة بما تحتويه من ظلال ودخان كانت نهاية ذلك الجزء من الأرض المعلومة، وأنّه إذا ما مضى قدمًا في طريقه، فسوف يهوي من على الحافّة. كان يعرف أنّ شوتا يتضوّر جوعًا، ينتظره ليأتيه بالماء والطّعام، غير أنّ آخر شيء كان يريد رؤيته هو الفيل.

توقّف بضع مرّات فوق هضبة رخوة، هنا أو هناك، واكتشف في هلع أنّها ليست سوى فخذ رجل ميِّت أو يد مقطوعة. كانت الرّائحة نتنة، والأصوات المتردِّدة في المنطقة مثيرة للفزع: طقطقة خشب محترق، وقع حوافر جياد من دون فارس، وزوايا لم يتبيّن شيئًا منها وآهات جنود ما زالوا على قيد الحياة.

كان الألم الّذي استبدّ به أخيرًا لا يشبه أيّ شيء سبق له أن شعر به. تفحّص نفسه جيّدًا، عاجزًا عن العثور على أيّ شيء. كان الألم في رأسه وفي أطرافه. ولم يستطع أن يحدّد مكان الألم، لأنّه كان متنقّلًا، تارة يقضم عظامه وتارة أخرى يتشبّث به من الدّاخل، فانحنى وتقيّأ.

سار وسط الحقل مدفوعًا بدافع غريزيّ جنونيّ، قدماه تؤلمانه، ساقاه ثقيلتان مثل الخشب، جبينه ينزّ عرقًا، حتّى عثر على شجرة معمّرة ومتغضِّنة للجلوس تحتها. ثمّة عدد من جنود الألغام العثمانيّين منهمكين بحفر حفرة كبيرة على مسافة بعيدة، ولدى الانتهاء من الحفر، يعمدون إلى فصل الجثث، ودفن موتاهم. ولم يعرف جَهان ما سيحلّ بجثث الفرنج. واستغرق في أفكاره استغراقًا شديدًا نسي معه أن ثمّة مَنْ يقترب منه.

انساب إلى سمعه صوت من ورائه.

ـ صبيّ هنديّ. ماذا تفعل في هذا المكان؟

Twitter: @ketab_n

استدار جَهان وهو يشهق.

ـ المعلِّم سنان!

ـ لا ينبغي لك أن تكون في هذه المنطقة يا بنيّ.

لم يدر في خَلَد الصّبيّ أنّ سنان نفسه لا ينبغي له أن يكون في هذا المكان أيضًا. فقال معتذرًا: لا أريد العودة.

نظر الرّجل مليًّا إلى عيني الفتى المتورِّمتين ووجهه المشوّه، وجلس إلى جانبه متمهِّلًا. كانت الشّمس قد أذنت بالمغيب وباتت مسحة قرمزيّة اللّون في الأفق، في حين حلّق سربٌ من اللّقالق عاليًا، متّجهًا ناحية أرض أكثر دفئًا، فأجهش جَهان في البكاء.

اخرج سنان نصلًا من زنّاره، وراح يقطع جزءًا صغيرًا من قطعة خشب على مقربة منهما. وبينما هو ينحت فيها، راح يتكلّم عن أغيرناس، وهي القرية الّتي ولد فيها، وحقول الذّرة المسيّجة والكنائس الإغريقيّة والأرمنيّة من غير نواقيس، ورياح المدينة الثّلجيّة الّتي كانت تدندن دندنة تشبه أغاني حزينة، واللّبن الّذي كانت أمّه تقدِّمه باردًا في الصّيف وحارًّا في الشّتاء، والنِّجارة الّتي علّمها إيّاه والده، حيث كانت أصغر قطعة من الخشب تتنفّس حيّة، وانضمّ إلى الانكشاريّة واعتنق الإسلام في سنّ الحادية والعشرين، والتحق بجماعة حاجي بكداش الّتي سُمِّيت باسم الدّرويش الرّاعي لفيلق الانكشاريّة، واشترك في الحروب، واحدة إثر الأخرى، في رودس وبلغراد وإيران وكورفو وبغداد وموهاكس، وهي الأشدّ قسوة وضراوة من كلّ ما سبقها من حروب. ورأى أشجع الشّجعان يتحوّلون إلى أذناب، والمخلوعي الفؤاد وقد انقلبوا، كلّ واحد منهم، إلى قلب أسد.

قال جَهان عندما تمكّن من تمالك نفسه: إنّ فيلي... لقد علّمته أنا وأوليف كيف يقتل، والآن قتل الكثيرين.

Twitter: @ketab_n

توقّف سنان عن النّحت: لا تتضايق من الحيوان، ولا تنحِ باللّائمة على نفسك.

ارتعش الفتى، إذْ شعر بالبرودة بغتة.

ـ عندما شيّدنا ذلك الجسر، شعرت بأنّني نافع أيّها الأفندي... وأتمنّى لو أنّنا مكثنا في ذلك المكان.

ـ عندما تفعل أشياء من أعماق روحك، فإنّك تشعر بنهر يجري في داخلك. بفرحة.

ـ من قال هذا الكلام؟

ـ أحد الشّعراء، وكان رجلًا حكيمًا.

وضع سنان يده على جبين الفتى، فشعر به حارًّا.

ـ قل لي، أترغب في بناء جسر آخر؟

ردّ جَهان: نعم، أتمنّى ذلك كثيرًا.

عندما أرخى الظّلام سدوله، عادا أدراجهما إلى المعسكر، وفي منتصف الطّريق وجدا جوادًا مسروجًا يخبّ خببًا وحده من دون فارس، فساعد سنان الفتى على ركوبه وقاده من لجامه سيرًا إلى المعسكر. وهناك، اصطحب جَهان إلى خيمته وطلب من السّوّاس أن يهتمّوا بالفيل كي يأخذ الفتى قسطًا من الراحة.

انتابت جَهان حمّى شديدة، فاضطجع ونام نومًا مؤلمًا. أمّا سنان، فقد بقي ملازمًا له، واضعًا قطع القماش المشبّعة بالخلّ على وجهه وذراعيه، ومستمرًّا في نحته. وفي الفجر، عندما انخفضت درجة حرارة جَهان، فتح سنان قبضة الفتى المضمومة ووضع في كفّه هديّة ومضى في سبيله. وفي صباح اليوم التّالي، استيقظ الفتى يتصبّب عرقًا، لكنّه أحسن حالًا، ليجد نفسه ممسكًا بفيل خشبيّ. وبدلًا من أن يجد نابين حادّين ومهلكين في وجهه، رأى زهرتين.

Twitter: @ketab_n

كانت المدينة في انتظار جيشها، فخرج النّاس من بيوتهم منذ شروق الشّمس، واحتشدوا في الشّوارع والميادين العامّة مثل شراب كثيف، كما تسلّقوا الأشجار واعتلوا السّطوح وحُشِروا في كلّ بقعة على امتداد الطّريق من بوّابة أدرنة إلى القصر، وكان الآلاف توّاقين لتحيّة المنتصرين. كانت إسطنبول بما فيها من أزقّة متعرّجة وممرّات تحتيّة وأسواق مغلقة، قد لبست أزهى ثيابها وراحت تبتسم كلّها.

هتف ولد صغير انتصب فوق نافورة: وصل الجنود!

وانتشرت كلماته الّتي كانت قليلة مثل قطرات ماء على سطح بركة، ووصلت إلى حافّات الجموع الفقيرة، وانتقلت من هناك إلى المركز ـ متغيِّرة على امتداد الطّريق. وعندما سمع الصّبيّ نفسه صدى كلماته، بدت له مختلفة وتحوّلت إلى عبارة: إنّ السّلطان يوزِّع الأموال!

وشرع الناس يتقرّبون أكثر فأكثر تحدوهم رغبة عارمة في الرّؤية: أهل البلدة وقد غمر قلوبهم الفرح والفخر، والتّجّار الّذين خاطوا محفظاتهم بحافّات ثيابهم، وبائعو الأكباد الّذين علقت أجزاء من اللّحم الّذي يبيعون بالأعمدة، والقطط السّائبة في أعقابهم والمتصوِّفون الّذين يلهجون بأسماء الله الحسنى التّسعة والتّسعين، والكتبة الملطّخة أصابعهم ببقع الحبر، والمتسوِّلون الّذين يعلّقون طاسات برقابهم، والنّشالون من ذوي الأيدي الرّشيقة كالسّناجب، والمسافرون من بلاد الفرنجة الّذين تعلو محيّاهم نظرة خوف ووجل، وجواسيس البندقيّة من أصحاب الكلام المعسول والابتسامات المتقشّفة.

وبعد مرور برهة، مرّ حرس السّلطان من النّخبة، واجتازوا بوّابة مقنطرة وهم يرتدون زيًّا خاصًّا بهم، ويتقدّمون الموكب نحو الشّارع

Twitter: @ketab_n

الرّئيسيّ الّذي تحفّ به أشجار الأكاسيا، وجيادهم تمضي على وقع احتفاليّ. وكان وراءهم سليمان القانونيّ يمتطي صهوة جواد عربيّ، ويرتدي قفطانًا شذريّ اللّون ويعتمر عمامة عالية، كأنّه يريد إرباك لقْلقٍ عابر يفتّش عن عشّ. وندت شهقة جماعيّة عن الجماهير وامتزجت بالأدعية والصّلوات. وتراقصت الورود في الهواء بعد أن نثرها الأهالي من مئات النّوافذ والشّرفات.

كان وراء صفوف الجند المدرّعين بالدّروع، آخرون يسيرون وآخرون يمتطون صهوات جيادهم، وبعضهم الآخر يجذب الجياد باللّجام. وجاء وراء هؤلاء كلّهم الفيل وسائسه في البدء، كانت الأوامر قد صدرت إلى جَهان أن يجلس على رقبة الحيوان وأن يترك الهودج لآغا الانكشاريّة، لكن ما إن خطا الفيل بضع خطوات إلى أمام، حتّى طلب الرّجل إنزاله، شاحب الوجه كشحوب الموتى. ولمّا كان الفيل متقلّب المزاج كعادته دائمًا، فإنّ تمايله كان شيئًا لا يطيقه الرّجل العثمانيّ النّبيل. وهكذا اتّخذ جَهان مجلسه داخل الهودج، كأنّه أمير منفيّ يعود إلى دياره بعد سنين أمضاها خارج البلاد. كان إحساسه رائعًا، إذْ شعر للمرّة الأولى منذ أيّام بأنّه نسي كلّ شيء عن ميدان المعركة ورائحة الجثث الّتي كانت لا تزال تفوح من جسمه.

وسرعان ما اتّضح أنّ الفيل الأبيض سيغدو موضع الاهتمام الأوّل، إذْ لم يحظَ أحدٌ غير السّلطان نفسه بمثل هذا الإعجاب والتّصفيق، فكان الأهالي المنتشرون في كلّ مكان يشيرون إلى شوتا، ملوّحين وضاحكين ومصفّقين. ورمى أحد البزّازين مجموعة من الأشرطة، وأرسل أحد الصّبيان منَ الغجر قبلة له في الهواء وهو يضحك، وهوى غلام من غلمان الأزقّة من على غصن شجرة كان قد تسلّقه، عندما حاول أن يلمس نابي الحيوان. وبينما راح شوتا يحثّ الخطى على امتداد الطّريق، هازًّا يمينًا وشمالًا، يكاد يطير فرحًا من حرارة الاستقبال، سرح جَهان

Twitter: @ketab_n

بأفكاره وغمره ذهول خاصّ به، فهو لم يشعر من قبل بمثل هذه الأهمّيّة، تراوده أفكار جميلة مفادها أنّ وجوده في المدينة، إن لم يكن في العالم كلّه، يملأ فراغًا فريدًا من نوعه. وأخذ يردّ على تحايا الأهالي ملوّحًا بيديه، متورّد الوجنتين عرفانًا وامتنانًا.

وفي مأوى الحيوانات، لقي شوتا ترحيب الأبطال، وتقرّر عدم إرساله إلى أيّ زريبة أخرى من زرائب الحيوانات المنتشرة في المدينة، بل سيظلّ هنا في قصر السّلطان. وزيدت كمّيّة الطّعام بمقدار الضّعف، وسُمح له بأن يستحمّ مرّة في الأسبوع في البركة المغطّاة بالزّنبق والواقعة في أقصى طرف الصّحن ـ وهذا امتياز لم يحظَ به أيّ حيوان برّيّ آخر، كما لم يُسمح لغيره من الحيوانات مغادرة مأواها.

ورويدًا رويدًا غفر جَهان للحيوان تصرّفه في أرض المعركة، وغلّف نابيه الشّبيهين بسكّينين بكرتين من الحرير وصنع له كساء بيديه الاثنتين، وزيّن الحافّات بأجراس فضّيّة وثبّت عليها خرزًا أزرق اللّون لطرد عين الحسد. أذنت الشّمس الرّائعة والفاترة الهمّة بالمغيب وراحت تنحسر شيئًا فشيئًا. كانت تلك الأيّام أيّامًا سعيدة، وكما هو شأن كلّ الأيّام السّعيدة، فإنّها لن تكون موضع تقدير إلّا إذا انتهت ولم تعدْ تتكرّر.

بعد مرور بضعة أيّام، وفي غمرة انهماك جَهان بتنظيف المأوى، جاءه أوليف مدرِّب الأسود، وقال له: أرسل لك شخص ما رسالة.

سأل جَهان بصوت أجشّ: من هو؟

ـ أنا لم أشاهد المرسل بنفسي، لأنّه أعطى أحد الحرّاس الرّسالةَ كي يوصلها إليك. هذا ما عرفته.

بعد أن تفوّه أوليف بهذه العبارة، أخرج من جيبه رقًّا مطويًّا.

Twitter: @ketab_n

قال جَهان بسرعة، كأنّه يريد بهذا الكلام أن يحمي نفسه ممّا قد تنطوي عليه محتويات الرّسالة من عواقب.

ـ أنا أمّيّ.

لكنّ كلامه لم يكن صحيحًا، إذْ كان قد تعلّم على يدي تاراس السّيبيريّ دراسة الألفباء. وبعد أن اكتشف المفتاح لأسرار الحروف، شرع بتصفّح الكتب، وإن كان يجد مشقّة في الكتابة حتّى الآن.

قال أوليف: ليس فيها ما يستدعي القراءة، فقد اطّلعت عليها.

أمسك جَهان بالرّقّ وفتحه، فوجد على السّطح الأملس صورة تمثّل فيلًا رسم رسمًا مرتبكًا، لكنّه فيل في كلّ الأحوال، وعلى ظهره غلام طويل الأذنين. وكان وجه الفيل باسمًا، تلوّح عليه السّعادة، في حين اخترق رمحٌ قلبَ الغلام، وسالت من نهايته ثلاث قطرات دم. وكانت تلك القطرات ملوّنة، حمراء غامقة، لأنّها كانت قطرات دم حقيقيّة.

قال جَهان، وقد صكّ فكيه بقوّة، ودفع الرّسالة جانبًا: لا أعرف معنى هذا.

قال أوليف بعد صمت قصير: حسنًا. في هذه الحالة، سوف نتلفها ولا نذكر شيئًا عنها لأيّ مخلوق. لكن، بغض النّظر عن هذا المرسل، يستحسن بك أن تفكّر كيف سيكون تصرّفك إذا ما لقيت هذا المرسل. إن جدران القصر عالية، لكنّها ليست عالية علوًّا يكفي لطرد عين الحسد عنك.

Twitter: @ketab_n

في المرّة الثّانية الّتي جاءت فيها السّلطانة لزيارة مأوى الحيوانات، كان موقفها من الفيل متميِّزًا ولم يكن مسبوقًا: موقف استحسان يقترب من الامتنان والتّقدير. وصدر صوت حفيف من ثيابها مرّة أخرى، ورمى جَهان بنفسه، مرّة أخرى، على الأرض. وانتظر أفراد حاشيتها أيضًا على أحد الجانبين، صامتين كأنّهم في عداد الأموات. راقبت مِهرماه وهي تكظم ابتسامة. وقالت خرّم من دون أن تلتفت كثيرًا إلى سائس الفيل: يقولون إنّ فيلك كان شجاعًا.

قال جَهان: نعم يا صاحبة السّموّ، لقد قاتل شوتا قتالًا باسلًا، وأبلى بلاءً حسنًا في المعركة.

لكنّه لم يخبرها كيف طعن الفيل الجنود بنابيه، وكيف أنّه لا يزال يشعر بالإثم لأنّه علّمه أن يقاتل على ذلك النّحو من القتال.

ـ لكنّني سمعت أنّك لم تقاتل مثله. هل حقًّا شعرت بالخوف وهربت، ثم عدت أدراجك ترتعد خوفًا؟

شحب وجه جَهان وفكّر: من تراه همس بمثل هذا الكلام من وراء ظهره؟

قرأت خرّم أفكاره وقالت مسترسلة: الطيور والحمام تأتيني بالأخبار من كل مكان.

حاول جَهان أن يبدو غير مبالٍ، لكنّه كان يعتقد أنّها كانت على حقّ بكلامها، وتخيّل طيور الأقفاص الكبيرة تحلّق بعيدًا وعاليًا، حاملة بمناقيرها شيئًا من القيل والقال وتنقله إلى السّلطانة.

ـ سمعت أيضًا أنّ فيلك كان موضع إعجاب النّاس الّذين أحبّوه حبًّا جمًّا، وصفّقوا له أكثر ممّا صفّقوا لآغا الانكشاريّين.

Twitter: @ketab_n

أمسكت خرّم عن الكلام برهة، منتظرة حتّى يفهم كلماتها.
كان جَهان يعلم أنّ هذا الكلام صحيح أيضًا، إذْ لم يحظَ القادة أنفسهم بمثل ما حظي به شوتا من حبّ.
في هذه الأثناء، مضت خرّم في حديثها.
ـ فكّرت في أنّه ينبغي لنا أن نختن ولدينا الأميرين، وسيكون ثمّة استعراض، استعراض كبير.
وساور القلق جَهان، وتساءل في نفسه عمّا سيفضي إليه كلّ هذا الكلام.
ـ أنا وجلالة سلطانك نودّ أن نشاهد الفيل وهو يؤدّي استعراضًا.
ـ لكن...
في تلك اللّحظة كانت قد دارت على عقبيها. ولكن ماذا أيّها الهنديّ؟
بدلًا من أن ينطق جَهان ببعض الكلمات، وجد نفسه يتفصّد عرقًا.
ـ حذارِ! ثمّة من لا يوافقك الرّأي، ويعتقد هؤلاء أن ثمّة ما يجعلك غير جدير بالثّقة، ويقولون لا بدّ من إرسالك أنت والحيوان إلى تلك الكنيسة المهدّمة لتعيش برفقة بقيّة الحيوانات الكبيرة، وهم على حقّ. أمّا أنا فأصدّقك أيّها الشّابّ، فلا تخيّب ثقتي.
بلع جَهان ريقَه، وقال: لن أخيّب ثقتك يا صاحبة السّموّ.
كان من دأب خرّم أن تمزج بكلامها التّهديد والقول المعسول، تهمس بالكلام وتطلق التّهديدات لتوضّح أنّها قادرة على سحق المخاطب إذا ما راودتها الرّغبة في ذلك، لكنّها تطلق بعد ذلك ملاحظة أو ملاحظتين فتتركه مرتبكًا ومضطربًا، أسير نعمتها وشاكرًا فضلها. غير أنّ جَهان لم تكن لديه وسيلة كي يعرف بها أسلوبها، وأنّ من شأنه أن يعرف ذلك في الوقت المناسب. أمّا هي، فاختالت في مشيتها وتبخترت مبتعدة، ووصيفاتها انطلقن مهرولات في أثرها كي يلحقن بها. مرّة

Twitter: @ketab_n

أخرى، لم يبقَ في ذلك المكان سوى اثنتين هما مِهرماه وحسنة خاتون.

قالت مِهرماه محدِّجة حسنة خاتون بنظرة مدمِّرة مثل فتاة تقلِّد نبرة والديها: يبدو أنّ مولاتي الأمّ مولعة بالفيل الأبيض. وإذا ما جعلتَ جموعَ النّاس الغفيرة تستمتع كثيرًا، فإنّها سوف تفتن بك فتنة عمياء. وإذا ما افتتنت بك، فسوف تعيش أنت والحيوان عيشة سعيدة وهانئة.

قال جَهان بصوت شديد الخفوت لم يعرف ما إذا كان حقًّا قد قال أيّ شيء: لا يعرف شوتا أساليبي.

ـ أتذكّر أنّك قلت هذا الكلام من قبل. ثمّ أشارت إلى مربّيتها، فأخرجت هذه عددًا من الحلي الدّائريّة الصّغيرة من جيب سترتها الطّويلة. وأضافت: ابدأ بهذه الحلقات، وسوف أعود إليك أنا والمربّية لنتأكّد من إحرازك التّقدّم.

أنفق جَهان عصر كلّ يوم وهو يرمي الحلقات إلى شوتا، لكنّ الحيوان ظلّ يتجاهلها. وحلّت أثناء ذلك الأطواق محلّ الحلقات، والكرات محلّ الأطواق، وفي نهاية المطاف، التفّاح محلّ الكرات، فلم ينجح إلّا التفّاح، إذْ راح شوتا يحرص على الإمساك بها كي يتمكّن من إرسالها إلى معدته.

وعلى الرّغم من ذلك، ظلّت مِهرماه تواصل زيارتها برفقة مربّيتها في كلّ يوم، وإذا ما تعلّم شوتا حيلة جديدة، فإنّ الأميرة كانت تشجِّعه وتطري على صنيعه وتكافئه ببعض الحلوى. أمّا إذا أخفق الحيوان، فإنّها كانت على الرّغم من ذلك تشجِّعه بكلمات أشدّ عذوبة. هكذا، جمع الفيل الأبيض مرّة أخرى بين الأميرة والسّائس، لكنّهما تجاوزا مرحلة الطّفولة، وكبر الاثنان سريعًا، وعلى الرّغم من محاولتهما تفادي النّظر إلى أحدهما الآخر على ذلك النّحو، إلا أنّهما لم يتمكّنا من الحيلولة دون ملاحظة التّغييرات الّتي راحت تطرأ على جسد كلّ واحد منهما. في هذه الأثناء، كانت حسنة خاتون شاهدة صامتة، واجمة على كلّ ذلك.

Twitter: @ketab_n

علَّم جَهان الأميرة الأشياء الّتي سبق له أن تعلّمها منذ مجيئه إلى مأوى الحيوانات، فأصبحت تعرف مثلاً عمر شجرة جوز من خلال عدد الحلقات داخل الجذع، وكيفيّة حفظ الفراشات بعد تجفيفها، وكيف تتحوّل مادّة الراتينج إلى كهرمان باهر يسبي العيون. وأخبرها بأنّ النّعام يركض أسرع من الخيول وأنّ الخطوط على جسد كلّ نمر كانت فريدة من نوعها شأنها شأن بصمات أصابع الإنسان. وراحت هي أيضًا تفضي له بمكنونات صدرها، فأخبرته رويدًا رويدًا عن طفولتها وأمّها وشقيقيها. وقالت إنّها تشعر بالوحدة لأنّها الفتاة الوحيدة بين شقيقين سيتولّى أحدهما العرش. وأضافت: إنّهما يحبّانني، ولكن من دون اهتمام كافٍ بي. إنني مختلفة، وبسبب هذا الاختلاف، أصبحت وحيدة. هل تفهم هذا يا جَهان؟

أومأ جَهان برأسه، فذلك هو الشّيء الوحيد الّذي فهمه فهمًا جيّدًا ـ الوحدة النّاجمة عن الاختلاف.

أما الشّخص الوحيد الّذي لم ترغب مِهرماه في الحديث عنه فهو والدها. كان المروِّض والأميرة يتصرّفان كأنّ السّلطان غير موجود وسط حياتهما. لكنّهما كانا يعرفان في أعماق نفسيهما أنّه لو سمع مصادفة عن هروبها إلى الحديقة، فإنّ بوّابة الجحيم سوف تنفتح، ولن يفقد جَهان عمله فحسب، بل من المتوقّع أن يُزجّ به في السّجن، حيث يطويه النّسيان إلى أبد الآبدين.

Twitter: @ketab_n

قبل بدء الاحتفالات بالختان، حلّ الطّاعون الّذي ظهر أوّل ما ظهر في ضواحي المدينة في الأكواخ والزّرائب القريبة من مرفإ سكو تاري، وانتشر منها انتشارًا أسرع من انتشار النّار في الهشيم، متنقّلًا من بيت إلى بيت بمساعدة الرّيح. وخيّم الموت على مدينة إسطنبول مثل ضباب يأبى أن ينقشع، متغلغلًا في كلّ ثقب وصدع. وانساب مع نسمة البحر وامتزج بخميرة الخبز وبالقهوة المرّة الكثيفة. ورويدًا رويدًا، امتنع النّاس عن الخروج، ونأوا بأنفسهم عن التّجمعات واللّقاءات، وغرقوا في أحضان الوحدة. ولم يعد أحد يسمع صوت ارتطام المجذاف بالماء ولا تمتمات البحّارة حتّى في المساءات الهادئة هدوءًا تامًّا. كما لم يعد أحد يرغب في الذّهاب في رحلة من شاطئ إلى آخر إن لم يكن مضطرًّا إليها. ولم يسبق لأهل إسطنبول أن شعروا بالهلع من قبلُ، إذا ما وقفوا وسط جمع غفير من الأهالي، مثلما لم يسبق لهم أن خافوا كخوفهم الآن من إهانة الذّات الإلٰهيّة. لا سيما في الأيّام المبكرة الّتي حلّ فيها المرض.

كان النّاس يقلقون إذا ما انزلقت كلمة غير مناسبة من خياشيمهم، أو لمست يد غريبة أجسادهم. كانت رائحة الخطر تملأ أنوفهم، فراحوا يوصدون أبوابهم ويرتجونها بالرِّتاج، ويزيدون من عتمة شبابيكهم ليحولوا دون تغلغل أشعة الشّمس الّتي كانت تنقل عدوى المرض. وأضحى كلّ حيٍّ مسوّرًا، وكلّ شارع قلعة لا يملك أحد الجرأة على الخروج منها. وباتوا يتكلّمون همسًا، مُحْدَوْدِبي الظّهور، يوبِّخون أنفسهم، ويتسربلون برداء التّواضع، فحلّ القماش الخشن الملمس محلّ القماش الكتّانيّ النّاعم، وتخلّوا عن أغطية الرّأس الفخمة. ووضعوا نقودهم الذّهبيّة في أكواب وخزّنوها في أماكن عميقة تحت الأرض. كما

Twitter: @ketab_n

أخفت زوجات الأثرياء والموسرين ما لديهنّ من مجوهرات وارتدين ملابس من صنع أيديهنّ على أمل الحصول على رضى الله. ونذر النّاس النّذور بالذّهاب إلى مكّة بنيّة الحجّ في هذا العام، وبأن يطعموا الفقراء في جزيرة العرب. كانت إسطنبول تسترضي الله ـ فتهدي الملابس، وتهدي الأضاحي، وتهدي الصلوات، وتضحّي وتضحّي...

وظهرتْ أورامٌ تحت آباط الضّحايا وعلى أفخاذهم ورقابهم. وبعد الفحص الدّقيق، رأى البعض وجه عزرائيل وراء ذلك، فالعطاس نذير شؤم - فترى النّاس تجفل إذا ما سمعت عطسة. هكذا بدأت الأمور. وانتشرت البثور والدّمامل على الجسد وازدادت حجمًا واسودادًا، ثمّ جاء القيء والحمّى.

قالوا إنّ سبب المرض هو الرّيح، وإنّ هواء اللّيل النّتن كالقاذورات موبوء مثل الأجواء الخانقة. وكانت الحجرات الّتي تلقى فيها الضّحايا حتفها تُغسل وتُنظَّف بالخلّ واللّيمون وتُرشّ بماء زمزم، وتُترك على حالها، لأنّ ما من أحد كان يريد التّسكّع في مكان مع شبح يثير النّفور.

وكان في موت الأثرياء والجبابرة عزاء لبعض النّاس، وعلامة على اليأس عند آخرين. وإذا ما داهم المرضُ أحدَهم، فإنّ زوجاته يبدأن المشاجرة، كلّ واحدة تريد أن توفِّر له الخدمات والعناية. وكان المألوف هو أن تتولّى أكبر الزّوجات سنًّا ـ أو الزّوجة العاقر إن كان ثمّة عاقر ـ المسؤوليّة. في بعض الأحيان، تُرسل إحدى السّراري. وكان لبعض الرِّجال أربع زوجات وعدد كبير من السّراري والمحظيّات، لكنّهم على الرّغم من ذلك يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

كانت جثث الموتى تُنقل على عربات تجرّها الثّيران، ويُسمع صوت صرير العجلات على حصباء الشّارع يعقبه رنين حاد. وضاقت المقابر المنتشرة على سفوح التِّلال وانتفخت انتفاخ الشّاة المذبوحة، المسلوخة الجلد، والمعلّقة على الأشجار في مناسبات العيد. وراح حفّارو القبور

Twitter: @ketab_n

يحفرون كلّ قبر جديد أعمق وأوسع من القبر السّابق، لأنّهم كانوا أحيانًا يدفنون الجثث فيه بالعشرات. ولم يقولوا لأحد إنّهم كانوا يدفنون الميِّت من دون كفن، ومن دون غسل كما دُفن آخرون من دون وضع بلاطة قبر. وكان الحزن العميق انغماسًا ذاتيًّا لا يقوى عليه إلّا القليلون. وعلى الموت أن يمتنع عن إزعاج الأحياء كي يصبح في الإمكان الحداد على الموتى على نحو يليق بهم. وبعد أن يرحل الطّاعون يتمكّن الأقرباء والأصدقاء من لطم صدورهم وذرف دموعهم من أعماق قلوبهم. أما الآن، فإنّ الحزن يبقى نقيًّا ومحفوظًا جنبًا إلى جنب مع اللّحم المملّح والفلفل المجفّف في الأقبية والسّراديب ليؤكل في أوقات أفضل.

وأُعيدت السّفن من دون إفراغ حمولاتها من البضائع، وأُمرت القوافل بتغيير مسارات طرقها. لقد ظهر الدّاء من الغرب، شأنه شأن كل الشّرور. فالمسافرون يُجرى استقبالهم بنظرات الشّكّ والرّيبة بغضّ النّظر عن الجهة الّتي قدموا منها. وكان الهاربون والدّراويش الجائلون والبدو الرّحل والمتشرّدون والغجر وكلّ من ليس له جذور لا يلقون أيّ ترحيب.

وفي منتصف فصل الصّيف، داهم المرض الصّدر الأعظم إيّاس باشا ـ وهو رجل عُرف عنه الجبروت والقوّة. وأثار موته السّراي وبدت الجدران ضعيفة واهية، لا تقوى على صدّ العدوى. وفي ذلك الأسبوع نفسه، انتقلت العدوى إلى أربع سراري، فانتشر الخوف والهلع في أروقة الحريم، أسود عميقًا أشدّ من سواد الكحل. وقيل إنّ خرّم أوصدت الباب وراءها في حجرة نومها برفقة أطفالها، ورفضت مقابلة أيّ شخص باستثناء السّلطان نفسه، وراحت تطبخ طعامها بنفسها وتغلي ماءها، وذهب بها الأمر إلى أنّها كانت تغسل ملابسها بنفسها غير واثقة بالخدم.

وفي مأوى الحيوانات، توفّي ثلاثة مدرِّبين، كلّ واحد منهم في ريعان الصّبا، وتوارى تاراس السّيبيريّ مختبئًا في السّقيفة على مدى

Twitter: @ketab_n

أيّام، لأنّ الآخرين كانوا يكرهونه لأنّه لا يزال على قيد الحياة، وهو الضّعيف والعجوز. وراحت تلك الأيّام الّتي كان النّاس لا يريدون أن يشاهدهم أحد فيها وهم في الشّوارع، فأسرعوا إلى المساجد والهياكل والكنائس للصّلاة والتّوبة، التّوبة والصلاة. كانت خطاياهم هي الّتي أتت بالكارثة، الخطايا الّتي ارتكبوها والّتي سوف يرتكبونها على وجه التّوكيد. إنه غضب الله. البشر ضعاف، فلا عجب من أن تنمو الأزهار السّود على أجسادهم. أصغى جَهان إلى تلك الكلمات، وقلبه يخفق خفقانًا سريعًا في جوف فمه، مصدِّقًا وغير مصدِّق. هل خلق الله البشر ضعافًا على نحو يتمكّن من معاقبتهم بعد ذلك؟

قال الأئمّة: لقد تجاوزنا حدودنا.

وقال القساوسة: دخلت الخطيئة العالم.

وقال الحاخامات: علينا أن نعلن التّوبة.

وامتثل النّاس للأوامر بالآلاف، وانقلب كثيرون إلى تقاة، مؤمنين، وإن كان السّلطان أكثرهم تحوّلًا. وحُرِّمت الخمرة، وعوقب صنّاعها. وأُحرقت الأدوات الموسيقيّة تمامًا، وأُغلقت الحانات، وخُتم على المباغي بالشّمع الأحمر، وصارت أماكن تعاطي الأفيون خاوية خواء قشور الجوز المهملة، ولم يتكلّم الخطباء إلّا عن الطّاعون والتّجديف، وكيف يمتزج الاثنان مثل ضفيرة جارية من الجواري.

في أواخر شهر تموز، دخل حشد من الرّعاع الحيّ اليهوديّ حول برج غالاتا(١)، ووضعت علامات بالقار الأسود على الأبواب وضرب

(١) برج غالاتا Galata Tower: يُشار إلى البرج أيضًا بالاسم برج غلطة، ويقع بين نفق إسطنبول ومنطقة كراكوي، ويعود تاريخ بنائه إلى عام ١٣٤٨م ويعدّ البرج الرئيسي في سور غالاتا المنهدم. وفي القرن السّادس عشر، أصبح البرج سجنًا للعمّال الّذين كانوا يعملون ضمن ترسانة ثمّ أصبح مستودعًا للتّرسانة. يتألّف البرج من ستّ عشرة طبقة ويرتفع إلى ٦٢ مترًا. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

الرّجال، وعندما رفض أحد الحاخامات هذا التّصرّف ضربوه ضربًا مبرحًا حتّى مات.

وتردّدت شائعات في المدينة مفادها أن إسكافيًا يهوديًا سمّم كلّ آبار وأحواض المياه والجداول الصّغيرة في إسطنبول ونشر المرض بذلك. وأُلقي القبض على العشرات واعترفوا بجرائمهم. أمّا حقيقة أنّ الاعترافات انتزعت تحت التّعذيب فهي من التّفاصيل الّتي لم يأبه بها أحد. ألم يُطرد اليهود من بلدات في مقاطعة سكسونيا قبل بضع سنوات لا غير، وأُعدم آخرون أكثر عددًا، حرقًا على الخازوق في بلاد الفرنجة؟ ثمّة سبب يخصّ نقلهم المصيبة إلى كلّ مكان ينزلون فيه ـ وهو نذير شؤم يلحق بهم كظلّهم. وكانوا يخطفون الأطفال ليستخدموا دماءهم في طقوس سود، وتكاثرت التّهم الموجّهة إليهم تكاثر النّهر المنتفخ بمياه الأمطار. وفي نهاية المطاف، أصدر السّلطان سليمان فرمانًا تقرّر بموجبه عدم إصدار القضاة المحليّين أحكامًا في قضايا الجرائم النّاشئة عن القتل، وتمنّت قلّة من القضاة الّذين يحكمون في مثل هذه القضايا لو أنّهم لا يحكمون فيها، وراحت الاتهامات تتناقص.

لم يكن السّبب هو اليهود، بل النّصارى لأنّهم لا يلجأون إلى الحمّام وبهذا فهم قذرون إلى أبعد الحدود. كما أنّهم لا يغتسلون بعد مضاجعة زوجاتهم، ويشربون الخمرة كأنّها ليست خطيئة، فيصفونها بأنّها دم المسيح الّذي يتجاسرون على اعتباره هو الله. الأسوأ من هذا كلّه، أنّهم يأكلون لحم الخنزير ـ وهو لحم حيوان يتمرّغ ببرازه ويأكل السّمك المتعفّن مع الدّود. لا بدّ من أنّ العدوى انتقلت من آكلي الخنزير، وشوهدت الطّائفة نفسها الّتي أثارت الذّعر والهلع في شوارع اليهود وهي تهاجم الأحياء النّصرانيّة في وقت لاحق.

تزعّم أحد السّرّاجين في أيوب الحشد، وخطب قائلًا إنّ اليهود والنّصارى هم أهل الكتاب وهم ليسوا أشرارًا وإن كانوا مخطئين. وهم

Twitter: @ketab_n

ليسوا المذنبين وليسوا المسيئين، لكنّ الصّوفيّين هم السّبب بغنائهم ورقصهم الدّائريّ، وهل ثمّة من هو أشدّ خطرًا من شخص يدّعي أنّه مسلم ولا صلة له بالإسلام؟! ألم يقولوا إنّهم لا يهابون الجحيم ولا يرغبون في الجنّة؟ ألم يخاطبوا الله كأنّه ندٌّ لهم وقالوا إنّ الله تحت عباءتهم؟ الكفر هو الّذي أتى بهذا المصير. وراح النّاس يحرسون الشّوارع حاملين الهراوات ويطاردون المهرطقين. ولم يوقفهم السّوباشي وحرّاسه ولم يُقبض عليهم بعد ذلك.

في يوم جمعة، وبعد صلاة المغرب، انطلقوا في شوارع بيره المتعرِّجة. وشرع الرّجال والصّبيان الّذين لا يتجاوز عمر بعضهم سبع سنين، يحملون المشاعل بأيديهم، وانضمّ إليهم آخرون أثناء مرورهم بالطّرقات، وداهموا البيوت السّيّئة السّمعة، وأخرجوا منها المومسات والقوّادين وأضرموا النّيران بالمباني. ورُبطت امرأة كانت شدّة بدانتها تحول دون حركتها بعمود، وجُلدت بالسّياط الّتي صُنعت ممرّات قرمزيّة على لفائف جسدها الممتلئ. كما جرى تعرية امرأة خنثى وراح النّاس يبصقون عليها وحلقت من رأسها إلى قدميها وأغرقت بالبراز. لكنّها كانت امرأة قزمًا، كما قيل، وهي الّتي تتحمّل مسؤوليّة ما حدث وإن لم يعرف أحد السّبب معرفة تامّة. وراحت شائعات تقول إِنّها ذات صلة قريبة جدًّا برئيس الخصيان الأبيض، وإنّها قادرة على تدبير المكائد. وفي صباح اليوم التّالي، عثرت عليها الكلاب السّائبة بعد الفجر بقليل، عارية وغارقة بالدّماء والبراز، مكسورة الأنف، مسحوقة العظام، غير أنّها كانت لا تزال على قيد الحياة.

ولم يتدخّل سوباشي الّا عندما راح سواد النّاس يتفاخرون بالتّقدّم إلى القصر وأصبحوا على استعداد لمعاقبة الطّبقة الحاكمة والأرستقراطية، فاعتقل أحد عشر رجلًا منهم، وشُنقوا في اليوم نفسه وتُركت جثثهم تترنّح تحت النّسيم لتكن عبرة للآخرين. وفي الوقت الّذي

Twitter: @ketab_n

انحسر الطّاعون ورحل، قلَّ عدد سكّان إسطنبول بمقدار ٥,٧٤٢ نسمة، وازدحمت المقابر حتّى كادت تنفجر.

وفي الأسبوع نفسه، تلقّى جَهان رسالة أخرى خبيثة، وكانت موقّعة هذه المرّة باسم القبطان غاريث، فعمد بوساطة صبيّ المطبخ إلى إرسال بعض النّقود الّتي كان وفّرها إلى البحّار آملًا بأن يبقيه ساكتًا مدّة وجيزة من الزّمان. وبما أنّه كان مثقلًا بمثل هذه المتاعب والمشاغل، فإنّه لم يستمع إلى ما يدور في المدينة من أقاويل.

فقد حلّ لطفي باشا الّذي أوصى بالبناء المناسب لبناء الجسر فوق نهر بروث قبل أن يختلف معه، محلّ الصّدر الأعظم إيّاس باشا. كما لم يخلف رئيس المعماريّين الملكيّ الّذي وافاه الأجل بعد عمر طويل إلّا النّجّار سنان. وكان حديث البلدة يدور عن رجلين اثنين لم يتّفقا قطُّ، وجرت ترقيتهما في الوقت نفسه بضربة حظّ، كأنّ الله تمنّى أن يرى هل سيصطدم أحدهما بالآخر، وإذا ما اصطدما، فمن الذي سينجو بجلده؟

Twitter: @ketab_n

كان المضمار مهيبًا باعثًا على الفخر، لم يشهد على مدى ألف سنة نهاية للاحتفالات ـ فهو مزدحم على الدّوام، مشاغبًا باستمرار، جمهوره من الرِّجال ومن مختلف الأعمار، إذا أرادوا عرضًا واضحًا، فإنّهم يصخبون ويضحكون ويجلسون منتصبين، كأنّ لهم يدًا في الأداء. وإذا لم يعجبهم ما يشاهدون، يضربون الأرض بأرجلهم ويستنزلون اللّعنات ويرمون ما في أيديهم. ولم يتغيّر هذا الجمهور إلّا قليلًا منذ زمن قسطنطين، فهو جمهور يصعب إرضاؤه وتسهل إثارة متعته.

وفي مكان بعيد، وسط المقاعد الخشبيّة، ثمّة شرفة مزيّنة بشرابات ذهبيّة اللّون، جلس فيها السّلطان سليمان على كرسيّ مرتفع يمكنه أن يُشاهِدَ منه وأن يُشاهَد أيضاً. كان طويل القامة، رشيق الحركة، طويل الرّقبة وقصير اللّحية، يحفّ به الصّدر الأعظم لطفي باشا ـ الّذي كان قد تزوّج شقيقة السّلطان ـ وغيره من أعضاء الدّيوان. وجلست السّلطانة على مقربة من السّلطان، وإن كانت تفصلها عنه زينة متدلّية، محاطة بوصيفاتها وخادماتها. وكانت السّتائر المصنوعة من الحرير تحجبهنّ عن عيون الجمع الغفير. وباستثناء هذه المجموعة الصّغيرة من حريم السّلطان، فإن المكان كان يخلو من أيّ أنثى أخرى.

وكان المبعوثون الأجانب قد اتّخذوا مواقعهم في مقصورة منفصلة، فقد جلس سفير البندقيّة في وضع مستقيم، في عينيه نظرة بعيدة، وفوق زمّارته دبُّوس من حجر الصَّفير لم يفلت من انتباه جَهان. وجلس بجانبه مبعوث راغوسا ووفود من فلورنسا وجنوى ومبعوث ملك بولندا ومسافرون بارزون من بلاد الفرنجة. وكان الاستدلال عليهم أمرًا يسيرًا،

Twitter: @ketab_n

ليس بسبب ثيابهم فحسب، بل بسبب التّعابير الّتي لاحت على وجوههم، وكانت مزيجًا منَ الأنفة وعدم التّصديق.

كانت الاحتفالات قائمة منذ بضعة أيّام. وكانت الأنوار السّاطعة تغمرها ليلًا، فتبدو إسطنبول أشدّ لمعانًا من عيني عروسٍ شابّة. وراحت المصابيح والمشاعل والألعاب النّاريّة تبدّد العتمة، في حين راحت الزّوارق الطّويلة المعروفة بالاسم «كيك» تنزلق على امتداد مياه القرن الذّهبيّ مثل الشّهب. وجال باعة الحلويات يعرضون التّماثيل المصنوعة من السّكّر، والّتي تمثّل رجلًا يأكل الحيوانات البحريّة، والطّيور ذات الرّيش المختلف الألوان. ونُصبت على طول الشّوارع وعرضها هياكلُ عملاقة من الزّهور، ونُحرت أعداد كبيرة منَ الخراف حتّى تحوّل لون الغدير الّذي يجري وراء المسلخ إلى لون أحمرَ قرمزيٍّ. وشُوهد الغلمان يركضون هنا وهناك حاملين الصّواني المملوءة بالرّزّ الّذي يقطر سمنًا من إليَاتِ الخراف. وقدّمت الزّردة[1] لمن ملأ معدته وأطفأ ظمأه بالشربت. تلك هي المناسبة الّتي يجتمع فيها مرّة واحدة الفقراء والأغنياء لتناول الطّعام من الأطباق نفسها.

وجرى ختان الأميرين مع مئة طفل فقير. وبكى أبناء صنّاع الشّموع وحارقي الكلس والمتسوّلين مع صاحبي السّموّ الملكيّين، وها هم الآن يرقدون في أسرَّتهم، مرتدين ثيابهم، وعددهم ١٠٢ ينشجون كلّما تذكّروا التّجربة الّتي عاشوها ويضحكون لمشاهدة مسرح الظّل الّذي يُعرض أمامهم لطرد ذكرياتهم عن الختان.

شقّ جَهان طريقه فاتحًا عينيه، هلوعًا، وسط جموع النّاس المحتدمي العواطف. لقد طلبوا منه أن يؤدّي عرضًا برفقة شوتا في اليوم الأخير. وفي وقت مبكّر من الصّباح، أُحضر الفيل إلى الزرائب القريبة

---

(١) الزّردة zerde: رز محلّى بالزعفران والعسل. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

من المضمار. وعلى الرّغم من أن شوتا كان يكره القيود الّتي طوّقت قوائمه، إلّا أنّه استقرّ وجلس يقضم التّفّاح وأوراق الشّجر. تملّكت الغيرةُ جَهانَ من هدوءِ الفيلِ واعتداده بنفسه، وتمنّى لو أنّ شيئًا منهما يمكن أن يؤثّر فيه. في اللّيلة الماضية، كان المروِّض قد نام نومًا متقطّعًا، ونزفت شفتاه لكثرة ما كان يعضّ عليهما.

ظهرت حيوانات أخرى قبلهما: أسود ونمور وقرود ونعام وغزلان وزرافة أُرسلت مؤخّرًا من مصر. واستعرضت الشّواهين برفقة غيرها من الطّيور ذات الغمام، كما استعرض الحواة ورموا بحلقات في الهواء، والتهم آكلو النّار اللّهب، وعبر السّائرون على حبال مشدودة وممتدّة عاليًا. ثمّ جاء دور الرّوابط المهنيّة مثل قاطعي الحجر الحاملين المطارق والمعاول والبستانيّين الدّافعين أمامهم عرباتِ الورود والمعماريّين الحاملين نماذج مصغّرة من المساجد الّتي شيّدوها. كان في مقدّم هؤلاء المعماريّين سنان مرتديًا قفطانًا موشًّى بالفرو. وما إن رأى جَهان حتّى ابتسم له ابتسامة عريضة، وكان جَهان يتمنّى لو أنّه تمكّن من مبادلته الابتسامة بابتسامة مماثلة، لكنّه كان شديد القلق والتّوتّر.

أخيرًا، وبعد انتظار طويل، جاء دورهما، وفتح جَهان البوّابات متضرِّعًا، وسمح لشوتا بأن يخرج. وبعد مرورهما بمسلّة وحيدة كان قد أتى بها من مدينة الإسكندريّة الإمبراطور ثيودوسيوس قبل زمن طويل، راح الاثنان يسيران سيرًا مترفّقًا ومتبخترًا على امتداد درب طرقته مئات الأقدام والقوائم. وتألّق الضّوء من المرايا الصّغيرة المثبتة على كسوة شوتا ـ وهي من المخمل الأخضر المزركش بزركشة بنفسجيّة مجاملة للسّلطان.

عندما شاهدهما الجمهور، صاح صيحة فرح وابتهاج. كان جَهان يسير أمام شوتا يمسك لجامه على الرّغم من أنّ الفيل كان هو نفسه ملك خطواته. لمّا وصلا إلى الشّرفة الملكيّة، توقّفا، ونظر جَهان إلى

Twitter: @ketab_n

السّلطان فوجده ثابت الجنان، رابط الجأش، وإلى شماله حاجزٌ جلست خلفه السّلطانة وحاشيتها. وعلى الرّغم من أنّ جَهان لم يتمكّن من لمح خرّم، إلّا أنّه شعر بعينيها المرتابتين تنفذان إلى أعماقه. وزاد قلقَه تفكيرُه بأنّ مِهرماه الحسناء كانت تجلس هناك أيضًا تراقب كلّ حركاته وسكناته، فجفّ ريقه وتقلّبت معدته، وارتعشت ساقاه وهو ينحني إلى أسفل.

كان جَهان لا يزال يرتعش عندما أخرج من جيبه كرة صوفيّة ورماها إلى شوتا الّذي سرعان ما أمسك بها وقذف بها إليه. كرّرا هذه اللّعبة مرّتين، ثمّ أخرج بعدها الحلقات المتلألئة الّتي أعطته إيّاها مِهرماه، ورمى بها الواحدة تلو الأخرى إلى شوتا الّذي التقط كلّ واحدة منها وهي في الهواء، ملوّحًا بها قبل أن يرميَها جانبًا كأنّه غير مهتمّ بها، ثمّ راح يهزّ بدنه الضّخم ويترنّح إلى الأمام وإلى الخلف راقصًا. فما كان من الجمهور إلّا أنِ انفجر ضاحكًا. ورفع جَهان عصاه مؤنّبًا، فظلّ شوتا واقفًا خجلًا. إنّه جزء من العرض، شأنه شأن أيّ شيء آخر. قدّم جَهان للحيوان تفّاحة علامة على السّلام، فما كان من شوتا إلّا أنِ انتزع وردة نرجس كانت مثبتة على رداء المروِّض وأعطاه إيّاها. فعلا ضحك الجماهير من جديد.

في هذه الأثناء، ثبّت جَهان مخروطًا على رأسه ووضع فوقه مخروطًا ثانيًا فثالثًا، حتّى أصبح عددها سبعة، وصاح: أعلى.

فما كان من الفيل إلّا أن أمسك بجَهان من خصره ووضعه على رقبته بحذرٍ شديدٍ من دون أن يمس شيءٌ أيّ مخروط.

صاح جَهان آمرًا: أسفل!

جثم شوتا ببطءٍ اتّسم بالجهد، وثبّت جَهان نفسه وهو لا يزال على ظهره، تجفِّف الريح عرقه المتصبّب الّذي راح ينساب على وجهه. ولمّا

Twitter: @ketab_n

كانت الفيلة بلا أيّ ركبة، فإنّها كانت تجد مشقّة في الانحناء إلى أسفل. وراود جَهان الأمل بأن يفهم سلطان البرّ والبحر ذلك ويقدِّره حقّ تقديره. وما إن تمكّن شوتا من الجلوس حتّى بسط جَهان ذراعيه وازدهى بالنّجاح. وفي الوقت عينه، شاهد شيئًا ما يقترب منهما بسرعة، وسقط على الأرض، فما كان من جَهان إلّا أن وثب والتقطه، فوجده كيسًا مملوءًا بالمال، هديّة ثمينة منَ السّلطان سليمان. انحنى المروِّض، وأصدر الفيل صوتًا، فهاجَ النّظّارة وماجوا.

جاء دور المشهد الأخير، وهو مشهد شوتا، رمز الإسلام، في مواجهة خنزير برّيّ يمثّل النّصرانيّة. وكان هذا المشهد مشهدًا مسرحيًّا يمثّله عادة دبّ وخنزير، ولكنْ بما أنّ الفيل أكثر مهابة وهو محبوب الجماهير، تقرّر في اللّحظة الأخيرة أن يُسند إلى شوتا.

في اللّحظة الّتي رأى فيها جَهان الخنزير يهزّ خطمه ويكشط اظلافه، التوت أمعاؤه. كان الحيوان أصغر من شوتا على وجه التّوكيد، لكنّه مجنون وهائج هيجانًا لا يُعرف له أساس. وعندما أُزيلت القيود عنه، اندفع نحوهما كالسّهم، وكان في وسعه أن يبقر فخذ جَهان لو لم يتفاداه في اللّحظة الأخيرة. تهلّل الجمهور وجذل، واستعدّ للوقوف إلى جانب الخنزير إذا ما خيّب المروِّض وفيله آماله.

لم يكن جَهان وحده الّذي أصيب بالشّلل، فقد تسمّر شوتا في مكانه، عيناه نصف مغمضتين، ما أثار وجل جَهان الّذي صاح به ونخسه بعصاه، ونطق ببعض الكلمات المعسولة واعدًا إيّاه بطيب الأكل وبالاستحمام بالطّين، ولكنْ بلا فائدة. فالفيل الّذي هاجم العدوَّ هجومًا كاسحًا وصرع عددًا من الجنود في أرض المعركة أصيب الآن بخدر.

فقد الخنزير اهتمامه بالفيل، فدار دورة وهجم على جَهان وطرحه أرضًا.

Twitter: @ketab_n

ـ هه، هنا!

ظهر ميركا مدرِّب الدّبّ من العدم، وهتف في محاولة لجذب أنظار الخنزير. كان يحمل رمحًا بيده، دبّه وراءه يمشي متثاقلًا. كان الاثنان يعرفان هذه اللّعبة. وزمجر الدّبّ، فما كان من الخنزير إلّا أن نخر بعنف وهجم فاغرًا فاه. راقب جَهان ما يجري أمامه كأنّه ـ يشاهد الحدث من وراء قناع. وعلى الرّغم من أنّ الأصوات كانت فظيعة، إلّا أنّ هدير الجموع الغفيرة طغى عليها، وأنشب الدّبّ مخالبه الحادّة في بطن الخنزير ومزّقه شرّ تمزيق أدّى إلى خروج أمعائه من بطنه وانبعاث رائحة كريهة تثير الغثيان، وراحت القائمتان الخلفيّتان تنتفضان وترفسان، وندَّت صرخة مدوّية، عندما راحت الحياة تفارق البدن، على نحو أصاب النّظّارة بالهلع. حيّا ميركا الجماهير وهو يدوس على الخنزير النّافق بحذائه، فكوفئ من فوره بكيس من النّقود. وعندما أمسك ميركا بالكيس، رمق جَهان بنظرة وابتسم له ابتسامة متكلِّفة لم يحاول أن يخفيها. كان جَهان وراءه متضائلًا كفأر، ومنكمشًا، وحاول أن يشيح بوجهه عنه، متمنيًا من صميم قلبه حدوث هزّة أرضيّة تبتلعه.

بينما كان مروِّض الفيل يفكِّر في التّواري عن الأنظار، فإنّ الفيل نفسه استشاط غيظًا واشتدّ غضبه، إذْ راح بعض الأهالي يرشقونه بالحجارة، فما كان منه إلّا أن رفع أذنيه ونخر. ولما رأى هؤلاء الأهالي أنّهم أفلحوا في إزعاج مثل هذا الحيوان الضّخم، راحوا يرشقونه بأشياء أخرى كالملاعق الخشبيّة والتّفّاح العفن والغمود المعدنيّة والكستناء المأخوذة من شجرة قريبة... فعمد جَهان إلى تهدئته، لكنّ صوته لم يكن سوى طنين بعوضة في خضمّ تلك الجلبة.

وعلى حين غرَّة، اندفع الفيل إلى أمام باتّجاه المقاعد، فارتبك جَهان واحتار وهرع من ورائه، ملوّحًا له بذراعيه، صائحًا بأعلى صوته. وشاهد وجوه النّاس تنقلب من حالة الدّهشة إلى الرّعب، وبدأوا

Twitter: @ketab_n

يركضون يمينًا وشمالًا، يصرخون ويدوسون على غيرهم من الّذين سقطوا تحت الأقدام. وتمكّن جَهان من اللّحاق بشوتا والإمساك بذيله، وكاد الفيل يسحقه، لكنّ جَهان لم يكن يفكّر في شيء. وسرعان ما أحاط بهما عدد من الحرّاس حاملين سيوفهم ورماحهم، وإن لم يكن أحد منهم يعرف ما يريد أن يفعل. وفي غمرة الصّخب والضّجيج، بدأ شوتا يمزق الشّعارات ويحطّم الزّينة ويشقّ طريقه باتّجاه مقصورة المبعوثين الأجانب. وحاول المبعوث البندقيّ الابتعاد من طريق الحيوان، ومضى إلى أمام متعثّرًا، وتحطّمت زمّارته أثناء ذلك عندما وطأ عليها أحد الأهالي. وشاهد جَهان حجر الصّفير يسقط، فوثب إليه من فوره وأمسك به وخبّأه في زنّاره وهو متأكّد من أنّ أحدًا لم يره.

عندما رجع جَهان إلى الفيل من جديد، أصيب بالذّعر والهلع عندما رآه قرب الشّرفة الملكيّة. لم يتحرّك السّلطان سليمان من مكانه قيد أنملة، بل انتصب واقفًا، بارز الفكّين، لا يمكن سبر غور ملامح وجهه. أمّا الصّدر الأعظم، فكان على العكس منه، يرغي ويزبد ويصرخ هادرًا بالاوامر هنا وهناك، فما كان من الحيوان إلّا أنِ اتّجه إليه كأنّه أدرك مدى كراهية الرّجل له، وخطف عمامته من فوق رأسه وراح يؤرجحها في الهواء كأنّها لعبة أخرى راح يمارسها.

هتف لطفي باشا: أيّها الحرّاس!

شاهد جَهان من طرف عينه أحد رماة الأسهم يسدِّد سهمًا إلى رأس شوتا، فصرخ واندفع ناحية الرّجل الّذي أطلق سهمه قبل ثانية واحدة.

اخترق كتفه اليُمنى ألم حادٌّ وصرخ صرخة عظيمة، وتراخت قدماه وهوى على الأرض، وهنا خفّف الفيل من سرعته لدى سماعه صوته، وكذلك الأهالي الّذين كانوا يحتلّون المقاعد في الصّفوف الأماميّة. استبدّ بهم الصّمت وراحوا يحدِّقون إلى مروِّض الفيل وهو ينزف دمًا على الأرض. في تلك اللّحظة، نهض السّلطان ووقف بهدوء وببطء،

Twitter: @ketab_n

وفعل شيئًا لم يتوقّعه أحد: ضحك في خفوت.

لم يكن أحد يتصوّر ما كان يمكن أن يحدث لو أنّ شوتا هاجم سيّد البرّ والبحر بدلًا من مهاجمة الصّدر الأعظم، ولكن كما تبيّن، فإنّ مرح السّلطان وطربه أنقذا حياته. وجاء أحدهم بعمامة لطفي باشا، وكانت متّسخة ومسطَّحة، وسلّمه إيّاها على نحو جليل. فأمسك بها الصّدر، لكنّه رفض أن يضعها على رأسه. أما النّظّارة، فبدأوا بالعودة إلى مقاعدهم، في حين سار شوتا نحو باب الخروج غير آبه بالحطام الّذي خلّفه وراءه.

هتف جَهان متذمّرًا وهو على النقّالة الّتي كان محمولًا عليها: ماذا فعلت أيّها الغبيّ! سوف يقطعون خصيتيك... ويرسلونك إلى المسلخ، ويطبخون منك طعامًا بالكرنب والبصل. أمّا أنا فسوف يزجّون بي في السّجن!

كان يتمنّى لو أنّ في وسعه أن يركل دلوًا أو يسدّد لكمة إلى برميل أو أن يحطّم زهرية، لكنّه شعر بأنّ جسده ثقيل في حين أخذ عقله يدور ويدور، وكان غضبه الموجّه بمعظمه إلى نفسه، هو الشّيء الوحيد الّذي فاق ألمه المبرح.

أحضرته عربة إلى مأوى الحيوانات، حيث رمقه أوليف بنظرة أولى، أعقبها بنظرة أخرى إلى السّهم المغروس في جسده، وأومأ برأسه إلى التّوأمين الصّينيّين. فاختفى الاثنان عن الأنظار برهة، ثمّ عادا بعد ذلك بحقيبة أفيون.

سأل جَهان: عَلَامَ تحتوي هذه الحقيبة؟ ما سبب هذه السّكاكين

Twitter: @ketab_n

الحادّة؟ كانت رقبته رطبة وبشرته شاحبة وشفتاه باردتين.

قال أوليف وهو يضع أدوات معدنيّة مختلفة الأحجام على صينيّة: أيّها الفتى الفضوليّ! سوف أنتزع منك هذا السّهم.

ـ لكن كيف؟!

لم يجبْ أحدٌ، بل أجبروه على شرب شاي أخضر اللّون، كريه الرّائحة، مصنوع من أوراق الحشيش المجفّفة، فدار رأسه دورانًا اسرع من السّابق بعد الرّشفة الأولى، وعندما فرغ من شرب محتويات الكوب كلّه، بدا له العالم وقد اكتسب بريقًا غريبًا، ألوانه يمتزج أحدها بالآخر. وبعد أن طُحن الأفيون، رُشّ على الجرح، ونقلوه بعد ذلك إلى الحديقة كي يستفيد ممّا تبقى من ضوء النّهار.

قال أوليف آمرًا: عضّ على هذه!

أطبق جَهان أسنانه، وهو مصاب بدوار، على قطعة قماش حشروها في فمه، لكنّ ذلك لم يفد معه، لأنّهم سمعوه بعد انتزاع السّهم يطلق صرخات مدوّية دفعت بالطّيور الحبيسة داخل أقفاصها إلى خفق أجنحتها.

في ذلك المساء، وفي حين كان جَهان يرقد في فراشه متألّمًا، ظهر سنان عند عتبة الباب، خدّاه الهزيلان غائران في العتمة والظّلال. جلس بجانبه على النّحو الّذي جلس فيه في ليلة تلك المعركة الّتي خلت فيها السّماء من النّجوم.

ـ هل أنت بخير؟

جفل الفتى بدلًا من أن يردّ على السّؤال، وفاضت عيناه بالدّمع.

ـ أنت لست بارعًا في تنفيذ الحيل. صحيح؟ كما أن تسلية النّاس

Twitter: @ketab_n

ليست مهمّتك. لكن، على المرء أن يعترف بشجاعتك وحبّك للفيل.

ـ هل يعاقبونني؟

ـ أظنّك عوقبت بما يكفي، والسّلطان على دراية بالأمر.

ـ لكن... لطفي باشا يكرهني.

قال سنان خافضًا صوته درجة: حسنًا، إنّه لا يحبّني أنا أيضًا.

ـ بسبب الجسر؟

ـ بسبب التّحدّي. فهو لم ينسَ، واعتاد أن يرى كلّ فرد يقدّس كلّ كلمة من كلماته. الّذين يحيطون أنفسهم بالمتذلّلين المداهنين الّذين يمتدحون كلّ ما يفعلون، لن يسامحوا الرّجل الشّريف الّذي يقول الصِّدق..

تجمّعت الظّلمة حولهما، عندذاك، سأل سنان الفتى عن حياته، فأخبره عن شقيقاته وزوج أمّه ووفاتها. وسرد للمرّة الأولى منذ وصوله إلى هذه المدينة، قصّته الحقيقيّة من دون رياء ولا أكاذيب، ولم يأتِ على ذكر هندستان.

سأل سنان: هل تنوي الرّجوع إلى ديارك؟

ـ سوف أرجع عندما أصبح ثريًّا وقويًّا، لأنّني أريد أن أواجه زوج أمّي قبل أن يبلغ من الكبر عتيًّا.

ـ إذًا، أنت تريد العودة للانتقام من أجل والدتك؟

ـ نعم، أقسم على ذلك، والله شاهد على ما أقول.

استغرق سنان في تفكير عميق، ثمّ قال: هل تذكر الرّسم الّذي أرسلته إليَّ؟ لمن ذلك المنزل؟

ـ آهٍ، إنّه منزل المفتي الكبير، فقد كنت هناك عندما حاكم المهرطق، لكنّني أجريت بعض التّغييرات في المنزل.

ـ لماذا؟

ـ لاحظت أنّ الجوّ عاصف هناك أيّها الأفندي، لهذا السّبب كانت

Twitter: @ketab_n

النّوافذ صغيرة، غير أنّها لم تكن تسمح بنفاذ ما يكفي من الضّوء.
فكّرت: لو كان ثمّة شرفة في الطّبقة العليا وفوقها تعريشة، لكان الضوء وفيرًا، ولتمكّنتِ النّسوة من مشاهدة البحر من دون أن يراهنّ أحد.

رفع سنان حاجبَه، وقال: فهمت... فكّرت أنّ الرسم جيِّد.

سأل جَهان غير مصدّق: حقًّا؟!

ـ يُستحسن بك أن تتعلّم الجبر والقياسات، ويتعيّن عليك فهم الأرقام. لقد راقبتك عندما كنّا منهمكين ببناء الجسر. لقد كنت ذكيًّا، محبًّا للاستطلاع، كما أنّك سريع التّعلُّم. يمكنك أن تصبح بنّاءً، والبناء كامن فيك.

قال جَهان بعد أن سُرّ سرورًا كبيرًا لدى سماعه هذا الكلام: كنت أودّ المساعدة في بناء الجسر... وكان شوتا سعيدًا أيضًا، وهو لا يحبّ البقاء في الزّريبة طوال الوقت.

ـ أنت فتى ذكيّ أيّها المروِّض، وأنا أريد مساعدتك، لكن ثمّة كثرٌ منَ الفتيان الأذكياء من حولنا.

توقّف سنان كأنّه يريد أن يفهم جَهان كلّ كلمة من كلماته، ثمّ أردف: إذا أردت أن تتقن حرفتك، فينبغي لك أن تقنع الكون بأنّك أنت المطلوب وليس غيرك.

ـ يا له من قول غريب!

رفّت عينا جَهان، وتمنّى لو يسمع إيضاحًا، ولكن ليس ثمّة أيّ إيضاح، وخيّم الصّمت على المسافة بينهما إلى أن تكلّم سنان من جديد: انظر حولك. كلّ إنسان تراه هنا هو ابن آدم، وهو ليس بالغنيّ ولا بالفقير بالولادة، ولا يهمّ من هو والدك ولا المكان الّذي جئت منه، كلّ ما يتعيّن عليك عمله من أجل الارتقاء إلى أعلى هو أن تعمل بجدٍّ. هذا هو الأسلوب المتّبع في القصر العثمانيّ.

خفض جَهان رأسه.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت موهوبٌ، ولكن ينبغي أن تحظى بالتّعليم. يجب عليك أن تتعلّم اللّغات، وإذا ما وعدتني بأن تهب نفسك لهذا الأمر، فإنني سوف أساعدك في تلقّي الدّروس في مدرسة القصر، حيث تعلّم الرّجال ذوو المراكز العالية، وعليك أن تبذل قصارى جهدك مثلهم. سنة بعد سنة.

قال جَهان: لست بخائفٍ من العمل أيّها الأفندي.

قال سنان وهو ينهض: أعرف ذلك، ولكن يجب أن تنسى الماضي. فالغيظ قفص والموهبة طائر حبيس. حطّم القفص واترك الطائر يطير ويحلّق عاليًا. العمارة مرآة تعكس الانسجام والتّوازن اللّذين يحفل بهما الكون. وإذا لم تحتضن هذه السّجايا في فؤادك، فإنّك لن تتمكّن من البناء.

قال جَهان محتقن الوجنتين: إنّني لا أفهم . . . لماذا تساعدني؟

ـ عندما كنت في مثل سنّك، كنت محظوظًا بما يكفي لأن يكون لي معلّم جيّد. وقد توفّي منذ عهد بعيد، وأرجو من الله أن يتغمّده بواسع رحمته. والوسيلة الوحيدة الّتي يمكنني بها أن أردّ له هذا الإحسان هو مساعدة الآخرين. يضاف إلى هذا، ثمّة شيء ما يخبرني بأنّك شخص آخر غير الّذي يبدو أمام النّاس. أنت والفيل مثل أخوين، لكنّك لست مروِّضًا يا بنيّ. فثمّة أشياء أخرى كما أعتقد، وأنت لم تخبرني بالحقيقة كلّها.

قال جَهان من دون أن ينظر إلى عيني المعمار: الفيل هو أسرتي الآن.

تنهّد سنان تنهّدةً بطيئة، وقال: تمتّع بقسط من الرّاحة، وسوف نتحدّث مرّة أخرى.

عندما خرج المعلّم، انحدرت دمعة على خدّ جَهان وسقطت في يده، فنظر إليها بارتباكٍ. كانت كتفه مصابةً بجرح، وكانت أطرافه تؤلمه، لكنّه على الرّغم من ذلك لم يستطع معرفة مصدر ألمه.

Twitter: @ketab_n

كانت مدرسة القصر الواقعة في الصّحن الثّالث تضمّ ٣٤٢ فتًى. وكان ألمع[1] الصّبيان يحضرون الدّروس في هذه المدرسة ليتعلّموا الشّريعة الإسلاميّة والحديث النّبويّ والفلسفة وتاريخ الأنبياء والقرآن. وكانوا يتعلّمون أيضًا الرّياضيات والهندسة والجغرافية وعلم الفلك والمنطق والخطابة، وما يكفي من اللُّغات كي يتابعوا طريقهم في برج بابل. وكانوا يعتمدون على قدراتهم، فيتفوّقوا في الشّعر والموسيقى والخطّ والبناء والخزف وتطعيم الخشب والنّقش على العاج والأعمال المعدنيّة والأسلحة، ويتبوّأ بعضهم بعد التّخرّج، مناصب رفيعة في الحكومة والجيش، في حين يتحوّل الآخرون معماريّين وعلماء.

كان كلّ المعلّمين منَ الذّكور، وبعضهم من الخصيان، يحملون العصيَّ الطّويلة الّتي لا يتردّدون في اللّجوء إليها لمعاقبة أدنى عصيان. وكانت الرّدهات هادئة والقواعد صارمة. وكان أطفال الألبان والإغريق والبلغار والصّرب والبوسنة وجورجيا وأرمينيا يُساقون إلى التّجنيد الإلزامي. أمّا أطفال الأتراك والكرد والإيرانيّين والغجر فغير مشمولين بذلك.

وجد جَهان مشقّة في متابعة الدّروس، وتوقّع الطّرد في أيّ لحظة، لكنّ أسابيع مضت وحلّ شهر رمضان في منتصف فصل الصّيف، وباتت النّهارات أشدّ وطأة، واللّيالي تنبعث منها الرّوائح والضّجيج. وأضحتِ الدّكاكين مشرّعة الأبواب حتّى وقت متأخّر، ومدن الملاهي المحتشدة

---

(١) كان النظام يسمح بأخذ ألمع الصبيان النصارى واحسنهم مظهرًا من أسرهم والعمل على اعتناقهم الاسلام وتجنيدهم لخدمة السلطان، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

بالبشر مفتوحة إلى ساعات متأخّرة منَ اللّيل. وصام الكثيرون، ومنهم الانكشاريّة والعلماء والحرفيّون والمتسوِّلون، وحتّى الّذين أدمنوا تعاطي المخدرات ووضعوا في أفواههم خفية عجينة بنّيّة ضاربة إلى الحمرة تذوب رويدًا رويدًا في بطونهم وتساعدهم على الامتناع عن تناول المخدَّرات. وحلّ العيد ومضى ولم يسأل أحد عنه ولا عن شوتا، وبدا الأمر كأنّ الكلّ قد نسوا أنّ ثمّة فيلًا في مأوى الحيوانات. وغرق جَهان في الاكتئاب، وساوره شكٌّ في أنّ الصّدر الأعظم يقف وراء ذلك، فالواضح أنّ هذا الرّجل لم يغفر لشوتا وما تسبّب به من أحداث في المضمار، وكان يتحيّن الفرصة المناسبة لكي يسلخ جلديهما وهما على قيد الحياة. لكنّ جَهان لم يعرف إلّا قليلًا أنّ، لطفي باشا الرّهيب ـ وهو ثاني أقوى رجل في الإمبراطوريّة، والعريس الملكيّ الّذي تزوّج بأخت السّلطان سليمان ـ كان في ورطة عظيمة.

بدأ كلّ شيء عندما رفضت غانية تدعى قيمر[١] نظرًا إلى شدّة بياض بشرتها، مضاجعة أحد الزّبائن في بيت سيّئ السّمعة بالقرب من برج غالاتا، وكان زبونًا متوحّشًا لديه المال ولكن تنقصه الرّحمة، فضربها هذا الرّجل. ولم يكتفِ بالضّرب، بل أخرج السّوط الّذي كان يحمله معه وراح يجلدها به. وكان ذلك التّصرّف خارج نطاق المقبول به حسب القوانين والأنظمة غير المكتوبة والمعتمدة في بيوت الدّعارة في القسطنطينيّة، إذْ كان مفهومًا تمامًا معاملة أيّ عاهرة معاملة سيّئة، أمّا جلدها بالسّوط فأمر غير وارد في عرف القانون. لهذا، هرع كلّ من في

---

(١) قيمر Kaymak: هكذا وردت في النّص الإنكليزيّ وهي القشدة. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

المبغى إلى نجدة المرأة وقذفوا الزّبون بالبراز. لكنّ الرجل لم يكن من النّوع الذي يرضى بالهزيمة، فراح إلى القاضي وهو يُرغي ويزبد وشكا الأمر إليه. بيد أنّ القاضي خشي غضب القوّادين، وأخذ يبحث عن حلٍّ وسط. في تلك الأثناء، وصلت تفاصيل الحادثة إلى مسامع لطفي باشا.

كان الصّدر الأعظم قد عزم منذ بعض الوقت على استئصال شأفة الزّنى من شوارع المدينة، وإغلاق كلّ بيوت الدّعارة، هادفًا إلى نفي الآثمين من سكّانها إلى أماكن نائية لا يمكنهم الرّجوع منها. ووجد في الغانية الّتي تعرَّضت للجلد، فرصة طالما كان ينتظرها. وفكّر في أنّ العقاب الّذي سينزله بواحدة من الغانيات من شأنه أن يعلّم كلّ النّساء الخليعات درسًا لا يمكن نسيانه، بخاصّة أنّ إسطنبول تحتشد بعدد هائل من أمثال أولئك النّساء. وهكذا أهمل لطفي باشا قرار الحكم الّذي أصدره القاضي وأعلن أنّ العاهرة هي المخطئة، ويجب قطع عضوها التّناسليّ، ووضعها بعد ذلك بالمقلوب على ظهر حمار يطوف بها في أرجاء المدينة كي يتمكّن كلّ فرد من رؤية ما ينتظر أمثالها من النّساء.

لم يسمع أحد من قبل بمثل هذه العقوبة. وعندما علمت شاه سلطان وهي أخت السّلطان سليمان بالحكم الّذي رآه زوجها مناسبًا لامرأة سيّئة الطّالع، هالها الأمر، وواجهت الوزير الأعظم ـ وكيف لا تواجهه وهي المرأة الّتي كانت كلّ نزوة من نزواتها موضع تنفيذ ـ على أمل إقناعه بتغيير رأيه. وانتظرت حتّى بعد أن جرى تقديم عشاء يسيل له اللّعاب، ويتألّف من شوربة الأمعاء ويخنة طائر التّدرّج بالبصل والبيلاف[١] الأوزبكستاني بالكشمش، والبقلاوة، وهي الأكلة المفضلة لدى لطفي باشا ـ معتقدة أنّها إن هدّأت معدته، ففي إمكانها كذلك أن تهدّئ مزاجه.

---

(١) بيلاف Pilaf: طعام مؤلّف من أرز ولحم وتوابل. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

وما إن رفع الخدم الطّاولة الواطئة وغسلوا أيدي الزّوجين بماء الورد، وصبّوا لهما القهوة وغابوا عن الأنظار في دهاليز البيت حتّى تمتمت شاه سلطان كأنّها تكلِّم نفسها: أفرط النّاس في الحديث عن هذه المومس.

لم يقل الصّدر الأعظم شيئًا. وتغلغل خيط من شعاع برتقاليّ من خلال الشّبّاك، فلمع كل شيء لمعانًا غريبًا.

سألت شاه سلطان بعذوبة: صحيح أنّها سوف تُعاقَبُ بهذه العقوبة الشّنيعة؟

قال لطفي باشا: إنّنا نحصد ما نزرع.

ـ أليستِ العقوبة بالغةَ القسوة؟

ـ بالغة القسوة؟ لا، بل مناسبة.

سألت بصوت مشوب بالاحتقار: أليس لديك رحمة أيّها الزّوج؟

ـ الرّحمة لمن يستحقّها.

نهضت شاه سلطان واقفة على قدميها، مرتجفة، ولم تقل إلّا الكلمات القادرة على التّجرّؤ بالتّفوّه بها: لا تأتِ إلى فراشي هذه اللّيلة، ولا ليلة الغد ولا ليلة ما بعد الغد.

امتقع وجه لطفي باشا. كانتِ العروسُ الملكيّة على وجه التّحديد منغّص حياته، والنّاس الّذين يحسدونه عليها ليسوا إلّا حمقى! وأنّ الزّواج بأخت السّلطان أو ابنته لعنة لا يمكن المرءَ أن يتمنّاها إلّا لعدوّه. فقد اضطرّ من أجل الزّواج بها لتطليق شريكة حياته وأمّ أولاده الأربعة الّتي عاش معها سنوات طويلة، لأنّ أخت السّلطان لا يمكنها أن تكون زوجة ثانية.

لكن، هل أظهرت له بالمقابل أيّ امتنان؟ بالعكس، فهي لم تحمل في دمائها قطرة واحدة من الطّاعة والإذعان. وكانت عبوسَ الوجه إزاء كلّ ما يفعل، تلحق به الإهانات وتؤنّبه ليلَ نهارَ، حتّى في حضور الخدم.

Twitter: @ketab_n

لهذا، فإنّ الإحباط هو الّذي تكلّم عندما فتح الوزير الأعظم فاه.

قال: لم تعد لي أيُّ رغبة في فراشك بعد اليوم.

قالت شاه سلطان: من أين لك هذه الجرأة يا خادم أخي؟

جذب لطفي باشا لحيته ونزع بضع شعرات.

قالت مسترسلة: لو تناهى إلى سمعي أنّك نفّذت عقوبتك الفظيعة، وتسبّبت بعذاب تلك المرأة، فتأكّد أنّك لن تكون زوجيَ بعد الآن، ثم سارت تريد الخروج من الحجرة تاركة إيّاه يفور من شدّة الغضب.

كانت شاه سلطان تتوقّع، شأنها شأن الكثيرين، أن يعفو الصّدر الأعظم عن السّجينة في اللّحظة الأخيرة، فيُضرَبُ عصفوران بحجر واحد. فهو يبث الرّعب والهلع في قلوب كلّ الخاطئات ويحظى من جهة أخرى بالاحترام لإظهاره العفو. لهذا استاءت شاه سلطان استياءً شديدًا عندما أُعلن قرار الحكم، ونُفِّذ في صباح يوم منعش. وفي اليوم نفسه، وجد لطفي باشا لدى عودته إلى المنزل زوجته منتظرة إيّاه وقد ثارت ثائرتها.

قالت وهي تعلم أنّ الخدم يسترقون السّمع: عار عليك! أنت رجل قُدَّ قلبه من صخر!

ـ انتبهي إلى كلامك أيّتها الزّوجة! فهذا ليس هو الأسلوب الّذي تخاطبين به زوجك.

ـ أتسمّي نفسك زوجًا؟ أنت الّذي لا يمكنك عمل شيء سوى ضرب نساء نكدات الطّبع.

دفع لطفي باشا زوجته إلى الجدار وصفعها وهو خارج عن طوره.

قالت باكية: لن أبقى متزوّجة بشيطان مثلك.

وراحت تسبّه وتشتمه بأقذع الشّتائم الّتي لا يمكن حتّى للنّمامين أن يتلفّظوا بها.

اندفع لطفي باشا إلى قضيبه عندما اقتحم الحجرة خصيّ أسود ومن

Twitter: @ketab_n

ورائه الخادمات والعبيد والعاملات في حجرة حفظ الأطعمة وأدوات المطبخ والطّبّاخ وصبيان المطبخ وعمدوا إلى شدّ وثاقه وتكميم فمِه وطرحه أرضًا بأمر سيّدتهم.

وفي صباح اليوم التّالي، تناهى إلى سمع السّلطان سليمان أنّ صدره الأعظم حاول ضرب أخته بالقضيب. تلك كانت نهاية لطفي باشا، إذْ طُرد من منصبه وحُرم من ثروته ونُفي إلى خارج البلاد على نحو لم يتيسّر له فيه جمع حاجيّاته أو توديع أيّ شخص.

استمع جَهان إلى هذا كلّه وهو في مأوى الحيوانات، ذاهلًا ومحتارًا. كم تغيّرت الأشياء وتبدّلت على جناح السّرعة! وكم سقط الوضعاءُ من النّاس مهما كانت مكانتهم عالية، حتى وإن ظنّوا أنّ أحدًا لن يقدر على المساس بهم. أو ربّما، على وجه الخصوص، هؤلاء. يبدو كأنّ أمامنا قوسين غير مرئيّين: الأوّل قوس ارتقيناه بأعمالنا وكلماتنا، وقوس هبطناه بأعمالنا وكلماتنا.

في عصر أحد الأيّام، كان جَهان مستغرقًا في أفكاره أثناء عودته من مدرسة القصر إلى مأوى الحيوانات. وعندما اقترب من سقيفته، طرق سمعه صوت سعال جعل الدّم يتجمّد في عروقه. وعندما دخل، رأى القبطان غاريث ينتظره.

ـ انظروا من أتى؟ يا للمفاجأة! لقد جئت من البحر وفكّرت في أنّه يُستحسن بي أن أطمئنّ إلى حال الصّبيّ الصّغير، إذْ لا بدّ من أنّه مشتاق إليّ.

لم يقل جَهان شيئًا، لئلّا يكشف صوته عن خوفه. كان الرّجل قد

Twitter: @ketab_n

عاد إلى تعاطي الشّرب، وكانت رائحة الجعّة الكريهة تفوح من أنفاسه. أما أسنانه فكانت متراصّة في فمه مثل أضلاع برميل مسوّدة بالقار.

ثبّت القبطان نظرته إلى المروِّض، وقال: ماذا؟ تبدو كأنّك رأيت شبحًا.

قال جَهان معترفًا: ظننت أنّك رحلت، لقد مضى زمن طويل.

ـ سقطت سفينتي في حفرة في قاع البحر، وفقدت ثمانية عشر رجلًا من رجالي في أسوإِ عاصفة. أمّا أنا، فقد نجوت لحسن الحظّ ولكنني وقعت أسيرًا، وأصبت بعدوى الملاريا، فظنّوا أنّني ميت. وذهبت إلى جهنّم لكنّها لم ترقْني، فعدت أدراجي منها. ماذا؟ أنت لست سعيدًا برؤيتي!

ـ بل أنا سعيد.

رشقه الرّجل بنظرة تنمّ عن عدم ثقته.

ـ مضى على وجودك في هذا المكان وقت طويل. فماذا سرقت؟ أرِني. لا بدّ من أنّك تملك كنزًا كبيرًا الآن، طالما أنّك فتى الأميرة المدلّل.

جفل جَهان لدى ذكر اسم الأميرة وفكّر: كيف عرف بأمر الأميرة؟ ثمّة جواسيسُ في كلّ مكان. فقال بأكثر ما يستطيع منَ الهدوء: ليس الأمر سهلًا أيّها الافندي، لأن الأبواب يقوم عليها الحرّاس.

ازدادت حدّة صوت القبطان غاريث واستعدّ لاستخدامه ليكون سلاحًا، وازدادت سحنته حلكة وضمنها النّدبة على وجهه.

ـ قلت ما الّذي حصلت عليه من أجلي؟

كان جَهان قد خبّأ الأشياء المسروقة تحت شجرة اللّيلك، وأسرع القبطان من فوره لانتزاع دبّوس الصّغير، لكنّه أصدر بعد ذلك صوتًا غريبًا كأنّه يوشك أن يختنق، فرمقه جَهان بنظرة هلع إلى أن أدرك أنّ الرّجل كان يضحك. بيد أنّه ما إن فرغ من ضحكته حتّى اعتراه الوجوم.

Twitter: @ketab_n

ـ أهذا كلّ شيء؟ ماذا تظنّني؟ ساذجًا؟

ـ إنّني أقول الحق. . .

في هذه اللّحظة، أخرج الرّجل بحركة سريعة واحدة خنجرًا من سترته ورفعه إلى رقبة جَهان.

ـ لا أحبّ الكذّابين. ولم أحبّهم. أعطني سببًا واحدًا يحول بيني وبين سلخك حيًّا.

بلع جَهان ريقه بصعوبة عندما راح النّصل الحادّ يغور في جسده.

ـ لديّ خبر لك. إنّني أعمل الآن برفقة رئيس المعماريّين الملكيّ.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ سوف نبني المساجد من أجل السّلطان. وسنحصل على مال وفير.

ارتخى ضغط النّصل المعدِنيّ البارد من على رقبته، وتراجع القبطان الأحمق خطوة واحدة إلى الوراء وأنعم النّظر في الفتى كأنّه يراه للمرّة الأولى.

ـ تكلّم!

ـ إنّ السّلطان ينشئ مخزنًا ضخمًا بالقرب من المباني الّتي يشيّدها سنان له ولأسرته. تخيّل، إنّه يصرف من المال على الحجر أكثر ممّا يصرف على المجوهرات.

قال القبطان بهمس مبحوح: حسنًا. إذا لم تتمكّن من السّرقة من داخل القصر، فاسرق من أعمال البناء. احتفظ بثقة معلّمك. وكنْ فتًى طيّبًا، وضع يديك على النّقود. لقد أنقذتك على ظهر تلك السّفينة. هل تتذكّر؟ فلا تدعني أستعد ذلك الفضل.

ـ لا أيّها الأفندي، لن تندم على انتظارك طويلًا. سوف آتيك بالثّروات، قريبًا إن شاء الله.

قال جَهان ذلك وهو مؤمن بما تفوّه به في تلك اللّحظة.

Twitter: @ketab_n

في نهاية فصل الصّيف، أنشبَ مرضٌ جديد مخالبَه في الأرض العثمانيّة. تقيُّحاتٌ وقيءٌ وحمّى وموت، فأطلق الأهالي تعبيرَ «بصاق الشّيطان» على تلك البقع الحمر. ولقي عدد كبير جدًّا من النّاس مصرعهم في غضون بضعة أيّام، من ضمنهم شاهزاد محمد الّذي لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره وهو ابن سليمان وخرّم، وقرة عيونهما.

تحطّم السّلطان نفسيًّا وارتدى الملابس الخشنة، رافضًا مقابلة أيّ شخص، ووهب نفسه لأداء الصّلاة. شاركته إسطنبول في عزائه، وخفتت أضواء المصابيح والأصوات، وصارت المحالُّ تُغلق أبوابَها في ساعات مبكِّرة، وعلّق تنفيذ الوصايا القانونيّة وحفلات الختان. كما راحت قوارب الصّيد الدّائرة حول بوّابة السّراي تمرّ من دون أن تصدر أيّ صوت، كأنّ الحزن العميق كان طفلًا نائمًا لا ينبغي إيقاظه من نومه. والتزم الصّمتَ والهدوءَ الرّواةُ في الأسواق التّجاريّة والشّعراء الجوّالون والباعة الجائلون في الشّوارع والمغنّون الّذين لا يكفّون عن الغناء وكانوا يخلدون إلى النّوم وهم يغنّون ويستيقظون وهم يغنّون. وكان الشّيء الوحيد الّذي يقطع ذلك الهدوء هو المطر، إذْ أمطرتِ السّماءُ مطرًا غزيرًا حتّى ساد الظّنّ أنّ السّماء كانت تذرف الدّموع على كلّ مَنْ هبَّ ودبَّ. في مثل هذا اليوم، تشرّف جَهان وشوتا للمرّة الأولى بزيارة قام بها السّلطان.

كان غائرَ الخدّين، شاحب البشرة ومتهدِّل الكتفين. هكذا كان السّلطان، لا يشبه أبدًا ذلك الرّجل الّذي حيّاه جَهان في المضمار حتّى

Twitter: @ketab_n

إنّه لم يستدلَّ عليه لولا الحرّاس الّذين كانوا يسيرون في أعقابه، وانحنى له على جناح السّرعة.

ـ إنّني أتذكّرك أنت وفيلك.

جفل جَهان وتورّد خدّاه عندما تذكّر عصر ذلك اليوم النّحس.

ـ كيف حال كتفك؟

ـ بخير يا مولاي.

ـ والحيوان؟ ماذا تطعمه؟ أخبرني عنه.

هنا راح جِهان يتحدّث بإسهاب، وأطنب في ذكر شوتا، وكيف أنّه يحبّ الطّين والماء والطّعام، وفي الوقت نفسه كان يدرك أنّ السّلطان لم يكن بحاجة إلى المعلومات قدر ما كان يريد جذب أنظاره بعيدًا من الحزن. وقال إنّني إذا ما أردت إلحاق الأذى بالفيل، فينبغي لي أن أتّجه نحو خرطومه الّذي لا يحتوي على أي عظام، بل عضلات لا غير، لهذا السّبب فهو يمثّل أشياء كثيرة في وقت واحد: فهو الأنف والشّفة العليا والذّراع واليد. كما أنّ الأشياء الّتي يمكن الفيلة أن تحقّقها بواسطة الخرطوم لا تُعدّ ولا تُحصى، كالتّنفّس والشّمّ والأكل والشّرب وامتصاص الماء واستخدامه للاستحمام، وحكّ الأذنين وفرك العينين لطرد النّوم. ومثلما أنّ الإنسان قد يكون أعسر أو أيمن، فإنّ الفيلة أيضًا تكون ذات خرطوم أيمن أو أيسر. واستنتج جَهان أنّ شوتا كان أيسرَ.

قال السّلطان: الغريب أنّ مثل هذا الحيوان العظيم لا يملك إلّا ذنبًا قصيرًا. أتظنّ أنّ الله يريد أن يذكّرنا بأنّ الأقوياء لهم نقاط ضعفهم أيضًا؟

لم يجد جَهان جوابًا، وظلّ يبحث عن الكلمات. ولحسن الحظّ، استرسل السّلطان بكلامه.

ـ أخبَرَني رئيس المعماريّين الملكيّ أنّك والفيلَ سوف تساعدانه في عمله.

Twitter: @ketab_n

ـ هذا صحيح يا صاحب الجلالة.

ـ استعدّ إذًا. وعليك أن تجهِّز الفيل للعمل.

لن يكتشف جَهان إلّا في وقت لاحق ما كان يعنيه سيّد البرّ والبحر، فقد كان كلّف سنان بناء مسجد من أجل ولده المتوفّى. وفي هذا العالم الفاني، حيث يكون كلّ شيء موجودًا اليوم وزائلًا غدًا، فإنّ وقف الأمير المحبوب ينبغي أن يكون من الرّخام الصّلب والحجارة الصّلبة.

هكذا، وجد جَهان نفسه في اليوم السّابع من شهر أيلول، وهو يوم ميمون حدّده رئيس الفلكيّين الملكيّ تقيّ الدّين، في موقع البناء يشهد المسحاة الأولى تشقّ الأرض. وذُبح أربعون خروفًا وأربعون كبشًا، ورُشّت دماؤها على الجهات الأربع، وطُهيَ لحمُها في قدور كبيرة ووزّع على الفقراء والمجذومين. ولاحظ جَهان أبو السّعود أفندي بعمامته العالية وردائه الفضفاض وسط الجموع. وبما أنّه أصبح شيخ الإسلام، وهو أعلى منصب دينيّ، فقد شابته مسحة تجبّر وصلف. وكان حضوره في هذا المكان قد أصاب جَهان بقشعريرة، وتذكّر ألم المهرطق شيخ مجنون وصوته المخمليّ ووجهه المليح ونظرته الصّافية. إنّه لم ينسه.

ثم انصرفوا جميعهم: السّلطان وأعضاء الدّيوان والمتفرِّجون. ولم يبقَ سوى العمّال، المئات منهم. وأدرك جَهان أنّ ثمّة نوعين من الرّجال في موقع البناء: رجال لا يسدّدون نظراتهم إليك أبدًا، وآخرون ينظرون إليك بين وقت وآخر. وكان النّوع الأوّل يمثّل العبيد المدانين بأحكام، إذْ تقيّد السّلاسلِ كواحلهم، وتجلدهم السّياط حتّى يمتثلوا للأوامر: بحّارة أو فلّاحون أو حجّاج أو مسافرون انقلبت حياتهم انقلابًا فجائيًّا

Twitter: @ketab_n

وسريعًا، فلم يتمكّنوا من معرفة ما حدث: أهو وهم، أم إنّ الماضي حلم. وشيّد هؤلاء العبيد النّصارى مراقد المسلمين من شروق الشّمس حتّى غروبها، يقيمون أودهم على بسكويت مجفّف وشوربة رقيقة القوام.

يمثّل النّوع الآخر المتطوّعين من مثل جَهان الّذين تُدفع لهم أجورُهُم ويحظون بوجبات طعام أفضل ويتلقّون معاملة أفضل إجمالًا: بنّاؤون، حفّارون، نجّارون، حدّادون وزجّاجون يتمّ تسجيله عند كاتب ويشرف عليه مسؤول العمّال.

كان جَهان يشاهد حركة دؤوبًا حيثما التفت: بكرات فولاذيّة ورافعات يدويّة صغيرة وحبال ضخمة. وكان سنان قد جعل النّجّارين في وقت مبكر من العمل يركّبون رافعة هائلة متحرّكة، وراحت مجموعات من الرّجال تتناوب على العمل من داخلها، فتراهم يسيرون تارة ويركضون تارة أخرى لإدارة الدّولاب الّذي كان يرفع أثقل الحجارة. وفكّر جَهان في أنّ ثمّة ما يشبه ظهر السّفينة في موقع العمل. ففي الحالتين، ثمّة معرفة فطريّة تجعل من أيّ إخفاق بشريّ فشلًا جماعيًا. ومن شأن النّجاح أن يتوزّع بأصغر المقادير مثل لحم مجفّف ومملّح في حسائهم. عندما يشيّد المرء مبنًى من المباني أو يبحر في البحار، فإنّك تتعلّم كيف يعتني الواحد بالآخر، وتظهر وحدة إجباريّة تشبه أُخوّة من نوع ما، ويسود فهم ضمنيّ بين المراتب. وتتقبّل كون مهمّتك أكبر من نفسك، وأنّ الأسلوب الوحيد للمضي قدمًا ينطوي على جهد مشترك كأنّه جهد واحد. هكذا تدفن الكراهية وتتخلّى عن المشاجرات، ألّلهم إلّا إذا انفجر تمرّدها وفي هذه الحالة، فإنّ العالم سينقلب رأسًا على عقب.

ولم يكن العمّال أقلّ إيمانًا بالخرافات من البحّارة، إذْ ليس بمقدور العامل أن يصفّر أو يهمس أو يكيل اللّعنات عندما يطرق مسمارًا، لأنّ هذه الحالات الثلاث تعني دعوة الشّيطان، الّذي لن يخفق في الحضور

Twitter: @ketab_n

إذا ما استُدعِيَ إلى المكان. وإذا ما ثقب المسمار الحائط عند وصول الشّيطان، فإنّ أثر قدمه سيظلّ محفورًا في المبنى إلى أبد الآبدين. ولم يكن المسلمون وحدهم متمسّكين بهذه القوانين، بل كان النّصارى واليهود يؤمنون بها أيضًا. وكانوا إذا أرادوا طرد عين الحسود، يتركون قطعة من الخبز ومقدارًا ضيئلًا من الملح فوق أعلى حجارة شيّد بها البناء. ولم يرغبوا في أيّ مرحلة من مراحل البناء رؤية امرأة حامل تمرّ من أمامهم ـ أو أيّ إنسان أصهب أو أزرق العينين أو أرنبيّ الشّفة. ولم يتمكّن سنان نفسه من إقناع العمّال بالعمل برفقة بنّاء أصهب.

كانت بعض المخلوقات غير متناسقة. فالضّفادع والخنازير والماعز لها ثلاث سيقان، وأخرى بلا سيقان كالثّعابين والعقارب والسّحالي وأمّ أربع وأربعين والدّود. وكانت مجاميع الكلاب الضّالّة تأتي وتذهب، وكان العمّال يستمتعون بوجود الكلاب حولهم، لأنّها مخلصة ووفيّة باستثناء أتباع المذهب الشّافعيّ في الإسلام. وكانت العناكب موضع اعتزاز كبير لأنّها هي الّتي أنقذت النّبيّ محمد ﷺ. وكان قتل العنكبوت، والأسوأ من هذا سحقه تحت القدم، إثمًا عظيمًا. وثمّة حيوان آخر يُعَدُّ مبشِّرًا بحسن الطّالع، وهو الفيل، ما جعل جَهان يغتبط اغتباطًا شديدًا.

وكانوا يراقبون الطّبيعة لرؤية أيّ نذير في السّماء والأرض، كما كانوا يراقبون كلّ طير عابر وكل جذر شجرة يصطدمون به. وإذا ما اشتمّوا رائحة نسيم حادّة ولاذعة، كانوا يرتابون في أنّ ثمّة مَنْ يحضِّر السّمّ. وكان المتطوّعون يمشِّطون المنطقة، شرقًا وغربًا، ويعودون أحيانًا مصطحبين معهم صيّاد سمك أو متسوِّلًا أو حيزبون يتّهمونها بالسّحر ويغالون في اضطهادها لولا تدخّل سنان في كلّ مرّة، طالبًا منهم ترك الشّخص وشأنه.

وكان التّبجّح في موقع العمل تصرّفًا غير صحيح، فلا ينبغي لأحد

Twitter: @ketab_n

التّباهي بمنجزاته وعليه أن يتذكّر على الدّوام أن يقول: إن شاء الله، لأنّ كلّ شيء بيد الله ولا شيء بيد أحد. وكلّما جرى إعدام علنيّ، فإنّ بعض العمّال يأخذون شظيّة من خشب المشنقة ويعلّقونها بصفتها تميمة، وهو ما لم يفهمه جَهان قَطُّ، إذْ كيف يمكن تعاسةَ إنسان ما أن تكون سببًا في منفعة الآخر وخيره؟!

لم يبدُ على سنان أنّه معترض على هذه المعتقدات، وإن كان لا يشاطرهم إيّاها على ما هو واضح. وعلى الرّغم من هذا، فإنّ سنان سوف يكتشف أنّه مؤمن بالخرافات على نحو آخر، وبطريقته الخاصّة. فهو يعلّق طلسمًا طوال الوقت يمثّل حلقتين متداخلتين، مصنوعتين من الجلد، إحداهما ذات لون فاتح، والأخرى ذات لون غامق. وكان يصوم ثلاثة أيّام قبل أن يبدأ عمله في أيّ تصميم. وعندما يفرغ منه، فإنّه، بغضّ النّظر عن عظمة البناء، يترك فيه شائبة مثل وضع قطعة آجر بالمقلوب أو حجارة مقلوبة أو قطعة رخام مثلومة الحافّة. وكان يحرص على أن يكون ثمّة نقص أو عيب في البناء، تراه عين الخبير ولا تراه عامّة النّاس، لأنّ الله وحده هو الكامل.

كان أحد مسؤولي عمّال سنان المخلصين من النّصارى العرب، وكان قد جاء من لبنان واسمه جبرائيل الثلجيّ لأنّ شعره وبشرته ورموشه وحاجبيه كانت كلّها بيضاء بياض المرمر. وكانت عيناه شبيهتين بعيني أرنب تتورّدان تحت الشّمس. وكان كلّ قادم جديد يرفض العمل تحت إمرته متّهمًا إيّاه بجلب الحظّ السّيّئ، غير أنّ سنان كان يضمنه ويشهد على كفاءته ويقول إِنّه ولد هكذا، وأنّه أفضل رئيس عمّال في سبعة أقاليم.

اشترك شوتا في المساعدة، يسحب الأسلاك، ويجذب حبال القطر، ويحمل الألواح ويضع الأخشاب في محلّها. وفي إحدى المرّات، وكان يرفع عمودًا منَ الرّخام، انقطع الحبل وهوى العمود،

Twitter: @ketab_n

وكاد يلقى جبرائيل الثّلجيّ حتفه لو لم يبتعد إلى الجانب في آخر لحظة، لكن على الرّغم من ذلك، مرّت الأيّام كلّها تقريبًا من دون حادث يذكر، وكان العمل فيها كئيبًا موحشًا، وكان المروِّض وفيله يغادران القصر صباح كلّ يوم ويصلان إلى موقع العمل بالقرب من ثكنة الانكشاريّة، وكانا يذرعان الطّريق نفسه عندما تأذن الشّمس بالمغيب. في هذه الأثناء، أصبح سكّان البلدة معتادين على مشاهدتهما، وكانوا أحيانًا ينتظرونهما وهما في طريقهما، لا سيّما الأطفال، والبعض الآخر إيمانًا منهم بأنّ التّربة الّتي يدوس عليها الفيل ذات قوّة شافية، فبدأوا يجمعون التّربة بعد أن يمضيا في طريقهما.

راقب جَهان كلّ شخص يعمل في موقع البناء مراقبة دقيقة، وتعلّم تعلُّمًا سريعًا، غير أنّه كان يتحرَّق شوقًا لمعرفة كلّ شيء عن تلاميذ سنان، لأنّهم كانوا أقرب النّاس إلى المعلِّم. ثلاثتهم، الأوّل يدعى نيقولا، وهو رجل أناضوليّ نحيف البنية، زيتونيّ البشرة، يعرج بسبب مرض أصيب به في طفولته. وكان من صفاته أنّه اذا ما شاهد مبنًى من المباني، فإنّه ينظر إليه نظرة طويلة ويغمض عينيه ثمّ يرسمه بأدقّ تفاصيله. أما الثّاني، فطويل القامة، مائل إلى البدانة، ولد في قرية منسيّة على مقربة من الحدود الإيرانيّة، فربّاه جدّه على أثر مقتل والديه على أيدي قطّاع الطّرق. كان اسمه داؤود، حادّ الذّهن مثل نصل. أما الثّالث، فكان أخرس يُدعى يوسف ـ وهو شابّ برع في الحساب والأرقام، ما دفع سنان إلى تكليفه إعادة فحص مقاييسه والتّأكّد منها. كان وجهه أمرد بلا شعر، وعيناه واسعتين وخضراوين، وكان قد أُصيب في صباه بحروق في يديه فراح يضعهما في قفّاز مصنوع من جلد الأيل. ولولا سنان وخوف العمّال منه، لعمد بعضهم إلى مضايقته. ولمّا كان هذا التّلميذ يدرك إدراكًا جيّدًا هذا الأمر، كان لا يرفع بصره من على الأرض، شأنه شأن عبيد السّفن الشّراعيّة.

Twitter: @ketab_n

كان جَهان يتحيّن الفرصة الأولى الّتي تسنح له حتّى يسير على أطراف أصابع قدميه ويقترب من هؤلاء الشّبّان الثّلاثة وينظر إلى رسومهم من فوق مناكبهم. وعندما يعود إلى المأوى، يقلّد ما كان قد رآه، فيرسم على الطّين الرّطب أو الرّمل الجافّ. كان من ناحية قد عقد العزم على العمل بجدٍّ حتّى يكون مثلهم، ولكنّه من ناحية أخرى، كان يفكّر في الأشياء الّتي يتعيّن عليه سرقتها ويولّي هاربًا. كان الفرق بين الحالتين شاسعًا إلى الحدّ الّذي جعله يجد صعوبة هائلة في التّقليل منه، لكن ينبغي له أن يختار أحد السّبيلين عاجلًا أم آجلًا.

Twitter: @ketab_n

أصبح الطّقس قاسيًا بحلول شهر كانون الثّاني وتدلّت الكتل الجليديّة من الأفاريز، جميلة وخطرة في الوقت نفسه، ورقدت إسطنبول تحت دثار أبيض سميك، لكنّ العمل في البناء ظلّ مستمرًّا، ولفَّ العبيد قطع القماش حول أرجلهم، وإن بقيت أصابع أقدامهم بارزة من تحت قطع القماش، ملتهبة ومتورِّمة.

في واحد من صباحات تلك الأيّام، خرج الفيل ومروِّضه من القصر في الوقت المعتاد، وفي منتصف الطّريق، جاء كلب واتّجه إليهما مسرعًا، وينبح نباحًا مسعورًا كأنّه يريد أن يريهما شيئًا ما.

هتف جَهان منفرج السّاقين من على رقبة شوتا: لنذهب لرؤية ما يريد.

انحرف الفيل في مسيره وانعطف لاقتفاء أثر الكلب الّذي ابتهج لمّا رأى أنّه جذب اهتمامهما، فانعطف شمالًا واتّجه مباشرة إلى السّاتر المائيّ حيث تجمّد الماء على حافّة الشّاطئ، وأسرع الفيل وراءه.

ـ هه! خفّف سرعتك!

قبل أن يتمكّن جَهانُ من إنهاء عبارته، خطا الفيل إلى أمام فتهشّم الثّلج وغاص إلى بطنه، فتوقّفوا جميعًا: الفيل والمروِّض والكلب. ثمّة جثّة في المياه، قريبة جدًّا حتّى كان في الإمكان لمسها. جارية من الجواري في الأعمّ الأغلب، جسدها ميّال إلى الزّرقة، شعرها مبعثر وسط الموج. ونظرًا إلى ما كانت ترتديه من ثياب وتتزيّن به من مجوهرات تحيط رقبتها، فإنّها كانت تنتمي إلى أسرة ثريّة، وربّما إلى القصر بالتّحديد.

أمر جَهان شوتا أن يسير إلى أمام، عازمًا على وضع يديه على

Twitter: @ketab_n

المجوهرات، واقترب من هدفه عندما توقّف شوتا ورفض أن يتحرّك. هتف جَهان طالبًا النّجدة وهو على ظهر الفيل وسط المياه الباردة، ومحاولًا ألّا يشعر بالهلع، لكنّه خائف في كلّ الأحوال ويبعث على الضّحك. لحسن الحظّ، توقّفت عربة بعد برهة، وكان يجرّها حمار وعلى متنها خمسة من الغجر.

سأل أحدُ الرّجال الشّخص الطّويل الجالس في المقدِّمة: هل نمدّ يد العون يا بالابان؟

- نعم، ساعد المرأة.

هدر جَهان: هل جننت؟! المرأة ميّتة، وعليك أن تنقذنا نحن أوّلًا.

ارتقى الرّجل الّذي يُدعى بالابان العربة وهو لا يزال ممسكًا باللِّجام بإحدى يديه. كان وجهه واضح المعالم، وأنفه معقوفًا من كثرة الكسور الّتي أُصيبَ بها، شعره طويلًا كأنّه شعر ناسك في حين كشف فمه نصف المفتوح عن سنّ مغلّفة بالذّهب. وبدا مخبولًا وعظيمًا في الوقت نفسه بريشة طائر البلشون الأبيض التي كانت تزيّن غطاء رأسه.

- إذا كلّمتني بمثل هذا الكلام مجدّدًا، فسوف أقطع لسانك وأطعمه للقطط.

التزم جَهان الصّمت، وراقب الغجر وهم يصنعون على جناح السّرعة أنشوطتين، لاستخدام إحداهما للإمساك بالفيل من خرطومه، والثّانية للقبض عليه من إحدى قائمتيه الأماميّتين، وجذبه إلى الشّاطئ في وقت واحد. تحرّك شوتا على مضض، وترنّح مرّتين وكاد يُسقِطُ جَهان في المياه. ولمّا وصلا إلى اليابسة، وثب جَهان عن ظهر الفيل إلى الأرض متنهّدًا، وتذكّر الآن ما قاله له الموظّف في اليوم الّذي وصلا فيه، هو والفيل، إلى القصر. هؤلاء هم الغجر السّيّئو الصّيت، شبه القبليّين. اقترب منهم محترسًا، وقال: لقد أنقذتم حياتنا، ونحن نشكر لكم ما فعلتم.

Twitter: @ketab_n

قال بالابان: فعلنا ذلك من أجل الحيوان. لدينا فيل وهو حيوان عظيم.

قال جَهان غير مصدِّق: لديكم فيل؟!

حدّق فيه بالابان، بينما أخذ رجاله قلادة المرأة وأعادوا جثّتها إلى الماء، وقال: إنّها فيلة واسمها كلبهار. فيلك غريب اللّون.

احتجّ جَهان على ما فعل الرّجال، وقال: لا يمكنكم أن تفعلوا هذا، وينبغي دفنُها على نحو لائق.

ـ هل تظنّ أنّنا سنكون موضع شكر وتقدير إذا رآنا النّاس ونحن منَ الغجر برفقة جثّة. سوف يقولون إنّنا قتلناها ويزجّون بنا في السّجن. سوف نتركها في هذا المكان، وستمزِّقها الكلاب إربًا إربًا. إنّ مكانها آمن في الماء، ثمّ ابتسم ابتسامة عريضة، وأضاف: أمّا إذا كنت تفكّر في القلادة، فاعتبرها مكافأة لنا على ما تحمّلناه من مشقّة، كما أنّها ليست في حاجة إليها بعد الآن.

لم يخبره جَهان أنّه ساوره مثل هذا التّفكير. بدلًا من ذلك سأل، في صوت خفيض: أتظنّ أنّها قُتلت؟

ـ كان ينبغي لي أن أقطع لسانك، فهذا أكثر نفعًا لك. دعني أسدِي لك نصيحتين: إذا كنت لا تعرف الجواب فلا تطرح سؤالًا.

ـ وما النّصيحة الثّانية؟

ـ هبَّ واهتمّ بفيلك الّذي أثّر فيه الصقيع.

ـ ماذا؟!

اندفع جَهان نحو شوتا الّذي اكتسى جسده بقضمة الصّقيع، ولم يعد أبيض اللّون، بل تحوّل إلى لونورديّ مخيف، ووجده يرتعش من شدّة البرد.

في هذه الأثناء، كان الغجر قد عادوا إلى العربة، فما كان من

Twitter: @ketab_n

جَهان إلّا أن هرول في أثرهم، وصاح: لا تذهبوا أرجوكم، فأنا لا أعرف ما أفعل.

قال بالابان: لا يوجد سوى علاج واحد. إنّه بحاجة إلى شراب قويٍّ، إلى العرق.

قال جَهان: العرق؟ هل يمكن العثور عليه؟

ـ لا، ليس سهلًا العثور عليه، فالحيوان كبير جدًّا، وهو بحاجة إلى برميل.

وهنا ضحك الغجر ضحكة تنمّ عن فهم وإدراك.

- إذا أتيناك ببرميل، فمن الّذي سيدفع لنا ثمنه؟

قال جَهان متأمّلًا أن يكون الكلام صحيحًا: سوف يدفع لكم سنان، رئيس المعماريّين الملكيّ.

جاؤوا بنصف برميل من العرق وبضعة أكواب، ولم يمتلك جَهان الجرأة ليسألهم ما إذا كانوا قد سرقوا هذه أيضًا. وبعد أن خفّفوا السّائل بالماء، وضعوا خرطوم الفيل داخله. كرع كلّ غجريّ كوبًا، ربّما ليكونوا نموذجًا للحيوان، ثمّ كوبًا آخر. أمّا الفيل فقد تناول جرعة، لكنّه طرحها خارجًا وبلّلهم كلّهم، لكن لا بدّ من أنّ مذاق الشّراب أعجبه واستهواه لأنّه عاد إلى البرميل وشرب منه. وفي هذه المرّة، لم يلفظه من خرطومه.

بعد مرور ساعة، وصلا إلى موقع البناء، وكان جَهان يسحب شوتا من اللّجام، في حين راح الغجر يغنّون بجذل وهم في العربة.

سأل سنان وهو ينقل بصره من الفيل إلى الغجر ومن الغجر إلى الفيل: أين كنت؟

Twitter: @ketab_n

قال جَهان: تعرّضنا لحادثة أثناء مجيئنا إلى هنا، وقد أنقذنا هؤلاء الرّجال.

سأل سنان وهو يشاهد الفيل مترنّحًا: هل سكر هذا الحيوان؟ ثمّ التفت إلى الغجر وهو يسأل جَهان: هل هؤلاء سكارى؟

قهقه سنان عندما سمع قصّة البرميل، وقال: لا يمكنني أن أستخدم فيلًا سكران في بناء مسجد له حرمته، اذهب ولا تعد إليَّ حتّى يصحو من سكره.

قال جَهان متيبّس الحلق: نعم أيّها المعلّم، هل أنت مستاء منّي؟

تنهّد سنان، وقال: لديك أسلوب في التّشبّث بالحياة، وهذا شيء حسن، لكنّ حبّ الفضول قد يكون مؤذيًا إذا لم تسيطر عليه، لهذا ينبغي لنا أن نكثر من تدريبك.

ـ الإكثار من تدريبي؟!

ـ سوف تستمرّ في دراستك في مدرسة القصر، وسوف يعلّمك نيقولا الرّسم في وقت فراغه، ويعلّمك داؤود الهندسة. أمّا يوسف، فسوف يفيدك في موضوع الأرقام، وسوف تصبح تلميذًا لتلاميذي.

لم يفقه جَهان شيئًا ممّا قال سنان، لكنّه أدرك أنّه امتياز، فانحنى ليقبّل يد سنان وهو يقول: شكرًا لك أيّها المعلّم. إنّني...

في تلك اللّحظة، شقّ الهواءَ دويٌّ هائل يصمّ الآذان، فهرع الكلّ مهرولًا إلى جهة الصّوت ومن ضمنهم الغجر ليجدوا أن بضعة ألواح خشبيّة انزلقت من حبالها مسبّبة انهيارَ نصف سقالة البناء من دون أن تلحق الأذى، ويا للعجب، بأيّ شخص! ولمّا كان الخشب غالي الثّمن، وأرادوا الاقتصاد فيه، فقد عمدوا إلى صنع السّقّالة بالحبال الغليظة وزوّدوها ألواحًا خشبيّة.

قال جَهان مرتبكًا: لا بدّ من أنّها عين الحسود. كم حادثة في اليوم!

Twitter: @ketab_n

جاءه صوتٌ من خلفه: لا تصدر حكمك قبل الأوان.

كان صوت بالابان الغجريّ وهو ممسكٌ حبلًا بيده. وعندما جذب انتباه الحاضرين، قال بنبرة لا مبالية وهو يومئ برأسه: هذه ليست حادثة، بل إنّ شخصًا قطع الحبال.

سأل سنان: ما الّذي يجعل أيّ شخص يقدم على مثل هذا الصّنيع؟

ابتسم بالابان ابتسامة حزينة، وقال: من يدري؟ فالشّيطان لا تنفد أعذاره.

قال سنان: لا وجود للشّيطان في هذا المكان، ورجالي يعملون بجدٍّ.

قال بالابان: إذا كنت تؤمن بهذا، فأرجو أن تتقبّل رأيي أيّها الأفندي. ليس ثمّة ضرر في الحذر. ربّما ثمّة خائن بينكم. ولو كنت في مكانك لأبقيت عينيَّ مفتوحتين.

Twitter: @ketab_n

لم يعثر أحد على الجاني، ولم يتيسَّر الوقت لجَهان للجلوس والتّفكير وهو الّذي ينتقل من مدرسة القصر إلى مأوى الحيوانات وموقع البناء. وبلغ به ضيق الوقت إلى حدّ تناول طعامه وهو متنقِّل. وعرف تمامًا أنّ التّلمَذَةَ على يديْ المعلِّم سنان تعني العمل بلا توقّف. كان شيخ الإسلام قد أصدر مؤخّرًا أمره ببناء المساجد في كلّ مكان، وفي كلّ اتّجاه لإخبار العامّة بأنّ الّذين لا يحضرون صلاة الجمعة سيكونون عبرةً للآخرين. وحثّ كلّ رجل مسلم، في البلدان والقرى، على الصّلاة خمس مرّات في اليوم، وأن يلتحق بأقرب مسجد. ولمّا كان عدد الّذين يذهبون إلى المساجد قد تضاعف نتيجة لذلك، فقد زادت أعمال سنان وتلامذته زيادة كبيرة.

وما إن فرغوا من تشييد مسجد شاهزاد حتّى شرعوا يبنون التّالي. ولم يكن جَهان قد تمكّن من سرقة أيّ شيء من الخزانة، لأنّ كلّ شيء كان يخضع لإشراف مرهق، وكلّ قرش يُنفق يُدوَّن في سجلّات، لكن بينما كان يبحث عن وسيلة لسرقة أشياء للقبطان غاريث ويراوده الحلم بإلحاق الأذى بزوج أمّه، بات، من دون أن يدري، مستغرقًا في عالم التّصاميم والخرائط.

لم يستطع معرفة أيّ خبر عن مِهرماه، فضلًا عن عدم قدرته على رؤيتها. وممّا يبعث على الغرابة أنّ أهمّيّتها وهي غائبة ازدادت كثيرًا. طوى قلبه مثلما يطوي منديلًا، واحتفظ داخله بتلك الأوقات التي أمضاها وإيّاها. ولم يفصح عن حنينه وشوقه إلّا لشوتا الّذي ازداد وزنه بمرور الأيّام، وأصبحت شهيّته للطّعام أكبر من ظلِّه.

Twitter: @ketab_n

في فصل الصّيف، بدأ سنان وتلاميذه الأربعة العمل في أكبر مشاريعهم وهو السّليمانيّة(١). فالمسجد الّذي أمر السّلطان بتشييده لنفسه من شأنه أن يخلّد اسمه إلى الأبد. وقبل أن يتّخذ سنان قرارًا بشأن مكان وضع حجر الأساس للمسجد، أمر القصّابين بإحضار الخراف والأبقار الّتي عُلِّقت بحلقات حديديّة وتُركت لتتعفّن في مختلف الأماكن. وكان سنان يأتي كلّ بضعة أيّام ليفحص لحومها. فالجزء الّذي يتعرَّض للتّلف بسرعة أكبر يعني أن الرّطوبة فيه أعلى.

ولمّا كانتِ الرّطوبة تلتهم المباني التهام العثّ المنسوجات، فإنّه تجنّب مثل تلك المناطق، واتّجه إلى منطقة حيث الهواء جافٌّ والأرض صلدة بما يكفي لأن تقاوم هزّة أرضيّة. كما أنّ بناء المسجد فوق هضبة من شأنه أن يمنحه مزية الإطلالة على المدينة برمّتها شأنه شأن السّلطان الّذي سُمّي باسمه.

كانت كلّ مادّة من موادّ البناء مختارة بعناية. فجيء بالحديد والرّصاص من صربيا والبوسنة، والخشب من فارنا والمرمر من بلاد العرب، ومن الموقع الّذي كان قد شيّد عليه قصر الملك سليمان، والسّطوح الصّقلية لا تزال تعكس جمال ملكة سبإ. وكان أحد الأعمدة العملاقة قد جِيء به من بعلبك، مدينة الشّمس، وانتزع سبعة عشر عموداً من المضمار، ما أقلق راحة شبح الإمبراطورة ثيودورا الغاضب.

هناك المئات من الرّجال: عبيد السّفن والعمّال الأجراء، وكان

---

(١) مسجد السّليمانيّة: شيّد هذا المسجد ضمن أسوار إسطنبول القديمة بين ١٥٥٠ ـ ١٥٥٩ وهو من أروع الآثار العثمانيّة منذ عهد سنان المعمار. وهو معروف بنظامه الصّوتيّ والهوائيّ المتميّز. فيه عشر شرفات على كل مئذنة من مآذنه الأربع، والّتي تشير إلى أنّ السّلطان سليمان القانونيّ هو السّلطان العاشر. جُلب المرمر الأبيض المستخدم في بناء المسجد من جزيرة مرمرة، والمرمر الملوّن من بقايا قصر بلقيس في اليمن والمرمر الأخضر من شبه جزيرة العرب. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

نصف العاملين من النّصارى وعدد صغير من اليهود، والبقيّة الباقية من المسلمين. وكان سنان قد عيّن مشرفًا لكلّ رهط من العمّال حتّى يتأكّد من سير العمل بانتظام، وإن كان يضطرّ باستمرار للطّواف بالموقع من جهة إلى أخرى حتّى يتأكّد من سير العمل سيرًا منتظمًا.

سأل جَهان: لماذا لا تمتطي ظهر شوتا يا معلّمي؟ ففي وسعه أن ينقلك إلى حيث تشاء.

قال سنان مسرورًا: أتريد منّي الجلوس على الحيوان؟ لكنّه لم يرفض الرّكوب على الرّغم من تردّده عندما رأى جَهان يضع الهودج على ظهر شوتا ويدعوه إلى الرّكوب.

قبل الانطلاق، همس جَهان بشيء ما في أذن الفيل قائلًا: كن لطيفًا مع المعلّم، ولا تهزّه كثيرًا.

وراح الثّلاثة يطوفون في أنحاء الموقع بإيقاع ثابت، ومرّوا على امتداد الممشى الحصبائيّ المؤدّي إلى البحر إلى أن أصبح صوت مئات الرّجال العاملين في الموقع دويًّا بعيدًا. وأخيرًا توقّفوا ليراقبوا ضِفدِعًا يبرز منَ الشّاطئ. فقال سنان بصوت طفوليّ: يبدو أنّني أستطيع الرّكوب.

منذ ذلك اليوم، راح المعمار والفيل يفتّشان الموقع معًا يوميًّا، وكانت رؤيتهما تدفع العمّال إلى الابتسام. واشتغل كلّ عامل بجدٍّ، وكان الهواء فوق رؤوسهم مثقلًا بالعرق والغبار، لكنّ إسطنبول لم تقتنع وفيها آلاف الأفواه التي تغتاب وتفتري، وتقول مثل هذا الكلام وهو أنّ سنان لا طاقة له على إنجاز مثل هذه المهمّة الشّاقّة، وأنّه يسرق الخشب والمرمر ليعمل على توسعة منزله الخاصّ به، وأنّه غير قادر، بسبب ولادته ونشأته النّصرانيّة على تشييد مسجد له حرمته بمثل هذه المساحة الشّاسعة - وحتّي لو استطاع إلى ذلك سبيلًا، فإنّ القبّة سوف تنهار على رأسه.

Twitter: @ketab_n

تعذّبت روح جَهان بهذه الأكاذيب، وشعر مرّات ومرّات بأنّه كمن يريد أن يصيح بأعلى صوته على صفوف البيوت المتراصّة إلى أسفل ويطلب منهم أن يكفّوا ألسنتهم. وكان يستيقظ في صباح كلّ يوم آملًا بأن تبدّد الرّيح شائعات الأمس، ويخلد إلى النّوم مساء كلّ يوم مسحوقًا تحت وطأة اتّهامات جديدة.

في عصر يوم من الأيّام، زارهم السّلطان. وما إن صكّ سمعَ جَهان صوتُ حوافر الخيل حتى علم أنّ الشائعات وصلت إلى مسامع السّلطان، فضاق صدره. توقّف هدير المطارق والمناشير والفؤوس والبلطات. وتقدّم السّلطان مثل ريح وسط هذا الصّمت، ثمّ جذب لجام فرسه ورنا من مكانه العالي إلى الجواد. كان يرتدي ثوبًا من أشدّ الثّياب تواضعًا، مصنوعًا منَ الصّوف البنّيّ اللّون، بعد أن تخلّى عن لبس القفطان الحريريّ ذي الألوان البرّاقة بعد تقدّمه في العمر وإصابته بداء النّقرس وتحوّله إلى الورع والتّقوى. كما أنّه تخلى عن شرب الخمرة والملذّات، وأصدر أوامره بحرق ما تبقى من أدوات موسيقيّة في القصر. وبناءً على أمر صادر من الدّيوان، أغلقت الحانات والبيوت السّيّئة السّمعة والمقاهي الّتي افتتحت قبل مدّة قصيرة. ومُنِعَت كلّ المشروبات الرّوحيّة ومثلها المثلّجات الّتي كانت رائجة يومذاك. لقد ألقى هذا السّليمان الجديد الرّعب في قلب جَهان.

حيّاه سنان منحنيًا: شرّفتنا يا صاحب الجلالة.

ـ هل صحيح ما سمعته عنك؟ أجب.

قال سنان: هل يمكن مولاي أن يخبرني عمّا سمعه عن هذه النّملة العديمة الشّأن؟

ـ يقولون إنّك تضيّع الوقت الثّمين بأشياء لا قيمة لها، فهل هذا صحيح؟

ـ يمكنني أن أؤكّد لسلطاني أنّني لا أدَّخر جهدًا من أجل داخل

Twitter: @ketab_n

المسجد وخارجه. وأنا وطّدت عزمي على بنائه بحرفيّة عالية، و...

قاطعه السّلطان قائلًا: كفى! إنّني لا أقيم وزنًا للزّخرفة، ولا ينبغي لك أن تقيم لها وزنًا أيضًا إن كنت حكيمًا وعاقلًا. إنّني أطلب منك أن تفرغ من البناء من فورك، من دون أيّ تأخير! إنّني أريد رؤية القبّة وليس الزّخرفة.

امتقع وجه سنان بعد أن عنّفه السّلطان أمام عمّاله وتلاميذه، لكنّه على الرّغم من ذلك، بدا هادئًا عندما تكلّم: القبّة والزّخرفة شيئان لا ينفصلان.

ـ أيّها المعماريّ! ألم تسمع بما حدث للمصمِّم الّذي كان يعمل عند جدّي محمّد خان؟ كان اسمه مثل اسمك. يمكنك القول إنّ هذا نذير أشياء سوف تحدث.

ردّ سنان بهدوء وحذر كأنّه يكلّم صبيًّا نزقًا: إنّني أعرف المصير الحزين الّذي آل إليه يا صاحب الجلالة.

ـ إذًا، أنت تعرف ما ينتظر أولئك الّذين لا يلتزمون بوعودهم، وإيّاك أن تكون واحدًا منهم!

عادوا إلى استئناف العمل بعد انصراف السّلطان، لكنّ الوضع لم يعد على ما كان عليه حتّى بعد انصرافه، فثمّة ما هو جديد في الأجواء، رائحة خيبة أمل ويأس. وعلى الرّغم من أنّهم لم يتنصّلوا منَ المسؤوليّة، ولم يتوانوا عن العمل، إلّا أنّهم شعروا بثبوط همّتهم. وفكّروا: ما فائدة عكفهم على العمل من دون توقّف إذا كانوا غير قادرين على إرضاء السّلطان؟ وما فائدة العمل الجادّ إذا لم يلق أيّ تقدير؟

انتظر جَهان حتّى تسنح له الفرصة ليكلِّم سنان في الأيّام المقبلة، لكنّه لم يتمكّن من الاقتراب من المعلِّم إلّا في نهاية الأسبوع، عندما وجده يرسم محنيّ الظّهر محاطًا بالرّقوق. ولمّا رآه سنان، ابتسم له ابتسامة تنمّ عن إعياء.

Twitter: @ketab_n

ـ كيف هي دروسك؟

ـ أرجو أن أتمكّن من جعلك فخورًا أيّها المعلّم.

ـ أعرف أنّك ستجعلني كذلك.

ـ لقد أتى السّلطان في ذلك اليوم على ذكر معمار أيّها المعلّم، المعمار الّذي يحمل اسمك نفسه، فماذا جرى له؟

ـ آه، عتيق سنان... ثمّ توقّف كأنّ ذلك يفي بالمرام.

غير أنّه روى القصّة بعد ذلك، فقد كان عتيق سنان رئيس المعماريّين الملكيّ عند السّلطان الفاتح الّذي فتح القسطنطينيّة. وكان معمارًا ممتازًا، مجتهدًا ودؤوبًا في عمله، وكانت الأمور تسير على ما يرام إلى أن بدأ يبني مسجدًا للسّلطان. فقد رغب السّلطان الفاتح أن يكون المسجد أروع المساجد قاطبة في بنائه، من ضمنها مسجد أيا صوفيا. لهذا السبب، أحضر أطول الأعمدة الّتي استطاع العثور عليها في البلاد كلّها. ولمّا تناهى إلى مسامعه أن رئيس معماريّيه الملكيّ عمد إلى تقصير طول تلك الأعمدة من دون أن يُطلَب منه ذلك، استشاط غضبه، واتّهم المعمار بتعطيل مشروعه عمدًا. حاول المعمار المسكين أن يوضّح للسّلطان قائلًا إِنّ إسطنبول مدينة تكثر فيها الزلازل، وأنّ عليه أن يأخذ جانب الأمان في الاعتبار. لهذا السّبب، رأى تقصير الأعمدة حتّى يصبح البناء أشدّ قوّة وتماسكًا. بيد أنّ الفاتح لم ترقه الإجابة، فزجّ بالمعمار في أسوإ سجن، حيث قُطعت فيه يداه، وضُرب من بعد ذلك ضربًا مبرحًا حتّى وافاه الآجل. لقد قضى هذا الحرفيّ الموهوب في البلاد العثمانيّة نحبه وحيدًا ومعذّبًا في زنزانة سجن قريب من البحر. وكلّ من يشكّ في هذه القصّة، يمكنه الذّهاب إلى هناك ويقرأها على بلاطة قبره.

ارتجفت شفة جَهان السّفلى، إذْ كان يعتقد حتّى تلك اللّحظة أن

Twitter: @ketab_n

اللّصوص والملحدين هم الّذين يعيشون على حافّة الخطر، لكنّه يرى الآن أنّ الحرفيّين الشّرفاء أنفسهم معلّقون بأوهى الخيوط الكتّانيّة الرّفيعة. فإذا ما انزعج السّلطان، فإنّه سيرسلهم إلى المشنقة. كيف يمكن المرء أن يشتغل تحت مثل هذا الضّغط؟!

وضع سنان يده على كتفه وهو يراقبه.

ـ الموهبة نعمة مِنَ السّماء، وعلى المرء أن يعمل بجدٍّ إذا أراد لها أن تكتمل، وهذا ما يتعيّن علينا عمله.

ـ لكن ألست خائفًا. . .

ـ إنّني أخاف غضب السّلطان قدر ما تخافه أنت يا بنيّ. ولكن، على الرّغم من ذلك، فإنَّ خوفي ليس هو سبب اندفاعي في العمل. هل ينبغي لي أن أعمل أقلّ إذا لم يكن ثمّة أمل بالحصول على مكافأة أو خوف من العقاب؟ لا أظنّ ذلك. إنّني أعمل ليكون عملي شرف النّعمة الإلهيّة، وإنّ كلّ حرفيّ وكلّ فنّان يعقد ميثاقًا مع الله يدخل المحترف بهذه النّعمة. فهل فعلت ذلك؟

تجهّم وجه جَهان، وقال: إنّني لا أفهمك.

قال سنان: دعْني أخبرْك بسرٍّ. تحت كلّ مبنى نشيِّده ـ كبيرًا كان أم صغيرًا ـ يكمن مركز الكون تحت الأسس. تخيّل ذلك. وعندذاك، تجد نفسك وأنت تعمل بجدٍّ وحبّ.

زمّ جَهان شفتيه، وقال: لا أفهم ما تعني بكلامك.

قال سنان: سوف تفهم. العمارة حوار مع الله. ولا يتكلّم الله بأعلى صوته إلّا في المركز.

حيَّر كلام سنان لبّ جَهان، فقال: أين هذا المكان أيّها المعلِّم؟

لكنْ، قبل أن يجيب سنان، جاء جبرائيل الثّلجيّ يعدو، ممتقع الوجه، وقال: قُضي علينا يا مولاي. إن الشّحنة. . .

Twitter: @ketab_n

كانوا ينتظرون على مدى أسابيع شحنة رخام من الإسكندريّة. ووصلت السّفينة في نهاية الأمر، لكن من دون الحمولة الباهظة التّكاليف. وعندما سُئل القبطان عن السّبب، ردّ بأنّ عاصفة باغتتهم وكانت رهيبة إلى الحدّ الّذي دفعهم إلى التّخلّي عن نصف الإرساليّة. لم يصدِّقه أحد، ولكن لم يستطع أحدٌ أن يثبت العكس أيضًا. لهذا، بات سنان مضطرًّا لإحداث تغييرات في التّصميم وتقليص عدد الأعمدة. أما السّلطان سليمان، فقد ازداد نفاد صبره بمرور الأيّام وهو في قصره لأن المسجد الّذي كان مقرّرًا أن يحمل اسمه تأخّر عن موعده. في هذه الأثناء، ظلّت الأعمدة البهيّة المخصّصة لمسجد السّليمانيّة راقدة في قعر البحر الأحمر، قلاعًا للأسماك.

Twitter: @ketab_n

ـ أين أنت أيّها المروِّض؟

هرع جَهان من داخل السّقيفة وحبس أنفاسه عندما رآها أمامه مرتدية ثيابها الحريريّة المألوفة ذات اللّون الأزرق الغامق، وكانت وحدها هذه المرّة. رمقته بنظرة بالغة الرّقّة جعلته يرتجف قليلًا. فقال لها وهو يجثو على ركبتيه: لقد تشرّفنا بزيارتك.

قالت: لديَّ خبر يخصّ الفيل، ثمّ توقّفت هنيهة، واغتبطت وهي تراه يتلوّى حبًّا للاستطلاع، وأردفت: لقد أحضر سفير النّمسا رسّامًا إلى البلاط، وقد تناهى إلى سمعي أنّه رجل طموح، وطلبا الإذن من أبي لرسم الحيوان.

ـ وماذا قال سلطاننا النّبيل؟

ـ حسنًا، كاد يرفض، لكنّه غيّر رأيه بعد أن كلّمته، وأقنعته بأنّ الرّسم سيكون جميلًا. المعتاد في بلاط ملوك وملكات الفرنجة أن يكون لهم أشباه، حتّى التّجّار الوضيعين يفعلون الشّيء نفسه! ثم أضافت برقّة: والسّيّدات أيضًا، تخيّل ذلك.

سأل جَهان بحذرٍ وهو يتنبَّه لمسحة الحنين في صوتها: وهل يروقك يا صاحبة السّموّ أن يكون لك رسم يشبهك؟

قالت: يا له من سؤال غبي! ينبغي لك أن تعلم أن هذا مستحيل.

اعتذر جَهان مذعورًا، لا يدري ما إذا كان قد تجاوز حدوده، أم إنّه اكتشف معلومة لا ينبغي له أن يمتلكها. كم تمنّى لو استطاع أن يخبرها بأنّه نحت كلّ بوصة من وجهها في ذلك المكان الواسع الّذي لا نهاية له في عقله، بحيث إنّه كلّما أغمض عينيه، رآها أمامه، تتحدّث وتعقد

Twitter: @ketab_n

حاجبيها وتضحك، فيبدو وجهها الذي يشبه القمر بمختلف أطيافه!

قال جَهان بعد أن لَمَّ أطراف شجاعته: لست رسّامًا، ولكن يمكنني أن أضع تخطيطًا لك يا صاحبة السّموّ، ولن يعرف أحد بذلك.

قالت متسائلة: هل تحاول أن تقول لي إنّك سوف ترسم وجهي من دون أن تخجل وتتوقّع منّي أن أكون سعيدة به؟

لم يستطع جَهان أن يستدلّ من نبرتها إنْ كانت فرحة أم هازئة به، لكنّ فكرة مشاركتهما سرًّا من الأسرار كانت غاية في اللّذّة، فلم يستطع إلّا أن يصدِّقها.

اقتربت منه خطوة أكثر، وقالت: لماذا ينبغي لي أن أسمح بمثل هذه الإساءة؟

قال جَهان بصوت راح يرتعش الآن: لأنّ ما من أحد يراك يا صاحبة السّموّ مثلما أراك أنا.

أغمض عينيه منتظرًا العقاب المحتوم، غير أن مِهرماه بقيت، ويا للغرابة، صامتة!

كان بوسبك سفير النّمسا رجلًا فضوليًّا، وفي كلّ مرّة كان يأتي فيها إلى القصر مدعوًّا ليناقش شؤون الدّولة، يطلب اصطحابه إلى مأوى الحيوانات لمشاهدتها في وقت لاحق. كان حبّه واهتمامه بالحيوانات قد جعلاه يملأ حديقة السّفارة بأكبر عدد أمكنه الحصول عليه منها. وكان أهل المنطقة يطلقون على حديقته سفينة نوح، لأنّه كان يحتفظ فيها بالأيائل المسطّحة القرون وبنات عرس والسّمامر والوشق والعقبان والقرود والزّواحف ذات الأسماء الغريبة والغزلان والبغال، ودبّ

Twitter: @ketab_n

وذئب، فضلًا عن خنزير، ما يجعل الخدم المسلمين يصابون بالهلع. وكانت الحيوانات المفضّلة لديه هي النّمور وشوتا.

كان بوسبك هو الّذي عرّف ملكيور لوريكس بالبلاط العثمانيّ. ومنذ وصوله إلى البلاد العثمانيّة، كان الرّسام قد رسم لوحات للانكشاريّين وبنادقهم، والجمال وطبول الحرب والحمّالين المكبّين فوق أحمالهم أو الآثار القديمة على قارعة الطّرق. وكان يتمنّى أمنيتين أخريين: أن يرسم نساء عثمانيّات مرتديات ثيابهنّ التّقليديّة مع اليشماغ وأن يرسم فيل السّلطان سليمان. وبعد أن تلقّى موافقة السّلطان على المضي قدمًا في تحقيق رغبته الثّانية، تغيّرت حياة جَهان وشوتا، إذْ كان المروِّض يأتي بالفيل مرّتين في الأسبوع إلى مقرّ إقامة السّفير.

كان بوسبك يؤمن بأنّ في الحياة نعمتين: الكتب والأصدقاء، وعلى المرء أن يمتلك هذين الشّيئين على نحو مختلف: أكبر عدد من الكتب وقلّة قليلة من الأصدقاء. ولمّا أدرك أن جَهان ليس بذلك المروِّض الجاهل الّذي كان يظنّه، فإنّه راح يتجاذب معه أطراف الحديث، حديث الأجنبيّ للأجنبيّ.

قال بوسبك: الأتراك يحترمون الورق احترامًا كبيرًا. وإذا ما رأوا ورقة على الأرض، يلتقطونها ويضعونها في مكان عالٍ كي لا يدوس عليها أحد. لكن أليس ثمّة غرابة في أنّهم لا يهتمّون بالكتب بينما يحترمون الورق؟!

قال جَهان: معلّمي يحترم الكتب.

قال بوسبك: نعم، وسوف ندعو كي ينعم بالصّحّة والعافية. ثمّة أمر آخر غريب اكتشفته وهو أنّ الأتراك لا يفقهون شيئًا في التّسلسل الزّمنيّ. وهذا هو الشّيء الأوّل الّذي ينبغي لمن هو أجنبيّ أن يتعلّمه في هذه البلاد. إنّهم يخلطون الأحداث التّاريخيّة. اليوم يعقب الغد، والغد قد يأتي قبل الأمس!

Twitter: @ketab_n

وهنا سمع جَهان شيئًا غريبًا، ثمّة فيل في بلاط الملك، واسمه سليمان!

أكّد بوسبك قائلًا: ليس في الأمر أيّ إهانة، بل علامة تدلّ على الاحترام.

بينما كان جَهان يصغي إلى حديث بوسبك عن الحيوانات وأساليبها، اصطحب ملكيور شوتا إلى الحديقة وكان يرتدي رداءً زنجاريّ اللّون وتلوح من عينيه نظرة عميقة وقويّة. وعلى الرّغم من تحفُّظات جَهان، إلّا أنّ الرّسّام أصرّ على أن يقف الفيل تحت شجرة آكاسيا. بدا رجلًا طيّبًا وموهوبًا، وإن كان يميل إلى الاعتداد بنفسه أكثر ممّا ينبغي، شأنه في ذلك شأن الفنّانين. وكان قد اختار مهنته على الرّغم من اعتراض أبويه، وكان عاقد الحاجبين على الدّوام، كأنّ ثمّة مَنْ يخاصمهما في عقله. وما إن جعل الفيل يقف في مكانه ويضع حامل اللّوحة قبالته، حتّى مدّ شوتا خرطومه وقبض على غصن.

صرخ ملكيور: قف! ثمّ التفت إلى المروِّض بعد أن رأى قلّة تأثير كلمته في الفيل، وقال: هل يتضوّر الفيل جوعًا؟

ردّ جَهان: لا، لقد تناول إفطارًا مشبعًا.

ـ لماذا يأكل الأغصان إذًا؟

ـ إنّه حيوان يا سيّدي.

رمق ملكيور جَهان بنظرة فاترة، وحاول أن يخمِّن ما إذا كان يهزأ به، وقال: أطعمه طعامًا أفضل عندما تأتي به إلى هنا مجدّدًا.

امتثل جَهان للأمر، إذْ كان شوتا يأكل ضعف الكمّيّة الّتي يتناولها صباحًا. وعندما وصل إلى بيت السّفير، راح يلتهم أوراق شجرة الآكاسيا. وبعد محاولات عدّة، وافق الفنّان على تغيير إطار المشهد، واستبدله بمشهد في شارع متعرِّج وهادئ يضمّ بيوتًا مهلهلة، وراح

Twitter: @ketab_n

بوسبك يراقبهما من نافذة منزله في الدّور العلويّ. كانت العلاقات بين الإمبراطوريّتين قد تدهورت تدهورًا سريعًا، وأصبح السّفير تحت الإقامة الجبريّة. وفي حين كان ملكيور منهمكًا برفقة الفيل، فإنّ جَهان رافق السّفير مستفيدًا من معرفته الواسعة بالأزهار والأعشاب.

بعد شهرين، فرغ ملكيور من رسم لوحة شوتا، ودعا بوسبك عددًا مِنَ الضّيوف للاحتفال بذلك. باشوات ووزراء ومبعوثون. واستبدّت الدّهشة بجَهان وهو يرى النّاس يأتون لزيارة الوزير من دون تردّد على الرّغم من أنّه كان ممنوعًا من الخروج. كانت حاملة اللّوحة مغطّاة بقماش أبيض سميك، في ركن من الأركان حتّى تحين الفرصة لإزاحة الستارة عن اللّوحة. وكان ملكيور يلبس رداءً من المخمل الأزرق ويبتسم بابتهاج. وتساءل جَهان، وإن لم يكن تساؤله المرّة الأولى، ما إذا كان كلّ الفنّانين من هذا النّمط. يزدهون بأقلّ مديح. كان شوتا في الطّرف الأقصى من الحديقة، إذْ أصرَّ الفنّان على أن يكون الفيل جزءًا من الاحتفال، فعمد جَهان إلى ربطه بشجرة بلّوط معمّرة لمنعه من دهس أيّ شخص.

قبل مضي وقت طويل، أعلن السّفير أنّ الوقت حان لإزاحة السّتارة عن اللّوحة، فسادت همهمة وراح الجمهور يقترب. ولما لم تكن الصّورة لبشر، فإنّ المسلمين الورعين أنفسهم استبدّ بهم حبّ الفضول لمشاهدتها. أُزيحتِ السّتارة، فشاهد جَهان وراءها أبشع صورة تراها عيناه.

فشوتا الظّاهر في اللّوحة لم يكن يشبه شوتا، خرطومه أطول، ونابا أشدّ مضاءً، تعلو وجهه نظرة هائجة كأنّه يوشك أن يقفز خارج إطار اللّوحة ويهاجم. كانت البيوت والشّارع والسّماء بالغة الدّقّة حتّى يخيّل للرّائي أنّ في الإمكان لمسها. كان الدّفء يشيع من اللّوحة، فصفّق الحاضرون معجبين، وكافأ بوسبك الفنّان بكيس نقود، كما منح

Twitter: @ketab_n

جَهان مبلغًا من المال وشكره على ما قدّم من عون في إخراج هذا العمل الفنّيّ وخلقه. كما عانق ملكيور الفتى ورائحة العرق تنبعث منه.

بعد مضي ساعة من الزّمان، توقّف جَهان أمام اللّوحة وهو مستعدّ للانصراف. في تلك اللّحظة، رأى مذعورًا أنّ الجزء الأعلى من اللّوحة مفقود. ففي ذلك الجزء الّذي كانت فيه ثمّة سحابة قبل لحظات، وجد ثقبًا كبيرًا، فالتفت إلى شوتا وقلبه يخفق خفقانًا شديدًا. كان حبل الفيل مقطوعًا، وتلاشت كلّ شكوكه عن ارتكاب شوتا هذا الذنب عندما رأى لطخة من لون أزرق على أحد نابيه. غادر جَهان مقرّ إقامة السّفير وهو يجذب لجام شوتا من دون أن ينبس بكلمة، وأغلق البوابة خلفهما ليستقبلهما نسيم المساء. ولم يلتق جَهان ميلكيور مجدّدًا، اذْ تناهى إلى مسامعه ان الرسّام عاد إلى بلده وذاع صيته بمجموعة لوحاته الشّرقيّة على الرّغم من أنّ لوحة الفيل الأبيض للسّلطان سليمان لم تكن من بين تلك اللّوحات.

Twitter: @ketab_n

بحلول الوقت الّذي أشرف فيه سنان وتلاميذه على الانتهاء من تشيّيد مسجد السّليمانيّة، ازدادت وطأة داء النّقرس على السّلطان فتورّمت ساقاه وخرج منهما القيح، ما اضطرّه للفّهما بالشّاش. كانت يداه ملطّختين بدماء أولئك الأعزّاء على قلبه - صدره الأعظم والأوّل إبراهيم وابنه الأكبر مصطفى، وكان كلاهما قرّة عينه، لكنّهما أُعدما الواحد تلو الآخر بأمر من السّلطان. كانت إسطنبول تغلي بالدّسائس والمؤامرات.

ظنّ جَهان أنّه لن يسمع أيّ خبر من السّلطان مدّة منَ الزّمان، لكنّه كان مخطئًا. فعلى الرّغم من حزنه ومرضه، واظب على إرسال الرّسائل، وكانت نبرته فيها مقتضبة ومتضايقة. وفي يوم من الأيّام، جاء إلى موقع العمل مجدّدًا، متألّمًا مقطّب الجبين، عابس الوجه. واختلس نظرة خاطفة إلى المسجد الّذي لم يكتمل إلّا بناء نصفه، كأنّه غير مرئيّ. وصرخ بسنان وهو على ظهر فرسه: لقد مضى وقت أطول ممّا ينبغي أيّها المعمار، وقد بدأت أفقد صبري.

قال سنان: أؤكّد لجلالتكم أنّني سوف أنتهي من بناء المسجد بإذن الله.

ـ كم يتطّلب ذلك من الوقت؟

ـ شهرين يا مولاي.

حدّق السّلطان إلى الموقع بعينين ثاقبتين، وقال: شهران لا بأس. من دون زيادة يوم واحد. وإذا لم أتسلّم المفتاح في ذلك الوقت، فسوف نتحدّث مجدّدًا.

تبادل العمّال نظرات قلقة على أثر انصرافه، من دون أن يعرف أحدٌ

Twitter: @ketab_n

كيف يمكن تلبية مطلبه في مثل هذا الوقت القصير. وغلى الاستياء والقلق غليان اليخنة في قدر، وبدأوا يتكلّمون عن ترك العمل بعد أن ساورهم الخوف والاضطراب من أن يعاقبهم السّلطان في نهاية موعد الشّهرين.

ذات يوم، وبينما كانت الأمور تخرج من اليد على نحو مضطرد، طلب سنان من جَهان أن يساعده في ارتقاء الهودج، بعد أن قرّر إلقاء كلمة ـ من فوق الفيل.

ـ أيّها الإخوة، ثمّة بعوضة تطير هذا الصّباح. هل لاحظتموها؟

لم يجب أحد.

ـ فكّرت، لو كنت أصغر مخلوق وكان في وسعي أن أحطّ على كتف كلّ رجل، وأن أصغي إلى الأصوات المتردّدة في رأسه، فماذا كنت سأسمع؟

تململ الحشد قليلًا.

ـ أعتقد أنّني سأسمع قلقًا. بعضكم يساوره القلق والاستياء، فإذا لم نكمل المسجد في الوقت المحدّد، فسوف نقع في ورطة، لكن تأكّدوا أنّ هذا لن يحدث. فلن تسوء حالة أيّ منكم... باستثنائي.

سأل أحد العمّال من دون أن يكشف عن وجهه: كيف نعرف أنّ رؤوسنا لن تتدحرج بعد رأسك؟

وسرعان ما ندّت همهمة تنمّ عن الموافقة على كلامه.

ـ استمعوا إليَّ حتّى أفرغ من كلامي. كان هذا المكان حقلًا مجرّدًا، وبعملنا شيّدنا مسجدًا له حرمته حجرًا فوق حجر. وظللنا نكدح في العمل صيفًا وشتاءً، وكان أحدكم يرى الآخر أكثر ممّا يرى زوجته وأولاده.

انتشر الهمس في أرجاء الموقع.

ـ سوف يأتي النّاس إلى هذه المنطقة بعد موتنا، ولن يعرفوا

Twitter: @ketab_n

أسماءنا، لكنّهم سيرون منجزنا. وسوف يتذكّروننا.

صاح أحدهم: أهذا هو رأيك!

قال سنان متلعثمًا: إذا فشلت، فسوف أفشل بمفردي، ولكن إذا نجحت فسوف ننجح كلّنا.

قال آخر بجرأة: يظنّنا أغبياء.

لم يصدِّقوه. فالرّجل الّذي أطاعوه واحترموه طوال هذا الوقت بان الآن شخصًا يعرِّض حياتهم للخطر.

أخيرًا قال سنان: أيها الإخوة، أرى أنّني غير قادر على إقناعكم، وسوف أكتب كلّ ما قلته واختم عليه بالشّمع. فإذا ما حدث شيء ما، سلّموا رسالتي إلى مولانا السّلطان. وسوف نوزّع الإكراميّة مكافأة على ثقتكم.

كان صمتهم علامة رضى. هكذا كتب سنان بخطّه الأنيق أنّه الشّخص الوحيد المسؤول عن أيّ إخفاقات تخصّ مسجد السّليمانيّة. أمّا النّجاح، فهو من عند الله ـ ومن بعده العمّال ـ ووقّع الرّسالة وختمها ودفنها خارج الأسوار. فإذا ما حدثت مشكلة ما، فإنّهم يعرفون جميعًا مكانها.

لم يتأخّر أحد عن الحضور في صباح اليوم التّالي، إذْ تمّ توزيع الإكراميّة، واستطاع جَهان أن يستفيد من الفوضى والاضطراب، فاختلس خمسين قطعة نقد من الخزينة، وأسكت الصّوت الّذي كان ينوء بالذّنب داخله بأن ذكَّر نفسه بأنّه لم يسرق من معلِّمه وإنّما منَ السّلطان الّذي يملك مالًا كثيرًا.

بدأ العمل من حيث كانوا قد انتهوا وواصلوا العمل إلى ساعات متأخّرة، وجيء بالعشرات من العمّال، وطلب من كلّ قاطع حجارة عاطل من العمل في المدينة أن ينضمّ إليهم، وكذلك كلّ نقّاش ونحّات ومصمّم. وفي اللّحظة الّتي كان يشعر فيها كلّ واحد بأنّه سوف يتجمّد

Twitter: @ketab_n

من الخوف، كان سنان يقيم الدّنيا ويقعدها، وكانت حماسته شديدة العدوى، إذْ بذل تلاميذه جهودهم القصوى عندما رأوه لا يدّخر وسعًا في العمل. وازدادت الكلفة ازديادًا كبيرًا، وكلّف مسجد السّليمانيّة خزانة الدّولة ما مجموعه ٥٤,٦٩٧,٥٦٠ أسبرز.

لم يكن ثمّة ملمح واحد لم يفكّر فيه رئيس المعماريّين الملكيّ حتّى في خضمّ كلّ تلك الجلبة. فالبلاط صنع في مشاغل أزنيق وكان زاهي الألوان ـ الشّذريّ والأحمر والأبيض. أمّا خطّ الثّلث الجميل، الّذي كتب به لفظ الجلالة الله ولَفْظَيْ محمّد وعليّ، فكان من إنجاز خطّاط البلاط الملّا حسن. وإذا كان النّاس قد افتتنوا بالزّخرفة والنّقوش الدّاخلية، فإنّ معظمهم أخفق في فهم كيفيّة إدخال الأعمدة في الجدران. ولم يشاهد إلّا عدد قليل من النّاس كيف كانت الجدران الجانبيّة الّتي لا تستند إليها القبّة الكبيرة الكثيرة النّوافذ كي ينفذ الضّوء دافئًا دفء الحليب الّذي يرضعه الطّفل من ثدي أمّه، بل إنّ عددًا أقلّ من النّاس أدرك أنّ كلّ حجارة بارزة داخل المسجد إنما وُضعت على نحو يجعل الأصوات يتردّد صداها في أروقة المسجد، فتسمح بذلك لكلّ مُصَلٍّ بالاستماع إلى الخطب بغض النّظر عن مدى قربه أو بعده عن المكان الّذي يخطب فيه الإمام.

وكانت المصابيح الزّيتيّة الزّجاجيّة والمرايا الكروية العاكسة متدلّية من السّقوف، فضلًا عن بيوض النّعام الدّقيقة والمعرّضة للكسر ذات الرّسوم الّتي تنمّ عن ذوق رفيع، والمزيّنة بشرابات حريريّة، معلّقة كلّها بحلقات حديديّة. وزُرعت مساجد مصغرة من العاج داخل كرات زجاجيّة متدلّية الواحدة بجانب الأخرى، وفي الوسط، ثمّة كرة مذهّبة هائلة الحجم. وعندما تضاء المصابيح بعد الغروب، وتعكس المرايا نورها، يبدو المسجد برمّته كأنّه ابتلع الشّمس. أمّا السّجّاد... فثمّة مئات منها. ففي بيوت لا تُعدُّ ولا تُحصى في القاهرة وكوره، انكبّت

Twitter: @ketab_n

الفتيات من كلّ الأعمار على حياكة سجّاد السّليمانيّة.

كان المسجد هائلًا، قبّته غاية في الرّوعة والأبّهة، قاعته الّتي ترتفع إلى طبقتين غير مألوفة، منائره الأربع تكاد تنفذ إلى السّماء. أمّا الأعمدة الوسطى الأربعة، فكان كلّ واحد منها بظلّة حجريّة وهي مشيّدة بالغرانيت الأحمر، شبّهت بصحابة النّبيّ ـ الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. وكانت كلّ آية قرآنيّة داخل المسجد قد اختارها شيخ الإسلام أبو السّعود. وتذكّرُ الآياتُ المسلمين بالصّلاة خمس مرّات في اليوم وعدم الابتعاد عن معتقدات الجماعة. وفي أوقات الصّراع مع إيران الشّيعيّة، كان الحكّام العثمانيّون يتمسّكون تمسّكًا دقيقًا بالإسلام السّنّي، ويزداد ورعهم أكثر فأكثر حتّى وإن كان سطحيًّا.

كان المسجد مشيّدًا فوق طبقات من الأرض، تحيط به مدرسة ومكتبة ومستشفًى ودكاكين، لهذا فإنّ النّظر إليه من الأسفل يثير الإعجاب. وكانت ثمّة مدرسة وتكيّة للدّراويش وغرف للضّيوف ومطبخ ومخبز وحجرة طعام ومدرسة طبّيّة وخان. وفي الوقت الّذي وضع سنان وتلاميذه الحجر الأخير، لم يعد كلّ شيء كما كان سابقًا، لا المدينة ولا العرش. ففي المدّة الزّمنيّة الّتي تفصل البدء بالعمل والانتهاء منه، كان العالم قد أصبح مكانًا أشدّ حلكة والسّلطان رجلًا أكثر حزنًا. هذه هي حقيقة المباني الضّخمة. فإذا كانت هذه المباني لا تتغيّر، فإنّ النّاس الّذين أصدروا الأوامر ببنائها والذين صمّموها وشيّدوها، ولاحقًا استخدموها، هؤلاء لا يتغيَّرون.

جاء النّاس كلّهم لمشاهدة السّليمانيّة، ذلك المسجد الّذي تفوّق على كلّ المساجد، بمن فيهم السّفراء، وحتّى مبعوث شاه طهماسب،

Twitter: @ketab_n

وإن لم تكن المملكتان قد توصّلتا إلى اتّفاق سلام حقيقيّ، وإنّما هدنة لوقوف العداء بينهما.

قال السّلطان، وقد فاضت عيناه: لقد شيّد لي معماريّ مسجدًا سيظلّ قائمًا إلى يوم الدّينونة.

أجاب سنان: عندما يبعث حلّاج منصور[1] من بين الموتى ليهزّ جبل دامافاند[2] فقد يهزّ الجبل، ولكنّه لن يهزّ قبّتك يا صاحب الجلالة.

أمسك السّلطان بالمفتاح المذهّب بيده وكلّم الحشد: مَنِ الأكثر جدارة بينكم؟ إنّني أريد من هذا الرّجل أن يأخذ المفتاح ويفتح الباب.

جال جَهان ببصره حوله، والتزم الصّمتَ كلّ الّذين كانوا يثيرون الأقاويل من وراء معلّمه، وابتسموا.

قال السّلطان: لا أحد منكم يستحقّ هذا أكثر من رئيس المعماريّين الملكيّ، ثمّ التفت إلى سنان، ومضى يقول: لم تخذلني، وأنا مسرور منك.

---

(١) هكذا أوردت المؤلّفة اسمه والصّحيح الحسين بن منصور أبو مغيث الحلّاج، توفّي ٣٠٩ هـ (٩٢٢ م): فيلسوف من كبار الصّوفيّين الزّهّاد. أصله من البيضاء بفارسَ. عاش في خلوات الصّوفيّة، لا سيما مع الجنيد البغداديّ وسهل التّسيريّ، ثمّ طاف البلدان داعيًا إلى الزّهد. فجال في فارس والهند وما وراء النّهر واستقرّ في بغداد. اتّهم بالزّندقة والقول بالحلول (عند العلماء: عبارة عن اتّحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى آخر كحلول ماء الورد، ويعتقد أصحاب الحلول بأنّ الله حالٌّ في كلّ شيء وفي كلّ جزء من كلّ شيء متّحدًا به حتّى صار يصحّ أن يُطلق على كلّ شيء أنّه الله تغليبًا للّاهوت على النّاس)، فحُكِم عليه وسُجن ثماني سنوات، ثمّ عُذّب وصُلب. أنشأ مذهبًا في التّصوّف وأثار حوله الجدل، فقدّسه البعض وكفّره آخر. له كتب كثيرة لم يبقَ منها إلّا كتاب الطّواسينَ في شرح مذهبه. (المترجم)

(٢) جبل دامافاند Damavand: هو أعلى قمة (٥٧٧٤ م) من جبال البورز شمال إيران. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

تورّد وجه سنان وخفض بصره، ثمّ أمسك المفتاح وفتح البوّابة ودعا السّلطان إلى الدّخول، وأعقبه الآخرون، واحدًا تلو الآخر. وشقّ جَهان طريقه وسط الجمهور الغفير عاقدًا عزمه على أن يستفيد استفادة قصوى من هذا اليوم. كان جَهان محاطًا من كلّ الجهات بأغنى أغنياء الإمبراطوريّة، وكانت المجوهرات واللآلئ تلمع في أصابعهم وأكياس النّقود منتفخة من تحت أرديتهم الأنيقة. وشاهد إلى شماله شخصًا متناسق الجسم، هو أحد قضاة الرّوملّي، يتجاذب أطراف الحديث مع شخص آخر، وثمّة سبّحة ذات لون قرمزيّ غامق تتدلّى من يده، حجارها من الياقوت.

وبينما تقدّم الحشد إلى المدخل، حشر جَهان نفسه قرب الرّجل، ولاحت على وجهه نظرة تنمّ عن ندم كأنّه دُفع دفعًا وسط الحشد.

ـ عفوًا أيّها الأفندي.

عبس القاضي بوجهه، ونظر فوق كتف جَهان، والتفّ مثل دوّامة مع الآخرين وراح يدخل الباب غير منتبه إلى أن الشّابّ سرق سبّحته. تحرّك جَهان في الاتّجاه المعاكس ليتفادى اللّقاء به مجدّدًا، تاركًا الأهالي يتجاوزونه. تنحّى جانبًا وانتظر برهة قبل أن يدخل مسجد السّليمانيّة. في هذه الأثناء، كان معظم الضّيوف قد خرجوا من المسجد وراحوا يتجوّلون في أرجاء المجمّع.

دخل جَهان المسجد وهو يتحسّس الجواهر بأصابعه، لكنّ مزاجه المرح سرعان ما انقلب إلى حزن عندما تذكّر القبطان غاريث الّذي هو في رحلة بحريّة أخرى قد تستغرق شهرين على الأقلّ. وكان يتعيّن على جَهان أن يحتفظ بالغنيمة في مكان آمن حتّى يعطيه إيّاها لدى رجوعه. بيد أنّه فكّر إذا ما كان في وسعه بيع السبّحة وشراء هديّة لمهرماه. ربّما تكون مشطًا مصنوعًا من صدف سلحفاة وعرق اللّؤلؤ. كان يشتغل سرًّا في تخطيطاتها، مرّات ومرّات، لكنّه لم يكن راضيًا عن النّتائج، ولم

Twitter: @ketab_n

يتوقّع أن يكون رسم صورة على ورقة بمثل هذه الصّعوبة، بخاصّة أن الصّورة محفورة في ذهنه على نحو لا يمكن محوه.

خطا جَهان من فوق العتبة، لكّنه توقّف مستغرقًا في تلك الأفكار، إذْ شاهد داخل المسجد قوس قزح غريبًا يتسلّل من الشّبابيك: قرمزيّ وأزرق كوبالتيّ. فجأة تذكّر كيف كان في صباه يستلقي تحت أشجار البتولا ويحدِّق عاليًا كأنّه يبحث عن السّماء. وكان يطمئن نفسه قائلًا إنّ الأشجار سوف تسند السّماء إذا ما هوت. كان من دأبه أن يفعل هذا، لكنّه مرّ في يوم ما بتجربة غريبة. ففي ذلك اليوم، كانت السّماء متوهِّجة الألوان، والسّحب قريبة جدًّا حتّى خيّل إليه أن في وسعه أن يمدّ يده ويداعب إحداها. وبينما كان ينظر إلى أعلى، ذاب لون أوراق الشّجر الأخضر وامتزج بالزّرقة الممتدّة في الأفق. كان ذلك الشّعور الّذي لازمه، على درجة بالغة من الدّهشة حتّى كاد يخنقه وإن لم يستغرق أكثر من رمشة عين، لكنّه على الرّغم من ذلك، لا يزال يتذكّر، بعد كلّ تلك السّنين، طعم تلك النّشوة.

بينما كان يقف الآن معجبًا بالقبّة الّتي شيّدوها على أربعة أعمدة عملاقة، ويراها جديدة تمامًا، وإن كان يشاهدها للمرّة الألف، راوده الإحساس نفسه. لقد امتزجت قبّة المسجد بقبّة السّماء الزّرقاء العالية، فخرَّ على ركبتيه من دون أن يبالي بأنّ كان ثمّة مَنْ يراقبه. اضطجع على السّجّادة مغمض العينين، باسطًا ذراعيه وساقيه، صبيًّا، مجدَّدًا، تحت شجرة البتولا. كان جَهان وحيدًا في المسجد، نقطة في ذلك المدى الواسع، فلم يقدر إلّا على التّفكير في أنّ العالم موقع بناء بالغ الضّخامة. ففي حين كان المعلِّم وتلاميذه يشيِّدون المسجد، كان الكون يصنع مصيرهم، فهو لم يفكِّر قطّ في الله بصفته معماريًّا. النّصارى واليهود والمسلمون والزّرادشتيّون والنّاس على اختلاف معتقداتهم وأديانهم يعيشون تحت القبّة غير المرئيّة نفسها. العمارة منتشرة في كلّ

Twitter: @ketab_n

مكان أمام العين الّتي تقدر على البصر.

هنا، يقف جَهان، أكثر مروِّضي الحيوانات ذكاءً وأكثر التّلاميذ حيرة، في يده سبّحة مسروقة وفي قلبه امتنان يتعذّر الإفصاح عنه، مفعمًا بالتّناقضات والاضطرابات، تحت قبّة مسجد السّليمانيّة البهيّة. الزّمان توقّف عنده، وبدا له أنّه اقترب في تلك اللّحظة، من دون أن يدري، خطوة واحدة من مركز الكون.

Twitter: @ketab_n

كان المعلِّم سنان يرسل تلاميذه والمبتدئين في العمل في مهام غريبة بين وقت وآخر ـ مثل شراء محبرة من السّوق أو البحث بين الآثار عن كنيسة قديمة، وإخباره لدى عودتهم عن سبب تآكل بعض الأجزاء وبقاء الأجزاء الأخرى. كذلك القيام بحفريّات في مختلف التِّلال لمعرفة أنواع التّربة الّتي تحتشد بالدّود أو قضاء يوم مع صانعي آلة النّاي والانتباه إلى مدى بساطة هذه الأداة الموسيقيّة الّتي يمكنها أن تُخرج أصواتًا هائلة. وكان هؤلاء التّلاميذ والمبتدئون يتلقّون التّعليمات لتنفيذ الأوامر على أدقّ صورة، وإن كانت تبدو تافهة. لكنّ الحقّ هو أنّ كلّ واحد من هؤلاء كان يقارن بين مهمّته ومهامّ الآخرين، ليحكم بنفسه وليتذمّر بعد ذلك. ولمّا كان جَهان غير مكلَّف مثلَ هذه المهامّ، فإنّه لم يدخل في المنافسة أصلًا.

لكنّ الأمور تغيّرت في عصر يوم خميس، إذْ كلّفه سنان القيام بمهمّتين بدلًا من مهمّة واحدة كأنّه يريد أن يعوِّض عن الزّمن الضّائع. فكان يتحتّم على جَهان أوّلًا زيارة اثنين من باعة بيض النّعام الجائلين لإخبارهما بأنّ سنان سوف يحتاج قريبًا إلى بضائعهم، ثمّ ينبغي له بعد ذلك أن يذهب إلى بائع كتب ليشتري منه كتابًا. ولم يخبره سنان عن عنوان الكتاب، بل أخبره بأنّه سوف يعرف عنوانه عندما يصل إلى هناك.

رأى جَهان المهمّة الثّانية غريبة، لكنّه لم يعترض، وفكّر في أنّها سهلة، واستعدّ للذّهاب والخروج من الموقع. كان ميّالًا إلى إنجاز مهامّه على جناح السّرعة ومن دون ارتكاب أيّ خطإ أو هفوة حتّى يكلِّفه المعلِّم مهامّ أخرى أكثر خطورة في المرّة المقبلة.

Twitter: @ketab_n

أتاه صوت من ورائه: حسنًا، ما المهمّة؟

عندما استدار جَهان، رأى التّلاميذ الثّلاثة يراقبونه.

ـ آهِ، لا شيء. بيض نعام وكتاب.

سأل نيقولا: كتاب؟ أهو من بائع الكتب في بيره؟

عندما شاهدوا جَهان يُومئ برأسه، بان الوجوم على محيّاهم. قال داؤود: أهنّئك أيّها المبتدئ. إن المعلِّم لا يرسل إلّا من يفضّله إلى المعزة العجوز.

شعر جَهان بوخزة تنمّ عن عدم ارتياح، وإن كان قد سرّه أن يسمع هذا الكلام.

قال نيقولا: لا تكن متواضعًا في المرّة المقبلة، بل أظهر له سعة معرفتك. فهو يروقه ذلك.

ابتسم يوسف موافقًا.

قال داؤود: ولا تنسَ أن تهتف بصوت عالٍ لأنّ سيمون أصمّ مثل قطعة خشب.

شكرهم جَهان على ما قدّموه له من نصح. ولمّا كان يكره إبقاء شوتا تحت رعاية الآخرين، فقد قرّر أن يهتمّ بتوفير طعامه بنفسه، وانطلق قبيل الظّهيرة برفقة جواد ـ كسول ولا يعمل ـ وكيس نقود مخصَّص له، وسارا سيرًا حذرًا باتّجاه انكباني، فمرّا بحقول مزروعة بالعشب الأخضر وبمقابرَ تحفّ بها أشجار السّرو. وعندما وصلا إلى وجهتهما، تقدّم جَهان ناحية رصيف المرفإ، وإن كان الطّريق إليه طويلًا. كان جَهان يستمتع بالذّهاب إلى تلك المنطقة كلّما استطاع إلى ذلك سبيلًا، كأنّه يريد أن يطمئن نفسه بأنّه في حال اسودّت الدّنيا في وجهه، فإنّ في استطاعته أن يثب إلى ظهر أحد المراكب، ويعود إلى بيته الّذي كان يؤمن من صميم فؤاده أنّه ينتظره.

كان المرفأ يحتشد بالأصوات والرّوائح. أصوات الموج والنّوارس

Twitter: @ketab_n

والزّعيق بأوامر تمتزج كلّها بقعقعة السّلاسل وضرب السّياط. كان الهواء عابقًا برائحة أعشاب البحر، بينما هبّت رائحة العرق والبراز من مئات الأجساد الماشية مشيًا متناغمًا - الأسرى المعتقلون على أثر آخر انتصار بحريّ، الأطفال والشّيوخ والنّساء والرّجال الّذين كانت لهم أسماء وأسر خاصّة بهم قبل بضعة أسابيع. كانوا هنا بأجسادهم، لا بعقولهم، وهم مقيّدون بالسّلاسل يجولون بأبصارهم، لكنّهم لا يرون شيئًا. وثب جَهان من على ظهر الجواد وانضمّ إلى حشود النّاس مراقبًا هذا الموكب الكئيب.

كانت القاذورات والأوساخ تغطّيهم جميعًا، من قمّة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، بعضهم يرتدي زيًّا كان سابقًا غاية في الأناقة، عمد إلى ترتيبه على نحو يحفظ له شيئًا من الكرامة. واعتقد جَهان أنّ هؤلاء من النّبلاء. أمّا الآخرون، فكانوا يرتدون ثيابًا مهلهلة يأنف من ارتدائها شحّاذو أيّوب. وبغضّ النّظر عن هويّة كلٍّ منهم ومكانته في حياته السّابقة، فإنّهم باتوا اليوم خاضعين للسّوط الّذي كان يهبط عليهم هبوطًا عشوائيًّا لا لكي يسرعوا في إيقاعهم قدر ما يوقظهم من أحلام يقظتهم الّتي قد يكونون لجأوا إليها ملاذًا في لحظة عابرة.

وثب جَهان مرّة أخرى إلى صهوة جواده وانطلق ناحية السّوق، حيث تحدّث إلى عدد من التّجّار واشترى بضعة أشياء، منها بيض النّعام. وأخبرهم بأنّ سنان سوف يحتاج إليها وأنّه استخدمها لإبعاد العناكب، ولمنع تكوّن بيوتها في المساجد. فإذا ما حدث ثقب في كلّ بيضة من البيوض وهي معلّقة في السّقف، فإنّها سوف تبعث رائحة كريهة قد لا تزعج البشر، لكنّها بالتّأكيد سوف تبعد كلّ أنواع الحشرات.

استمع الباعة الجائلون إليه، ولكن عندما استفسر جَهان منهم إن كان من شأن البيض أن يكون جاهزًا بعد شهر، فإنّ كلّ ما قالوه له هو إن شاء الله. لم يكن جَهان متأكّدًا من أنّه فرغ من مهمّته الأولى لذلك مضى في سبيله من أجل المهمّة الثّانية.

Twitter: @ketab_n

عندما وصل جَهان إلى محلّ بيع الكتب، وهو منزل خشبيّ مؤلّف من طبقتين كانت حاله سابقًا أفضل ممّا هي عليه الآن، بدا الجواد سعيدًا ومرتاحًا كي يتخلّص منه مثلما ارتاح هو بتخلّصه من الجواد. وهنا تذكّر ما قاله له التّلاميذ الثّلاثة، فطرق على الباب طرقًا عنيفًا، ففُتح الباب وظهر من ورائه رجل يترنّح من كبر سنّه وبدا عليه الغضب.

ـ هل تريد أن تكسر بابي، أم ماذا؟

ـ السّلام عليكم. لقد أرسلني. . .

ـ لماذا تصرخ؟ أتظنّني أطرش أيّها الأهبل؟

ارتبك جَهان وتلعثم، وقال: لا أيّها الأفندي.

سأل بائع الكتب بخشونة: من أرسلك إلى هنا؟

هدأت ملامحه عندما سمع اسم سنان.

ـ ادخل إذًا.

غمرتهما رائحة خبز طازج كأنّها دثار. ثمّة امرأة جالسة في ركن من الأركان، هزيلة وعجوز، محنيّة الظّهر من أشغال خياطتها.

قال سيمون: هذه زوجتي إيستر. أرجو ألّا نقلق راحتها.

سارا على امتداد أروقة مظلمة تكثر فيها التّيّارات الهوائيّة. كان البيت متاهة حقًّا، وفيه رفوف صُفّت عليها مجلّدات الكتب، الواحد بجانب الآخر، بأغلفة جلديّة، معظمها بتدرّجات اللّونين البنّيّ والأسود، بعضها سرقه لصوص البحر من جزر نائية أو مرافئ أو من مراكب عدوّ. ولمّا كان كلاب البحر يعرفون ولع سيمون بمثل هذه الأشياء، فقد راحوا يأتون بها إليه لقاء مبلغ محترم من المال. وثمة كتب أخرى جُمعت من ممالك الفرنجة ومنها بحوث طبّيّة ألّفها أطبّاء إسبان، ومجلّدات من تأليف نبلاء فرنسيين. وثمّة قسم آخر من الكتب طبع في إسطنبول أو سالونيك. أمّا اليهود الشّرقيّون، فكانوا يطبعون كتبهم بأنفسهم بإذن من السّلطان. وفي ركن من الأركان، ثمّة خلاصة عن مخطوطات في

Twitter: @ketab_n

الرّياضيّات، عرف جَهان أنّها كانت في ما مضى، مُلْك عالم يُدعى ملّا لطفي، ورسوم تمثّل رياحًا وتيّارات هوائيّة ونجومًا وأجرامًا سماويّة، كلّها مثبتة على حافّات كلّ صفحة. يضاف إلى ذلك، كتاب وصل حديثًا من إسبانيا بعنوان كتاب الفارس ظفار، ومجموعة من النّقوش لأنطونيو دا سانغالو، وبحث بعنوان بحث عامّ في العمارة لمؤلّفه سيباستيانو سيرليو وهو معماريّ تحدّر من مدينة بولونيا الإيطالية، ومخطوطة موشّاة الحواشي بالذّهب ومكتوبة باللّاتينية بعنوان العمارة لمؤلّفها فيتروفيوس، وقد عُثر على هذه المخطوطة الأخيرة إبّان فتح بودا وانتهى بها المطاف إلى إسطنبول. وثمّة كرّاس لمؤلّفه ليون باتيستا ألبرتي بعنوان البناء، ترجمه سيمون بعنوان فنّ البناء، ومجلّد ضخم لرجل يحمل اسمًا محيّرًا هو ابن ميمون وعنوانه «دلالة الحائرين»، وقد رأى جَهان أنّ هذا العنوان يلائمه تمامًا.

وصلا إلى حجرة معتمة وواسعة في الجانب الخلفيّ من المنزل، وفي وسطها خزانة تحتوي على عشرات الأدراج، وأبوابها رائعة في نقوشها الدّقيقة. وهنا أشار سيمون إلى الفتى كي يجلس على الكرسيّ الوحيد في الحجرة.

ـ كيف حال معلّمك، فأنا لم أره منذ زمن؟

قال جَهان: إنه يرسل إليك تحيّاته، وطلب منّي أن أختار له كتابًا، لكنّه لم يقل أيّ كتاب.

ـ الأمر سهل، لكنْ قل لي أوّلًا، وبصراحة، هل أنت متعلّم؟

رشقه جَهان بنظرة تنمّ عن دهشته، وقال: إنّني أدرس في مدرسة القصر، و...

ـ أنا لم أسألك إن كنت طالبًا، بل سألتك هل أنت متعلّم؟ ليس كلّ من هو تلميذ بمتعلّم.

تذكّر جَهان نصحية نيقولا، فقرّر أنّ هذه هي اللّحظة المناسبة

Twitter: @ketab_n

للوقوف في وجه هذا الرّجل الشّكس.

ـ إنّ العمل في مواقع البناء طوال النّهار، يجعل المرء يتعلَّم سواء أراد ذلك أم لم يُرد.

بدت على وجه سيمون أمارات تدلّ على استخفافه واستصغاره، وقال: ينبغي لمولانا السّلطان - رحمه الله - أن يفرض ضريبة على الغباء، وإذا ما استطاع أن يجمع قطعة نقد واحدة عن كلّ كلمة غبيّة يتفوّه بها الفرد، فإنّ خزانته ستمتلئ بالمال.

فجأة، لمعت في رأس جَهان فكرة أنّ زملاءه التّلاميذ قد ضلّلوه. فكلّ ما كان يفعله أو يتفوّه به إنّما كان يساعد في مضايقة الرّجل العجوز واستيائه، فقال برقّةٍ: جاء الآخرون قبلي إلى هذا المكان. صحيح؟

قال سيمون: آه، نعم، كثيرًا ما كانوا يأتون إلى هنا. وأنت محظوظ لأنّك تلميذ رجل مثل سنان. هل أنت مدركٌ حسنَ طالعك؟

أشاح جَهان ببصره جانباً، وساوره شعورٌ بأنّه أشبهُ بدجّال. وفكّر: ترى ما الّذي سيظنّه الرّجل إذا سمع أنّ جَهان كان يحاول السّرقة من مواقع البناء؟ قال ببطء: إنّني أبذل قصارى جهدي أيّها الأفندي.

ـ المعلّمون عظماء، لكنّ الكتب أفضل منهم. فمن يمتلك مكتبة يكون لديه ألف معلّم. يقول نبيّكم: اطلب العلمَ ولو في الصّين. أما نبيّي فيقول: خلقنا الله لأنه أراد أن يكون معروفًا. يظنّ الجاهلون من بني البشر أنّنا خُلقنا ليحارب أحدُنا الآخرَ، ولنشنّ الحروب ولنتزاوج وننجب الأطفال، أي أنّ وظيفتنا هي توسعة حدود معارفنا. هذا هو سبب وجودنا.

وهنا توقّف سيمون هنيهة، ثمّ أضاف: قل لي، هل تكلِّم الله؟

ـ إنّني أصلّي.

ـ لم أسألك إن كنت تصلّي أم لا أيّها الغبيّ! أنت تريد أن تصبح معمارًا، لهذا يتعيّن عليك أن تكلِّم شيئًا ما أكبر منك!

Twitter: @ketab_n

خفض جَهان بصره، وقال: لا أريد أن أزعج الله بقلقي، ولكنّني أكلِّم فيلي. شوتا أكبر منّي وأكثر حكمةً. صحيح أَنَّه صغير السّنّ، لكنّني أعتقد أن عمره كان مئة سنة عندما وُلد.

عندما رفع جَهان رأسه، رأى شيئًا في تحديق الرّجل العجوز لم يره قبل لحظة. مسحة تنمّ عن حسن تقدير وإعجاب.

ـ تبدو مثل روح حنون، لكنّ عقلك مضطرب ومشوَّش، أنت مثل قارب فيه رجلان يجذِّفان في اتّجاهين متعاكسين، وهذا يعني أنّك لم تعثر بعد على صميم فؤادك.

تذكّر جَهان كلمات معلِّمه قبل أيّام، فرجف رجفة خفيفةً لا تدركها العين. أما سيمون فاسترسل: الآن، قل لي. ما أكثر شيء يروقك بناؤه؟

ـ الجسور.

راحت السّماء تمطر. ومن أعماق الرّواق، تناهى إلى المسامع صوتُ حفيفِ صفحة من الورق وهي تُقلب. هل كانت زوجة سيمون مستغرقة في القراءة؟ أم إنّ ثمّة شخصًا آخر في المنزل؟ في تلك اللّحظة، ساور الشّكُّ جَهانَ في أنّ أحد التّلاميذ في البيت، يراقبه ويسترق السّمع من مخبإٍ ما. اختلس نظرة إلى بائع الكتب كأنّما يريد أن يتأكّد، غير أنّ الرّجل كان منشغلًا يفتّش في صندوق، وأخيرًا أخرج مخطوطًا، وقال: انظر! جسر على القرن الذّهبي، من تصميم ليوناردو. لبث جَهان هادئًا، رابط الجأش، إذْ كان قد سمع معلِّمه يذكر هذا الاسم.

ـ كان السّلطان بايزيد قد طلب مساعدته، فأرسل إليه ليوناردو رسومه التّخطيطيّة. أرى أنّ الرّسالة لم تكن متواضعة، إذ قال له إنّ في وسعه بناء الجسر، يُضاف إلى ذلك، أنّه ذكر أنّ في وسعه أن يشيِّد أبنية كثيرة في مدينتنا. جسر متحرِّك على مضيق البوسفور.

فتح سيمون صندوقًا آخر، وكان يحوي مخطّطاتٍ من عمل مايكل

Twitter: @ketab_n

أنجلو، ومعظمها يمثّل قبابًا ـ في البانتيون[1] وكاتدرائيّة فلورانسا وآيا صوفيا. وكان مايكل أنجلو قد عقد العزم على المجيء إلى هنا. هذا ما ذكره في رسائله.

ـ هل راسلته؟

ـ منذ زمن بعيد. كان شابًّا يافعًا، وأنا كنت أيضًا كذلك. كان يريد أن يشتغل في المشرق، فشجّعته، ولم يرفض السّلطان مجيئه، فكنت التّرجمان لهما. أنا وأفراد الرّهبنة الفرنسيسكانيّة، غير أنّني لم أكن متأكّدًا من مساعدتهم لأنّهم لم يرقهم الأتراك.

استغرق سيمون في التّفكير، وأردف: كان يريد أن يبنيَ جسرًا على القرن الذّهبيّ، وكان من شأنه أن يحتوي على مرصدٍ في الدّاخل، ومكتبة، وأن أكون أنا المسؤول عنها.

انساب صوت العجوز مشوبًا بخيبة الأمل إلى أذني جَهان، فسأله: ماذا حدث؟

ـ أقنعوه بأن يعدل عن فكرته. وقالوا له إنّه يُستحسن به أن يموت على يدي البابا من أن يكافئه السّلطان. تلك هي نهاية المشروع. روما هي روما، وإسطنبول هي إسطنبول. لا أحد يتكلّم عن التّقريب بين المدينتين منذ ذلك الوقت.

تنهّد سيمون بوهن: لكنّهم مستمرّون بالمراقبة.

ـ مَنْ أيّها الأفندي؟

ـ عيون روما، تراقب معلّمَك.

شعر جَهان بضيق، وفكّر في السّقالة الّتي هوت والحبال الّتي قُطِعَت. وفكّر في الرّخام الّذي لم يصل إلى موقع العمل. هل ثمّة قوّة

---

(١) البانتيون Pantheon: معبد الآلهة في روما، بناه أغريبا ٢٧ ق.م. يعدّ من روائع الهندسة المعماريّة الرّومانيّة، والبانتيون مدفن الرّجال العظام في باريس. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

خفيّة وراء كلّ هذه الحوادث والمصائب؟ عيون روما. تمالك نفسه، إذْ هاج عقله مجدَّدًا.

في هذه الأثناء، كان الرّجل قد سار ناحية رفٍّ من الرّفوف، وجذب مجلّدًا ضخمًا يحتوي على رسومٍ حيّة أيضًا من أعمال الحفر على الخشب.

ـ ها هو كتابك. قل لمعلِّمك إنّ هذا هو الكتاب الّذي اخترته لك.

لم ينظر جَهان إلى الكتاب، بل ألقى عليه نظرة خاطفة وفتح كيس نقوده، لكنّ بائع الكتب رفض.

ـ احتفظ بنقودك أيّها الشّابّ. تعلَّم اللّغة الإيطاليّة. وإذا كنت أنت رجلَ الجسور، فينبغي لك أن تقدر على الكلام بلغات مختلفة.

خرج جَهان واضعًا الكتاب تحت إبطه، عاجزًا عن الكلام، ليجد جواده في انتظاره. ولم يفطن له أن يلقي نظرة فاحصة على الهديّة، إلّا بعد أن وصل إلى بيت سنان، فوجد أنّ الكتاب هو الكوميديا الإلهيّة لمؤلِّف نبيل يُدعى دانتي.

عندما أَطلع جَهان سنان على الكتاب، افترّ ثغره عن ابتسامة، وقال: يبدو أنّ سيمون أُعجِبَ بك، فقد منحك كتابه المفضَّل.

ـ أخبرني بأنّني خليق بي أن أتعلّم اللّغة الإيطاليّة.

ـ حسنًا، إنّه على حقّ.

ـ لكن، مَنِ الّذي سيعلِّمني؟

ـ لماذا؟ سيمون نفسه هو الّذي سيعلِّمك، وهو الّذي علَّم داؤود ونيقولا ويوسف.

Twitter: @ketab_n

شعر جَهان بالغيرة في قلبه. فهو حتّى اللّحظة، ظلّ معتقدًا أنّ بائع الكتب أُعجِبَ به أكثر ممّا أعجبه الآخرون.

قال سنان: عندما تتمكّن من لغة ما، فذلك يعني أنّك أُعطيت مفتاحًا لقلعة. أمّا ما ستجده داخل المكان، فيعتمد عليك.

أشرق وجه جَهان عن ابتسامة لمّا سمع المقارنة بين صورة دخول قلعة، وجمع الثّروات من داخلها، قال: نعم أيّها المعلّم.

هكذا راح المبتدئ يقضي ساعات طويلة من شبابه في دكّان بائع الكتب الّذي أصبح يومًا فيومًا ملاذه وبيته. ولم يعد غريبًا بين تلك الحيطان، بل وجد نفسه عندما ضاع وسط الكتب. وفي حين راحت معرفته بالإيطاليّة تزداد، أخذ يشغل نفسه باللّاتينية والفرنسيّة. وفي حين تعمّقت معرفته بالرّسم، شقّ طريقه من مبتدئ إلى تلميذ، وفي نهاية الأمر وجد نفسه موضع ترحيب في مكتبة سنان. ثمّة مجموعة أخرى في مقرّ المعماريّين الملكيّين في فيفا. وعلى مدى سنوات، أخذ جَهان يزور المقرّ في مناسبات مختلفة، ولكن ما من شيء كان يمنحه البهجة والغبطة مثل وجوده في بيت سنان، محاطًا برائحة الحبر والجلد والخبز الطازج.

Twitter: @ketab_n

ذرع شوتا المكان جيئة وذهابًا، هادرًا مزمجرًا. كان قد مرّ بمثل هذه الحالة مرّتين قبل الآن، لكنّ هذه الحالة من الجنون كانت تستبدّ به، ثمّ لا تلبث أن تذهب عنه. أمّا الآن، فلم تغادره إلى أيّ مكان. وكان سوء مزاجه وصعوبة السّيطرة عليه قد أثارا خوف الخدم خوفًا شديدًا في ذلك النّهار، ما دفع جَهان إلى تقييده بالسّلاسل. وفي الصّباح، حطّم الحيوان أغلاله واندفع نحو إحدى الأشجار. كانت الغدد على جانبي رأسه تفرز مادّة زيتيّة كريهة الرّائحة علم جَهان أنّها لا تعني سوى شيء واحد وهو أنّه في حالة اهتياج جنسيّ.

كانت محاولة العثور على صديقة لشوتا في إسطنبول مثل تمنّي سقوط الثّلج في شهر آب. بحث جَهان في كلّ مكانٍ، لكن بلا طائل، فحيثما ذهب، أُغلقَتِ الأبواب في وجهه، بعد أن يكون قد اصبح موضع هزء وسخرية. كما أنّ أوليف مدرِّب النمور نفسه لم يعرف ما يفعل هذه المرّة.

عندما جاءت مِهرماه إلى الحديقة بصحبة مربّيتها وطلبت رؤية الفيل، تصبّب جَهان عرقًا، إذْ كان خجله من تفسير سبب عدم إمكانها رؤيته في هذه الحالة شديد الوطأة حتّى كاد يختنق.

ضحكت لذعره وهلعه، ولكن عندما تكلّمت، شاب صوتَها أثرٌ من حزن.

ـ حسنًا، لقد كبر الفيل، ولم يعد ذلك الصّغير الظّريف. إنّ براءة الطّفولة تغادرنا كلّنا في نهاية المطاف.

عقدت الدّهشةُ لسانَ جَهان، ووقف مشدوهًا وقلقًا، ولم يستطع

Twitter: @ketab_n

شيئًا سوى الاعتراض اعتراضًا بسيطًا: إنّ هذا الموسم يأتي ويذهب يا صاحبة السّموّ، وشوتا سيبقى كما كان دائمًا، وإنّني أتوسّل إليك ألّا تتوقّفي عن زيارته.

أشاحت بوجهها غير راغبة في النّظر إليه، وواجهتِ الشّمس، وقالت: هل يمكنك الإمساك بالرّيح أيّها المروِّض؟ هل يمكنك أن تأتي بالقمر؟ ثمّة أشياء لا نستطيع تغييرها. وقد قبلت بهذه الحقيقة، وسوف تقبل بها أنت أيضًا يومًا ما.

راح شوتا ينخر كأنّه سمع الحديث الدّائر، وأراد أن يتدخّل. وأحدث جلبة وضوضاء عاليتين، وجذب سلاسله، ما جعل جَهان لا يستوعب ما قالته مِهرماه.

بعد انصراف مِهرماه ومربّيتها، لمعت في دماغه فكرة، فقد تذكّر الغجر الّذين أنقذوهما من الثّلوج. ألم يقولوا إنّ لديهم فيلًا؟ وعندما أفصح عن أمله أمام بقيّة المروِّضين، هزّوا رؤوسهم قائلين: الغجر يجولون في كلّ مكان طوال السّنة، فكيف يمكنك اقتفاء أثرهم؟

أخيرًا، ساعده المعلّم سنان الّذي لم يمنحه إجازة من العمل فحسب، بل وفّر له عربة ونقودًا فضّيّة، وقال له مبتسمًا: اذهب واعثر على زوجة جميلة للحيوان، واجعله سعيدًا، فالله وحده هو الواحد الأحد.

ركب الاثنان العربة بصمت، الحوذيّ وجَهان، واجتازا بوّابة الرّبيع، يراقبان السّحب وهي تنقلب ورديّة فاتحة بعيدًا في الأفق. واستغرقا ساعات طويلة في العثور على الغجر. أخيرًا شاهدا مجموعة عربات على مسافة بعيدة، وفرشًا ملفوفة وثيابًا منشورة على النّباتات،

Twitter: @ketab_n

ناشرة ألوانًا زاهية في مشهد الطّبيعة الباعث على السّأم. رفض الحوذيّ أن يتقدّم أكثر، إذْ قال إنّه سمع رواياتٍ كثيرة عن هؤلاء الجائلين، ولا رغبة لديه في لقاء أيٍّ واحد منهم، ثمّ أردف: على رسلك. إذا قدّموا لك الشّراب، فارفضه ولا ترشف رشفة واحدة من أيديهم. تذكّرْ أن الشّيطان والجانّ والغجر كلّهم يسرقون روحك.

لوّح جَهان بيده وترجّل من العربة وانطلق مسرعًا باتّجاه المخيّم، يخشى أن يفقد شجاعته إن تردّد أو ارتعش، وراح حذاؤه الثّقيل يطأ الدّرب الموصل إليهم عندما اقترب من مجموعة من الأطفال، يعلو المخاط أفواههم، وهم حفاة. ثمّة امرأة ترضع توأميها، كلّ توأم يرضع من ثدي. ولما ضبطته يحملق في صدرها، حدجته بنظرة ثابتة، فما كان منه إلّا أن أشاح بنظره خجلًا.

اقترب من أحد الأطفال، وقال: هل زعيمكم هنا؟

وقف الطّفل مسمّرًا على قدميه، ما أثار شكوك جَهان في أنّه قد سمعه.

وجاءه صوت أجشّ من الخلف فاجأه ودفعه إلى أن يقشعرّ بدنه خوفًا. ولمّا التفت، شاهد رجلين يرنوان إليه متجهّمَي الوجه.

قال جَهان: أريد رؤية زعيمكما... بالابان.

ـ من أين تعرفه؟

كلّ ما استطاع جَهان قوله هو: لقد... لقد أنقذني في يوم ما.

أرشداه إلى خيمة تحت ظلال من لون نيليّ غامق يحسده عليه طائر أبو زريق. على الجدران، ثمّة سجّاد مزيّن برسوم حيوانات وأزهار، وعلى إحداها صورة النّبيّ إبراهيم ممسكًا بكبش ليضحّي به عوضًا عن ولده. وفي أحد الأركان، وعلى مقربة من موقد، جلست مجموعة من الرّجال يتوسّطها بالابان وحده. قال بالابان: انظروا مَنْ هنا! لماذا جئت؟ قل لي!

Twitter: @ketab_n

ـ إنّني بحاجة إلى مساعدة، لقد فقد فيلي صوابه، وهو راغب في الوداق، وأتذكّر أنّك قلت إنّ لديك أنثى. . .

قبل أن يتمكّن جَهان من إكمال عبارته، أمسك به بالابان من ردائه واستلّ خنجرًا، ووضعه على فكِّه.

ـ أيّها اللّئيم! أيّها الشّقيّ! لديك الجرأة حتّى تطلب منّي أن أكون قوّادًا لك؟ أتريدني أن أسفك دمك هنا أم خارج هذا المكان؟

قال جَهان بصوت يرتعد خوفًا: لا أيّها الأفندي. إنّني لا أضمر أيّ شرّ، إنّه في مصلحة الحيوانين.

دفعه بالابان بعيدًا منه.

ـ وماذا أستفيد أنا؟

ـ إذا حملت فيلتك، فسوف يكون لديك فيلان، وفي وسعك أن تستفيد من كليهما.

فكّر بالابان في هذا الأمر من دون أن يبدي إعجابًا به.

ـ هل من شيء آخر؟

أطلعه جَهان على النّقود الّتي أعطاه إيّاها سنان، لكنّ بالابان قال: هل من شيء آخر؟

قال جَهان عازمًا على أن يسلك دربًا آخر: إنّ هذا الفيل ملك القصر، وإذا لم تساعدْني فسوف يغضب السّلطان غضبًا شديدًا.

ـ هل قلت السّلطان؟

أومأ جَهان برأسه إيماءة رشيقة واثقًا من أنّه تغلّب عليه الآن.

ركل بالابان وسادة فاصطدمت بالجدار، وارتطمت بكبش إبراهيم وارتدّت مجدّدًا.

ـ أيّها الضّفدِعُ البائس. هل هذا هو كرم السّلطان؟ قطعة نقد مثلومة؟

ـ أتوسّل إليك. إنّ سنان المعمار يحتاج الفيل في العمل.

Twitter: @ketab_n

كان الصّمت ثقيلًا لا يُطاق. وبعد لحظة، تبادل الاثنان النّظرات الخاطفة الّتي لم يفقه لها جَهان أيّ معنًى، هزّ بالابان كتفيه.

ـ كولبهار جميلة مثل زهرة اللّوتس، وعليك أن تستحقّ يدها.

سأل جَهان بريبة: ماذا تريد من فيلي أن يفعل؟

ـ ليس فيلك، بل أنت!

حاول جَهان أن يحتفظ بشجاعته، لكنّ صوته خرج متقطّعًا: أنا؟

في هذه الأثناء، جاءت المرأة الّتي كانت منهمكة بإرضاع التّوأمين، حاملة صينيّة عليها مشروبات وعجينة مقليّة مدهونة بسائل كثيف، حلو المذاق.

قال بالابان: خذ لقمة أوّلًا. إنّ من يشاركني خبزي وملحي ليس عدوّي.

تردّد جَهان برهة، ثمّ دفع كرة منَ العجين في فمه، مستطعمًا مذاقها الحلو.

ـ والآن اشرب قليلًا. لا يمكن السّير سيرًا مستقيمًا إذا كان الطّريق متعرّجًا! ولتمُت زوجاتنا إن لم نفرغ من هذه دفعة واحدة!

شرب جَهان السّائل البنّيّ اللّون جرعة واحدة، مثلهم تمامًا. ووضع الكأس على الطّاولة الخشبيّة بضربة قويّة مثلهم، ومثلهم أيضًا، مسح فمه بظاهر كفِّه. على الرّغم من أن طعم الشّراب كان حرّيفًا، حارقًا على امتداد السبيل الموصل إلى معدته، إلّا أنّه كان مبهجًا بهجة تبعث على الدّهشة. أخبروه بتفاصيل مولعة بالمزاج والدّعابة وبجذل صبيانيّ ما كانوا يتحدّونه على فعله.

قال بالابان: القرار قرارك، فإمّا أن تقبل أو ترحل.

قال جَهان بعد صمت قصير وهو لا يدري ما إذا كان كلامه بدافع حبّه لشوتا، أم عناده أم بتأثير الشّراب: حسنًا. أوافق.

خرج الرّجال، تاركين إيّاه برفقة المرأة. وساعدوه على ارتداء ثياب

Twitter: @ketab_n

رقص بوقاحة، تتألّف من سروال أرجوانيّ وقميص مزركش قصير يكشف عن بطنه، ووضعوا مسحوقًا أبيض على وجهه له رائحة الرزّ. ووضعوا الكحل حول عينيه واستخدموا الخنافس المطحونة، حسب قولهم له، لجعل وجنتيه وشفتيه حمراء اللّون. كما استعملوا الحنّاء لتلوين أصابعه باللّون الأحمر، ورشّوا ماء الورد على رقبته. ووضعوا على قمّة رأسه ذيل حصان فاكتسب بذلك شعرًا غريبًا جدًّا.

عاد بالابان ورجاله برفقة عازفي الموسيقى الّذين اتّضح أنّهم لا يستطيعون عزف أيّ لحن من دون أن يضحكوا ضحكًا «خفيفًا مكتومًا»، عزفوا على آلاتهم ونفخوا في أبواقهم قليلًا لينفجر أحدهم بعد ذلك ضاحكًا، فضحك معه الآخرون بجذل وحبور. على الرّغم من ذلك، فقد رقص جَهان، إن كان بالإمكان وصف حركاته المرتبكة رقصًا. راقبه الغجر وهم يعاقرون الخمر ويقهقهون مغتبطين، وعندما حاول أحد الرِّجال أن يعانق جَهان عناقًا لا يخلو من إيماءات فاحشة، ضرب بالابان رأسه بملعقة خشبيّة، وصرخ به: أحسن السّلوك!

من هذه اللّحظة فصاعدًا، راح جَهان يرقص برغبة أشدّ معتقدًا أنّه لو التزم بدوره في الصّفقة، فإنّهم سيلتزمون بدورهم أيضًا. وبعد مرور ساعات، وعندما خرج من الخيمة، مرتديًا ثيابه القديمة، وإن كانت الحنّة لا تزال على يديه والكحل في عينيه، لم يعثر على سائق العربة. لم يهتمّ جَهان للأمر لأنّه غير مضطرّ للعودة سائرًا على قدميه، فأنثى الفيل سوف تنقله إلى دياره.

أَعاد جَهان كلبهار بعد أربعة أيّام واستغرق عصر يوم كامل، ليعثر على الغجر لأنّهم كانوا قد رحلوا إلى منطقة أخرى. حيّته المرأة العجوز الجالسة في إحدى الزّوايا مبتسمة، بيد أنّه تظاهر بعدم ملاحظتها.

Twitter: @ketab_n

هتف صبيّ صغير: عاد الرّاقص!

فندت ضحكة من ورائه، ضحكة بالابان.

قال الزّعيم: أهنّئك! فيلك فقد عذريّته!

قال جَهان مبتسمًا ابتسامةً خجولًا: لقد جعلت كلبهار شوتا أسعد فيل في العالم، ثمّ أضاف مستدركًا استدراكًا جديدًا: لقد فعلتها مجدّدًا يا بالابان. لقد أنقذتني.

Twitter: @ketab_n

كان المعلّم سنان يجمع كلّ يوم أربعاء تلامذته في منزله، ويطلب منهم تصميم مبنًى ـ مجرًى للمياه أو مدرسة أو حمّام. وكان الشّبّان يأخذون هذه الواجبات مأخذًا جادًّا بكلّ ما في الكلمة من معنًى، لأنّها تمثّل فرصة لا لإظهار مواهبهم فحسب، بل للتّفوّق على خصومهم. كان واجبهم أحيانًا مباشرًا مثل رسم كوخ بباب واحد، وفي أحيان أخرى، يكون تمرينًا يتطلّب قدرات أكبر مثل: كيفيّة تقليص عدد الأعمدة في بيت من البيوت من دون التّقليل من قوّته وصلابته، أو كيفيّة استخدام الجصّ استخدامًا أمثل، لأنّه يؤدّي إلى حدوث شروخ قبيحة بعد جفافه وإن كان حسن التّماسك، أو كيفيّة تجميع عدد من القنوات المائيّة المختلفة فوق سطح الأرض وتحتها. وكان يتوقّع منهم معالجة هذه التّمارين بأنفسهم، كما كان يسمح لهم بالمشاركة في تفاصيل الأسلوب الدّقيقة، ولكن من دون أن يشاهد أحدهم تصاميم الآخر، بأيّ حال من الأحوال.

قال سنان: العمارة عمل فريق. أمّا التّلمذة فليست كذلك.

سأل جَهان ذات مرّة: لماذا لا تريد أن يرى أحدنا رسوم الآخرين؟

ـ لأنّكم سوف تعقدون المقارنة، فإذا اعتقدت أنّك أفضل من الآخرين، فسوف يسمِّمك الصّلف والعجرفة. وإذا ما ظننت أن الآخر أفضل، فسوف يسمِّمك الحسد، إنّه السّمّ في الحالتين.

في عصر يوم من تلك الأيّام، كانوا قد فرغوا من رسم صورة مجمع للدّراويش عندما دخل عليهم أحد الخدم، وأعلن أن المعلِّم ينتظرهم في المكتبة. فوضعوا أقلامهم جانبًا وخرجوا من دون أن ينبسوا بكلمة وهم يتحرّقون حشريّةً، ووجدوا المعلّم في الطّبقة العليا وصحائف

Twitter: @ketab_n

الرّقّ مفروشة إلى يمينه وإلى شماله. في وسط الغرفة، ثمّة نموذج خشبيّ على طاولة من خشب البلّوط.

قال سنان: تفضّلوا!

تقدّم الأربعة إلى أمام مرتبكين ومخلوعي الأفئدة.

سأل سنان: أتعرفون ما هذا المبنى؟

رنا داؤود إلى النّموذج عابسًا، وقال: إنّه معبد وثنيّ.

قال نيقولا: القبّة مثار الإعجاب.

سأل جَهان: أين هذا المكان؟

أجاب سنان: في روما.

ثمّ لوّح بيده كأنّ روما خارج النّافذة، وقال إنّه يُدعى سان بييترو، وعندما ينتهي العمل منه، ستكون له أكبر قبّة في العالم المسيحيّ قاطبة، وقد اشتغل بها عدد كبير من المعماريّين، بعضهم بهدف هدم الكنيسة القديمة والبدء بأخرى جديدة، وبعضهم الآخر بهدف إحيائها. وعندما توفّي الرّسام الأخير سانغالو، عُهد إلى مايكل أنجلو، إكماله نزولًا عند رغبة البابا.

شنّف جَهان أذنيه عندما أدرك أنّ الاسم سانغالو كان قد ذكره بائع الكتب.

قال سنان إنّ مايكل أنجلو الّذي تجاوز سن الشّباب في ذلك الوقت لم يكن أمامه سوى خيارين اثنين: إمّا أن يُهملَ التّصاميم المتوافرة أو البناء بموجبها، وكان من شأن قراره ألّا يظهر مواهبه بصفته حرفيًّا فحسب، بل شخصيته أيضًا. تحدّث سنان بحرارة جعلت موجة منَ الحماسة تسري في نفوس التّلاميذ، ولكن على الرّغم من ذلك، ظلّت فكرة عالقة في أذهانهم طوال ذلك الوقت: لماذا يخبرهم المعلّم بهذا كلّه؟

Twitter: @ketab_n

قال سنان بعد أن قرأ ما يجول في خواطرهم بسرعة خاطفة: أريدكم أن تروا سان بيترو، وادرسوا التّصميم، وقارنوا بين ما فعلوه هناك وما نفعله هنا. إذا أردتم التّفوّق في مهنتكم، يتحتّم عليكم دراسة أعمال الآخرين.

استغرقوا لحظة كي يفهموا ثقل جملته، فقال داؤود متلعثمًا: أنت... تريد منّا السّفر إلى بلاد الفرنجة، ومشاهدة الكنائس؟

ـ إنّنا نتبع نصيحة نبيّنا: اطلب العلم ولو في الصّين، ثمّ أخبرهم أنّه تعلّم الشّيء الكثير من أسفاره في بلاد الفرنجة والبلقان والأناضول وسوريا ومصر والعراق، وكذلك شرقًا في القوقاز، وتابع: الحجارة تلبث ساكنة، أمّا المتعلّم فلا.

قال داؤود مجدّدًا: لكن ألا يتعيّن علينا ألّا نعلّمهم، فهم نصارى؟ ثمّ لماذا ينبغي لنا أن نتعلّم من أساليبهم؟

ـ كلّ حرفيّ جيّد هو معلّمك بغض النّظر عن الجهة الآتي منها. إنّ الفنّانين والحرفيّين هم بشر من ديانة واحدة.

بعد أن قال سنان ذلك، أخرج علبتين مخمليّتين، في الأولى دبّوس فضّيّ كبير الحجم، وفي العلبة الثّانية عدسة مقعّرة بحجم تفّاحة.

سأل نيقولا وهو يخفض صوته حتّى بات شديد الخفوت كأنّه يحدّق إلى نوع من أنواع السّحر الأسود: ما هذا؟

قال سنان موضّحًا: موشور، نستخدمه لمراقبة كيفيّة انتقال أشعّة الشّمس داخل المباني، وهو مفيد جدًّا في أيّ كاتدرائيّة.

قال جَهان وهو يضع الدّبّوس على راحة كفّه مثل طائر صغير: وهذا؟

ـ للصّوت. ادخل المباني عندما يكون فيها عدد قليل من النّاس، وارفع الدّبّوس ليكون في مستوى رأسك، ثمّ اتركه يسقط. هل يتلاشى

Twitter: @ketab_n

الصّوت بعد ذلك تمامًا أم أنّه يصل إلى أبعد الزّوايا؟ إذا كان الأمر كذلك، فاسأل نفسك عن كيفيّة تحقيق المعمار هذا الشّيء. هل يمكن المرء أن يجعل الصّوت يجري جريان الماء، إلى أمام وإلى الخلف، رقيقًا وهادئًا؟ إنّ هذا الشّيء يحصل في الكاتدرائيّات من خلال إيجاد شرفة الهمس. اذهب واصغِ، وسوف تسمع كيف تنتقل أوهى الأصوات.

تكلّم سنان بسرعة عاصفة ثلجيّة وهو ما لم يروه فيه من قبلُ، فعيناه تشعّان ووجهه مشرق. وقال ثمّة ثلاث نافورات للحكمة ينبغي لكلّ حرفيّ أن ينهل منها كمّيّات كبيرة وهي الكتب والعمل والطّرق. القراءة والممارسة والسّفر، ثمّ أردف: لسوء الحظّ، لا أستطيع إرسالكم كلّكم دفعة واحدة، لأنّ أمامنا عملًا ينبغي إنجازه، لهذا لا بدّ من أن تقرّروا بأنفسكم من الّذي سيذهب في رحلة أمدها خمسة أسابيع تقريبًا.

اختلس نيقولا وداؤود ويوسف وجَهان النّظرات الخاطفة إلى بعضهم، متخشّبي الأكتاف. واصطدمت رغبتهم في إثارة إعجاب معلّمهم وجسارتهم النّابعة من صميم قلوبهم مع رغبتهم في البقاء في أيّ مكان مألوف لديهم. كان يوسف هو الأوّل الّذي تقدّم إلى أمام وهزّ رأسه، لأنّه لا يريد الذّهاب، ولم تتمالك الدّهشة جَهان من رؤية ذلك لأنّ يوسف كان يرغب في أن يكون قريبًا من المعلّم مثل كوكب صغير يدور في فلك كوكب أكبر.

سأل سنان: ما رأي الآخرين؟

قال جَهان: أنا أيضًا لا يمكنني الذّهاب وإلّا من ذا الّذي سَيَرْعى الفيل؟

لم يكن جَهان صادقًا الصّدق كلّه في عذره، إذْ من السّهل أن يحلّ مروِّضٌ آخرُ محلّه إذا رتّب المعلّم الأمر مع موظّفي القصر، لكن على الرّغم من ذلك، كان شوتا يمثّل واحدًا من مشاغله، وكان يريد أن يبقى

Twitter: @ketab_n

قريبًا من مِهرماه، ففي الآونة الأخيرة، راحت تزور مأوى الحيوانات في أغلب الأحايين، وفي عينيها الجميلتين نظرة مضطربة كأنّها تريد الإفصاح عن شيء ما، لكنّها عاجزة.

قال نيقولا: إنّ والديّ شيخان كبيران ويصعب عليَّ تركهما وحيدين مدّة طويلة.

التفتت الرّؤوس إلى داؤود الّذي قال متنهّدًا: سأذهب أنا أيّها المعلِّم.

أومأ سنان برأسه إيماءة تقدير، وقال من دون أن يوجّه كلامه إلى أيّ واحد منهم تحديدًا: إذا غيّر أيّ واحد منكم رأيه فليخبرْني خلال أيّام قليلة.

في عصر اليوم التّالي، لم تحضر مِهرماه لرؤية الفيل. ولا في اليوم الّذي أعقبه، بل جاءت حسنة خاتون عوضًا عنها حاملة آخر الأخبار من السّراي.

ـ لا تنتظرها. إن أميرتك سوف تتزوّج.

ـ ماذا تقولين يا دادا؟

تشنّج جسمها كلّه فجأة على أثر نوبة ربو ألمّت بها، فأخرجت كيسًا وراحت تتنشّق محتوياته، وانبعثت في الجوّ رائحة أعشاب حادّة.

ـ لا تخاطبْني بكلمة دادا، فهي وحدها الّتي يمكنها مخاطبتي بها.

قال جَهان متجاهلًا التّظاهر بالمجاملات: أخبريني!

فأخبرته. كانت مِهرماه مخطوبة لرستم باشا، وهو رجل في الأربعين من عمره، ولا يقف طموحه عند حدّ. صحيح أنّه لم يكن محبوبًا، لكنّ السّلطان كان يحبّه، وهذا يكفي.

Twitter: @ketab_n

بعد انصراف المربّية، راح جَهان يشتغل على تصميم جديد، وكنس أرضيّة الزّريبة وغسل أحواض المياه ولمّع درع الفيل ووضع الزّيت على جسد شوتا، وأتلف التّصميم الّذي اشتغل عليه وبدأ بتصميم جديد، ودهن حمّالات كلّ باب، وأنجز مخطّطًا آخر، لكنّه أتلفه أيضًا ونسي إطعام شوتا.

كان مأوى المروِّضين تسوده الأقاويل عن الزِّفاف طوال المساء. وفي منتصف اللّيل، لم يعد في وسع جَهان أن يصبر أكثر ممّا صبر فانسلّ خارج المكانِ، خائر القوى، مرهقًا، يعتصر صدره ألمٌ ممضّ لم يسبق له أن عهده، وسار إلى أن وصل إلى الجدران الفاصلة بين المأوى والصّحن الدّاخليّ. وهناك، لم يعرف كيف يتصرّف، لهذا عاد أدراجه مجدّدًا. وصل إلى شجرة اللّيلك الّتي جلست مِهرماه تحتها عندما راح يقصّ عليها قصّة ولادة شوتا ورحلتهما من بلاد هندستان.

تألّقت الشّجرة في الظّلمة كأنّها بوّابة تفضي إلى عالم أفضل. وضع أذنه على جذعها محاولًا أن يسمع ما تحكيه له الأرض. صمت لا غير. صمت عنيد وحقير. اشتدّت الرّيح وازدادت برودة الجوّ، واكتسى المكان كلّه غشاوة حزن، لكنّ جَهان لبث جالسًا في موضعه منتظرًا أن يلفّه برد اللّيل ويصيب أحاسيسه بالخدر. لا فائدة. فلا يزال يحسّ ويشعر، ولا يزال متألِّمًا.

في صباح اليوم التّالي، أرسل رسالة إلى معلِّمه. رسالة قصيرة:

حضرة المعلِّم المحترم.

إذا كنت لا تزال راغبًا في أن أذهب، فإنّه يسعدني أن أرافق داؤود إلى روما.

تلميذك المتواضع

جَهان

Twitter: @ketab_n

روما، المدينة الّتي حُفرت فيها الذِّكريات على المرمر. في اليوم الّذي وصلا فيه إلى المدينة، كانت السّماء تمطر مطرًا خفيفًا ولطيفًا كأنّه يداعب مداعبة رقيقة. خفّفا من سرعة جواديهما وراحا يسيران على غير هدًى مدّة قصيرة. الوجوه غريبة، وكلّ شارع أكثر إرباكًا من سابقه. عبرا جسرًا، وسارا من تحت عقد دائريّ أو مستدقّ الطّرف أو وسط ميدان يحتشد بباعة جائلين وحولهم زبائنهم. لم يعرف جَهان ماذا كان يتوقّع، لكنّ المدينة مترامية الأطراف، تنبض بالحياة على نحو خارج نطاق معرفته. شقّ هو وداؤود طريقهما وسط جموع البشر، متجهِّمَين يسودهما الاضطراب. ولدى بلوغهما آثار منتدًى قديم، توقّفا وحملقا بذهول وهلع، إذْ شاهدا رهبانًا يرتدون أردية سودًا، ومرتزقة يسيرون مَثنى، ومتسوّلين لا يختلفون في مظهرهم عن متسوّلي إسطنبول. وشاهدا نسوة يتقلّدن قلائد عنق، يعبق منهنّ أريج العطر، ولا يبالين في تغطية شعر رؤوسهنّ أو صدورهن. احمرّ وجه داؤود خجلًا، وكان كلّما شاهد امرأة نبيلة منتفخة الرّدنين برفقة وصيفاتها أشاح بصره. أمّا جَهان، فكان يختلس النّظر إليهنّ. وعند العصر، وصلا إلى العنوان الّذي كان بائع الكتب سيمون قد كتبه لهما، وعثرا عليه بيسرٍ وسهولة بعد استفسار من اثنين من المارّة اللّذين أرشداهما، وإن ظلّا يحملقان فيهما، إلى الحيّ اليهوديّ.

كان محلّ ليون بيونديا في روما يشبه شبهًا مدهشًا محلّ سيمون بيونديا في إسطنبول. فالمحلّ هو أساسًا منزل يقع في شارع مرصوف بالحصباء وعديم التّرتيب، بابه خشبيّ قديم، باهت اللّون، وراءه حجرات، واحدة تلو الأخرى، تحتشد كلّها بالكتب والمخطوطات

Twitter: @ketab_n

ويعيش في هذا البيت أيضًا رجل عجوز، كبير الأذنين، كثّ الحاجبين، ولم يكن شكسًا، نكد الطّبع مثل شقيقه.

قال جَهان بالإيطاليّة بعد دخولهما وجلوسهما حول طاولة، وتقديم معجّنات حلوة المذاق باللّوز: يبلغك سيمون سلامه.

ـ كيف حال أخي الصّغير؟

قال جَهان: يعمل ويقرأ ويتذمّر.

انفرجت أساريره، وقال مبتسمًا: لطالما كان سيّئَ الخلق، خشن الكلام.

علّقَ جَهان: يريدك أن تنتقل إلى إسطنبول.

ـ يظنّ أنّ إسطنبول أفضل من هنا، وأنا أودّ أن يأتي ويستقرّ هنا. نحن فانون والقرارات خراف والعادات راعي الخراف.

فكّر جَهان في هذا الكلام، عندما قال داؤود: إنّنا نرغب في زيارة مايكل أنجلو.

هزّ بائع الكتب رأسه.

ـ إنّني أكنّ بالغ الاحترام لمعلّمك، ولكن ينبغي أن تعلم أنّ هذا ليس بالأمر السّهل، أو الميسور، إذْ إنّ المقدّس[1] لا يستقبل أحدًا، اذْ

---

(١) المقدّس Il Divino: لقب من الألقاب الّتي خلعها المحبّون على مايكل أنجلو (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤) وإن كانت ثمّة شخصيّات أخرى حملت اللّقب نفسه منها: الفيلسوف ثيوفراستوس (نحو ٣٧٢ ـ ٢٨٧ ق.م) والشّاعر الإيطاليّ لودفيغو آريوستو (١٤٧٤ ـ ١٥٣٣) والشّاعر الغنائيّ الإسبانيّ فرناندو دي هيريرا (١٥٣٤ ـ ١٥٩٧) والفيلسوفة والرّياضيّة اليونانيّة هيباتيا (نحو ٣٧٠ ـ ٤١٥) الّتي لقبت بالوثنيّة المقدّسة، والرّسام الإسبانيّ المختصّ بالرّسوم الدّينيّة لويس دي موراليس (١٥٠٩ ـ ١٥٨٦) والرّسام والفنّان الإيطاليّ رافائيل (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠) والطّبيب جان دي رويزبروك (١٢٩٣ ـ ١٣٨١). تجدر الإشارة إلى أنّ بعض المصادر الأدبيّة تشير إلى مايكل أنجلو بلقب المجنون المقدّس. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

لا يزال حزينًا ومهمومًا بعد مرور عامين.

سأل جَهان: آه، من توفّي؟

ـ توفّي أخوه أوّلًا، ثمّ توفّي تلميذه المفضّل لديه، فتحطَّم تمامًا.

لم يستطع جَهان منع نفسه من التّساؤل عن المدّة الّتي سيقضيها معلّمهم حدادًا إذا ما أصاب أحدَهم مكروهٌ. في هذه الأثناء، قال بائع الكتب إنّ التّلميذ واسمه أوربينو، لازمَ مايكلَ أنجلو مذْ كانَ في سنّ الرّابعة عشرة، ولم ينفصل أحدهما عن الآخر طوال ستّة وعشرين عامًا. كان هيام المعلِّم وشغفه بتلميذه الموهوب شديدين حتّى إنّه لم يسمح لأحد غيره بأن يهتمّ به ويرعاه أثناء مرضه ليلًا ونهارًا. وبعد وفاة أوربينو، بات مايكل أنجلو الصّعب الإرضاء أساسًا، مستاءً وعلى استعداد لكي ينفجر لأقلّ ازعاج.

ـ إنّ المقدّس لا يحبّ النّاس. والقليلون الّذين يحبّهم، إنّما يحبّهم حبًّا أكبر ممّا ينبغي.

عقد جَهان حاجبيه وفكَّر في أنّ معلِّمه ليس بهذا الطّبع، فسنان لا يمتعض ولا يأنف من النّاس، وهو رجل حنون وعطوف تجاه الكلّ، متوازن وحسن الخلق، ولكن على الرّغم من هذا، فإنّ ثمّة مسافة قصيرة بين تقبّل الآخرين كلّهم وعدم تقبّل أيّ شخص. وإذا كان الأمر كذلك، أليس الأفضل مدّ يد العون إلى معلّم قاسٍ تجاه الآخرين باستثنائك أنت من أن يكون المعلِّم طيّب القلب تجاه الكلّ بمن فيهم أنت؟

استرسل ليون في كلامه: ممّا لا ريب فيه أن كراهية المقدّس للنّاس متبادلة.

سأل داؤود: هل لديه أعداء؟

ـ آه، نعم، ثمّة ناس يهيمون به وآخرون يمتعضون منه. ما من أحد يدري أيّ قسم يزيد عددًا عن القسم الآخر.

Twitter: @ketab_n

قال ليون إنّ المقدّس كان له عدد كبير من الخصوم عندما تولّى، من دون رغبة، مسؤوليّة تشييد سان بييترو. ومنذ ذلك الوقت، تضاعف عدد محبّيه ومبغضيه. وعلى الرّغم من أنّه استخدم جزءًا كبيرًا من مخطّط برامانته، إلّا أنّه استخفّ بسلفه وانتقص من شأنه علانيّة، ولم يجعلهُ ذلك أقرب إلى خصومه.

ـ وقال أيضًا إنّ مخطّط سانغالو رديء، يفتقر إلى الضّياء، وأضاف أنّه يصلح لأن يكون مرعًى من المراعي.

سأل جَهان: مرعًى؟

ـ مرعًى للماشية، وقال إنّ مخطّط سانغالو يفيد الثّيران والخراف المصابة بالخرس الّتي لا تفقه شيئًا في الفنّ، ولم يعجب هذا الكلام أولئك الّذين كانوا يعشقون سانغالو.

تنهّد جَهان، فهذه نقطة أخرى يختلف فيها معلّمه. ولم يستطع أن يتخيّل طوال حياته أن يقرّع سنان ويؤنّب غيره من المعماريّين، أمواتًا كانوا أم أحياء. فقال بحذر: سمعنا أنّ البابا يساند مايكل أنجلو.

ـ حسنًا، هذا صحيح، فلولا قداسته لمزّقه خصومُه إربًا إربًا.

وهنا غيّر ليون من جلسته، فحجب بذلك ضوء الشّمعة. وعندما كسا الظّل وجهَه، قال: لا بدّ من أنّ لمعلّمكم أعداء أيضًا.

تبادل جَهان وداؤود النّظرات، لأنّ العبارة كانت غريبة، لكنّها صحيحة جدًّا.

قال داؤود وهو يومئ إيماءة صغيرة: صحيح.

أخبرهما ليون بأنّ أشدّ النّاس عداوة لمايكل أنجلو هو شخص يُدعى ناني دي باكشيو بيغيو ـ المعمار والنّحات، وأردف: غريب، صحيح؟ كلّما بدا إنسان ما أنّه من المشارب نفسها، زاد احتمال أن يصبح عدوَّك.

Twitter: @ketab_n

ما إن تفوّه ليون بهذه العبارة حتّى تغضّن وجهه كأنّه أدرك أنّه أفرط في الحديث، فتلوى في كرسيّه.

قال جَهان مراقبًا إيّاه: لقد أثقلنا عليك بالكلام. يُستحسن بنا أن نمضي في سبيلنا.

قال ليون وهو يأخذ نفسًا: كم كان بودي أن تأويا عندي ولكن. . .

أوضح لهما أنّ ثمّة منعًا للتّجوّل في الحيّ اليهوديّ، وإذا ما أُغلقت البوّابات، فلا أحد يمكنه الدّخول. وإذا أراد أحدٌ زيارتَهما، فعليهما إخبار السّلطات. ولمّا لم يكن في ذهن الاثنين الإثقال على الرّجل العجوز بحضورهما، فقد طلبا منه أن يرشدَهما إلى مكان يقيمان فيه. فما كان من ليون إلّا أن نادى خادمه الصّبيّ الّذي بدا أنّه في سنّ الثّامنة تقريبًا، وطلب منه أن يصطحب العثمانيّين إلى بيت من بيوت الضّيافة حيث يكونان، على حدّ تعبيره، برفقة أمثالهم من الفنّانين.

هكذا خرجا إلى الشّارع مجدّدًا، وجذبا جواديهما من اللّجام وسارا وراء الصّبيّ. مرّا ببيوت الأثرياء ذات النّوافذ الزّجاجيّة، وعبرا أسواقًا شاهدا فيها الخنازير تُشوى على السّفافيد. وساورت جَهان الشّكوك في أنّ الصّبيّ لم يلجأ إلى طريق مختصرة، لا لأنّه كان يريد أن يشاهدا معالم المدينة، بل لأنّه كان يبغي أن يراهما النّاس، إذْ كانا يبدوان غريبين من ملابسهما. وفي إحدى المرّات، عندما التفت جَهان إلى الوراء ليكلم داؤود، أوقفه شيء ما في مكانه، شيء هو دافع غريزيّ أكثر ممّا هو مشهد ملفت. وخشي أن يكون ثمّة من يقتفي أثرهما. فاختلس نظرات يمينًا وشمالًا وهو غير متأكّد. وأخيرًا وصلوا إلى منزل مؤلّف من طبقتين تفوح منه رائحة النّقانق والعرق. وكانت الغرفة والمبولة يشاركهما فيها ثلاثة أشخاص آخرين ـ رسّام وطالب تشريح ومقامر.

Twitter: @ketab_n

كان الشّيء الأوّل الّذي فعلاه في صباح اليوم التّالي، هو أنّهما ذهبا إلى منزل المقدّس. وكان العثور عليه أمرًا سهلًا، إذْ كان الأطفال الصّغار أنفسهم يعرفون أين يقيم الرّجل العظيم. لكنّ عبور الباب كان خارج نطاق إمكانيّتهم، إذْ قدّما نفسيهما لمساعده، موضّحين له أنّ رئيس المعماريّين الملكيّ العثمانيّ هو الّذي أرسلهما، لكنّ المساعد أخبرهما بأدب وصرامة في آن واحد بأنّ مايكل أنجلو لا يرغب في مقابلة أحد.

عندما خرجا من المنزل، وابتعدا قليلًا قال داؤود: من يظنّ نفسه؟ إنّه يقلّل من شأننا.

ـ لقد سمعت ما قاله النّاس، فالرّجل لا يلتقي البابا نفسه.

قرقر داؤود لسانه، وقال: أقول إنّ هؤلاء الكفّار يحتاجون إلى درس، إذْ لا يمكنهم معاملتنا على هذا النّحو.

في الأيّام التي أعقبت ذلك اليوم، زارا الكنائس تنفيذًا لأمر سنان. كان الكلس يتميّز بظلّ دافئ في روما، وإن كان أقلّ شأنًا بطبيعته. وكان السّكّان المحلّيّون يمزجونه بمادّة ضاربة إلى اللّون البنّيّ تُدعى البازولان لإنتاج الملاط. وعندما تجفّ، تصبح ناعمة كالذّرور، فيستخدمونها بكثرة في أعمال البناء، لكنّها مع مرور الزّمن، تصبح مكسوّة بطبقة قبيحة.

دوّن جَهان وداؤود ملاحظات، ورسما مخطّطًا للمباني، وضاعا مرّات ومرّات وسط متاهة الأزقّة إلى أن وجدا نفسيهما في إحدى المرّات يحدّقان بدهشة إلى كاتدرائيّة. وأكثر ما أثار إعجابَهما من أيّ شيء آخر هو مبنى سان بييترو، المبنى المستدير تحت نور الصّباح البارد، مراوغًا وجذّابًا مثل بقايا حلم يتلاشى. لم يكن البناء قد اكتمل بعد، إلّا أنّهما بعد أن درسا كلّ نموذج استطاعا الحصول عليه، بات في

Twitter: @ketab_n

مقدورهما معرفة ضخامته وعظمته بعد الانتهاء من بنائه ـ القاعدة والقبّة والقبّة الصّغيرة. وكانت رائحة الحجارة والرّمل والخشب المنشور مؤخَّرًا تعلق بثيابهما ولا تغادرها.

اعتقد جَهان أنّ الجنس البشريّ شيّد نوعين من المعابد: تلك الّتي تطمح إلى بلوغ عنان السّماء، وتلك الّتي تتمنّى إنزال السّموات إلى مكان قريب من الأرض. في بعض الأحيان، ثمّة نمط ثالث وهو الّذي يسعى إلى الجمع بين النّوعين الأوّلين، ومنها سان بييترو. وبينما هو واقف يراقب ويكمل البناء في مخيّلته، راوده تفكيرٌ غريب وهو أنّ مركز الكون يكمن هنا أيضًا.

كان العمّال ينتظرون إرساليّة تأخّرت بسبب سوء الأحوال الجوّيّة في الجنوب، وهو أمر حسن الطّالع لتلميذي سنان لأنّه ساعدهما على الطّواف والتّجوّل من دون أن يشاهدهما عدد كبير من النّاس. جلسا فوق هضبة وراحا يكملان عشرات الرّسوم، جدران القسم الموسيقي السّفليّ والأعمدة المستطيلة النّاتئة عن الجدران والدّعامات المتقاطعة، كلّ واحدة منها أنشودة عن الكمال.

ذهبا يوميًّا، ومن دون استثناء، لمقابلة مايكل أنجلو لكنّهما كانا يُواجَهان بالصّدّ قبل عبور عتبة منزله. وكان التّلميذ نفسه ـ وهو رسّام ونبيل إلى حدٍّ ما ـ يقف حارسًا عند المدخل عازمًا على منع أيّ شخص من الدّخول. كان اسمه إسكانيو، وهو تلميذ لم يسبق لجَهان أن رأى مثله يحمي معلّمه.

قال إسكانيو محدِّجًا إيّاهما بنظراته الثّاقبة: ليس المقدَّس رجلًا من رجال هذا العالم، ثمّ شرح لهما كيف أن معلّمه يزدري وجبات طعامه، ويستخفّ بها ويقتات على فتات الخبز. لو أنّكما صببتما على رأسه كلّ ما يتوافر في روما من مال لظلّ يعيش في إملاق.

قال داؤود متسائلًا: لماذا يعيش عيشة فقيرة وسط كلّ هذا الثّراء؟

Twitter: @ketab_n

ـ إنّه بسيط، ولا تهمّه الحلي الدّنيويّة الرّخصية.

بدا داؤود مصمِّمًا على مضايقة إسكانيو، وجرح شعوره، فسأله: أصحيحٌ أنّه ينام من دون أن يخلع حذاءه، ولا يستحمّ أبدًا؟

تورّدت وجنتا إسكانيو، وقال: لا تصدّق كلّ ما تسمع، فهذه المدينة قاسية.

ثمّ أوضح أنّ أصدقاء مايكل أنجلو في فلورنسا طلبوا منه أن يعود إليهم، لكنّه لم يغادر روما حبًّا بفنّه، ولأنّه رجل لا يتراجع عن كلامه.

ـ وهل يقدِّرون هذا الشّيء حقّ قدره؟ ولا حتّى القليل من العرفان! كلّما زاد عطاؤك لهم ازدادت متطلّباتهم. أتعرف ما يقول معلِّمي؟

سأل جَهان: ماذا؟

ـ الجشع يُذهبُ العرفانَ.

غير أنّ إسكانيو لم يقل لهما إنّ سكّان المدينة يخشون أن يموت مايكل أنجلو قبل أن يُكمل سان بييترو. ففي شيخوخته، أصبحت معنويّاته ضعيفة وجسده واهنًا، على الرّغم من أنّ ذهنه بقي حادًّا كالنّصل. وعانى مختلفَ الأمراض مثل انحباس الرّيح وألم المعدة وحصى الكلى الّذي كان يؤلمه إيلامًا شديدًا يحول دون التّبوّل أحيانًا. وتساءل جَهان في نفسه عمّا إذا كان معلّمه يهاب الموت أيضًا. لا بدّ من أن حرفيًّا دؤوبًا ومخلصًا مثل سنان يعاني صعوبة شديدة في تقبّل موته. فهو الّذي شيّد المباني الخالدة، لكن زواله يخيّم ثقيلًا على قلبه بمرور الأيّام. إنّها فكرة تأتي وتذهب، وسوف يتذكّرها مجدّدًا، بعد سنوات.

في عصر يوم من الأيّام، وبعد محاولة فاشلة أخرى لمقابلة المقدّس، دخلا مطعمًا تفوح منه رائحة الدّخان والدّهون الّتي تشقّ عنان

Twitter: @ketab_n

السّماء، وطلبا فطيرة سمك الأنقليس وطائر السّمّاني المشويّ وبعض الحلويات. في هذه الأثناء، لاحظ جَهان شخصًا غريبًا يراقبهما، قبّعته منكّسة إلى أنفه، فتخفي نصف وجهه.

ـ لا تنظر! ثمّة شخص يتعقّبنا.

سأل داؤود وهو يلتفت من فوره: مَنْ؟

قفز الرّجل من مكانه، واندفع إلى الخارج بعد أن أزاح الطّاولة من أمامه كأنّه رجل ممسوس. تبادل تلميذا سنان نظرة خاطفة تنمّ عن حيرة، ثمّ قال داؤود هازًّا كتفيه: لا بدّ أنّه لصّ، فهو يعلم أنّنا غرباء - وربّما كان يريد أن يسرق منّا نقودنا.

في اليوم العاشر، زارا مايكل أنجلو للمرّة الأخيرة. كان إسكانيو قد ذهب في مشوار ولم يرجع بعد، وحلّ محلّه تلميذ آخر، أصغر سنًّا، وأكثر سماحة على ما يبدو. وقدّما نفسيهما كأنّهما قادمان للمرّة الأولى، وطلبا من التّلميذ أن يخبر معلّمه بقدومهما. ولدهشتهما الكبيرة، أومأ برأسه إيماءة ودّيّة ودلف إلى الدّاخل. وبعد برهة، عاد التّلميذ وأخبرهما بأنّ مايكل أنجلو وافق على مقابلتهما. سارا في إثره من دون إبداء أيّ دهشة. وفكّر جَهان في أنّ إسكانيو ربّما لم يسأل مايكل أنجلو أساسًا إن كان يرغب في مقابلتهما، متأكّدًا من أنّ المقدّس لم يرغب في أن يزعجه أحد. واقتنع بأن التّلاميذ الّذين ينظرون إلى معلّمهم نظرتهم إلى آبائهم ميّالون إلى المبالغة في الحماية.

دخلا حجرة كبيرة، فشاهدا كومة من الطّلاء والأوعية والأزاميل والمطارق وصحائف الرّقّ والكتب والثّياب مبعثرة هنا وهناك. وكانت معظم النّوافذ مغطّاة بستائر برّاقة الألوان وسميكة إلى حدّ أنّها تحجب الضّوضاء المنبعثة من الشارع، مضفية بذلك على المكان مسحة روحيَّة. وفي وسط هذه الكومة من الأغراض، وقف رجل مسنّ، ثابتًا ونحيلًا

Twitter: @ketab_n

يشتغل في منحوتة تمثّل رأس رجل وجذعه، تحت ضوء مسلّط من شموع مصنوعة من شحم الكبش. وكانت ثمّة شمعة أخرى مشتعلة مشدودة برباط معدِنيّ إلى رأسه. لم يكن طويلًا ولا متين البنيان، باستثناء منكبيه اللّذين كانا عريضين. أمّا ذراعاه فكانتا مفتولتي العضلات. عيناه صغيرتان وسوداوان، ملامحه رزينة وشاحبة، أنفه مفلطح، أمّا لحيته السّوداء القصيرة التي خالطها الشّيب، فلم يجد فيها جَهان ما يثير الإعجاب. لكنّ يديه جذبتا انتباهه - بأصابعهما الطّويلة والنّحيلة والشّاحبة الأنامل. أمّا أظافره المثلومة فمكسوّة بالغبار والقذارة.

قال جَهان منحنيًا: شكرًا لأنّك قابلتنا.

قال المقدّس من دون أن يلتفت: تسلّمت ذات مرّة رسالة من سلطانكما.

تجرّأ داؤود على القول موضّحًا: لا بدّ أنّها رسالة من السّلطان الرّاحل بايزيد.

قال مايكل أنجلو متجاهلًا ملاحظة داؤود: أنتم لا تصنعون التّماثيل. كيف يمكنكم أن تطلقوا عليها عبارة الأصنام؟ أنا شخصيًّا لا أفهم ذلك، لكنّ سلطانكم كريم، وكنت أرغب في الذّهاب، ما يشكّل عارًا كبيرًا عليَّ. ليس هذا هو المقصود.

كان صوته خشنًا وفظًّا كأنّه رجل اعتاد أن يعيش داخل عقله، وكان كلامه سريعًا جدًّا، فعجز جَهان وداؤود عن متابعته بما عرف عنهما من معلومات ضئيلة بالإيطاليّة. وسأل: كيف حال معلّمكما؟

في هذه الأثناء، تذكّرا السّبب من وراء زيارتهما، فقدّما رسالة سنان الّتي طلب منهما إيصالها إليه، فما كان منه إلّا أن مسح راحتي كفّيه بصدريّة أشد قذارة من يديه. وكسر الختم. ولمّا فرغ من قراءة الرّسالة، لاحظا شيئًا غريبًا في عينه لم يجداه قبل الآن ـ قلقًا وضيقًا.

Twitter: @ketab_n

أخبره داؤود بأنّهما على استعداد لنقل أيّ رسالة قد يرغب في إرسالها إلى سنان. أومأ الفنّان برأسه، واتّجه ناحية طاولة عليها كومة من الحاجيّات المختلفة، فدفع بها على الأرض وفسح في المجال لنفسه بالجلوس لكتابة رسالة، فيما علت الغضون جبهته وهو مستغرق في تفكير عميق.

انشغل جَهان وداؤود بالنّظر إلى ما يحيط بهما لأنّهما لم يعرفا ما يفعلان، ولأنّه لم يطلب منهما الجلوس. فشاهدا على منضدة العمل نموذجين لسان بييترو ـ الأوّل من الخشب والثّاني من الطّين. ولاحظا أن مايكل أنجلو أعاد تصميم الواجهة وتخلّص من الرّواق ذي الأعمدة. كما غيّر من شكل الدّعامات المركزيّة الّتي تحمل القبّة، وقد حلّت محلّ النّوافذ الصّغيرة نوافذُ أخرى أقلّ عددًا وأكبر حجمًا لتسمح بمرور كمّيّة أكبر من الضّياء.

صحا الاثنان من غيبوبتهما على صوت ارتطام. فبعد أن فرغ مايكل أنجلو من كتابة الرّسالة، راح يفتّش عن شمعة. وفي غمرة إحباطه ويأسه، دفع جانبًا صحيفتين من الرّقّ، فكسر بذلك التّرمس.

فتّشوا عن الشّمع تحت الكتب وفي الأدراج وفوق الصّناديق. وأخيرًا، عثروا عليه تحت وسادة، منسحقًا تحت قدمي من وطأه. فما كان من مايكل أنجلو إلّا أن أخذ يُذيب الشّمعَ ووضع خاتمه عليه، ثمّ ربط الرّسالة بشريط. لا بدّ أنّه لاحظ اهتمامهما بنموذجي سان بييترو، إذْ قال: استغرق سانغالو سنوات طوالًا لإكمال تصميمه. أمّا أنا، فقد فرغت منه في خمسة عشر يومًا.

غمرت الدّهشة جَهان عندما لاحظ صوت مايكل أنجلو قد شابه الغضب، فها هو أشدّ الفنّانين تقديسًا في روما ينافس شبحًا. وفطن جَهان إلى أنّ النّحت ربّما يوائم مزاج مايكل أنجلو أكثر من العمارة. لم يقل شيئًا من هذا القبيل، لكنّه قال بعد أن شاهد رسمًا دقيقًا لجواد:

Twitter: @ketab_n

أنت تحبّ الحيوانات.

قال مايكل أنجلو: بل أدرسها، ثمّ أوضح أنّه يشرّح الجثث والحيوانات المصابة بتضخّم الغدد الدّرقية لرؤية العضلات والأعصاب والعظام.

قال جَهان بفخر: لديّ فيل أبيضُ، وهو يعمل معي في مواقع البناء.

ـ معلِّمك يستخدم فيلًا، ربّما ينبغي لي أن أستخدم فيلًا أيضًا، ثمّ سألهما عن مسجد السّليمانيّة، وامتدح سنان على عمله. وتعجّب جَهان من معلومات مايكل أنجلو وتساءل عن مصدرها. كان يبحث عن وسيلة يستفسر بها عندما رفع الفنّان يده، وقال: أعتقد أنّ هذا كلّ شيء. وانصرفا بهدوء.

Twitter: @ketab_n

توجّها في ذلك الأسبوع نفسه إلى إسطنبول مستخدمين في رحلتهما جوادين. وبقدر ما استمتع جَهان بركوب الجواد، كان يشتاق إلى شوتا. ولم يستطع منع نفسه من القلق، إذْ ربّما لم يؤدِّ المروّض الّذي حلّ محلّه واجبه على النّحو المرضي، أو أنّ الحيوان رفض أن يأكل، حتّى لو أدّى المروّض عمله أداءً جيّدًا، وهو ما تفعله الفيلة أحيانًا اذا ما شعرت بالوحدة أو الحزن. غير أنّهما كلّما اقتربا من إسطنبول ازداد شعوره بالارتباك والذّهول، لأنّه استطاع أن يبعد مِهرماه عن تفكيره في روما، غير أنّ ذكراها عادت إليه الآن على نحو انتقاميّ، مثل منحدر نهر يحطّم الحاجز الّذي يحول دون مروره.

عندما توقّفا ليأخذا قسطًا من الرّاحة ويقضيا حاجتهما، لاحظ جَهان أنّ الوجوم استبدّ بداؤود. ولمّا كان يعلم أنّ رفيقه كان يتيمًا، وأنّ جدّه هو الّذي ربّاه، فقد راح يسأله عن طفولته، لكنّ داؤود قال برقّة: هل ثمّة ما ينبغي أن أخبرك به؟ وأردف أنّه كان طفلًا ضائعًا وغاضبًا إلى أن عثر عليه المعلّم سنان، فعلّمه وغيّر مستقبله وحياته.

بعد ذلك، شقّا طريقهما إلى أدرنة من دون أن ينبسا ببنت شفة، كلّ واحد منهما يسعى إلى رسم أفكاره. أرخى الظّلام سدوله، فزادا من سرعتهما، ولم يخفّفا منها إلّا بعد أن هدّهما التّعب وعلا الزّبد فمي الجوادين. ثمّة خان على مسافة قريبة منهما، فقرّرا أن يقضيا ليلتهما فيه.

كان الخان مزدحمًا، وغرفة الطّعام فسيحة وإن كان السّقف واطئًا يُضطرّك إلى الانحناء إذا كنت واقفًا. وفي ركن من الأركان، ثمّة قدر

Twitter: @ketab_n

كبير يغلي وقد اكتسى بسخام أسود في مدفأة جداريّة شيّدت بالحجارة كما تحلّق حول الموائد الخشبيّة الطّويلة والعريضة زبائنُ، رجال من كل الأعمار والأديان.

في اللّحظة الّتي دخل فيها جَهان وداوود، التفتت الرّؤوس ناحيتهما، وخفت الضّجيج، ولكن من دون أن يلقي أحدٌ التّحيّةَ عليهما. ولمّا شاهدا فسحة من المكان خالية عند طرف إحدى الطّاولات، حشرا نفسيهما فيها. اختلس جَهان النّظر حوله، فشاهد رجلًا هزيلًا أشيب الشّعر إلى شماله، وفكّر في أنّه ربّما كاتب من الكتّاب، إذْ كانت أصابعه ملطّخة بالحبر. وكان يجلس أمامهما واحد من الإفرنج شعره بلون التّبن، يُدفئ يديه فوق طاس يتصاعد منه البخار، ورفع قبّعته باتّجاههما كأنّه يريد إلقاء التّحيّة عليهما.

سأل جَهان داؤود: أتعرفه؟

ـ كيف يمكنني أن أعرف أحدًا في هذا الجحر؟

مرّ بهما قزم حاملًا صينيّة مشروبات. وبينما كان يسير لبلوغ غايته، عمد أحد الجالسين إلى أن يزلّ قدمه، فسقط أرضًا وتدحرجت الأكواب على امتداد الأرضيّة فندت عن الجالسين قهقهة من الضّحك، فنهض القزم متورّد الوجنتين، لكنّه محتفظ بهدوئه، فعاد الزّبائن إلى غذائهم كأنّ أشخاصًا آخرين هم الّذين كانوا يجلجلون ضحكًا قبل لحظة واحدة.

تناولا طعامهما بصمت. وبعد العشاء، صعد داؤود إلى الطّبقة العليا لأداء صلاة المغرب في حين قرر جَهان البقاء مدّة أطول في غرفة الطّعام، حيث خيّم عليه نوع من الهدوء لم يسبق له أن عرفه. كان وحيدًا مثل فنار مهجور، لكنّه شعر في تلك اللّحظة بأنّه برفقة شخص وإن لم يعرف مع مَنْ وكيف. فهذه هي المرّة الأولى الّتي يشعرُ فيها بأنّ عذابه بسبب زفاف مِهرماه قد توقّف.

Twitter: @ketab_n

ـ لقد انصرف صديقك.

رفع جَهان رأسه، فشاهد الرّجل ذا الشّعر التّبنيّ يحملق فيه.

قال الرّجل: أيمكنني الجلوس؟ ثمّ جلس من دون أن ينتظر جوابًا، ونقر بأصابعه مشيرًا إلى القزم. وبعد دقيقة واحدة، كان ثمّة إبريق أمامهما.

قال الغريب: لنشرب!

كان للخمرة مذاقُ لحاء الشّجر والورد المجفّف، وقد أُعجب جَهان بهذا المسافر الّذي كان اسمه توماسو بسبب ذكائه. كما أنّه أخبره بأنّه إيطاليّ متوجّه إلى الشّرق لأنّه كان يتحرّق شوقًا لرؤية آيا صوفيا. تناولا الشّراب مجدّدًا، وطلبا إبريقًا آخر، وتجاذبا أطراف الحديث على نحو ودّي، وإن صعُب على جَهان أن يتذكّر نصف الحديث بعد ذلك.

قال جَهان: أرسلنا معلّمنا إلى روما. غير أنّه حرص على عدم ذكر أيّ شيء بخصوص الرّسالة وهو يترنّح من شدّة السّكر، وأضاف أنَّه يريد منّا أن نتوسّع في معرفتنا.

راح جَهان يتكلّم عن الأشياء الّتي يريد أن يحقّقها كأنّه إنسان لم يكلّم أحدًا على مدى بضعة أيام. كانت الكلمات تنهمر مع الخمرة، فمنذ أن سمع بزواج مِهرماه، اشتاق في أعماقه إلى الارتقاء على جناح السّرعة.

رمقه توماسو من فوق حافّة كأسه، وقال ببطء: هل ثمّة قيمة لما نفعله في الحياة، أم أنّ ثمّة قيمة لما لا نفعله؟

سأل جَهان بعد أن كرع كأسه: ماذا تعني؟

ـ لنقل إنّك كنت تسير في غابة، ورأيت هذه المرأة. وكنتما بمفردكما. في إمكانك أن تغشاها، ولكنّك تمتنع عن ذلك. وهذا يظهر أيّ نوع من الرّجال هو أنت. رجل يشتمك، في وسعك أن تسدِّد له

Twitter: @ketab_n

لكمة على أنفه، وإذا لم تسدّد اللّكمة فذلك هو أنت.

قال جَهان: إذًا، عدم فعل أيّ شيء هو مأثرة.

قال توماسو مبتسمًا: صحيح. أنت تشيِّد البناء بالخشب والحجارة والحديد، لكنّك تبني أيضاً بما هو غائب، ومعلِّمك يعلم هذا جيّدًا.

شعر جَهان بتقلُّص في معدته.

كيف تعرفه؟

قال توماسو وهو ينهض واقفًا على قدميه ويرمي قطعة نقد إلى القزم: الكلّ يعرف معلِّمك. إنّني مضطرّ للذّهاب أيّها الصّديق.

سُرَّ جَهان لمّا رأى توماسو يدفع ثمن الشّراب، لأنّ من شأنه أن يشعر بالإثم لتبذيره مال معلِّمه على الخمرة.

قال توماسو: إذا أردت أن تنجح، فهذا شيء جميل. وليباركك الله في كلّ الأحوال، لكن لا تصبح واحدًا من تلك الأرواح التّعيسة.

وجد جَهان داؤود في الطّبقة العليا نائمًا وسط عدد كبير من المسافرين، فسار إلى إحدى النّوافذ وفتحها. ثمّة جدجد يصدر صوتًا في الخارج، وثمّة بومة تنعب. مساء ساحر، القمر فيه هلال مثل منجل ذهبيّ. كما شاهد أمامَه حديقة ممتدّة مثل مروحة، تحفّ بها حافّات صخريّة، وتنبعث منها رائحة عذبة وَدّ لو ابتلعها. وبينما هو يتنشّق ذلك الأريج العطر تذكّر، تذكّر في تلك اللّحظة، كلمات سبق له أن قرأها. وهي كلمات من دانتي: الجحيم، لا تكن واحدًا من تلك الأرواح التّعسة الّتي تحيا من دون لوم أو من دون مديح.

في صباح اليوم التّالي، اكتشف جَهان وداؤود بعد استيقاظهما أنّهما تعرّضا لعمليّة سرقة، إذْ اختفت أحذيتهما والنّقود التي كانت في محفظتيهما والدّبوس الفضّي والكرة البلّوريّة والكيس الذي كانا يضعان فيه رسومهما، وكذلك مفكّرة جَهان ذات الغلاف الجلديّ والخاتم الّذي

Twitter: @ketab_n

خبّأه فيها. كما اختفى أيضًا كلّ مخطّط أنفقا جهدًا كبيرًا طوال الرّحلة في عمله. وسُرقت منهما أيضًا رسالة مايكل أنجلو.

قال جَهان محتجًّا: أيّ قطّاع طرق يسرقون مخطّطات عن العمارة؟

قال داؤود حزينًا: لا ريب في أنّهم ظنّوا أنّها ذات قيمة كبيرة.

الغريب في الأمر أنّ أحدًا من بقيّة المسافرين لم يتعرّض للسّرقة. الواضح أن السّارق، أيًّا كان، استهدف تلميذيْ سنان ولا أحد غيرهما، فراحا يبكيان وينشجان مثل الأطفال. وفتّشا مرّات ومرّات، لكن من دون طائل، ثمّ غادرا الخان قلقين ذليلين وجزعين بسبب ما حدث لهما، وراح كلّ واحد منهما يلوم نفسه، جَهان لأنّه أفرط في الشّراب في اللّيلة الماضية، وداؤود لأنّه نام نومًا عميقًا ومبكرًا أكثر ممّا ينبغي.

ولم يعرفا قطّ ما كتبه المقدّس إلى معلّمهما، وانقطعت المراسلات بين رئيس المعماريّين في روما ورئيس المعماريّين الملكيّ في إسطنبول. ولم تكن هي تلك المرّة الأولى. وصل التّلميذان إلى منزل سنان وليس لديهما أيّ شيء يعرضانه عليه، كأنّ لا شيء بقي لديهما من تلك الرّحلة الطّويلة ما خلا الألم في أطرافهما، وذكريات سان بييترو الّتي كانت قد بدأت بالتّلاشي.

Twitter: @ketab_n

جاء القبطان غاريث وقد علقت به رائحة لاذعة هي مزيج من روائح الملح والعرق والمشروبات الرّوحيّة. وبدا وقد اجتاز أسوار القصر بسهولة كأنّه شبح. صحيح أنّه لم يكن محبوبًا، ولكن في الوقت نفسه لم يتجرّأ أحد على مضايقته. نتيجة لذلك، كان الكلّ يتحاشاه ويبتعد عنه ـ وهذا ما كان يريده تمامًا.

لاحظ جَهان أن الرّجل لم يبدُ في صحّة جيّدة، فبشرته باتت ممتقعة بعد أنْ كانت ورديّة فاتحة غير مألوفة بين العثمانيّين من الرّجال. شفتاه كثيرتا الشّقوق، وجنتاه غائرتان. وراودت جَهان الشّكوك في أنّ الرّجل أُصيب بعدوى مرض من الأمراض في إحدى رحلاته البحريّة. فإمّا أن يكون ذلك هو السّبب أو أن الخيانة بدأت أخيرًا بتسميم روحه.

ـ حسنًا، حسنًا، لقد طال غيابنا. قلت لنفسي قبل أيّام إنّني يجب أن أذهب لزيارة المروّض المزيّف وأن أوبّخه على سلوكه المشين. لقد وصلت إلى هنا ولكن ماذا سمعت؟ آه، لا. قيل لي إنّه في روما! روما؟ يا لك من فتى محظوظ! إذًا، كيف هي الأحوال في بيوت الدّعارة؟ كم أودّ لو تذوّقت طعمها، لكن يا للأسف. لا أحد يرسلني إلى روما! أين مكافأتي التّعويضيّة؟ قل لي، ماذا أحضرت لصديق قديم؟

قال جَهان: تعرّضنا للسّرقة في طريق عودتنا إلى إسطنبول.

ـ آه، نعم! تروقني الحكايات الملفّقة.

أراد جَهان أن يُخرسَه، فأعطاه السّبحة الصّغيرة الّتي كان سرقها وقت افتتاح مسجد السّليمانيّة. وكان قد عزم على بيعها وشراء هديّة لمِهرماه. يا له من أبله!

Twitter: @ketab_n

اعتلت وجه القبطان الكآبة بعد أن نظر نظرة واحدة إلى الغنيمة، فقال: أهذا كلّ شيء أيّها الكسول؟

لا، إذْ كان جَهان قد دفن تحت الشّجرة نفسها صندوقًا آخر فيه أدوات طعام من المطابخ الملكيّة، ولؤلوة سقطت من طرف ثوب مِهرماه، وقلم حبر بسنّ ذهبيّة، وقارورة عسل من حجرة أدوات الطّعام والمطبخ الملكيّة، ودبّوس شعر من مقتنيات حسنة خاتون. وكانت المربّية قد أعطته شيئًا آخر عندما انتابتها نوبة الرّبو ومالت إلى أمام حتّى دنت دنوًّا شديدًا من أنامل جَهان، فظنّ أنّه سيرتكب إثمًا إن لم يخطف دبّوس الشّعر من رأسها. لم يكن في نيّة جَهان أن يعطي القبطان المجنون أيّ شيء من هذه المسروقات، بل أراد أن يحتفظ بها لنفسه خشية أن يحدث له شيء ما فيُضطرّ للهروب.

لكنّ القبطان لم يكن مغفّلًا: بدأ صبري ينفد. ممّا يؤسف له أنّك لا تزال شابًا. سوف يسلخون جلدك وأنت على قيد الحياة إذا عرفوا بالأكاذيب الّتي تردّدها.

ارتعدت فرائص جَهان من هذه الفكرة، لكنّه كان مدركًا أيضًا أنّ الرّجل لم يضربه بعصا ولم يستلّ خنجرًا في وجهه. ثمّة شيء ما جعله يتردّد.

ـ يقولون إن أميرتك تعيسة. مسكينة. إنّها تملك كلّ ما في العالم من ثروات، لكنّها تفتقر إلى الحبيب الّذي يعانقها.

قال جَهان متضايقًا: لم أرها منذ مدّة.

ـ آه، سوف تراها. أنا واثق من ذلك، طالما أنّها مولعة بالفيل الأبيض...

فهم جَهان مغزى كلامه، فقد طرق سمع القبطان غاريث أنّ الأميرة مِهرماه غير سعيدة بزواجها، وعلم مثلما علمت المدينة قاطبة أنّها تقضي

Twitter: @ketab_n

وقت العصر من كلّ يوم تبكي وحيدة في بيتها الجميل المنعزل. ولمّا كان القبطان يعرف أنّها متيّمة بشوتا، وربّما بالمروّض أيضًا، فقد خمّن أنّها سرعان ما ستأتي إلى مأوى الحيونات مجدّدًا. إنّ جَهان ليس سوى النّعامة الّتي ستضع له بيضًا ذهبيًّا، لهذا السّبب، لم يرغب في سفك دمه قبل الأوان.

شعر جَهان بالشّجاعة فجأة، فقال مكشّرًا عن أسنانه ازدراءً: ينبغي لك أن تنصرف الآن، إذْ قد يأتي رئيس الخصيان الأبيض في أيّ لحظة، وأنا أكره أن أكون في موقف محرج إذا رآك هنا.

تدلّت شفة القبطان غاريث السّفلى وهو لا يدري ما يقول، فأسرع جَهان إلى القول: اذهب! عندما يكون عندي شيء ما أريدك أن تراه، فسوف أخبرك.

على الرّغم من أنّ الرّجل نظر إليه نظرة فاترة، إلّا أنّه لم يعترض، وللمرّة الأولى، مضى في سبيله من دون إطلاق أيّة تهديدات. واكتشف جَهان بذلك شيئًا بخصوص التّعساء من أمثاله، وهو أنّهم ينجحون اعتمادًا على ضعف الآخرين وإن كانوا مثار رعب وهلع لهم. وقرّر جَهان أنّه إذا أراد أن يبقى في السّراي، فينبغي له أن يقيم علاقة داخليّة مع جناح الحريم ويدفن كلّ مخاوفه وقلقه وأسراره وأحزانه العميقة وآلامه الممضّة الّتي عكّرت صفو روحه، وأن يكون سلطان ذلك الجناح وخصيّه، ولن يسمح لأيّ مخلوق بأن يختلس النّظر إليه، بمن فيهم معلّمه.

Twitter: @ketab_n

القبّـــة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سيظلّ جَهان يتذكّر عام ١٥٦٢ على أنّه عام السّعادة. وكان يعتقد أنّ لكلّ امرئ مثل هذه السّنة في حياته. وقد بدأت تلك السّنة وازدهرت وانتهت عندما راح يفكّر في أن أيّامه ستكون كلّها كذلك. بدأ زمن أفراحه عندما شرع ببناء مسجد لِمِهرماه. ولمّا كان والدها قد منحها الأراضي والأطيان الشّاسعة والموارد الماليّة الكثيرة، فقد أصبحت أغنى امرأة في الإمبراطوريّة كلّها، وأكثرهنّ هيبة. وخشي النّاس إزعاجها بمن فيهم التّلاميذ، بل إنّ المعلّم سنان نفسه كان لا يشعر بالارتياح في حضورها. وكانت تجعل كلّ فرد يتصبّب عرقًا من شدّة الخوف، باستثناء جَهان الّذي بلغ به الوله والجنون ما جعله ينسى خشيتها.

هكذا، ففي الوقت الّذي كان التّلاميذ مخلوعي القلوب ومتردّدين في الإفصاح عن كلّ ما هو جديد، فإنّ جَهان كان يفيض بالأفكار. وبذل قصارى جهده في العمل، ما جعل معلّمه يقدّر رغبته الشّديدة، وإن لم يكن قد تجاوز بعد مرحلة التّلمذة، وراح يصحبه معه كلّما زار الأميرة ليطلعها على ما أُنجز من العمل.

ظلّ جَهان طوال تلك الأشهر المبكرة يفكّر في المخطّط الدّقيق الّذي يرقد ليلًا في فراشه، يقدح زناد فكره من أجل التّوصّل إلى وسيلة لجعله مثاليًّا، متكاملًا. وراح حتّى في نومه، يحمل الحجارة إلى مسجد مِهرماه. وفي يوم، تجاوز حدوده ورسم رواقًا يحتوي على سبع نوافذ ناتئة ذات قباب، وسلّم الرّسم إلى رئيس المعماريّين الملكيّ.

قال سنان بصوت ينطوي على عدم تصديق أكثر ممّا ينطوي على الانزعاج: تركت مخطّطي جانبًا ورسمت مخطّطك؟!

Twitter: @ketab_n

ـ سامحني أيّها المعلّم، فأنا لم أقصد التّقليل من الاحترام لك، لكنّني أعتقد أن المدخل إلى المسجد ينبغي أن يفوق كلّ التّوقّعات.

كان يتعيّن على سنان أن يوبّخه في ذلك الزّمان والمكان، لكنّه لم يفعل شيئًا من هذا القبيل، بل ألقى نظرة فاحصة على الرّسم، وسأله: لماذا سبع نوافذ؟

كان جَهان قد فكّر قبل الآن بالإجابة، فقال: إنّه عدد طبقات الأرض، وعدد المرّات الّتي يطوفها الحجّاج حول الكعبة. لأنّه رقم مقدّس.

ظلّ سنان مستغرقًا في التّفكير برهة، عمد بعدها إلى لف الرّقّ، وقال: ارجع إليّ بتصاميمَ جديدة، وقم بعمل أفضل إن كنت تريدني أن آخذك على محمل الجدّ.

التزم جَهان بالأمر. وظلّ يرسم ويقيس ويحلم. ولم يعترف بينه وبين نفسه في أيّ مرحلة من مراحل العمل، بأنّه يريد أن يذكّر المسجدُ مهرماهَ باليوم الّذي التقيا فيه، اليوم الّذي كانت لا تزال فيه صغيرة، وهربت من الزّنبور، وكانت تضع قلادة ذات سبع لآلئ. واختار في مخطّطه أخفّ أنواع المرمر والغرانيت ـ لصنع الأعمدة، ولونَ ردائِها وخمارها. وخطّط لبناء أربعة أبراج تدعم القبّة لأنّهم كانوا أربعة في الحديقة في ذلك اليوم وهم: الأميرة وحسنة خاتون والمروّض والفيل. كما أنّ مئذنةً واحدة ستشمخ عاليًا، رشيقة وأنيقة، مثلها تمامًا. وسيحتوي مسجدها على عدد كبير من النّوافذ في القبّة وفي المصلّى الرّئيسيّ لكي تعكس أشعّة الشّمس على شعرها.

بعد مرور أسابيع على احتدام العواطف، جذب سنان تلميذه جَهان جانبًا، وقال له: شاهدتك وأنت تكد وتكدح، صحيح أنّك غير مستعدّ الاستعداد كلّه، إلّا أنّني أعتقد أنّك تملك الجَلَد والصّلابة، لهذا فإنّني

Twitter: @ketab_n

سأعظِّم مسؤوليّاتك في تشييد مسجد الأميرة مهرماه. وسأسمح لك بإدخال تلك التّعديلات.

قبّل جَهان يدّ معلِّمه، ووضعها على جبينه. وفكّر في أنّ حياته لن تكون من الآن فصاعدًا كما كانت في الماضي بغضّ النّظر عمّا كانت عليه سابقًا. وما من شأنه أن يبذل مثل هذا الجهد الهائل في أيّ موقع آخر، منهكًا نفسه بكلّ التّفاصيل الدّقيقة.

في هذه الأثناء، كان تفاني جَهان الّذي لم يعرف الكلل ولا الملل، مصدر ضيق لغيره من التّلاميذ، وإن لم يدرك ذلك إلّا بعد فوات الأوان.

Twitter: @ketab_n

وجد المعلّم وتلاميذه أنّهم في مستنقع، إذْ شارف بناء مسجد مهرماه على نهايته. فقد مضى زمن ليس بالقصير ظلّت فيه القنوات المائيّة الاصطناعيّة في حاجة إلى التّرميم، وأصبحت الآن في تراصفها مثل عمالقة مهزومين، تخيّم على المدينة، شائخة ومستنزفة. فمثلما ازداد عدد سكّان إسطنبول، فقد ازدادت الحاجة إلى المياه. صحيح أنّ الينابيع المقدّسة ترشّحت عميقًا في التّربة تحت المستشفيات والحانات والمسالخ والحمّامات والمساجد والكنائس والهياكل، إلّا أنّها لم تعد كافية في يومنا هذا.

كان سنان على أهبّة الاستعداد لتولّي مسؤوليّة هذه المهمّة، فهو لم يرغب في إعادة ما كان قد أنجز في أيّام الكفّار فحسب، بل إنّ طموحاته كانت أعظم وأكثر جرأة، واشتاق إلى تزويد المدينة كلّها ماءً، وذلك ببناء عدد من الجسور الحجريّة وقنوات صُنعيّة وأنفاق تحت الأرض. وكان من شأن خزّانات المياه - المكشوفة وغير المكشوفة ـ أن توفّر الإمدادات في فصول الصّيف الجافّة. إنّه مشروع هائل ومن شأنه أن يخلق له كثيرًا من الأعداء، لكن ليس ثمّة مَنْ هو أقوى من رستم باشا: العريس الملكيّ والصّدر الأعظم وزوج مهرماه، إذْ وقف رستم في وجه خطط سنان منذ البداية لأنّ الماء النّقيّ يعني مهاجرين جددًا - اختناقات أكثر وأكواخ حقيرة أكثر وأوبئة أكثر. كانت إسطنبول مدينة شديدة الازدحام ويمكنها مواصلة الحياة من دون مستوطنين جدد يأتي كلّ واحد منهم حاملًا حزمة من الأحلام والخيبات.

وقف الكثيرون إلى جانب رستم، وإن كان لكلّ واحد منهم أسبابه الخاصّة. فخصوم سنان من المعماريّين الّذين كانوا يحقدون على

Twitter: @ketab_n

موهبته، لم يرغبوا في أن يتولّى هو مثل هذه المهمّة الضّخمة خشية أن ينجح فيها. أمّا عامّة النّاس، فقد أصرّوا على استحالة جلب أيّ مخلوق فانٍ للماء من الجبال ـ إلّا إذا كان ذلك المخلوق هو فرهاد[1] المندفع خلال جبل بسيتين ليأتي بالحليب إلى شيرين. وقال خطباء المساجد بوجوب ترك الأرض كما هي وعدم إزعاجها وإلّا استيقظ الجنّ وسبّبوا الكوارث والمصائب لبني البشر. وفي حين راح كلّ شخص يتصيّد، فإنَّ سنان واصَلَ عملَه وكأنّ ما من شيء يدفعه إلى الخوف والقلق. وكان تمسّكه بإيمانه وسط الخيانة وبقاؤه هادئًا في وجه الأقاويل الخبيثة يفوقان كثيراً طاقة جَهان على الفهم. كما أنّ المعلّم لم يردّ على القذف بقذف، وذكّر جَهان بالسّلحفاة الّتي تلوذ بترسها عندما ينخسها الأطفال، وتظلّ منتظرة حتى انتهاء جنونهم. غير أنّ السّلحفاء المتمثّلة بسنان، ظلّت تعمل وتعمل طوال الوقت بهدوء وسكون.

قرّر جَهان ونيقولا أن يساعدا المعلّم في مشروع الماء، وكانت مسؤوليّتهما تنطوي على أخذ المقاييس وحساب زوايا المنحدرات وإكمال التّصاميم والتّحقّق من الأماكن الّتي أخفقت فيها الممرّات المائيّة البيزنطيّة والسّبيل إلى إصلاحها وإذا ما جمعا كلّ هذه المعلومات، فإنّهما سيقدّمان تقريرهما إلى السّلطان.

عندما وجد جَهان ونيقولا أنّهما سيكبّان على مثل هذا المشروع الضّخم، استبدّت بهما هزّة الفرح وانشغال البال، إذْ كان هذا المشروع هو الأكثر مشقّة من بين كلّ تلك الّتي نفّذاها في السّنوات السّابقة. ولكن، على الرّغم من ذلك، ظلّ الاثنان يكدّان ويكدحان في عملهما ليس من أجل إثارة إعجاب السّلطان أو التّغلّب على الصّدر الأعظم، بل

---

(١) فرهاد وشيرين: عاشقان روت أخبارهما أساطير الفرس نثرًا وشعرًا. كانت شيرين زوجة كسرى الثّاني، فأحبّها فرهاد أحد أمراء بلاط زوجها. استوحى القصّة شعراء كثيرون من الفرس والتّرك والأكراد وسواهم (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لأنّهما كانا يريدان تجنّب كلّ ما من شأنه إحراج معلّمهما. راحا يفحصان الينابيع والنّقر والجداول المائيّة الصّغيرة والسّواقي وفتحات الآبار والخزّانات، وأشارا إلى كلّ واحد منها على الخريطة، وأطالا النّظر في كيفيّة ربطها بقنوات فوق سطح الأرض وتحتها. أخيرًا، توجّه المعلّم وتلميذاه عصر يوم خميس إلى القصر، حاملين تصاميمهم وآمالهم، متأنّقين ومتحمّسين.

كان رستم هو الّذي رحّب بهم ترحيبًا فاترًا، وإن كان منطويًا على مجاملة. واضطرّ جَهان لغرز أظافره في كفّيه كي يتوقّف عن الارتعاش أمام الكرواتيّ الّذي سرق مهرماه منه. لم يلحظ الصّدر الأعظم أيّ شيء، وكان بقامته الفارعة وعقله الماكر وطبيعته المرنة، قد اكتسب كثيرًا منَ الأوسمة المهمّة، وبدا اليوم على الأرجح ناويًا على أن يبذل قصارى جهده لعرقلة سنان. كان كرهه للمهاجرين القادمين من الأناضول شديدًا، وكان على استعداد للتّضحية برفاهية كلّ شخص في المدينة للحيلولة دون قدومهم.

أثناء مرورهم بحجرة التّشريفات، وجدوا السّلطان سليمان متربعًا على عرشه المغطّى بغطاء ذهبيّ والمرصّع بالجواهر. وكانت ثمّة نافورة مياه تقطر ماءً في ركن من الأركان، صوتها يبدّد صمت الحجرة. حيّا سيد العالمين المرتدي رداءً مصنوعًا من الحرير الأصفر وفروة من وبر السّمور الأسود، سنان تحيَّة حارّة، وإن لم تغب غلظة صوته على أحد. كان السّلطان قد لبس ثيابًا زاهية الألوان للمرّة الأولى من أسابيع، وكان ولداه قد أصبح كلّ واحد منهما عدوّ الآخر اللّدود، لكنّ فقدانه خرّم هو الّذي حطّمه أكثر من أيّ شيء آخر. فقد رحلت المرأة الّتي نظم لها قصائد الغزل، أمّ أولاده الخمسة، والملكة الّتي كانت مكروهة ومعبودة، والخليلة التي ارتقت سلالم المجد إلى أعالٍ لم تصل إليها أيّ فتاة أخرى من فتيات جناح الحريم، والّتي لم تتوقّف عنِ الضَحك يومًا. لقد

Twitter: @ketab_n

وافتها المنيّة من دون أن ترى ولدًا واحدًا من أولادها يتبوّأ العرش العثمانيّ.

بعد أن ركع التّلميذان ثلاث مرّات على الأرض خافضين أبصارهما إلى أسفل، سارا وراء معلّمهما، وملمس السجّاد من تحت أقدامهما ناعم وثير. سوف يتذكّر جَهان في وقت لاحق الضّياء منبعثًا من الشّمعدانات، وعبق شجرة الزّيزفون خارج النّافذة الّتي لم يتجرّأ على اختلاس النّظر إليها، لكنّه ارتاح لها على أيّ حال.

قال السّلطان سليمان آمرًا: دافِعْ عن مخطّطاتك يا رئيس المعماريّين الملكيّ.

أومأ سنان إلى تلميذيه برأسه، وكانا قد رسما مخطّطاتهما على قطع من جلد الجمل، بالغة الرّقّة تكاد تكون شفّافة، وعددها أربع. أمسك نيقولا وجَهان بالقطعة الأولى، كلّ واحد من طرف، ونشراها وعرضاها أمام السّلطان، فراحَ سنان يقدّم شرحًا لما ينوي عمله مشيرًا بين الفينة والفينة إلى بعض التّفاصيل، من دون أن ينبس أيّ من السّلطان الصّدر الأعظم ببنت شفة.

بعد ذلك، انتقلوا إلى الرّسم الثّاني فالثّالث: قنوات مياه مختلفة الأحجام وفي مختلف المواقع. أما الرّسم الرّابع، فوضعه سنان جانبًا وكان يمثّل مجموعة من الأنابيب الجوفيّة الّتي من شأنها أن تُستخدَمَ لربط مصادر متعدّدة، وهو الرّسم الّذي هزّهم طربًا أكثر من غيره. لو كان ثمّة جمهور يتلقّى ما يقول بأفضل منهما لكان قد أطلعه عليها، لكنّ غريزته أوحت له بأن يحتفظ بالمخطّط الرّابع لنفسه. وبدلًا من ذلك، قال: إنّ القنوات سوف تساعد في دفع الماء لسقي الحدائق والأفنية والبساتين والكروم. وقال لا شيء أنبل من إرواء ظمإ العطاش. ولمّا فرغ من كلامه، تحيّر السّلطان سليمان في كلامه برهة، ثمّ التفت إلى الصّدر الأعظم مستفسرًا عن رأيه.

Twitter: @ketab_n

كان رستم ينتظر هذه اللّحظة، وتكلّم بحيطة وحذر، كأنّه متألّم ممّا سيميط اللّثام عنه، لكنّه لا يملك خيارًا آخر غير ذلك.

ـ سنان المعمار رجل ذو مهارة، وقد أتانا بفكرة رائعة، لكنّني أخشى أنّه لا يدري أنّها لن تسبِّب لنا سوى المتاعب.

ـ أيّ متاعب أيّها الصّدر؟

ـ المشروع يكلّف أموالًا طائلة يا مولاي السّلطان، وسوف يؤثّر في الخزينة.

عندما سئل سنان عن الأمر، أوضح: ثمّة وسائل للتّقليل من النّفقات، وسوف نختار، أقصر طريق، ونستخدم الموادّ المناسبة حيث يمكننا ذلك.

قال الصّدر الأعظم: ماذا ستحقّق إذًا؟ عددًا أكبر من المهاجرين! لنفترض أن حريقًا اندلع، فكيف ستطفئه إذا كانت البيوت متجاورة مثل نبات الفطر البرّيّ؟

وهنا أخرج منديلًا وراح يمسح به جبينه من دون أن يتوقّع أيّ ردّ، وأضاف: هذه المدينة شديدة الازدحام، ولسنا بحاجة إلى ما هو أكثر.

علت وجه سنان غمامة وهو يقول: سلطاننا هو الّذي سيحدّد عدد الّذين سيأتون، لكنّ السّكّان الحاليّين بحاجة إلى الماء.

استمرّ الحديث على هذا النّحو فترة قصيرة، وعارض رئيس المعماريّين الملكيّ الصّدر الأعظم، وردّ الصّدر الأعظم على رئيس المعماريّين، وأخيرًا أعلن السّلطان وهو في غمرة سأمه من هذا الجدال: كفى! لقد أصغيت إلى كلا الجانبين، وسوف تعلمون قراري!

رجع سنان وتلميذاه إلى الخلف، وغادروا الحجرة، في حين بقي رستم وراءهم، ما دفع جَهان إلى الاعتقاد بأنّ بقاءه ليس إنصافًا، لأنّه بالتّأكيد سوف يحاول إقناع السّلطان في غيابهم. فقدح زناد فكره في مسعًى منه لإنقاذ الوضع. لو أنّ واحدًا منهم تمكّن من البقاء برفقة

Twitter: @ketab_n

السّلطان مدّة أطول من دون تدخّل الصّدر الأعظم، فقد يقتنع، وإلّا ضاعت الفرصة.

بقي التّلميذان في منزل سنان ذلك المساء بعد أن أوهنتهما أحداث ذلك النّهار. كان جَهان يأمل بمناقشة هذه الأمور، لكنّ المعلّم لم يكن واحدًا ممن يعجبه الحديث المفتقر إلى ارتباط أو التحام، فتركهما يتفكّران ويتدبّران. وبعد تناول العشاء، كان الإرهاق قد استبدّ بهما، فلاذا بسريريهما، حيث فكّر جَهان في خطّة وهو مضطجع يتقلّب في الظّلمة. ولمّا أعياه الانتظار حتّى الصّباح، فقد راح يتلمّس طريقة في الظّلام إلى النّاحية الأخرى من الحجرة، حيث كان نيقولا يغطّ في نوم عميق. فهزّه من كتفه.

صحا نيقولا من أحلامه، وقال: مَنْ هنا؟

ـ صه! هذا أنا.

ـ جَهان؟ ماذا حدث؟

ـ لا أستطيع النّوم. فكري مشغولٌ بما حدث اليوم.

قال، وإن كان قبل لحظة واحدة غائبًا عن الوجود: وأنا أيضًا.

ـ كيف يمكن سلطانَنا أن يتوصّل إلى قرار عادل، في حين يرافقه الصّدر كظلّه طوال الوقت؟ إنّ المعلّم لا يلتقي السّلطان إلّا مرّة كلّ مدّة طويلة، في حين يمكن رستم أن يلتقيه كلّ يوم.

ـ صحيح، ولكن ليس في اليد حيلة.

قال جَهان: ربّما ثمّة طريقة. لديَّ فكرة. هناك مكان واحد لن يزعج فيه الصّدر الأعظم السّلطان.

شهق نيقولا، وصاح: هل في نيَّتك دخول جناح الحريم؟

قال جَهان ضاحكًا رغمًا عنه: لا، هذا أمر مستبعد، فهناك مكان آخر لا يرافقه الصّدر إليه. خمِّن!

ـ آه، لا أعرف. أخبرني!

Twitter: @ketab_n

ـ الصّيد. عندما يذهب السّلطان للصّيد، سوف أقتفي خطاه، وأوضّح له غرضنا. وسوف يفكّر تفكيرًا رائقًا من دون أن يكون ذلك الصّدر الفضوليّ بصحبته.

قال نيقولا: تلك خطّة ذكيّة أيّها الأخ.

كان الاثنان يعرفان أنّ الصّدر الأعظم ينفر من المطاردة. وكان ثقيل الحركة لا يستطيع التّحرّك بالسّرعة نفسها الّتي يتحرّك بها الآخرون، ناهيك عن اقتفاء أثر طريدة وهو يصعد التّلال وينحدر منها.

قال جَهان: هذه هي هديّتنا إلى معلّمنا، ولكن لا تخبره بأيّ شيء في هذه الآونة.

خفت صوت نيقولا حتى بات همسًا: وإذا كانت ثمّة خطورة في ذلك؟

ـ ما وجه الخطورة في ذلك؟ إذا كان السّلطان لا يرغب في أن يصغي إلينا، فسوف أرحل.

ـ هل أرافقك؟

ـ يُستحسن أن أذهب بمفردي، وعندما أرجع، فإنّني أعدك بأن أخبرك بكلّ شيء.

ـ لكن... احذر.

ـ لا تقلق. سيكون كلّ شيء على ما يرام.

على الرّغم من ثقة جَهان، إلّا أنّ عقله كان خليّة نحل طوال الأسبوع، أعصابه ممزّقة. وظلّ يتدرّب على ما سيقوله للسّلطان، كلمة كلمة. وبفضل زملائه في مأوى الحيوانات، أصبح يعرف أين يذهب السّلطان للصّيد ومتى. وهنا يبدأ الجزء الثّاني من خطّته، الجزء الّذي لم يطلع نيقولا عليه. سوف يصطحب شوتا معه. لقد أخفقت جهوده حتّى الآن في أن ينال الفيل ودّ السّلطان ورضاه، لهذا راح يفكّر بأنّ أمام الفيل ومدرّبه فرصة لكسب حبّه.

Twitter: @ketab_n

أخيرًا حلّ اليوم الموعود، وشهد ذلك الصّباح جَهان متربّعًا على ظهر الفيل، وثمّة حقيبة جلديّة مربوطة إلى ظهره، وقد وصل بوّابة همايون الضّخمة باتّجاه آيا صوفيا محيّيًا الحرّاس.

سأله أحد الحرّاس: إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لقد نسي سلطاننا، ملاذ العالم، قوسه الميمونة، وأمرني بأن أذهب بها إليه.

سأل حارس ثانٍ: لماذا لم يرسلوا أيَّ فارس؟

قال جَهان على الفور: لأنّ الفيلة أسرع من الجياد.

ضحك الحارسان ضحكًا خفيفًا مكتومًا، ثمّ قال الحارس الأوّل: ربّما ينبغي لي أن أتيقّن من الأمر.

ـ طبعًا، وأنا سوف أنتظر هنا، لكن إذا لاحظ السّلطان أنّ قوسه الميمونة ليست معه، وتضايق، فإنّ الغلطة ليست غلطتي.

نظر الحارسان إليه، وتمهّلا وراحا يفكّران في كلماته الجادّة قبل أن يتنحّيا عن الطّريق معًا كأنّهما مربوطان بخيط غير مرئيّ.

قال الحارس الثّاني: انطلق. يُستحسن أن تزيد من سرعة هذا الفيل.

حثّ جَهانُ الفيلَ على السّير بسرعة، ولكن بعد أن خلّفا المدينة وراءهما لأنّه لم يرغب في أن يدهس الفيل أيّ شخص بعد اليوم. ولمّا توارت عن الأنظار مشاهد مدينة إسطنبول وأصواتها، أمر فيله بالإسراع.

وصلا إلى غابة الصّنوبر الواقعة شمال المدينة، وكان جَهان يعرف أنّ السّلطان يدفع بطريدته ناحية حافّة البقعة. انقضى وقت طويل، أو هذا ما فكّر فيه جَهان، وراح القلق يتملّكه. ظنّ أنّ السّلطان ومرافقيه مختبئون في مكان ما من وراء الأدغال ويطلقون عليه النّار مصادفة. كان يخترع مخاوف جديدة عندما تناهى إلى سمعه صوت نباح كلاب من بعيد. ستّة كلاب تقترب بسرعة.

Twitter: @ketab_n

فجأة رأى أيلًا، خارجًا من الغابة، متمايلًا ومترنِّحًا، إذْ كان ثمّة سهم قد اخترق رقبته، واخترق سهم ثانٍ قلبه. وكان استمراره في العدو معجزة.

في اللّحظة الّتي ترجّل فيها جَهان من على ظهر الفيل، كان الأيل قد اقترب منه، فروع قرنه تلمع تحت أشعّة الشّمس الغاربة. يا له من حيوان رائع! عينان واسعتان صافيتان، وحشيّتان إلى حدّ الهذيان. ولمّا تنشَّق شوتا رائحة الدّم، هزّ نابيه، لكنّ الأيل كان ابتعد عن منطقة الخطر، ووسّع منخريه وفتح فمه كأنّه يريد أن يقول شيئًا، ثمّ خرّ على الأرض.

وثب جَهان ناحيته، لكنّه تعثّر بجذع شجرة. وفي اللّحظة الّتي وصل فيها الحيوان، ظهرت من المجهول خمسة من كلاب الصّيد السّلوقيّة الطّويلة القوائم تنبح بكلّ ما أوتيت من قوّة، وأحاطت بالفريسة، تحول بنيه وبينها.

استدار جَهان بوحي السّاعة، فرأى السّلطان جالسًا على جواده محدِّقًا إليه، فما كان منه إلّا أنِ ارتمى على الأرض مرتجفًا، قائلًا: مولاي!

ـ ماذا تفعل أنت والفيل في هذه المنطقة؟

ـ إنّ هذا العبد الذّليل جاء ليحظى برؤيتكم إن كنتم تسمحون له بقول بضع كلمات.

ـ ألست أنت مروِّض فيلي وسائسَه؟

قال جَهان: بلى يا مولاي!

كان جَهان قد مثل أمام السّلطان قبل بضعة أيّام، وعرض عليه الخرائط والتّصاميم، لكنّ الواضح أنّ السّلطان نسي ذلك.

أضاف: أنا أيضًا تلميذ المعلّم سنان، وقد جئت متوسّلًا إلى سموّكم في هذا الموضوع.

Twitter: @ketab_n

بينما كانا يتحدّثان، راح الخدم يضعون الفريسة على عربة يجرّها حصانان، وسارت وراءها الكلاب السّلوقيّة وهي لا تزال تنبح محتفية بانتصارها.

سأل السلطان: لقد أخرجت فيلًا ملكيًّا من دون إذن. أتعلم أنّ مخالفة أصغر من هذه المخالفة تستدعي الجلد؟

ـ إنّني أطلب من جلالتكم العفو والمغفرة. كنت مضطرًّا لأن أراكم. وكان الأمل يراودني بأنّني لو أتيت برفقة الفيل فسوف أحظى برؤيتكم.

لو امتلك جَهان الجرأة على رفع بصره لرأى عيني السّلطان تومضان بابتسامة.

ـ لا بدّ من أنّ لديك سببًا لمثل هذا التّصرّف غير الصّحيح.

ـ لو سمحتم لي يا مولاي... لكنّه لم يستطع الحيلولة دون ارتعاش صوته، غير أنّه تحدّث في الموضوع الّذي لم يتمكّن من الإفصاح عنه في ذلك النّهار، لا هو ولا سنان. وأوضح للسّلطان مدى أهمّيّة مشروع سنان للمدينة وأنّ كثرًا من الأهالي - الفقراء والشّيوخ والمرضى والعجزة - سوف يدعون للسّلطان في كلّ مرّة يروون ظمأهم. أصغى السّلطان سليمان وطرح أسئلة، فاغتبط جَهان لمّا رأى أنّه محقّ في الاعتقاد بأنّ السّلطان رجل مختلف، طيّب القلب خارج أسوار القصر.

قال السّلطان: هل يعلم معلّمك أنّك هنا؟

ـ لا، لا يعلم، وقد يتضايق إن علم.

ـ ينبغي أن أتضايق أنا أيضًا، ولكنّني لست كذلك، فأنت تحترم معلّمك احترامًا واضحًا. ولو أنّ كلّ تلاميذ سنان بمثل إخلاصك وتفانيك لكان رجلًا محظوظًا.

شعر جَهان بابتسامة تفترّ على ثغره، وفكّر في أنّ أعظم الأوهام في

Twitter: @ketab_n

الحياة ربّما صنعت من مثل هذه الأباطيل غير المطلوبة. ففي لحظات لا تختلف عن هذه اللّحظات، يربّت الشّيطان على أكتافنا، ويهمس في آذاننا ويسألنا بسذاجة لماذا لا نريد ما هو أكثر.

- هل يمكنني أن أطلعكم على شيء آخر يا صاحب الجلالة؟

أومأ السّلطان إيماءة صغيرة جدًّا، فأخرج جَهان الرّقّ الّذي كان أخفاه في ردائه، ويمثّل تصميمًا أنجزه بنفسه لجسر حجريّ على نهر ويشتمل على سبع قناطر.

لا بدّ من مساقط صخريّة تواجه أعلى التّيّار لحماية الدّعامات الّتي تستند إليها بواكي الجسر من عنفوان الماء والأرصفة الّتي يسير عليها السابلة والحيوانات من فوق. وسوف يساعد الجسر المتحرّك في السّيطرة على حركة البضائع والمسافرين. وإذا ما وافق السّلطان على جسره مع قنوات سنان المائيّة، فإنّ من شأن جَهان أن يذيع صيته، ويسمّيه النّاس «معمار الماء»، أو الأفضل «أعجوبة سنان». وربّما يُقبل في النّقابة، من يدري؟ القاعدة العامّة تفيد بأنّ التّلميذ يتقدّم إلى أعلى بسرعة لا تزيد عن سرعة قوقع يشقّ طريقه في مرج من المروج. لكن، لماذا لا يكون جَهان استثناءً من تلك القاعدة؟ إذْ لا بدّ من أن يصل صيته إلى مسامع مهرماه.

أمسك السّلطان لجام حصانه من دون أن يلقي أكثر من نظرة خاطفة إلى التّصميم، وقال:

- تروقني شجاعتك أيّها الشّابّ، بيد أنّ الشّجاعة شيء خطير. تذكّر أنّ الحكم يأخذ في الحسبان مختلف الأوجه قبل أن يتّخذ أيّ قرار. عد أدراجك وانتظر حتّى أرسل في طلبك.

انطلق السّلطان وراءه حاشيته وكلابه وجياده، لكنّ جَهان ظلّ حتّى بعد انصرافهم يشعر بالرّيح تضرب وجهه. تنهّد تنهيدًا ينمّ عن ارتياح، فقد سارت الأمور سيرًا حسنًا، ووجّه شكره إلى السّماء.

Twitter: @ketab_n

هرول نيقولا إليه في اليوم التّالي عند موقع البناء، وسأله: ماذا حدث؟ كيف سارت الأمور؟

ـ لقد رأيته، وكلّمته.

اتّسعت عينا نيقولا، وقال: صحيح؟

ـ نعم.

كان ردَّ جَهان يتملّكه إحساس بانتصار لا يقوى على احتوائه.

ـ لو سألتني، لقلتُ لك إنّ سلطاننا يريد أن نبني قناة مائيّة وجسرًا.

ـ أيّ جسر؟

ـ آه، لقد أتيت على ذكر الجسر الّذي صمّمته أنا.

ـ من دون مشورة المعلّم؟

لم يجب جَهان لشعوره بالضّيق. فقد ظلّ ينتظر فرصة كي يحدّث سنان، لكنّ الفرصة لم تُواته. وبدلًا من ذلك، جاء أربعة منَ الفرقة الانكشاريّة قبيل غروب الشّمس بوقت قصير.

حيّاهم سنان: السّلام عليكم أيّها الجنود. ما الّذي أتى بكم إلى هنا؟

أتينا لنصطحب واحدًا من رجالك أيّها المعمار.

قال سنان: لا بدّ من وجود خطإ. فعمّالي رجال شرفاء.

ـ ليس عاملًا، بل تلميذ!

كان جَهان يسترق السّمع، وعندذاك سار باتّجاههم وهو يشعر بأنّ الأمر لا مناص منه. في تلك اللّحظة، سأل سنان: أيّ تلميذ؟

فذكر أحد الجنود اسم جَهان.

ومضت عينا سنان بارتباك، وقال: إنّه تلميذ جيّد.

قال قائد الجند الّذي كان يكنّ كلّ الاحترام للمعلّم، ولم يرغب في

Twitter: @ketab_n

إثارة استيائه وإزعاجه إذا جرّ من أمامه تلميذه: إنّها أوامر الصّدر الأعظم.

أصرّ سنان على أنّه لم يقترف أيّ غلطة. صحيح؟

لم يتطوّع أحدٌ للردّ. فما كان من جَهان إلّا أن تمتم وسط الصّمت: معذرة أيّها المعلِّم.

تغضّن وجه سنان عندما أدرك أنّ ثمّة أشياء حدثت ولم يعلم بها. فوضع يديه على كتفي جَهان، وضغط بقوّة كأنّه يريد أن ينقل إليه شيئًا من إيمانه.

تقلّصت حنجرة جَهان ولم يتجرّأ على فتح فمه خشية أن ينفجر بالبكاء. أمّا الجنود، فقد ساروا إلى جانبيه باحترام، وما إن تلاشى ضجيج موقع البناء، وأصبح خافتًا حتّى كبّلوه بالأغلال، وأخذوه إلى الصّدر الأعظم وهو في تلك الحالة.

قال رستم باشا مشيرًا بإصبعه: أنت! أنت تملك الوقاحة والصّفاقة حتى تكمن للسّلطان؟ ومثل ثعبان انزلقت من وراء ظهري!

شعر جَهان بالعرق يبلِّل عنقه، كان يرتجف.

ـ هل تريد أن تحلّ كارثة بالخزانة؟ أهذا ما تريد؟! لقد استفسرت عنك. يبدو أنّك تطفح بالأكاذيب. هل أنت جاسوس إيراني؟

قال جَهان بصوت متقطِّع: يا معالي الصّدر! أقسم بالقرآن الكريم أنّني لست جاسوسًا، وليست لدي أغراض سيّئة.

نادى رستم الحرّاس:

ـ سنفكِّر في هذا الموضوع.

هكذا وجد تلميذ سنان الصّعب المراس نفسه، عندما حاول مساعدة معلِّمه بجلب الماء للمدينة، قد زُجّ به في سجون قلعة الأبراج السّبعة المظلمة ـ حيث زُجَّ قبله بمئات ومئات الأشخاص ولم يخرج منها حيًّا سوى قلّة قليلة.

Twitter: @ketab_n

سأل الكاتب للمرّة الثّانية: ما اسمك؟

لم يكن جَهان يصنع معروفًا لنفسه برفضه الإجابة، ولكن على الرّغم من ذلك، فإنّ شيئًا ما داخله رفض أن يُضافَ اسمُه إلى تلك اللّفافة من الرّقّ الّتي كانت تشتمل على اسم كلّ وضيع قُبض عليه في إسطنبول. وتلبّسه خوف متزايد مفاده أنه سيُدفن في هذا الجحر إلى أبد الآبدين إذا ما دُوِّن اسمه هنا.

حملق فيه الكاتب، وقال بنبرة تفتقر إلى أدنى قدر من الرّشاقة، بخلاف خطّ يده: أسألك عن اسمك. فإذا لم تجب فسوف أقطع لسانك.

تدخّل رئيس الحرّاس الّذي كان يراقب المشهد قائلًا: الآن، الآن. ليس ثمّة ضرورة لإثارة هلع الدّجاجة.

قال الكاتب: الدّجاجة الملكيّة يا حضرة الأفندي!

ـ سوف نرى. الدّجاج سواسية عندما ينتف ريشه.

ـ صحيح أيّها الأفندي!

لم يضحك رئيس الحرّاس عندما رنا إلى جَهان بوجه صارم، يخلو من أيّة تعابير. وكان بوجهه النحيف ومنكبيه الدّائريّين قد ذكّر جَهان بصبيّ من صبيان قريته اعتاد أن يصطاد الضّفادع ويربطها بعصا ويشرّحها بسكينه ـ من دون أن يبدو أيّ تغيير على ملامح وجهه الخالي من التّعابير.

قال رئيس الحرّاس وكأنّ جَهان ليس في الحجرة: نعم، يا له من صيد ثمين!

ـ صيد الصّدر الأعظم!

Twitter: @ketab_n

أدرك جَهان أنّهما يعرفان كلّ شيء عنه، وأنّ السّؤال عن اسمه إنّما هو من أجل المِتعة المستمدّة من مضايقته، مثلما أنّه مقيّد بالسّلاسل، في حين أنّ الواضح جدًّا هو أنّه لن يطير من أمامهما. وكان وقوفه صامتًا طوال الوقت لا يعني سوى إطالة أمد السّخرية منه والاستهزاء به. وعندما تكلّم، صدر صوته مبحوحًا: إنّني مروّض فيل سلطاننا وتلميذ رئيس المعماريّين الملكيّ.

ران صمت قصير، بعد ذلك تخلّله خربشة ريشة الكاتب.

وعندما فرغ الكاتب، قال: إنّه رجل يُرثى له. صحيح يا حضرة الأفندي؟

ـ يُرثى له على وجه التّوكيد. رجل صغير وله عدوّ كبير.

بلع جَهان ريقه بصعوبة، وقال: سوف يُخرجني معلّمي من هذا المكان.

دنا رئيس الحرّاس من جَهان دنوًّا شديدًا، ما جعله يشمّ رائحة أنفاسه الكريهة.

ـ كلّ إنسان تعفّن في هذا المكان كان له معلّمه. ولم يفد ذلك بشيء، بل إنّ أولئك المعلّمين لم يسيروا في جنازة أحدٍ منهم.

ضحك الكاتب، لكنّ جَهان ازداد إصرارًا بقوله: معلّمي مختلف.

قال رئيس الحرّاس: الدّيك الّذي يصيح في وقت مبكر إنّما ينادي الجزّار. والتفت إلى الحرّاس رافعًا صوته: خذوا هذا الأمير إلى قصره.

دفع الحرّاس جَهان دفعًا عنيفًا في ممرّ رطب كريه الرّائحة، وهبطوا بضع درجات، ودلفوا إلى ممرّ آخر شديد الضّيق اضطروا معه للسّير فرادى. ولم يستطع جَهان منع نفسه من النّظر إلى الصّدوع في أحد الجدران الّتي تجمّع فيها طحلب أخضر لزج. بعد ذلك، هبطوا طبقة أخرى فأخرى. وازدادت الرّائحة الكريهة كما اشتدّت العتمة. ووطأت قدماه شيئًا عرف غريزيًّا أنّه كان حيًّا قبل الآن.

Twitter: @ketab_n

أصبحوا الآن في جوف البرج الشّديد الظّلمة باستثناء عدد ضئيل من الشّمعدانات الّتي من دونها، ولولا معرفة جَهان أنّ الوقت صباح عندما جِيء به إلى هذا المكان لاعتقد أنّ اللّيل قد أرخى سدوله. ثمّة زنازين يمينًا وشمالًا منحوتة على نحو يشبه أسنانًا مفقودة في فم. ثمّ شاهدهم، غائري الوجنات، هزيلي الأبدان. طوال القامات وقصارها، شيبًا وشبابًا. بعضهم انشغل بالنّظر إليه، جباههم متّكئة على قضبان من حديد. وآخرون تجاهلوه، مولّين ظهورهم له، لكنّ ثمّة رهطًا آخر من السّجناء استلقى على حصرٍ خشنة الملمس. كان جَهان يلمح في تلك اللحظات ذراعًا نحيلة تمتدّ من الدّاخل طالبة رشفة ماء، ووجهًا عجوزًا يتلصّص من بين الظّلال وأكوام الغائط بجانب دلاء مملوءة إلى حافّتها برازًا.

صرخ أحد النّزلاء صراخًا مرعبًا، وعندما التفت جَهان ليسمع ما يقول، إذا بالنّزيل يبصق في وجهه. لم يستطع جَهان أن يمسح البصاق بكتفه لأنّه كان مكبّل اليدين. وضحك السّجين. وحتّى بعد أن توقّفت شفتاه عن الحركة، استمرّت الضّحكة - خافتة ومرعبة. في تلك اللّحظة، شعر جَهان بأنّ البرج نفسه يهزأ به، فخذلته ركبتاه. صحيح أنّه لصّ، لكنّه ليس مثلهم. هؤلاء النّاس قطّاع طرق وقتلة ولصوص ومغتصبون وسلّابون، وما كان ينبغي له أن يكون بين ظهرانيهم. وهنا ازدادت مرارته، وكاد يختنق بها.

صاح به أحد الحرّاس: سِرْ!

صرّ أمامهم شيء ما، فما كان من الحارس إلّا أن رفع مشعله باتّجاهه فإذا هو خفّاش. تساءل جَهان عن كيفيّة دخوله ذلك البرج. لا وقت للتّفكير. وبعد أن فتح الحرّاس بوّابة يعلوها الصّدأ، دفعوا بجَهان إلى زنزانة خاوية.

ـ ها هو عرشك يا صاحب السّموّ!

Twitter: @ketab_n

انتظر جَهان قليلًا حتّى تعتاد عيناه الظّلام. ثمّة خيوط من الضّوء تنبعث من فتحات عالية، لا يزيد عددها عن السّت ولا يزيد حجمها عن حجم قطعة نقد. من هذه الفتحات ينفذ الهواء النّقي، إذا صادف ونفذ. ورأى جدرانًا صخريّة وأرضيّة قذرة وحصيرة رثّة ودلوين خشبيّين، أحدهما ملطّخ بالبراز والآخر مملوء ماءً، وقد طفت على سطحه بضع حشرات ميتة.

صرخ أحدهم من الجهة الأخرى للزّنزانة: هه! لماذا لم تأتوا به إلى هنا؟

وراح الرّجل يهذي ويثرثر عمّا يمكنه أن يفعله بجَهان. وبعد كل عبارة، كان زملاؤه ينفجرون ضاحكين. واستمرّوا على هذا النّحو بعض الوقت، الرّجل يتلفّظ بكلمات نابية ويتلمّظ بشفتيه، والآخرون يقهقهون. وسرعان ما انخرطوا في الغناء وراحوا يدقّون ويصفِّقون ويضربون الأرض بأقدامهم. كانت الضّوضاء على درجة بالغة من الشّدَّة ما جعل جَهان غير قادر على الحيلولة دون اختلاس نظرة إلى زنزانتهم الّتي كانت مضاءة بالشّموع بعكس زنزانته.

بدأ أحد النّزلاء ـ وهو صبيّ له شعر أجعد وعينان لوزيّتان وخدّان بغمّازتين ـ يرقص في حين انهمك الآخرون بالصّفير والهتاف. وراح يترنّح ويتمايل ويرفع قميصه إلى أعلى كاشفًا عن سرّته الّتي بانت عليها لؤلؤة صغيرة الحجم، وإلى الأسفل منها كلمة واحدة مكتوبة بحروف كبيرة ومقروءة ما جعل جَهان يتمكّن من قراءتها وهي: حبيب.

ـ تعال يا قيمر!

ـ هزّ تلك المؤخّرة!

تشجّع قيمر وأخذ يهزّ بدنه، وكلّما ازداد ميلًا ازدادتِ السّخرية بذاءة. وضحك بقيّة نزلاء الزّنزانة، وكان عددهم أربعة نزلاء وإن كان جَهان قد لاحظ أنّهم كانوا هيّابين من الشّقيّ. ذُهل جَهان لمرأى

Twitter: @ketab_n

السّجناء وهم من دون قيد بخلافه، وكذلك كلّ مَنْ شاهدهم من السّجناء وهم يمرّون أمام زنزانته. ولم يستطع جَهان أن يتخيّل كيف أمكن هؤلاء الحصول على مثل هذا الامتياز.

بينما كان جَهان منشغلًا بمراقبة الصّبيّ، كان الشّقي يراقبه. فجأة، أمسك قيمر من الخلف ودفع نفسه إلى أمام وكأنّه يريد أن يمتطيه. فزأر أصحابه، في حين افترّ ثغر قيمر عن ابتسامة تنمّ عن توتّر وهو خجل من نفسه. يبدو أن الجلبة كانت مسموعة في كلّ مكان، لكنّ الحرّاس تواروا عن الأنظار.

أخرج الشّقيّ نصلًا من فردة حذائه، ولعق طرفه البارد والحادّ ورفعه إلى رقبة قيمر، فراحت حنجرة الفتى تعلو وتهبط، لكنّه استمرّ بالتّرنّح. كان الثّلاثة غارقين في عالمهم الخاصّ بهم، الشّقيّ والرّاقص والنّصل.

تنحّى الشّقيّ جانبًا وشمّر عن ساعديه. كانت ذراعه الشّمال تعلوها الكدمات والجروح، وكان قسم من تلك الجروح قد شُفيَ تمامًا في حين بدت أخرى جروحًا حديثة. وبحركة واحدة سريعة، شَرَطَ ذراعه من منطقة الرّسغ وحتّى مرفقه، فسالت قطرات الدّم على الأرض الّتي تنبّه جَهان إلى أنّها كانت ملطّخة ببقع سود. حاول جَهان بكلّ ما يستطيع أن يبدو لامباليًا، وارتمى من التّعب وفكّر في أنّ في وسعه أن يقتل هذا الرّجل.

فجأة، صاح صوت اخترق الهواء: كفى أيّتها المجموعة!

على الرّغم من أنّ الأمر كان غير واقعيّ، إلّا أنّ صداه تردّد بين الجدران وكتم الجلبة سريعًا. اختلس جَهان نظرة إلى يمينه، نحو الزّنزانة الواقعة في نهاية الممرّ، لكنّه لم يشاهد شيئًا أوّل الأمر. بيد أنّ وجهًا مألوفًا ظهر من وسط الفتحة وعلى نحو بطيء. بالابان.

تذمّر الشّقيّ.

Twitter: @ketab_n

ـ الرّجال يستمتعون بوقتهم.

ـ هه! قل لهم إنّهم سبّبوا لي الصّداع.

أشار الشّقيّ إلى زملائه، فانسحبوا إلى زوايا زنزانتهم، بمَنْ فيهم الصّبيّ الّذي عاد أدراجه على مضض.

صاح بالابان: ثمّة أمر آخر.

ـ ماذا؟

ـ توقّف عن جرح نفسك يا عبد الله، فأنا لا أريد رؤية الدّماء في كلّ مكان.

قال عبد الله مبديًا استياءه لأنّ طعنته لم تلق التّقدير: إنّها من أجل الصّبيّ الجديد.

قال بالابان: حسنًا، انتهى الاحتفال. اقترب من القضبان الحديد لزنزانة جَهان ورمقه بنظرة خاطفة، وقال: ماذا تعرف؟ إنّه الفتى الهنديّ.

ثمّة خمسة من الغجر معه في السّجن، مخلصين له الإخلاص كلّه. رفعوا رؤوسهم وحيّوا جَهان.

سأل بالابان: كيف انتهى بك الأمر إلى هذا المرحاض؟

قال جَهان: لقد أزعجتُ الصّدر الأعظم. وأنت؟

ـ أنا؟ أنا لم أقترف ذنبًا. كلّ ما هنالك أنّني داعبت القاضي قليلًا!

كان بالابان قد قُبض عليه لسرقته عربة تعود إلى القاضي الّذي كان قد زجّ بواحد من أقرباء بالابان الأبعدين في السّجن، وحكم على عم أبيه بالإعدام شنقًا. فقرّر بالابان أن يثأر لأسرته، فسرق هو ورفاقه مجوهرات القاضي وقفاطينه، وطبخوا طواويسه في باحة داره وخطفوا زوجته الرّابعة وأضرموا النّار في إسطبلاته. ولم يُقبض عليهم إلّا عندما شاهدوا عربته الجديدة الّتي جيء بها من بلاد الفرنجة، وكان يملكها قبل ذلك سيّد إقطاعيّ.

كان بالابان ملكًا في سجون قلعة الأبراج السّبعة. ففي وسط

Twitter: @ketab_n

البؤس والتّعاسة شيّد له واحة، فيها وسائد ناعمة من الحرير، كانون للتّدفئة وإبريق نحاسيّ لصنع القهوة، وكان عرشه عبارة عن كرسيّ من البلّوط تكثر فيه النّقوش. وكان زملاؤه في السّجن إمّا يهابونه أو يتحاشونه، حريصين على عدم إزعاجه أو مضايقته، لأنّهم كانوا جميعًا لديهم أحبّاء خارج السّجن، آباء وزوجات وأبناء. وكان أشرس المساجين يدرك أيضًا أنّه إذا ما أخطأ في حق بالابان، فإنّ واحدًا من أقرباء الغجريّ سوف يردّ عليه بالمثل، إذ كان بالابان رئيس عشيرة كثيرة العدد، حجمها لغز من الألغاز حتّى في رأيه. لكن، لم يكن هذا هو السّبب الوحيد الّذي جعله في هذا المقام الرّفيع. فقد كان النّزلاء والحرّاس يخشون الغجريّ بصفته جالب النّحس الّذي ما إن يمارسه في ليلة يكون فيها القمر بدرًا، حتّى يصعب الانفكاك منه إلّا بعد سبعة أجيال. وحتّى بعد وفاة الضّحيّة، فإنّ أحفاده سوف يعانون العواقب.

كلّ هذا تعلّمه جَهان سريعًا. وراوده الشّكّ في أنّ بالابان وحده هو الّذي يقف وراء كلّ تلك الأساطير الخاصّة به. فهو ثاني أذكى رجل يلتقيه بعد سنان. ولكن، في حين وجد أنّ ذكاء معلّمه أشبه ببحيرة هادئة لا قرار لها، فإنّ بالابان كان نهرًا مضطربًا يتلاطم موجه هنا وهناك، حادّ الطّبع لا يلتزم بمجراه.

كان جَهان يغطّي نفسه ليلًا بدثار مهلهل أتى عليه العثّ، تفوح منه رائحة جسد كلّ من تدثّر به. وكان الجوّ أحيانًا شديد البرودة، فتصطكّ أسنانه ويتذكّر الأزاميل وهي تحفر في الصّخر. كانت أصوات الرّياح المزمجرة تُسمعُ من بين الشّقوق في الجدران، والحشرات تتطاير والجرذان تعدو. وكان تفكير جَهان في أحد هذه المخلوقات وهي تدخل أذنه أو تقضم أنفه، يسبّب له هلعًا ورعبًا فينام نومًا متقطعًا، منتظرًا انبلاج الصّبح ليستيقظ مصابًا بالصّداع من شدّة ضغطه على فكّيه. كان مشتاقًا لشوتا ولمهرماه مرّة أخرى وسماع صوتها الرّقيق. بدت له حياته

Twitter: @ketab_n

السّابقة أشبه بحكاية لا يعرفها إلّا معرفة واهية لأنّه سمعها ذات يوم من شخص آخر.

كان الحرّاس حقودين بطبيعتهم، والأسابيع تمرّ بطيئة، وأضحى الوقت سلّمًا لولبيًّا لا ينتهي. في وسعه أن يتحمّل الوحدة والعزلة. أمّا الإهمال فلا يطيقه. بذل قصارى جهده ليجد مسوّغات لا يفهمها عن السّبب الّذي حال بين سنان وبين إرساله أيّ رسالة إليه. في الأيّام الأولى من السّجن، توقع أن يُطلقَ الحرّاس سبيله كلّما سمع وقع خطواتهم. لكنّه لم يعد يتوقّع ذلك، المؤكّد أنّه بات في طيّ النّسيان. وتخيّل يوسف ونيقولا وداؤود ومعلِّمه وهم يعملون كما هو مألوف من دون أن يتأثّروا بسبب غيابه. ورأى مهرماه برفقة خادماتها ترنو إلى وجهها أمام مرآة بندقيّة، تندبه ندبًا صامتًا، لكنّه عميق. فكّر في شوتا ومروّضي الحيوانات في القصر، كلّ واحد منهم في عالمه الخاصّ به. وابتلّت روحه غضبًا ونفورًا، وتضاعف هذا الغضب والنّفور بأكثر ممّا يتضاعف به عدد البراغيث الزّاحفة على رأسه.

كان النّزلاء يتلقّون مرّة واحدة في اليوم قطعة عفنة من الخبز وعصيدة خفيفة تحتوي على فتات من الغضاريف، لم يستطع جَهان حشرها في فمه من دون أن يتقيّأ. واكتشف أن الجوع يتسبّب بحدوث أشياء غريبة. فكان يحلم بالطّعام ـ كلّ أنواع الطّعام، بغضّ النّظر عن الوقت. وحدَّث نفسه، مجادلًا أولئك الّذين الحقوا به الأذى في سابق الأيّام: القبطان غاريث وكامل آغا القرنفليّ ومروّض الدّببة ميركا... وتنازع مع كلّ واحد منهم، في يقظته وفي منامه. راقبه عبد الله من زنزانته بابتسامة ساخرة كأنّه يريد أن يقول له أنّهما أصبحا الآن متشابهين.

وبعد مرور شهر واحد، جاء الحرّاس بغلام إلى السّجن، جمال وجهه لا يفيده بقدر ما يضرّه، وتبيّن أنّه لصّ. كان الغلام يمشي بمشقّة

Twitter: @ketab_n

بعد أن ضُرِبَ مئة ضربة على كلّ قدم، وأخيرًا قبّل كلّ يد من يدي الشّخص الّذي عاقبه، شاكرًا إيّاه على إرشاده إلى الطّريق المستقيم، وطُلب منه أن يدفع مالًا للشّخص الّذي ضربه لأنّه تسبّب في إرهاقه. ولم يكن لدى الفتى شروى نقير، فضُربَ من جديد، وأُرسلَ إلى قلعة الأبراج السّبعة.

ثمّة فسحة واسعة في زنزانة جَهان، لكنّهم زجّوا به في الزّنزانة المقابلة له، ولم يمضِ وقت طويل حتّى بدأ عبد الله بمضايقته، فقاومه الفتى مقاومة شرسة، وغالبًا ما كان يتناهى إلى مسامع جَهان صوته الرّفيع والحادّ المشوب بالذّعر والفزع. فظهرت الدّوائر السّود تحت عينيه، وراود جَهان الشّكّ في أنّ الفتى لم يضع رأسه على الأرض ويستريح لأنّه كان مضطرًّا إلى البقاء يقظًا.

في صباح يوم من الأيّام، استيقظ جَهان على أثر سماعه أصوات مكتومة. فلاحظ قيمر أوّل الأمر واضعًا حاجبيه على إحدى زوايا زنزانته، فيما انشغل الآخرون بلعب النّرد وهم يصيحون ويشتمون، ثمّ رآهم: كان عبد الله قد استلّ نصله ووضعه على رقبة الفتى، مجبرًا إيّاه على التزام الهدوء وراح ينزع عنه بنطاله. أمّا بقيّة النّزلاء فتظاهروا بعدم الالتفات.

هرع جَهان إلى قضبان الزّنزانة وصرخ بأعلى صوته: بالابان!

لم يأته أيّ جواب.

ـ يا بالابان!

فجاءه ردّ أجشّ: ماذا؟ لماذا تصهل كالجواد؟

ـ الفتى في وضع سيّئ.

ـ وماذا تريد؟

ـ ساعده!

ـ لو اضطررت لمساعدة كلّ فتًى غبيٍّ، لما عاد لديّ وقت كي أتغوّط.

Twitter: @ketab_n

ـ إنّه طفل لا أكثر.

ـ هكذا إذًا؟ إذا كنت مطرقة، فعليك أن تطرق. أمّا إذا كنت مسمارًا، فينبغي لك أن تتحمّل الطّرق.

صرخ جَهان: عليك اللّعنة! افعل شيئًا ما وإلّا...

ظلّت العبارة معلّقة في الهواء، لم تكتمل. وتردّد جَهان وهو يبلع ريقه بصعوبة. بأيّ شيء يمكنه أن يهدّده؟

ثمّ استرسل بوهن: هذا يعني أنّك لا تختلف عن عبد الله.

ردّ بالابان: لم أزعم يومًا أنّني مختلف.

ضحك عبد الله، وكانت يداه تداعبان مؤخّرة الفتى، وقال: أتريد إنقاذه؟ تعال وخذ مكانه!

خيّم صمت ثقيل في حين فكّر جَهان بما يمكنه أن يفعله. بالابان وقيمر والفتى والنّزلاء في أقصى الممر، كلّ واحد منهم بدا كأنّه ينتظر ردًّا منه. وشعر جَهان بعار يحرقه وبضرورة أن يقول شيئًا له وزنه.

ـ لديّ فيل، وقد دهس أكثر من رجل، وعندما أخرج من هنا، فإنّني أقسم على أنّني سوف أقتلك.

قال عبد الله مرتبكًا: ما الفيل؟

ـ حيوان متوحّش، أكبر من بيت.

هزأ عبد الله بقوله: هل تعاطيت الحشيش؟ أيه؟ أين عثرت عليه؟

ـ صحيح. الفيلة أكبر الحيوانات على وجه الأرض. سوف يفرمك فيلي فرمًا.

قال عبد الله: هراء!

تدخّل بالابان قائلًا: يُستحسنُ أن تصدّقه. فأنا أيضًا لديّ فيلة. فيله وفيلتي زوج وزوجة. حيوانان ذكيّان. أذكى منك بالتّأكيد، وفي وسعهما تحطيمك كأنّك ضِفدِعٌ.

بعد أن وقف بالابان إلى جانب جَهان، فكّر عبد الله بالتّهديد تفكيرًا

Twitter: @ketab_n

جادًّا أكثر من ذي قبل. فسأل عاقدًا حاجبيه: ماذا يأكلان؟

قال جَهان: لحم البشر.

قال عبد الله وإن كان غير متأكّد هذه المرّة: كذّاب!

في تلك اللّحظة العابرة، حرّر الغلام نفسه من حضن عبد الله، وركض إلى الجهة الأخرى من الزّنزانة. ولم ينبس ببنت شفة طوال ذلك النّهار. لحسن الحظّ أنّ سراحَه سيُطلقُ عمّا قريب. وبقدر ما كان جَهان سعيدًا وهو يراه بأمان، إلّا أنّه لم يستطع النّهوض من على حصيرته وتوديعه، إذ كان يشعر بالإعياء، والعطش، وبالبرودة. الزّمن توقّف عنده، وفي خضمّ نوبات هذيانه، كان يقبّل مهرماه ويضحك مع سنان ويسير إلى جانب نيقولا ويوسف وداؤود. وشاهد عددًا من الغيلان والعفاريت، أحدها في غاية الإزعاج، يصرّ على أن يكرع نقيعًا.

قال جَهان: لا أريد أيّ شيء من عفريت.

ـ لست عفريتًا أيّها الأبله.

أرغم جَهان نفسه على فتح عينيه، وقال: بالابان؟

ـ هيّا، تعال واشرب! فأنت تحترق.

كان بالابان يمسك بالكوب بإحدى يديه، وساعده بيده الأخرى على الجلوس والاتّكاء على الجدار.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ إنّني أعتني بك.

ـ كيف دخلت؟

ـ لديّ مفتاح لكلّ زنزانة من زنازين هذا الممرّ.

ـ أنت ماذا؟

ـ صه! سوف نتكلّم عن هذا الموضوع لاحقًا. قل لي: ألديك زوجة؟

Twitter: @ketab_n

ـ حبيبة؟ هه! صدر مكتنز وردفان دافئان. تخيّل أنها أعدّت الشّربة لك. خذ رشفة، ولا تفطر قلبها.

لم يستطع جَهان طوال حياته أن يتخيّل مهرماه وهي تعد له ـ أو لأيّ شخص آخر ـ الشّربة. فأغمض عينيه، وتمتم: لا أريد. . .

ـ أأثق بك؟ أنت لم تساعد الفتى.

تنهّد بالاباان.

ـ الفتى ليس واحدًا منّا، وهو لم يبايعني. لو أنّني أردت أن أحمي كلّ فرد، فكيف يتسنّى لي جعل أهلي مخلصين لي دائمًا؟ لديّ ما يكفيني من المتاعب وانشغال البال. أتدري ما يقولون عندما يكون هناك غجريان اثنان؟ ثمّة ثلاثة آراء.

ـ إذًا، أنت لا تحمي إلّا جماعتك؟

ـ نعم، أسرتي وحدها؟

ـ اللّعنة على أسرتك!

ـ انتبه إلى كلامك أيّها الأخ. لماذا ينبغي أن أساعد كلّ وغد أو شقيّ في هذا الجحر؟

ـ لماذا تساعدني؟ كنت مخطئًا، وأنت أسوأ من عبد الله.

ـ إذا استرسلت في الكلام معي بهذه اللّهجة، فسوف أقطع لسانك.

قال جَهان: اقطعه! لم يعد يهمّني بعد اليوم.

ـ إلّا إذا. . . كنت من الأسرة. وعندذاك يمكنك أن تتكلّم على ذلك النّحو.

سيطرت على جَهان نوبة من السّعال فتشنّجت كتفاه، وعندما استعاد صوته مجدّدًا، سأل: ماذا تقول؟

ـ لنعقد صفقة. اشرب هذا الشّراب وأتمنّى لك الشّفاء العاجل.

Twitter: @ketab_n

سوف أقيم مأدبة في فصل الرّبيع القادم، وسأجعلك غجريًّا فخريًّا، فلا اضطرّ لقطع لسانك.

نَدَّت ضحكة واهية من بين شفتي جَهان، فحدّق فيه بالابان، وقال: أتظنّ الأمر مضحكًا؟

قال جَهان: لا، ليس الأمر مضحكًا. سوف تكرمني... كلّ ما هنالك أنني لا أعتقد أنّني سأخرج من هنا.

قال عبد الله الّذي كان يسترق السّمع من زنزانته: دعِ العفن يستشرِ فيه.

صاح بالابان: اخرس! ثمّ خفض صوته وهو يخاطب جَهان: اشرب هذا الشّراب وسأجعلك غجريًّا. إنّه نقيع ممتاز، وصفة من وصفات جدّتي.

لم يطرح جَهان أيّ سؤال عمّن تكون الجدّة وهو في تلك الحالة. لكنّه ما إن رشف رشفة من الشّراب حتّى بصقه، وقال: ما هذا؟ إنّه مقرف.

تنهد بالابان. وبحركة سريعة واحدة، أعاد رأس جَهان إلى الخلف وضغط به على كتفه وراح يسكب المشروب في فمه. بلع جَهان نصف الكمّيّة بعد أن راح يشهق ويمجّ المشروب من فمه ويسعل ويحاول التقيّؤ. قال بالابان: حسنًا. ثمّ أخرج منديلًا من جيب صديرته الدّاخليّ وربطه حول رأس جَهان، وقال: سوف تصبح فردًا من أسرتي هذا الرّبيع.

قهر جَهان المرض من دون أن يعرف ما إذا كان سبب ذلك هو سحر النّقيع الّذي استهلكه ثلاث مرّات يوميًّا طوال الأسبوع التّالي، أم إنّه الحظّ ولا شيء غيره وإن كان يعلم أنّه لا يملك من الحظّ الشّيء الكثير. كما أنّه وجد في نفسه القوّة على البدء برسم الخرائط والتّصاميم من جديد.

Twitter: @ketab_n

إذا كان الأمل واهيًا في قلعة الأبراج السّبعة، فإنّ البراز متوافر جدًّا فيها. فالدّلاء نادرًا ما كانت تفرغ، ولم يكن جَهان استثناء من ذلك. فقد ظهرت كومة من الغائط في ركن من أركان الزّنزانة. في سالف الأيّام، كان المعماريّون يخطّطون تصاميمهم وخرائطهم على الأرضيّات الكلسيّة. أمّا هنا، فقد بدأ جَهان يرسم على أرضيّته مستعينًا بِغُصَيْن وببرازه كحبر.

في البدء، صمّم خانًا، لكنّه مسحه وحاول أن يرسم منزلًا كبيرًا يليق بمهرماه. وكانت تحفته متمثِّلة بمبنى سجن. مبنًى ليس عموديًّا، بل أفقيّ. ومن خلال الفتحات الواسعة في السّقف، كان الضّوء والهواء النّقي ينسابان بكمّيّات كبيرة. وفي سجنه، لن يسمح بالاختلاط بين النّزلاء الكبار السّنّ والصّغار السّنّ. كما أنّه لن يترك نزيلًا مقيّدًا. ويمكن هؤلاء النّزلاء أن يشتغلوا في مراسم، فيتعلّمون النّجارة أو البناء. وستكون ثمّة مشاغل قريبة من المبنى الرّئيسيّ. ظلّ جَهان حتّى هذا اليوم مغتبطًا بتصميم المباني، لكنّه لم يفكّر قطّ في أولئك الّذين يمكن أن يستخدموها وفي شعورهم تجاهها. أمّا الآن، فالأمر مختلف، إذْ راح يهتمّ بالنّاس قدر اهتمامه بالمباني.

عندما جاء بالابان في المرّة التّالية ليستفسر عن حاله، سأله: ماذا تفعل؟

ـ أرسم مأوًى للفقراء. هنا المطبخ، وهنا المكتبة، وإذا ما عزم كلّ رجل حكيم في المدينة على التّعليم فيه يومًا واحدًا، فعليك أن تتخيّل أنّ المعوزين سوف يمكنهم الانتعاش.

قال بالابان: يا لك من مسكين! لقد أصبت بمسٍّ من الجنون.

لكنّه لم يستطع إلّا ان يسأله: والرّسم الآخر؟

Twitter: @ketab_n

قال جَهان مشيرًا إلى الرّسم الثّاني: ذلك هو المستشفى، لمن هم أكثر جنونًا مني. وسوف يضمّهم المبنى كلّهم، ولكن من دون إيداعهم السّجن.

ـ حسنًا، نفِّذ رسومك خارج السّجن. لديّ خبر. لقد أصدر الصّدر الأعظم عفوه عنك.

ـ كيف عرفت؟

ـ لديّ أصدقاء في القصر.

ظلّلت غمامة وجه جَهان، وقال: لكن لماذا؟ ما الّذي حدث؟

قال بالابان رافعًا يديه متذمّرًا: ماذا جرى لك؟ اركع على ركبتيك واشكر الله. لماذا تكثر من الأسئلة باستمرار؟ عندما تكون غريقًا، فإنّك تتشبّث بأفعى، ولا تسألها ما إذا كانت أفعى صالحة أو شريرة. دعني أُلقِ نظرة عليك أوّلًا.

قبيل الفجر بوقت قصير طرق سمعَ جَهان وقعُ أقدام، أعقبه صوت مفتاح يدور في قفل زنزانته، ثمّ دخل حارسان ونزعا عنه أغلاله وساعداه على الوقوف على قدميه. على الرّغم ممّا كان قد سمعه من بالابان، فإنّ الشّيء الأوّل والوحيد الّذي خطر على باله هو أنّهم سوف ينفِّذون فيه حكم الإعدام. فلمّا رأيا تردّده، دفعاه دفعًا وإن كان أخفّ من دفعهم إيّاه في الأيّام الماضية. وتأكّدت له مخاوفه عندما شعر بتعاطفهما معه.

ـ هل تنويان شنقي؟

ـ لا أيّها الغبيّ. لقد أُطلق سراحك.

اتّجه جَهان غير مصدِّق إلى زنزانة بالابان، فرأى الغجر يغطّون في نومهم، فانزعج لذهابه من دون توديعهم. فأخذ المنديل الّذي ربطه زعيم الغجر برأسه وشدّه إلى القضبان الحديديّة. لمح قيمر الّذي تفوّه بكلمات

Twitter: @ketab_n

غير مسموعة. وكان إلى جانبه عبد الله ينام بسلام، عاجزًا عن إظهار العنف الكامن بداخله.

ساروا على امتداد الممرّ وارتقوا السّلالم. وبينما كانوا يصعدون الطّبقات، كان كلّ ما استطاع جَهان التّفكير فيه هو: من أنقذه، ولماذا؟ ثمّة عربة كانت بانتظاره خارج السّجن.

سأل الحوذيّ: إلى أين نذهب؟

ـ أُمِرْتُ بأن أصحبك إلى مولاتي مهرماه.

هكذا اكتشف جَهان هويّة منقذه. راح يحدِّق من نافذة العربة بالسّديم المنتشر فوق البحر، وبخضرة أشجار الصّنوبر الغامقة، والطّائرات الورقيّة الّتي تحلِّق بأذيالها المتشعِّبة وسط النّسيم. كلّ شيء كما كان عندما غاب عنه. في الوقت نفسه، لا شيء كما كان. فعندما يحدث للمرء تغيّر مفاجئ، فإنّه يتوقّع أنّ العالم أيضًا تغيّر إلى حدٍّ ما.

مدّ رأسه خارج النّافذة، ونادى الحوذيّ: لا يمكنني الذّهاب وأنا في هذه الحالة. أتوسّل إليك أن تأخذني إلى أحد الحمّامات.

ـ لا، لديّ أوامر تقتضي بأن آخذك إلى سلطانتي مباشرة.

ـ الرّحمة أيّها الأفندي. كيف يمكن أن تراني وأنا في هذه الحالة؟

هزّ الحوذيّ كتفيه، ولم يبالِ به، وقال بفظاظة: كان ينبغي أن تفكّر في الأمر قبل الآن.

تميّز جَهان غضبًا لدى سماعه هذه الكلمات، ولم يعد لديه أيّ صبر تجاه قساة القلوب، فقال: أصغ إليَّ الآن. لقد خرجت قبل قليل من السّجن. واذا ما إضطررت، فسوف أعود إليه سيرًا على القدمين. لكن قبل أن أذهب، سوف أقتلك.

تذمّر الحوذيّ، فأوقف العربة في الميدان التّالي وهو خائف من محكوم سابق، وانعطف إلى شارع فرعيّ باحثًا عن أقرب حمّام.

Twitter: @ketab_n

لم يوافق صاحب الحمّام على دخول جَهان أوّل الأمر، لكنّه سمح له بعد أن دفع له الحوذيّ رشوة. عندما لامس الماء الحارّ جلد جَهان، جفل متألِّمًا. وكان دفء بلاط المرمر على أصابع قدميه يشبه السّير فوق السّحاب. كما أنّه حلق ذقنه للمرّة الأولى بعد مرور ستّة أسابيع، وكان الدلّال كرديًا ضخم الجثّة، مغتاظًا، مشدود الأعصاب إمّا لأنّ ظلمًا لحق به في صباح ذلك اليوم أو لأنّه استهلك كمّيّة كبيرة من التّوابل لأنّه راح يفرك فركًا شديدًا ـ أصابعه تعمل بسرعة، وحلقات قرمزيّة تتشكّل حول رسغيه بسبب ما يبذله من جهد جهيد. ولما فرغ من التّدليك، بدت بشرة جَهان حمراء مثل زهرة الخشخاش. وتسرّبت رائحة السّجن وقذارته من جلده ذرّات سوداء اللّون. وقف على قدميه مصابًا بالدّوار، متمايلًا ومترنّحًا في سيره وسط البخار باتّجاه الدّكّة خارجًا، فشعر بالبرودة والانتعاش بعد أن كان في إحدى غرف الحمّام الدّاخليّة الحارّة والكثيفة البخار.

قُدِّمَ له شراب الفراولة البرّيّة، فراح يشربه لأنّه بحاجة لأيّ شيء لذيذ، ونظر نظرة خاطفة حوله، فشاهد رجلًا ممتلئ الجسم، متورّد الوجه، ربّما كان تاجرًا، وقد راح في إغفاءة، ورجلًا آخرَ ذا عينين ثاقبتين وندبة تمتدّ إلى عظم وجنته، جالسًا على الحافّة، مدليًا ساقيه إلى أسفل وكانتا ملفوفتين بأكملهما بما يشبه العباءة. أما الكازاخستاني الذي إلى جانبه، فقد دقّق النّظر إلى جَهان، لكنّه ولّى له ظهره بعد أن وجده غير مثير لاهتمامه.

بعد برهة، جاء غلامان، وجهاهما أمردان، ولهما عيون واسعة ولامعة. كان الرّجل الممتلئ الجسم هو الّذي استدعاهما، فعرف جَهان

Twitter: @ketab_n

ماذا يدور، إذْ كانت الحمّامات تحتوي على حجرات خصوصيّة يقدّم فيها الغلمان خدمات معيّنة لزبائن مختارين. فكّر جَهان في قيمر وعبد الله، فتشنّج ظهره وتقلّص وجهه مكشّرًا.

همس صوت في أذنه: أنت لا تحب الغلمان.

كان ثمّة رجل قد طرح ثقله على الدّكة الرّخاميّة بجانبه. وكانت ذراعاه وساقاه وصدره حتى كتفاه مكسوّة بشعر أسود كثيف.

قال جَهان: لا أحبّ ما يحصل هنا.

ردّ الرّجل مبتسمًا وإن هزّ رأسه كأنّه يوافقه قوله: أتعرف ما يقولون؟ غلمان في الصّيف وزوجات في الشّتاء حتّى تحتفظ بدفئك.

ـ أفضّل أن أتدفّأ بدثار خفيف صيفًا ولحاف شتاءً.

ضحك الرّجل من دون أن يضيف أيّ شيء. قبل أن ينصرف جَهان من الحمّام، ارتدى الثّياب الّتي أحضرها له الحوذيّ، وشاهد الغلامين خارجًا، يتهامسان، أحدهما بيده سكّة فضّيّة كأنّها مفتاح يؤدّي إلى عالم سرّيّ.

في عصر ذلك اليوم نفسه، غمره شعور بالاهتياج عندما دخل منزل مهرماه على ضفاف البوسفور. إذًا، لم يصبّ قلبه بالخدر. ركع أمامها بعد أن أخذ بضعة أنفاس قصيرة ليحكم رباطة جأشه.

وضعت يدها على فمها، وقالت: انظر إلى هيئتك. أنت كومة من العظام.

تجرّأ جَهان على رفع بصره والنّظر إليها، فشاهد حول رقبتها عقدًا من اللآلئ يعكس أشعّة الشّمس كلّما تحرّكت. وكان ثوبها أخضر اللّون. امرأة متزوّجة، سلوكها يختلف كثيرًا عن السّابق. كانت حسناء جميلة من وراء الخمار الشّفّاف، لكنّها بدت حزينة أيضًا. لم يسبق له أن

Twitter: @ketab_n

شاهد حزنًا بمثل هذه العذوبة. كانت قلقة عليه. ربّما هامت به. وساوره إحساس بأنّ قلبه سينفطر.

حثّته على أن يتذوّق كلّ شيء بعد أن راحت تطلب الأطباق واحدًا إثر الآخر: يخنة لحم الضّأن، أوراق العنب المحشوّة، الخوخ مع نقيع السّكّر، اللّوز بسكّر مختلف الألوان. ثمّة شيء ما في صحن صغير لم يسبق لجَهان أن أكل منه: كافيار. كم غريبة هي الأقدار، إذْ كان بالأمس يرسم الخرائط والتّصاميم بالبراز، أما الآن فهو متربّع على وسائد من حرير، ويأكل الكافيار من يدي حبيبته. وعندما أغمض عينيه قليلًا، لم يستطع أن يعرف أيّهما الواقع وأيّهما حياة شخص آخر.

قالت مهرماه بصوت يشبه الهمس: كنت قد اعتدت على رواية الحكايات. هل تتذكّر؟

ـ كيف يمكنني أن أنسى يا صاحبة السّموّ؟

ـ كان كلّ شيء مختلفًا في تلك الأيّام. كنّا أطفالًا لا أكثر. لا بدّ للمرء من أن يكون طفلًا حتّى يتمتّع بالحكايات. ألا توافقني؟ ولكن، على الرّغم من ذلك، فإنّ في وسعنا ونحن في سنّ الرّشد أن. . .

كانت توشك أن تمضي في حديثها لولا سماعها صوت وقع أقدام على السّلّم الكبير. فاعتدل جَهان في مجلسه، إذْ فكّر في أنّ القادم هو زوجها رستم باشا. لكنّه شاهد حسنة خاتون عندما استدار وكانت تصطحب طفلة صغيرة. انحنت الطّفلة انحناءة شديدة أمام والدتها وثبّتت عينيها الواسعتين البنيّتين على جَهان.

ـ يا بهجتي يا عائشة، أريد منك أن تسلّمي على ضيفنا، المعماريّ الموهوب. لقد شيّد هو والمعلّم سنان هذه المساجد الرّائعة الّتي نكثر دائمًا من الحديث عنها.

قالت الطّفلة من دون أيّ اهتمام: نعم يا أماه.

أضافت مهرماه: كما أنّه اهتمّ بالفيل الأبيض.

Twitter: @ketab_n

وهنا أشرق وجه عائشة، وقالت: هل أنت الّذي ساعد الفيل على شرب حليب أمّه؟

تشجّع جَهان، وفكّر في أنّ مهرماه لا بدّ من أنّها حكت لابنتها تلك الحكايات الّتي رواها لها. فابتسم كأنّه نفذ إلى عمق الإلفة في هذا المنزل، وأصبح جزءًا من أحاديث وقت النّوم من دون حتّى أن يعرف. والتقت عيناه بعيني مهرماه من فوق رأس الطّفلة، ومرّ بينهما تعاطف مرور نسمة هواء عليلة.

سأل جَهان الفتاة: هل ترغب صاحبة السّعادة في المجيء لرؤية الفيل يومًا ما؟

زمّت عائشة شفتيها كأنّها تريد أن تردّ سلبًا أو إيجابًا. وبدلًا من أن ترنو إلى والدتها كي تعطيها الإذن، رفعت بصرها إلى أعلى باتّجاه حسنة خاتون الّتي كانت تقف إلى الخلف، تراقب كلّ شيء وهي صامتة.

تحوّلت أبصار جَهان إلى المربّية، فرأى أنّها شاخت، وبانت عظام وجنتيها وذويت مثل أوراق الشّجر، لكنّ صرامة نظرتها الّتي لا تخطئ لم تقطع خيط تفكير جَهان. هذه هي الحياة الّتي كان في وسعه أن يحياها لو كان قد أوتي من الحظّ ما يكفي لأن يكون في وضع رستم باشا ـ وتكون الفتاة ابنته، وهذه الجدران درعه الواقي من العالم، وهذا المشهد الرّائع من النّافذة هو الواقع الّذي يستيقظ عليه صباح كلّ يوم، والأميرة الّتي أحبّها سرًّا هي زوجته الشّرعيّة. لم يسبق له أن تمنّى، ولا في أحلك ساعاته في السّجن، موت رجل آخر كما تمنّاه الآن.

شاهد ظلّ حركة ما. كانت حسنة خاتون تحدّق فيه بعينين ثابتتين، وكانت شفتاها تتحرّكان حركة سريعة كأنّها تتحدّث إلى شخص ما. سرت في جسده قشعريرة، إذْ كان يدرك أنّها قرأت أفكاره، وإن لم يستطع أن يفسّر كيفيّة ذلك، وأنّها سوف تعثر على وسيلة ما لتستخدم ذلك ضدّه.

Twitter: @ketab_n

استيقظ جَهان بقلب مثقل بالهموم في اليوم الّذي أعقب إطلاق سراحه من السّجن، ورمشت عيناه بضع مرّات، عاجزًا عن معرفة المكان الّذي هو فيه. كان مروّضو الحيوانات يسرحون ويمرحون، وانساب إلى مسامعه من وراء الباب المغلق صوت النّمر، فحمل نفسه ونهض من فوق السّرير وسار مترنّحًا إلى الفناء ورشّ الماء على وجهه من نافورة المياه. وتساقط رذاذ على النّبات قطرات لؤلؤ تشبه قطرات النّدى. ثمّة رائحة منعشة في النّسيم وذرعت الحيوانات أقفاصها في فتور وكسل. واشتاق جَهان لرؤية شوتا على الرّغم من أنّه أنفق وقتًا لا بأس به معه مساء أمس. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم سيلتقي معلِّمه، فكان مفعمًا بالحيويّة والنشاط من جهة ومتوتِّر الأعصاب من جهة ثانية. وقرّر أن يسأل سنان عن السّبب في عدم زيارته في السّجن، ولماذا لم يرسل أيّ رسالة إن تعذّرت زيارته.

وصل إلى منزل معلِّمه وقت الظّهيرة. وما إن رأى سنان ووجهه يفيض بالبشر لملقاه حتّى تبخّر حزنه. وتساءل جَهان إن كان والده الذي فقده قد نظر إليه يومًا على النحو الّذي نظر إليه سنان. مال إلى أمام ليقبّل يد معلِّمه، لكنّ سنان سحب يده إليه وشبك ذراعيه حوله، وقال بصوت متقطّع: دعني أنظرْ إليك، فأنت شديد النّحول يا بنيّ.

بعد برهة، دخلت الحجرة المرأة العمياء. لقد تعلّم الابن الآن كلّ واجبات أمّه، وأدرك جَهان أن الإبن سرعان ما سيُطلب منه أن يحلّ محلّها. وهنا شعر التّلميذ بحزن قاتل وراوده الأمل بأن يتمكّن من توديع المرأة المسنّة عندما يُحين الوقت، ويسألها أن تباركه.

Twitter: @ketab_n

قال سنان من مجلسه للمرأة: إنّه بحاجة إلى طعام.

- أيّها الصّبيّ المسكين!

قالت المرأة العجوز هذا بتعجُّب، وسارت بأقصى ما تستطيع من سرعة وتوجّهت لإعطاء الأوامر بإعداد وجبة طعام.

انهمك الخدم ودخلوا حاملين طاولة واطئة ومناشفَ وملاعقَ خشبيّة، ووضعوا أمامه طاسات تحتوي عسلًا وزبدة وقشدة وأقراص الخبز ودبس العنب الحامض وحلاوة وشراب اللّبن بالنّعناع والكشمش.

أمره سنان: كُلْ واشرب!

امتثل جَهان للأمر، وإن لم يكن يشعر بالجوع. ولمّا لم يستطع أن يتناول لقمة أخرى، قال له سنان الّذي كان يراقبه بهدوء: عاقبوك حتّى تنال منّي. الكلّ يعرف هذا.

لم يجدْ جَهان جوابًا. فاسترسل سنان غير مدرك تلك المرارة المتأجِّجة في قلب تلميذه: يرغب صاحب الجلالة في إعادة النّظر في مشروع الماء، وأنا أودّ أن ترافقني إلى القصر، فنحن بحاجة إلى إزالة التّشويه الّذي أصاب اسمك.

قال جَهان: إنّني لا أعرف حتّى ما التّهمة الموجّهة إليّ.

صَمْت.

«خيانة».

لم يشعر جَهان في تلك اللّحظة بالرّعب، إنّما بالحزن الشّديد، وسأل: هل سيحضر رستم باشا اللّقاء؟

كان وجه الصّدر الأعظم القبيح هو آخر شيء يريد أن يراه جَهان.

- بلا ريب. وينبغي لك أن تقبّل يده، وتطلب منه الصّفح والغفران. أيمكنك أن تفعل ذلك؟

لم يستطع جَهان الرّدّ، بل استفهم: لا أعرف سبب هذا العفو

Twitter: @ketab_n

المفاجئ. ما الّذي تغيّر؟

ـ هذا ما أتساءل عنه أنا نفسي. لا بدّ من سبب، لكنّني لا أستطيع سبر غوره. كلّ ما أعرفه هو أن سلطاننا عبّر عن رغبته في رؤيتي.

ظلّ جَهان صامتًا. لا بدّ من أنّ مهرماه هي السّبب، ولا بدّ من أنّها هي الّتي كلّمت زوجها وتوسّلت إلى أبيها والتمست منه أن يصغي للمعماريّ للمرّة الأخيرة. تلميحات رقيقة مثل زهور في مهبّ الرّيح. كلّ الأشياء تُوضِّح أنّها كانت مهتمّة به، وهنا خفض جَهان رأسه خشية أن يتمكّن معلِّمه من قراءة أفكاره.

ارتدى جَهان يوم الزّيارة المحدّد ثيابًا جديدة: سروالًا قطنيًّا خفيفًا من الكتّان وحذاءً جلديًّا مدبّبًا عند حافّته الأماميّة. كان معلِّمه قد اشتراها لمساعدته حتّى يبدو في أفضل حال. كما ارتدى سنان أيضًا قفطانًا خمريًّا وعمامة بصليّة. وتمتمت المرأة العمياء بالأدعية الّتي كانت قد تعلّمتها من أمّها قبل قرن من الزّمان. ورشّت ماء الورد الّذي باركه سبعة أئمّة على رأسيهما.

أُرسلت إليهما عربة ملكيّة، وتلك إشارة تبشِّر بالخير بلا ريب وتدلّ على أنّ السّلطان يكنّ لهما قدرًا من الاحترام. اتّخذا مجلسيهما في العربة، المعلِّم وتلميذه وصحائف الرّقّ بينهما، معدّة كلّ واحدة منهما مرتبكة. مضطرب، لا يقويان على الكلام، حتّى ولجا القصر وهما على تلك الحالة.

رحّب بهما السّلطان سليمان، وكان يقف إلى جانبه الصّدر الأعظم الضّخم الجثّة، وإلى الجانب الآخر شيخ الإسلام آغا الانكشاريّة. وكانت أيديهم متشابكة تشابكًا قويًّا وهم يرنون إليهما بنظرات لامبالية ليسوا بحاجة إلى إخفائها.

Twitter: @ketab_n

قال السلطان: كلّ واحد من هؤلاء النّبلاء يودّ أن يطرح عليك بعض الأسئلة يا رئيس المعماريّين الملكيّ. فهل أنت على استعداد للإجابة عنها؟

انحنى سنان، وقال: يشرّفني يا صاحب الجلالة.

كان أوّل المتكلّمين شيخ الإسلام أبو السّعود أفندي الّذي تصعب قراءة ملامح وجهه صعوبة قراءة مخطوطة باهتة الكتابة: في مدينتنا العظيمة، ثمّة جسور ترقى إلى زمن الكفّار لكنّها لم تصمد، إذِ انهارت لأنّها شُيّدت من دون إيمان صادق. أتوافقني؟

أخذ سنان نفسًا، وقال: منحنا الله عقلًا، وأخبرنا بأن نحسن استخدامه. ثمّة عدد كبير من الجسور القديمة المهدّمة لأنّها لم تُشيَّد على أرض صلبة. فإذا أردنا أن نبني جسرًا، ينبغي أن نتأكّد من أنّ الماء ضحل والأرض صلبة والمدّ مواتٍ. صحيح أنّ الجسور تُشيَّد بالإيمان، لكنّها تُشيّد أيضًا بالعلم والمعرفة.

أشار السّلطان سليمان إلى شماله، موجّهًا إلى آغا الانكشاريّة كي يتكلّم: يبدو أنّ تابعك سنان يا صاحب الجلالة يعتقد أنّ بإمكانه أن يتنبّأ بكمّيّة المياه الموجودة تحت سبع طبقات من الأرض. كيف يمكن ذلك؟ ظننّا أنّه معمار، وليس ممّن يحضِّرون أرواح الموتى لمعرفة أحوال المستقبل. وهل يزعم إتقان موضوع السِّحر؟

جفل جَهان لهذا الهمز واللّمز، مدركًا ما ينطوي عليه الكلام من اتّهام بمزاولة السِّحر الأسود.

ردّ سنان: ليست لديّ أيّ تجربة في الرّجم بالغيب. أمّا كمّيّة الماء الموجودة تحت سطح الأرض فيمكن قياسها باستخدام الأدوات استخدامًا صحيحًا.

قال آغا الانكشاريّة: هل أتت هذه الأدوات الّتي يتحدّث عنها من

Twitter: @ketab_n

عند الله؟ أم من عند الشّيطان؟

أجاب سنان: من عند الله بالتّأكيد، لأنّه يريدنا أن نوسّع علمنا.

تدخّل شيخ الإسلام قائلًا: لقد اكتشف الخضر، أسكنه الله فسيح جنّاته ـ الماء. هل تزعم أنّك رجل مقدّس مثله؟

قال سنان: إنّني لا أساوي ظفر أيّ رجل مقدّس. لقد ارتحل الخضر برفقة النّبيّ موسى وفكّ أسرار الكون. وإذا ما قارنت علمي بعلمه، فإنّ علمي ليس سوى قطرة ماء. غير أنّني أعتقد أنّنا نستطيع باستخدام المقاييس الصّحيحة أن نحدّد الموارد غير المنظورة.

التفت السّلطان إلى الصّدر الأعظم، وقال: ما رأيك أيّها الباشا؟

سعل رستم سعالًا جافًا، وردّ: أودّ أن أعرف مقدار التّخصيصات الّتي يريد رئيس المعماريّين الملكيّ صرفها لأنّنا لا يمكن أن نترك الخزينة خاوية.

قال سنان وهو يتوقّع هذا الكلام: ثمّة خياران. الإنفاق سوف يختلف حسب مشيئة السّلطان.

أثارَ سنان اهتمام السّلطان سليمان بكلامه، فقال متسائلًا: ماذا تعني أيّها المعمار؟

ـ إنّ هدفنا يا مولاي يتمثّل بإيصال الماء النّقيّ إلى المدينة، ونحن سنحتاج إلى العمّال، إلى مئات العمّال، وإن شئتم فإننا سنستخدم العبيد، وعندذاك لن تحتاجوا إلى دفع أيّ أجر لهم. وسيكون هؤلاء الأتباع بلا حدود.

ـ ما الخيار الثّاني؟

ـ أن نلجأ إلى استئجار الحرفيّين الماهرين، وينبغي أن ندفع لهم أجورهم بحسب قدرتهم وخدمتهم لصاحب الجلالة، وسيقدّمون لقاء ذلك نتاج عرقهم وأدعيتهم.

Twitter: @ketab_n

قال رستم: أنت تعتقد إذًا أنّ في وسعك ملء بيت المال بالعرق والأدعية؟

تجاهل السّلطان سليمان ملاحظة رستم، وسأل سنان: أيّهما تقترح أنت؟

أعتقد أنّنا ينبغي أن ندفع لهم أجرهم ونحصل بذلك على بركاتهم. قد لا تكون الخزينة كسابق عهدها، ولكن هذا أفضل للعرش وللنّاس.

امتقع وجه جَنان متوقّعًا ما هو أسوأ. وأخيرًا، رفع السّلطان يده بعد صمت ثقيل وطويل وقال: رئيس المعماريّين الملكيّ على حقّ. فالماء صدقة ولا بدّ من توزيعه توزيعًا جيّدًا. سوف أمنح النّاس الماء، وسوف أدفع للعمّال أجورهم.

غير أنّ السّلطان قال لسنان بعد برهة: على الرّغم من ذلك، فإنّني لن أسمح لك ببناء جسر جديد. قم بإجراء التّرميمات اللّازمة للقنوات المائيّة. هذا يكفي.

تململ الحاضرون لأنّ كلّ واحد منهم راح يفكّر بمن ربح النّقاش، إن كان ثمّة أحد قد ربحه. قال سنان: أرجو موافقتكم يا مولاي على أن يساعدني تلميذي الهنديّ في أعمال التّرميم.

مرّر السّلطان إصبعًا من أصابعه خلال لحيته، في حين طوّقت عيناه جَهان، وقال: إنّني أتذكّره. أمر حسن أن يكون لديك مثل هذا التّلميذ المخلص في عمله.

أمسك عن الكلام برهة، والتفت إلى الصّدر الأعظم، وسأله: ما رأيك أيّها الباشا؟ هل نسامحه؟

مدّ الصّدر الأعظم ذراعه والتمعت عيناه، فأومأ سنان إلى جَهان مشجّعًا. خطا جَهان خطوة إلى أمام مظهرًا عزمًا أشدّ ممّا كان يشعر به، كأنّه يسير وسط الضّباب، وقبّل اليد المكتنزة المتعدّدة الخواتم ووضعها

Twitter: @ketab_n

على جبينه. وفكّر في أنّه كم يودّ لو كان في وسعه أن يخطف أحد هذه الخواتم، يعوّض به عن آلامه.

قال رستم بلهجة عذبة تناقض تمامًا نظرته الجامدة: بارك الله في سعيك.

اجتاز المعلّم وتلميذه ممرّات رخاميّة لدى عودتهما، وكان الإحساس بالنّشوة غامرًا، فلم يستطيعا التزام الصّمت. وأدرك جَهان أنّ قلبه ليس هو الّذي ينبض وحده نبضًا سريعًا، إذْ كان معلّمه هو الآخر مرعوبًا أيضًا، مرَّةً أخرى وجد سنان نفسه في وضع صعب، فيما كان كلّ ما يريده هو أن يُنجز عمله. مرّة أخرى، ومنح مهلة موقّتة كأنّ رجل خير غامض مدّ له يد العون. وفكّر جَهان في أنّه ربّما لديه من يحميه، من يرعاه سرًّا، تدخّل بالإنابة عنه في كلّ مرّة تكثر فيها المتاعب، ملاك غير مرئيّ يحرسه ويقف إلى جانبه دومًا...

Twitter: @ketab_n

عاد جَهان إلى مأوى الحيوانات ليجد المروِّضين في انتظاره وعلى وجوههم ابتسامة.

قال أوليف واضعًا ذراعه على صدره: رافقني.

سأل جَهان: إلى أين؟

قال أوليف وهو يجذبه من مرفقه: لا تسأل. إنّ من خرج من السِّجن قبل قليل يحتاج إلى متعة.

قاده أوليف إلى إسطبلات الجياد المفضّلة، فدهش له جَهان. ففي هذا المكان، كانوا يحتفظون بأفضل الخيول الأصيلة، الّتي كان على رقبة كل واحد منها غطاء أزرق اللّون لطرد عين الحسد. وصهل جواد رئيس الخصيان الأبيض، وكان اسمه تيمبست، صهيلًا لطيفًا لمرآهما قادمين. نبيلٌ، مهيبٌ ووحيدٌ. ربّت أوليف على الحيوان، مكلِّمًا إيّاه كلامًا عذبًا.

استفسر جَهان بتوتّر: هلّا أخبرني أحدٌ بما يحدث؟

ـ لطالما أردْتَ أن تمتطي هذا الجواد. صحيح؟ إنّه هديّتنا لك.

ـ لكن كامل آغا. . .

قاطعه أوليف بأن رفع يده، وقال: لا تقلق. لقد رتّبنا كلّ شيء. وهو ليس في القصر اليوم، إذ خرج لزيارة حمّام الأحزان. لا تسألْني عن مكان ذلك الحمّام لأنّني لا أستطيع أن أخبرك.

ـ لكن، ماذا تتوقّع منّي أن أفعل بالجواد؟

ردّ أوليف غامزًا بعينه: لا شيء. حسْبُك أن تمتطيه وتهبط التّلّ.

بعد برهة، اندفع ظلّ خارج الإسطبل: كان جَهان قد ألقى بجسده

Twitter: @ketab_n

منحنيًا حتّى استوى على ظَهْرِ الجواد، وانطلق به وسط الظّلام. ولم يظهر أيّ اعتراض منَ الحارسين الواقفين إلى جانبي البوّابة، اذْ كانت قد تمّت رشوتهما من قبلُ. وكانت وجهة جَهان هي تلك الّتي أشار إليها أوليف، فابتهج بالرّيح وهي تضرب وجهه، وشعر بالحرّيّة والطّيش، لكنّه خفّف من سرعته بعد قليل، إذْ شاهد على مقربة عربة وقد جلس فيها عدد من الغجر!

هتف جَهان: يا إلٰهي! متى خرجت من السّجن؟

قال بالابان: آه، لقد أطلقوا سراحنا كلّنا قبل شهر، لكنّنا انتظرناك حتى يصدر العفو عنك.

تلعثم جَهان، وقال: ماذا؟ لماذا لم تخبرني؟ ماذا تفعل في هذه السّاعة؟

قال بالابان وهو يربط الجواد إلى مؤخّر العربة: أخبرَنا مروِّض الأسود أنّ أصدقاءك يتبادلون الحديث معك على ما يبدو. وهم يعتقدون أنّ الأوان قد حان كي تحظى بقليل من المِتعة، فأنت تستحقّها.

قال جَهان مرتابًا: ما معنى هذا؟

تبادل الغجر نظرات ساخرة، وقال بالابان: سوف ترى.

وقبل أن يتمكّن جَهان من إبداء أيّ اعتراض، ضرب بالابان الحمار بالسّوط، فانطلقت العربة ومن ورائها الجواد تيمبست.

طقطقت العربة على امتداد الطّريق واجتازت أزقّة الرّيف والدّروب الّتي تحفل بها الحقول، لكن على الرّغم من أنّ مساء ذلك اليوم من أيّام فصل الخريف كان منعشًا، والسّماء مكسوّة بلون مخمليّ أسود، فإنّ كتل الضّباب كانت تغذّ سيرها باتّجاه الشّمال، مبتعدة عن أطراف المدينة. ثمّة دثار من ضباب ابتلع الشّوارع المتعرّجة والجسور المقنطرة في حين ابتلعت إسطنبول تلك الشّوارع. وراحت العربة تمرّ في أزقّة بلغ بها

Twitter: @ketab_n

الضّيق حدًّا جعل أطراف العربة تحتكّ بجدران البيوت الخشبيّة المنتشرة على كلا الجانبين كأنّها أشجار صغيرة منحنية في مهبّ إعصار. وكان كلّ حيّ يتركونه من ورائهم يبدو أكثر هدوءًا وكآبة وقذارة من سابقه. لزم بالابان الصّمت، ولم يطرق سمعهم على مدى فترة طويلة غير صوت نورس هنا أو هناك، وصوت الحوافر والعجلات على أرضيّة الطّرقات المرصوفة بالحصباء.

توقّفت العربة، فترجّلوا منها. وتنفّس جَهان الصّعداء وراح يعدل من هيئته بعد أن ترجّل من على صهوة جواده، وجال ببصره حوله بحثًا عن منظر مألوف، لكنّه لم يجد شيئًا.

قال بالابان وهو ينخسه: هيّا بنا. الحركة بركة.

ثمّ التفت الزّعيم إلى رجاله واضعًا يده اليمنى على فؤاده، وقال: أمّا أنتم، فاذهبوا، الله معكم.

اقتفى جَهان خطوات بالابان، ومع كلّ خطوة كان يخطوها كانت قوّة الرّوائح المنبعثة من الشّوارع تزداد، عبق الياسمين ممزوجًا برائحة البحر، والطّعام بملحه وثومه. كان المروِّضون قد تعلّموا الشّيء الكثير من حيواناتهم. أمّا شوتا، فكان قد علّم جَهان شيئًا واحدًا مهمًّا وهو كيف يحسِّن حاسّة شمّه، لهذا السّبب أظهر اهتمامًا شديدًا بتلك الرّوائح المنتشرة في النّسيم. بعد لحظة، تنشّق أريج زيوت معطّرة منبعثة من منزل قريب.

همس جَهان: ما هذا المكان؟

ضحك بالابان: ألا تفهم؟ لقد أتينا بك إلى بيت من بيوت الدّعارة.

امتقع وجه جَهان، وقال: أنا أرفض دخوله.

ـ ماذا؟ أخائف أنت من الصّبايا؟ حسْبُنا أن ندخل ونلقي نظرة لا

Twitter: @ketab_n

أكثر، وإذا لم يعجبْك ما سوف ترى، فسننصرف. وإذا كنت أكذِّب عليك فأرجو أن تصطبغ التّربة بدمائي. هيّا أيّها الهنديّ. بعد كلّ ما جرى لنا في السّجن، أرجو أن تصغي إليَّ.

اقشعرّ جَهان، فهو لم يقدر على الموافقة ولا على الرّفض. دفعه بالابان، واستأنف كلامه كي يبدِّد مخاوفه، فأوضح له أن المبغى في إسطنبول كان أشبه ببداية حكاية تركيّة: كان يا ما كان. ففي وسع عاهراتٍ كثيراتٍ أن يعشن تحت سقف واحد على مدى أشهر. وفي حين تظنّ أنهنّ سوف يواصلن العيش هناك على مدى الحياة، فإنّك سوف تجد أنّهنّ توارين عن الأنظار وتبخّرن في الهواء، وأضحى البيت خاليًا خلوّ القشرة من الصّدف، ثمّ هناك الزّوجات، فقيرات مثل فأر في مخزن أطعمة مسروق، أزاوجهنّ يتوجّهون إلى الحرب أو لا فائدة منهم، فيتحوّلن غانيات ـ وإن في مناسبات محدودة وفي أوقات نادرة.

كانت النّساء اللّواتي يُعتقد أنهنّ غير شريفات يتعرّضن في معظم الأحياء للرّجم بالحجارة ولتلقّي اللّعنات. وفي أغلب الأحايين، كنّ يستيقظن ليجدن عتبات بيوتهنّ ملطّخة بالقار، وجدرانها ملطّخة بالسّباب والشّتائم. وكان الاعتقال يطاول بعض هؤلاء النّسوة، بل يُزجّ بهنّ في السِّجن أحيانًا. وكانت المومسات يُجبرن على ركوب البغال بالمقلوب ويُطاف بهنّ في الشّوارع كي تشاهد الأخريات من أمثالهنّ ما قد يحدث لهنّ.

غير أنّ القضاة يختلفون وهم مرتبكون مثل أي شخص آخر على حدّ تعبير بالابان. وبقدر ما كانوا يشمئزّون من البغايا، فإنّهم كانوا يرون في هذه المهنة شرًّا لا بدّ منه ونعمة للخزينة لأنّها خاضعة للضّريبة وإن كانت تُمنع ممارستها منعًا باتًّا في شهر رمضان لا غير. أمّا في بقيّة أيّام السَّنة، فإنّ البغاء هو الإثم الوحيد الّذي يُعدّ ولا يُعدّ أيضًا جريمة.

وأصبحت منطقة أيّوب منذ زمن قصير صارمة في نظامها، شديدة

Twitter: @ketab_n

التّدقيق، وأصدرت عددًا من القوانين. وأُغلقت الخانات شأنها شأن بيوت الدّعارة والمقاهي الّتي تسمح بمزاولة القمار. ونُفيت كلّ النّساء ذوات السّمعة السّيّئة بمن فيهنّ النّساء اللّواتي تخلّين عن تلك الحياة وتزوّجن. ولتجنّب المصير نفسه، راحت النّساء الفاجرات والمستهترات يتنقّلن من منطقة إلى أخرى، معتمدات على الأجواء.

قال بالابان: البغاء يشبه الرِّيح، إذا حاولت أن تقيّده بالسّلاسل، فسوف ينسلّ من بين الثّقوب.

وهنا وصلا إلى باب، ففتحه رجل أسود البشرة، سرعان ما انحنى لدى رؤيته بالابان، وقال: مرحبًا بك أيّها المعلِّم.

تمتم جَهان مدهوشًا مبهوتًا: أتملك هذا المكان؟

رمق بالابان الخادم بنظرة جامدة، ثمّ التفت إلى جَهان ورفع كلتا يديه، وقال: إنّني غجري فقير. أتظنّ هذا بيتًا فوق عجلات؟ كيف يمكنني أن أملكه؟ هيّا بنا فلا نضيِّع وقتنا.

اصطُحِبَ الاثنان إلى الطّبقة العليا، حيث حيّت امرأة عجوز، تعلو وجهها الغضون كأنّه قشرة ثمرة جوز، بالابان تحيّة تنمّ عن احترام شديد. وكانت بجانبها سلّة وفي داخلها قطّة أم مع ست من هررها الصّغيرة، متكوّرات مثل كرة، وَبْرُهنّ كثيف ورماديٌّ كالدّخان.

قالت: وُلدت القطط في هذا المكان. وقد سمّيت كلّ واحدة باسم إحدى بناتي.

كانت بنات المرأة العجوز، كما علم جَهان، هنّ: فاطمة العربيّة ونفيسة البندقيّة وقمر الكرديّة ونارين الشّركسيّة وظريفة التّركيّة وليَا اليهوديّة وآني الأرمنيّة.

إلى اليمين والشّمال أبواب مغلقة، استطاع جَهان أن يسمع من ورائها همهمات متقطّعة. دفع بالابان جَهان إلى إحدى هذه الغرف،

Twitter: @ketab_n

وجعله يتّخذ مجلسه فوق الوسائد، وأخبره بأنّه يُستحسن أن يذهب للتّأكّد من حضور الموسيقيّين، وتوارى عن الأنظار.

وصلت خادمة حاملة صينيّة، متموّجة الشّعر تملأ النّدوب الحزينة جانبي وجهها. نظراتها ترنو إلى بعيد كأنّها تبحث عن أمسيات أخرى موغلة في القدم. أحضرت له ماءً وخمرة وآنيَّة مملوءة بجبن الماعز والتّين الحلو واللّوز المحمّص والمخلّل، ووضعت الصّينيّة على طاولة منخفضة، وسألته ما إذا كان يرغب في تناول أيّ شيء آخر، لكنَّ جَهان هزّ رأسه وثبّت عينيه على نقوش السّجّادة. وما إن خرجت الخادمة حتّى دخلت امرأتان الغرفة، الواحدة إثر الأخرى. كانت إحداهما شديدة البدانة ذات ذقن بثلاث طبقات وكانت منتفخة الأوداج ومتورِّدة. فكّر جَهان في أنّ من شأن شوتا أن يلتهمهما التهامًا ظنًّا منه أنهما تفّاحتان، لو كان حاضرًا هنا. وابتسم لهذه الفكرة.

قالت مشرقة الوجه: هل أروقك؟

ردّ جَهان: لا، ثمّ أسرع فأضاف كي لا يبدو فظًّا: حسنًا، نعم، ولكن ليس على هذه الحال.

ضحكتا، وكانت ضحكتها أطول من ضحكة الفتاة الأخرى، فأخذ بطنها المتهدّل يعلو ويهبط، ومالت إلى أمام وهي تتلمّظ وتقول: لديّ ثلاثة نهود، ووحش في بطني يخرج عندما أجوع. إنّني آكلة بشر!

نظر إليها جَهان بهلع، فأخذَتِ الفتاتين نوبةٌ أخرى من الضّحك.

قال جَهان: هل يمكن إحداكما أن تستدعي بالابان؟ إنّني مضطرّ لرؤيته.

تبادلت الفتاتان النّظرات، يساورهما اعتقاد أنّ مزاحهما تجاوز حدوده، وساد في الغرفة جوّ حارّ وانبعثت منها رائحة الرّطوبة. فوقف جَهان على قدميه واعتذر متلعثمًا وخرج من الغرفة كالسّهم. وفي اللّحظة

Twitter: @ketab_n

الأخيرة، شاهد المرأتين تقفان وتسيران خلفه، فما كان منه إلّا أن أسرع بإغلاق الباب ووضع الرّتاج عليه. وعند السلالم، مال نحو الخادمة الّتي كانت تحمل الصّينية. قالت: هل أنت بخير؟ أتذهب؟

ـ نعم، شوتا في انتظاري.

ـ هل هي زوجتك؟

ابتسم جَهان على الرّغم منه، وقال: لا، إنّه فيلي. حيوان ضخم.

ازدادت عيناها بهجة، وقالت: أعرف ما الفيل.

في هذه الأثناء، شرعت المرأتان اللّتان أغلق جَهان عليهما باب الغرفة، تضربان بقوة على الباب، فامتقع وجه جَهان، لأنّ آخر شيء كان يريده هو أن يُضبط متلبسًا، فجال ببصره حوله مذعورًا.

قالت الخادمة وهي تمسك بيده: رافقني.

وصلا إلى فسحة درج متهالك من خلال مرورهما في فتحة في المؤخّر، واقتادته من هناك إلى غرفتها في العلِّيّة وكان سقفها واطئًا أجبرهما على الانحناء وخفض رأسيهما. لكن، على الرّغم من ذلك، كان المشهد خارج النّافذة يخلب اللّب، فالقمر هلال والغابة مكتظّة بأشجار الصّنوبر الباسقة ومن ورائها البحر بموجاته السّود. لاح الماء من هذا المكان المرتفع أشبه بشيء آخر، شيء رقيق وصلب، وشاح حرير كبير جدًّا من فوق كتفي المدينة.

أخبرها جَهان بما حدث في الطّبقة السّفلى، فاستمتعت الاستمتاع كلّه. وأخبرته بأنّ اسمها بيري، وأنّها كانت في سالف الأيّام عاهرة تلحق بالمعسكر، لكنّها تابت بعد ذلك، بعد أن لحق الضّرر بوجهها على يد جنديّ سبق له أن شاهد مثل هذه الأشياء في ساحة الوغى وأُصيب بلوثة عقليّة أدّت به إلى أن ينتقم من الغانيات، فلم يعد أحد يرغب فيها.

Twitter: @ketab_n

قال جَهان: ليس صحيحًا أنّ أحدًا من الرّجال لم يعد يرغب فيك، فأنت أجمل من نساء الطّبقة السّفلى.

قبّلته وقبّلها وظلّ طعم لسانها عالقًا في فمه. داعبت شعرَه، أناملها رقيقة ودافئة على جبينه المتغضّن، من فرط القلق، وسألته: لم تمارس الحبّ من قبلُ. صحيح؟

كان تورّد وجهه العميق جوابًا شافيًا لها. فساعدته على أن يستلقي على السّرير وراحت تخلع عنه ثيابه ببطء. وعندما لمست شفتاها شفتيه اشتعلت الرّغبة في أعماقه. لم يسبق لجَهان أن عرف بوجود مثل هذه المملكة من المِتعة. ولن يفهم إلّا بعد سنوات مقبلة كم كان محظوظًا بلقائه بتلك المرأة التي أرشدته إلى الطّريق.

رأى جَهان نفسه وهو راقد في الظّلمة بجانب بيري أنّه في بلاد مجهولة يمتطي ظهر شوتا، وأنّهما راحا يقفزان من فوق المنازل ويثبان من سطح إلى آخر. ثمّ شاهد مهرماه على بعد مسافة مرتدية ثوبًا من الكتّان الأبيض، وشعرها يتطاير في مهب الرّيح، فصاح بها: «انتظري!»، لكنّها لم تسمعه فصاح مجدّدًا. وفي كلّ مرّة كان يفتح فيها فاه، كانت صرخته تضيع هباءً.

ـ صه! استيقظ.

استغرق جَهان لحظة كي يتذكّر المكان الّذي هو فيه، وعندما تذكّر، كان يتصبّب عرقًا باردًا. ارتدى ثيابه على عجل، وقال: ينبغي أن أرحل. لكنّه توقّف بعد أن لاحظ وجهها وقد اغتمّ. فأضاف: آسف. لا أدري... ها أنذا... أدفع لك؟

أدارت بيري رأسها قائلة: لست مدينًا لي بأيّ شيء.

اقترب جَهان منها وداعب شعرها. كان الارتباك يتأجّج في أعماقه ليتحوّل سريعًا بعد ذلك خطيئة كبرى. كان يعلم أنّه كان يتعيّن عليه

Twitter: @ketab_n

المضيّ في سبيله قبل حدوث ما حدث، ولم يرغب في أن تلاحظ بيري أنّ ما حدث بينهما قد تحوّل إلى ندم.

قالت بيري وهي تفتح الباب: كنت تتحدَّث في نومك.

ـ هل أزعجتك؟

تجاهلت بيري سؤاله، وقالت: الواضح أنّها تسكن فؤادَك، أيًّا كانت. أتدري هي أنّك تحبّها؟

غادر جَهان المنزل مذهولًا مرتبكًا. ولم يكن ليجرؤ على أن يصف ما كان يساوره من شعور تجاه مهرماه بأنّه حبّ، ولكن على الرّغم من ذلك، فعندما تلفّظ بالكلمة شخص آخر، وأماط اللّثام عن حبّه، التقط الكلمة بحذر واحتضنها في صدره، لا يرغب في تركها تخرج منه.

Twitter: @ketab_n

استؤجرت مئة وثلاثون يدًا لإصلاح القنوات المائيّة الاصطناعيّة، عمل أصحابها ضمن فريقين اثنين: الفريق الأول في الجناح الغربيّ، والفريق الثّاني في الجناح الأوسط، حيث كان الضّرر شديدًا. في هذه الأثناء، راح التّلاميذ الأربعة يقيسون بمساعدة إسطرلاب أعماق الوديان وارتفاع القمم. وأمرهم سنان كدأبه بالبحث عن الطّرق الّتي لجأ إليها حرفيّو أيّام زمان، إذْ كانوا بحاجة إلى أن يفهموا كيفية نجاح البيزنطيّين وكيف أخفقوا إذا ما أرادوا أن ينجزوا عملًا أفضل منهم.

أخذ داؤود ويوسف الخبيران في علم الهندسة يقيسان الممرّات المائيّة، في حين سار نيقولا وجَهان سيرًا بطيئًا في أنحاء التّلال وثبّتوا في سجلِّهم كلّ القنوات المتهدِّمة والجداول المائيّة الّتي حدثت فيها انسدادات تعرقل سير الماء. ففي بعض المناطق، كان الماء يندفع في الأغوار لأنّ مساربه باتت متعذِّرة على الإصلاح. وراحت المياه تنتشر وسط المروج الخضر وتعود إلى باطن الأرض من دون أن ينتفع منها بنو البشر. وفي مناطق أخرى، كان يتعيّن عليهم العثور على منبع الغدير والتّنقيب عن الأنابيب المائيّة. وعملوا على إنشاء سدود لجعل الماء يجري في اتّجاه واحد نحو المدينة، ثمّ عمدوا بعد ذلك إلى جعله يجري على امتداد الوادي بمساعدة قناة جديدة. وكانوا في مرحلة يقيسون الكمّيّة ـ مستخدمين أنابيب برونزيّة موصولة بخزّانات ذات صمّامات، فيقيسون بذلك كمّيّة الماء المتجمّع على طول الأنابيب.

بدا جَهان يلاحظ بعد مرور أسبوع واحد شيئًا غريبًا، تمثّل في أن العمّال كانوا يتحاشونهم، متردِّدين في تنفيذ الأوامر. وكلّما ازدادت

Twitter: @ketab_n

مراقبته لهم، ازداد اقتناعًا بأنّهم كانوا يبحثون عن أعذار كي يطرقوا مسمارًا واحدًا أو يحملوا لوحًا أو ينفِّذوا أقلّ شيء وهي أمور تكفي، إذا ما أُضيف أحدهما إلى الآخر، في إعاقة كلّ شيء.

جذب أحد المخطِّطين جانبًا ـ وهو كرديّ يُدعى صلاح الدّين ـ وكانت زوجته قد رُزِقت مؤخّرًا بتوأمين من الذّكور، متوقّعًا منه أن يخبره بالحقيقة لأنّه كان يعرف أنّه رجل شريف.

ـ ما الّذي يحدث؟ لماذا هم بطيئون في العمل؟

تفادى صلاح الدّين نظرته، وقال: إنّنا نعمل أيّها الأفندي.

ـ لكنّكم متلكِّئون في العمل، لماذا؟

كست وجه صلاح الدّين حمرة خفيفة، وقال: أنت لم تخبرنا بأنّ ثمّة رجلًا ورعًا في هذا المكان.

ـ من قال هذا؟

هزّ الرّجل كتفيه، رافضًا إعطاء أيّ اسم.

طرح جَهان سؤالًا آخر.

ـ كيف يعرفون أنّ ثمّة رجلًا ورعًا هنا؟

ردّ صلاح الدّين مختلسًا نظرة خاطفة إلى جَهان كأنّه يريد منه توكيدًا: لقد شاهدوا... طيفًا.

إنّه شبح شهيد، جنديّ مسلم شجاع متّقد نشاطًا، لقي حتفه أثناء قتاله الكفّار، إذِ اخترق سهمٌ صدرَه ونفذ إلى قلبه، لكنّه على الرّغم من ذلك واصل القتال بلا هوادة على مدى يومين آخرين. وفي صباح اليوم الثّالث، وافته المنيّة، ودُفِنَ في هذه البقعة. إنّ روحه الّتي أزعجها هرج البناء ومرجه عادت إلى الظّهور للعمّال الّذين امتلأت صدورهم خوفًا من أن يستنزل الشّبح لعنته عليهم.

ـ كلامٌ فارغ. إنّ من ينشر مثل هذه الأقاويل إنّما يريد إلحاق الأذى بالمعلّم سنان.

Twitter: @ketab_n

قال صلاح الدين: بل هذه هي الحقيقة أيّها الأفندي، إذْ شاهده النّاس.

قال جَهان وهو ينفض يديه نافد الصّبر: أين؟ أرني!

بُهِتَ جَهان عندما أشار الرّجل بذقنه إلى السّقالة، وسأله مشاكسًا: هل بنى الشّبح له بيتًا فيها؟

التزم صلاح الدّين الهدوء والرزانة برهة، ثم قال: شُوهِدَ الشّبحُ في ذلك المكان.

أمضى جَهان طوال العصر يطوف حول السّقالة، يتأكّد من متانة الألواح، ويُحكم شدّ الحبال ليطمئنَّ إلى أنّ كلّ شيء في أمان، عابسًا في وجه كلّ من تسوّل له نفسه اختلاس نظرة إليه.

قال داؤود أثناء دراسة المقاييس في اليوم التّالي: إنّك لا تبدي أيّ اهتمام.

ردّ جَهان: معذرة. إن عقلي...

وهنا شهق، إذْ جذب أنظاره شيء ما في تلك اللّحظة، شيء من فوق المنصّة الخشبيّة المرتفعة على امتداد الطّبقة الثّالثة. فقد كان عدد قليل من العمّال يشتغلون هناك، وكان أحدُهم يحمل دلوًا، فرأى الرّجل يترنّح ذات اليمين وذات الشّمال، كأنّ يدًا خفيّة تدفعه لكنّه استعاد توازنه بعد قليل. تصلّب شعر مؤخّر عنق جَهان. كانوا في ما مضى من الأيّام يستخدمون عند نقص الأخشاب منصّات متدليّة من دعائم فوقها لتوفير الخشب. لكنّ هذه المنصّة كانت مرتفعة عن الأرض ومرتبطة بالجدران، تسندها دعامات وروافد. وإذا أُريدَ لها أن تتحرّك إلى الأمام والخلف، فلا بدّ من أن تكون الحبال مرتخية وأن يكون جزء من المبنى معلّقًا بحرّيّة ـ الجزء أو الكلّ.

سأل داؤود جَهان وهو يلاحق نظرته: أأنت بخير؟

Twitter: @ketab_n

وعلى حين غرّة، مزّقت صرخة مدوِّية ضجيج العمل، وشاهدا لوحًا خشبيًّا يطير في الهواء كأنّه ورقة شجرة في مهب الرّيح وهوى على الأرض. وارتطم لوح آخر بأحد البنّائين وسقط على رأسه محدثًا دويًّا مرعبًا. فهرع النّاس يمينًا وشمالًا بعد أن راح الخشب والحديد يمطران من أعلى.

صرخ أحدهم مولولًا: القيامة! القيامة!

خارت الثّيران خوارًا مؤلمًا، واستلقى حصان على جنبه فوق الأرض مكسور السّاق، مختلج البدن ومنفتح الأنف. لم يستطع جَهان مشاهدة شوتا في خضمّ تلك الجلبة. وفي لمح البصر، هوت تلك السّقالة الّتي نصبوها بكلّ فخر واعتزاز قبل بضعة أسابيع. وكان العمّال المشتغلون في الطّبقات العليا من القسم الأوسط قد تعرّضوا لأسوإ سقوط إسوةً بأولئك العاملين في الجانب الأسفل، إذْ هوت الألواح على رؤوسهم. ولم ينجُ ثمانية من هؤلاء العمّال، بمن فيهم صلاح الدين.

Twitter: @ketab_n

اقترب سنان وتلاميذه الأربعة من الغسّال.

ـ هل في وسعنا البقاء إلى جوارك أثناء غسله؟

تردّد الرّجل، لكنّه قال إمّا لأنّه استدلّ على شخصيّة رئيس المعماريّين الملكيّ، أو لأنّه ظنّه واحدًا من أقرباء المتوفّى: لا بأس أيّها الأفندي.

التفت سنان إلى تلاميذه، وسأل: هل يرغب أحدكم في البقاء معي؟

تحاشى يوسف نظرته، واحمرّ وجهه خجلًا. أمّا نيقولا، وهو ليس بمسلم، فقال إنّ الغسّال قد لا يطيب له أن يحضر الغسل بينما قال داؤود الّذي شحب وجهه فجأة، إنّه لم ينسَ بعدُ الجثث الّتي سبق له أن رآها أيّام كان طفلًا، وإنّه لا يرغب في رؤية جثّة أخرى إلى يوم أن يقضي نحبه. أمّا جَهان، فقال بعد أن وجد أنّ أحدًا غيره لم يبقَ، وهو يومئ برأسه: سوف أبقى معك.

كانت جثّة صلاح الدّين ترقد فوق منصّة باردة من المرمر، تغطّي الكدمات المختلفة الأحجام والألوان الجانب الأيمن من رأسه وصدره، حيث ارتطمت ألواح الخشب المنهارة. ولكن، على الرّغم من ذلك، ساور جَهان إحساس غريب بأنّ الجروح قد صُبغت على جثّة صلاح الدّين ولم تُطبع عليها، وأنّها إذا ما غُسلت فإنّه قد يظهر في أيّ لحظة من اللّحظات ما يدلّ على أنّه على قيد الحياة.

ـ شيّد الله قصر أجسادنا وأعطانا مفاتيحها.

قال ذلك سنان بصوت هادئ جعل الغسّال الواقف وراءه يحني

Twitter: @ketab_n

رأسه مفترضًا أنّه يؤدّي صلاة.

فكّر جَهان: قصر أجسادنا... يا لها من عبارة مميّزة يتفوّه بها، لاسيّما أنّ كلّ ما شاهده أمامه هو كومة من جسد جريح. طلب سنان من جَهان أن يقترب كأنّه قرأ أفكاره:

ـ خُلق الإنسان على صورة الله. في وسطه ثمّة نظام وتوازن. انظر إلى الدّوائر والمربّعات. انظر إلى مدى تناسقها. ثمّة أربعة أخلاط: الدّم والصّفراء والسّوداء والبلغم. ونحن نشتغل بأربعة عناصر هي الخشب والمرمر والزّجاج والمعدن.

تبادل جَهان والغسّال نظرة خاطفة، وكان جَهان يعرف ما يدور في رأس الرّجل لأنّ أفكارًا مماثلة راودته. وخشي أن يكون معلّمه قد فقد صوابه من شدّة الحزن أو التّعب.

ـ الوجه هو الواجهة والعينان هما النّافذتان والفم هو الباب الّذي ينفتح على الكون. أمّا السّاقان والقدمان فهي السّلالم.

سكب سنان مقدارًا من الماء الّذي كان في دورق زجاجيّ وراح يغسل الجثّة راسمًا دوائر بيديه برقّة متناهية أفقدت الغسّال جرأته على الحركة.

ـ لهذا السّبب ينبغي لك أن تحترم المرء إذا رأيت إنسانًا سواء أكان عبدًا أم وزيرًا، مسلمًا أم كافرًا وتذكّر أنّ الشّحّاذ أيضًا يملك قصرًا.

قال جَهان: مع عظيم احترامي يا معلّمي، إنّني لا أرى أيّ كمال، بل أرى السّنّ المفقودة، والعظم المعوجّ. أعني كلّنا، فالبعض منّا أحدب والبعض الآخر...

ـ تصدّعات على السّطح. لكنّ البناء لا تشوبه شائبة.

اشرأبّ الغسّال بعنقه فوق مناكبهما وأحنى رأسه موافقًا، وربّما اقتنع بهدوء صوت سنان أكثر ممّا اقتنع بآرائه. شاع الصّمت بينهم إثر

Twitter: @ketab_n

ذلك، فغسلوا الميت مرّتين ـ مرّة بالماء الدّافئ ومرّة بالماء الفاتر، ثمّ كفّنوه من رأسه إلى أصابع قدميه بكفن أبيض بلون الحليب، تاركين يده اليمنى خارج الكفن، ووضعوها على قلبه برفق كأنّهم يودِّعون هذا العالم ويسلِّمون على العالم الآخر بالإنابة عنه.

أمّ أحد الأئمّة صلاة الجنازة، وكان صوته الشديد التضخُّم راح يضغط على قصبته الهوائيّة، فخرجت، أنفاسه في شهقات مبحوحة. وقال إنّه لعزاء كبير أن وافتهم المنيّة في موقع البناء وإنّهم لم يلهثوا وراء نساء سيّئات السّمعة، أو ثملوا أو قامروا أو تفوّهوا بالإلحاد. لقد وجدهم الموت وهم في ساعة شريفة من ساعات العمل الجادّ. وعندما يحين يوم الحساب، وهو آتٍ لا ريب فيه، فإن الله سيأخذ هذا الأمر في الحسبان.

قال إنّ صلاح الدّين قد رحل عن الحياة الفانية وهو يبني جسرًا من أجل السّلطان ـ ولم يتجرّأ أحدٌ على القول إنّه توفّي أثناء إصلاحه قناة مائيّة. بالمقابل، فإنّ اثنين من الملائكة سوف يساعدانه في الدّار الآخرة عندما يحين دوره لعبور الصّراط الّذي هو أرقّ من الشّعرة وأرشق من ألف ثعبان. وسوف يمسكان به من يديه كي لا يسقط في مهاوي الجحيم من تحته.

نُقل التّابوت إلى المقبرة وسط العويل والنّدب. كانت أسرة صلاح الدّين فقيرة الحال، لهذا دفع سنان ثمن بلاطة القبر. أمّا والد المتوَفّى الّذي هدّه الحزن والشّيخوخة، فمشى مشية متثاقلة ناحية سنان وشكره لأنّه تأثّر وتشرّف برجل مثل سنان يحضر مراسم جنازة ولده. في هذه الأثناء، كان شقيق صلاح الدّين قد نأى بنفسه عن المكان لأنه صعب عليه أن يراهما، سنان وجَهان، هما المسؤولان عن الخسارة الّتي لحقت به وهو لا يزال في الرّابعة عشرة من عمره. اختلس جَهان نظرة خاطفة إليه وأدرك أنّهم خلقوا لهم عدوًّا آخر. وبعد أن رمى الأخ ملءَ رفشٍ من التّراب على تابوت أخيه، سار إلى الخلف، فلحق به جَهان الّذي سرعان

Twitter: @ketab_n

ما أدركه، وقال له: أسكن الله شقيقك فسيح جنّاته.

لم يردّ الأخ، ومرّت لحظة عصيبة بينهما، انتظر خلالها كلّ واحد منهما أن يتكلّم الآخر. وفي نهاية المطاف، تكلّم الفتى: هل كنت معه عندما توفّي؟

ـ كنت على مقربة.

ـ لقد دفعهمُ الشّبح، هل شاهدت ما حدث؟

ـ لم يدفعهم أحد. كان الأمر قضاءً وقدرًا. قال ذلك جَهان بتوتّر وإن لم يستطع أن ينكر غرابة الحدث.

ـ الشّبح يريد منكم أن تتوقّفوا، ولن تكون ثمّة نهاية للمصائب إذا واصلتم إقلاقه، لكنّ معلّمك لا يبالي، وهو لا يحترم الموتى.

قال جَهان: هذا غير صحيح. المعلِّم رجل صالح.

اسودَّ وجه الفتى من شدة الاهتياج، وقال: كان صديقك على حقّ، فأنتم تدنّسون منطقة مقدّسة بما تستخدمون من مطارق وحمير. أنتم محكوم عليكم بجهنّم.

راح حشد النّاس يتفرّق، ولاحظ جَهان سنان وسط المعزّين وهو يتقدّم تقدّمًا بطيئًا إلى البوّابة، واهنًا كأنّ خيوطًا غير مرئيّة تحرّكه على الرّغم من إرادته. قال جَهان بضعف: لا تلقِ باللّائمة على معلّمي.

أثناء رحيلهم عن المقبرة، عوّلت الرّيح وعجّت، وتطايرت القاذورات والأتربة باتّجاههما. وفي وقت متأخّر، متأخّر جدًّا، سيفطن جَهان إلى أنّه لم يسأل أثناء الجلبة شقيق صلاح الدّين عمّن هو ذلك الصّديق الّذي تحدّث إليه، وما السّبب الّذي دفعه إلى إطلاق مثل هذا الهاجس الفظيع.

في اليوم التّالي، لم يأتِ إلى موقع العمل سوى نصف عدد العمّال.

Twitter: @ketab_n

صاح داؤود: إلى هنا ينتهي الكلام عن العمّال المدفوعي الأجر! لو أنّنا استأجرنا عبيد السّفن لما حدث ما حدث. إلى أين ستوصلنا رحمتنا؟

قال نيقولا: سوف يجد المعلِّم عمّالًا إضافيّين.

كان على صواب، فقد استأجر سنان عمّالًا جددًا، عاقدًا العزم على إكمال ما بدأه، ولم يكن في الأمر أيّ صعوبة لأنّ ثمّة أعدادًا كبيرة من النّاس بحاجة إلى العمل في هذه المدينة. وطغى بؤس الجوع على الخوف من لعنة الرّجل التّقيّ. وبدت الأحوال كأنّها في تحسّن قليلًا، وسار العمل من دون أيّ حادث واقترب الخريف وازداد الطّقس برودة. ثم جاء الفيضان، فجرف البيوت والخانات والمراقد ومخازن الغلال، واندفع وسط الوديان. لم يستطيعوا رفع الانسدادات كاملة من القنوات المؤدّية إلى قناة المياه الرئيسيّة، وجرفت المياه السّقالة وهدّمت مجرى الماء كأنّه قطعة بسكويت هشّة ورقيقة. لقد هاجمهم الفيضان وهم غير مستعدّين له. صحيح أن أحدًا لم يُصبْ بأذًى، إلّا أنّ ضاعت أسابيع عليهم من العمل والموادّ الثّمينة. وأعطت الكارثة صدقيّة الشائعات يردّدها أصحاب القيل والقال، كما أنَّ أولئك الّذين كانوا غير متأكّدين قبل الآن باتوا مقتنعين بأنّ سنان وتلاميذه حلّت عليهم اللّعنة.

انهارت معنويّاتهم، فحتّى هذه المرحلة، كان معلِّمهم قد قهر كلّ عقبة، كبيرة كانت أم مؤذية. لكنّ هذه العقبة مختلفة. كيف يمكن لسنان أن يهزم شبحًا؟

Twitter: @ketab_n

توقّفت أعمال التّرميم بعد أن بذل سنان ما في وسعه من دون أن يتمكّن من إقناع رجل واحد بالاستمرار في العمل. واتّهم العمّال رئيس المعماريّين الملكيّ بتعريضهم للخطر كي يحظى بتكريم السّلطان. مَنْ ذا الّذي يحتاج إلى الماء في وقت يجلب فيه الماء النّحس؟ قنوات مائيّة اصطناعيّة مشيّدة منذ أيّام الكفّار. ما السّبب في ترميمها إن لم يكن هو الكفر بعينه؟

سيطرتِ الدّهشةُ على جَهان، وبُهتَ لمّا طرق سمعه أنّهم نسوا قضيّة شبح المسلم الشّهيد، ووجدوا لهم مخاوف جديدة يتشبّثون بها، وهذا ما حدث. لقد تظاهروا بالصّمت والخضوع لكنّهم كانوا يهمسون بأقاويل خبيثة في اللّحظة الّتي يدير فيها التّلاميذ ظهورهم.

بعد مرور أسبوع على هذه الأحداث، جاء سنان برفقة زائر نحيل الجسم، وارتقى الاثنان السّقالة المشيّدة حديثًا.

ـ أيّها العمّال! يا رؤوساء العمّال! إنّنا محظوظون بوجود خُجّة محترم بيننا.

مدّ سنان يده إلى الشّخص الغريب، فتقدّم الرّجل إلى أمام ممتقعًا، ممطوط القسمات، لم يألف الأماكن المرتفعة، فأغمض عينيه وراح يتلو آيات من القرآن. وعرف العمّال بعدذاك أنّ اسمه هو الخجّة العندليب، وقد ولد في البوسنة وأنّ بوسعه الاتّصال بالله بسبع لغات ويعرف طرق عدد كبير من الطّوائف والمعتقدات. ثمّة شيء في صوت الرّجل، وبخلافه، فإنّه يبدو رجلًا اعتياديًا، صوت خلب لبّ العمّال. وطلب منهم الحركة وألّا يتكلّموا بسوء عن الآخرين، لأنّ سنان في حال تمكّنه

Twitter: @ketab_n

من التّحليق عاليًا، فإنّ الفضل في تحليقه يرجع إلى جناحين هما: الكسل والافتراء.

جاء الخجّة يوميًّا، ووقف معهم من الفجر حتّى غروب الشّمس، وامتلأ شعره غبارًا، واتّسخ حذاؤه بالوحل، ورشّ ماءً مباركًا وتلفّظ بما تلاه رئيس الملائكة جبرائيل على النّبي محمد ﷺ عندما كان خائفًا وفي حاجة إلى الحماية، لأنّ الأنبياء ـ شأنهم شأن البشر الاعتياديّين ـ يمكنهم أن يخافوا مخاطر هذا العالم ـ وطهّر القنوات المائيّة الرئيسيّة وهدّأ من روع اليهود والنّصارى والمسلمين على حدٍّ سواء، ثمّ ختم ذلك بقوله: أصبح الموقع نظيفًا الآن، نقيًّا مثل حليب الأمّ، فعودوا إلى عملكم.

هكذا عادوا إلى العمل، رويدًا رويدًا. وفرغوا من إكمال التّرميمات على نحو يستطيع حتّى أولئك الّذين كرهوا سنان أكثر من أيّ شخص آخر على وجه الأرض، أن يبدوا أيّ اعتراض. واغتبط السّلطان سليمان وأغدق على معماره العطاء والثّناء ووصفه بالإنسان الكامل.

بعد هذه الحادثة، فهم جَهان أنّ سرّ معلِّمه لا يكمن في الشّدةّ لأنّه ليس فظًّا أصلًا، ولا في جبروته لأنّه ليس متجبِّرًا، إنّما في قدرته على التكيُّف مع التّغييرات والكوارث وإعادة بناء نفسه مرّات ومرّات من جديد. وإذا كان جَهان قُدَّ من خشب وداؤود من معدن ونيقولا من حجر ويوسف من زجاج، فإنّ سنان كان مصنوعًا من ماء جارٍ. فكلّما حدث انسداد في مجراه، كان يجري من تحت ومن حول ومن فوق قدر استطاعته. كان يجد طريقه بين الشّقوق ليظلّ منسابًا إلى أمام.

Twitter: @ketab_n

يا لها من ليلة ليلاء! كان شوتا مريضًا، يهدر ويزمجر ويدمدم حتّى الخيط الأوّل من الفجر، يهزّ خرطومه إلى هذه الجهة وتلك، منهكًا، خائر القوى. وكان عناؤه قد وصل به إلى حدّ اضطرّ جَهان لأن ينام إلى جانبه، إن كان يستطيع النّوم. نظر نظرة واحدة إلى فم الحيوان فعرف سبب عذابه، إذْ شاهد ضرسًا في مؤخّر فكّه الأسفل الأيسر قد استحال لونه أسود، وتورّمت لثّته وامتلأت قيحًا.

تذكّر جَهان كيف أنّه عانى من ألم حادّ في أحد أسنانه الصّيف الماضي، ورأف به الحلّاق الّذي حلق للمسؤول عن الإسطبلات الملكيّة، وأنهى معاناته بعد أن ظلّ يبذل جهودًا في خلع سنّه وسط العويل والتّذمّر. وعلى الرّغم من هذا، لم يستطع جَهان أن يفكّر في أن شخصًا واحدًا لديه ما يكفي من الشّجاعة كي يخلع ضرس فيل.

سأله تاراس لدى دخوله الإسطبل ورؤيته وجهه: ماذا جرى؟ إنّ رأسًا على رمح يبدو أسعد منك.

ـ إنّه شوتا، سنّه تقتله.

قال تاراس متنهّدًا: حسْبُنا لو أنّنا في غابة صنوبر دائمة الخضرة، فأنا أعرف عشبة يمكنها أن تشفيه بأسرع وقت. جدّتي تحبّها.

فغر جَهان فاه مندهشًا ومبهوتًا، وسأله: هل ما زالت جدّتك على قيد الحياة حتّى الآن؟

قال تاراس: نعم، إنّها واحدة ممّن نزلت عليهنّ اللّعنة. ثم أضاف بلهجة جافّة لمّا رأى دهشة جَهان: ليس ثمّة لعنة أسوأ من أن تدفن كلّ أحبّائك وتبقى أنت على قيد الحياة.

سوف يتذكّر جَهان بعد مرور أعوام هذه اللّحظة، لكنّ الكلمات

Twitter: @ketab_n

الآن مزّقت بجانبه مرور تيّار هوائيّ.

ـ اخلط كمّيّة من الثّوم والشّمّار وزيت الثّوم واليانسون.

حصل جَهان على المقادير من المطبخ وطحنها مستخدمًا الهاون إلى أن أصبحت عجينة خضراء لزجة، ثمّ أطلع تاراس عليها فابتهج، وقال له: الآن ادهن بها لثّة الحيوان، وسوف يرتاح موقّتًا، إذْ لا بدّ من خلع الضّرس.

هرول جَهان عائدًا إلى الزّريبة، لكنّ الفيل قاوم محاولاته مقاومة شرسة، فلم يتمكّن إلّا من وضع نصف العجينة. كما أنّه لم يكن متأكّدًا من وضعها على الضّرس المؤلم. وفاحت من فم شوتا رائحة كريهة، فهو لم يتمكّن من تناول أيّ طعام، فأدّى به الجوع، كعهده دائمًا، إلى الهيجان. استخدم جَهان كمّامتين وحشر بقيّة العجينة في فمه، وربطها حول رأس الحيوان وفوق المنطقة الملتهبة. بدا شوتا مضحكًا، وكان في وسع جَهان أن يضحك ملء شدقيه لولا أنّ المسكين كان في مثل هذا العذاب.

خرج جَهان إلى الشّارع وبدأ يفتّش عن خالع أسنان جائل أو حلّاق، لكنّ الرّجل الأوّل الّذي صادفه في طريقه انفجر ضاحكًا عندما سأله وعرف هويّة المريض. أمّا الشّخص الثّاني، فكان رجلًا مقيتًا لم يمتلك جَهان الجرأة ليأخذه إلى مأوى الحيوانات. وكاد يتخلّى عن المهمّة عندما تذكّر الشّخص الوحيد في المدينة الّذي يعرف كلّ شيء عن كلّ شيء، بائع الكتب سيمون.

❁ ❁

كان الحيّ المحيط ببرج غالاتا مزدحمًا بالنّاس. فالتّجار يمشون مشيًا ينسجم ومشي الباعة الجائلين. وكان المبعوثون والمترجمون يتنحّون جانبًا لمرور عربات تجرّها الثّيران. ومرّ سفير يحمله عبيد سود، وكانت الكلاب تطوف في المنطقة في مجموعات. ورأى الرّجال

Twitter: @ketab_n

يتوجّهون إلى معهد لدراسة التّلمود، والشّيوخ يتجاذبون أطراف الحديث في الزّوايا، وامرأة تجذب ولدها من يده. كانت الكلمات تنطلق في الرّيح إسبانيّة وفرنسيّة وعربيّة.

تذكّر جَهان فجأة كيف تعرّضا للسّرقة في طريق عودتهما من روما. وراودته الشّكوك في أنّ رجلًا أمامه كانت له صلة بما حدث.

ـ هه! توماسو!

التفت الإيطاليّ، وضاقت عيناه عندما شاهد جَهان، وأطلق ساقيه للرّيح كالسّهم وتوارى بين حشود النّاس. لحقه جَهان مسافة لا بأس بها، وإن كان واضحًا أنّه لن يتمكّن من القبض عليه، فعاد أدراجه منكسر الخاطر وطرق باب سيمون.

سأل بائع الكتب: أأنت بخير؟

ـ هل جاء يوسف إلى هنا قبل قليل برفقة رجل أشقر؟

ـ أيّ رجل أشقر؟ إنّني لم أشاهد يوسف منذ أسابيع.

قال جَهان متنهّدًا: لا بأس. إنّني في حاجة ماسّة إلى مساعدتك.

ـ توقيت مناسب. لقد وصلت سفينة وعلى متنها كتب جديدة من إسبانيا.

ـ سوف ألقي عليها نظرة في وقت لاحق، لأنّني أريد أوّلًا مساعدة الفيل.

بعد أن أطلعه جَهان على المشكلة، كشّر سيمون، وقال: إنّني رجل مفكّر ولم يسبق لي أن عالجت حيوانًا.

ـ هل تعرف أحدًا يعالجه؟

ـ ليس ثمّة مَنْ هو أحسن منك. دعني أرَ إن كان ثمّة علاج ما في أحد الكتب، وعندذاك يمكنك أن تقدّمه له بنفسك.

قال جَهان بوهن: حسنًا.

Twitter: @ketab_n

ـ لا بدّ من أن تعطيه دواءً مُسكِّنًا. مثلّجات، أو يُستحسَن أن تعطيه جرعة منوِّمة.

وأضاف إنَّ الأطبّاء كانوا في الأيّام الخوالي يستخدمون عشبة الشّوكران الّتي أودت بحياة الكثيرين ولم تنقذ إلّا القليلين. أمّا في يومنا هذا، فإنّهم يفضّلون نبتة ظلّ اللّيل واللّقاح، الّتي تطلق صرخة رهيبة عند اقتلاعها من التّربة، لكنّ أفضل شيء هو الأفيون. وقد أوصى به غالن في علاج حالات اليرقان والاستسقاء والجذام والصّداع والسّعال والاكتئاب. وإذا كان المريض بعمر جَهان وحجمه، فإنّ ملعقتيْ طعام هما المقدار الصّحيح للجرعة. ولمّا كانت زنة الفيل تعادل وزن جبل وهو طويل كالشّجرة... وهنا تقوّس حاجبا سيمون وراح يحسب: إنّك في حاجة إلى برميل!

ـ وأين أجد البرميل؟

قال سيمون: رئيس الخصيان الأبيض. ما من معجزة إلّا ويجترحها بنفسه.

عاد جَهان إلى القصر حاملًا كتابًا تحت إبطه، وظنونًا في رأسه، إذْ لا يمكن أحدًا أن يمزح مع كامل آغا القرنفليّ، ولم ينسَ التّأنيب الّذي لقيه منه عندما وصل إلى القصر أوّل مرّة. ومع هذا، لَمّ جَهان أطراف شجاعته وذهب لزيارته. ولدهشته، وجد الرّجل أنيسًا وطيّب القلب.

في لمح البصر، وفّر له برميلًا من الأفيون، لكنّ جَهان لم يسأله عن كيفيّة الحصول عليه، فقد علّمته سنوات طويلة من العمل في القصر أن يلتزم الصّمت. وعمد اثنان من المروِّضين إلى فتح فكّ شوتا الأعلى بينما ضغط مروِّضان آخران على الفكّ السّفليّ. لم يبدِ الفيل مقاومة تُذكَرُ وهو المريض المنهك القوى، وراحوا يسكبون إبريقًا من النّبيذ الأحمر في فمه المتراخي مستخدمين في ذلك قمعًا.

Twitter: @ketab_n

تباطأ تنفُّس شوتا رويدًا رويدًا، وذاب وجهه ذوبان الشّمع، وشخصت عيناه، وتراخت ركبتاه تحت وطأة ثقله الهائل وهوى على الأرض، فشدّوه بالحبال والسّلاسل خشية أن يستيقظ ويهاجم في نوبة من نوبات الهذيان. هنا راح جَهان يعمل عمله والفيل على هذه الحالة.

بدأ عمله أوّلًا مستخدمًا إزميلًا لينتقل بعد ذلك مباشرة إلى مطرقة. وتبادل كلٌّ من مروِّض الزّرافات دارا ومروّض التّماسيح كاتو ومروّض الأسود أوليف الأدوار في الطّرق والدّفع والدّقّ. انتقلوا بعد ذلك إلى الجذب والسّحب إلى أن تمكّن جَهان في نهاية المطاف الذي بدا له أشبه بدهر، من خَلع ضرس ـ يشبه ناب أفعى عملاقة في حكاية تروى في مقهى من المقاهي.

أمر رئيس الخصيان الأبيض وعيناه تومضان: أعطني إيّاه!

هنا أدرك جَهان السّبب الّذي جعل هذا الرّجل يبدو أنيسًا منذ البداية. فبعد أن استولى على صندوق التّحفيّات الّذي كانت تملكه السّلطانة خرّم، أراد أن يُضيف إليه ضرس شوتا. شعر جَهان برجفة وهو يفكّر في المكان الّذي يمكن أن يخفي فيه هذا الصّندوق، وعلامَ يحتوي.

Twitter: @ketab_n

عندما علم جَهان بنبإ وفاة رستم باشا، ساورته مشاعر مختلفة من فوره، لكنّ الشّعور بالحزن لم يكن من بينها. زوج الأميرة مهرماه... والد أطفالها الثّلاثة... المحبوب الملكيّ الّذي كان يلمسها كلّ ليلة... الّذي صعد نجمه صعودًا أسرع ممّا ينبغي... الصّدر الأعظم الّذي كان يحظى بأكبر قدر من الاحترام وينشر أكبر قدر من الخوف...

لقد رحل ذلك الرّجل الّذي زج بجَهان في السّجن، وتوقّع أن يقبِّل يده عندما يُطلق سراحه... شأنه في ذلك شأن كلّ البشر. كان منذ فترة يعاني من مرض الاستسقاء. هذا كلّ ما عرفه جَهان عنه. وعلى الرّغم من بذله قصارى جهده لإبعاد الرّجل من تفكيره، إلّا أنّه كان يسمع بمرور الأيّام شيئًا ما جديدًا عنه، فكرهه أشدّ الكره.

بعد مضي شهر، استدعت مهرماه سنان، وأمرت الرّسول بأن يخبره بإحضار تلميذه الهنديّ معه.

ـ أريد منك يا رئيس المعماريّين الملكيّ أن تشيِّد مسجدًا رائعًا من أجل زوجي الرّاحل، أسكنه الله جنّاته.

كانت مهرماه ترتدي ثيابًا ذات ألوان قاتمة تناسب أرملة.

انتظر جَهان وراء معلِّمه، شابكًا يديه، مثبِّتًا نظراته على السّجّادة، وفكّر في أنّه سيكون مسؤولًا عن بناء هذا المسجد وأن يضع علامة عليه، في مكان ما، ذكيّة وواضحة للعيان. وسوف ينقش مقته لرستم باشا في الصّرح نفسه المخصّص له. وإذا كان التّفكير على هذا النّحو يُعدّ إثمًا، فإنّه آثم لا محالة.

استرسلت مهرماه في الكلام غير متنبهة لأفكاره. وقالت لا توجد

Twitter: @ketab_n

ضرورة للخوف من النّفقات لأنّها قادرة على سدادها كلّها. وطلبت تشييد فناء رحيب ومجموعة من الدّكاكين المعقودة لتوفير إيرادات للمسجد. وكانت حريصة على استخدام أفضل أنواع القرميد والآجر من مدينة إزنيق[١] أخضر مثل خضرة النّبات، وأزرق زرقة الصّفير وأحمر قانٍ حمرة الدّم.

قال سنان: سأكون رهن إشارتك يا صاحبة السّموّ.

قالت مهرماه: أريده مسجدًا يبهر الأبصار، يستحقّ اسم زوجي الرّاحل والنّبيل.

تنهّد جَهان من أعماقه، وتلوّى الاستياء داخله تلوّي ثعبان. وندم، على الرّغم منه، لمرافقته معلِّمه إلى هذا البيت الّذي تتكدّس فيه الثّروات. في هذه الأثناء، التفتت مهرماه إليه كأنّها تنبّهت إلى ضيقه، وقالت: لم أرَ الفيل منذ زمن ليس بالقصير. كيف حاله؟

قال جَهان بصوت هادئ: شوتا مشتاق إليك يا صاحبه السّموّ.

أرخت بصرها نحوه لتستوعب أيّ تقدّم حاصل فيه، وقالت: كيف يمكنك أن تعرف؟

ـ وجدته مرّات ومرّات ينتظر ثابت العينين على الممشى الّذي شرّفه سموّك.

رفعت مهرماه يدها كأنّها تريد أن تلمس الهواء بينهما.

ـ حسنًا. أخبر شوتا بأنّني كنت بعيدة، متورِّطة في حياة أخرى، لكنّني سأعود لزيارته لأنّني لم أرَ في حياتي فيلًا أبيض مثله.

ـ سوف يكون مسرورًا لسماعه هذا يا صاحبة السّموّ.

---

(١) إزنيق Iznik: هي مدينة نيقيا القديمة في آسيا الصغرى، تقع على بحيرة إزنيق، عُقد فيها مجمعان مسكونيان ٣٢٥ و٧٨٧. كانت عاصمة الإمبراطوريّة البيزنطيّة ١٢٠٤ ـ ١٢٦١. فيها أسوار رومانيّة وبيزنطيّة وتشتهر بصناعة الخزف (المترجم).

Twitter: @ketab_n

رنت عينا جَهان إلى السّماء، فشاهد طيّارة ورقيّة تحلّق عاليًا، جميلة، حرّة، وقال: إنّني متأكّد من أنّه سيفهم يا صاحبة السّموّ، وأنا متأكّد من أنّه لا يزال ينتظر عودتك. الفيلة لا تنسى أبدًا.

أومأت برأسها متمهّلة.

ـ يمكنكما الانصراف الآن، وأرجو الله أن يسدّد خطواتكما.

في اللّحظة الّتي استأذن فيها المعلّم والتّلميذ بالانصراف، تمتمت مهرماه: قلت أنّ الفيلة لا تنسى، لكن ماذا عن مروّضي الفيلة.

طار الدّم من وجه جَهان وشعر بتحديق معلّمه الّذي ارتبك وذُهل من الحديث الّذي سمعه توًّا، والّذي كان يفتقر إلى اللّمسة الرّسميّة. لكنّه لم يرغب في إخفاء أيّ شيء. ولم يرغب في التّظاهر. فما كان منه إلّا أن أحنى رأسه، وقال: ولا هم ينسون أيضًا يا صاحبة السّموّ. لا ينسون.

Twitter: @ketab_n

تضخّمت إسطنبول مقرّ العرش في المناطق الرّخوة، على الرّغم من أنّ الحرائق والهزّات الأرضيّة أرهقتها. ولمّا كانت اسطنبول مدينة مثل مدينة زهر العسل، فقد راحت تجذب إليها البشر من مختلف الأنواع من قريب ومن بعيد، فيهم النشيط والباحث والمشتاق. أعداد النّاس كثيرة جدًّا تحت سماء واحدة، يزيد عددهم عن عدد النّجوم الّتي يرنون إليها، مسلمين ونصارى ويهود ومؤمنين ومهرطقين من كلّ الدّيانات، يكلّمون الله في الوقت نفسه، فتحمل الرّيح توسّلاتهم وأدعيتهم من أجل أن يغيثهم الله، ومن أجل الحظّ السّعيد، مختلطة بصيحات النّوارس. وتساءل جَهان كيف يمكن اللهَ أن يسمع أيّ واحد من هؤلاء وسط الضّجيج.

بحلول نهاية فصل الصّيف، عنَّف شيخ الإسلام أبو السّعود أفندي سنانًا، وأعلن أنّ قطع المرمر الّتي نقلها المعمار من آيا صوفيا أثناء إعادة البناء، كانت ملعونة وأنّها جاءت بالمصائب الواحدة تلو الأخرى على الإسطنبوليّين. في نهاية الأمر، لم يعرف سنان ولا تلاميذه أين يضعون مرمر الكنّيسة القديمة الملعون، فاستخدموه في بناء ضريح السّلطانة خرّم معتقدين أنّها لن تعترض.

في الأول من مايو ١٥٦٦، شُنّت الحرب لفتح قلعة زيغتفار، وظهرت الحاجة إلى خدمات الفيل. وافق جَهان مضطرًّا، إذْ ساءته هذه الأنباء. صحيح أنّه كان يتدرّب على يديْ سنان، لكنّه كان وسيظلّ مروِّض فيل السّلطان وسائسه ما دام شوتا على قيد الحياة.

وصلوا مدينة بلغراد في شهر حزيران، وكان نهر الدّانوب يجري

Twitter: @ketab_n

على مدّ البصر ـ مشاكسًا ومغويًا وعظيمًا. خفّف السّلطان سليمان من سرعة جواده وهو الّذي كان حتّى ذلك اليوم يتقدّم الصّفوف. ولم يعرف جَهان شيئًا عن أنّ سبب ذلك يرجع إلى أن مرض داء الملوك المصاب به قد بات مؤلمًا جدًّا له حتّى وجد صعوبة في الجلوس على مقعده على ظهر الحصان. وفكّر صدره الأعظم سوكولو ـ وهو رجل زاهد، مدروس الصّوت ورزين القسمات، يتحدّر من قرية من قرى البوسنة تدعى هوكس نيست ـ في نقله بوساطة محفّة غير أنّه رفض الفكرة، لأنّ مثل هذه الخطوة من شأنها أن تثبط همم الجنود الّذين كانوا على استعداد لرؤية صغار الضّفادع تمطر عليهم من السّماء، بدلًا من رؤية قائدهم المنهك والذّاوي. هنا، تمّ العثور على حلٍّ: شوتا.

صدرت التّعليمات إلى جَهان كي يستعدّ لحمل سيّد الشّرق والغرب على ظهر الفيل، وحذّر بالقول: تأكّد من أنّ فيلك يعلم من يمتطي ظهره.

في صباح اليوم التّالي، رأى جَهان السّلطان عن قرب للمرّة الأولى منذ سنوات، وذكّرته بشرته الّتي طار منها الدّم، بالرّماد البارد المتجمّع في موقد انطفأ لهيبه منذ زمن. كان جبينه العالي الّذي ورثته عنه مهرماه، كثير الغضون، خطوطه غامضة كتبت بحبر الزّمان. مال جَهان إلى أمام ولثم حافة قفطانه ـ وهو رداء لم يُصنع من قماش جيّد لأن السّلطان لا يزال ينأى بنفسه عن الرّفاهية. وساعده حرّاسه على الصّعود إلى الهودج، وبعد أنِ استقرّ في مجلسه، اتّخذ جَهان مجلسه على رقبة الفيل. وتقدّم الرّكب وهم على هذا النّحو.

وصلوا زيغتفار في الخامس من آب، وكان وقت العصر شديد القيظ والحقول مزدانة بالزّهور، أقاموا معسكرهم وأحضروا مدافع الحصار الّتي كانت تجرّها دزينة من الثّيران. ثمّ نصبوا خيمة السّلطان بذيول الجياد البيض السّبعة من فوق تلّ يستطيع السّلطان أن يرنو إلى

Twitter: @ketab_n

القلعة الّتي أقسموا على الاستيلاء عليها. كان داخل القلعة الكونت نيقولا سوبيك زرينسكي هو الآمر. وكان رجاله قد نشروا فوق المتاريس أقمشة هائلة في حجمها بلون الدّماء.

سأل جَهان أحد الجنود المشاة: ماذا يعني ذلك؟

- يعني أنّهم لن يخرجوا من تلك القلعة الملعونة، وأنّهم يفضّلون الموت على ذلك.

دافع الكونت ورجاله دفاعًا قويًا وبلا هوادة عن قلعتهم. وتحوّلت الأيّام إلى أسابيع، ومرّ شهر بأكمله وأصبحت الحرارة لا تُطاق. وكان طعامهم يتألّف من الذرة المشويّ والمكسّرات واللّحم المجفّف وقطعة صلبة من جبنة مصنوعة من حليب أنثى الحصان، وكانت قطعان الخراف والماعز الّتي أحضروها معهم من إسطنبول تنتظر على استعداد لأن تُذبحَ. ولم يفهم جَهان كيف استطاع العدو أن يقاوم الجوع وأعدادهم الآخذة بالتّناقص. المقرَّر أن يشنّ جيش السّلطان هجومًا وأن تصمد القلعة. وهذا ما حدث إذْ سقط جنودٌ من كلا الجانبين، الجانب العثمانيّ أكثر من جانب العدوّ. ولكن إذا كان المدافعون بالمئات، فإنّ العثمانيّين كانوا بالآلاف ودفنوا موتاهم في حفر أعمق من أكثر الآبار عمقًا، وحضّروا أنفسهم لهجوم آخر. وراحوا يرسلون المبعوثين مرّة تلو الأخرى، يطالبون الكونت بالاستسلام قاطعين العهد له بتوفير الأمان له إن استسلم. وعرض عليه السّلطان سليمان أن يجعله حاكم كرواتيا تحت الإشراف العثمانيّ، لكنّ كلّ رسول عاد حاملًا الجواب نفسه: سوف يواصلون القتال.

تردّد صدى المدفعيّة العثمانيّة في جنبات التّلال المتموّجة. وكانت مقاومة العدوّ لا تُقهر. وكلّما ظهرت ثغرات في الدّفاعات أثناء النّهار، انهمك الرّجال والنّساء والأطفال في سدّها ليلًا. واستخدموا كلّ شيء في تعزيز الأسوار: الخشب والأقمشة والسّجّاد. ولم يدّخروا شيئًا إلّا

Twitter: @ketab_n

استعملوه، ولا حتّى قطع الحرير الأنيقة الّتي كانت يومًا ملك أسرة ثريّة. ورقصت حوريّات البحر عليها، حاملات القيثارات، تتموّج شعورهنّ مثل نور القمر على موجات سود. ولم يستطع جَهان أن يشيح ببصره ولا الانكشاريّة أيضًا. ثمّة ما هو آسر في صورة هذه الجنَّة البرَّاقة بلمعانها ورقّتها البالغة المغرية، ما أدّى بالقادة الّذين ارتابوا في وجود السّحر، إلى إصدار الأوامر بقصف تلك السجّادة المعلَّقة، وظلّوا يهاجمون ذلك الجزء من الحائط هجومًا لا هوادة فيه إلى أن تلاشت كلّ الألوان البرّاقة وتحوّلت إلى بساط كئيب من سخام وفضلات.

وفي عصر يوم مشرق من أيّام شهر أيلول، كان جَهان يمتطي شوتا ليعود بالسّلطان إلى خيمته عندما سمعا صوت انفجار سيظلّ صداه في آذانهما على مدى أيّام طويلة. ارتجّت الأرض وتسامقت كتل الدّخان فوق السّحاب واهتزّ الفيل وكاد يُلقي بهما من فوقه.

صرخ جَهان آمرًا شوتا وحاول أن يهدّئ من روعه في حين فغر فاه مندهشًا من لون السّماء الأسود كالقار.

صاح السّلطان من على الوسائد داخل الهودج: ما الّذي يجري أيّها السّائس؟

ـ لقد فجّروا ترسانتهم يا مولاي... وفجّروا معها أنفسهم.

ـ ماذا قلت؟

اعتدل السّلطان في جلسته، ومال إلى أمام لينظر نظرة أفضل وتمتم: هذا ما فعلوه. هذا ما فعلوه.

راقب السّلطان والمروِّض فترة طويلة ومرعبة اللّهب المستعرّ. وهزّ شوتا خرطومه وخفق أذنيه بتوتّر، ثمّ صرخ السّلطان من دون أن يهتمّ بانزعاج الفيل: اقترب، فأنا أريد إلقاء نظرة.

نفّذ جَهان أمر السّلطان آملًا ألّا يهتاج الفيل في منتصف الطّريق،

Twitter: @ketab_n

ولكن عند الوصول إلى المشهد، كان هو الّذي أصيب بتوتر وهيجان، إذْ كانت الأرض مزروعة بالأسلحة المدمِّرة وأطراف البشر المقطوعة. وكان يستحيل معرفة أشلاء العدوّ من أشلاء جنوده. وراح جَهان يشهق وانتفخ بلعومه. وكاد يتقيّأ بعد أن امتلأ فمه بعصارة مرّة، فأخفى وجهه بين يديه.

صاح به السلطان: لا تبكِ، بلِ صَلِّ.

خجل جَهان من ضعفه، فاعتدل في مكانه، وقال: سوف أدعو لجنودنا يا مولاي.

قال: لا. ادعُ لهم جميعًا. لم يعد ثمّة اختلاف بعد الآن.

إنّ هذا الرّجل الّذي خاض الحروب واحدة تلو الأخرى من دون هوادة طوال مدّة حكمه الّتي بلغت ستة وأربعين عامًا، والّذي أمر بقتل صدره الأعظم الشّديد الذّكاء وربّما صديقه الوحيد، والّذي شاهد ابنه الأكبر يُخنق، وتسبّب في موت ابنٍ آخر حزنًا وغمًّا، ورتّب مقتل ابن ثالث بعيدًا في إيران، والّذي جعل من نفسه أقوى سلاطين آل عثمان، هذا الرّجل نفسه قال قبل قليل في حقل الهندباء البرّيّة والموت إن ليس ثمّة أيّ فرق في نهاية المطاف بين الجنديّ داخل معقل العدوّ والجنديّ خارجه، بين المسلم والنّصرانيّ، تاركًا جَهان في حيص بيص وأمام أحجية لن يتمكّن من حلّها على مدى سنوات طويلة مقبلة.

۞ ۞

في اليوم التّالي، كانت رائحة الأجساد المحترقة لا تزال تغطّي ميدان المعركة، رائحة نفّاذة ثقيلة لا تستطيع أيّ ريح نقلها إلى مكان آخر. وشعر جَهان بأنّ الرّائحة استقرّت في مؤخر بلعومه، ما زاد من صعوبة تنفّسه ناهيك عن صعوبة بلعه.

لكنّه على الرّغم من ذلك، وكما هو دأبه في كلّ يوم، جعل شوتا

Twitter: @ketab_n

جاهزًا للسّلطان، فانتظرا أمام باب خيمته. لكنّ سوكولو هو الّذي خرج بعد برهة قائلًا بهمس إنّه يرغب في أن يكلّم المروِّض. كان جَهان يسكن في السّراي مدّة تكفيه لأن يعرف أن الصّدر الأعظم اذْ يرغب في أن يكلّم خادمًا عاديًا، فإنّ شيئًا رهيبًا لا بدّ من أن يحدث أو يوشك أن يحدث. فما كان من جَهان إلّا أن سار خلفه، وقلبه في فمه.

ثمّة مصباح منير إنارة خافتة في إحدى زوايا خيمة السّلطان وإن كان ضوء النّهار يغمرها. وعلى بعد مسافة قليلة، كان السّلطان مستلقيًا وساكنًا فوق أريكة مخمليّة.

قال الصّدر: أصغِ إليّ يا بنيّ. إنَّ ما تراه لا يعرف به كائن من كان، هل فهمت؟

تلعثم جَهان، وقال: هل هو...

ـ ما يبعث على الأسى أنّ هذا صحيح. لقد وافت المنيّة سلطاننا، تغمَّده الله برحمته وأسكنه فسيح جنّاته. وسوف نعلن الحداد في وقت لاحق. أمّا الآن، فأمامنا أنا وأنت واجب مهمّ.

حدّق جَهان إلى قدميه وهو لا يعرف إلى أين ينظر، مذهولًا ومرتبكًا. فالسّلطان سليمان الّذي توفّي عن اثنين وسبعين عامًا، لم يعش طويلًا ليبتهج بالنّصر.

قال سوكولو متمهّلًا: ضروريّ جدًّا أن نخفي الحقيقة عن الجيش. ثمّ توقّف عن الكلام متردّدًا ومتلعثمًا، فهو رجل يؤمن بأنّ تلك الكلمات ينبغي أن تُستخدم بتقتير شأنها شأن النّقود... ثمّ أضاف: وسوف يجلس سلطاننا على ظهر الفيل مثل أيّ يوم آخر، وعليك أن تطوف به في الأرجاء.

جفل جَهان بعد أن فكّر بأنّه ينبغي له أن يضع جثّة على ظهر شوتا. فسأل: وإذا أراد شخص ما أن يكلّم السّلطان؟

Twitter: @ketab_n

ـ عليك أن تتأكّد من عدم اقتراب الفيل من أيّ شخص. وإذا رأى الانكشاريّون السّلطان من على مسافة بعيدة، فلا بأس، وليس ثمّة ضرورة تستدعيهم إلى سماع صوته. كلّ ما هم بحاجة إلى معرفته هو أنّه حيّ.

فجأة، ترامى إلى سمعهما صوت وقع أقدام. كان الحرّاس يتقدّمون ومعهم شخص ما. وهنا اشرأبّ سوكولو بعنقه ليتأكّد من القادم، علمًا أنّه كان قد أمر بعدم السّماح لأحد بتجاوز عتبة الخيمة إلّا لمن كان جديرًا بالثّقة. فشاهد التّتاريّ القصير القامة صاحب الرّقبة الغليظة الشّبيهة برقبة ثور.

ـ آه، أهذا أنت؟ تقدّم.

أخرج الصّدر الأعظم رقًّا من ردائه وقبّله ووضعه على جبينه.

ـ خذ هذا إلى الأمير سليم.

انحنى الرّجل انحناءة كبيرة.

ـ اذهب سريعًا كالرّيح، ولا تتوقف في طريقك أبدًا، وتناول طعامك وأنت على صهوة الجواد، ولا تخلد للنّوم، ولا تضيّع الوقت، لأنّ مصير الإمبراطوريّة يعتمد عليك.

سأل جَهان نفسه عن المدّة الّتي يستغرقها السّفر من زيغتفار إلى كوتاهية حيث يحكم فيها الأمير. لم يكن كافيًا أن يصل خبر وفاة والده ومن دون تأخير فحسب، بل عليه أن يصل إلى إسطنبول في الوقت المحدَّد لأنّ العرش الّذي يخلو من السّلطان نذير شؤم، وأنّ أيّ شيء ممكن الحدوث في المدّة الواقعة بين وفاة الأب وتولّي الابن عرش البلاد.

أخرج سوكولو نسخة من القرآن من علبة مصنوعة من عرق اللّؤلؤ، وقال: أريد منكما (جَهان والتّتاريّ) أن تحلفا اليمين على الكتاب الكريم. كلاكما.

Twitter: @ketab_n

امتثل الاثنان، غير أن الصّدر الأعظم لم يبدُ مقتنعًا، فسألهما عن هويّة كلٍّ منهما.

قال جَهان: أنا من هندستان.

وقال الرسول: وأنا من كازاخستان.

أخرج سوكولو خنجرًا مذهّبًا ومرصّعًا بالجواهر، وقال: أعطياني يديكما.

وهنا جرح سبّابة الرّسول وسبّابة جَهان، فسال الدّم من إصبعيهما إلى غمد الخنجر.

- إذا أفشى أيّ واحد منكما السّرّ، فسوف أقتلكما معًا.

لم يفهم جَهان السّبب الّذي يجعل حياته معتمدة على غريب من الغرباء، ولا بدّ من أنّ مثل هذا الشّعور ساور الرّسول أيضًا، لأنّه التفت إليه عابسًا، ولكن لم يملك أيّ واحد منهما الجرأة على الاعتراض. وأعطاهما سوكولو منديلين حريريّين ليلفّا بهما إصبعيهما.

قال للرّسول: اذهب الآن يا بنيّ. سدّد الله خطاك.

نظر جَهان نظرة أخيرة إلى الرّجل الّذي يعتمد على إخلاصه. أومأ أحدهما إلى الآخر برأسه في وداع صامت. ولم يعرف جَهان أن هذا الرّسول نفسه هو الّذي سيأتي بالمعلّم سنان إلى القصر في تلك اللّيلة عندما قتل حفيد السّلطان سليمان إخوانه الخمسة ليضمن لنفسه العرش.

ما إن انصرف الرّسول حتّى دخل الطّبيب، وهو من مدينة سالامانكا رجع إلى ديانته القديمة ويتكلّم اللّغة العثمانيّة بلكنة إيقاعيّة. وأقسم بدوره على عدم إفشاء السّرّ، وإن لم يكن قسمه على كتاب مقدّس لأنّ كتب موسى الخمسة غير متوافرة، لهذا السّبب أو غيره، لم تُجرح إصبعه.

سأل الطّبيب مومئًا إلى جَهان: هل تمكنه مساعدتي؟

Twitter: @ketab_n

كان سوكولو موليًا ظهره لهما مستغرقًا في تزوير توقيع السّلطان مرسلًا رسائلَ ومصدرًا أوامر باسم السّلطان، فقال من فوق منكبه طالبًا من جَهان الانصراف: اذهب وساعده!

فتح الطّبيب قارورة فامتلأت الخيمة برائحة نفّاذة هي مزيج من الصّمغ والكاسيا والتّوابل وعمدا إلى تجريد السّلطان من ملابسه ودهن جسمه بكامله. إنّ ما رآه جَهان بعد ذلك، لن يتمكّن من البوح به مستقبلًا لأيّ شخص حتّى وإن كان في أمسّ الحاجة إلى الإفصاح عنه. فهو شيء تغلغل في أحلامه مرّات ومرّات، إذْ شقّ رئيس الأطباء الجانب الأيسر من صدر السّلطان وأخرج قلبه وكان يشبه طائرًا أحمر في كفّيه. وعلى الرّغم من أنّه كان ساكنًا إلّا أنّ جَهان خشي في لحظة عابرة أن يكون حيًّا ولا يزال ينبض. حمله الطّبيب بيديه ووضعه في حوض فضّيّ، ثمّ خاط الجرح باثنتي عشرة درزة تامّة. رفع جَهان رأسه إلى الرّجل ونظر إليه نظرات تنمّ عن استغراب ما رأى. وسأل: لماذا نفعل هذا أيّها الأفندي؟

ـ القلب هو مركز كياننا. وهذه هي رغبة السّلطان الأخيرة: إذا ما وافته المنيّة هنا، فإنّه يريد أن يُدفنَ قلبه في ساحة الوغى.

اختارا أفضل قفطان وجداه في الصّناديق وألبسا الجثّة إيّاه، وأخيرًا مشّطا شعر لحيته وحدّدا عينيه باستخدام السّخام ولوّنا خدّيه بمسحوقورديّ اللّون. ولمّا فرغا، بدا السّلطان سليمان في صحّة أفضل ممّا كان عليه عندما كان حيًّا.

قال سوكولو بعد أن تأمّل ما فعلاه: انزع ذلك الرّداء فهو شديد الألق، وما كان يفضّل أن يرتديه.

استقرّ رأي الاثنين على رداء بسيط من دون ألوان وأصبحت الجثّة جاهزة بعد ذلك. وعند الغسق، وصل ثلاثة من حرّاس النّخبة بعد أن

Twitter: @ketab_n

فرغوا من تفتيش المعسكر، وقالوا إنّ كلّ شيء هادئ. ومدّ ثلاثتهم يد العون في إحضار الفيل إلى مدخل الخيمة. كان شوتا بحالة توتّر، يشمّ رائحة شيء غير مألوف.

سأل سوكولو منزعجًا: ماذا يحدث؟

ـ امنحني بعض الوقت مع الحيوان يا مولاي. أتوسّل إليك.

كلّم جَهان الفيل كلامًا عذبًا، وأخبره بأنّه سيحمل رجلًا ميّتًا، وطمأنه إلى أنّ ذلك لن يستغرق أكثر من بضعة أيّام. وبعد تملّق وملاحظة وعدد من التّفّاح، هدأ الحيوان وسمح لهم بوضع السّلطان في الهودج، واتّخذ جَهان مجلسه في مكانه المعتاد على رقبة الفيل وانطلق، محدِّقًا إلى النّسور المحلِّقة في الجوّ من بعد. وعندما لاحظ عددًا منها يهبط إلى الجثث المنتشرة على مساحة واسعة وبعيدة إلى أسفل، اضطرّ للابتعاد. لقي عشرون ألف رجل مصرعهم في حصار زيغتفار.

في طريق العودة، علموا أنّ الأمير سليم تمكّن من الوصول إلى المدينة. لقد نجح الرّسول في مَهمّته، وارتاح سوكولو ارتياحًا كبيرًا. وطلب من حرّاسه الكشف عن الحقيقة بعد أن انتفت الحاجة إلى التّظاهر. أُنزلت جثّة السّلطان من على الهودج، ووُضعت على محفّة جرّها حصانان أبيضان حتّى وصلوا العاصمة. كان سكّان إسطنبول في الانتظار، إذْ تجمّع الآلاف على جانبي الطّريق، يشدّون شعورهم ويمزِّقون ثيابهم، ويلطمون على صدورهم. وشاهد جَهان محاربين لا يهابون الموت ينفجرون بالبكاء، رجالًا ينشجون مثل الصّبيان.

في أعقاب دفن الأب، جاء تتويج الابن. أراد سليم من الأهالي الاحتفال على نحو لم يحتفلوا به سابقًا. فالزّلازل والكوارث والموت والمصائب جاءت سريعة ومتتالية فلم تترك فسحة للفرح أو للأمل.

Twitter: @ketab_n

كفاهم حزنًا وحدادًا. وحان الآن وقت الابتهاج.

استبدّ الذّعر والهلع بالعلماء. سوكولو نفسه أُصيب بالفزع من ردّ الفعل، لكنّ مستشاره فريدون بك هو الّذي أقنعه بألّا ضير إذا عمّ الفرح بين النّاس، وقال: هل يمكن البدن أن يظلّ مصابًا بالإمساك طوال الوقت؟

إنّ العالم يحتاج إلى أن يفرغ أمعاءه، فاتركهم يمرحون يا صدري.

في اليوم الّذي اعتلى فيه سليمٌ العرشَ، وُضِعَ غطاءٌ رائعٌ على رأس شوتا وكسوة مزيّنة بالمجوهرات. وتقدّم الفيل الموكب الملكيّ في شوارع إسطنبول، فلوّح له الأهالي وهتفوا وغنّوا بصوت عالٍ. مرّة أخرى، لم يستطع جَهان أن يصدّق كيف تغيّر مزاج العامّة تغيّرًا مفاجئًا من الحزن إلى الفرح، وكيف جفّت مآقيهم بسرعة من نهر الدّموع. وإذا كان انتقالهم من حالة الحزن إلى حالة الفرح يتمّ بمثل هذه السّهولة، فهل هذا يعني أنّهم قادرون على الانتقال من حالة الحبّ إلى حالة الكراهية من دون جهد؟

Twitter: @ketab_n

بعد الانتهاء من تنصيب السّلطان الجديد على العرش، عاد جَهان وشوتا إلى العمل في موقع البناء. كانا يغادران في صباح كلّ يوم مأوى الحيوانات سالكَين الطّريق نفسه، ويعودان في الأماسي منهكين ظمآنين، تفوح منهما رائحة الغبار والطّين. في هذا الوقت، بدأ سنان ببناء جسر فوق الرّابط الّذي يصل بحيرة بيوكجمجي بالبحر، طويل ومقوّس وفيه انسيابيّة رائعة.

في إحدى ليالي شهر كانون الأوّل، وبعد أن انتهى الجزء الأعظم من البناء، كان المعلّم والتّلاميذ الثّلاثة يركبون عربة ليعودوا إلى المدينة، وكان جَهان يتقدّمهم ممتطيًا شوتا. وفي اللّحظة الّتي انعطفوا فيها حول منحنًى، طرق سمعهم صوت بعيد قادم من المدينة، تخلّلته صرخة حادّة وقويّة تقشعرّ لها الأبدان. عندما رفع جَهان بصره إلى السّماء، شاهد مزيجًا من اللّون البرتقاليّ والأصفر والأحمر، وكانت ألوانًا برّاقة تغشّي الأبصار، فصاح بأعلى صوته: حريق!

توقّفت العربة وترجّلوا منها. وبدا سنان محطَّمًا، فقال: ينبغي لنا أن نذهب لنقدّم يد العون.

قال جَهان: لماذا لا نذهب برفقة شوتا حتّى نصل بسرعة؟

هكذا امتطى الثّلاثة الفيل واتّخذوا مكانهم في الهودج، بينما جلس جَهان على رقبة الحيوان.

تقدّموا بتثاقل وبطء على امتداد الشّوارع، مهتدين بالصّرخات الّتي كانت تشقّ عنان السّماء مثل قطع مهشّمة من الزّجاج. وبينما هم يمضون في طريقهم، ازدادت الرّيح هوجًا وحرارة مؤدّية إلى انتشار العاصفة

Twitter: @ketab_n

النّاريّة من منزل خشبيّ إلى آخر. رمشت عينا جَهان باستمرار وانبهر بصره بوهج النّيران قدر ما انبهر بالهرج والمرج. وامتدّت ألسنةُ اللّهيب إلى عنان السّماء في دوّامات زاهية كأنّها من لون واحد. وفي كلّ مرة كان اللّهب يستعر، تشعّ الأشجار كأنّها ثريّات مورانو.

وفي كلّ منعطف مرّوا به، شاهدوا منظرًا أشدّ إثارة للهلع من سابقه. فالحيوانات تهرول ذات اليمين وذات الشّمال تائهة، مذعورة. الأُسر تحاول إنقاذ ما يتيسّر لها إنقاده من ممتلكاتها القليلة، الرّجال يحملون السّلال والبراميل، النّساء ممتقعات الوجوه من شدّة الهلع، الأطفال الرضَّع يبكون بكاءً يقطّع نياط القلوب. أمّا الأطفال الأكبر سنًّا، فهم وحدهم الّذين ظلّوا غير هيّابين، يهرولون هنا وهناك كأنّهم في خضمّ لعبة ابتدعها الكبار لهم ليلعبوها.

شاهدوا أمام أعينهم أحياء برّمتها يلفّها الدّخان. حجرات أنجبت فيها الأمهات أطفالهنّ، وأخرى شهدت احتفالات الختان، حياة بُعثت فيها الأنفاس وحياة لفظ فيها المرضى أنفاسهم الأخيرة، هذه الأماكن تحوّلت كلّها هي وذكرياتها جمرًا منطفئًا وبقايا فحم وخشب محترق. لم يبقَ شيء، إلا قدرٌ من الدّفء، وعلى الأرض تبعثرت ثياب وأحذية وأشياء بسيطة وقطعة آجر كانت يومًا في جدار. توقّفوا في شارع رئيسيّ كانت النّيران قد أتت عليه بالكامل. هنا طلب سنان أن يترجّل من على ظهر الفيل، جزعًا، مبهوتًا من هول ما أصاب المكان. فقد بذل رئيس المعماريّين الملكيّ قصارى جهده لمنع هذه الكارثة، إذْ عبّد الطّرقات وتأكّد من متانة البنيان، بلا طائل.

ثمّة عدد من الفرقة الانكشاريّة يضيّع الوقت سدًى، يحمل الحقائب ويتحدّث إلى الأهالي، يخطو خطوات بطيئة، متلكّئة متردّدة في أغلب الأحيان. تقدّم سنان إلى واحد منها كان جالسًا على قطعة من خشب يحدِّق إلى ما حوله في سأم.

Twitter: @ketab_n

ـ لِمَ لا تفعلُ شيئًا؟

لم يتوقّع الانكشاريّ أن يوجّه أحدٌ إليه مثل هذا السّؤال، كما أنّه لم يستدلّ على شخصيّة المعماريّ، فردّ بحدّة وجفاء: ماذا؟

ـ لماذا لا تساعد الأهالي؟

قال الرّجل عابسًا: إنّني أساعدهم.

اقترب انكشاريّ آخر، وقال إنّهم لم يخمدوا النّيران لأنّهم يريدون أن يسمعوا الأوامر من الآغا المريض والطّريح الفراش.

هنا اكفهرّ وجه سنان، وقال بلهجة حادّة: أيّة أوامر تريد سماعها؟ كيف يمكنك أن تجلس من دون حراك بينما النّيران تلتهم المدينة؟

في حين كان سنان يكلّم الانكشاريّين، انعطف الفيل وسائسه إلى شارع فرعيّ على أثر سماع صوت ما. شاهد جَهان في نهاية ذلك الشّارع امرأتين تصرخ إحداهما في وجه الثّانية، وعرف من الجيران أنّهما زوجتا تاجر مسافر خارج المدينة. ولدى اندلاع الحريق، هرعت المرأتان إلى خارج المنزل وهما تمسكان بأطفالهما وتزعم كلّ واحدة منهما أنّ الأخرى خطفت المولود الجديد.

رنا جَهان إلى المبنى المحترق وإلى المرأتين الباكيتين، وقال لشوتا: انتظرني هنا، سوف أدخل المبنى.

لم يحلم جَهان في أن يصطحب الفيل معه، إذْ كان يدرك تمامًا شدّة خوفه وهلعه من النّيران.

شقّ جَهان طريقه ببطء ناحية المنزل المحترق وسار سيرًا حذرًا في كلّ خطوة خطاها إلى أمام، مصغيًا لأقلّ صوت. وما إن اجتاز عتبة الباب حتّى هاجمته ألسنةُ اللّهيب من كلّ الجهات. كان الدّور العلويّ المشيّد فوق الحجرات الأماميّة قد انهار، لكنّ الجهة الخلفيّة من المبنى لم يلحق بها الدّمار. شاهد جَهان شمعدانًا برونزيًّا فما كان منه إلّا أن

Twitter: @ketab_n

اختطفه على عادته، وإن كانت فائدته قليلة، لكنّه ما إن تقدّم إلى أمام حتّى كان أوفر حظًّا، إذْ رأى محبرة فارغة، ذهبيّة ومرصّعة بالزّمرّد. شهق جَهان وسعل وهو يجوس وسط سحب الدّخان، ودمعت عيناه حتّى لم يعد في وسعه أن يعرف إلى أين يمضي. وتمكّن من أن ينجو من قطعة خشب محترقة هوت أمامه مباشرة بعد أن أصابت كتفه وطرحته أرضًا. ولم يعد في إمكانه التّقدّم إلى أمام أكثر ممّا تقدم.

فجأة أمسكت به كتلة من اللّحم من خصره ورفعته إلى أعلى.

هتف جَهان: كيف دخلت يا شوتا؟

ردًّا على السّؤال، قاده الفيل إلى أعماق المنزل - أو ما تبقّى منه. حرّك شوتا أذنيه كأنّ صوتًا خافتًا انساب إلى مسمعه. لا بدّ من أنّ قوائم الفيل الحسّاسة تحترق، لكنّ المروّض لم يفكّر في هذا الأمر إلّا لاحقًا.

لم يستطع جَهان فتح فمه خشية أن يبتلع كمّيّة أكبر من الدّخان. كان منقبض الصّدر، متضايقًا في تنفّسه، فخلع سترته ولفّها حول فمه وأنفه وراح شوتا يدفعه من الخلف دفعًا هادئًا، لكنّه متّصل. كانت النّيران تحيط به وهو يشقّ طريقه إلى الحجرة الثّانية، حيث عدّل من هيئته والفيل ينتظر وراءه.

ها هو المهد. لا بدّ من أنّ التول الشّفّاف الّذي كان يغطيه قد ساعد الرّضيع على التّنفّس. أمسك جَهان بالرّبطة من دون أن يتأكّد إن كان الطّفل لا يزال على قيد الحياة. تشبّث الطّفل الرّضيع بيد واحدة بجَهان وهو يتشبّث بالحياة، بعد أن كان قد بكى بكاءً مرًّا فقد فيه صوته. كان فمه الشّبيه ببرعم وردة مطبقًا، لكنّ قوّته كانت مثيرة للدّهشة، ولا بدّ من أنّها كانت معدية، إذْ سرعان ما ركن جَهان وشوتا إلى الهدوء الآن.

عندما ظهر جَهان وشوتا للعيان، كان عدد الأهالي المتجمهرين الّذين يراقبون وينتظرون على قارعة الطّريق، قد ازداد ثلاثة أضعاف. وكان سنان والتّلاميذ حاضرين أيضًا بعد أن كانوا قد سمعوا بقصّة

Twitter: @ketab_n

الحيوان الّذي شقّ طريقه وسط المنزل المحترق. اندفعت أمّ الطّفل نحو جَهان وخطفته منه، وراحت تدعو لجَهان وتضحك معه، وتعبِّر له عن شكرها وتحاول أن تقبّل يده باكية وتقبّل الفيل في آن واحد، من دون أن تخشى أن يدهسها.

سار جَهان متثاقلًا ناحية سنان الّذي رحّب به وتلقّاه بذراعين مفتوحتين قائلًا: كنت غاضبًا منك، لكنّني الآن فخور بك يا بنيّ، فخور جدًّا.

عانقه التّلاميذ، ولكن على الرّغم من ذلك، استطاع جَهان أن يشعر بالبرودة تسري منهم، فقد بزّهم، وهو ما لم يرقهم.

تبيّن أنّ رئيس الانكشاريّة قد داهمه المرض، غير أنّ ذلك لم يكن سببًا في تأخير إرسال التّعليمات إلى الجنود. كان الجيش الّذي طلب زيادة مرتّباته قد شاهد الحريق، ورأى فيه فرصة ليثبت مدى أهمّيّته. ولمّا كان الصّدر الأعظم متردّدًا في الموافقة على الزّيادة، كان آغا الانكشاريّة بطيئًا أيضًا في إصدار الأمر بإخماد النّيران.

توجّه المروّض وفيله إلى بيت المعلّم، ملطَّخَين بالسّخام. وغطّى جَهان قوائم شوتا، ولاحظ أنّ اثنين من أظافره مكسورتان، تنزفان دمًا، وكان جلده قد أصيب بحروق متعدّدة، وستظلّ ندوب تلك اللّيلة باقية لن تُشفى.

❁ ❁

في وقت لاحق، وقف جَهان في حديقة سنان يحدِّق إلى المدينة المترامية الأطراف تحته وأعمدة الدّخان تتصاعد هنا وهناك. في الفجر لم تكن ثمّة طيور تغرِّد، ولا مدفأة تطقطق، ولا نوارس تنقضّ، فكلّ شيء غارق في الصّمت، أضحى الطّقس قارسًا، برودته تبدو غريبة بعد حرارة اللّيل.

Twitter: @ketab_n

بعد أن خمدت النّيران، كان حجم الدّمار واضحًا، فباستثناء الحيّ اليهوديّ المشيَّد بالحجارة، دُكَّت الشّوارع واحدًا تلو الآخر، وقُوِّضَت أسُسها.

قال سنان عندما اجتمعوا كلّهم من جديد: كان الحريق معلِّمنا، وقد لقّننا درسًا.

في ذلك الأسبوع، ذهب سنان إلى القصر وحصل على التّراخيص الّتي كان في حاجة إليها، وراح يصمِّم الخرائط ولا ينام إلّا قليلًا. وقرّر توسيع الشّوارع مسافة نصف ذراع من كلّ جانب، وألّا يزيد ارتفاع أيّ مبنًى عن دورين، واستخدام الآجر والحجارة بدلًا من الخشب.

لكن، ما إن وُضِعَتِ القوانينُ الجديدة حتّى راح النّاس يتحدّونها. صحيح أنّ الحريق كان معلِّمًا، إلّا أنّ إسطنبول لم تتعلّم درسها لأنّ النّسيان فيها أسهل من التّذكّر.

Twitter: @ketab_n

جاء سانغرام في مساء يوم لزيارة جَهان حاملًا معه طاس طعام كسابق عهده منذ سنوات. كان قد بلغ من العمر عتيًّا، هزيلًا، يهزّ رأسه بين الفينة والفينة على نحو لا يستطيع السّيطرة عليه كأنّه يجادل رفيقًا غير مرئيّ. أخذ جَهان الطّعام وشكره، وبينما هو يأكل، سأله سانغرام: هل سمعت بما فعل القبطان الأحمق هذه المرّة.

كاد جَهان يُسقط ملعقته من يده، وقال: ماذا؟

ـ اصطدم أسطول القبطان غاريث بأسطول بحريّ، وخلال المعركة الّتي نشبت، عضّ البحّار اليد الّتي أطعمته طوال تلك السّنوات وتحوّل إلى خائن. وبعد أن وقف بجانب العثمانيّين، انتهى به الأمر إلى شرب نخب البابا. ولمّا كان يعرف أنّه لا يستطيع العودة إلى إسطنبول لأنّهم سوف يخرجون أحشاءه وهو حيّ إذا ما قبضوا عليه، فقد هرب من الأراضي العثمانيّة، وإن لم يكن يمانع في ذلك، لأنّه حصل على حماية البابا وكان راضيًا الرّضى كلّه برايته الجديدة وهو ينشد البحّارة العثمانيّين.

عندما سمع جَهان هذا الخبر صُعق، وطافت في ذهنه ذكريات أربكته، لأنّ القبطان غاريث كان السّبب الأوحد الّذي أدى به إلى اللّجوء إلى مأوى الحيوانات الملكيّ، وكانت خطّة الرّجل تقضي بالتّستّر عليه بصفته مروّض حيوانات، ووضعه على بعد مرمى حجر من الثّروات الّتي تزخر بها السّراي، وكانت خطّة ناجحة من دون تلفيق عندما تخلّص البحّارة الّذين كانوا بإمرته من المروّض الحقيقيّ بعد أن قذفوا به في المياه الباردة بكلّ بساطة. وكان القبطان قد قال على سبيل الإيضاح:

Twitter: @ketab_n

«لم تعجبني خفّة دم الرّجل»، وإنْ لم يفهم جَهان قطّ كيف أمكنه أن يكره ذلك الرّجل الّذي لم يكن يتكلّم كلمة واحدة تركيّة، أو إنكليزيّة وحدّق إلى أمواج البحر طوال اليوم. كانوا ينقلون في العنبر بضاعة من هندستان وفيلًا أبيض على شفير الموت. ولم يكن جَهان إلّا خادم ركّاب السّفينة هاربًا من زوج أمّه. لم يكن سوى صبيّ صغير من بلدة في الأناضول. فماذا يعرف عن الفيلة؟ وبينما هو واقف في مكانه، متذكّرًا كلّ تلك الوقائع، فطن إلى فكرة أخرى: ما السّبب الّذي أدى بسانغرام إلى أن يخبره عن القبطان غاريث؟ سأله جَهان: إذًا أنت تعرف...

قال سانغرام: وكيف لا أعرف؟ لقد أخبرتني بأنّك من هندستان، ولم تتكلّم كلمة واحدة بلغتنا، والحكايات الّتي رويتَها لي كانت بلا معنًى.

ـ لماذا لم تبلّغ عنّي؟ كان في وسعك أن تخبر أيّ شخص بأنّ هذا الفتى دجّال، وأنّه يكذب.

ابتسم سانغرام، وقال: كنت على وشك أن أفعل، لكنّني غيّرت رأيي، لأنّني لم أحبّ أن أراك تتعذّب، وبدا لي أنّك نلت نصيبك من المشقّات ـ فهل من سبب لزيادتها؟

استقام جَهان واقفًا على قدميه وقبّل يد الرّجل النّحيلة، فقال سانغرام وقد غمرته رقّة القلب: لم تكن سوى غلام صغير. والآن، انظر إلى نفسك.

عضّ جَهان على ناجذيه. يا للغرابة! ففي حين كان يركض وراء أشياء ليس مقدَّرًا لها أن تحدث أبدًا، ويستاء من الحياة بسبب حرمانه من نعمها، كان ثمّة أشخاص يساندونه من دون أن يثيروا الانتباه لأنفسهم. كانوا يجزلون العطاء ولا يتوقّعون شيئًا لقاء ذلك.

Twitter: @ketab_n

عقد السّلطان سليم عزمه على الاستمتاع بمأوى الحيوانات وتجديده وتوسيعه. وعلى العكس من أبيه الّذي نادرًا ما اعترف بوجود رعاياه من الحيوانات، فإنّ الحاكم الجديد أبدى اهتمامًا بحياتها، وعكف على زيارة الحيوانات الوحشيّة، بمفرده أحيانًا، وبرفقة حاشيته في معظم الأحيان. كان على وجه الخصوص مفتونًا بالقطط الكبيرة ـ النّمور والفهود والأسود ـ ولسبب مجهول لا يعرفه أحد، كان معجبًا بالنّعامة، في حين كانت القرود تثير فضوله بأصواتها وإيماءاتها المبهمة. غير أنّه أحبّ شوتا أكثر من أيّ شيء آخر، وكان مولعًا بامتطائه. لهذا السبب، طلب توفير هودج أكبر حجمًا من الهودج الحالي مزوّدٍ سلّمًا قابلًا للطّي. كما زوَّد الفيل غطاء رأس جديدًا ذا لون شذريّ برّاق تحفّ به حاشية ذهبيّة وريش طاووس. ولخيبة أمل جَهان، فقد تعيّن عليه أن يرتدي زيًّا مضحكًا ومبهرجًا يتألّف من صديريّة فضّيَّة برّاقة مزيّنة بورود الخزامى الزّرقاء اللّون، وعمامة بيضاء. وكان السّلطان يهوى الزّينة المفرطة، سواء له أو لأولئك المحيطين به. وكان يعشق قضاء الوقت برفقة الأقزام والبكم والمهرِّجين، مفضّلًا صحبتهم على صحبة وزرائه ومستشاريه وأحاديثهم المملّة.

كان سليم رجلًا حزينًا وقلقًا، وكيف لا يحزن ويقلق وهو شاعر ورام. كان قصير الرّقبة لا تكاد تكون موجودة، وسحنة متورِّدة ومنكبين مدوَّرين كأنّهما يرزحان تحت ثقل غير مرئيّ. وأصبح سلطانًا وهو في سنّ الثّانية والأربعين، متجاوزًا أوج شبابه. كان ينتظر طوال حياته العرش العثمانيّ، داعيًا ومخطّطًا من أجل الاستحواذ عليه. ولكن، عندما حانت اللّحظة، لم يكن مستعدًّا. فكّر جَهان فيه على أنّه مثل ضوء

Twitter: @ketab_n

شمعة متذبذبًا ـ متوتّرًا ونزقًا منتظرًا الرّيح الّتي سوف تطفئه يومًا ما.

وكان شقيقه بايزيد ـ أكبر خصومه ـ قد أُعدِمَ في إيران تاركًا بذلك سليم وريثًا وحيدًا للعرش. لا بدّ من أنّ ذلك قد سرّه وأرضاه، وهو ما يتوقّع كلّ امرئ، لكنّ ذلك تركه بكّاءً شكّاءً، لأنّه فكّر ما إذا كان قتل الأمراء يتمّ بمثل هذه السّهولة واليسر ومن دون إحساس بتبكيت الضّمير أو التّهاتر، فمن يستحقّ أن يوليه ثقته؟ كان يسرف في الشّراب، ويأكل بشراهة، ويضاجع أجمل النّساء. وكان يخرج للصّيد ـ الغزلان والبطّ والتّدرّج والخنازير البرّيّة. ما من شيء يروي ظمأه. نظرة واحدة سريعة إلى ثيابه تكفي لملاحظة الفرق بينه وبين أبيه. ونظرًا إلى شغفه بالرّفاهية، فقد راح يقلّد نفسه بالمجوهرات النّادرة ويرتدي الأقمشة المطرّزة ويتضمّخ العطور الزّكيّة. وكان يستخدم الكحل في تحديد عينيه ما يضفي قوّة وصرامة على نظراته الّتي لا تناسب شخصيّته. كما لم يغب عن عيني أحد أنّ عماماته المزيّنة بالرّيش الصّارخة الألوان، كانت أطول من عمامات السّلطان سليمان.

رُزِقَتْ نساؤه الكثيرات عددًا كبيرًا من الأطفال، لكنّ خليلة واحدة بزّت بقيّة الخليلات والمحظيّات وأصبحت زوجته وهي نوربانو البندقيّة والسّاحرة. وكان الاسم الّذي منحتها إيّاه والدتها هو سيسيليا، وقالت إنّها من أسرة ذات مكانة مرموقة وكان في وسعها أن تحيا حياة النّساء النّبيلات لو لم يأخذها القراصنة لتصبح جارية ولها من العمر اثنتا عشرة سنة. وأكملت الأفواه المعادية أجزاء الحكاية الّتي تركتها ناقصة ومفادها أنّها ولدت خارج نطاق الزّوجيّة، وإن كان أحد النّبلاء قد اتّخذها ابنة له. ولم تتوقّف نوربانو عن إرسال الرّسائل إلى أقربائها في كورفو والبندقيّة، كما أنّها كتبت الرّسائل إلى القاضي الأوّل في البندقيّة وجنوى ومجلس الشّيوخ.

لم تتلقَّ ردًّا على رسائلها، مجموعةً من الرّسائل فحسب، بل تلقّت

Twitter: @ketab_n

أيضًا الهدايا. وكانت نوربانو تشبه سليمًا نفسه من حيث شغفها بالأبّهة. فقد أرسل إليها مؤخّرًا، وبناء على طلبها، زوجًا من الكلاب الّتي توضع في الحضن من مدينة البندقيّة، ومعاطف بلون الحليب ذات مشابك ودبابيس مخصّصة لها، وكانت تحرص على بقائهما بجانبها طوال الوقت. كان الكلبان مضحكين، إذْ ينبحان على أيّ حركة، لا يهمّهما في ذلك حجمهما. وكان ثمّة من يتذوّق طعامهما قبل تقديمه إليهما خشية أن يحاول أحد الأشرار دسّ السّمّ لهما، لأنّ ثمّة عددًا غير قليل ممّن كان يروقهم دسّ السّمّ لهما.

في أوقات اللّيل، كان المروّضون يجلسون حول المدفأة ويتحدّثون عنها متبادلين الشائعات والحكايات الّتي لا تُصدَّق. وكان القانون الّذي يفرضُ على الكلّ التزام الصّمت لا يزال ساريًا، وإن لم يكن بتلك الصّرامة الّتي كان يُنفّذ بها سابقًا. وعلى الرّغم من أنّهم كانوا حذرين في اختيار الكلمات ويستخدمون لغة سرّيّة، إلّا أنّهم كانوا يحبّون القيل والقال كما تشاء قلوبهم. تغيّرت أشياء أخرى أيضًا، فمن فناء الخصيان إلى برج رئيس الأطبّاء، ومن حجرات الأمراء إلى أماكن نوم زولوفو بالتاجيلار والمقاتلين من ذوي الضّفائر، كانت الأصوات تتردّد في جنبات السّراي ـ وكلّ صوت كان قد قُمع وكُتم أثناء حكم سليمان، بات الآن حرًّا، يدور مثل الدّوّامة في الأروقة.

في الأيّام الّتي يكون فيها الطّقس معتدلًا ومنعشًا، كان السّلطان يبتهج بركوب الزّوارق برفقة أصحابه، فيأكلون ويشربون وهم يمخرون عباب المياه حول القرن الذّهبيّ، ويمتصّون قطع حلوى اللّوزيَّة لتحلية أفواههم. كان سليم يؤمن بأنّ الإمبراطوريّة على ما يرام ما دام الصّدر الأعظم سوكولو يمسك بزمامها. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن قادرًا على استيعاب تعقيدات الدّولة، فإنّ جزءًا منه، كان يفضّل أن يبقى شاعرًا لو لم يكن مقيّدًا بالعرش.

Twitter: @ketab_n

كره العلماء أساليبه واتّهموه بالإثم، وقلّل الانكشاريّون من شأنه لعدم تولّيه قيادة الجيش من معركة إلى أخرى. عقد السكّان مقارنة بينه وبين أبيه، فوجدوه ضعيفًا فاستنزلوا اللّعنات على شبح خرّم ـ الّذي كان لا يزال يطوف في الرّدهات المرمريّة ـ لأنّها ولدت من لا يُرجى منه أيّ خير. لكنّ سليمًا عمد إلى استرضائهم وأجزل لهم العطايا ووزّع عليهم الثّروات، كلّ ذلك حتّى يتركوه وشأنه. وبفضل كرمه، فإنّ الأقاويل البذيئة الّتي كانت تُروِّجُ حوله، سرعان ما كانت تتلاشى مثل كتابة على رمل مبلَّل ـ لتُعاد كتابتها مرّات ومرّات بعد وقت قصير.

كان من بين بطانة سليم المقرّبة إليه عددٌ من الشّعراء، بخاصّة شعراء المراثي، والموسيقيّين. ثمّة شاعرة تُدعى حبّي خاتون كان في وسعها أن ترتجل الشّعر ساعات طويلة وهي مغمضة العينين، يعلو صوتها وينخفض كأنّه نورس في مهبّ الرّيح، وكذلك منشدو القصائد الغنائيّة الّذين يحفظون القصائد من كلّ أنحاء الإمبراطوريّة، وفي وسعهم الغناء بلغات كثيرة، ناقلين بذلك جمهورهم من الفرح إلى اليأس، ومن اليأس إلى الفرح. وثمّة رسّام كان قد قال وهو ثمل إنّه سوف يستخدم دمه بدلًا من اللّون الأحمر.

كان جَهان يعرفهم كلّهم، كانوا يتنزّهون وسط حدائق الورود مرتدين ثيابهم البسيطة، ليتوقّفوا بعد ذلك عند مأوى الحيوانات يشاهدون الحيوانات ويطعمونها. كانوا مجموعة الرّجال الخشنين، يعشقون طيّب الطّعام والعربدة قدر ما يعشقهما وليّ نعمتهم. كانت زياراتهم مفاجئة واعتباطيّة، يمكن أن تحدث في أيّ ساعة من ساعات العصر أو المساء.

❀ ❀

في جوف اللّيل البهيم من أحد أيّام الخميس، استيقظ المروِّضون عندما طرق سمعهم صوت الموسيقى والضّحك. رمش أحدهم للآخر

Twitter: @ketab_n

بعين ناعسة جاهدًا لمعرفة ما يحدث.

هدر صوت من وسط الظّلمة: أين الخدم الملاعين؟

ارتدوا ملابسهم وهرعوا إلى الخارج ووقفوا في صفّ واحد. كان السّلطان واقفًا برفقة ثلاثة من ضيوفه، مفعمًا بالحيويّة والنّشاط وإن كان يبدو من مظهره أنّه ثمل.

قال سليم بصوت عالٍ: أين المروِّض؟

تقدّم جَهان خطوة واحدة إلى أمام وانحنى انحناءة شديدة.

ـ كنّا نبحث عنك، فنحن نرغب في ركوب الفيل.

ـ الآن أيّها السّلطان؟

جاء الرّدّ على سؤال جَهان ضحكة خافتة في حين راح السّلطان يحدّق به باندهاش، فتلعثم جَهان وراح يعتذر، وانطلق إلى الزّريبة. تذمّر شوتا لعدم رغبته في مغادرة أرض أحلامه، حيث كان يجول مرحًا. تمكّن جَهان من إخراج الفيل ووضع الهودج على ظهره بعد توسّل تارة ووعيد تارة أخرى.

امتطى السّلطان والموسيقيّ والشّاعر والمغنّي الفيل. وتنبّه جَهان إلى أن السّلطان ازداد وزنه وأنّه كان يلهث عندما امتطى الفيل. كان الخدم المرافقون لهم يحملون سلالًا مملوءة بالطّعام والشّراب، كلّ سلّة مربوطة إلى الهودج بحبل. ورفع شوتا جَهان مستخدمًا خرطومه ووضعه على رقبته، وبهذه الصّورة، بدأت نزهتهم اللّيليّة.

ظنّ جَهان أنّهم سيظلّون في حدود الحدائق الإمبراطوريّة، لكنّه سمع سليمًا يقول لدى وصولهم إلى البوّابة الخارجيّة: استمرّ في تقدُّمك أيّها السّائس.

ـ إلى أين يا مولاي؟

ـ انطلق ولا تتوقّف إلى أن أخبرك.

Twitter: @ketab_n

تنحّى الحرّاس جانبًا للسّماح لهم بالمرور واتّسعت عيونهم باندهاش. كان شوتا لا يزال ناعسًا، سيّئ المزاج، نكد الطّبع، يسير متثاقلًا، بطيء الخطوات، رافضًا الإسراع بالرّغم من حثّ جَهان إيّاه. أمّا داخل الهودج، فيبدو أنّهم لم يمانعوا، إذْ كانوا قد أطلقوا عقيرتهم بالغناء، وملأ صوت العود الأجواء، وهم يجتازون شوارع متعرِّجة، غابت عنها أدنى حركة، حتّى وإن كانت لورقة أو لظلّ.

أمر السّلطان: قف أيّها السّائس!

امتثل جَهان للأمر.

ـ اقفز!

امتثل جَهان للأمر من جديد.

ـ خذِ الآن!

أنزلوا سلّة وهم يضحكون ضحك الأطفال، وفيها زجاجة خمر وقدح.

قال السلطان: اشرب!

ـ يا مولاي...

ـ هيّا. أتدري كم ينزعج المرحون من الصّاحين؟

ملأ جَهان القدح وكرعه، فأعقب ذلك نوبة من الضّحك تشير إلى أنّ السّلطان اغتبط له، وقال: اشرب كأسًا أخرى.

هكذا سارت الأمور، ولكن قبل أن يدرك جَهان ما حدث، كان قد شرب الزّجاجة كلّها، وطلب من شوتا أن يرفعه إلى أعلى، ولكن بينما كان الحيوان يرفعه راح رأسه يدور ويدور مثل عجلة عربة. جلس في مكانه، وجهه مكسوٌّ بالبقع، عذابه لا يدري به أحد إلى أن سمع السّلطان يقول: قل لي أيّها السّائس، هل أُغرمت يومًا؟

قال جَهان قولًا غير متأكّد منه إلى حدٍّ ما: كلّ ما أعرفه عن الغرام أنّه يسبّب مرضًا في القلب يا صاحب السّموّ.

Twitter: @ketab_n

صدر عن الهودج أكثر الألحان إثارة للشّجن، متغلغلًا في النّسيم مثل ريشة طائر رحل منذ وقت طويل. وقرأ الشّاعر: «انظر إلى الجمال الّذي يوسع القلب في مرآة الوردة...».

في تلك اللّحظة، فكّر جَهان في أنّ الله الّذي يراقبهم بكلّ تأكيد، سيدرك الألم والخوف اللّذين استبدّا بهم لأنّهم ضئيلون وفانون. فصفّق من أعماق قلبه، فقد لاقت جرأته ضحكًا وبهجة بدلًا من المتاعب.

فجأة، هدر صوت شقّ عنان السّماء: ماذا يجري بحقّ الجحيم؟

ثمّة رجل يترنّح أمامهم، يبدو من مظهره أنّه استيقظ قبل قليل. وكانت العتبة الّتي توقّفوا أمامها هي سريره على ما يظهر. الواضح أنّه غفا في هذا المكان بعد أن ثمل، وشقّ عليه طريقه إلى البيت.

حاول جَهان أن يحذِّر الرّجل البائس، فانحنى فوقه، وهمس: إنّ السّلطان جالس هنا!

همهم الرّجل: صحيح؟

ثم أشار إلى السّلطان، وأضاف: هذا هو السّلطان!

وأشار إلى بطانته، وأردف: وهؤلاء رؤساء الملائكة.

وأشار إلى شوتا: وهذا هو وحش الجحيم. لقد متّ.

قاطعه السّلطان: ماذا تفعل في الشّوارع في هذه السّاعة؟

مال الرّجل إلى أمام تائهًا وناعسًا كأنّه يريد أن يقبِّل خرطوم شوتا، وقال: أبحث. نعم، لكنّني لا أبحث عن الخمرة.

ثمّ ضرب على صدره، وأضاف: أبحث عن الحبّ!

هلّل أصحاب السّلطان وجذلوا، وشاركهم السّلطان في ضحكهم ومرحهم على الرّغم من الانزعاج، وقال: أفي هذه السّاعة، وفي الشّوارع الخالية؟ أنت يائس.

رفع المخمور رأسه وشبك ذراعيه على صدره، وقال: ربّما. لكن، ماذا عنك أنت؟

Twitter: @ketab_n

ساور جَهان قلق عظيم، ولم يتجرّأ على النّظر إلى السّلطان، خشية العقاب الّذي سيوقعه على هذا المواطن الصّفيق. لكنّ سليمًا كان هادئًا، بل تشوبه مسحة من العاطفة عندما قال له: خذ!

ثمّ سقط شيء ما على الأرض المرصوفة بالحجارة، فالتقطه الرّجل وحدّق إلى الخاتم في يده.

قال السّلطان: إذا عثرت على الشّيء الّذي تبحث عنه، فتعالَ إلى السّراي وأظهر لهم خاتمي. قل لهم إنّ لديك رسالة لملك الإمبراطوريّة.

مشى السّكّير إلى أمام مترنّحًا بعد أن أدرك أنّ الرّجل هو حقًّا السّلطان، وأراد أن يقبّل يده أو حاشية ثيابه أو قدميه، لكنّه لم يستطع الوصول إلى أيّ منها، فحضن ساق شوتا بدلًا من ذلك.

قال جَهان: ابتعد، وإلّا سوف يسحقك!

تراجع الرّجل خطوة إلى الوراء، لا يعرف ما يقول، مرتعدًا، ويتصبّب عرقًا ويتلعثم بعبارات الشّكر، سعيدًا ومذهولًا لأنّه لا يزال على قيد الحياة.

صاح سليم آمرًا: لنذهب أيّها السّائس!

كانوا في طريق العودة صامتين، وقد بدوا صاحين.

Twitter: @ketab_n

منذ أن وصلا إلى القصر العثمانيّ، ثمّة أوقات أُهمل فيها شأن شوتا وعُومل معاملة سيّئة أحيانًا، لكنّه كان على الدّوام الفيل الأوحد، إذْ ما من فيل آخر غيره في المأوى، ولا أيّ فيل ملكيّ آخر في عموم الإمبراطوريّة. لكنّ كلّ شيء تغيّر في اليوم الّذي دخلت فيه سفينة ضخمة مرفأ غالاتا.

حدث ذلك في شهر نيسان، وكانت أشجار الأرجوان مزهرة، يانعة والمدينة معطّرة بأريج فوّاح عندما ألقت السّفينة مرساتها. وكان من بين حمولتها ثلاثة حيوانات هي حمار وحشيّ وزرافة وفيل أدغال أفريقيّ. وجيء بهذه الحيوانات محمولة على عربات إلى القصر وكانت في حالة بائسة، معتلّة الصّحّة بعد رحلة مرعبة. ممّا يبعث على الحزن أنّ الزّرافة ذات اللّسان الأسود والعينين الوديعتين لم تعش طويلًا. أمّا الحمار، فقد أُرسل إلى بيت الأسود في حين تماثل الفيل للشّفاء وبقي حيًّا وكان فيلًا ذكرًا في سن العشرين واسمه محمود. وجاء برفقة الفيل وجه يفتقر إلى الودّ ـ بوزيبا.

في هذه الأثناء، كان شوتا قد بلغ سنّ الثّلاثين. وعلى الرّغم من أنّه لم يضعف في حساب سنوات الفيلة، إلّا أنّه لم يعد يمتلك حيويّة أيّام شبابه. ومع هذا، فقد ازداد ذكاءً وفهمًا بمرور السّنين، وأدرك جَهان الآن السّبب الّذي جعل المحاربين الّذين يحملون أثار جروح المعارك المندملة يفضّلون الفيلة المعمّرة على الفيلة الصّغيرة السّنّ، لأن هذه الأخيرة الصّحيحة في أبدانها وأطرافها ميّالة إلى أن تكون متهوّرة وطائشة، شأنها شأن بني البشر.

Twitter: @ketab_n

وُضع محمود في زريبة شوتا نفسها، في حين انضمّ بوزيبا إلى بقيّة المروِّضين في السّقيفة. حاول جَهان في البداية أن يتحاشاه، فكان الأمر مستحيلًا. ففي مساء كلّ يوم، كانا يتناولان وجبة العشاء معًا، وفي عصر كلّ يوم، كانا يهتمّان بفيليهما جنبًا إلى جنب. وإذا كان بوزيبا قد سمع بشيء اسمه الحمّام، فإنّه لم يفصح يومًا عنه. نادرًا ما كان يستحمّ، إن كان يستحمّ أصلًا، ولم ينظّف المكان الّذي يقيم فيه. وعلى خلاف ما هو مألوف من عادات في السّراي، فإنّه كان يتناول طعامه بضجيج وجلبة. وكان جَهان يتفادى الجلوس بجانبه أثناء تناول وجبات الطّعام لكي يتجنّب فتات الطّعام الّذي كان يقذفه يمينًا وشمالًا.

لم يكن جَهان وحده المستاء من القادمين الجدد، فقد انزعج شوتا أيضًا. وثارت ثائرته. وامتعض من استيلاء محمود على طعامه وتناوله شرابه وحصوله على وجباته. وفي بعض الأحيان، يقلب دلو غيره أو يسرق طعامه. إن الفيل الغاضب منتقم أصيل.

❁ ❁

في صباح يوم، دخل جَهان الزّريبة ليجد شوتا يطأ بقوائمه الكسوة الّتي كان بوزيبا يريد أن يلقيها على محمود على مألوف عادته كلّما خرج معه للتّنزّه.

همس جَهان كي لا يسمعه الآخرون: عار عليك! توقّف، ودع هذا الشّيء عنك.

لكنّ الأوان كان قد فات، إذْ تلطّخت الكسوة بالأوساخ.

وجاء صوت بوزيبا من الخلف: ما الّذي يحدث؟

لم يكن ثمّة بدٌّ من سوء تصرُّف شوتا، ولم يحاول جَهان النّكران، فقال: أقسم لك أنّني سأنظّفها.

التقط بوزيبا قطعة القماش بعد أن تفوّه بكلمة أدرك جَهان أنّها

Twitter: @ketab_n

لعنة، وأضاف بصوت لا ينمّ عن الانزعاج قدر ما ينمّ عنِ الرّضى: هل تعتقد أنّني غبيّ؟ أنا أعرف ما يحدث، فأنت وحيوانك غيوران.

ـ هذا غير صحيح.

ـ بل صحيح، لسبب ما. فعمّا قريب ستُطردان من هنا، فالكلّ يعرف أيّ الفيلين أصلح.

فتح جَهان فاه وأطبقه عاجزًا عن الاعتراض. ثمّة من لاحظ خوفه العميق وصرّح به بصوت عالٍ فسمعه الكون كلّه.

في اليوم التّالي، جاء السّلطان برفقة حاشيته. في اللّحظة الّتي كان فيها جَهان يوشك أن يعدّ شوتا للرّكوب، قال سليم: لنجرّب الفيل الجديد.

رمى بوزيبا نفسه على الأرض، معلنًا أنّه، هو والحيوان، سيكونان سعيدين لخدمة سيّد بيت آل عثمان وأمير المؤمنين وخليفة النّبي وظلّ الله على الأرض وأكرم الحكّام الّذين اعتلوا أو سيعتلون العرش وأكثرهم فضيلة واستقامة.

لم يسبق لجَهان أن سمع مثل هذا العدد الكبير من الكلمات المعسولة الّتي تنقّط دبسًا كثيفًا لزجًا، لكن على الرّغم من ذلك، بدا السّلطان مسرورًا. وبسرعة البرق، وُضع هودج شوتا على ظهر محمود وسُلّمت سترة جَهان إلى بوزيبا، تلك السّترة القبيحة الّتي لطالما كرهها جَهان من كلّ كيانه، لكنّه فكّر الآن أنّها عالم ذلك الكيان كلّه. وبينما كان جَهان يعضّ على ناجذيه، وشوتا يهزّ خرطومه إلى الأمام وإلى الخلف، حلّ محلّهما محمود وسائسه بكلّ بساطة.

وانطلقوا في سيرهم، ظلّتِ الرّيح تحمل أصواتهم حتّى بعد أن تواروا عن الأنظار، أو هذا ما خيّل لجَهان وهو في تعاسته. ربّت على شوتا الّذي لفّ خرطومه حول خصر جَهان وعانقه وظلّا على تلك الحال

Twitter: @ketab_n

مدّة لا بأس بها، يلوذ كلّ واحد منهما بالآخر.

في صباح اليوم التّالي، فكّ الجحيم إساره. فثمّة بركة ماء وراء الزّريبة تحيط بها الطّحالب كأنّها سجّادة فرو خضراء اللّون. كانت كمّيّة المياه فيها قليلة وتحتوي على بعض الأسماك، لكنّ شوتا أحبّ أن يقضي الوقت فيها. وكان جَهان قد حصل مسبقًا على إذن له بأن ينزل إلى الماء بين وقت وآخر، إذْ كان سليم يجد في رؤية الفيل وهو يرشّ الماء أمرًا جميلًا.

عندما وصل شوتا وجَهان إلى البركة، وجدا محمود وقد احتلّ موقع شوتا المعتاد، وإلى جانبه بوزيبا وقد أدلى برجليه في الماء، يستدفئ تحت أشعّة الشّمس مغمض العينين، وفمه نصف مفتوح.

فكّر جَهان في خياراته، فلم يجد فائدة من البدء في مشاجرة من شأنها أن تبلغ مسامع رئيس الخصيان البيض، فيوقع نفسه في ورطة، لكنّه من جهة أخرى عجز عن ترك الأمر يمضي بسهولة. كان شوتا يقف بجانبه، هادئًا هدوء فأر، إذ كان أيضًا يفكّر في خياراته.

سار جَهان بحيطة وحذر باتّجاه بوزيبا وربّت على كتفه، فجفل وهو يستيقظ من أحلام يقظته، وقال: ماذا تريد؟

ـ هذه البقعة ملكُ شوتا.

لكنّ بوزيبا لم تبدُ على ملامح وجهه الجامد أيّ علامة، بل أغمض عينيه مجدّدًا، وتثاءب وعاد يحرّك رجليه متكاسلًا كأنّ جَهان وشوتا ليسا واقفين بانتظار ردّه.

قال جَهان ناقمًا: لنذهب يا شوتا، وسوف نعود أدراجنا في وقت آخر.

لم يكد جَهان يخطو خطوة واحدة حتّى تناهى إلى سمعه صوت رشّة ماء. لقد فعل شوتا، ذلك المخلوق المبارك، ما لم يتجرّأ على فعله

Twitter: @ketab_n

قبل الآن. أطلق بوزيبا الّذي أصبح الآن في البركة، لعنة وراح يسعل ويلوح بيديه. الواضح أنّه لم يكن يعرف السّباحة، فما كان من جَهان إلّا أن هرع إليه.

ـ أمسكْ بيدي، وسوف أخرجك.

توقّف بوزيبا بعد أن أدرك مدى ضحالة ماء البركة، ووقف على قدميه يقطر منه الماء، وخرج بنفسه وسار أمامهما محتدم الغيظ، هائجًا.

هكذا بدأت الحرب بينهما، فكان جَهان يجد له في كلّ يوم عذرًا حتّى يكون قريبًا من بوزيبا، ونادرًا ما تمكّن من التّركيز في عمله برفقة سنان خشية أن يلحق بوزيبا الأذى بشوتا عندما يكون هو بعيدًا عنه. فطار النّوم من عينيه، ولم يعد يأكل إلّا قليلًا، وتذكّر ما كان قد ذكره له سنان ذات مرّة بنبرة فيها مسحة من العطف: «التّوازن هو الّذي يساعدنا على أن نقف معتدلين، هذا الأمر ينطبق على البناء، وعلى النّاس». لكنّ جَهان فقد توازنه. وفقده شوتا أيضًا، إذْ راح يقضي الأيّام محملقًا أمامه بعينين ثابتتين كأنّه يتمنّى من صميم فؤاده أن يكون خارج أسوار الزّريبة الّتي يشاركه إيّاها غريمُه. بعد مرور أسبوعين على هذا العذاب، توصّل جَهان إلى وضع خطّة. كان الطّقس قد ازداد برودة، وفصل الصّيف يجرّ أذياله ويرحل، كما أنّ رفاق بالابان من الغجر الّذين عادوا مؤخّرًا من ثريس سوف يسافرون عمّا قريب إلى الجنوب، فقرّر جَهان أن يزورهم قبل سفرهم.

رحّبوا به ترحيبًا حارًّا كأنّه أخ مفقود منذ زمن بعيد. وقدّموا له شراب تمر الهند، وكانت الرّوائح المنبعثة من حولهم تُسيل اللّعاب، دبس العنب الحامض وجبن الماعز وفطيرة السّبانخ واللّحم المشوي. وراح الأطفال يلعبون ويجرون هنا وهناك، والنّسوة يدخنّ والجدّات يضحكن ضحكات تكشف عن أفواههنّ الخالية من الأسنان. وبعد أنِ امتلأت بطونهم، استفسروا عن أحوال السّلطان لأنّهم كانوا متحمّسين

Twitter: @ketab_n

لمعرفة آخر ما استجدّ من أقاويل عن القصر. فأوضح لهم جَهان كيف أنّه اضطرّ لمجاملة الحرّاس حتّى ينسلّ خارجًا، وأنّه يتحتّم عليه الرّجوع قبل بدء الدّوريّة المسائيّة.

سأله بالابان وهو يريد أن يستشفّ منه الأمر: ما الّذي جاء بك إلى هنا إذًا؟

قال جَهان: إنّني بحاجة إلى مساعدة. هل يمكننا أن نتحدّث على انفراد؟

قال بالابان باسطًا ذراعيه: لا ضرورة لذلك، فكلّنا أسرة واحدة.

خفض جَهان صوته حتّى بات همسًا وهو يدنو من بالابان: هل ثمّة وسيلة تجعل الذّكر يتحرّق شوقًا للأنثى؟

ضحك بالابان، وقال: نعم، الحب.

ـ ليس هذا. أعني يتحرّق للتّزاوج. مسحوق، أو شراب يجعل الذّكر يرغب في الأنثى.

توقّف بالابان عن المضغ ورنا إلى جَهان، ثمّ قال: هل أنت مريض؟

ـ ليس لي، بل لفيل.

ـ ليس للحيوان حاجة إلى إثارة. ماذا تنوي ضدّ المسكينة كلبهار؟

ـ الأمر لا يخصّ شوتا!

أخبره جَهان بكلّ شيء، وكيف أنّه فقد هدوءه بسبب فيل آخر وسائس آخر، وتوقّع من بالابان أن يعطيه ملاحظات بارعة، لكنّ الغجري هزّ رأسه بهدوء، وقال: لا تحزن، فسوف نساعدك.

أخرج جَهان الكيس الّذي جاء به، ووضعه على الطّاولة، فسأله بالابان: هل هذا من السّلطان أم من عندك؟

ـ السّلطان لا يعرف شيئًا عن هذا الموضوع. ولا ينبغي له أن يعرف.

Twitter: @ketab_n

قال بالابان بصوت أجشّ يملأه المرح: إذًا احتفظ به، والآن اذهب، وسوف نأتي إليك.

عاد جَهان أدراجه إلى مأوى الحيوانات، وراحت خلطة سحريَّة تختمر في رأسه، عار وأمل وذنب. وبعد يومين اثنين، جاء غلام يبحث عنه حاملًا قارورة، وقال له: أحدهم أرسل إليك هذه!

أَمعن جَهان النّظر فيه، عينان سوداوان صافيتان وابتسامة تكشف عن غمّازتين وبشرة زيتونيّة. ممّا لا ريب فيه أنّه أحد أقرباء بالابان. ثمّة مسحوق داخل القارورة بلون الزّعفران الهنديّ، فوضع طرف إصبعه فيه وتذوَّقه. كانت نكهته معتدلة ميّالة إلى الملوحة قليلًا، ويمكن مزجه بأيّ شيء.

اختلس جَهان شراب الرّمان من المطبخ وخلط فيه ملعقة من المسحوق. وفي اللّحظة الّتي انصرف فيها بوزيبا، أعطى جَهان الفيل محمود الشّراب فكرعه بسرور. لكن لم يحدث شيء، فحاول أن يجرّب ثانية، مُزيدًا كمّيّة الجرعة. لكن، بلا طائل أيضًا. فما كان منه إلّا أن أفرغ المسحوق كلّه في عصيدة الرّز المخصّصة لمحمود، وراقبه وهو يلتهمها التهامًا.

شاء الحظّ أن يأتي السّلطان سليم وبطانته في تلك اللّيلة، إذْ كانوا متشوِّقين لجولة جديدة من المزاح والمرح.

قال السّلطان: أيّها السّائس!

انحنى جَهان، وقال: نعم أيّها السّلطان.

ـ أين السّائس الآخر؟

جاء بوزيبا مهرولًا، وجهه يتصبّب عرقًا.

ـ نعم يا صاحب الجلالة. الفيل ليس على ما يرام. أتوسّل إليك أن تغفر لنا هذه اللّيلة.

Twitter: @ketab_n

سأل السّلطان: ما خطب الحيوان؟

فجاءه الجواب صوتًا هادرًا مِنَ الزّريبة أعقبه سقوط شيء ما. فما كان من السّلطان إلّا أنِ اتّجه مسرعًا إلى مصدر الجلبة، وفي أعقابه بقيّة رفاقه.

كان المشهد هو الأكثر غرابة. ففي نوبة هيجان انتابت محمود، صدم الحيوان لوحًا خشبيًّا على جانب المنصّة، فانغرز أحد نابيه باللّوح، ولم يعد في وسعه السّير إلى أمام أو إلى خلف. كان عضو ذكورته متورّمًا، يخرج منه سائل، وراح يجأر هائجًا أكثر ممّا هو نافد الصّبر. ولم يستطع أحد الاقتراب منه، بمن في ذلك بوزيبا.

كانت تلك هي نهاية محمود. وعلى الرّغم من تحريره من اللّوح الخشبيّ، إلّا أنّ ثورته وإحباطه لم يهدءا. وكان لا بدّ من تقييده في نهاية المطاف، لكنّه حطّم أغلاله، وهدم الجدران وهجم على الأشجار.

وكان أسوأ شيء فيه هو تلك الأصوات الصّادرة عنه وكانت مزيجًا من العويل والنّخير والزّعيق. وقبل أن يمضي شهر واحد، أُرسل محمود وبوزيبا إلى الكنيسة القديمة بالقرب من آيا صوفيا.

لم يساور الشّكّ أحدًا، باستثناء أوليف الّذي سأل محرّكًا حاجبيه: أنت السّبب، صحيح؟

شعر جَهان بتبكيت الضّمير ولم يقل شيئًا، فاسترسل أوليف قائلًا: أتذكر يومَ مجيئك عندما كان فيلك صغير السّنّ، وكنت أيضًا كذلك. أتذكر أنّني كنت أراقبك؟ كنت أقول: كيف ستعيش في السّراي وأنت غلام طيّب القلب، سهل الخداع، تصدّق كلّ ما يُقال؟ أمّا الآن، فانظر إلى نفسك! لقد أصبحت واحدًا منّا، ما يدعو إلى الشّفقة.

رمقه جَهان بنظرة خاطفة، وقال: ما معنى هذا الكلام؟

Twitter: @ketab_n

قال أوليف: معناه أنّك تخوض المعارك غير الضّروريّة. أنت أقوى، ولكن حذارِ، فإذا حملت سيفًا، فينبغي لك أن تطيعه وليس العكس. ما من شخص يمكنه أن يحمل سلاحًا من دون أن يغمس يديه بالدّماء في الوقت نفسه.

قال جَهان: بل يمكنني. لا تقلق بشأني.

لكن، ما إن تفوّه جَهان بهذه الكلمات حتّى شعر بتأنيب ضمير حادّ، وخشي أن يكون قد خاطر بمصيره.

Twitter: @ketab_n

منذ اليوم الذي تبوّأ فيه سليمٌ العرشَ، وكلّما سحقت إسطنبول معنويّاته، وهو ما حدث مرارًا وتكرارًا، فإنّه كان يسافر إلى أدرنة ـ المدينة الّتي قضى فيها شطرًا من شبابه. ففي تلك المدينة، كان في وسعه أن يخرج للصّيد، وأن يتسكّع لإضاعة الوقت وأن يعاقر الشّراب كما يهوى قلبه، بعيدًا من أعين المنتقدين والألسن الّتي تلوك الفضائح وتتداولها. وكان شأنه شأن كلّ امرئ يعرف أنّه مكروه كراهية واسعة النّطاق، فإنّ السّلطان راوده الإحساس بأنّه أسير نعمة أولئك الّذين ساندوه ـ وهو شأن سكان مدينة أدرنة على الدّوام. لهذا السّبب، قرّر سليم بعد مرور بضع سنوات على حكمه أن يكافئ هذا الوفاء بإصدار أمر ببناء مسجد، ليس في العاصمة كما هو متوقّع، بل في البلدة الّتي يلوذ بها.

في اللّحظة الّتي أُعلن فيها عزم الحاكم أن يدفع المال لتشييد مسجد فخم، بدأ الهمز واللّمز. وردّد الأهالي أنّ ثمّة سببًا أدّى إلى عدم اختيار إسطنبول لهذا الغرض. ولمّا لم يعمد السّلطان قطّ إلى قيادة الجيش في ميدان القتال، كان يفتقر إلى الجرأة لإصدار أوامره بإنشاء مثل هذا الصّرح العظيم في مقرّ العرش. كيف يمكن مسجدَ سليم أن يكون على مقربة من مسجد سليمانَ بينما لا يستحقّ الابن أيّ مقارنة بأبيه؟ هذا هو السّبب، كما قالوا، في أنّ المبنى الجديد لا يمكن أن يشيّد إلّا في أدرنة.

الكلمات. مثل مرارة خلط المعدة الأسود، لكن بغض النّظر عن هذا، فإنّ سنانًا وتلاميذه الأربعة وضعوا حجر الأساس لمسجد

Twitter: @ketab_n

سليميّة[1] في شهر نيسان، وكافأ السّلطان معماره برداء من ذهب وفضّة مبيّنًا كم كان يثق به. وراقب كلّ من كان في موقع البناء، بدءًا بعمّال الخشب وانتهاء بالعبيد، بحذر، من دون تفاؤل ولا اكتئاب. وبدوا إلى حدٍّ ما كأنّهم يشعرون بأنّهم حقّقوا شيئًا فريدًا. واشتغلوا على هذا الأساس ـ وعلى هذا الخوف لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ تشييد أيّ صرح بمثل هذا الشّموخ إثم عظيم لأنّه يمثل منافسة للخالق. وكان الأئمّة والكهنة والحاخامات تساورهم الشّكوك في أعماقهم بأنّ الله نفسه يشعر بالغيرة، وإن كانوا لا يطيقون سماع مثل هذا الكلام.

خطرت فكرة المسجد ببال السّلطان في حلم راوده، حيثُ رأى النّبيّ محمّد ﷺ واستدلّ عليه من هالته وليس من وجهه لأنّ ما من إنسان على وجه الأرض يستطيع ذلك. ووعده سليم بأنّه سيشيّد مسجدًا فخمًا تُقام فيه صلاة الجمعة بأموال الغنائم إذا ما فتح جزيرة قبرص. فأشار النّبيّ إلى الملائكة المنتظرين إلى جانبه، فما كان منهم إلّا أن حلّقوا في الهواء، متألّقين مثل فراشات وتواروا عن الأنظار ليعودوا حاملين رقًّا، وعليه خريطة مسجد سليميّة.

في صباح اليوم التّالي، لم يرغب السّلطان في الاستيقاظ من نومه بعد أن غمره الفرح والحماسة. ولكن، عندما استيقظ في نهاية الأمر، أخبر صدره الأعظم بما رآه. كان سوكولو، الشّرس الطّباع والحادّ

(١) مسجد سليميّة Selimiye Mosque: يعدّ هذا المسجد من أفخم فنّ العمارة العثمانيّة في أدرنة ومن أثر عهد المهارة والإبداع للمعمار سنان الّذي شيّده باسم السّلطان سليم الثّاني بين عامي ١٥٦٨ - ١٥٧٥. فيه أربع مآذن بارتفاع ٧١ مترًا، ولكلّ مئذنة ثلاث شرفات ولكلّ شرفة درج خاصّ، الحديقة الأماميّة الّتي يدخل إليها من الباب المزخرف محاطة بالعواميد و٨١ قبّة والأروقة. قسم من الفسيفساء والمنبر المرمريّ تمّ تفكيكه ونقله إلى روسيا أثناء الاحتلال الرّوسيّ أدرنة، وله شأن عظيم في مجال التّخطيط والفسيفساء وأعمال الحجر (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الذّهن يؤمن بأنّ أحلام أيّ حاكم من الحكّام يمكن أن تكون من أحد نوعين: الأحلام الّتي لا ينبغي له أن يطّلع عليها أيّ شخص، بمن في ذلك صدره الأعظم، والأحلام الّتي يتعيّن عليه أن يتأكّد من معرفة النّاس كلّهم بها. أمّا هذا الحلم، فقد استنتج أنّه من النّوع الثّاني.

بحلول الظّهيرة، طرح سوكولو الموضوع أمام رئيس المجلس القضائيّ الملكيّ، وهو رجل مغرم بالحلوى، فأفصح عنه لكبير صانعي الحلاوة الّذي قام بدوره بإفشائه للتّاجر المسؤول عن المكسّرات المستخدمة في المطابخ الملكيّة. وعند العصر، انتقلت الحكاية من القصر بعربة فستق ووصلت إلى ضواحي إسطنبول لتصل بعد ذلك إلى شوارع الدّبّاغين وصبّاغي الأصواف. وبحلول المساء ورفع أذان المغرب، كان المئات من الأهالي قد طرقت سمعهم الحكاية. وقبل أن يشارف الأسبوع على نهايته، كان سكّان المدينة قاطبة، بمن فيهم قنصل البندقيّة، قد عرفوا أنّ النّبيّ قد طلب من السّلطان أن ينقذ قبرص من الكفّار النّصارى.

زار سليم قبور أجداده، وقبر أيوب الشّهيد. فباركته الأرواح ووافقته على شنّه الحرب، ولكن عندما حان وقت الجدّ، لم يذهب برفقة البحريّة، لأنّ الفتح سيتمّ في أحلام السّلطان وليس بسيفه. وستكون المكافأة ضخمة جدًّا. فقد غُلبت نيقوسيا على أمرها ونُهبت ولم يبق إلّا شيء قليل ممّا كان اسمه مدينة قبل الآن، وجرى بعد ذلك الاستيلاء على مرفإ فاما غوستا بعد أن تعرّض لقصف شديد على مدى أشهر، وأُلقي القبض على مئات الأسرى.

في هذه الأثناء، كان رئيس المعماريين الملكيّ وتلاميذه يعملون بجدّ، وكان سنان ينظر إلى كلّ مهمّة بصفتها شرنقة لا بدّ له من أن يلوذ بها من مختلف العواصف. وعندما يبدأ العمل، فإنّه ينأى بنفسه عن العالم الخارجيّ. فهو رجل لا يبالي بالحروب، بل لا يهتمّ بالانتصارات

Twitter: @ketab_n

أساسًا. ولكن، على الرّغم من ذلك، فإنّ الأعمال لم يشتدّ زخمها إلّا بعد أن جرى الاستيلاء على الجزيرة، وانهالت أموال الجزية، وجيء بعمّال آخرين وموادّ أخرى.

الغريب في الأمر أنّ السّلطان هوى إلى الحضيض أكثر فأكثر كلّما ارتفع بناء المسجد الّذي يحمل اسمه. وارتبط الاثنان، الرّجل والبنّاء، ارتباطًا متداخلًا وعميقًا، وإن كان معكوسًا، مثل ارتباط اللّيل بالنّهار، إذْ لا بدّ لأحدهما من أن يموت كي يعيش الآخر. ومع كلّ مسمار يُدقّ، ومع كلّ حجر يُضاف إلى الصّرح، ثمّة شيء ما يسلب من السّلطان، الصّحّة والسّعادة والسّلطة وأخيرًا القسمة.

Twitter: @ketab_n

في الوقت الّذي كان فيه التّلاميذ منهمكين في بناء أحد عواميد مسجد السّليميّة الثّمانية الرّئيسيّة، أرسل لهم المعلّم خبرًا في عصر يوم من أيّام فصل الخريف يبلغهم بأنّه يريد أن يلتقيهم. وعند بلوغهم خيمته، شاهد جَهان الآخرين يتسكّعون قرب المدخل، فما كان منه إلّا أن تربّع على مصطبة بجانبهم، منتظرًا سنانًا أن ينهي اجتماعه مع بعض الزّجّاجين.

ساورت الظّنون داؤود، ولاح عليه العبوس، كدأبه. وهمس: لن ينتزعنا المعلّم نحن الأربعة من العمل أبدًا. لا بدّ من أنّ ثمّة غلطة شنيعة.

لحسن الحظّ، سرعان ما انصرف الزّجّاجون منقذين التّلاميذ من تكهّنات سخيفة. وجدوا المعلّم جالسًا على سجّادة مزركشة برسوم أشجار يانعة تتوسّطها مجموعة من الغزلان والنّمور والأسود على امتداد حواشيها، من منسوجات مدينة هراة في مقاطعة خراسان منحه إيّاها أحد البكوات الأكراد هديّة بعد أن شيّد له ملجأ للفقراء. كان سنان متكّئًا على وسائد، وفي يده اليمنى سبّحة راح يسبّح فيها ببطء. كان جَهان يعلم أنّ للمعلّم سبّحة مختلفة حسب مزاجه. فالسّبّحة اللّازورديّة مثل عيني الهرّ إذا كان مستغرقًا في التّفكير، والكهرمانيّة الصّفراء إذا كان سعيدًا مبتهجًا، والسّوداء من العقيق اليمانيّ إذا كان توّاقًا للبدء في مشروع جديد. أمّا اليوم، فكانت سبّحته من حجر ثمين شاحب الاخضرار مثل الزّمرّد، يسبّح فيها عندما يكون منشغل البال. على الطّاولة الواطئة أمامه فنجان قهوة وكأس من ماء، وبجانبهما مخطّط عرفه

Twitter: @ketab_n

جَهان من فوره: آيا صوفيا.

جلسوا واحدًا إثر الآخر على السّجّادة قبالة المعلّم. كان ملتزمًا الصّمت إلى أنِ اتّخذ كلّ واحد منهم مكانه. وراحت الآن أصوات خرز السّبّحة تملأ الأجواء بعد أن تسارعت في حركتها، ثمّ بدأ يخبرهم بما يجول في عقله.

كانت البقعة المحيطة بآيا صوفيا مزدحمة بالأكواخ الحقيرة، كلّ واحد منها بُني بناءً يفتقر إلى الأصول القانونيّة. وعلى الرّغم من تقديم شكاوى كثيرة إلى قاضي القضاة في إسطنبول، إلّا أنّها لم تسفر عن نتيجة. وفي نهاية المطاف، أرسل سنان التماسًا إلى السّلطان بعد أن بلغ السّيل الزّبى، منتقدًا في رسالته الجهلة من الرّجال الّذين أخذوا على عاتقهم وحدة قياس بالذّراع ورفعوا المباني من دون معرفة بالحرفة أو اهتمام بالبيئة.

قال سنان: أنعم سلطاننا النّظر في مقترح عبده المتواضع.

هكذا شُكّلت لجنة وتقرّر أن يجتمع قاضي القضاة وإمام المسجد وعلماء الدّين وكبار المصمّمين والبنّائين للتّحقّق من الأضرار، وإعداد تقرير عن النّتائج الّتي توصّلوا إليها. وسوف يقوم سنان بعد موافقة السّلطان بترميم آيا صوفيا.

- لهذا السّبب، إنّني مضطرّ للعودة إلى إسطنبول وأريدكم أن ترافقوني.

أحنى جَهان رأسه وأشرق وجهه حماسة. يا للشّرف العظيم الّذي سيحصل عليه إذا ما ساهم في تجديد لؤلؤة العمارة الّتي كانت يومًا كنيسة، وأصبحت اليوم مسجدًا فخمًا! فهو المبنى الّذي أدّى بيوستينيانس إلى القول بكلّ فخر: «لقد تفوّقت عليك يا سليمان!» لكنّ جَهان شعر في الوقت نفسه بأنّ ثمة ما هو أكثر ممّا قاله سنان، فقال: إذا كان السّلطان

Twitter: @ketab_n

قد أصدر موافقته على استعادة المسجد، فما الّذي سيحدث للبيوت المحيطة به؟

ظلّلت وجهَ سنانٍ غمامةٌ وهو يقول: سوف تُهدم.

استردّ جَهان أنفاسه وفهم لغز سنان، إذْ لا بدّ لمعلّمه من أن يختار الأهالي أو البناء، والواضح أنّه اختار البناء.

❁ ❁

إثر رجوعهما إلى إسطنبول في يوم اللّقاء، تملّكتهما الدّهشة عندما انضمّ إليهما السّلطان وحاشيته، إذْ رغب السّلطان سليم في مشاهدة الوضع بأمّ عينه، فاتّخذ لذلك قرارًا بالمجيء بصحبة نبلائه ووزرائه، وطفقوا يسيرون حول آيا صوفيا، وكان ما رأوه محبطًا إلى حدٍّ يتعذّر وصفه. فالميازيب تمتدّ على طول أسوار المسجد الخارجيّة ويتسرّب منها ماء دامس يجعل من يلمسه أشدّ قذارة من ذي قبل. وكانت الضّفادع تنقّ على حافّاته والجرذان تعدو والغائط متراكمًا - غائط الحيوان وغائط البشر. وشاهدوا حول أحد المنعطفات جثّة كلب نافق، فقد فكّه الأسفل، جاحظ العينين كأنّه لا يزال في حالة ذعر.

كان الأهالي القاطنون حول المسجد قد انتقلوا مؤخّرًا للسّكن في إسطنبول، تاركين قراهم، وهاجروا إلى مقرّ العرش من دون ملجإ يأويهم أو قريب يثقون به أو أرض يزرعونها. ولمّا كان قد طرق سمعهم أنّ الأرض الممتدّة حول آيا صوفيا غير مسكونة، وأنّها في متناول أيديهم بكلّ يسر وسهولة، فقد راحوا يؤسّسون لهم موضع قدم فيها. ولم تكن السّقائف المختلفة الأحجام هي وحدها الّتي تجاوزت على المبنى العريق، بل رافقها تجاوز المراسم والإسطبلات وزرائب الخراف وحجرات الحلب وخمم الدّجاج والمراحيض، واستندت كلّ هذه التجاوزات إلى المسجد، مندفعة داخله من جهات أربع. واشتدّ الضّغط

Twitter: @ketab_n

اشتدادًا هائلًا جعل الأسوار القريبة من آيا صوفيا، وهي الأكثر كثافة وازدحامًا، تميل إلى الدّاخل.

دخلت الحاشية دكّان إسكاف، فسرت قشعريرة في بدنه وجحظت عيناه من هلع وخوف وتملّكه ذهول صاعق لمرأى السّلطان، وعجز عن الإجابة عن أيّ سؤال، لكنّه لم يُصب بإغماءة لحسن حظّه. وعلى امتداد الشّارع، شاهدوا في مبنًى ملحق قدورًا عظيمة تغلي داخلها أمعاء حيوانات لكي تُصنع منها الشّموع. كانت الرّائحة على درجة كبيرة من النّتانة ما دفع بالسّلطان إلى أن يضع منديلًا حريريًّا على أنفه ويندفع بعيدًا من المكان، فأسرع الآخرون يغذّون السّير في أعقابه.

كان أحد سكّان هذا الحيّ الّذي يقطنه مختلف صنوف النّاس قد شيّد زريبة حيوانات ومنزلًا مؤلّفًا من ثلاث طبقات، مؤجّرًا الطّلّاب والحجّاج الغرف الزّائدة. وثمّة رجل آخر حاول أن يحفر بئرًا في حديقته الخلفيّة، فعمد إلى الحفر في أعماق الأرض، ملحقًا أضرارًا بأسس آيا صوفيا. وثمّة رجل ثالث بنى بيتًا فهوى من دون أن يلحق الأذى بأحد لحسن الحظّ، لكنّه نجح بعد ذلك في تشييد بيت آخر وتمكّن من جعله شاخصًا. أمّا اليوم، فقد تراكمت الأنقاض في حديقته حيث يلعب الأطفال وتتجوّل الكلاب.

وعندما انتهت الجولة، هتف السّلطان من مكانه وهو على قمّة جواده: تقدّم يا رئيس المعماريّين الملكيّ.

تقدّم سنان منحنيًا انحناءة شديدة.

ـ لقد تجاوز الوضع كلّ الحدود. إنّ أمنيتي هي إعادة ترميم المسجد.

أحنى سنان رأسه مجدّدًا، وأغمض عينيه عرفانًا وامتنانًا.

ـ إنّني أدعوك بالبركة، فابدإِ العمل من دون إبطاء، وثبّت الدّعامات

Twitter: @ketab_n

حيث تجد ذلك ضروريًا. اهدم السقائف والعشوائيّات، فأنا لم أرخِّص لبناء أيّ منها.

لوّح السّلطان بيده المزوّقة بخاتم، فهرع ناحيته خادمان، أحدهما يسير في المقدِّمة والآخر يحمل قفطانًا من الحرير الخالص الموشّى بالفرو، فأمسك الصّدر الأعظم به والتفت إلى سنان الّذي كان لا يزال جاثيًا، وطلب منه بصوت رقيق أن ينهض. وبهذا كُرِّم المعماريّ برداء الشّرف.

اختلس داؤود ويوسف ونيقولا وجَهان نظرات خاطفة، عاجزين عن كتم ابتساماتهم.

أعلن السّلطان وهو يجذب لجام جواده موشكًا على الانصراف: حسنًا إذًا. يمكنك بدء العمل.

قال سنان: إنّ أحد المباني غير القانونيّة هو مخزن تابع للقصر يا صاحب الجلالة، فهل مسموح لنا هدمه مع بقيّة المباني؟

تردّد السّلطان سليم برهة، وقال: افعل ما تراه ضروريًا.

في اليوم التّالي، بدأوا تفتيش حيّ الأذكياء وحيّ القلندريّة، فوجدوا أعدادًا كبيرة من المباني غير المرّخصة في بنائها، فقرّر سنان اقتطاع مساحة عرضها خمس وثلاثون ذراعًا من حول المسجد، وهدم كلّ ما في نطاق تلك المساحة من مبانٍ وإنشاءات. وطلب من تلاميذه أن يدوّنوا خطّة عمل مفصّلة، مرّتين لا مرّة واحدة، على أن تكون النّسخة الأولى ممهورة بموافقة السّلطان والثّانية للحفظ في محفوظات المعماريّين في فيفا. فتعهَّدوا بالعمل على بناء التالي: أجزاء من آيا صوفيا، داخليّة وخارجيّة، بات يصعب ترميمها، وجلب الماء الصّافي إلى المسجد بواسطة قنوات جديدة، وتغليف السّطوح الّتي تتسرّب منها المياه بمادّة الرّصاص، واستبدال قاعدة المنارة الخشبيّة المتداعية والآيلة

Twitter: @ketab_n

للسّقوط، بمنارة أخرى متينة البنيان من الآجر، وفتح شريط بعرض ثلاث أذرع حول المدرسة، وذلك بإزالة السّقائف والعشوائيّات، وترك مساحة عرضها خمس وثلاثون ذراعًا إلى يمين وإلى شمال آيا صوفيا، وهدم كلّ بناء غير قانوني، واستخدام الحجر والآجر والألواح الناجمة عن الهدم في ترميم آيا صوفيا.

بعد وقت قصير جدًّا على تسلّم السّلطان نسخته، فإنّه لم يرسل موافقته فحسب، بل أصدر أمرًا مفاده:

إلى قاضي قضاة مدينة إسطنبول ومدير أوقاف مسجد آيا صوفيا.

هذا هو أمري لكما الّذي يتعيّن تنفيذه تنفيذًا كاملًا وحالًا. فعندما بلغني أن المسجد الكبير عانى من شدّة تأثير الزّمان وكثرة ارتياد النّاس، فالتمس الإصلاح، وقد زرت المنطقة شخصيًّا برفقة سيّد المعماريّين الملكيّ وغيره من الخبراء، زاد الله في حكمتهم، وتوصّلتُ إلى نتيجة مفادها أنّ التّرميم جوهريّ، وبناءً على هذا، لا بدّ من البدء به ما دام ترميم الأماكن المقدّسة يمثّل تلبية لأمر الله القدير ومسؤوليّة نبيلة من مسؤوليّات السّلطان.

لهذا السّبب، فإنّني أُصدر أمري بضرورة مساعدة رئيس المعماريّين الملكيّ ومساعديه وضمان توفير كلّ ما يحتاجون إليه حتّى يتفوّقوا في مهمّتهم.

تحمّس سنان وتلاميذه لهذا الأمر السّلطانيّ، فانكبُّوا على العمل برفقة خمسة وثمانين عاملًا مزوّدين بمطارقَ ومدقّات خشبيّة وكمّيّة كبيرة من البارود، فضلًا عن الحيوانات: الثّيران والجمال والبغال وشوتا.

۞ ۞

عندما وصلوا إلى آيا صوفيا، وجدوا حشدًا من الأهالي في الانتظار. كانوا يقطعون الطّريق، سورًا من لحم وعظم، لا يسمحون

Twitter: @ketab_n

للعمّال بالمرور. والتمعت عيون سود غائرة متبرِّمة، وأطبقت أفواه بإحكام. كان الغضب في الأجواء مستساغًا. وألمّت الدّهشة بالتّلاميذ وهم غرباء عن مثل هذه الكراهية. وكذلك شأن معلِّمهم الّذي امتقع وجهه وطار منه الدّم، ولاح شيخٌ عجوزٌ. سأل سنان: ماذا يحدث؟

قال نيقولا: إنّنا نهدم بيوتهم.

قال داؤود. اسمح لي بأن أكلِّمهم أيّها المعلِّم، فهم من أبناء منطقتي، وأنا أعرف أهلي، فنحن لا نريد أن نجعل منهم أعداء لنا.

قال جَهان: إنّه على حقّ. علينا أن نقنعهم قبل البدء بالعمل.

وافق سنان على ذلك، ولفّ عباءته حوله كأنّه معرّض لتيّار هواء، وقال: اذهب يا داؤود وكلِّمهم، وتأكّد من إبلاغهم بأنّنا سوف نعوِّضهم عن الخسارة الّتي سيتكبّدونها، فالسّلطان وعد بذلك، ثمّ التفت ناحية العمّال، وقال: لن نفعل أيّ شيء اليوم.

عندما حضروا في اليوم التّالي، كان الطّريق خاليًا، وكلّ شيء يلفّه الهدوء إلى أن جاء رئيس العمّال قرمزيّ الوجه، وقال من دون أن يتفضّل بكلمة ترحيب: ادعُ أيّها الأفندي!

سأل سنان: ماذا حدث؟

ـ سرقوا أدواتنا وحطّموا عرباتنا، ولا يريدون السّماح لنا بالعمل. أشرار!

وأوضح أنّ حشدًا من النّاس ـ أكبر حجمًا وأشدّ غضبًا من حشد يوم أمس ـ قد تجمّع في الجانب الآخر من المسجد.

ـ ماذا يريدون؟

أوضح جبرائيل الثّلجيّ: يقولون إنّ هذا معبد كفّار. يا لصفاقة وجوههم! إنّهم يروِّجون شائعات قذرة عنك. أعذرني على هذا الكلام أيّها المعلِّم.

سأل سنان: ماذا يقولون؟

Twitter: @ketab_n

خفض جبرائيل الثّلجيّ بصره، وقال: يقولون بما أنّك نصرانيّ أصلًا، واعتنقت ديانة أخرى، فإنّك تريد هدم منازل المسلمين الصّالحين من أجل الكنيسة.

قال سنان، وقد عقد حاجبيه بقلق: إنّ المساجد والكنائس والهياكل تُبنى لتعظيم الله. كيف يمكن أن تكون موضع إهانة؟

لم يسمع الدّهماء أيّ شيء من هذا الكلام. وفي الأيّام المقبلة، راح التّلاميذ يعالجون المشكلات واحدة تلو الأخرى. فقد أُثير هلع العمّال، وعُثر على حيوانين نافقين نتيجة التّسمّم. فخشي جَهان أن يُصاب شوتا بمكروه، فلم يعد يأتي به إلى موقع البناء. ولم يعد ممكنًا دقُّ مسمار واحد أو إزالة حجر واحد.

بعد مرور أسبوع واحد، أرسل سنان تلاميذه إلى قاضي القضاة للحصول على مساعدة. كان قاضي القضاة رجلًا ذا لحية رماديّة وعينين غائرتين وسحنة توحي بالحيطة والحذر. توقع جَهان أن يكون غاضبًا بسبب أولئك الّذين احتلّوا المنطقة رافضين الخروج منها، لكنّه وجده هائجًا بسبب سنان.

ـ كتب معلّمك إلى السّلطان، فأخذ سلطاننا المحسن كدأبه التماسه على محمل الجدّ، فانظر إلى أين وصلنا؟

ـ ألا يستحقّ هؤلاء القوم اللّوم أيّها الأفندي؟ لقد بنوا بناءً غير قانونيّ حول آيا صوفيا و...

قاطعه قاضي القضاة: صحيح. سوف أفكّر بما أستطيع عمله. فلا تتوقّع حدوث معجزات.

انصرف التّلاميذ من عند قاضي القضاة مثبطي الهمم، خائري العزيمة. وأدرك جَهان أنّ النّاس الّذين يمكنهم أن يمدّوا لهم يد العون سوف يمتنعون عن ذلك بسبب مرارتهم، أو كسلهم أو غيرتهم من نجاح سنان.

Twitter: @ketab_n

غير أنّ الأمور ما كان لها أن تتحسّن لولا فتوى صدرت بعد ذاك، فقد انهالت كلمات المفتي الكبير على المدينة كأنّها حبّ الغمام، مطفئة بذلك كلّ الحرائق، صغيرة وكبيرة.

سؤال: ثمّة من يقول بخصوص ترميم مسجد له حرمته وكان في ما مضى من الزّمان كنيسة، إنّنا لن ننصرف لأنّ مبنى الكفّار آيل للسّقوط، وليس مهمًّا إن انهار، وثمّة من يؤيّدهم في هذا ويقولون إنّ كلّ من يرمّم معبدًا من معابد الكفّار كافر. فما الّذي ينبغي عمله بشأن مثل هؤلاء القوم، والّذين يلّفون لفّهم؟

جواب: إنّ كلّ من يقول مثل هذه الأشياء المغلوطة كافر، وسوف يُعدم، والّذين يحولون دون الاستمرار في العمل سيعاقبون. وسوف يتواصل ترميم المسجد على نحو مضطرد حسب ما تقتضيه الشّريعة السّمحاء.

منذ ذلك الوقت، هدأت الأوضاع، ولم يخرج الدّهماء إلى الشّوارع، وإن كانت قد وقعت بعض الحوادث الطّفيفة هنا وهناك ـ مثل سرقة أداة من الأدوات في معظم الأحيان. رجع سنان إلى أدرنة برفقة يوسف لإكمال مسجد السّليميّة، لكنّ جَهان لم يرقه ذلك، إذْ كان يفضّل أن تبقى عينه مفتوحة على يوسف. فهو لا يزال عاجزًا عنِ الاستفسار منه عن لقاءاته السّرّيّة بتوماسو، لهذا كانت رؤيته بمفرده برفقة المعلِّم أمرًا لا يبعث على الاطمئنان.

صار داؤود ونيقولا وجَهان مسؤولين عن إدارة العمل بآيا صوفيا. وكانوا يرسلون كلّ بضعة أيّام برسالة إلى معلِّمهم لإطلاعه على ما أنجزوه، غير أنّ عدد الرّسائل أخذ بالتّضاؤل، وغشي صمت ينطوي على ذنب المسافة الفاصلة بين المعلِّم وتلاميذه.

Twitter: @ketab_n

لم يعترف التّلاميذ الّذين ظلّوا في إسطنبول وهم على شيء من الحرج، بهذا الأمر لسنان قطّ. وحاولوا كلّ يوم أن يحذِّروا سكّان العشوائيّات الّتي تقرّر هدمها، وحاولوا منحهم ما يكفي من الوقت لنقل أغراضهم وممتلكاتهم، لكنّ السّكّان كانوا إمّا بطيئين أو متردّدين، لهذا انفجر المشهد المحزن نفسه مرّات ومرّات: أُسَر بكامل أفرداها تُسحل من ورائها وسط العويل والبكاء واستنزال اللّعنات، القليل ممّا كانت تملكه مثل أدوات المطبخ والمصابيح والحصران والدّمى، فضلًا عن مهد أو دثار أو طائر في قفص.

راح جَهان يطوف حول الحيّ ليوضِّح الأمور في نفسه، برفقة تلميذ آخر أحيانًا، ووحيدًا في أغلب الأحيان. ذات يوم، كان يسير هو ونيقولا في زقاق قذر، يزدحم بورش عمل شبه خاوية، شاهدا طفلين يتقدّمان ناحيتهما. فتى وفتاة ـ أخ وأخته نظرًا إلى التّشابه الكبير بينهما، تومض عيونهما الخضر فوق نمش أسود منحهما مظهر طفلين مشاكسين. كان شعرهما قصيرًا تحسّبًا للبراغيث. وكان الطفلان حافيين.

قال جَهان حانيًا ركبتيه: هه، أيّها الصّغيران. لا ينبغي لكما أن تأتيا إلى هذه البقعة بمفردكما. أين تقطنان؟

أشارت البنت إلى سقيفة في نهاية الزّقاق، فتبادل نيقولا وجَهان نظرات تنمّ عن ذنب، فالمنطقة ستُهدم في صباح اليوم التّالي.

تشبّث الصّبيّ بيده وراح يجذبها بكلّ ما أُوتي من قوّة.

وبانت من تحت ردنَي قميصه الفضفاض عصوان بيضاوان. وفهم جَهان جزعًا أنّ الطّفل يريد منهما أن يلحقا به إلى منزله، فقال بصوت

Twitter: @ketab_n

أعلى ممّا كان ينوي: لا، لا يمكنني الذّهاب معك.

كان الطّفلان عنيدين. ففي حين راح الصّبيّ يتوسّل بعينيه الصّافيتين الواسعتين، أخذت الفتاة تجذب نيقولا. وفي نهاية الأمر، لم يستطع التّلميذان الاستمرار في مقاومتهما.

في اللّحظة الّتي دخل فيها جَهان ونيقولا الكوخ الّذي كان الطّفلان يطلقان عليه صفة المنزل، هاجمتهما رائحة رطوبة وعفن فطريّ، وشاهدا رجلًا مريضًا مستلقيًا على الأرض في الحجرة الأولى، ترعاه امرأة محجّبة من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها، أسرعت في الخروج من الحجرة لدى رؤيتهما.

قالت البنت: هذا أبي.

التفت المريض لدى سماعه الصّوت، وكان حتّى تلك اللّحظة راقدًا بلا حراك. كانت نظرته إلى جَهان تنمّ عن ألم وعذاب، وعندما فتح فاه ليتكلّم، لم تند عنه سوى همسة ذات صفير. فانحنت البنت فوقه ثابتة الجنان وأصغت إليه وأومأت برأسها، وقالت: إنّه يسألك إن كان اسمك هو عزرائيل.

اقشعرّ بدن جَهان وفكّر في أنّ الرّجل لا بدّ من أن يكون في حالة هذيان، معتقدًا أنّه ملك الموت. فأخبره صوت من أعماقه بضرورة الانصراف من هذا المكان، لكنّه عوضًا عن ذلك، تمنّى له الصّحّة والعافية وسار من خلف الطّفلين بهدوء إلى داخل المنزل، وإلى جانبه نيقولا. في الحجرة الثّانية، شاهدا رضيعين توأمين ينامان في مهد واحد، مفتوحي الفمين، وعلى وجهيهما شعاع من نور الشّمس. كانت شفة أحد الرّضيعين مشوّهة. توأمان متماثلان لن يشبه أحدهما الآخر.

حثّهما الطّفلان على الاستمرار في سيرهما، فسارا في ممرّ معتم ذي سقف منخفض، وهبطا إلى الفناء. تملّكت الدّهشة التّلميذين عندما

Twitter: @ketab_n

أدركا مدى قربهما من آيا صوفيا. ثمّة قنّ دجاج فارغ في إحدى الجهات، وباب خشبيّ يصدر صريرًا ويؤدّي إلى قطعة أرض ترابيّة تستخدم مرحاضًا، تنبعث منها روائح كريهة. وبجانب ذلك الباب هرّة، منتفخة الحلمات، مستلقية في سلة برفقة خمس هررة صغيرة متشابهة اللّون.

أمسكت البنت إحدى الهررة الصّغيرة من رقبتها وضغطت بأنفها على صدرها النّحيل، لكنّ الهرّة لم تصدر أيّ صوت بسبب ما أُغدق عليها من حبّ، ثمّ رفعت البنت الهرّة الرّقيقة بخشونة، وقالت: خذها!

ـ آه، لا، لا يمكنني أخذها.

فكرّرت: إنّها لك.

غير أنّ جَهان كان عنيدًا مثلها، فقال: لا أريد هرّة.

قالت الفتاة وقد لاح عليها الضّعف والانهيار: سوف تموت الهررة هنا.

عندما شاهد الصّبيّ كدر أخته ولوعتها، خطف الهرّة ودفع بها إلى جَهان، فخربشت إبهامه بهلع. أمّا جَهان، فقد جفل وانكمش، لكنّه كتم صيحة كادت تصدر عنه، وقال: آسف. إنّ إنقاذ هرّتك ليس من مسؤوليّتي.

عاد التّلميذان أدراجهما وقد انتابتهما قشعريرة، خرجا من البيت إلى الشّارع حيث شاهدا عددًا من الجيران أمام المنزل بعد أن سمع هؤلاء بخبر وجودهما هنا. ورمى أحدهم بحجر أصاب نيقولا في كتفه. فما كان من التّلميذين إلّا أن راحا يركضان، وفي غمرة اضطرابهما وتشوّش فكريهما، انعطفا باتّجاه خاطئ ليجدا نفسيهما وسط حقل، تمزّق أعشابه وأدغاله الشّائكة كواحلهما. كانا منقطعي الأنفاس، حواسّهما في يقظة وحذر، منتظرين من يثب إليهما من وراء الشّجيرات.

Twitter: @ketab_n

وعندما خفّفا من سرعتهما، شهق نيقولا وهو يقول: أنا لا أريد القيام بعملي.

قال جَهان: ولا أنا.

ولدى رجوعهما إلى موقع البناء، شاهدا داؤود منهمكًا في عمله. وعندما شاهدهما بدوره، لاح على وجهه طيف قلق.

ـ هل أنتما بخير؟

أخبره جَهان بما حدث... الرّجل المريض والطّفلان والرّضيعان...

قال داؤود: لا تدعا هذا الحادث يؤثّر فيكما، فهم لا يملكون الحقّ في تشييد ذلك المنزل.

ـ لكن، ليس لديهم أيّ مكان آخر يلجأون إليه!

ـ سوف يتلقّون تعويضات. هذا ما قاله سلطاننا.

قال جَهان: أنت تعلم مثلما أعلم أنا أيضًا أنّ التّعويضات لن تكون كافية.

ـ ماذا في وسعنا أن نفعل؟

قال ذلك داؤود وهو يمرِّر أصابعه إلى أسفل لحيته، وأضاف: لقد عهد معلِّمنا إلينا إنجاز هذه المهمّة.

ـ نعم، ولكن أين هو الآن؟ إنّه يشيِّد مسجد السلطان في حين يتعيّن علينا معالجة هذه القضيّة الشّائكة.

تفوّه جَهان بهذه الكلمات وأمسك عن الكلام، وارتعش من شدّة الغضب وأضاف: سامحني!

ردّ داؤود بابتسامة أخويّة: سامحتك.

في ذلك الأسبوع، تأخّروا عن الكتابة إلى سنان، إذْ لم يشعر أيّ واحد منهم بأنّه مؤهّل للمسؤوليّة. وتحاشى أحدهم الآخر، كأنّهم

Twitter: @ketab_n

يتذكّرون ذنبهم كلّما أمضوا وقتًا أطول معًا.

ثمّ جاءت رسالة من المعلّم.

تلامذتي المجتهدون.

كان بودّي أن أكون برفقتكم لو لم تُعهد إليّ مهمّة إنجاز مسجد سلطاننا من دون أيّ تأخير. لقد اضطرّني بناء مسجد السّليميّة العاجل إلى ترككم وحدكم، وقد تركتكم كذلك وأنا أعلم جيّدًا أنّكم قادرون على الاهتمام بمسجد آيا صوفيا الكبير. لكنّني على الرّغم من ذلك، أعرف أنّ هذا المسجد هو مهمّتنا الأشقّ والأصعب. نحن في هذه المهنة قلّما نلتقي النّاس، فنصادق مقالع الحجارة ونتجاذب أطراف الحديث مع البلاط ونصغي إلى الرّخام.

لكنّكم في هذه المرّة تقفون وجهًا لوجه أمام قوم لا بدّ لكم من أن تهدموا بيوتهم. وهذه أعباء فادحة تنوء بها كواهلكم، ولو كان في استطاعتي لعمدت إلى نقل كلّ أسرة من هذه الأسر إلى مأوى أكثر أمنًا، مساحته واسعة وتكثر فيه الأشجار، لكنّ هذه القضيّة تفوق طاقتي، بل تفوق طاقتكم أيضًا.

لكن، تذكّروا فحسب أن المدن تشبه بني البشر، فهي ليست مشيّدة بالحجارة والخشب من دون غيرها، بل هي مشيّدة أيضًا بالدّم واللّحم، تنزف إذا ما لحق بها الأذى، وكلّ بناء غير قانونيّ، مسمار يُدقّ في قلب إسطنبول. تذكّروا أن تشعروا بالرّأفة على مدينة جريحة على النّحو نفسه الّذي تشعرون فيه بالشّفقة على إنسان جريح.

أرجو من الله أن يحقّق رغباتكم وأن يحفظ توازنكم.

سنان، التّلميذ المتواضع والبسيط لكلّ من شيت وإبراهيم، شفيعي البنّائين والمعماريّين.

Twitter: @ketab_n

في خريف ذلك العام، هدم التّلاميذ أعدادًا لا تُحصى من الأكواخ والعشوائيّات ودكّوها من أسسها. وبقدر ما أسرعوا في العمل، كان القادمون الجدد أسرع. ففي حين كانوا يقوّضون المباني وينقلون أنقاضها بعيدًا، كانت أجزاء أخرى من المدينة تشهد على بناء مواقع جديدة، غير قانونيّة وغير آمنة وقبيحة أيضًا. وكانت التّعليمات الّتي وضعها سنان بخصوص عرض الشّوارع وارتفاع المنازل قد أُهمل شأنها، ما أثار هلع جَهان وفزعه، لأنّه لم يخطر على باله أبدًا أنّ من بين مهام المعماريّ حماية المدينة من سكّانها وحماية الماضي من المستقبل.

Twitter: @ketab_n

القبّة ـ هي الموضوع الّذي أفرط في تقريظه كلّ فرد. كان السّلطان قد طلب في رسائله إلى رئيس معمارييه الملكيّ إنشاء قبّة أكبر من قبّة آيا صوفيا، لأنّ مسجده سيرمز إلى انتصار الإسلام على النّصرانيّة ويظهر للعالم أجمع من هو المفضّل عندَ الله. توتّرت أعصاب جَهان من هذا الكلام. فالنّاس، كما هم حكّامهم، راحوا يدفعون بالمعماريّين إلى صراع، مختبرين قدرة سنان أمام قوّة أنتيميوس[1] العالم الرّياضي وإيزيدورس العالم الفيزيائيّ الّذي صمّم كنيسة الكفّار في الأيام الخالية.

سأل سنان: هل ثمّة ما يزعجك؟ تبدو متحفّظًا ومنطويًا على نفسك.

ثمّة طبقة رقيقة من نشارة الخشب غطّت أحذيتهما ولاحت طبقة رقيقة أيضًا من العرق تلمع على جبينيهما. وعلى الرّغم من الإنهاك الّذي كانا يشعران به، إلّا أنّهما واصلا العمل كأنّ كلّ يوم هو يومهما الأخير.

قال جَهان: لا أستطيع الانتظار حتّى أنتهي وأذهب.

قال سنان بصوت متثاقل: سوف ننتهي بعد أربعة أسابيع.

الأسابيع الأربعة طويلة أكثر ممّا ينبغي، لكنّ جَهان لم يعترض لأنّه كان خجلًا من التّذمّر أمام معلّمه الّذي تجاوز سنّ الثّمانين ولا يزال يعمل من بزوغ الفجر حتّى غروبها. وعلى الرّغم من مناشدتهم إيّاه، إلّا أنّه قرّر ألّا يستكين إلى الرّاحة. لقد كان سنان، شأنه شأن العثّ الّذي تجذبه النّيران، منجذبًا إلى الغبار والقاذورات ومشقّة مواقع البناء.

---

(١) أنتيميوس الترالّيّ: مهندس بيزنطيّ أعاد ترميم آيا صوفيا ٥٣٢ ـ ٥٣٧. تابع عمله إيزيدورس الميلاتيّ (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كانت يداه خشنتين، أظافر أصابعه متكسّرة وتحت القفطان الحريريّ الّذي يرتديه في المناسبات تجده عاملًا حتّى العظم. وكان لذلك أبلغ الأثر في نفوس تلاميذه. فكان مشهده في الموقع غير بعيد من مشهد قائد معركة في جبهة القتال، ما يدفع كلّ امرئ إلى بذل أقصى جهوده في العمل الشّاقّ.

قال جَهان: إنّ هذا المسجد أنهك قوانا.

لاح التّأمّل على سنان.

ـ لقد لاحظت ذلك.

لكنّ جَهان تلعثم وهو لا يتوقّع من معلِّمه تأكيد مخاوفه: أنت تعرف.

ـ فكّر في الجنين وهو في الرّحم، يعيش على طعام أمّه ويرهقها. وعندما نشيّد مبنًى من المباني، فإنّنا أشبه ما نكون بالأمّ. فما إن يولد الجنين، حتّى تغمرنا سعادة فائقة.

ابتسم جَهان وهو يستمع للمقارنة بين البناء وولادة طفل. ثمّة فكرة أخرى سيطرت عليه من فوره، فقال: لكنّني لست أفهم، فالسّلطان لا يشتغل معنا، فما الّذي فتَّ في عضده وأنهكه؟

قال سنان: لا يزال متشبّثًا بمسجده.

ـ لقد أنجزنا مباني أخرى. جسورًا ومساجدَ ومدارسَ وقنواتٍ مائيّة صنعيّة. فما الّذي جعلني لا أشعر بهذا الشّعور من قبل؟

ـ بل شعرت، لكنّك لا تتذكّر، وهذا هو في جوهر الأشياء. فنحن ننسى الشّعور الّذي يلازمنا آخر مرّة. مرّة أخرى، حالنا هو حال الأمّ.

توقّف سنان عن الكلام برهة، غير واثق ما إذا كان يريد أن يكمل كلامه أم لا. أضاف: لكنّ ثمّة ولادات أصعب من غيرها.

ـ أيّها المعلِّم... هل تعني أنَّ ما نصنعه يمكن أن يقضي علينا؟

قال سنان: إنّ ما نصنعه يمكن أن يضعفنا، لكنّه نادرًا ما يقتلنا.

بعد مرور ثلاثة أسابيع، بعث السّلطان برسالة يبلغهم فيها عن رغبته

Twitter: @ketab_n

في الحضور والإشراف شخصيًّا على وضع اللّمسات الأخيرة على مسجده، لّذلك سوف يسافر إلى أدرنة على رأس موكب ملكيّ، وأنّه بحاجة إلى فيل. ولمّا كان محمود قد فقد حظوته ولم يعد أدراجه إلى القصر، فإنّ ثمّة ضرورة لشوتا من جديد.

أخذ جَهان شوتا معه وعادا إلى القصر محمّلين ببركات المعلّم. وفرح لمرأى أصدقائه القدامى في مأوى الحيوانات في حين استراح الفيل في زريبته. في صباح اليوم التّالي، كانا على أهبَّة الاستعداد للانضمام إلى الموكب.

مشهد رائع. الانكشاريّة والحرّاس النّخبة ورماة الأسهم، كلّهم يرتدون ثيابًا زاهية الألوان. ورافقت السّلطان بعض المحظيّات والسّراري واتّخذن مجلسهنّ داخل عربات ذات ستائر سميكة. كان في الجوِّ هرج واعتزاز، ولكن خيّم من تحت ذلك كلّه قلق وضيق مثل سحب سود متجمّعة في الأفق البعيد في يوم مشرق ومشمس. كان النّصارى الّذين هالهم ضياع قبرص من بين أيديهم وتحويل الكاتدرائيّات إلى مساجد، قد عقدوا حلفًا مقدَّسًا وراحوا ينشدون الانتقام. وتوحّدت جيوش البابا والجيوش الإسبانيّة والبندقيّة بعد أن تغلّبت على عداواتها القديمة، وبينما هي تستعدّ لرحلتها إلى أدرنة، كانت معركة بحريّة قد نشبت بين القوّات العثمانيّة والنّصرانيّة في خليج كورنث على مقربة من ليبانتو.

بعد مرور ساعة، خرج السّلطان سليم ماشيًا بتبختر واختيال، ووجهه الدّائريّ متورِّد. وبعد أن حيّا الجند، أشار إلى جواده ـ وكان جوادًا فحلًا أسود اللّون أصيلًا. وهنا حدث أغرب شيء. فقد تقدّم الجواد إلى أمام من دون سبب وتعثّر. فندت شهقة عن الحاضرين، لأنّ تلك ليست سوى علامة تنذر بالشّرّ.

الواضح أن سليمًا انزعج لما حدث، فأمر بإعادة الجواد إلى الإسطبل، لأنّ ما من عادته أن يمتطي جوادًا يجلب النّحس. وتمّ العثور

Twitter: @ketab_n

على بديل على جناح السّرعة: شوتا. ولمّا كان السّلطان قد عزم على الخروج من العاصمة بأبّهة والوصول إلى أدرنة بالأسلوب نفسه، كان الفيل أروع وسيلة كي يحمله على ظهره! وصدر الأمر إلى جَهان بإعداد الهودج وغطاء الرّأس البرّاق والمجلجل، والّذي كان لا يروق لشوتا أبدًا.

أمسك السّلطان بالسّلّم المتدلّي وتمكّن بصعوبة من الصّعود، وكان يوشك على الجلوس داخل الهودج عندما هزّ شوتا بدنه، إمّا بدافع من حكّة سبّبها غطاء رأسه أو بسبب شيطان ما وخزه في عينه، ففقد السّلطان توازنه، وسقطت عمامته الضّخمة ذات الرّيش بعد أن انزلقت من على رأسه وهوت أمام جَهان الّذي سرعان ما حملها بيده وأسرع بصعود السّلّم.

أصبح الاثنان وجهًا لوجه للمرَّة الأولى، جَهان من على السّلّم والسّلطان داخل الهودج، فأحنى جَهان رأسه، لكنّ نظراتهما العابرة تقاطعتا في لحظة.

قال جَهان وهو يمسك الحبل بيد، ويقدّم العمامة باليد الثّانية: مولاي!

قال سليم بصوت يشوبه الانزعاج: ضعها هنا.

لكنّ العمامة سقطت من يد السّلطان وتدحرجت مجدَّدًا. فما كان من الخدم إلّا أن أسرعوا لالتقاطها، وناولوها لجَهان الّذي ناولها بدوره للسّلطان الّذي أمسك بها بحرص وحذر، ومن دون أن ينبس بكلمة، ووجهه ممتقع وشاحب، ثمّ قال: بوسعك الانصراف أيّها السّائس.

أسرع جَهان بهبوط السّلّم ونقر على خرطوم شوتا، فرفعه إلى مكانه المعتاد على رقبته، لينطلق الرّكب بعد ذلك وسط الأدعية والتّسابيح الّتي لهجت بها ألسن الأهالي الّذين تجمّعوا محتشدين على جانبي الطّريق وراحوا يرنون إلى المشهد بنظرات الإعجاب، لكن على الرّغم من كلّ تلك الأبّهة، سيطر صوت وقع الحوافر وصرير عجلات العربات ورنين الأجراس المتدلّيّة من على رأس شوتا. ولم يسبق لجَهان أن رأى في

Twitter: @ketab_n

حياته مثل هذا الحشد الهائل من النّاس لا يثير حوله سوى جلبة صغيرة.

ارتفعت معنويّاتهم وهم يغادرون مدينة إسطنبول، غير أنّ أخبارًا مزعجة استقبلتهم عند بوّابة مدينة أدرنة. فقد هُزم الأسطول العثمانيّ برمّته هزيمة ساحقة ومهينة، وإذا كانت للقيامة اسم آخر فإنّه اسم ليبانتو حيث غرق المئات أو قتلوا أو استعبدوا. وأُصيب السّكّان بصدمة، لكنّ ذلك لم يدم طويلًا. فبعد ذلك الذّهول، حلّ التّذمّر ومن بعده الغضب. فجأة، ساد الغليان كالمرجل على السّلطان.

للمرّة الأولى منذ سنوات، خشي جَهان السّير في الشّوارع. ففي إحدى المرّات الّتي كان يسير فيها برفقة شوتا، رمى أحد النّاس حجرًا عليهما، مرّ بجانب رأس شوتا ليصطدم بجذع شجرة. وعندما التفت جَهان حوله ليبحث عن الجاني، شاهد بضعة صبيان يلعبون لعبة السُّلاميّ، وبائعًا جائلًا يبيع فضلات الذّبائح من أكباد وغيرها، وسابلة يتمشّون في المنطقة. وفكّر جَهان في أنّ الجاني قد يكون أيّ واحد من هؤلاء، وفي تلك اللّحظة، لم يستطع أن يحول بينه وبين التّفكير في أنّهما موضع احتقار لأنّ أحدهما فيل السّلطان والآخر سائسه.

كان الوضع كئيبًا في موقع البناء. وإذا كانت البداية مفعمة بالأمل، فإنّها تحوّلت إلى وجوم ووحشة، حماسة وخيبة، قوّة وخسارة. قبرص وليبانتو. وإذا كان مسجد السّليميّة قد شيّد على رقّاص غير مرئيّ، فإنّه راح يتذبذب بين ضدّين. وسط هذه الأشياء كلّها، كان المعلّم سنان يكدّ ويكدح من دون أن يتأثّر أو يمسّه أيّ شيء.

استمرّ العمل. وكانت المنائر أكثر رشاقة وارتفاعًا من أيّ منارة سبق لهم أن رأوها أو سمعوا بها. وكانت النّوافذ الأربع في الطّبقات الثّلاث تسمح بدخول كمّيّة كافية من الضّياء، منعكسة على ألواح الملاط فيتلألأ المسجد بألوانٍ ساطعة على الرّغم من مزاج العمّال. وكانت الواجهة المشيّدة بحجارة رمليّة بلون العسل، دافئة وجذّابة. أمّا الفضاء

Twitter: @ketab_n

الدّاخليّ، فكان رحيبًا ومتراميًا، وحيثما أراد المرء أن يسجد، فإنّ في وسعه أن يرى المحراب وهو المكان الّذي يجلس فيه الإمام ويؤمّ المصلّين. الكلّ قريب من الله بدرجة متساوية.

وجيء بالرسّامين اليونانيّين من جزيرة شيوس للمساعدة في أعمال الزّخرفة والنّقش. وكان ثمّة فنّان مسلم أيضًا وهو رجل حالم يُدعى النّقّاش أحمد جلبي الّذي بلغ به تقديره للمسجد حدًّا أدّى به إلى أن يأتي إليه في أوقات مختلفة من النّهار ليمتّع نظره ويعبّر عن إعجابه. في عرض البحر، كان الاستيلاء على الجزر قائمًا على قدم وساق، وكانت الأساطيل البحريّة مصيرها الغرق، المسلمون يقتلون النّصارى والنّصارى يقتلون المسلمين. أمّا في عالم سنان المحاط بشرنقة، فالكلّ يعمل جنبًا إلى جنب.

ارتكزت القبّة فوق مربّع على كلّ زاوية من زواياه ما يشبه القباب، وكانت تستند إلى ثمانية أعمدة من المرمر والغرانيت، فتبدو وبجلاء الجوانب الثّمانية. وبقدر ما كانت تخلب الألباب من الدّاخل والخارج، كان حجمها الهائل هو الّذي أثار الفضول في كلّ نفس. وانضمّ علماء الهندسة إلى رئيس الفلكيّين الملكيّ تقيّ الدّين وراحوا يقيسون قياسات دقيقة، وكانوا يريدون كلّهم معرفة الجواب: هل تفوّقت قبّتهم الزّرقاء السّماويّة على قبّة آيا صوفيا؟

نعم، فإذا أراد المرء أن يقيس من أسفل قاعدة القبّة إلى القمّة، فإنّها أعلى. لقد سمت قبّة مسجد السّليميّة المدوّرة بقمّتها الأعلى، على قبّة كنيسة يوستينيانس المسطّحة. لكنّها من جهة أخرى، أقلّ منها سموًّا. فإذا أراد المرء أن يقيس المسافة من مستوى الأرض إلى القمّة، فإنّ قبّتهم أوطأ في حين أنّ قبّة آيا صوفيا أعلى.

أعلى وأوطأ في الوقت نفسه. فكّر جَهان، على الرّغم من أنّه لم يستطع أن يتساءل بما إذا كان هذا هو ما يريده المعلّم سنان وسط كلّ هذه التّوقّعات والإثارة.

Twitter: @ketab_n

كان مارك أنطونيو السّفير الّذي أمضى زمنًا طويلًا، يوشك على الرّحيل عن مدينة إسطنبول بعد أن أمضى ستّ سنوات تحت سماء العثمانيّين، وكان، بخلاف الكثيرين من الرّحّالة الّذين جابوا هذه البلاد، قد أصبح إسطنبوليًّا نوعًا ما. ولمّا كان شخصًا مجاملًا، فقد اتّخذ له عددًا كبيرًا من الأصدقاء، حظي اثنان منهم بعظيم تقديره واحترامه وهما الصّدر الأعظم سوكولو وسنان، إذْ كان هذا المبعوث البندقيّ المليح أديبًا واسع الاطّلاع في موضوعَي النّحت والعمارة. وكان في أغلب الأحيان يزور سنان مصرّحًا بفرقعة أصابعه وضحكته النّابعة من صميم فؤاده أنّ عمله مدهش. وزاره سنان بدوره على الرّغم من أولئك الّذين لم يرضوا عن مصادقته كافرًا من الكفار.

ثمّة روح أخرى في هذه المدينة ازداد ولع السّفير بها: شوتا، ففي كلّ مرّة صادف فيها مارك أنطونيو جَهان، كان يسأله عن صحّة الحيوان، ويقدّم له لذيذ الطّعام. ولمّا كان محبًّا للاستطلاع بطبيعته، فقد استفسر من جَهان عن الفيلة ـ وإن لم يكن استفساره عن نوعيّة طعامها أو مقدار وزنها أو طول عمرها. وكان جَهان معتادًا على مثل هذه الأسئلة، لكن أسئلة مارك أنطونيو كانت مختلفة مثل: هل صحيح أن الفيلة تبكي بكاء النّساء عندما تنفطر قلوبها؟ وما رأي جَهان المتواضع بنوع الأحلام الّتي تراود الحيوان عندما يخلد إلى النّوم؟ وهل لديه فكرة عن ذات الفيل أم إنّه لا يفهم سوى العالم الخارجيّ المحيط به؟ وكان جَهان يعجز عن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، لهذا كان يترك مارك أنطونيو يطعم الفيل ويمتطيه على أمل أن يجِد الجواب الشّافي بنفسه.

Twitter: @ketab_n

وفي يوم رائق من أيّام فصل الرّبيع، وصل مارك أنطونيو إلى مأوى الحيوانات برفقة خادمين يسيران وراءه، ويحملان إطارًا ضخمًا.

قال السّفير مبتسمًا ابتسامة شيطانيّة: هديّة وداع للصّدر الأعظم.

سأل جَهان: أيمكنني أن أسترق نظرة؟

عندما جذبا قطعة القماش الّتي تغطّي الهدية، تملّكت جَهان الدّهشة وهو يرى أنّها لوحة تمثّل السّفير الإيطاليّ معتمرًا عمامة ومرتديًا قفطانًا، وجالسًا من على أريكة ـ من دون أن يضع رجلًا على رجل وفق أسلوب جلوس الإفرنج، بل كانت إحدى رجليه مطويّة وهي ممدودة إلى الخلف، والثّانية محنيّة في منطقة الرّكبة على طريقة العثمانيّين. وكان في وسع المرء أن يلاحظ من خلال نافذة مفتوحة في المؤخّرة منظرًا لمدينة إسطنبول، بما فيها من تلال يانعة الخضرة وسحب متراكمة وبحر هو الأشدّ زرقة بين البحار كلّها وقد احتشدت فيه الزّوارق.

لم تكن اللّوحة تشبه السّفير من النّظرة الأولى، لأنّ مارك أنطونيو كان ذا بشرة ممتقعة ومسامية، في حين كانت صورته في اللّوحة قد جعلته يبدو مفعمًا بالحيويّة والشّباب. كما غابت عن الأنظار بعض ملامحه مثل الانحراف في أنفه والشّعيرات في منخريه والشّامة على خده الّتي كان يحرص على إخفائها تحت المساحيق كلّ يوم. ويبدو أنّه بارتدائه الزّيّ العثمانيّ وموافقته على الوقوف أمام الرّسام قد انتقل إلى عالم آخر، كلّ شيء فيه أكثر نعومة وأشدّ لمعانًا. وكان تحت الصورة إهداء مكتوب باللّغة الإيطاليّة.

كلّما حدّق جَهان مدّة أطول إلى اللّوحة، ازداد إحساسه بأنّها صورة حيّة، إذْ رويدًا رويدًا، بدأت القوارب تمخر عباب البحر، مجاذيفها تلاطم المياه، والسّحب الممتدّة في الأفق تتحوّل إلى حمراء قانية، ثمّ يجول الرّجل الظّاهر في اللّوحة ببصره ناحية السّفير كأنّه يريد أن يعرف

Twitter: @ketab_n

إلى أيّ حدٍّ يتشابهان. فجأة، انتابت جَهان رعشة، فجذب الغطاء إلى أسفل وهو واثق من أنّ ثمّة روحًا في الإطار وإن لم يستطع أن يعرف هل هي روح صالحة أم شرّيرة.

في يوم الأربعاء، بينما كان التّلاميذ منشغلين بالعمل في رسم تصميم، وصلت هديّة أخرى من مارك أنطونيو، وكانت في هذه المرّة هديّة للمعلّم سنان، وهي علبة خشبيّة ذات نقوش بارزة وعليها حرفان ذهبيان هما: م ب. وداخل العلبة مجلّد ضخم بعنوان: عشرة كتب عن العمارة، لمؤلّفه فيتروفيوس، بترجمة شقيق مارك أنطونيو وحواشيه.

على الرّغم من أنّ سنانًا سبق له أن درس هذا الكتاب من قبل، إلّا أنّه اغتبط اغتباطًا شديدًا بالحصول على هذه الطّبعة الجديدة بالإيطاليّة. فوضع العلبة على صدره، واتّجه إلى مكتبته، لكنّه استدعى قبل ذلك جَهان قائلًا له: تعال وساعدني في قراءة هذا الكتاب.

إلا أنّ القراءة لم تكن سهلة، لأنّ الكتاب مكتوب بلغة إيطاليّة منمّقة، فوجد جَهان مشقّة في ترجمته. وكانت كل جملة من جمله عبئًا شديدًا، إلّا أنّه تمكّن شيئًا فشيئًا من الخوض في صفحاته في حين أصغى سنان إليه بعناية، وضاقت عيناه لاستغراقه في التّفكير.

كانت العمارة عِلمًا من العلوم كما يصفها الكتاب، ترتكز إلى ثلاث خصائص هي: القوّة والاستعمال والجمال، حسب ترجمة جَهان.

ـ قل لي: إذا اضطررت لأن تضحّي بواحدة من هذه الخصائص، فما هي؟

ردّ جَهان مؤكدًا: الجمال، لأنّنا لا نستطيع المساومة على القوّة أو الهدف، ويمكننا الاستغناء عن الجمال إذا ما اقتضت الضّرورة. لكنّ ملامح سنان كانت توحي برأي مخالف.

ـ لا يمكننا التّخلّي عن الجمال.

Twitter: @ketab_n

ـ إذًا، بماذا نضحّي؟

قال سنان مبتسمًا ابتسامة رقيقة: لا نضحّي بشيء، لأنّك إذا ما ضحّيت بواحدة من هذه الخصائص، فإنّ الأمر سينتهي بك إلى خسارة البقيّة.

في هذه اللّحظة، دخل ابن رئيسة الخدم حاملًا رسالة قال إنّها مرسلة من القصر. فما كان من سنان إلّا أن كسر الشّمع وراح يقرأ فيها، وعيناه تومضان وميضًا كهرمانيًا. وقال إنّ السّلطان سليم سوف يقيم مأدبة لمارك أنطونيو، وهذا شرف رفيع بلا أدنى ريب، ويظهر أنّ السّلطان يحترم السّفير الاحترام كلّه.

قال جَهان ملاحظًا: يا لكرم سلطاننا!

ـ حسنًا، يبدو أنّك ستحضر أيضًا.

ـ أنا؟

لم يستطع جَهان أن يصدّق أنّ اسمه وارد في رسالة ملكيّة. غير أنّ الأمر لم يكن كذلك تمامًا كما تبيّن لاحقًا. فالرّسالة مرسلة أوّلًا من الصّدر الأعظم سوكولو، وثانيًا، لم يكن اسم المروّض هو المذكور فيها، بل اسم سائس الفيل. ولمّا كان سوكولو يعلم مدى شغف السّفير بالحيوان، فقد طلب حضور شوتا حتّى يستمتع الجمهور في ذلك المساء. وهنا أُصيب جَهان بالوجوم.

قال سنان: أنت منزعج.

ـ إنّني تلميذ رئيس المعماريّين الملكيّ، لكنّ الصّدر الأعظم لا يراني إلّا سائسًا.

قال سنان: لا تحزن. بودّي أن ترافقني إلى المأدبة، وفي وسعك أن تؤدّي دورك بعد أن تتناول الطّعام.

فغر جَهان فاه أمامه غير قادر على احتواء دهشته، لأنّ هذا يعني أنّه

Twitter: @ketab_n

لن يتناول عشاء برفقة المروِّضين في مأوى الحيوانات حيث ينتظرون عودته، بل في القاعة الكبرى برفقة الضّيوف. لكنّه بدلًا من أن يوجِّه شكره إلى سنان، إذا به يقول: شوتا لا يعرف أداء أيّ عمل شاقّ.

ـ ليس مضطرًّا لذلك. عليك أن تستعرض أنت والحيوان. حيلة بسيطة واحدة تكفي. إنّهم يريدون أن يشاهدوا ما خلقه الله لا أن يشاهدوا ما يمكنك أن تدفع الفيل للقيام به.

بالرّغم من ذلك، تضايق جَهان وتكدّر. وبالرّغم من مرور الزّمن، إلّا أنّ المصيبة الّتي حدثت في أيام السّلطانة خرّم ما زالت حيّة في ذاكرته. وعلى الرّغم من امتعاضه، راح يتمرّن على الحيل مع شوتا. ومنح شوتا لهذه المناسبة كسوة صفراء جديدة، وعندما وُضعت عليه، لاح من مسافة بعيدة كأنّه كرة من نار. وزُيّنت قوائمه بالخلاخيل وهي حلقات فضّيّة مزوَّدة بمئة جرس صغير. وما إن شعر الفيل بها حتّى ازداد ذهولًا وحيرة. فسار إلى الخلف بضع خطوات وتوقّف، لكنّه سار من جديد وتوقّف ثانية عاجزًا عن إدراك مصدر الصّوت.

❁ ❁

في عصر يوم الاحتفال الكبير، حمّم جَهان شوتا وفرك بدنه مستخدمًا الزّيت من خرطومه إلى ذنبه، ثمّ وضع عليه الكسوة والخلاخيل. قال جَهان: يا لك من بهيّ الطّلعة! لو كنت فيلة لأغرمت بك.

تغضّنت عينا شوتا اللّتان لا يناسب صغرهما حجم رأسه برهة من شدّة طربه وجذله. واجتازا بهذه الحال البوّابة المؤدّية إلى الصّحون الدّاخليّة.

ابتدأ المساء باحتفال توزيع الهدايا. فمنح السّفير أوشحة وأحذية وأحزمة مرصّعة بالمجوهرات وعنادلَ في أقفاص مذهّبة وكيسًا مملوءًا

Twitter: @ketab_n

بالنّقود يحتوي على عشرة آلاف مسكوكة فضّيّة. وندت عن الحاضرين همهمات التّقدير والإعجاب بكرم السّلطان سليم، الّذي كان لا يزال غائبًا. أُدخل السّفير إلى قاعة الطّعام ذات السّقف العالي، حيث مُدّت أربع طاولات مخصّصة لأفضل الضّيوف. وكان المقرّر أن يتّخذ مارك أنطونيو والصّدر الأعظم والمعلّم سنان أماكنهم حول الطّاولة نفسها.

وبحسب السّياقات المتّبعة في القصر، فإنّ السّلطان سيتناول طعامه منفردًا. وفكّر جَهان في ملوك الإفرنج وملكاتهم الّذين يتناولون عشاءهم وسط حاشيتهم. وفكّر في أيّهما أفضل، أسلوبهم أم الأسلوب العثمانيّ؟ من ذا الّذي يريد أن يشاهد السّلطان وهو يقضم فخذ دجاجة، أو يمضع ويتجشّأ مثل أيّ فانٍ؟ وتعاظمت مسؤوليّته في عدم جلوس السّلطان حول الطّاولة؟ لكن، في الوقت نفسه، ازدادت صعوبة الوصول إليه، وبالتّالي صعوبة فهمه. الأسهل أن يحبّ المرء شخصًا يستطيع مشاطرته خبزه.

في هذه الأثناء، أُرشد بقيّة الضّيوف، بمن فيهم جَهان، إلى حجرات أصغر حجمًا، وراح يعمل على خدمتهم خمسون غلامًا، يتشابهون في طولهم وحجمهم، ويرتدون سراويل خضرًا، فجاءوا بسرعة وخفّة بصوانٍ دائريّة كبيرة ووضعوها على سيقان خشبيّة، ووضعوا فوقها ملاعقَ وزيتونًا ومخلّلًا وبهارات في كاسات متناهية في صغر حجمها، فلم يتجرّأ أحد على أن يغمس إصبعًا فيها خشية أن يكسرها. وحملوا بعد ذلك مجموعة من طسوت وأباريقَ فضّيّة ليغسلوا أيديهم. وأخيرًا وزّعوا مناشف ومناديل حتّى يضعها الضّيوف على أحضانهم ويستخدمونها لمسح أصابعهم.

التفت جَهان يمينًا وشمالًا مدركًا مدى أهمّيّة هذه التّقاليد والطّباع، ولاحظ ما يفعله الآخرون. إنّ أسوأ خطيئة يمكن أن يرتكبها في مأدبة ما هي الشّراهة. فعلى المرء أن يتناول طعامه ببطء حتّى وإن كان يأكل طبقه المفضّل لديه، ولا ينبغي أن يُظهر ما يدلّ على النّهم. وكان جَهان

Twitter: @ketab_n

حريصًا على أن يتناول طعامه مستخدمًا أصابع يده اليُمنى الثّلاث من دون أن يدع الزّيت يقطر منها. ولحسن حظّه، كان ثمّة آخرون يشبهونه في ملاحظة ما يفعله كلّ فرد. وكانت نظراتهم تلتقي أحيانًا، فيومئ بعضهم لبعض إيماءات تدلّ على أدب جمّ.

قدّم الخدم لهم حساء القمح وقطعة كبيرة من الخبز الأسمر الّذي كان مشبعًا جدًّا ما دفع جَهان إلى التّوقّف عن الأكل من حين إلى حين. لكن، ما إن رُفعت القطع الفخّاريّة حتّى جيء بأوراق العنب المحشوة باللّحم والرّز والصّنوبر وكباب الدّجاج بالفطر ولحم الضّأن بالزّبدة والحمام المقلي وطيور التّدرّج المشويّ والكوارع والنّعام المحشوّ بالتّفّاح وسمك الأنشوفة بالماء المملّح وسمكة هائلة حمراء اللّون من المياه المتجمّدة شمالًا والبورك المحشوّ بقطع اللّحم والبيض والبصل. وقُدّم لهم شراب الكومبوت في طاسات واللّيموناضة في دوارق. وازدادت شهيّته بسبب روائح الطّعام اللّذيذ، فراح يتذوّق من كلّ طبق. وفي حين استمرّوا في تناول الطّعام، راح أمين المستودع والذّوّاقة يطوفون حولهم ليتأكّدوا من أنّ كلّ شيء يسير في انتظام كامل، ثمّ جاء دور الحلويّات وكانت تتألّف من بقلاوة باللّوز والكمثرى المطبوخة بالعنب وعصيدة الكرز والفراولة البرّيّة المحلّاة والمطحونة بالثّلج وأكوام من التّين الأصفر الحلو.

بعد تناول العشاء، قعد الضّيوف فوق مقاعد أُعدّت لهم خارج المبنى، حيث راح آكلو اللّهب يطوفون بثيابهم المزركشة والمتشقلبون ينقلبون إلى الخلف، وبالعو السّيوف يزدردون أشدّها مضاءً. وظهر ثلاثة إخوة: الأوّل هو كمبركاز ويلعب بالأطواق، والثّاني شيشباز ويلعب بالقناني الزّجاجيّة، والثّالث كومباز ويلعب بحياته إذْ يسير على سلك يمتدّ عاليًا. وعندما حان دورهما، تقدّم جَهان وشوتا بثقة مصطنعة، وتمكّنا من تقديم عرضهما من دون حادث لحسن الحظّ، وتمكّن شوتا

Twitter: @ketab_n

من انتزاع وردة من حزام جَهان وقدّمها إلى السّفير الّذي قبلها ضاحكًا ضحكة تنمّ عن سعادته.

ثمّ عاد الثّلاثة بعد ذلك من القصر - المعلِّم والتّلميذ والحيوان، كلّ واحد منهم غارقًا بأفكاره. ثمّة إحساس بالحقيقة المطلقة في الأجواء، فالسّفير راحل، والصّيف يوشك على نهايته والسّلطان سليم لم يتمكّن من الظّهور طوال المساء وراجت إشاعات تفيد بأنّ صحّته آخذة بالتّدهور. وبدا العالم لجَهان مشهدًا، كلّ فرد يقدّم عرضه فيه، كلّ فرد يعرض حيله، البعض يلبث مدّة أطول والبعض مدّة أقصر، لكنّ الكلّ يغادر في نهاية المطاف من الباب الخلفيّ، من دون إحساس بالرّضى، وبرغبة في الاستحواذ على التّصفيق والمديح.

Twitter: @ketab_n

بعد افتتاح مسجد السّليميّة، احتجب السّلطان عن الأنظار بسبب سوداويّة مزاجه وانقباض صدره. وبلغ به الاكتئاب حدًّا أدّى إلى فقدانه الاهتمام بالصّرح العظيم الّذي يحمل اسمه. ووجد جَهان عامّة النّاس الّذين كانوا يصلّون في المسجد يتلذّذون بفنه المعماريّ وأبّهته أكثر من السّلطان الّذي تحمّل نفقاته، ما عدّه أمرًا غريبًا. كانت الأخلاط في بدنه هي سبب تعاسته وشقائه، إذْ كانت السّوداء موجودة بكمّيّات أكبر ممّا ينبغي، لهذا لم يستطع الحيلولة دون شعوره بالغمّ والاكتئاب ليلًا نهارًا. وأجريت له حجامة واستنزف شيء من دمه وأرغم على تناول عشبة الخربق، والتّقيّؤ. غير أنّ الحزن لم يفارقه.

رجع جَهان إلى إسطنبول بصحبة معلّمه وزملائه من التّلاميذ وشوتا. واستقرّ به المقام مع الفيل الأبيض في مأوى الحيوانات، وفي عصر يوم من أيّام شهر كانون الأوّل، زارهم السّلطان وجاء بصوفيّ معه وهو شيخ سليمان أفندي.

كان جَهان وقتذاك في الزّريبة ليتأكّد من وجود طعام الفيل، وفي وقت سابق، كان عدد من المروّضين الأصغر سنًّا قد تسلّموا مسؤوليّة العناية بشوتا، الواحد تلو الآخر، لكنّ جَهان ظلّ يشرف على احتياجات الحيوان حتّى يضمن حصوله على الرّعاية، وهناك وبينما هو يتأكّد من معايير العناية والرّعاية، تناهى إلى سمعه صوت السّلطان والصّوفيّ وهما يشقّان طريقهما وسط حدائق الورود، فصعد إلى مخزن التّبن، وراح يتجسّس عليهما من خلال شقّ في الألواح الخشبيّة. كان وجه سليم الذّاوي تحيط به هالة مرض صفراء، وكان أشعث اللّحية وازداد وزنه،

Twitter: @ketab_n

وتورّمت عيناه. لا بدّ من أنّه استأنف عادته في تعاطي المشروبات. أو أنّه كان منخرطًا في البكاء ما جعل الهلع يؤثّر في نفس جَهان.

جلس السّلطان والصّوفيّ فوق مصطبة حجريّة بالقرب من أقفاص الهررة البرّيّة. ولم يستطع جَهان أن يصدِّق أنّ أمير المؤمنين وخليفة نبيّ سيّد الكون قد اتّخذ مجلسه على ذلك المقعد البارد الوسخ. كانت أصواتهما تشبه خرير ماء النّهر، ولم يتمكّن من سماع معظم ما كان يدور من حديث بينهما، لكنّه سمع بعد قليل عبارة نطق بها السّلطان: هل صحيح أنّ الله يحبّ المطهَّرين؟

علم جَهان أنّ العبارة مأخوذة من سورة التّوبة، وكان السّلطان شغوفًا بها شغفًا دفعه إلى أن تكتب بخطّ الثُلُث على جدار مسجد أمر ببنائه في بلدة قونيّة. وهنا ساور جَهان إحساس طاغٍ بالحزن زاد من جرأته زيادة لم يألفها من قبلُ. لهذا، خرج من مخبئه ليرحِّب بهما.

سأل سليم وهو لا يعرف حتّى اليوم اسم جَهان: كيف حال الحيوان؟

ـ إنّه بخير يا مولاي. هل يودّ سموّكم ركوب فيله؟

قال سليم محوِّلًا انتباهه عنه: في يوم آخر أيّها السّائس.

لا، ليس ثمّة يوم آخر. ففي ذلك الأسبوع نفسه، هوى سليم في الحمّام، فأُصيب برأسه. قيل إنّه كان مخمورًا عندما وافته المنيّة، بينما زعم آخرون أنّه كان صاحيًا لكنّه كان شارد الذّهن لا يعرف إلى أين يتّجه. ابن رجل شديد العناد، حاكم إمبراطوريّة مترامية الأطراف أكثر ممّا ينبغي، وصاحب روح شديدة الدِّقَّة، وحالم بقصائد متناهية الدّقّة، سليم مدمن الخمر، سليم الأشقر، سليم الحزين، ترك هذا العالم وهو في الخمسين من عمره، وحافظت نوربانو على جثّته في الثّلج، وأبقت وفاته سرًّا إلى أن وصل ولدها الأثير على قلبها من الأناضول.

Twitter: @ketab_n

اعتلى السّلطان مراد العرش، وكان أوّل ما فعله هو أنّه أعدم إخوته ودفن والده من بعد ذلك. وعلى الرّغم من أنّه كان يهوى المساجد الفخمة، شأنه شأن بقيّة الحكّام، إلّا أنّه لم يقدّر الأبّهة كما كان يقدرها جدّه سليمان ولم يقدّر الجمال كما كان يقدّره والده سليم. المهمّ لديه الآن هو الاستعمال، الوظيفة على العظمة. الوظيفة على الجمال. ومن هذا اليوم فصاعدًا، لم تعد الأمور كما كانت بالنّسبة لسنان ولا لتّلاميذه الأربعة.

Twitter: @ketab_n

في إحدى اللّيالي، استيقظوا في مأوى الحيوانات على أثر جلبة مزعجة، هي مزيج من صهيل ونهيق وخوار وأنين وشخير. فما كان من جَهان إلّا أن رمى دثاره جانبًا ووثب على قدميه. كان بقيّة المروِّضين يتململون في فراشهم. وكان تاراس السّيبيريّ، الهادئ في كلّ مصيبة، أوّل من خرج بينما فتّش الآخرون عن ثيابهم وأحذيتهم. تحسّس جَهان طريقه في الظّلمة مثل رجل أعمى وخطا نحو الحديقة حيث سطع نور القمر على استحياء. ثمّة شلّال من ضياء منهمر من أعلى، شلّال بكلّ تدرّجات اللّون الأحمر. ولم يتطلّب الأمر منه سوى لحظة كي يدرك ما حدث.

صاح أحدهم: حريق!

راح جَهان يشهد حريقًا هائلًا في قلب القصر. كانت الحدائق والسّرادق والممرّات الهادئة هدوءًا يجعلك تسمع صوت الهواء يداعب شعرك وأنت تخطو إلى أمام، تردّدت الآن صيحات طالبة النّجدة، وتحوّل قانون الصّمت الّذي يرجع إلى أيّام السّلطان سليمان إلى هشيم.

واندلعت النّيران في الجانب الآخر من الجدران الدّاخليّة على امتداد الحافّة الشّرقيّة للفناء الثّاني. كان جَهان يعرف ما يُوجد في ذلك المكان: المطابخ الملكيّة. كانت حجرة حفظ أدوات الأطعمة ومخزن الطّعام والسّقاية والمطبخ تحترق ببطء ومن دون لهب. كان المعلّم وتلاميذه قد فرغوا قبل وقت قصير من ترميم هذه المباني، وها هي الآن تحترق. واندفعت ألسنة النّيران غربًا اندفاعًا بطيئًا، لكنّه متواصل لتحرق بذلك بيت الطّيور. وتساءل جَهان ما إذا كان أحد ما قد أطلق سراح

Twitter: @ketab_n

الطّيور، وأصابته في الصّميم فكرة مئات الأزواج من الأجنحة وهي تخفق بذعر غير قادرة على التّحليق.

كان الفناء الأوّل الّذي يقفون فيه الآن سالمًا لم تمسسه النّيران، غير أنّ الرّيح كانت قويّة ومتقلّبة، تهبّ في اتّجاههم حاملة معها رمادًا كثيفًا رماديًّا مثل فراشات نافقة. ووخز الدّخان عيونهم وملأ رئاتهم. وراحت القردة الّتي استبدّ بها رعب وهلع يفوق أدمغتها، فكشفت عن أسنانها وشخصت عيونها، تضرب على القضبان الحديد، واضطرّ المروِّضون إلى نقل مأوى الحيوانات إلى موقع آمن.

لكنّ عملية النّقل ليست بالأمر الهيّن، فالحيوانات قادرة على الإتيان بأغرب التّصرّفات إذا ما أصبحت تحت ضغط أو إكراه. فالحدائق الملكيّة هي مأواها وإن لم تكن موطنها الأصليّ. وليس في مقدور أحد أن يحدّد ردّ فعلها إذا ما أرغمت على الخروج من أقفاصها ودخول الأقفاص الخشبيّة.

ولمّا كان المروِّضون لا يملكون سوى بضع عربات تحت تصرّفهم، ما كانوا يستطيعون نقلها إلّا على دفعات صغيرة، فيضعون كلّ مجموعة في مكان. كانوا غير مستعدّين، ومحتارين، لهذا أخذوا يتجادلون في ما بينهم عمّا ينبغي أن يفعلوه. وأراد سائسو الخيول من الشّراكسة أن ينتظروا إلى أن يتلقّوا أوامر من رئيس الخصيان الأبيض. وكانت موجة أخرى من الدّخان وبقايا الجمر المنطفئ الهابّة ناحيتهم كافية لإسكاتهم. ليس ثمّة وقت يضيِّعونه.

في البدء، راحوا ينقلون القردة، ليس لأنّها أكثر أهمّيّة، بل لأنّ ما من أحد يستطيع تحمّل صخبها وضجيجها، ثمّ أخرج جَهان شوتا من الزّريبة، فلم يسبّب له أيّة متاعب نظرًا إلى حكمته. وإذا كانت ثمّة صفة يتّصف بها، فإنّه كان معينًا، ذا فائدة ومطيعًا، ولم يعترض على جرّ العربة الّتي كانت تحمل القرود والغوريلّات الّتي كانت غالبيّتها تصرخ

Twitter: @ketab_n

وتثب إلى أعلى وإلى أسفل، مترنّحة مثل سكارى لا يمكن السّيطرة عليهم.

وسُمح للحيوانات الّتي تستطيع السّير بالخروج مثل الجياد والإبل والحمر الوحشيّة والزّرافات والغزلان والأيائل. وكان المروّضون حريصون جدًّا في اتّخاذ الحيطة والحذر خشية أن تثير الحيوانات أيّة ضوضاء مفاجئة فتؤدّي إلى سقوطها تحت الأقدام. فربطوا الحيوانات أحدها بالآخر، من رقابها، فصار عندهم صفٌّ طويل من حيوانات غير متجانسة. وعلى الرّغم من عنايتهم الشّديدة، إلّا أنّ الحيوانات الّتي وجدت نفسها بعد لحظات خارج جدران القصر اندفعت الحمر الوحشيّة أسفل التّلال تجرّ وراءها بقيّة الحيوانات. فلحق بها المروّضون مثل الشّياطين وتمكّنوا بعد أن تصبّبوا عرقًا وعلق بهم الغبار واستنزلوا اللّعنات من كبح الحمر الوحشيّة قبل أن تتسبّب بانقلاب القطيع برمّته الواحد فوق الآخر.

وتمكّن المروّضون من تحميل العربات بالحيوانات الملكيّة مستخدمين بذلك العصيّ والشّباك والطّعام والتّهديد. وانطلقت الأفاعي والحرباوات والنّعام والسّلاحف والرّاكون وبنات عرس والطّواويس واللّاما مذعورة، ثمّ جاء دور الثّعالب والظّباء والفهود والقطط الوحشيّة، حيث نُقلت خارج بوّابة القصر نزولًا إلى فتحة قرب رصيف الميناء، إذ كان المروِّضون يجهلون إلى أيّ مدى يمكن للحرائق أن تصل.

عكف الفيل وسائسه على القيام بأكثر من جولة، أحضرا فيها الطّعام والماء للحيوانات. ولمّا فرغا من ذلك، وضع جَهان سلّة تحتوي على أوراق شجر أمام شوتا تاركًا إيّاه تحت رعاية التّوأمين الصّينيّين وطفق راجعًا إلى مأوى الحيوانات لإلقاء نظرة أخيرة، وسبب ذلك عادة قديمة متأصّلة فيه.

صحيح أنّه توقّف عنِ السّرقة منذ أن توارى القبطان غاريث عن

Twitter: @ketab_n

الأنظار، إلّا أنّه، كأيّ لصّ آخر، يعلم أن الحريق فرصة لا يمكن أن تفوَّت لتحقيق ثروات غير متوقّعة. لكن ليس هذا هو السّبب الوحيد لعودته. كان يفكّر في مهرماه. فبعد مرور مدّة طويلة على وفاة أخيها سليم، لم تأتِ لزيارة القصر. أمّا في هذه اللّيلة، فهي في جناح الحريم. وفكّر جَهان في أنّها كانت خائفة. وفكّر في مربّيتها الّتي لا بدّ من أنّها تعاني معاناة شديدة في تنفّسها وهي المصابة بداء الرّبو، كان يعلم أنّ ساعتين تكفيان لوصول الحريق إلى حجرتهما. لهذا، أراد أن يتأكّد أنهما في صحّة وسلامة.

كان حرّاس البوّابة في شغل شاغل، فلم يعيروه أيّ انتباه، في وقت أخذت الحرائق المضطرمة تقترب أكثر فأكثر، متجاوزة الجدران ومقتربة من حدائق الورود، تتطاير جمراتها رذاذًا ذهبيًّا. وعندما وصل إلى مأوى القطط الوحشيّة، تملّكه العجب عندما رأى الأسود لا تزال حبيسة ـ كانت لبوءتين وذكرًا واحدًا. كانت هذه الحيوانات الجبّارة قلقة ومتوتّرة، تذرع المكان جيئة وذهابًا تزأر في وجه شيء بعيد كأنّها تواجه عدوًّا لا يستطيع أحد غيرها ملاحظته.

كان أوليف يقف خارج القفص، مفعمًا بالحيويّة والنّشاط كعادته، فصاح: هه! أيّها الهنديّ! لماذا رجعت؟

ـ جئت لأتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام. أتريد مساعدة؟

ـ الأنثيان خائفتان والفحل لا يريد الخروج، لهذا ينبغي لي جرّها جرًّا، فأنا لا أريد أن تحترق هذه المخلوقات المسكينة، وتصبح مقرمشة.

ابتسم أوليف لنكتته وفتح باب الحديد ودخل القفص من دون سلاح يحميه. راقبه جَهان وهو يقترب من إحدى الأنثيين ويكلّمها بنبرة هادئة وثابتة، فظلّت ساكنة لا تؤتي بأيّ حركة، عينها ثابتة على المروّض

Twitter: @ketab_n

وعلى كلّ حركة من حركاته. ووضع أوليف بحيطة وحذر أنشوطة من حول رقبتها وراح يسحبها إلى الخارج، وقادها إلى لوح خشبيّ، ثمّ إلى قفص خشبيّ موضوع على عربة. انتقل إلى اللّبوءة الثّانية ونقلها بالأسلوب نفسه. وبينما هي تخرج، حدّق الأسد من ركنه، كأنّ عينيه شظيّتان صغيرتان من حجر الكوارتز الأسود.

شعر جَهان بحرارة شديدة في مؤخّرة عنقه، وراح التوجُّس يزحف إليه. كان الفجر قد بدأ يبزغ في الأفق. ثمّة شيء ما على وجه أوليف لم يكن موجودًا سابقًا. ارتعاش منخريه الطّفيف، والتواء فمه. اثنان في القفص ـ المروِّض والأسد. كان أوليف يحمل حبلًا بيده، يعرج قلقًا كأنّه لا يعرف ما يفعل به. وتنبّه له جَهان وهو يتردّد للمرّة الأولى، فزأر الأسد زئيرًا ضعيفًا كأنّه يتردّد بين خيارين متناقضين. تسارعت دقّات قلب جَهان، فأمسك بهراوة ووضع إحدى قدميه داخل القفص. صاح به أوليف: ارجع إلى الوراء! ابتعد!

أخذ جَهان نفسًا وتراجع من مكانه.

ـ أغلق الباب!

امتثل جَهان للأمر، وشعر بالخدر وعجز عن التّفكير تفكيرًا مناسبًا. وانحلّت عقدة شعر أوليف الحمراء بلون اللّهب والمعقوصة مثل ذيل حصان وغطت ياقته. مسح عرقه المتصبّب على حاجبه وانشغل ذهنه. في تلك اللّحظة، التفت إليه الأسد وزأر مرّة أخرى كأنّه لم يتنبّه إلى وجوده داخل القفص إلّا الآن، كأنّه ليس بذلك الرّجل الّذي رعاه واعتنى به على مدى سنوات، مقدِّمًا له الطّعام كلّ يوم قبل أن يطعم نفسه. رفع الأسد كفّه وأنشب مخالبه ووثب على الرّجل.

سقط أوليف أرضًا، ولم تبدُ على وجهه أيّ علامة من علامات الألم، لكنّه كان مندهشًا مبهوتًا. نظرته هي نظرة الأب الّذي خيّب ابنه

Twitter: @ketab_n

أملَه. أمّا خارج القفص، فقد اندفع جَهان مثل مجنون ملوّحًا بذراعيه وهو يصيح. كانت الهراوة لا تزال في يده، فضرب بها القضبان الحديد آملًا بذلك أن يشتّت انتباه الأسد. فنجح، إذْ تراجع الأسد إلى الخلف، ثمّ تقدّم ناحية جَهان.

في هذه الأثناء، وقف أوليف مترنّحًا، وبدلًا من أن يسير باتّجاه الباب، اقترب من الأسد وناداه. وحدث كلّ شيء بسرعة كبيرة، وراقب جَهان الحدث أمام عينيه كأنّه يحلم. فبعد أن حوّل الأسد أنظاره عن جَهان، استدار ووثب على مروِّضه وأطبق فكّيه على رقبة أوليف.

صرخ جَهان، فكان صوته غريبًا، وهشّم الهراوة وركل القضبان وصاح بالأسد. وعندما رأى هراوة على مقربة منه، رجع مسرعًا إلى الوراء ناسيًا أن يتضرّع من هول ما رأى، ودخل القفص، فشاهد بركة من الدّماء حيث كان أوليف يستلقي. كان الأسد قد عاد إلى ركنه بعد أن فقد اهتمامه به. أمّا جَهان، فلم يحرّك عينيه عن الأسد وإن كان لا يدري ما سيفعل إذا وثب عليه، وسحب الرّجل الجريح سحبًا بطيئًا وأخرجه من القفص. كانت عينا أوليف مفتوحتين تومضان، والدّماء تنزف من رقبته. كان عنقه قد تمزّق شرّ تمزيق وقطع وريده. وما إن جذبه خارجًا حتّى أغلق باب القفص، ولم يعر للأسد أيّ أهمّيّة إذا وصلته النّيران. أراده أن يحترق.

دُفن أوليف في مقبرة غير بعيدة عن السّراي، وبقي الأسد على قيد الحياة خلاف رغبة جَهان. وكما اتّضح بعد ذلك، فإنّ النّيران لم تصل إلى مأوى الحيوانات، وهكذا ذهبت كلّ جهودهم سدًى.

أمّا المطابخ الملكيّة، فتحوّلت إلى هشيم، شأنها شأن قسم من جناح الحريم والمراحيض. وتعيّن على سنان وتلاميذه أن يعيدوا بناء كلّ شيء مجدّدًا.

Twitter: @ketab_n

بعد تشييع جنازة أوليف ـ الّتي لم يحضرها سوى مروّضي الحيوانات والخدم ـ خطر خاطر ببال جَهان. فقد خالجه شعور مفاده بأنّه شاهد موتهم جميعًا في موت أوليف. فثارت ثائرته في أعماقه ليس على الأسد الّذي قتل صديقًا، بل على الكلّ: على نفسه لأنّه ترك أوليف وحده في ذلك القفص ولم يفعل شيئًا إلّا بعد فوات الأوان؛ وعلى السّلطان الجديد الّذي لا يمنح خدّامه الّذين يموتون أثناء خدمتهم له شروى نقير، وعلى المعلّم سنان الّذي واصل تشييد المباني واحدًا تلو الآخر من دون أن تهزّه أيّ مصيبة؛ وعلى الله لتركهم يرتكبون الهفوات ويتحمّلون العذاب والمعاناة ومع هذا يتوقّع منهم أن يصلّوا له امتنانًا. نعم، العالم جميل ـ جمال يثيره ويزعجه. ما الفرق إن كانوا سعداء أو حزانى، على خطإ أو على صواب، إذا كانت الشّمس تشرق والقمر يغيب، بوجودهما أو من دونهما؟ المخلوق الوحيد الّذي لم يشعر تجاهه باستياء كان شوتا، لهذا راح ينفق أطول وقت ممكن بجانبه، هدوؤه مُسكِّنٌ له.

لم يكن الغضب كلّ شيء، إذْ رافقه شيء ما غيره، طموح لم يعرفه من قبل. ثمّة جانب فيه يتمنّى أن يتحدّى ليس المعلّم وحده الّذي جعل منه تلميذًا فحسب، بل السّلطان أيضًا لأنّه جعله مروّضًا وسائسًا له، والله الّذي جعله ضعيفًا، وكذلك مهرماه الّتي جعلته يتعذّب عذابًا صامتًا طوال تلك السّنين. لقد جدّ واجتهد في عمله، لكنّه لم يتكلّم إلّا قليلًا. هكذا، كانت حالته ومزاجه عندما جاء سنان والتّلاميذ الثّلاثة إلى القصر مجدّدًا لإصلاح ما حلّ به من أضرار.

Twitter: @ketab_n

قال سنان: سوف نضيف حمّامات جديدة وسرادقات قرب الشّاطئ، ولا بدّ من ترميم جناح الحريم والمراحيض. وسوف نعمل على توسعتها من جديد. وينبغي أن يلائم كلّ ما نشيِّده روح المبنى.

توقّف سنان عن الكلام برهة، وأضاف: أريدكم أن تضعوا خريطة، وكلّ من يقدّم لي أفضل خريطة سيكون مساعدي الأوّل.

ألمّت الدّهشة بجَهان وهو يسمع هذا الكلام. فقد كان سنان يعاملهم حتّى هذا اليوم على قدم المساواة، حتّى وإن كانوا يعلمون أنّهم غير متساوين. والآن، يدفعهم معلِّمهم إلى أن ينافس أحدهم الآخر. وعلم جَهان أنّ من شأن هذا القرار أن يثير الحماسة فيه، غير أنّ قلبه لم يطاوعه على ذلك. وعلى الرّغم من هذا، فإنّه لا يزال يعمل، وإن ليس بمعيّة بقيّة التّلاميذ في أفياء الحدائق. ذهب إلى الزّريبة وجلس بجانب شوتا وأكمل تخطيطاته هناك.

بعد مرور بضعة أيّام، أراد سنان أن يكلّمه، على عجل. ورأى جَهان أنّ معلِّمه كان وضع التّصاميم جنبًا إلى جنب، لأربعتهم.

قال: تعالَ، فأنا أريدك أن تلقي نظرة على هذه، وأخبرني ما ترى.

نظر جَهان مليًّا إلى الرّقوق الثّلاثة لا يدري لمن يعود كلّ واحد منها، وقارن كلّ تصميم بتصميمه، وبدا أنّه هو الوحيد الّذي اقترح هدم الحمّامات وبناء أخرى جديدة في مؤخّر جناح الحريم. وعلى الرّغم من أنّ مهرماه لم تعد تسكن في ذلك الجناح، إلّا أنّه وضع تصميمه آخذًا في الاعتبار راحتها. وبينما هو يدرس التّصاميم، راح يستدلّ على ضربات داؤود ودقّة نيقولا وانسيابيّة يد يوسف.

Twitter: @ketab_n

سأل سنان: ما رأيك؟

أوضح جَهان، قلقًا، الجوانب الإيجابيّة في كلّ رسم. فقال سنان: أعرف أين نقاط قوّتهم، لكن أخبرني عن نقاط ضعفهم.

قال جَهان: لقد أنجز هذا التّصميم على عجل.

ثمّ أوضح أن التّصميم الثّاني أنجز ليكون تقليدًا لتصميم المعلّم، وأنّ المشاركة فيه توضّح أنّه يفتقر إلى الصّميميّة.

سأل سنان وهو يظهر لجَهان تصميمه: ما رأيك بهذا؟ يروقني أنّه يهتمّ بالحريم وأنّه يسهّل عليهنّ كلّ شيء.

شعر جَهان بتوقّد وجهه.

ـ لكنّ التّصميم لا يأخذ بالحسبان الأماكن المحيطة، وهو يفتقر إلى الانسجام بين الإضافات الجديدة والبناء القديم.

ومضت عينا سنان، فأخرج التّصميم الأخير.

ـ وما رأيك بهذا؟

ـ إنّه تصميم متوازن يدلّ على التّأنّي، ويحترم البناء ويوسّعه توسعة مناسبة.

ـ هذا صحيح. ما أريد أن أعرفه هو السّبب في عدم اهتمام تصميمك، وهو الأفضل، بالقصر.

غشيت وجه جَهان غمامة.

ـ لا أستطيع أن أفصح عن ذلك أيّها المعلِّم.

ـ إنّ تصميمك هو الأفضل، ولكن تشوبه شائبة واحدة. فنحن لا نشيِّد المباني الّتي تطفو في فضاء خاوٍ، بل نعكس انسجام الطّبيعة وروح المكان.

وهكذا أصبح التّلميذ الصّامت المساعد الأوّل، واحمرّ وجه يوسف، وافترّ ثغره عن ابتسامة خجول وحدّق إلى الأرض كأنّه يريد أن

Twitter: @ketab_n

يختفي في ثناياها. أمّا جَهان، فقد تعلّم شيئًا ما عن نفسه، وهو أنّه وصل إلى مرحلة في مهنته لا يمكنه فيها إلّا تطوير موهبته أو تدميرها. إنّ داؤود ويوسف ونيقولا ليسوا غرماءه، بل إنّ أكثر الغرماء مدعاة للخوف هو نفسه ولا أحد غيره.

أنفقوا فصل الصّيف وهم يعملون على توسعة القصر وترميم المنطقة الّتي ألحقت بها الحرائق دمارًا كبيرًا. ولمّا كانوا قد اعتادوا العمل الشّاقّ في كلّ المواقع، بدا لهم هذا الموقع مختلفًا وهادئًا على نحو غريب. بداية، ليس ثمّة حديث تافه بين العمّال، ولا نكات أو تهكّم أثناء نقلهم الألواح الخشبيّة ورفع البكرات أو تناول الشّوربا. وعندما كانوا يثبّتون عمودًا من المرمر، فيجذبه عشرات الرّجال دفعة واحدة، فتجرح الحبال أيديهم، لم تكن تند عنهم صيحات: الله، الله. كما لم يعبّر رئيس العمّال بكلمة شكر أو تقدير لمن ينجز عملًا جيّدًا، عازمًا على حثّ كلّ فرد منهم على المثابرة في العمل أكثر ممّا يستحسن عملهم. وكانت أصوات المدقّات الخشبيّة والمناشير والفؤوس لا تصمّ الآذان كما هو المعتاد، إذْ شاع صمت مربك على كلّ شيء، تاركًا إيّاهم بحيرة وذهول، كأنّهم استيقظوا من نومهم قبل قليل. هذا هو تأثير العمل على مقربة من السّلطان مراد.

في غضون تلك الأشهر، التقى جَهان خدمًا لم يسبق له أن صادفهم، وعرف بوجود ردهات لم يسمع بها من قبلُ. كان القصر متاهة من حجرات داخل حجرات، وممرّات دائريّة، مثل أفعى تبلع ذيلها. وكان المكان منعزلًا بما يكفي لأن يحب المرء ظلّه، ومزدحمًا بما يكفي لأن تشهق سعيًا وراء نسمة هواء. وكان عدد النّاس تحت سقفه أكبر من عددهم أيّام السّلطان سليمان، فثمّة عدد أكبر من النّساء في جناح الحريم، وعدد أكبر من الحرّاس أمام البوّابة، وعدد أكبر من الصّبيان

Twitter: @ketab_n

الّذين يقدِّمون أطباق طعام أكثر عددًا من ذي قبل. وظلّ القصر يستوعب أعدادًا أكبر شأنه شأن سمكة لا تعرف أنّها شبعت.

ما إن أكمل التّلاميذ إعادة بناء المطابخ حتّى بدأوا بناء الملحقات للجزء الخارجيّ من جناح الحريم. وتوارت عن الأنظار السّراري ولجأن إلى الممرّات الدّاخليّة. وراود الأمل جَهان في أن يشاهد شيئًا ما يعود إلى مهرماه، إن لم تكن مهرماه نفسها، مثل منديل يحمل الأحرف الأولى من اسمها، أو خفّ مخمليّ أو مشط عاجيّ، بيد أنّه لم يعثر على أيّ شيء من هذه المقتنيات. وبعد مرور بضعة أيّام، أرسلت إليه مهرماه رسالة مفادها أنّها ستنتقل هي ومربّيتها إلى منزلها موضّحة: «سوف نمرّ بالبوّابة الأولى عند انتصاف النّهار».

جلس جَهان فوق أحد الأغصان العالية لشجرة تفّاح وراح ينتظر، منتشيًا ووجلًا في آن. كانت الحرارة الباعثة على النّوم تتوهّج من خلال الثّمار الطّازجة الّتي لم يكن أحد يملك الجرأة على قطفها لأنّها ملك السّلطان الّذي لا يملك وقتًا لمثل هذه الأمور التّافهة. وجفل جَهان لمّا طرق سمعه صوت قعقعة من بعيد ولاحت من بعده مركبة تسير سيرًا وئيدًا. وخيّل لجَهان أنّه توقّف وحده وأنّ العالم يواصل سيره. كلّ شيء مألوف على نحو غريب. كانت دقّات قلبه غير مسموعة في خضمّ هذا العالم المترامي الأطراف. إنّه راصد، لا أكثر. وصدر من الأوراق حفيف، وتقدّمت البزّاقات الرّخويّة، وخفق جناحا حشرة في النّسيم. شعر جَهان بكلّ التّفاصيل وبأنّه لن يحظى بمثل هذه اللّحظة مجدّدًا. بات الزّمان نهرًا، فوقف بجانب ضفّة معشوشبة وحدّق إلى الماء ينساب من أمامه، وحيدًا وموحشًا وكئيبًا. توقّفت العربة، وامتدّت يد رقيقة رقّة طائر خارج النّافذة وجذبت السّتارة جانبًا. رفعت مهرماه بصرها إلى أعلى حيث كان جَهان يتربّع، ولانت ملامح وجهها عندما شاهدت نظرات الولع والشّغف تنبعث من عينيه. كما رأت مرّة أخرى أنّ شيئًا ما

Twitter: @ketab_n

لم يتغيّر بينهما على الرّغم من عقود الزّمان الّتي مضت والمسافات الفاصلة بينهما والغضون والشّعر الرّماديّ. رنا إليها جَهان مطوّلًا، من دون أن يحوّل نظره أو يحني رأسه، وحدّق في عينيها مباشرة. افترّ ثغرها عن ابتسامة رقيقة، فاحمرّ وجهها قليلًا. جذبت منديلًا من تحت صدرها وشمّت رائحته، ورفعت بصرها ثمّ رمت به إليه حتّى يهبط من مكانه ويأخذه بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

كان عصر ذلك اليوم من شهر رمضان قائظًا، وكان الصّيام قد أدى إلى تباطؤ سرعتهم في البناء. ولم يكن جَهان مهتمًّا بالجوع، لكنّ العطش كان يقتله. وكان يشعر بفمه جافًّا كالغبار في صباح كلّ يوم يأتي فيه إلى موقع العمل بغض النّظر عن عدد أقداح الماء الّتي يتناولها في وقت السّحور. وكان بعد مرور بضع ساعات، يفقد قدرته على العمل، فيتّجه إلى الجانب الخلفيّ من المطابخ حيث توجد نافورة مياه، فيتمضمض حتّى يتخلّص من مذاق الصّدإ. أمّا إذا بلع بضع قطرات من الماء في الوقت نفسه، فلا بأس. الغشّ على هذا النّحو إثم، لكنّه على الرّغم من ذلك كان يأمل بعدم معارضة الله إذا ما استهلك بضع قطرات صغيرة من مائه الّذي لا نهاية له.

لاحظ جَهان أثناء طريقه إلى النّافورة شخصًا أمامه، متسترًا وعلى عجلةٍ من أمره، ليتوارى بعد ذلك وسط الأحراش. واستدلّ على التّلميذ الصّامت وراح يتعقّب خطواته، وقرّر أنّ الوقت قد أزف ليكلّمه إن كان هو الخائن.

اتّجه يوسف مباشرة إلى البركة، حيث كان شوتا ينعش نفسه بمياهها من حين إلى حين، وجلس هناك، يتعذّر على المرء قراءة قسمات وجهه. في البدء، ظنّ جَهان أنّ يوسف جاء أيضًا إلى هذا المكان ليروي ظمأه، لكنّ كلّ ما بدا عليه هو أنّه ظلّ يحدّق في انعكاس هيئته في الماء، حزينًا، مغلوبًا على أمره، كأنّه افترق قبل قليل عن شخص يحبّه حبًّا جمًّا. راقبه جَهان برهة، فوجده على درجة بالغة من الهدوء وانصراف الذّهن حتّى يخيّل للنّاظر إليه إنّه مخلوق آخر غريب لا

Twitter: @ketab_n

حياة فيه، في مجموعة رئيس الخصيان الأبيض، باستثناء حركة يديه والنّظرة الّتي كان يرنو بها من حين إلى آخر باتّجاه موقع البناء.

ثمّ خلع قفّازه كأنّه في حلم. كانت يداه رقيقتين، شديدتي البياض، لا أثر فيهما لأيّ حروق. وتساءل جَهان عن السّبب الّذي أدّى به إلى أن يكذب. لكنّ الحدث التّالي كان محيّرًا ومذهلًا. فقد راح يوسف يغنّي أغنية، صوته الّذي لم يسمعه أحدٌ من قبل، رخيم ويتّصف بإيقاع خاصّ به. حبس جَهان أنفاسه، وهو يدرك أنّه تعثّر بشيء ما فيه لبس وإبهام، شيء لا يعرف ما يفعل به، وراح يتفرّس في التّلميذ الّذي ظنّه طوال هذا الوقت أبكم.

لزم يوسف الصّمت من جديد. وتلاشت اللّحظة، إذْ حاول جَهان أن يعود أدراجه سرًّا، لكنّه وطأ بسبب عجالته غُصينًا، وسرعان ما جفل يوسف والتفت إليه، ورآه، فتجهّم وجهه واعتلته كآبة وبوّز شفته مثل طفل صغير، وبلغ به الذّعر حدًّا كاد يدفع بجَهان إلى أن يمضي إليه ليطمئنه بألّا يقلق، وأنّه لن يفشي سرّه، لكنّه بدلًا من ذلك، عاد إلى عمله محاولًا أن ينسى كلّ ما رأى. بيد أنّه لم يستطع أن يمنع نفسه من اختلاس النّظر إلى يوسف الّذي ظلّ مطأطئًا الرّأس، عيناه تشخصان إلى الأرض.

سمح جَهان لنفسه في مساء ذلك اليوم بأن يفكّر بالسّرّ بعد أن تناول عشاءه. الوجه الطّويل الأملس والرّموش المقوّسة وطريقة جلوسه على استحياء واضعًا يديه في قفّاز فوق حضنه. بدأ كلّ شيء يتّضح. في اليوم التّالي، وجد يوسف يرسم، مطليًّا بالسّخام والمساحيق. وعندما رأى جَهان، اكفهرّ وجهه وتخشّب ظهره.

قال جَهان: أريد أن أكلّمك. هيّا معي أرجوك.

اقتفى يوسف أثره، فسارا صامتين إلى أن عثرا على بقعة تظلّلها

Twitter: @ketab_n

إحدى الأشجار، فجلسا على الأرض متصالبي السّيقان.

تنحنح جَهان، وقال: كنت دائمًا موضع حسدي، فأنت موهوب. وليس في الأمر ما يبعث على العجب عندما اختارك المعلِّم رئيسًا على التّلاميذ.

انصرف اهتمامهما عند مرور حمّال يحمل سلّة على ظهره مملوءة بالحجارة. وما إن تلاشى وقع خطواته حتّى استرسل جَهان بكلامه.

ـ لكنّ سلوكك غريب... فقد ظننت أنّ لك دورًا في الحوادث المؤسفة.

تجعّد وجه يوسف بدهشة.

ـ الآن أفهم أنّ ثمّة سببًا يكمن في مبالغتك بالكتمان والتّحفّظ. أنت لست أبكم، وكنت تكتم صوتك لأنّك... لأنّك امرأة.

وقعت عيناه ـ عيناها ـ في قبضة عيني جَهان، واتّسعتا واستبدّ بهما الذّعر والهلع كأنّ جَهانًا شبح من الأشباح. وتحرّكت شفتاها، من دون أن يصدر عنهما أيّ صوت في بادئ الأمر، صوت لم يُستعمل من قبل منذ زمن طويل، فجاء متلعثمًا مثل فرخ يتعلّم الطيران: هل في نيّتك أن تخبر أحدًا؟

ـ حسنًا، أنا لا أحاول...

قاطعته مرتعشة اليدين: إذا أخبرت أحدًا، فستكون نهايتي.

رمقها جَهان بنظرة يملأها الهلع، وأومأ ببطء: أعدك.

❁ ❁

بعد أن اكتشف جَهان سرّ التّلميذ الصّامت، استبدّ به الفضول لمعرفتها ولمعرفة سنان أيضًا. ازداد ثقة بأنّ معلّمه كان يعرف بأمرها. زد على هذا، راوده شكّ في أنّ كلّ ذلك من بنات أفكاره، فقد أراد سنان منها أن تعمل برفقتهم، وسمح لها بذلك وشجّعها عليه، امرأة

Twitter: @ketab_n

وسط مئات العمّال من الرّجال، سنة تلو الأخرى، مبنًى تلو الآخر. ولبث الأسبوع كلّه يفكّر في هذه المعضلة. وفي نهاية الأمر، قرّر أن يذهب لمقابلته.

قال سنان منفرج الأسارير: أيّها التّلميذ الهنديّ، أعرف أنّ لديك شيئًا تريد أن تخبرني به.

ـ لو سمحت، فإنّني أودّ أن أعرف كيف تختار تلاميذك.

ـ إنّني أختارهم من بين الماهرين.

ـ ثمّة عدد كبير منهم في مدرسة القصر، وبإمكانهم أن يصمّموا الخرائط تصميمًا أفضل.

قال سنان: قد يكون بعضهم كذلك...

ثمّ توقّف ولم يكمل عبارته.

ـ كنت أظنّ أنّنا أفضل التّلاميذ الّذين صادفتهم. يا لغروري الباطل! إنّني أفهم الآن أنّنا نملك موهبة لكنّنا لسنا الأفضل. فأنت لا تختار الأفضل. أنت تختار الجيّدين ولكن... وهنا توقّف عن المضيّ في الكلام، وراح يبحث عن الكلمة المناسبة.

ـ الضّائعين... المهشّمين... المنسيّين.

مرّت لحظة قبل أن يتفوّه سنان: أنت على حقّ. إنّني أختار تلاميذي بحرص، أختار الّذين لديهم ملكة واستعداد طبيعيّ، ولكن ليس لديهم مكان آخر يمضون إليه.

ـ لماذا؟

تنفّس جَهان تنفّسًا بطيئًا، وقال: أنت كنت بحّارًا، في البحر الواسع.

أومأ جَهان برأسه وإن لم يكن سنان يوجّه إليه سؤالًا.

ـ هل سبق لك أن شاهدت سلاحف بحريّة يجرفها التّيّار إلى

Twitter: @ketab_n

اليابسة؟ إنّها تستمرّ في سيرها، بكلّ ما أوتيت من قوّة، لكنّ الطّريق ليس هو الصّحيح. وهي محتاجة إلى من يعينها حتّى تعود إلى الوراء، إلى البحر، إلى حيث تنتمي.

جذب سنان لحيته الّتي ابيضّت بياضًا شديدًا في الأشهر الماضية.

ـ عندما رأيتك، ظننتك تحمل رأسًا كبيرًا على كتفيك، وأنّك سوف تتعلّم بسرعة شريطة أن أتمكّن من أن أبعدك عن عادات سيّئة وعن الماضي وأن أوجّهك إلى المستقبل.

بينما كان جَهان يصغي إلى معلِّمه، عثر على الكلمة الّتي كان يبحث عنها: المنكسرون. بدأ يفهم ما كان يفعله سنان، وما كان يفعله طوال ذلك الوقت. جَهان وداؤود ونيقولا ويوسف، فهم أربعة مختلفون الاختلاف كلّه، لكنّهم منكسرون انكسارًا متشابهًا. إنّ المعلِّم سنانًا لم يكن يعلّمهم فحسب، بل كان أيضًا يعمل على إصلاح كسرهم برقّة وبثبات أيضًا.

Twitter: @ketab_n

وفي جَهان بوعده، ولم يشاطر أحدًا بسرّ يوسف، ولا حتّى شوتا، إذْ ساوره الاعتقاد بأنّ ذلك السّرّ سوف ينتقل من الحيوان إلى الهودج ومن الهودج إلى النّاس الّذين يحملهم. رويدًا رويدًا، «أخبرته» يوسف أثناء الاستراحات بقصّتها ـ أو ما تبقّى منها ـ وباسمها القديم سانتشا.

ثمّة منزل أبيض كالحليب، مترامي الأطراف، تغطّيه نبتة الوستاريا المتسلّقة في بلدة تدعى سالامانكا. وقالت إنّ أبيها كان طبيبًا ذائع الصّيت، رقيقًا في معالجة مرضاه، وصارمًا في معاملة زوجته وأولاده، ولم يكن يتمنّى ما هو أكثر من رؤيته أبناءه الثلاثّة يواصلون مسيرة مهنته النّبيلة. وأصرَّ أيضًا على ضرورة أن تتلقّى ابنته علمها أيضًا. لذلك، فإنّ كلّ معلِّم مختصّ يأتي إلى المنزل، إنّما كان يعلّم الأطفال الأربعة. وفي الصّيف الّذي بلغت فيه سن الثّامنة، داهم الطّاعون المدينة من بوّاباتها، وقضى الموت على الأولاد واحدًا تلو الآخر، ولم تنجُ سوى سانتشا مثقلة بذنب بقائها على قيد الحياة، في حين رحل أولئك الّذين كانوا يحظون بحبّ أكبر. ولاذت أمّها الّتي أفقدها الحزن حسّها وشعورها بأحد الأديرة في مدينة بلد الوليد[1]. ولم يبقَ سوى سانتشا وأبيها، فأخذت على عاتقها مهمّة الرّعاية به على الرّغم من وضوح ازدرائه لها. ولكن على الرّغم من ذلك، تمكّن من تعليمها شيئًا فشيئًا، غير أنّه لم يعلّمها الطّبّ لأنّه كان يعتقد أنّ النّساء لا يقدرن بطبيعتهنّ على ممارسة

(١) بلد الوليد Valladolid: مدينة تقع في وسط شمال إسبانيا، شمال غربي مدريد، بمقاطعة قشتالة، ازدهرت في الأندلس، وتشتهر بسوقها الزراعيّة وصناعة السّيّارات والألومنيوم (المترجم).

Twitter: @ketab_n

هذه المهنة، بل علّمها غير ذلك من حقول المعرفة كالرّياضيات والجبر والفلسفة، وعلّمها كلّ شيء كان يعرفه. ولمّا كانت تلميذة مجتهدة، فقد راحت تتعلّم بسرعة وإن لم يكن تعلّمها بسبب تعطّشها للعلوم والمعارف بقدر ما كان بسبب أمل راودها في أن تحظى بحبّ أبيها. وفي الوقت المناسب، أصبح لها أساتذة أفضل وكان من بينهم معمار، عجوز وفي حالة إملاق، فأمضى وقتًا طويلًا، يعلّمها وحاول أثناء الدّروس أن يختلس القبلات منها.

كان لوالدها أصدقاء مثله، رجال يحبّون الحكمة وتجاذب أطراف الحديث، وكانوا من طائفة الكاثوليك، ومن بينهم شخص عربيّ. ولكن، على الرّغم من ذلك، كانت ثمّة مخاوف وشكوك كثيرة. فالمهرطقون كانوا يحرقون على الأوتدة، وكانت رائحة أجسادهم المحترقة تلوّث الهواء. أعلن والدها الّذي راحت صحّته تتدهور أنّها سوف تتزوّج بعد عام من أحد الأقرباء الأبعدين، وهو تاجر ثريّ لم يسبق لها أن التقته، لكنّها بدأت تكرهه منذ الآن. وحاولت باكية متوسّلة أن تقنع والدها بألّا يرسلها إليه، لكن بلا جدوى.

وشاء القدر أن تتعرّض السّفينة الّتي استقلّتها للقاء خطيبها، لهجوم القراصنة. وبعد معاناة استمرّت بضعة أسابيع، ولا تريد أن تتذكّرها، وجدت نفسها مستعبدة في إسطنبول. فبيعت إلى عازف موسيقيّ من عازفي البلاط، شاء القدر أن يكون صديق سنان. كان الرّجل رقيق الحاشية وعاملها معاملة حسنة وسمح لها، نزولًا عند رغبتها، بأن تحصل على قلم وورق. غير أنّ زوجتيه كانتا تسومانها سوء العذاب يوميًا، وكانتا تغاران من حسنها وشبابها، فراحتا تشكوان بأنّها لا تساعدهما على النحو الّذي ينبغي على جارية أن تفعل. وراحتا تتفحّصان سائر جسدها من رأسها إلى أخمص قدميها وبات في إمكانهما توكيد عدم نقصان أيّ عضو من أعضائها، ولكنّ الشّكّ ظلّ يساورهما

Twitter: @ketab_n

في أنّها امرأة. وعلى الرّغم من أنّها اضطرّت لاعتناق الإسلام وأصبح اسمها نرجس، إلّا أنّها واصلت سرًّا رسم الكنائس ذات الصّلبان والأجراس. وأصغى العازف الموسيقيّ إلى مماحكاتهما وتصيّدهما أخطاءها، لكنّه لم يطلب مرّة واحدة رؤية المخطّطات الّتي كانتا تشيران إليها.

وفي يوم من الأيّام، وبينما كان العازف الموسيقيّ مسافرًا، مزّقت زوجتاه رسوم سانتشا قطعًا صغيرة، وفي مساء ذلك اليوم، عاد أدراجه إلى المنزل. وكان من شأن مصيرها أن يكون مختلفًا لو أنّه رجع بعد بضعة أيّام بعد أن تكون كدماتها قد شفيت. وكما هي الحال، فقد رأى الزّوج وجهها المشوّه وعينيها المتورّمتين كما وجد المخطّطات الممزّقة، وكانت إحداها في حالة جيّدة لم يمسّها أيّ أذًى، فما كان منه إلّا أن أخذها وأطلع سنان عليها. ولدهشته البالغة، وجد رئيس المعماريّين الملكيّ متأثّرًا ومعجبًا بها وتوّاقًا لمقابلة من رسمها، فأوضح له العازف أنّها من نتاج إحدى محظيّاته وهي شابّة وإن لم تعد عذراء، وأنّها جميلة جمال نور الشّمس، وأنّه سيكون سعيدًا جدًّا إذا ما وهبه إيّاها، حيث يمكنه أن يفعل بها ما يشاء، لأنّ زوجتيه سوف تدوسان عليها مثلما تدوسان على بساط إذا ما بقيت في منزله.

هكذا انتهى المطاف بسانتشا في منزل رئيس المعماريّين الملكيّ، وسمح لها باستخدام المكتبة ووضع التّصاميم الخاصّة بها ما دامت ستساعد زوجة المعلّم كايرا في أشغال المنزل من الصّباح حتّى الظّهيرة. وبعد مرور سنة على هذه الحياة، راح سنان يعلّمها، وسُرَّ سرورًا كبيرًا بهذه التّلميذة غير الاعتياديّة، لكنّه لم يفكّر في اصطحابها إلى مواقع البناء.

في الأسبوع الّذي وضع فيه سنان حجر الأساس لمسجد شاهزاد، توسّلت إليه سانتشا أن يسمح لها بالعمل معه. ولمّا واجهها بالرّفض

Twitter: @ketab_n

مرّات ومرّات، عمدت إلى قصّ شعرها الطّويل الّذي يشبه لونه لون الكهرمان المحترق وتركته مكوّمًا على باب المعلّم. وعندما خرج سنان في صباح اليوم التّالي، وجد خصل الشّعر الحريريّ، فهم الوضع، وزوّدها ثيابَ غلام. عندما ارتدتها، انتابه السّرور تارة والدّهشة تارة أخرى، رأى سهولة تحوّلها من فتاة إلى فتًى، لكنّ العقبة الوحيدة كانت متمثّلة في صوتها وفي يديها. ورأى إمكان حلّ هذه المشكلة بالصّمت وبوضع قفّازين في يديها. وقرّر سنان أن تكون تلميذه الصّامت.

أخبرت سانتشا جَهان بكلّ هذه التّفاصيل في عصر يوم من الأيّام عندما كانا يعملان في بناء مسجد ملّا جلبي الّذي يحتوي على ظلّة سداسيّة تعلوها قبّة وأربعة أبراج تعلوها قباب أيضًا. وجلس الاثنان خارج المكان على مصطبة قبالة نصف القبّة الّتي تعلو المحراب.

سألها جَهان: ألا أحد يعرفك؟

ـ زوجة المعلّم كايرا تعرفني.

ـ ومن غيرها؟

قالت سانتشا: شخص آخر. إنّه المعمار الإيطاليّ توماسو لأنّه كثيرًا ما يقتفي أثر معلّمنا، وأعتقد أنّه سمعني ذات مرّة أتكلّم.

كاد جَهان يمضي في الكلام لولا أنّ صوتًا ترامى إلى مسامعه يشبه صوت حيوان ليليّ يجوس جانبًا. فالتفت بذعر، لكنّ الصّمت الغريب كان يطبق على المكان، فشعر بكل كيانه بأنّهما لم يكونا وحدهما في هذه البقعة. فراح قلبه يخفق خفقانًا شديدًا، انتصب على قدميه ونظر نظرة خاطفة حوله، فشاهد بضعة رجال على مسافة قصيرة يتجوّلان. واستدلّ على أحدهما وهو شقيق صلاح الدّين، وتذكّر جَهان المشادّة المرّة الّتي حدثت بينهما في المقبرة. كان يعلم أن الشّاب يمقت سنانًا محمّلًا إيّاه مسؤوليّة وفاة أخيه. وخشي جَهان أن يكون الأخ قد جاء إلى

Twitter: @ketab_n

هنا بدافع إلحاق الأذى بالمعلِّم، ثمّ فكّر في أنّهما قد يكونا لصّين، فالمكان يتردّد إليه اللّصوص بحثًا عن موادّ يسرقونها من مواقع البناء. ولمّا لم يرغب في إثارة رعب سانتشا، ولا أن يضيف كدرًا إلى قلقها الشّديد، واصل مراقبة المتطفّلين مدّة أطول، واحتفظ بشكوكه في نفسه.

قال جَهان بعد برهة: شاهدتك مع توماسو.

ثمّ اكتسى وجهه بغمامة بعد أن خطرت له فكرة جديدة.

ـ إنّه يبتزّك.

خفضت سانتشا بصرها.

ـ لكنّك لست ثريّة، فماذا يريد منك؟

قالت سانتشا وهي تطوي طرف قميصها بين أصابعها: إنّه لا ينشد الثّروة، بل يسعى إلى الحصول على تصاميم المعلِّم.

رنا جَهان إليها مذعورًا.

ـ هل أعطيته إيّاها؟

ـ كلّ ما حصل عليه هو بعض المخطّطات المتواضعة، وهو يظنّ أنّها ملك المعلِّم سنان، وقد رسمتها له بنفسي.

ابتسم أحدهما للآخر. إحساس بالزّمالة، من شأن جَهان أن يصفه بالأخوّة لو لم يعلم بحقيقتها، هو الّذي راوده. إلّا أنّ الشّيء الّذي لم تخبره به سانتشا في ذلك الوقت أو لاحقًا، وسيأخذ وقتًا أطول حتّى يعرفه جَهان، هو أنّ ثمّة سرًّا مدفونًا في صميم فؤادها، وهو الّذي مكّنها من البقاء قويّة، ومخلصة من أعماقها. ففي اللّيالي الموحشة الّتي كانت تبكي فيها بكاءً مرًّا حتّى تستسلم للنّوم، كان تفكيرها في سنان وفي أنّها معه تحت سقف واحد، وإن كانت بعيدة عنه، فإنّ التّفكير فيه وهو يهتمّ بها ويرعاها وإن على نحو أبويّ، جعل الدّفء يسري في روحها.

إنّها تلميذته وهي خليلته وهي أَمَتُه، وهي ليست أكبر سنًّا من ابنته.

Twitter: @ketab_n

لكنّ يوسف ـ نرجس ـ سانتشا غارسيا دي هيريرا، الرّوح الّتي حملت أسماء أكثر ممّا ينبغي في جسدها، كانت مغرمة بالمعلِّم سنان.

لم يجدا فرصة سانحة أخرى للحديث على هذا النّحو الودّيّ والصّادق. في اليوم نفسه، حدث حادث جديد، فقد سقطت كتلة صخريّة من العمود الّذي ترتكز عليه قاعة الصّلاة وهوت على الأرض، وأدّت إلى جرح اثنين من عبيد السّفن ومصرع رئيس عمّال سنان المخلص جبرائيل القرنفليّ.

كانت الحوادث المؤسفة متفرّقة تفرّقًا يكفي للاعتقاد بأنّها من صنع القدر، لكنّها كانت متشابهة تشابهًا غريبًا ومتواصلة تواصلًا غريبًا أيضًا.

Twitter: @ketab_n

قال سنان: الحديد يصدأ إذا لم يستعمل، والأشغال الخشبيّة تتداعى والإنسان يخطئ. وما علينا إلّا العمل.

اقتفى التّلاميذ الأربعة خطوات سنان وكدحوا في العمل كأنّ يوم غد هو يوم الحساب وعليهم أن يفرغوا قبل أن يتحوّل كلّ شيء إلى تراب. فشيّدوا مساجد الجمعة والمدارس والمعاهد القرآنيّة والجسور والحمّامات والمستشفيات والمرافق الصّحّيّة وملاجئ الأيتام ومخازن القمح والخانات لمبيت المسافرين الآتين من كلّ حدب وصوب. وكان السّلطان قد أمر ببناء معظم هذه الإنشاءات، أمّا الإنشاءات الأخرى، فقد شيّدت بناء على أوامر من أمّه وزوجاته وبناته ووزرائه الّذين تعاقبوا على الحكم.

غير أن هذه المباني الّتي أنشأها سنان لم تكن كلّها قد كلّفه إيّاها الأثرياء وأصحاب النّفوذ. فالأضرحة، مثلًا، شيّدها التّلاميذ بجدّيّة. وكان المعلّم يدفع لهم الأجر بنفسه. والسّبب الوحيد الّذي جعلهم يواصلون أعمال البناء سنة تلو الأخرى هو أنّ شخصًا ما في مكان ما قد راوده حلم بذلك. لهذا، فإنّ سنانًا بصفته سيّد البنّائين الملكيّ لم يشعر بالمسؤوليّة في إنشاء المباني وتخطيط المدن فحسب، بل أشرف على تلك الأحلام المقدّسة.

وكان في مقدور أيّ فرد أن يتقدّم بمثل هذا الطّلب، الجنديّ وصاحب الحانة ومجذّف الزّوارق وحتّى المستعطي أيضًا. وكانوا يطرقون باب سنان، باحترام وعزم، واعتزاز داخليّ، كأنّهم يحملون رسالة مهمّة من السماوات، ثمّ يبدأون يسردون أحلامهم الّتي كانت في معظم الأحوال تدور عن أولياء وحكماء انزعجوا واستاءوا لأنّ قبورهم

Twitter: @ketab_n

مهملة فأدركها الخراب، أو عن شهداء طلبوا تشييعًا لائقًا لجنازاتهم بعد أن يكونوا قد أشاروا إلى الموضع الّذي يوجد فيه رفاتهم، أو عن صوفيّين أعدموا بسبب هرطقتهم ودفنوا دفنًا مستترًا، إن كانوا دُفنوا أصلًا.

كان الموتى في تلك الأحلام والرّؤى نافدي الصّبر، طلباتهم عاجلة، وكذلك كان حال أولئك الّذين عرضوا أحلامهم، على حدّ تعبير جَهان. فكانوا يتوقّعون من المعماريّ وتلاميذه التّوقّف عن ممارسة أيّ عمل ـ مثل بناء مسجد الجمعة ـ والسّير من ورائهم. وذهب الأمر ببعضهم إلى إطلاق التّهديدات قائلين: «إنّه وليّ ذو نفوذ كبير، وإذا لم تنفّذ ما يقول لك، فإنّه سيصبّ اللّعنة عليك!».

وكان يجري تخصيص أحد التّلاميذ للإشراف على مقدّمي الأحلام وكانت مهمّته الشّاقّة تتلخّص في الإصغاء إلى كلّ واحد وعزل الصّادقين عن الدّجّالين. هكذا وجد جَهان نفسه في أوقات كثيرة بعد ظهر أيّام الخميس متربّعًا على كرسيّ يواجه الغرباء. وكان إلى جانبه كاتب محنيّ الظّهر يجلس إلى طاولة يكتب بقلمه من دون توقّف. وبغض النّظر عمّا يحتوي عليه الالتماس من توافه الكلام والهراء، فإنّ كتابته ضرورة ملحّة. وكان سنان يرحّب بمقدّمي هذه الطّلبات ترحيبًا ودّيًا. ويعلن أنّ تلميذه الحكيم حاضر لسماع ما يريدون الإفصاح عنه. وكان يختلس نظرة خاطفة إلى الجانب باتّجاه جَهان وينصرف بعد أن يفترّ ثغره عن ابتسامة شيطانيّة. كان جَهان يتصبّب عرقًا تحت ضغط العيون الشّاخصة إليه ترصد كلّ حركة من حركاته، فقد كانت الحجرة صغيرة، خانقة، وفجأة تبدو غير قادرة على استيعاب كلّ أولئك النّاس وآمالهم الكبيرة.

كان هؤلاء النّاس يأتون من كلّ فجّ عميق. من مرافئ مزدحمة بالحركة والنّشاط ومن قرًى منسيّة. وكانوا يتوسّلون إلى التلاميذ بالذهاب والبناء في كلّ مكان، في بلدة أو في مزرعة أو في عقار لا تلجأ إليه إلّا

Twitter: @ketab_n

الثّعابين. وكان معظم هؤلاء الّذين يقدِّمون طلباتهم رجالًا من مختلف الأعمار. وكان بينهم تلامذة مدارس يرافقهم آباؤهم. وفي بعض الأحيان، ثمّة امرأة، فتراها تنتظر في الخارج بينما يروي زوجها أو شقيقتها الأحلام الّتي راودتها.

في يوم، طلب بعض الفلّاحين إعادة نافورة ماء بيزنطيّة تزوِّد القرية ماءً. وعلى الرّغم من أنّهم عرضوا التماسهم على القاضي، إلّا أنّ جهودهم لم تثمر حتّى الآن، ثمّ راود حلم سمكريًّا جائلًا، أسرَّ فيه لوليّ غاضب وقويّ بأنّ بقايا تكيّة تكمن تحت النّافورة. وإذا بقيت المياه جارية، فإنّ أرواح الدّراويش تظلّ راقدة بسلام، لكنّ هذه الأرواح اضطربت بعد أن جفّت المياه. لهذا، لا بدّ من إصلاح النّافورة وترميمها من دون أيّ تأخير.

عندما عرض جَهان على معلِّمه إيضاحًا بالمقابلات، اختار سنان هذه الحكاية الّتي ينبغي لهم الاهتمام بها اهتمامًا جادًّا.

اعترض جَهان قائلًا: لكن، هل تصدِّق أيّها المعلِّم أنّهم يقولون الحقّ؟

- إنّهم بحاجة إلى ماء، ولا يهمّ إن كنت أصدِّقهم أم لا.

أعادوا بناء النّافورة، ونظّفوا السّواقي الّتي تأتي بالماء من الجبال، فانشرحت صدور القرويّين، وكذلك صدر سنان.

في هذه الأثناء، جاء طحّان، وقال إنّه سمع أثناء طحنه الحبوب امرأة تغنّي غناءً عذبًا يأسر الألباب، لكنّه اتّخذ التّلال وجهة له خشية أن تكون جنّيّة. وفي اليوم الثّاني، كان الصّوت بانتظاره وإن كان قد رمى بمقدار من الملح فوق كتفيه وبصق ثلاث مرّات على النّار. ونصحه كبير أهل القرية بقراءة القرآن قبل أن يخلد للنّوم. فامتثل لنصيحته، فراودته امرأة في حلمه في تلك اللّيلة، مشرقة الوجه كأنّ مصباحًا يشعّ من تحت جلدها. وكان شعرها الأشقر اللّامع منثورًا فوق كتفيها، وأوضحت له

Twitter: @ketab_n

أنّها خُنقت بناءً على أوامر السّلطانة الأم، وإن لم تذكر اسمها. ومنذ ذلك اليوم، راحت روحها تجوب البقاع، باحثة عن جسدها، الّذي كان مطمورًا في أعماق البحر. ومنذ مدّة قصيرة، استخرج صيّادٌ من البحر مشطًا مصنوعًا من ترس سلحفاة، كانت تضعه على رأسها، فانحلّ شعرها عندما قذف بها إلى البحر بعد أن قيّدت قدماها إلى صخرة. ولمّا لم يعرف الصّيّاد ما يفعل به، وضعه في صندوق. وأرادت من الطّحّان أن يعثر على المشط وأن يدفنه كأنّه لحمها ودمها. وعلى هذا النّحو، فسوف تحصل على قبر وعلى بعض الرّاحة.

سأل جَهان غير مصدّق: لماذا لم تكشف هويّتها للصّيّاد؟

قال الطّحّان: لديه مشكلة. فهو يقطن على بعد مرمى حجر من قلعة الرّوملي، حيث توجد صومعة زرقاء مثل بيضة طائر أبو الحنّاء.

ـ هل ذهبت إلى ذلك المكان؟

ـ بكلّ تأكيد أيّها الأفندي. لقد أخبرتني بكلّ شيء.

ـ إنّني رجل فقير وزوجتي مريضة، وليس لديّ أولاد يمدّون يد العون إليَّ، ولا يمكنني الذّهاب إلى ما هو أبعد من ذلك. فهم جَهان المطلوب منه.

ـ ولا أنا. فبقائي هنا ضروريّ جدًّا.

اخترقت خيبة الأمل عيني الرّجل اختراق سهم مشتعل، لكنّ دهشته الكبرى تملّكته عندما حثّه سنان بعد أن روى الحكاية له بأن يذهب ويستطلع الأمور. هكذا، مضى جَهان برفقة فيله في سبيله في اليوم التّالي.

وجد جَهان الصّيّاد سهل الانقياد، أمّا الكلام معه فكان مستحيلًا، فقد كان رجلًا صارمًا، غليظ القلب بعينيه السّوداوين المفعمتين بالمرارة، وبفمه الّذي لم يفترّ عن ابتسامة منذ عصور. نظرة واحدة إليه دفعت جَهان إلى الاعتقاد بأنّ ما من وسيلة ستمكّن الرّجل من العبث

Twitter: @ketab_n

بحاجيّاته. وضع خطّة جديدة، إذْ ما إن أصبحوا وراء التّلال، حتّى أوقف الفيل ووثب على الأرض. وبعد أن قيّد شوتا إلى شجرة صفصاف كان يسهل على الحيوان أن يقتلعها من جذورها من دون أيّ مشقة، قال: سأعود بعد لحظة.

عاد جَهان أدراجه، صامت مثل بومة. وسار على أطراف أصابع قدميه حول الحظيرة المسيّجة ودخان السّقيفة الّتي كانت تفوح منها رائحة السّمك، فوجد بضعة صناديق من دون أن يعثر على مشط داخل أيّ واحد منها. وكاد ينصرف عندما لمح سلّة ملقاة على الأرض. ارتعشت يداه وهو يحدّق إليها. كان المشط داخلها، بنيًّا وكهرمانيًّا، مثلومًا عند حافّاته، فما كان منه إلّا أن دسّه في جيبه وأطلق ساقيه للرّيح.

لحسن الحظّ أنّ سنان لم يسأل عن الوسيلة الّتي حصل بها عليه، لكنَّه قال: ينبغي أن ندفنه. وهو بحاجة إلى بلاطة قبر.

سأل جَهان: لكن... هل يمكننا أن ندفن مشطًا بدلًا من جسد؟

ـ لا أرى أيّ مانع إذا كان المشط هو الشّيء الوحيد المتبقّي من الشّخص.

حفر سنان والتّلاميذ حفرة عميقة بالقرب من شجرة توت أرضيّ ووضعوا المشط فيها. وبينما هم يوارون المشط الثّرى، توجّهوا لله بالدّعاء. وفي نهاية المطاف، أصبح للمرأة الّتي راودت الطّحّان في حلمه، سواء أكانت حقيقيّة أم لا، شاهدة قبر، وعليها ما يأتي:

ادعوا لروح لم يُعرف لها اسم

أحبّها القدير وعرفها دومًا.

❀ ❀

في ربيع عام ١٥٧٥، بدأ الفلكيّ تقيّ الدّين زيارة سنان من حين إلى حين. كانا يجلسانِ في المكتبة يتجاذبان أطراف الحديث على مدى ساعات. ثمّة شيء جديد ومهمّ في الأجواء، وكان في وسع جَهان أن

Twitter: @ketab_n

يشمّ ذلك مثل الخبز الطّازج ـ لا بدّ من أنّ شيئًا ما أثار هذين العجوزين كأنّهما عادا شابّين من جديد.

كان رئيس الفلكيّين الملكيّ ورئيس المعماريّين الملكيّ يحترم أحدهما الآخر دومًا، وكان تقيّ الدّين يحضر مرارًا وتكرارًا حفل افتتاح أيّ مسجد، ويساعد في أخذ القياسات، ويستشير سنانًا بخصوص قوانين الحساب الّتي يلمّان بها إلمامًا واسعًا. وكان الاثنان يقرآن الكتب من دون بذل أيّ مجهود بلغات متعدّدة، التّركيّة والعربيّة والفارسيّة واللّاتينيّة وقليل من الإيطاليّة. وتبادلا على مرّ السّنين الكتب والأفكار وعددًا من الأسرار بحسب ظنّ جَهان. وإذا كان شغفهما بالأعداد هو أحد الأمور المشتركة بينهما، فإنّ الأمر الآخر هو مثابرتهما، إذْ كانا يعتقدان أنّ الوسيلة الوحيدة للتّعبير عن الشّكر لله على ما منحه إيّاهما من مهارات والعمل الجادّ.

على الرّغم من كلّ ما كانا يشتركان فيه، فإنّ ما من شأنهما أن يكونا أشدّ اختلافًا. فقد كان تقيّ الدّين إنسانًا عاطفيًّا، وجهه كتاب مفتوح يكشف عن العواطف الّتي تجيش في قلبه. وإذا انشرح صدره، تشرق عيناه، وعندما يستغرق في التّأمّل، يُسبِّح تسبيحًا قويًّا يكاد يقطع الخيط الّذي يشدّ السّبّحة. وفي غمرة هوسه بالتّعلّم، راجت عنه إشاعات تفيد بأنّه كان يؤجّر لصوص المقابر حتّى يسرقوا جثث الموتى ويأتوا بها إليه لدراستها. وإذا طرح أحد الأشخاص سؤالًا عن السّبب الّذي يدفع بفلكيّ من الفلكيّين إلى إظهار الاهتمام بجسم الإنسان، فإنّه يجيب قائلًا إنّ الله صمّم الكون الصّغير والكون الكبير ليكونا متوازيين. وكان في أغلب الأحايين، يتذمّر من غطرسة العلماء وجهل النّاس. ونظرًا إلى شدّة النّار المتّقدة في روحه، فإنّ أصدقاءه لم يخفوا قلقهم من أنّه قد يتسبّب في حرق نفسه يومًا ما. وكان ما فيه من حماسة متأجّجة وعاطفة فيّاضة يجعله يقف على الضّدّ من سنان الّذي نادرًا ما أظهر حماسته، بل

Twitter: @ketab_n

كان على وجه العموم يظهر سلوكًا وديعًا.

أمّا في هذه الحالة، فقد أبدى سنان حماسة إن لم يكن توجُّسًا. فقد قضى أيّامه في القراءة والرّسم، وهذا أمر لا غبار عليه، لكنّه كان ينظر من وراء النّافذة نظرة بعيدة شاردة. وطرق سمع جَهان مرّتين أنّ سنانًا استفسر من الخدم ما إذا كان أحد ما قد أتى برسالة له.

وفي يوم أربعاء، بينما كان التّلاميذ يعملون في منزل المعلِّم، وصل الرّسول المنتظر حاملًا رقًّا. فأزال سنان الشّمع وقرأ الرّسالة. ولانت ملامح وجهه وافترّ ثغره عن ابتسامة تنمّ عن ارتياح بعد أن كان متخشِّبًا من لوعة الانتظار.

قال معلنًا: سوف نشيِّد مرصدًا.

بيتٌ لدراسة الأفق المظلم من فوق رؤوسهم، وسيكون أكبر من أيّ بناء سبق لهم أن شيَّدوه، شرقًا كان أم غربًا. وسيأتي الفلكيّون من كلّ أنحاء العالم إلى هنا لشحذ مهاراتهم. ووعد السّلطان مراد بمساندة تقيّ الدّين وتعزيز رغبته في اكتشاف القبّة اللّامرئيّة.

قال سنان: سوف يغيّر هذا من فهمنا للكون.

سأل داؤود: ما أهمّيّة ذلك لنا؟

قال سنان، في ردّه على هذا السّؤال إنّ العلم عربة تجرّها جياد كثيرة، فإذا أسرع واحد منها أكثر من الأخرى، فإنّ بقية الجياد سوف تسرع ويستفيد بذلك المسافر داخل العربة وهو العالم. فالتّطوّر الحاصل في ميدان ما، يدعم التّطوّر الحاصل في غيره من الميادين. وينبغي على فنّ العمارة أن يكون صديقًا لعلم الفلك، وكذلك شأن علم الفلك والحساب، والحساب مع الفلسفة، وهلمّ جرّا، ثمّ أردف: ثمّة أمر آخر. سوف تتولّون مهمّة بناء المرصد، وسوف أشرف على العمل، لكنّه سيكون إنجازكم أنتم.

فغر التّلاميذ أفواههم بدهشة غير مصدِّقين، فهم كانوا قد عملوا

Twitter: @ketab_n

حتّى الآن في تشييد المباني الكثيرة، لكنّهم لم يشيّدوا مبنًى واحدًا بمفردهم.

قال نيقولا: إنّنا ممتنّون لك أيّها المعلّم، وقد شرّفتنا بهذا.

قال سنان: سدّد الله خطاكم.

في الأسابيع التّالية، عرض التّلاميذ تصاميمهم أمام المعلّم. وكانوا قد فحصوا التّربة وقاسوا مقدار الرّطوبة في موقع على أحد التّلال في توفاني. واشتركوا في العمل، وإن كانوا لا يزالون يتنافسون في ما بينهم من أجل نيل الحظوة عند معلّمهم. وازدات حماستهم لبناء المرصد، أي غيرة قد تتملّكهم.

في هذه الأثناء، كان تقيّ الدّين أسعد النّاس في الإمبراطوريّة وأشدّهم قلقًا. فهو في طوافه في أنحاء الموقع وتوجيهه الأسئلة الّتي لم يجد أحد معنًى لها، لم يستطع الانتظار حتّى يكمل بناء مرصده المحبوب. وبعد مرور بضعة أسابيع على بدء البناء، استبدّ به الخوف من أن يموت. كان مهووسًا بالحوادث المؤسفة والكوارث، لهذا كان يخشى أن توافيه المنيّة ويرحل عن هذا العالم قبل إكمال بناء هذا الصّرح. ولم يسبق لجَهان أن رأى رجلًا ذكيًّا يجنّ جنونه من شدّة القلق.

جاءوا بالأدوات من كلّ أنحاء المعمورة، وجمعوا الكتب والخرائط الكوكبيّة لوضعها داخل المرصد. كانت المكتبة دائريّة الشكل، مترامية الأطراف، يغمرها ضوء مسلّط عليها من نوافذ عالية، ومزوّدة سلّمًا لولبيًّا يهبط إلى سرداب تحت الأرض، فراقت لجَهان كثيرًا وشعر بالفخر والاعتزاز لمساهمته في تصميمها.

وبينما كانت أعمال البناء قائمة على قدم وساق، تمكّن جَهان من أن يعرف أشياء أخرى عن تقيّ الدّين، فقد ولد في مدينة دمشق وتلقّى علومه في نابلس والقاهرة ليستقرّ بعد ذلك في إسطنبول، يساوره الاعتقاد

Twitter: @ketab_n

بأنّها المدينة الملائمة لمهاراته، فأبلى فيها بلاءً حسنًا وتقلّد المناصب حتّى بلغ منصب رئيس الفلكيّين الملكيّ. وعرف جَهان لاحقًا أنّه هو الّذي فكّر في هذا المشروع وأقنع السّلطان بضرورة إنشاء مرصد ملكيّ. غير أنّ هذا لم يكن ليعني أنّه أقنع كلّ مَن في البلاط به، إذْ كان يحظى باحترام البعض وكراهية البعض الآخر، وكان له من الأصدقاء والأعداء عدد كبير جدًّا.

استفاد تقيّ الدّين من مكتشفات العالم الرّياضيّ جمشيد الكاشيّ والأدوات الّتي برع بها نصير الدّين الطّوسيّ[(١)] وعزم على تطوير إنجازات مرصد سمرقند الّذي شيّده أولوغ بك، الفلكيّ والعالم الرّياضيّ والسّلطان. وقال إنّ أبرز العلماء أماطوا اللّثام عن كثير من أسرار الكون قبل مئتي سنة تقريبًا، وإنّ إنجازاتهم نُبذت وطواها النّسيان بدلًا من أن تُهذّب، فضاعت بذلك علوم نفيسة على أجيال المستقبل. ثمّة جواهر في الحكمة، في كلّ أرجاء العالم، تنتظر من يكشف النّقاب عنها، مثل صناديق الكنوز المدفونة في أعماق الأرض. لهذا، فإنّ العلم مسألة تذكّر أكثر ممّا هي مسألة اكتشاف.

كان تقيّ الدّين يشير في أغلب الأحيان إلى تايكو براخي، عالم الفلك في بلاد الإفرنج. وكان التّلاميذ يضعون مصادفة في تلك الآونة حجر الأساس لمرصدهم في حين كان براخي يشيّد مرصده في يورانيبورج النّائية. وبدلًا من أن يشتبك الاثنان في صراع، فإنّهما كانا يتبادلان الرّسائل الّتي تنمّ عن احترام وإعجاب مشترك.

قال تقيّ الدّين: إنّنا نهوى امرأة واحدة.

---

(١) نصير الدّين الطّوسي (١٢٠١ ـ ١٢٧٤) عالم بالفلك والرّياضيّات والكلام. قرّبه هولاكو، أسّس مرصدًا مشهورًا ومكتبة كبيرة في قراغة. له مؤلّفات كثيرة منه: «تجريد الكلام» و«شكل القطاع» و«شرح الإشارات» (لابن سينا) و «التّذكرة» و«تحرير أصول إقليدس» و«تلخيص المحصل» (لفخر الدّين الرّازي).

Twitter: @ketab_n

تلعثم جَهان، وسأل: ماذا تعني؟

ـ السّماء. إننا ولِهان بها، لكنّ ما يؤسف له أنّنا فانيان. لكن بعد أن نرحل، سوف يحبّها آخرون.

بعد أن ثبتت الأدوات الفلكية في المواضع المخصّصة لها من فوق قواعد ثقيلة من حديد الصّبّ، طاف تقيّ الدّين بتلاميذ سنان في أرجاء المكان. فشاهد جَهان أين ما التفت ساعات فلكيّة بثلاثة موانئ، مصنوعة صناعة ماهرة ودقيقة. وفي غرفة خلفيّة، لاحظوا مضخّات ماء من مختلف الأحجام، قال تقيّ الدّين إنّها لا صلة لها بالسّماء، لكنّها ببساطة من ضمن اهتماماته. وفي الطّبقة العليا، ثمّة إسطرلاب هائل في حجمه يحتوي على ستّ حلقات تستخدم في تقدير خطوط الطّول وخطوط العرض كما أوضح لهم. وثمّة جهاز آخر، مثبت على جدار ويتألّف من ربعي محيط الدّائرة، كبيرين ومصنوعين من البرونز يفيدان في حساب ميلان النّجوم والشّمس. واتّضح أنّ بعض القطع الخشبيّة الطّويلة الّتي تبدو من مظهرها المتواضع بلا معنًى، تفيد بقياس اختلاف شكل القمر. أمّا الجهاز الّذي يحتوي على حلقة نحاسيّة، فغرضه قياس زاوية السّمت في النّجوم، وبجانبه جهاز آخر يُستخدم في تحديد الاعتدال الرّبيعيّ أو الخريفيّ. غير أنّ الجهاز المفضّل عند جَهان كان متمثّلًا في آلة سداسيّة تقيس المسافات بين الأجرام السّماويّة.

في كلّ غرفة دلفوا إليها، شاهدوا أداة أو جهازًا لكشف سرّ آخر من أسرار القبّة الزّرقاء. وأوضح لهم فلكيّ القصر أنّ على المرء أن يجد الدّليل الصّحيح في الأجرام السّماويّة، كما هي الحال في أمور كثيرة في الحياة. وبدلًا من أن يأخذ القمر دليلًا عليه، فإنّه درس نجمين تائهين وهما الزّهرة والدّبران، وهو اسم راق لجَهان كثيرًا، ما أدّى به إلى أن يردِّده كأنّه مفردة شعريّة.

على العكس من هذه الأدوات الّتي كانت حديثة كلّها، فإنّ الكتب

Twitter: @ketab_n

والمخطوطات المحفوظة في المكتبة كانت موغلة في القدم، وفي هذه المكتبة، كان تقيّ الدّين قد احتفظ ببحوثه الخاصّة بموضوعات الهندسة والجبر والحركة الدّافعة. وكان مهتمًّا اهتمامًا خاصًّا بأمر السّلطان الصّادر مؤخّرًا والموجّه إلى قضاة إسطنبول، والّذي نصَّ على وجوب أن يسلّم الأهالي ما يملكون من موادّ ثمينة إلى المرصد الملكيّ: عندما تتلقّون هذا الأمر، فتّشوا عن تلك الكتب الخاصّة بالفلك والهندسة وسلّموها إلى عالم الفلك الجليل تقيّ الدّين كي يتمكّن من مواصلة بحثه الممتاز تحت حمايتي.

ساورهم الاعتقاد بأنّ ما من شيء سيلاقي الفشل في ظلّ مثل هذا الأمر الملكيّ. هكذا، تألّق من على قمّة إحدى تلال توفاني، المرصد، مرصدهم، الّذي لا تشوبه شائبة، لا من الدّاخل ولا من الخارج، بما فيه من نوافذ متقزّحة الألوان تحت شعاع شمس المغيب.

كان حفل الافتتاح مبهرًا. فقد كانت أشعّة الشّمس من فوق رؤوسهم ساطعة ومتألّقة، والسّماء زرقاء صافية. لكن، على الرّغم من ذلك، كان الهواء قارسًا وباردًا كأنّ فصلا الصّيف والشّتاء رغبا في أن يكونا حاضرين في مثل هذا اليوم. وحلَّقت النّوارس في الأفق البعيد، هادئة، صامتة، وغاصت طيور السّنونوّ لتشرب الماء من النّافورة الرّخاميَّة في الفناء. وكانت رائحة الآس على ثيابهم ولحاهم تمتزج بنكهة الحلاوة التي أمر تقيّ الدّين بتوزيعها على العمّال الّذين كدّوا وكدحوا حتّى يُنجزوا البناء في الوقت المحدَّد.

كان سنان حاضرًا، مرتديًا قفطانًا بلون القرفة وعمامة بصليّة، أصابع يده اليمنى تتحرّك حول سبّحة متخيّلة، وكان تلاميذه يقفون على بعد بضع خطوات خلفه، محاولين بذل أقصى ما في وسعهم لإخفاء إحساسهم بالفخر والاعتزاز.

Twitter: @ketab_n

فعلى الرّغم من أنّ مجيئهم إلى هنا بدافع الدّعاء للسّلطان مراد ولصحّته وانتصاره ولنجاح رئيس الفلكيّين الملكيّ، إلّا أنّ تلامذة سنان ساهموا مساهمة كبيرة في هذا المرصد. ولم يتمكّنوا من منع أنفسهم من الإحساس بالبهجة والسّرور بالمبنيين اللّذين وضعوا تصاميمهما وبناءهما وجعلوهما جاهزين للاستعمال، تحت إشراف المعلّم. إنّهما من خلقهم، وليغفر الخالق لهم استخدامهم هذه الكلمة الّتي لا تليق إلّا به.

خارج الأرض المحيطة بالمرصد، ثمّة حشد من المتفرّجين وأصحاب الأمنيات الطّيبة الّذين كانت الرّيح تحمل أصواتهم. مبعوثون أجانب يشاهدون ما يحدث وتجّار يحسبون ما الّذي سيحقّقه لهم وحجّاج يتمتمون بالأدعية والصّلوات وشحّاذون يستعطون الصّدقات ولصوص يبحثون عن طريدة وأطفال يتربّعون فوق أكتاف والدِيهم ليختلسوا نظرة خاطفة إلى المكان، حيث يمكن المرء أن يشاهد الشّمس والقمر ويتعلّم أيضًا أين ذهبت الشّهب عندما هوت.

أمّا تقيّ الدّين، الفارع الطّول والمنتصب القامة، فقد توسّط المكان في وقفته، مرتديًا رداءً فضفاضًا أبيض اللّون مثل حجر المرمر. وكان قد جرى قبل ذلك ذبح النّذر وهي أربعون رأسًا من الغنم وأربعون رأسًا أخرى من البقر ووزّعت لحومها على أفقر الفقراء، وبانت الآن على جنبيه، بين العينين، قطرة من دماء تلك الذّبائح. ووقف إلى يمينه وإلى شماله أربعة وعشرون عالمًا فلكيًا، وجوههم مشرقة من فرط بهجتهم.

فجأة، هدأت كلّ الأصوات. وسرت بين الحاضرين موجة خفيفة من الإثارة والانفعال، فقد وصل السّلطان مراد. وانساب حضوره في الفناء انسياب الماء، فملأ كلّ فراغ حتّى قبل أن يلمح الحاضرون موكبه قادمًا من مسافة بعيدة. فظلّ الله على الأرض سوف يفتتح أكبر مرصد في المعمورة. وما إن وصل السّلطان واتّخذ مكانه حتّى بدأ أحد شيوخ الصّوفيّة يدعو بصوت مرتفع ورخيم: سلطاننا النّبيل! ألّلهم احفظه.

Twitter: @ketab_n

فردّد الحاضرون جميعًا، مستطعمين الكلمة كأنّها لقمة سائغة: آمين!

ـ أللّهم أنعم على إمبراطوريّتنا العظيمة، وأرشدنا في كلّ أعمالنا وساعدنا على أن نكون من بين أولئك الّذين عاشوا من قبلنا في هذا العالم ولم يخطئوا! أللّهم اشمل هذا البيت برعايتك واكشف أسرار السّماوات لأولئك الّذين يستطيعون وحدهم تحمّلها.

ـ آمين!

بينما كان جَهان يصغي لعبارات الصّوفيّ، جال ببصره حول العلماء، كبار رجال الدّين الّذين كانوا يشاهدون الحفل. فقد سرت شائعات مفادها أنّ شيخ الإسلام رفض أن يؤمّ المسلمين في صلاة الجماعة عندما طلب منهم ذلك. ورأى جَهان وجه الرّجل، فبدا رابط الجأش، هادئ الملامح هدوء بركة ماء، لكنّه أطبق شفتيه بعد ذلك وتقلّص فمه وتجهّم وجهه كأنّه تذوّق شيئًا مرًّا. وظنّ جَهان أنّ ما من أحد تنبّه إلى ذلك لأنّ الكلّ كانوا مستغرقين في الدّعاء، لكنّه شاهد تلك الإيماءة الصّغيرة، فضاق صدره.

وفي برهة تكفي لأن يحلّق طائر الكوندور عاليًا، أدرك جَهان من أعماقه أنّ ثمّة خطأً ما، وإن لم يكن ذلك الخطأ ظاهرًا بأيّ حال من الأحوال، وراوده إحساس فظيع بأنّ سنانًا أدرك ذلك الشّيء أيضًا. لهذا السّبب، كانت أصابع المعلّم تتحرّك بتوتّر وقلق. في هذه الأثناء، لم يساور الشّكّ تقيّ الدّين أيّ شيء وهو في غمرة نشوته.

سوف يستغرق جَهان لاحقًا في التّفكير مطوّلًا. صحيح أنّ سنانًا ليست له تجربة واسعة مع العلماء، ولكن في وسعه أن يلاحظ كراهيّتهم العميقة. من جهة أخرى، كان تقيّ الدّين يعرفهم أكثر من غيره. فهو قبل كلّ شيء كان قد عمل قاضيًا ورجل دين موقّتًا ومعلّمًا في إحدى

Twitter: @ketab_n

المدارس. لكنّه على الرّغم من ذلك لم يشاطر المعلّم سنانًا، ولا تلميذه ذلك الإحساس بالقلق الّذي راوده في ذلك اليوم. وخلص جَهان إلى نتيجة مفادها أنّ القرب يرافقه العمى والمسافة المعيّنة يرافقها الوعي.

كان تقيّ الدّين منهمكًا في كتابة بحث عن الكائنات السّماويّة، عنوانه «زيج»، وفيه يدوّن مواقع الشّمس والقمر والنّجوم والأجرام السّماويّة والمسافات بينها وحركتها. وأوضح أنّ هذا المؤلَّف سوف يستغرق منه سنوات، لكنّه سيكون دليلًا دائمًا عندما يفرغ من تأليفه، وقال موضّحًا: إنّ كلمة «زيج» تعني خريطة، خريطة من صنع إلهيّ.

كان قد زعم حكيم كافر يدعى آريستو ـ وهو رجل لقّن الإسكندر الكبير كلّ ما يعرف من علوم ـ أنّ الأرض هي مركز الكون، وأنّها مستقرّة في مكانها بخلاف بقيّة الأجرام السّماويّة. وترك الأمر لعلماء الفلك لإيجاد عدد ما يدور حولها من الأجرام والعدد المتراكم من القباب الكثيرة الّتي تسير فوق رؤوسهم.

بعد انتهاء مراسم الافتتاح، زاره جَهان برفقة داؤود، وسأله: هل تمكّنت من معرفة عددها؟

قال تقيّ الدّين من دون ريب: ثمانية.

كان هذا العدد منزّهًا عن الخطإ وله سببه الوجيه ـ فشكل الأرض وترتيب الأجرام السّماويّة وطبقات الكون وكلّ شيء آخر نظّمه الله للبشر كي يروه ويدرسوه ويتفكّروا فيه. وكلّما أوغل تقيّ الدّين في الحديث ازداد ثرثرة. فقال إنّ أرسطو كان قد أخطأ في فهم الأشياء وإن كان حادّ الذّكاء، فالشّمس هي قلب الكون وليست الأرض. أمّا بقيّة الأجرام، فكانت تدور حول هذه الكرة النّاريّة في دورات كاملة. واطلع جَهان على كتاب قال إنّه يثبت ما يقول من دون أيّ شكّ. قرأ جَهان عنوانه بصوت

Twitter: @ketab_n

عالٍ، فانسابت الكلمات اللّاتينية من لسانه معسولة، صقيلة، ذات صلة بثورة الكواكب. كوبرنيكوس. يا له من اسم غريب! لكن رئيس الفلكيّين الملكيّ لفظه، كما في رأي جَهان، على نحو مهيب بدا وهو يخرج من فمه كأنّه تعويذة.

قال تقيّ الدّين مشيرًا إلى المجلّد الضّخم كأنّه حيّ: كانت لديه عشيقة لكنّه لم يتزوَّجها، إذ اضطر لتربية أطفال أخته ولم يكن له أيّ طفل.

سأل داؤود: لماذا لم يتزوَّج؟

ـ الله أعلم. ربّما كان ذلك بسبب المرأة. أيّ زوجة يمكنها أن تطيق زوجًا لا يرى إلّا السّماوات؟

تبادل جَهان وداؤود النّظرات وهما يشاركانه رأيه. فعلى الرّغم من أنّ تقيّ الدّين كان متزوِّجًا، إلّا أنّه كان ينام في المرصد في أغلب اللّيالي، وعندما كان يتحدّث عن كوبرنيكوس، فإنّهما لم يتجرّآ على السّؤال إن كان يلمّح بذلك إلى نفسه أيضًا.

شكر داؤود وجَهان المعماريّ ومساعديه وودّعوهم، لكن ما إن خطا الاثنان خارجًا حتّى غمرتهما موجة من الضّباب، نفّاذة وسيّئة الطّالع. وتحسّسا طريقهما مثل رجلين لا يبصران حتّى عثرا على شوتا، فامتطياه واتّجها ببطء، ببطء شديد نحو المدينة.

بعد مسيرة بضع خطوات، شعر جَهان بدافع يدفعه إلى أن يلتفت ويلقي نظرة، إذْ حدث شيء غريب. فقد تعذّرت رؤية أيّ شيء من المبنيين الشّاهقين اللّذين يشكّلان المرصد ولا حتّى وميض شمعة مشتعلة من بين النّوافذ أو وهج منبعث من الأجهزة في الشّرفة العلويّة. كانت ملامح المرصد غائرة في بحر رماديّ، وبدا في تلك اللّحظة كأنّه شيء لم يكن، وأنّ كلّ ما قيل وصُنع تحت سقفه لم يكن أكثر من أثر على رمال.

Twitter: @ketab_n

في يوم عاصف، كان جَهان على رقبة شوتا والمعلّم والتّلاميذ داخل الهودج في طريق عودتهم من العمل، فشاهدوا تقيّ الدّين ينتظرهم في الفناء وعلى وجهه نظرة تنمّ عن اضطراب وقلق. ولمّا كانت قد مضت مدّة لا بأس بها لم يشاهده فيها جَهان، فإنّ الدّهشة تملّكت مروّض الفيل عندما رأى مدى التّغيّر الّذي طرأ عليه. فالحماسة الّتي جعلت ملامح وجهه متألّقة في الأشهر الأولى الّتي أعقبت افتتاح المرصد، تلاشت وحلّت محلّها ملامح أكثر تقدّمًا في السّنّ وأشد هزالًا ونحولًا بسبب التّوتّر. وبعد تبادل التّحيّات المقتضبة، توجّه الرّجلان العجوزان إلى السّرادق في الحديقة وظلّا تحت ظلّة من الكروم وراحا يتكلّمان بصوت منخفض متوتّر.

لم يستطع التّلاميذ الاقتراب أكثر ولم يرغبوا في البقاء بعيدًا أيضًا، فدخلوا المطبخ وجلسوا بالقرب من النّافذة على الرّغم من تذمّر الطّبّاخ، فذلك هو المكان الوحيد الّذي يستطيعون أن يتجسّسوا فيه على معلّمهم. لم يكن ممكنًا سماع شيء من تلك المسافة، ولكن على الرّغم من ذلك، لم يمنعهم مانع من أن يخمّنوا ما يحلو لهم.

تمتم داؤود: ثمّة خطب ما، أشعر بذلك من أعماقي.

قال نيقولا من دون أن يكون مستعدًّا للتّخلّي عن تفاؤله المعهود: ربّما يتجاذبان أطراف الحديث لا أكثر.

كان تقيّ الدّين قد أتى بأحد معاونيه معه، وهو فلكيّ شابّ ذو وجه تعلوه آثار مرض الجدري ولحية خفيفة جدًّا بلون شعاع الشّمس. وعندما انضمّ إلى التّلاميذ، بدأوا يضايقونه باستمرار ويسألونه عمّا يجري.

Twitter: @ketab_n

وعلى الرّغم من أنّه حاول أن يتحاشى أسئلتهم، إلّا أنّه سرعان ما كشف عن كلّ شيء.

ـ لقد رصد معلّمي نجمًا مذنّبًا في برج القوس.

رمق جَهان الآخرين بنظرة خاطفة، ولاح الارتباك على وجه نيقولا، والشّك والرّيبة على محيّا داؤود. أمّا سانتشا فكان يصعب على المرء معرفة ما يدور في ذهنها، إذ بقيت عيناها مثبّتتين على الأرض. وسأل جَهان، مفترضًا أنّه ليس وحده من يجهل الأمور في هذا المكان: ما معنى هذا؟

تنهّد الفلكيّ، وقال: نجم ذو شعر طويل. هائل. يتّجه نحونا.

سأل داؤود: ماذا سيفعل؟

ـ سوف يفصح معلّمي عن ذلك.

أصرّ داؤود على أن يعرف، فقال: مؤكّد أنّك تعرف شيئًا ما عمّا يجري.

ـ كانت بعض النّجوم المذنّبة سببًا في حدوث فيضانات. وفي إحدى الممالك، أسقطت كلّ النّساء الحوامل. وفي وقت آخر، أمطرت السّماء ضفادع من ذوات الثّلاث أرجل.

أصغى التّلاميذ لهذا الكلام باندهاش. وراح الرّجل يحكي عن كوارث حدثت الواحدة تلو الأخرى بعد أن حثّه صوته على الاستمرار في الكلام.

ـ كما كان مذنّب آخر سببًا في حدوث مرحلة من الجفاف استمرّت سبع سنوات، وكانت الرّيح شديدة فاقتلعت كلّ الشّتلات من جذورها، والتهم الجراد كلّ ما تبقى من نبات.

قال نيقولا، وإن لم يكن أحد قادرًا على أن يسترق السّمع لهم: صه! ها هما قادمان!

Twitter: @ketab_n

شعروا بالارتباك والحرج كأنّهم أطفال مشاغبون أساءوا التّصرّف، واتّجهوا إلى الحديقة للتّرحيب بالمعلّمين. وكان الواضح أن السّبب في اضطراب تقيّ الدّين قد عكّر مزاج سنان، مثل آفّة زراعيّة تنتقل من شجرة إلى أخرى.

قال تقيّ الدّين مشيرًا إلى التّلاميذ: انظر إليهم.

قال سنان بصوت مولع بالمزاح والمداعبة احتفظ به لتوجيه تأنيبه الأبويّ: الشائعات تطير أسرع من سرعة النّجم المذنَّب.

قال تقيّ الدّين زاجرًا ومعنِّفًا: لا سيّما إذا كان المرء لا يستطيع أن يمسك لسانه، ثمّ حدّق إلى معاونه الّذي سرعان ما خفض رأسه وتورّد خدّاه، ثم أضاف الفلكيّ بهدوء: لا بأس. سوف تعلم المدينة كلّها به في كلّ الأحوال.

تشجّع جَهان بهذا الكلام، وقال: ما معنى كلّ هذا؟

قال تقيّ الدّين: الله عظيم وكذلك فأله أيضًا. أمّا نحن البشر، فقد لا نرى الأمور بهذا المنظار، لكنّها هكذا هي في كلّ حال.

حدّق جَهان إلى فلكيّ البلاط مندهشًا، فإجابته الّتي كانت تنطوي على قليل من الاطمئنان، أثقلته. ولم يكن وحده الّذي ساوره هذا الإحساس، فحتّى تلك اللّحظة، كان التّلاميذ منشغلين باختلاق الكوارث، في الوقت الذي لم يروا فعلًا ما هو مؤذٍ. وها هم الآن يشعرون بأنّ ثمّة قوّة تهدّدهم لا يملكون إزاءها الحكمة حتّى يفهموها ولا القوّة حتّى يتغلّبوا عليها.

كان سنان على صواب في تقديره سرعة انتقال الأقاويل. ففي الأيّام القليلة التّالية، لم يعد للإسطنبوليّين أيّ حديث سوى الحديث عن المذنَّب. فانتشرت الهمسات المثيرة للخوف ونذر الشّرّ بين سقوف الجدران، وملأت الفراغات الكائنة بين حصباء الشوارع واجتازت ثقوب

Twitter: @ketab_n

الأقفال وانجرفت مع مياه الصّرف الصّحّيّ مُلوِّثةً الهواء نفسه. وسرعان ما أعلن السّلطان أنّه سيدعو إلى اجتماع خاصّ يحضره الوجهاء والوزراء وجماعة من العلماء، وسيكون اجتماعًا طارئًا يعرض فيه تقيّ الدّين شرحًا للموضوع. وازدادت حماسة جَهان عندما علم أنّ سنانًا دُعي إلى حضور الاجتماع والإدلاء برأيه.

قال جَهان متوسّلًا: أرجوك، خذني معك.

رمقه سنان بنظرة متّقدة، وقال: لماذا؟ ألأنّك فضوليّ؟

ـ إن لم ترد أن تأخذني معك، فخذ غيري. لقد شيّدنا هذا المرصد...

لم يكن جَهان مضطرًّا للاسترسال في الكلام، إذْ استجاب له سنان، وقال: اذهب واستعد.

❁ ❁

وصل المعلِّم والمروِّض إلى القصر بعد صلاة الظّهر، فأُخذا، شأن الآخرين، إلى حجرة الاستقبال حيث شاهدوا فيها قرابة أربعين وجيهًا، جاء بعضهم برفقة حاشيته وقد اصطفّوا على كلا الجانبين، وكان السّلطان مراد قد اتّخذ مجلسه على كرسيّ العرش الذّهبيّ في الوسط.

جيء بتقيّ الدّين، فشاهده جَهان وهو يجثو ويقبّل حاشية قفطان السّلطان وينحني مجدّدًا ويحيِّي أعضاء الدّيوان وينتظر على استحياء، شابكًا يديه، ومحدِّقًا إلى قدميه. في تلك اللّحظة، لم يكن أحد يرغب في أن يكون في مكانه.

قال الصّدر الأعظم سوكولو: أنت هنا يا رئيس الفلكيّين الملكيّ لكي تخبر سلطاننا الكريم عمّا سيأتي به إلينا المذنَّب.

قال تقيّ الدّين وهو يخرج رقًّا من داخل ردائه: أرجو أن تسمح لي يا صاحب السّموّ، ثمّ أضاف بصوت عالٍ: لقد رأيت أنا تقيّ الدّين بن

Twitter: @ketab_n

معروف بصفتي رئيس الفلكيّين الملكيّ، نجمًا مذنّبًا في برج القوس. وبعد أن درست خريطتي واستخدمت طريقته كما كان يفعل نصير الدّين الطّوسيّ ذات مرّة، اكتشفت أنّ خطّ الطّول هو ٢٦ في برج القوس، وخطّ العرض هو ٢٢ درجة شمالًا، وبحسب قياساتي، لجأت إلى ثلاثة نجوم رئيسيّة لتكون نقاطًا دالّة لي: الدّبران وهو عين الثّور والغراب والطّائر وهو النّسر. ولاحظت على مدى أيّام متواصلة حركة النّجم المذنّب لكي أفهم مزاجه. وقد دوّنت هنا تفاصيل سيره بإسهاب حتّى يتمكّن شبابنا من الفلكيّين من دراستها بعد أن تكون روحي قد رحلت عن عالم الظّلال هذا.

توقّف تقيّ الدّين قليلًا، ولم يصدر في الحجرة أيّ صوت، ثمّ تابع: لم أنم إلّا قليلًا في اللّيالي السّبع التّالية، وتناوبت أنا وتلاميذي على الدّراسة...

قال سوكولو: لا شأن لنا بما فعلت، وقل لنا ماذا سيفعل النّجم.

أخذ تقيّ الدّين نفسًا كأنّه ينهل من هذه اللّحظة، من هذه الحجرة واستوعب كلّ شيء، فوجوه الأصدقاء والأعداء تراقب كلّ سكناته، ولعلّه شعر بوحدته مثل النّجم المذنّب الّذي كان يقتفي أثره. وضع إصبعه على الرّقّ وقفز إلى النهاية: وجدت أنّ المذنّب استهوته الزّهرة، ذنبه يمتدّ شرقًا وحركته من الشّمال إلى الجنوب. وبدراسة تكوين المذنّب ومزاج الكوكب الّذي جذبه، توصّلت إلى نتيجة مفادها أنّ هذا النّجم له طبيعة حسنة على العكس من المذنّبات الّتي زارت سماءنا في الأيّام الغابرة. وهو لا يضمر لنا أيّ سوء.

ندت عن الحاضرين همهمة ارتياح خافتة، فأومأ السّلطان بهزّة من رأسه وهو يتحدّث للمرّة الأولى: حسنًا إذًا. أخبرنا بشيء آخر.

قال تقيّ الدّين: سوف يتسبّب هذا النّجم بغيوم مطريّة كثيرة

Twitter: @ketab_n

وسيكون الحصاد وفيرًا.

قال ظلّ الله على الأرض: ماذا عن ميدان المعركة؟

ـ سوف يحقّق جنودنا انتصارًا مهمًّا يا صاحب الجلالة.

هنا ساد القاعة جوّ من الارتياح، واتّسعت الأحداق وأشرقت بالبهجة. وبهذا انتهى الاجتماع.

لكن، لم يحدث أيّ من تلك الأمور. فالحرب ضد إيران لم تنتهِ كما كان يُتوقّع لها، إذْ على الرّغم من الانتصار الّذي حققه الجيش العثمانيّ، إلا أنّ الخسائر كانت فادحة، لا تخفى على أحد. وحدث جفاف بعد ذلك، وظلّت حجرات حفظ الأطعمة خاوية على مدى أشهر، ونام الأطفال جياعًا. والأسوأ من كلّ هذا، هو الزّلزال الّذي دمّر أحياء برمّتها، ثمّ حلّ الطّاعون بعد ذلك مجدّدًا، ومات النّاس جماعات جماعات ودُفنوا أيضًا في مقابر جماعيّة. وحيثما كان المرء يلتفت كان يجد الفقر والحزن.

لقد أتى المذنّب بالشّقاء، ولكن لم يكن ثمّة من هو أشقى من تقيّ الدّين، فقد راح العلماء يدبّرون المكائد له. وبعد أن انتظر شيخ الإسلام الجديد أحمد شمس الدّين أفندي الفرصة لكي يوجّه ضربته إلى عالم فلك البلاط، وراح يهاجمه بكلّ ما أُوتي من قوّة، قال: «إنّ مرصده هو الّذي تسبّب بالكوارث الّتي حلّت بهذه المدينة». من هم حتّى يراقبوا الله؟ لا بدّ من أن يكون الأمر معكوسًا. إنّ الله يراقبهم. على بني البشر أن يسدّدوا أنظارهم إلى الأرض وليس إلى قبّة السّماء.

وأصدر السّلطان أوامره بهدم المرصد.

Twitter: @ketab_n

في صباح اليوم الّذي وصل الخبر إلى سمعهم، هرع التّلاميذ إلى منزل المعلّم، وراح أحدهم ينظر إلى الآخر، عاجزين عن الكلام، كأنّهم يسيرون في حلم.

أمّا سنان، فقد أمضى بقيّة النّهار جالسًا في السّرادق بمفرده، لعلّه كان يتذكّر زمنًا آخر عندما كان هو وتقيّ الدّين جالسين في هذا المكان مفعمين بالأمل وبسلامة طويّة. وبعد صلاة المغرب، خرج وقال بصوت رقيق ورخيم لم يعكس الصّلابة الكامنة تحته:

ـ لقد شيّدتموه، وعليكم أن تهدموه.

حاول نيقولا أن يحتجّ قائلًا: لكن، أيّها المعلّم...

هنا فقد جَهان رباطة جأشه. كان قلبه منذ موت أوليف مفعمًا بالغضب الشّديد، فانفجر في هذه اللّحظة قائلًا: أهذا هو السّبب الّذي دفعك إلى أن نشيّده؟ فأنت لم تشيّده لأنّك كنت تعلم أنّ هذا هو ما سيحدث.

فغر الآخرون أفواههم عجبًا ممّا يقول، لأنّهم كانوا كلّهم يساورهم التّفكير نفسه في أعماقهم، وسيطرت عليهم الدّهشة لأنّ جَهانًا كان يفتقر إلى الكياسة فتفوّه بهذا الكلام علانية.

قال سنان: بل لم أعلم، إذْ لو كنت أعلم بذلك لما طلبت منكم تشييده.

لكنّ جَهانًا لم يتمكّن من السّكوت بعد أن بدا الكلام، وقال مصرًّا: لماذا لم تدافع عن مرصدنا إذًا؟ كيف يمكنك أن تسمح بهدمه؟

ابتسم سنان ابتسامة حزينة، وغارت الغضون عميقًا من حول عينيه،

Twitter: @ketab_n

وقال: ثمّة أمور أقدر عليها وأخرى لا أقدر عليها. إنّني لا أستطيع منع النّاس من الهدم وكلّ ما أستطيع عمله هو الاستمرار في البناء.

❁ ❁

في المساء الّذي سبق يوم الهدم، اختلى كلّ واحد منهم بركنه متحاشيًا الحديث. وكان المعلّم في الطّبقة العليا قاعدًا مع أسرته في جناح الحريم. وكان نيقولا في المشغل، وداؤود بعيدًا من الأنظار، وسانتشا في حجرتها في الجزء الخلفيّ من منزل سنان، في حين انعزل جَهان في مأواه. ولم تستطع مسؤولة الخدم المسكينة من إقناعهم بتناول وجبة العشاء معًا، فاضطرّت لأن ترسل طعام كلّ واحد منهم على صينيّة منفصلة.

كان جَهان قد اشتاق إلى قضاء وقته برفقة فيله والانتباه إلى ما يحتاج إليه. لهذا، تعقّب في هذه اللّيلة مساعده الصّغير. وكان يؤمن من صميم قلبه بأنّ ما من أحد يمكنه أن يرعى الحيوان على النّحو الّذي يرعاه هو بنفسه. وكما هو دأبه في الأيّام الخوالي، راح يغسل الأرضيّة من البول ويزيل الرّوث وملأ البرميل ماءً ووضع أوراق شجر طازجة في المعلف، كما نظّف قوائم شوتا - الأماميّة الكبيرة والمدوّرة والخلفيّة الصّغيرة والبيضويّة - وكان حريصًا على ألّا يؤذي باطنها الرّخو. وتفحّص أظافره، الثّمانية عشر، وقلّمها ونظّفها وفركها مستخدمًا البلسم، واحدًا تلو الآخر. فقد دفع شوتا ثمنًا باهظًا من صحّته وهو يتحمّل العناء الشّديد في مواقع العمل ويسير سيرًا ثقيلًا وبطيئًا فوق التّلال المنحدرة، سنة بعد سنة. كانت أظافره قد تشقّقت، يكاد أحدها أن ينخلع.

تفحّص جَهان خرطومه بحثًا عن أيّة بثور، واغتبط عندما لم يجد أيًّا منها، كما فحص ذنبه ليتأكّد من عدم وجود أيّ برغوث أو حشرات

Twitter: @ketab_n

صغيرة. وأنعم النّظر في الأوعية الدّمويّة الدّقيقة من وراء أذنيه بحثًا عن القمل الّذي يعدّ أسوأ ما يصيب الحيوان. واستغرب جَهان من حيوان ضخم كالفيل يقف عاجزًا أمام أصغر المخلوقات، لكنّ الحقيقة هي أنّ قملة واحدة يمكن أن تعكّر مزاج الفيل. وعلى الرّغم من أنّه وجد بعض الأورام البنّيّة الصّغيرة، إلّا أنّه لم يشاهد ما يستدعي القلق والذّعر. بعد أنّ حمّمه جَهان، راح ينعم النّظر إلى ظهره علّه يجد جروحًا ودمامل، ودهن المناطق الجافّة من جسمه بمرهم، في حين لبث شوتا ساكنًا وصابرًا طوال ذلك الوقت، ومستمتعًا بكلّ تلك العناية والرّعاية. كما أنّ جَهانًا استمتع أيضًا بما كان يفعله، إذْ ساعده ذلك على نسيان يأسه ومرارته وإن كان يعلم أنّه سيتذكّر كلّ شيء من جديد قبل أن يمرّ وقت طويل. ولمّا فرغ، هزّ شوتا خرطومه: إنّه يسأله عن رأيه في مظهره.

قال جَهان: جميل كالذّهب.

وهنا انساب إلى سمعه صوت وقع خطوات من خلف البوّابة المفتوحة قليلًا، فقال وهو يعتقد أنّ أحدًا أتى له بالطعام: تعال هنا!

لكنّه دُهش حين رأى سنانًا، فما كان منه إلّا أن مسح يديه بخرقة مشبّعة بالدّهون، وهرع إليه قائلًا: مرحبًا بك أيّها المعلّم.

لم يظنّ جَهان أنّ من الكياسة دعوة سنان إلى دخول الزّريبة، لهذا أضاف على عجل: أتريدني أن أخرج؟

ـ دعنا نتحدث هنا، فهذا أفضل.

فرش جَهان كسوة شوتا فوق كومة من القشّ جاعلًا منها كرسيًّا غريبًا، نصفه من المخمل والنّصف الآخر من القشّ.

قال سنان بعد أن جلس: لم أفكّر قطّ في أنّ اليوم سيأتي عندما أطلب منك ما سوف أطلبه الآن.

قال جَهان وإن كان غير متأكّد من أنّه يريد أن يسمع جوابًا: ما هو؟

Twitter: @ketab_n

ـ إنّني بحاجة إلى مهاراتك، مهاراتك الأوّليّة إن شئنا القول، وليس مهاراتك بصفتك واضع تصاميم.

عندما رأى سنان أنّ جَهانًا لم يوفّق في محاولته، أوضح ببطء: عندما كنت تسرق من النّاس حاجيّاتهم. أعرف أنّك قد تخلّيت عن ذلك العمل الآن.

يا للعار! يا للهول! إذًا المعلّم يعرف كلّ شيء عن سرقاته! فسرت في جسده قشعريرة الإحساس بالذّنب وامتدّت إلى أنامله، لكنّه لم ينكر ذلك، فقال: نعم، حسنًا... لكنّني... لا أفهم.

ـ أريدك أن تسرق بعض الأشياء لأجلي يا بنيّ.

حدَّق إليه جَهان، وقال: كما تعلم، سوف يتمّ هدم المبنى غدًا. الأدوات. الكتب. لقد حدث كلّ شيء على عجل ولم يكن تقيّ الدّين يملك من الوقت ما يكفي لإنقاذها. الأبواب مقفلة ولا يمكن أحدًا الدخول.

أومأ جَهان برأسه وبدأ يفهم أخيرًا ما الذي كان يعنيه المعلّم.

ـ لو تمكّنا من الحصول على بعض الكتب، لكان ذلك عزاء لصديقنا.

ـ صحيح أيّها المعلّم.

قال سنان وهو يخفض صوته ليصبح همسًا: مؤكَّد أنّك لست مضطرًّا للموافقة، فقد تكون هذه الفكرة شرِّيرة.

ـ بل أظنّها فكرة ممتازة.

ـ قد تكون خطيرة يا بنيّ.

ـ إذا سمحت لي أيّها المعلّم، فإنّ السّرقة خطيرة دومًا.

كافأ سنان تلميذه بابتسامة تشوبها اللّهفة، والتفت جانبًا كأنّ رؤيته إيّاه أخرجت روحه وأعادتها إليه في الوقت نفسه.

Twitter: @ketab_n

قال سنان بعد هنيهة: ينبغي أن يكون هذا الأمر سرًّا بيننا.

قال جَهان: وشوتا، فهو يستطيع السّير هادئًا هدوء الجواد. كما يمكنه حمل أشياء أكثر.

ـ حسنًا. سوف نأخذه معنا.

ـ معنا؟ أتعني أنّك سترافقنا؟

ـ بالتّأكيد، فأنا لا أستطيع إرسالك وحدك.

فكّر جَهان في هذا الكلام لحظة، وفكّر في أنّه لو قُبض عليه فإنَّه سيُحاسَب على أنه لصّ اعتياديّ. أمّا إذا قُبض على سنان، فإنّه سيفقد سمعته، بل وموقعه في البلاط. وسيلحق الدّمار بكلّ عمّاله وأسرته وتلاميذه الّذين ينظرون إليه بصفته أبًا، وقال: إنّني لا أستطيع العمل برفقة أحد بجانبي، وهذا مخالف لطبيعتي.

اعترض المعلِّم. وقاوم التّلميذ. فقال سنان إنّه سيلغي العمليّة كلّها، لكنّ جَهانًا قال إِنّ الأوان قد فات، وإِنّه بعد أن سمع بها، فإنّه سينطلق للتّنفيذ في كلّ الأحوال. يا لها من حرب كلمات غريبة! كانا يتخاصمان من دون خصام.

قال سنان: حسنًا.

وافق في نهاية الأمر بحركة آليّة من يده فهمها جَهان على أنّها إشارة إلى ثقته به وليس إلى هزيمته. قدّم المعلِّم بعدذاك كيسًا من النقود لتلميذه. وأخبره بأنّه إذا صادف الحارس اللّيليّ، فينبغي أن يرشوه. وقد يفلح في ذلك، وقد يخفق لأنّ ذلك يعتمد على طبع الرّجل ومزاجه وما تخبئه العناية السّماويّة لجَهان.

جفل الاثنان لمّا طرق سمعهما وقع خطوات تقترب منهما ولاح للعيان غلام، حاملًا صينيّة عليها طاس من شوربة يتصاعد منها البخار، فضلًا عن الخبز والماء والبقلاوة. انتظرا حتى وضع الطّعام جانبًا ومضى في سبيله.

Twitter: @ketab_n

قال المعلّم: كُلْ! فاللّيل طويل.

قطع جَهان كسرة من الخبز وغمسها بالشّوربة وازدردها، فحرق سطح لسانه، إذْ واتته فكرة، وقال: هل ثمّة شيء معيّن تريد منّي نقله؟

ردّ سنان رافعًا حاجبه متوقّعًا ذلك السّؤال: حسنًا. ليست الأجهزة والأدوات لأنّها كبيرة جدًّا، بل ينبغي إنقاذ الكتب، أكبر عدد منها. وإذا استطعت، حاول أن تعثر على خريطته، فأنت تعلم مدى الجهد المضني الّذي بُذلَ في وضعها.

خريطة القمر والشّمس والنّجوم والأجرام السّماويّة. سنوات طويلة من العمل الشّاقّ. لماذا لم يأخذها رئيس الفلكيّين الملكيّ معه؟

قال سنان كأنّه قرأ ما يجول في ذهن جَهان من أفكار: احتفظ تقيّ الدّين بمقتنياته الثّمينة في المرصد، لأنّ المرصد كان بيته.

تناول جَهان بضع ملاعق من الشّوربة، ثمّ وضع كسرة أخرى من الخبز في فمه واحتفظ بالبقيّة الباقية منه في زنّاره، وقال: إنّني على استعداد للذّهاب.

Twitter: @ketab_n

كان القمر بدرًا منيرًا فوق المدينة، نارًا موقدة من زمن غابر. ركب جَهان فيله وانطلق إلى توفاني وسط الظّلال. كانت بنايتا المرصد وفوقهما السّماء الرّماديّة يبدوان مثل عملاقين يعانق أحدهما الآخر. شعر جَهان بطعنة ألم حادّة في أحشائه عندما أدرك أن البنايتين ستستحيلان أنقاضًا بحلول يوم غد. فوثب إلى الأرض، وأصغى جيّدًا في اللّيل ليتأكّد من عدم وجود أحد في الجوار. وطلب بهدوء من شوتا أن ينتظره في محلّه وكافأه على ذلك بأن قدّم له المكسّرات والكمثرى الّتي سرعان ما التهمها. كان جَهان قد أحضر معه أكياسًا لحمل الكتب. وبعد أن أمسك بها وقبّل خرطوم شوتا ثلاث مرّات تيّمنًا بحسن الطّالع، توجّه مباشرة إلى المرصد.

في البدء، جرّب جَهان الولوج من المدخل الرّئيسيّ، فوجد قفلًا صدئًا متدليًّا منه، فعبث به قليلًا واستخدم النّصل والقضيب اللّذين أحضرهما معه وكانا مخبّئين في زنّاره. ولم يكن فتحه بالأمر الصّعب كما ظنّ، لكنّه لن يتمكّن من إعادة كلّ شيء إلى موضعه. ففي الغد، سوف يعلم الكلّ أنّ أحدًا ما اقتحم المكان.

زحف إلى ما وراء الجدران وأنعم النّظر في الأبواب الخلفيّة من كلا الجانبين. ولمّا كان ثمّة ممرّ يربط بين البنايتين، فلا فرق بين أيّ البابين ينبغي له أن يسلكه إذا وجد سبيلًا إلى ذلك، ثمّ رأى ما كان يحتاج إليه: نافذة مستديرة في الطّبقة الأرضيّة، وتذكّر أنّها كانت مرتخية في هذا الشتاء ولم يتمّ إصلاحها. وكان تقيّ الدّين قد تذمّر قائلًا إنّ العامل قد أدى عملًا أخرق ولم يكمله وإنّه نسي كلّ شيء بعد ذلك، كما نسيه الآخرون.

في اللّحظة التالية، كان جَهان ينخس النّافذة. وبعد برهة، انخلعت

Twitter: @ketab_n

مفصلة النّافذة، فدفعها وانفتحت وانسلّ منها. كان المكان غارقًا في الظّلمة، فأدرك أنّه لم يكن قد أخذ هذا الأمر في الحسبان، فانثنت ركبتاه تحته، وانتظر حتّى ألفت عيناه الظّلمة وراح بعدها يستدلّ على الأشياء. فارتقى السّلّم، اللّولبيّ ووصل إلى المكتبة، فهاجمته رائحة قويّة هي مزيج من عبق الورق والحبر والجلد والرّقوق ولطمته على وجهه. كان كلّ رف جرحًا مفتوحًا ينزف في اللّيل. اختلس نظرات خاطفة يمينًا وشمالًا وهو يتعثر في مشيته، فرأى آلاف الكتب والخرائط والمخطوطات. كيف يمكنه أن يعرف أيّ الكتب أثمن من غيرها؟ وكيف يمكنه أن يقدّر ذلك؟ بعمرها؟ بمؤلّفها؟ بموضوعها؟

سار جَهان من رفّ إلى آخر، ملتقطًا الكتب التقاطًا اعتباطيًّا، تنشقّها ولمسها، ثمّ قرّبها من النّافذة حيث كان شعاع من ضوء القمر يلمع لمعانًا خفيفًا. كلمات باللّاتينية والعربيّة والعثمانيّة والعبريّة والإغريقيّة والأرمنيّة والفارسيّة انهالت عليه. فشهق. فجأة غضب من نفسه، فهو يضيّع الوقت الثّمين في شكوكه. وانتابه هلع، فأخرج الأكياس الّتي أحضرها معه وراح يملأها بما يقع تحت يديه من كتب. ولمّا كان عاجزًا عن الاختيار بينها، فإنّه لم يعمد إلى ذلك الاختيار. وقرّر أن يأخذها كلّها.

هكذا أفرغ الرّفّ الأوّل والثّاني والثّالث. وامتلأ أحد الأكياس بها. وابتلع الكيس الثّاني كتب الرّفوف الثلاثة الأخرى، ثمّ تقدّم إلى أمام مترنّحًا مثل رجل مخمور. لقد كان ثقيلًا وقرّر أن يفرغ الكيس من بعض المجلّدات بيدين مرتعشتين، وأسنان مصطكّة كأنّه أمام تيّار هوائيّ بارد، وهمس: سوف أعود.

خرج، فوجد شوتا ينتظره، وراح يفرغ الكتب في الهودج وعاد مهرولًا منقطع الأنفاس. ولعن نفسه لأنّه لم يحضر معه عربة يد، لأنّ ذلك أيسر وأسهل. وملأ الأكياس مجدّدًا، بخمسة أو ستّة رفوف،

Twitter: @ketab_n

لينطلق بعد ذلك خارجًا. ولم يستطع أن يعدّ كم مرّة يتمكّن فيها من القيام برحلة الإياب. كان يلهث لهاثًا شديدًا، وجلًا من أن يسمعه شخص ما ويضيّع كلّ شيء سدًى.

بلع ريقه وفمه يابس وحاول أن يتمالك رباطة جأشه. كان الفجر خارج النّافذة آخذًا بالبزوغ، وقال في نفسه إنّ هذه المرّة ستكون الأخيرة. كفى. فقد أنقذ ما أمكنه إنقاذه، أمّا ما لم يستطع إليه سبيلًا، فلا بأس. عند ذلك، حدث شيء لم يكن بالحسبان. شيء ما لن يبوح به لأيّ شخص حتّى بعد مرور سنوات ويصبح شيخًا طاعنًا في السّنّ. فقد بدأت الكتب والمخطوطات والخرائط تناديه بصوت خافت أوّل الأمر، ثمّ بنبرة تزداد علوًّا، متوسّلة إليه أن يأخذها معه. وتمكّن جَهان من أن يرى أفواهها الورقيّة الممزّقة ودموعها الحبر، وهي ترمي بنفسها من فوق الرّفوف وتسقط فوق بعضها بعضًا وتعرقل طريقه، متّسعة العيون من هول فزعها. شعر جَهان بأنّه مثل رجل في قارب يبحث عن عدد محدود من البشر لإنقاذهم في عاصفة هوجاء بينما المئات يغرقون حوله.

ترقرقت عيناه بالدّمع، فملأ ثلاثة أكياس أخرى ومضى مسرعًا كأنّ قوّة لا مرئيّة تطارده. أمّا كيف امتطى شوتا أو كيف وصل إلى منزل سنان، فهذا ما لم يتذكّره حتّى بعد تلك اللّيلة، وسلّم معلّمه الكتب كلّها، ورفض أن يقترب منها خشية أن تكلّمه مجدّدًا.

قال سنان: لقد أنقذت الكثير أيّها التّلميذ الهنديّ.

قال جَهان عابسًا: وتخلّيت عن الكثير غيرها.

أفرغ سنان الأكياس، ولاح طيف قلق على جبينه المتغضّن ومسح الكتب وأخفاها في مكتبته. وفي وقت لاحق، أخبر جَهانًا بأنّ عددها بلغ ٤٨٩ كتابًا.

لم يتذكّر جَهان أن يفتّش عن خريطة تقيّ الدّين على عجالته إلّا بعد أن عاد إلى حجرته ووضع رأسه على فراشه وأفلح في تهدئة نفسه. في

Twitter: @ketab_n

نهاية الأمر، لم يتمكّن فلكيّ البلاط من أن يتحاشى ما كان يمقته أشدّ المقت. لا بدّ للعلم والحكمة من أن يكونا مجتمعين، وأن يمضيا من دون توقّف من جيل إلى جيل، لكن ينبغي للفلكيّين الشّبّان الّذين سيأتون من بعده البدء من جديد تمامًا.

❁ ❁

في اليوم التّالي، وكان الوقت بُعيد بزوغ الفجر بقليل، كانت السّماء تقطر دمًا وأسًى فوق المدينة عندما وقف ستّتهم ـ سنان والتّلاميذ والفيل، وهم على أهبة الاستعداد لهدم ما شيّدوه. في تلك اللّحظة، لم يخفق جناحا حمامة في كنف المبنى البارز، ولم تهبّ نسمة هواء واحدة. ولاحظ جَهان الدّموع تترقرق في عيني سنان. ولم ينطق أحد بكلمة واحدة.

وانهمكوا طوال اليوم برفقة العمّال الّذين وصلوا بعد ذلك حاملين مطارقهم وفؤوسهم وبارودهم، في هدم الأبواب والنّوافذ وتقويض الجدران. وجذب شوتا بكلّ ما أُوتي من قوّة الحبال المربوطة إلى الأعمدة الخشبيّة. وجاء الأهالي ليتفرّجوا، فاغتبط بعضهم وهلّل وصفّق، لكنّ الغالبية منهم وقفت صامتة مبهوتة.

وبعد مرور ثلاثة أيّام، وبعد هدم آخر حجر في المبنى، تناهت إلى المسامع أصوات الأدعية والصّلوات، تمامًا مثلما كانت قد تصاعدت مثلها قبل ثلاثة أعوام عندما وضع تلاميذ سنان حجر الأساس، لكنّ الحاضرين في هذه المرّة توجهوا إلى الله بالحمد والثّناء على هدم صرح الخطيئة.

شعر جَهان بتمزّق حادّ في أحشائه يوازي هدم المرصد. فلولا حبّه لمهرماه وإخلاصه لسنان لهجر هذه المدينة ذات الآجر المحطّم والخشب المحترق. وهتف به هاتف من أعماقه: اذهب من هنا، ولكن إلى أين؟ لقد بلغ من الكبر عتيًا، ولم يعد يطيق المغامرة مجدّدًا. اذهب ـ هتف به الصّوت متوسّلًا ـ لكن كيف؟ فعلى قدر ما انتقد أساليب

Twitter: @ketab_n

إسطنبول، استحوذت على روحه. كما أنّ الأحلام لم تراوده في مكان آخر. اذهب، حذّره الصّوت، ولكن لماذا؟ العالم مرجل يغلي، وفيه طبخة الآمال والأحزان نفسها، قريبًا وبعيدًا.

لقد وهب نفسه على مدى سنوات طويلة من أجل مدينة ظلّ فيها، ولا يزال، غريبًا. حبّه مكرّس لامرأة صعبة المنال، وشبابه وقوّته لحرفة أُهمل شأنها عند أوّل تغيّر طفيف في الأحداث، وإن كانت لا تزال ذات قيمة. فكلّ ما شيّدوه على امتداد الأعوام، حجرًا فوق حجر، يمكن أن يهدم في عصر يوم من الأيّام، وإنّ ما هو موضع اعتزاز اليوم يمكن أن يعامل باحتقار غدًا. فكلّ شيء يظلّ خاضعًا للقدر، واليوم، لا يساوره أيّ شكّ في أنّ القدر له نزواته وطبعه الشّاذّ.

كانت الأسابيع الّتي أعقبت ذلك هي أكثر الأيّام حلكة وكآبة في إسطنبول. ولم يستطع منع نفسه من التّساؤل عن السّبب الّذي دفعهم إلى العمل بجدّ ومشقّة في أقلّ التّفاصيل بينما لم يعارض أحد مدى الجهد الّذي بذلوه، لا السّلطان ولا الأهالي ولا الله على وجه التّوكيد. لم يبدُ عليهم الاهتمام بأيّ شيء سوى حجم المباني وأبّهتها وعدم الإساءة إلى الخالق. لماذا صبَّ سنان جلّ اهتمامه على أدقّ التّفاصيل، في حين لم ينتبه لها ولم يقدّرها حقّ قدرها سوى قلّة قليلة من النّاس؟

ما من شيء يدمّر روح الإنسان أكثر من الاستياء الّذي يتأجّج في داخله. من النّاحية الظّاهريّة، ظلّ جَهان يمارس الأشياء الّتي كان يمارسها حتّى الآن، العمل جادًّا برفقة معلّمه وإطعام شوتا، وان لم يكن ليلبّي بعد ذلك كلّ متطلّباته. أمّا من النّاحية الدّاخليّة، فقد استحوذ خدر على فؤاده، مزيلًا بذلك كلّ أثر من آثار البهجة مثل ثلج ذائب يزيل آثار الحياة. لقد بدأ يفقد إيمانه بحرفته. في سنوات خلت، لم يدرك إلّا قليلًا أنّ قيمة إيمان الفرد لا تعتمد على متانته وصلابته، بل على عدد المرّات الّتي سيفقد فيها ذلك الإيمان ويبقى قادرًا على استعادته.

Twitter: @ketab_n

كان أشدّ الأيّام برودة على مدى السّنوات الأربعين الماضية هو اليوم الّذي وصفوه بيوم وفاة مِهرماه. فالقطط تجمّدت في شوارع سكوتاري أثناء وثوبها من سطح إلى آخر وتعلّقت في الهواء مثل مصابيح بلّورية. واضطرّ المتسوّلون والحجّاج والدّراويش الجائلون والّذين لا يملكون مأوًى مستقرًّا لأن يلوذوا بالملاجئ المخصّصة للفقراء والعجزة خشية أن يتحوّلوا ثلجًا. ولن يعرف جَهان أبدًا السّبب الّذي دفعها إلى اختيار مثل هذا اليوم لترحل عن هذا العالم، فقد كانت قد ولدت في فصل الرّبيع وكانت تحبّ الزّهور المتفتّحة.

كان قد داهمها المرض منذ بضعة شهور، وتدهورت صحّتها على الرّغم من ازدياد عدد الأطبّاء الّذين كانوا حولها يوميًا. رآها جَهان ستّ مرّات في تلك الأشهر الأليمة والكئيبة. كانت في تلك الأيّام قد ازدادت نحولًا، ورأى في أغلب الأحيان حسنة خاتون، رسولها الخاصّ، ممتعضة ومتردّدة. كانت المرأة العجوز تأتي إلى مأوى الحيوانات حاملة معها رسائل من الأميرة وتنتظر جانبًا حتّى يفرغ جَهان من كتابة ردوده عليها. وكان جَهان يتمهّل في الكتابة، منتقيًا عباراته بحرص شديد على الرّغم من أنّ المربّية كانت بجانبه تنفخ وتفشّ، لتتوارى أخيرًا وهي تحملق فيه، حاملة رسالته المختومة بالشّمع.

هكذا كان جَهان يتوقّع وصول رسالة في صباح يوم من أيّام شهر كانون الثّاني ١٥٧٨، عندما جاءت المربّية إلى مأوى الحيوانات، ملتفّة بعباءة فرو، وبدلًا من الرسالة، قالت له: ترغب صاحبة السّموّ في رؤيتك.

Twitter: @ketab_n

فُتحت بوّابة مغلقة على مصراعيها أمامه، وأُضيئت قاعات خفيّة، والتفت الحرّاس الّذين شاهدوه قادمًا، متظاهرين بأنّهم لم يروه. كان كلّ شيء مرتّبًا ومعدًّا من قبل. ولمّا وصل جَهان إلى حجرة نومها، بذل قصارى جهده كي يحتفظ بابتسامته سليمة. كان وجه مهرماه متّقدًا، جسدها متورِّمًا، ساقاها وذراعاها ورقبتها وحتّى أصابعها منتفخة كأنّها تعرّضت للسعة الزّنبور الّذي كانت تهرب منه أيّام طفولتها.

قالت: حبيبي جَهان...

توقّف جَهان عن التّظاهر بالرّزانة ودفن أنفه في حافّة غطاء الفراش. كان قد مكث هنا طوال هذا الوقت، وفي البقعة الكائنة عند حافّة وجودها. وعندما شاهدته ينخرط في البكاء، رفعت يدها وقالت برقّة: لا تبك!

فأسرع جَهان بالاعتذار، لكنّها ردّدت مجدّدًا: لا تبك!

كان الهواء في الحجرة غير نقيّ بسبب النّوافذ الموصدة والسّتائر الثّقيلة. وسيطرت رغبة قويّة على جَهان بفتحها، لكنّه ظلّ مسمّرًا في مكانه لا يتحرّك.

أمرته بالاقتراب منها، اقترابًا أكثر، على الرّغم من نظرات حسنة خاتون الملتهبة، ووضعت يدها على يده، وعلى الرّغم من أن أيديهما تلامست قبل الآن، خفيةً دائمًا، إلّا أنّ هذه كانت المرّة الأولى الّتي شعر فيها بأنّ جسدها فتح أبوابه لجسده. وقبّلها على شفتيها، وتذوّق طعم الأرض.

قالت: لقد بعثت أنت وفيلك الأبيض البهجة والسّرور في حياتي.

حاول جَهان أن يتفوّه بكلمة ترفع من معنويّاتها، لكنّه لم يعثر على الكلمات الّتي من شأنها أن تسمح له بها. وبعد مدّة قصيرة، حضرت خادمة حاملة وعاءً فيه «الكاسترد» المحلّى بماء الورد، لكنّ الرّائحة

Twitter: @ketab_n

العذبة الّتي كانت تشحذ شهيّتها في الأيّام السّابقة جعلتها تشعر الآن بالغثيان، فما كان من جَهان إلّا أن قدّم لها ماءً، فشربته بهيام.

ـ عندما لا أكون قريبة منك، فربّما تطرق سمعك أشياء عنّي قد لا تروقك.

ـ لا أحد يجرؤ على التّفوّه بمثل هذه الأقاويل عنك يا صاحبة السّموّ.

ابتسمت ابتسامة واهنة.

ـ مهما حدث بعد رحيلي، فإنّني أريدك أن تفكّر فيّ بقلب مفعم بالدّفء. هلّا وعدتني بألّا تلتفت لمروّجي الشائعات والمفترين؟

ـ لن أصدِّقهم أبدًا.

بدت مرتاحة، لكنّها سرعان ما قطّبت حاجبيها، إذْ مرّت فكرة أخرى بخاطرها.

ـ وإذا ساورتك الظّنون عنّي؟

ـ يا صاحبة السّموّ، أبدًا لن...

لكنّها حالت بينه وبين إكمال عبارته قائلة: إذا ساورتك ظنونٌ عنّي، فتذكّر أنّ ثمّة سببًا لكلّ شيء.

أراد جَهان أن يسألها عن مغزى كلامها لو لم يطرق سمعه صوت وقع خطوات، ولاح للعيان أطفالها الثّلاثة، يسير أحدهم وراء الآخر. وتملّكت الدّهشة جَنان عندما رأى عائشة وقد ازدادت طولًا عن آخر مرّة رآها فيها. وراح الأطفال يقبّلون يد أمّهم واحدًا تلو الآخر. وساد صمت يحترم رغبتها بعد ذلك وتظاهر أصغرهم سنًّا برباطة الجأش وإن خانته ارتعاشة شفته السّفلى.

ولمّا انصرفوا من عندها، رمق جَهان حسنة خاتون بنظرة مؤلمة، إذْ كان في وسعه أن يرى من حركاتها العصبيّة المتململة أنّها كانت تتمنّى

Twitter: @ketab_n

أن يمضي في سبيله، لكنّه لم يرغب في الانصراف، وشعر بالارتياح عندما قالت له مهرماه وهي تشعر بضيقه: ابق هنا!

عندما أرخى الظّلام سدوله، ازداد اضمحلال أنفاسها، فانتظر جَهان وحسنة خاتون، كلّ واحد من أحد جانبيها، هي تدعو وتمتم بالصّلوات وهو يستحضر الذّكريات. مرّت ساعات في لوعة، وجاهد جَهان كي تظلّ عيناه مفتوحتين بعد أن تجاوز الوقت منتصف اللّيل، واستبدّ به إحساس بأنّها ستبقى على ما يرام ما دام أنّه إلى جوارها.

❁ ❁

كان أذان الفجر هو الّذي أيقظ جَهان من غفوته. ما من حركة في الحجرة، وما من صوت. نهض واقفًا على قدميه مترنّحًا وقد استبدّ به رعب مفاجئ. حملق في المرأة العجوز الّتي بدت كأنّها لم يغمض لها جفن.

قالت حسنة خاتون بمرارة: رحلت. رحلت غزالتي.

Twitter: @ketab_n

بعد مرور عشرة أشهر، وضع سنان والتّلاميذ اللّمسات الأخيرة على مسجد سوكولو. قبّة وسطى وثمانية أقواس وثمانية أعمدة وفناء من طبقتين. وثمّة بهو مسقّف يغمره نور الشّمس المتسلّل من نوافذ واسعة محاذية للمصلّى القريب. وكان المنبر من المرمر الأبيض الخالص المؤطّر بقرميد شذريّ اللّون. وثمّة شرفة أنيقة وفخمة تحيط بمدخل المسجد الّذي كانت له شخصيته القوية مثل شخصيّة الإنسان، وإن لم يكن بفخامة مسجد السّلطان.

جاء الصّدر الأعظم سوكولو لإلقاء نظرة إلى البناء، يرافقه الوزراء والحرّاس والتّابعون والمتزلّفون. وتفحّص المبنى الّذي سيخلّده، طارحًا أسئلة لا أوّل لها ولا آخر، يتحرّق شوقًا حتّى يفرغ العمّال من البناء. كان يسير مختالًا، فهو أكثر رجال الإمبراطوريّة في بعد النّظر، ثاقب البصيرة، داهية بعد أن عمل بإمرة ثلاثة سلاطين وهم سليمان وسليم ومراد. وتساءل الكثيرون كيف أمكنه أن يبقى على قيد الحياة طوال هذه السّنين في حين قُطعت رؤوس عدد كبير من رجالات الدّولة لأتفه الأسباب. وردّدت الألسن أنّ جنّيّة تساعده وهي ولهى به ولا يستطيع أحد أن يتلفّظ باسمها. ومتى ما كان سوكولو في خطر، فإنّ الجنّيّة تحذّره.

راقب جَهان ما يجري من بعد، فهو لم ينسَ بعد ذلك اليوم الّذي مرّ عليهم وهم في زيغتفار عندما وضعوا جثّة السّلطان الرّاحل سليمان في الهودج على ظهر شوتا، متظاهرين أنّه على قيد الحياة.

منذ ذلك اليوم، عمل الزّمان عمل نحّات مخلص في عمله، ورسم

Twitter: @ketab_n

ملامح سوكولو، وأكسب وجهه نظرة صارمة. في تلك اللّحظة، وبينما كان جَهان منشغل الذّهن بمدى تقدّم الرّجل في السّنّ، توقّف الصّدر الأعظم والتفت، والتمعت عيناه لمّا رأى مروّض الفيل.

صرخ الصّدر الأعظم مفرقعًا أصابعه فرقعة تنمّ عن احتقار: ما سبب هذا الشّعر الأشيب في رأسك يا مروِّض الفيل؟ يبدو أنّك تقدَّمت في السّنّ!

أحنى جَهان رأسه باحترام، لكنّه لم يقل شيئًا، فمنذ رحيل مهرماه، شعر بأنّ السّنين شديدة الوطأة عليه أكثر من أيّ وقت مضى.

انضم سنان إلى الحديث، وقال: إن جَهان واحد من أفضل تلاميذي يا مولاي.

استفسر سوكولو عمّا يفعله جَهان وعن مكان الفيل وإن لم يلتفت إلى الجواب عن كلا السّؤالين. وبعد ساعة، ابتعد الصّدر الأعظم بجواده، لكنّ جَهانًا لم يحوّل بصره عنه إلّا بعد أن غابت ملامحه غياب ظلّه على امتداد الطّريق، وابتلعه الظّلام في نهاية الأمر. في تلك اللّيلة، هبّت عاصفة، فنالت الأشجار وأغرقت الحفر، تاركة كلّ شيء في فوضًى.

في صباح اليوم التّالي، وجد جَهان الموقع غارقًا بالقاذورات. وكانت جداول المياه القذرة تنساب في كلّ الجهات. ورأى أمامه عددًا من العمّال يدفعون عربة تعطّلت في الطّريق بسبب الأوحال. ورأى فريقًا آخر ينصب قطعة خشب عظيمة وهو يستعين ببكرات فولاذيّة ويصيح بصوت واحد: الله، الله، كأنّ البناء حرب مقدّسة لا بدّ من الانتصار فيها. وعلى السّطوح المائلة، راح عمّال آخرون يصلحون من الأجزاء المتضرِّرة. هكذا، فحيثما نظر، وجد عمّالًا منهمكين في العمل أو يصلحون الأضرار. أمّا الوحيد الّذي كان بلا عمل فهو شوتا الّذي كان يخوض في بركة بنية اللّون، مبتهجًا بها.

Twitter: @ketab_n

ثمّة سقيفة موقّتة خارج المسجد، قبالة المجاز الصّحّيّ، كان المعلّم يلجأ إليها كلّما أحسّ بحاجته إلى الرّاحة. في ذلك اليوم، أمضى سنان طوال العصر مستلقيًا على سطح مستوٍ، ملتفًا بمناشف دافئة بعد أن عانى ألمًا في ظهره. وجاء طبيب يهوديّ وسحب منه طاسين من الدّم للتّخلّص من الأخلاط الخبيثة، ثمّ وضع كمّادات على مفاصله الّتي تؤلمه.

بعد صلاة المغرب، فُتح الباب وخرج المعلّم ممتقع الوجه، نعسانَ، لكنّه باستثناء ذلك، على ما يرام. لوّح لجَهان وكاد يلقي عليه التّحيّة لولا أنّ شيئًا غريبًا حدث، إذْ فقد عامل على السّطح سيطرته على صحائف الرّصاص أثناء جذبه إيّاها، بعد أن انقطع الحبل الّذي كان يمسك به، فسقط الحمل كلّه إلى أسفل في اللّحظة الّتي كان سنان فيها يمرّ من هناك.

شقّت الفضاء صرخة مدوّية، صدرت حادّة عن امرأة على ما يبدو. وكانت صرخة سانتشا الّتي جاءت بثلاث كلمات: تنبّه أيّها المعلّم!

سقطت الصّحائف محدّثة دويًّا هائلًا، لكنّ سنانًا نجا بأعجوبة عندما تحاشاها، ومال إلى الجانب، ولو لم يتحرّك لشقّته نصفين مثل سيف داموكليس(١).

قال سنان عندما هرعوا إليه: إنّني بخير.

في تلك اللّحظة، كان الحاضرون قد التفتوا كلهم إلى سانتشا الّتي تورّد وجهها تحت أنظارهم المحملقة بها، وتهدّلت شفتها السّفلى.

---

(١) سيف داموكليس The Sword of Damocles: رجل من حاشية ديونيسيوس حاكم سيراكوزا في القرن الرابع ق.م. دعاه الحاكم إلى وليمة وعلّق فوق رأسه سيفًا مربوطًا بشعرة حصان ليبيّن له أنّ سعادة الظّالم معرّضة دائمًا للأخطار بعد أن أراد أن يختبر السعادة الّتي كان يدّعيها داموكليس (المترجم).

Twitter: @ketab_n

قال سنان في خضم ذلك الصّمت المربك: يا للنّعمة الّتي أنعم الله علينا بها ونحن نسمع صوت يوسف! إنّ الخوف يفكّ الألسنة المنعقدة كما يقولون.

خفضت سانتشا رأسها مرتعدة مثل دمية مصنوعة من قماش. وتحاشت في ما تبقّى من ساعات العمل بقيّة النّاس، ولم يتجرّأ جَهان على الاقتراب منها. وراودت الشّكوك العمّال وقالوا بصوت خافت: ثمّة خنثى بيننا، وراحوا يختلسون النّظرات إليها. وغار في عالم النّسيان شخص نصفه ذكر ونصفه الآخر أنثى، فاحتمال أن يكون يوسف امرأة لم يخطر ببال أحد.

في اليوم التّالي، لم يحضر إلى موقع العمل رئيس تلاميذ سنان، مثلما لم يحضر في اليوم الّذي تلاه. وقيل في تفسير الغياب، إن يوسف اضطرّ لأن يغيب بضعة أسابيع بسبب مرض ألمّ به. ولم يستفسر أحد عن المكان الّذي ذهب إليه ولا كيف ذهب. وراود الكلّ هاجس أنّه من المستحسن، والأكثر أمانًا، ألّا يعرف أحد شيئًا بعد أن اكتشفوا سرًّا. لكنّ جَهانًا وحده هو الّذي أدرك أن هذه هي النّهاية، وأنّ سانتشا لن تواصل العمل معهم مجدّدًا، لأنّ من شأنها أن تضع نفسها والمعلِّمَ أيضًا في خطر إذا عادت إلى العمل، فعادت إلى الحياة الّتي كانت تكرهها: حياة المحظيّات.

❁ ❁

في ذلك الأسبوع نفسه، كان جَهان قد يمّم شطر موقع العمل، مستغرقًا في التّفكير، عندما لمح خبلًا سبق لشوتا أن وطأه في الوحل، فما كان منه إلّا أن التقطه من دون تفكير.

وبينما هو يتأمّله، اكفهرّ وجهه. فالخيطان الجانبيان مقطوعان، ولم يبق منهما سوى الألياف ممزّقة. أمّا الخيوط الوسطى فكانت أقصر وكانت مستقيمة كأنّها قُطعت بسكّين. لا بد من أنّ شخصًا ما عمد إلى

Twitter: @ketab_n

التّقليل من سمك الحبل بقطع لبه. فكان يبدو من الخارج مثل أيّ حبل اعتياديّ، أمّا من الدّاخل، فهو رقيق مثل قشرة بيضة.

هرع جَهان إلى معلّمه، وقال له: ثمّة من نصب كمينًا.

أنعم سنان النّظر إلى الحبل من دون أن ينطق بكلمة، ثمّ قال بعد ذلك: أتعني أنّ الأمر لم يكن قضاء وقدرًا؟

أجاب جَهان: لا أعتقد ذلك. لماذا خرجت من تحت السّقيفة أيّها المعلّم؟

قال سنان: سمعت شخصًا يناديني.

ـ لا بدّ من أنّه الشّخص نفسه الّذي خطّط للأمر، وكان يعلم أنّ الحبل سوف ينقطع لأنّه هو الّذي مزّقه. مسكين أنت يا سنان... حاول يوسف أن ينقذك لكنّه الآن قُضي عليه.

قال سنان حزين العينين حزنًا لا نهاية له: بما أنّك صرت تعرف أشياء كثيرة حتّى الآن... فينبغي لك أن تعلم أنّها الآن في منزلي برفقة أسرتي.

ـ إنّ عملها بصحبتك هو فرحتها الوحيدة أيّها المعلّم، وخليق بك أن تعيدها إلى العمل.

هزّ سنان رأسه رافضًا: لم يعد في وسعي أن أعيدها إلى العمل في هذا المكان لأنّه غير آمن.

زمَّ جَهان شفتيه وحاول أن ينطق بكلمات ربّما يندم عليها مستقبلًا.

ـ ألن نحقّق في هويّة الفاعل؟

ـ ما الّذي يمكن عمله؟ إنّني لا أستطيع أن أحقّق مع كلّ رجل في موقع البناء. وإذا ساور العمّالَ الظنُّ بأنّني لا أثق بهم فسوف يفقدون العزم على العمل.

ظهر القلق على وجه جَهان، وكان، بخلاف سنان، يعتقد أنّ المعلّم ينبغي أن يحقّق مع الكلّ إلى أن يُعثر على الجاني. قال بصوت

Twitter: @ketab_n

لم يظنّ أنّه قادر عليه: لقد بكى مايكل أنجلو على مساعده كأنّه ولده. أمّا أنت... فلا تعير أهمّيّة لنا، زجاج وخشب ومرمر ومعدن... ألسنا مثل هذه الموادّ في رأيك؟ لسنا سوى أدوات في بنائك.

قال سنان ببطء وسط الصّمت الذي ران من بعد ذلك: هذا غير صحيح.

غير أنّ جَهانًا توقّف عن الإصغاء.

تمكّن سنان من الانتهاء من بناء مسجد سوكولو في الوقت المحدَّد، وإن كان ينقصه تلميذ واحد. وصدحت أصوات النّاس بالأدعية والصّلوات، وذُبحت الخراف والكباش المخضّبة بالحنّاء، ومنح سوكولو المتألّق فخرًا وفرحًا، العمّال مكافآت ماليّة وأعتق مئة من عبيده. وبعد مرور وقت قصير، وأثناء حضور اجتماع الدّيوان، طلب شخص مرتدٍ ثياب الدّراويش أن يقابل الصّدر الأعظم. كان، شأنه شأن سوكولو، يتحدّر من البوسنة. ولسبب لم ولن يفهمه الحاضرون، سمح سوكولو له بالدّخول والاقتراب منه، فطعنه هذا المجهول الغريب، فقبضوا عليه وقتلوه قبل أن يكتشف أحد السّبب الّذي أدى إلى إراقة الدّماء. هكذا، رحل سوكولو سكولوفيتش الصّدر الأعظم وآخر رعاة فنّ العمارة، وأخفقت بذلك الجنّيّة، إن كان ثمّة جنّيّة أساسًا، بتحذيره هذه المرّة.

بعد مصرع سوكولو، راح السّلطان يعيّن سلسلة من الأشخاص في منصب الصّدر الأعظم، واحدًا تلو الآخر، ولكن لم يرتقِ أيّ واحد منهم إلى منزلة سلفه. فجأة، اتّضح كأنّ غطاء قد رُفع وانكشف تحته القدر المغليّ. كانت الخزينة الإمبراطوريّة خاوية، والمال فقد قيمته، والانكشاريّون في حالة اهتياج والفلّاحون مستائين والعلماء غير راضين، والمعلّم سنان بلغ به الكبر عتيًا وبات هزيلًا وضعيفًا، ولم يعد التّلميذ الصّامت بجانبه.

Twitter: @ketab_n

رأى جَهان في ما يرى النّائم أنّه في قريته، يسير سيرًا بطيئًا ومتثاقلًا وسط دروب تؤدّي إلى منزله، والشّمس حارّة مسلَّطة على عنقه. دخل البوّابة عندما وجدها، مشرَّعة لكنّه، لم يجد أحدًا في الفناء. بعد مدّة قصيرة، تنبّه إلى حركة واهية تحت شجرة، نمر. وكان على مقربة منه طاووس يتبختر وغزال يرعى الكلأ، فتقدّم بغاية الهدوء والحذر كي لا يثير الانتباه إلى شخصه. لكنّ محاولته كانت بلا طائل، إذْ لاحظه، عيناه تومضان وميضًا يدلّ على أنه غير مهتمّ به. في كلّ خطوة خطاها إلى أمام، كان يجد مجموعة أخرى من الحيوانات، خرتيت ودبّ وزرافة. لقد شيّدت أسرته مأوًى للحيوانات في غيابه.

وشاهد منزلهما وقد جرت عليه توسعة، وراح يتألّف من عدد أكبر من الحجرات، ومن الطّبقات. بحث يائسًا عن أمّه وشقيقاته وهو يمضي في سيره على امتداد الممرّات الرّخاميّة، فوجد في غرفة في الطّبقة العليا تشبه قصر السّلطان زوج أمّه جالسًا بمفرده. أشار الرّجل إلى الحديقة الخلفيّة، ولكن لم تكن ثمّة حديقة خلفيّة اليوم، بل رأى نهرًا معربِدًا. وعلى مسافة بعيدة، شاهد قاربًا يجرفه تيّار الماء وعلى متنه سنان.

صاح جَهان، فوقف سنان على قدميه لدى سماعه الصّوت، لكنّه فقد توازنه وبسط ذراعيه مثل طائر يوشك أن يحلّق في الجوّ. وانقلب القارب وقذف به في لجّة الماء. هناك من يصيح على مقربة من جَهان، ويلكزه من كتفه.

ـ استيقظ أيّها الهنديّ!

استيقظ جَهان، وقلبه يدقّ دقّات عنيفة. كان يحدِّق إليه آخر شخص

Twitter: @ketab_n

توقّع رؤيته: ميركا مروّض الدّببة. عبس جَهان في وجهه وعادت به الذّكريات إلى تلك اللّيلة قبل مضيّ سنوات، سريعة كالسّيف الّذي يُجرَّد من غمده.

تراجع ميركا خطوة واحدة إلى الوراء، رافعًا يديه دفاعًا عن نفسه، وقال: حدث شيء ما، ولا بدّ لنا من أن نخبرك به.

في تلك اللّحظة عينها، تنبّه جَهان إلى الصّبيّ الواقف بجانبه. إنّه آبي، مروّض شوتا الجديد وسائسه، وهو غلام أفريقيّ شابّ ونحيف لم يتجاوز السّادسة عشرة من عمره. كان إنسانًا طيّبًا، لكنّه قليل التّجربة، فما كان جَهان يثق بإعطائه أرنبًا، فكيف يعيطه شوتا؟

سأل جَهان: ماذا حدث؟

تحاشى ميركا نظرته، وقال: لقد ذهب الحيوان، هرب!

رفس جَهان الدِّثار، ووثب على قدميه وأمسك بذراع آبي، وقال: أين كنت؟ لماذا لم تحرسه؟

ترنَّح الغلام وكان يحمّل كيسًا خاويًا في يديه. فما كان من ميركا إلّا أن دفع جَهانًا بعيدًا عنه.

ـ ليست الغلطة غلطته. فقد جُنّ جنون الحيوان وحطّم أغلاله، ولم يسبق لنا أن رأيناه بمثل تلك الحالة من الجنون.

قال جَهان: لا بدّ من أن شيئًا ما ضايقه. ماذا فعلت به؟

أجاب آبي بصوت مرتعش خوفًا: لا شيء. إنّه ممسوس.

ارتدى جَهان سرواله وصبَّ مقدارًا من الماء على وجهه، وساروا على أطراف أصابعهم مجتازين أماكن النّوم. ولدى وصولهم إلى مأوى الحيوانات توقّفوا عند مدخل الزّريبة الخاوية، يفتّشون عن أدلّة غير متوافرة.

سأل جَهان: في أيّ اتّجاه مضى؟

Twitter: @ketab_n

تبادل ميركا وآبي نظرة خاطفة.

ـ خرج من البوّابة الرئيسيّة، ولم يتمكّن الحرّاس من إيقافه.

غار فؤاد جَهان واكفهرّ وجهه، إذْ كيف يمكنه أن يعثر على شوتا في مدينة مترامية الأطراف كهذه المدينة قبل أن يجلب المتاعب لنفسه؟

قال جَهان مخاطبًا ميركا: أحتاج إلى رخصة مكتوبة وإلى جواد.

ـ سوف نطلب ذلك من رئيس الخصيان الأبيض، وسوف يجنّ جنونه عندما يسمع بما حدث، لكن علينا أن نعثر على الحيوان.

بعد لحظات، كان جَهان خارج بوّابة القصر يمتطي جوادًا، لكنّه لا يدري إلى أين يتّجه. كانت الشّوارع ممتدّة أمامه، منفتحة مثل مراوح، جواده ـ الفحل العجوز والبنّيّ الفاتح ـ متردِّد في السّير وإن ازدادت سرعته من فوره. واجتازا الميادين والأسواق. انعطف جَهان حول ناصية أحد الشّوارع فرأى حارسًا في أعقابه انكشاريّان. رفع الحارس هراوة، وصاح: قف!

توقّف جَهان: هل أنت جانّ؟

ردّ جَهان: لا أيّها الأفندي، بل أنا بشر مثلك.

ـ إذًا ترجّل عن جوادك! ماذا تفعل خارج الأبواب في هذه السّاعة متحديًّا أوامر السّلطان؟

قال جَهان ممسكًا بالحافّة الأماميّة المرتفعة من السّرج بيد، وناوله الرّخصة باليد الأخرى: إنّني قادم من القصر أيّها الأفندي. ثمّة حيوان هرب وقد أرسلوني للبحث عنه.

قرأ الرّجل الرّسالة، وتمتم: أيّ حيوان؟

قال جَهان: فيل.

ولمّا لم يجد ردًّا، أضاف: إنّه أكبر حيوان على وجه الأرض.

ـ كيف ستقبض عليه؟

Twitter: @ketab_n

قال جَهان في صوت منكسر: إنّني مروّضه، وسوف ينفّذ ما أقول له.

لم يكن جَهان متأكّدًا من كلامه، ولكن لحسن حظّه لم يلحّ عليه الحارس أو الانكشاريّان بالأسئلة، وإن كان قد شعر بملاحقة أعينهم وراءه بعد أن مضى في سبيله وابتعد.

بيد أنّ جَهانًا لم يدرك كم من الوقت أمضى بحثًا عن شوتا إلّا عندما شاهد المؤذّن متّجهًا إلى المسجد للأذان لصلاة الفجر. تذكّر المقبرة القديمة المطلّة على القرن الذّهبيّ والحديث الّذي دار بينه وبين سانغرام قبل زمن طويل.

سمعت أشياء غريبة عن هذه الحيوانات. يُقال إنّها تختار المكان الّذي يروقها أن تموت فيه. يبدو أنّ هذا الحيوان قد عثر على مكانه.

عندما وصل جَهان إلى الموقع الّذي كان يبحث عنه، كانت ثمّة سحابة تحجب القمر، ونكهة لاذعة تشوب الرّيح. ولاحظ أمامه ظلًّا كبيرًا، ربّما كانت صخرة كبيرة، فما كان منه إلّا أن ترجّل من على جواده، واقترب.

ـ شوتا؟

فتحرّكت الصّخرة.

ـ لماذا أتيت إلى هذه المنطقة؟

رفع شوتا رأسه وتركه يتهدّل من فوره. فتح فمه وأغلقه، معظم أسنانه قد اختفت.

ـ أيّها الولد المشاكس! لا تفعل هذا الشّيء مجدّدًا.

ثمّ عانق جَهان خرطومه، وأجهش بالبكاء.

شاهد الاثنان انبلاج الصّبح، وكشفت لهما السّماء لونها البرّاق، مثل تاجر قماش ينادي على أفضل ما لديه من حرير. راقب جَهان إسطنبول ونوارسها ومنحدراتها السّحيقة وأشجار البتولا، واستبدّ به

Twitter: @ketab_n

هاجس بأنّ وقتهما في هذه المدينة شارف على نهايته. لكنّ الغريب في الأمر أنّه لم يحزن لذلك. وأدرك أنّ الحزن سيأتي لاحقًا. فالحزن متأخّر على الدّوام.

أفلح جَهان بعد توسّلات كثيرة بإقناع شوتا بالسّير في أثره إلى القصر. وهناك وضعوه في زريبته، وأحكموا وثاقه بسلاسل أشدّ متانة، وملأوا له دلاءه بطعام طازج وراودهم الأمل في أن هروبه سيصبح في طي النّسيان عمّا قريب. غير أنّ كان على المروّض أن يواجه أخيرًا ما قد رفض رؤيته من قبل. فالفيل يُحتضَر. وكان يريد، وهو الحيوان الكبير، أن يكون وحيدًا عندما تدنو ساعته.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ما بعد المعلِّــــــم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في الجنّة شجرة لا تشبه أيَّ شجرة في الأرض، أغصانها نصف شفّافة، جذورها تمتصّ الحليب بدلًا من الماء، وجذعها يتلألأ كأنّه محاط بجليد، وإن لم يكن باردًا، لم يكن باردًا قطّ إذا ما اقترب المرء منه. كلّ ورقة من أوراق هذه الشّجرة تحمل اسمَ واحدٍ من بني البشر. وفي ليلة الرّابع عشر واليوم الخامس عشر من شهر شعبان من كل عام، تجتمع الملائكة حولها في حلقة، وتخفق أجنحتها معًا. بهذا، تنشأ ريح عظيمة تهزّ الأغصان. ورويدًا رويدًا تتساقط بعض الأوراق، وفي بعض الأحيان، تستغرق ورقة ما وقتًا لا بأس به حتّى تسقط. وفي أوقات أخرى، يكون السّقوط سريعًا سرعة ومضة عين. في اللّحظة التي تصل فيها الورقة الأرض، يلفظُ الشّخص المدوَّن اسمه على تلك الورقة، أنفاسَه الأخيرة. وهذا هو السّبب الّذي يجعل الحكماء وأصحاب العلم لا يطأون ورقة يابسة أبدًا لئلا تكون حاملة روح شخص ما في مكان ما.

في يوم مطير من عام ١٥٨٨، لامست ورقة المعلِّم سنان التّربة. كان قد اشتغل إلى اللّحظات الأخيرة، موفور الصِّحّة والعافية، سليم العقل. ولم ينطرح في الفراش، قعيد المرض إلّا في الأسابيع الأخيرة، فتجمّع حوله التّلاميذ الثّلاثة ورئيس العمّال الّذي عمل برفقة سنان زمنًا طويلًا. اصطفّت النّساء المنقَّبات بالقرب من الباب. وعلى الرّغم من أنّ جَهانًا لم يتجرّأ على اختلاس نظرة خاطفة إليهنّ، إلّا أنّه كان يعلم أنّ إحداهنّ هي سانتشا، محظيّة سنان المحبوبة.

أخبرهم رئيس المعماريّين الملكيّ بصوت لا يكاد يُسمع تحت نور باهت متسلِّل من السّتائر بأنّه كتب وصيّته ووقّعها وختمها بختمه،

Twitter: @ketab_n

وأضاف: سوف تطّلعون عليها عندما أفارق الحياة.

قال نيقولا وهو يمسح دمعة على نحو خفيّ: لن تفارقنا إلى أيّ مكان أيّها المعلّم، نسأل الله أن يديمك لنا.

رفع المعلّم يده كأنّه يريد إبعاد مثل هذا الكلام، وقال: ثمّة أمر مهمّ ينبغي لكم أن تعرفوه. الحوادث المؤسفة... التّأخيرات الّتي حدثت... لقد عرفت كيف وقعت. كان كلّ شيء أمام عيني... طوال ذلك الوقت، ولكنّني لم أره.

فجأة، تغيّر الجوّ في الحجرة وحبس كلّ واحد أنفاسه، منتظرًا سماع ما هو أكثر من ذلك. واندفع تطلّع مسبق مفعم بالتّوتّر إلى تلك الفسحة الّتي لم يكن فيها سوى الحزن قبل لحظة قصيرة.

قال سنان وهو يبحث عن الكلمات: انتظروا أربعين يومًا بعد وفاتي، وافتحوا وصيّتي، وانظروا أيّكم أودّ أن يصبح خلفًا لي بإذن الله. ينبغي لكم أن تستمرّوا في البناء، ويجب عليكم أن تتفوّقوا على ما أنجزت.

سأل جَهان: كنت تتحدّث، عن الحوادث الّتي وقعت أيّها المعلّم... ألن تخبرنا من كان وراءها؟

أجاب سنان بمشقّة: جَهان، أيّتها الرّوح المضطرمة، أنت الأكثر حبًّا للاستطلاع... لا بدّ من أنّ كلّ ما حدث له سببه. وعلى المرء أن يفكّر في السّبب، لا أن يكره المسبّب.

تذكّر جَهان كلمات مهرماه الأخيرة، فشعر بألم أفقده قدرته على الكلام. فقد ذكرت أيضًا أنّ لكلّ شيء سببًا. وانتظر توضيحًا، لكنّ التّوضيح لم يصله. وبعد برهة، اقتيد التّلاميذ إلى الخارج بعد أن أرهقوا المعلّم بما يكفي. وكانت تلك هي آخر مرّة رآه فيها جَهان. ففي اللّيلة التّالية، أوى سنان إلى فراشه ليخلد إلى النّوم، مبكرًا على غير عادته،

Twitter: @ketab_n

لكنّه لم يستيقظ بعد ذلك.

هكذا رحل سنان عن هذا العالم بعد أن أمضى خمسين عامًا من العمل بصفته رئيس المعماريّين الملكيّ، وبعد أن شيّد أربعمئة مبنًى رائعًا، فضلًا عن المراقد والنّافورات. كان قد تعمّد أن يترك شائبة على الدّوام في عمله إقرارًا منه بأنّه لا يوجد إنسان كامل أو مثاليّ، لأنّ مثل هذه الصّفة لا تليق إلّا بالله وحده. وتوفّي على النّحو نفسه، بعد أن عاش حياة رائعة لم تكتمل سنتها الأخيرة عن عمر يناهز التّسعة والتّسعين عامًا ونصف العام.

Twitter: @ketab_n

بعد مرور سبعة أيّام على وفاة سنان، دعت أسرته إلى إقامة صلاة على روحه. فجاء الأقرباء والجيران والباشوات والحرفيّون والتّلاميذ والعمّال والسّابلة من كلّ حدب وصوب لحضور تلك الصّلاة. وبلغ عدد الضّيوف حدًا كبيرًا، فاحتشد بهم الفناء والشّارع والحيّ المجاور. وبكاه حتّى أولئك الّذين لم يلتقوه كأنّه واحد منهم. وقُدّمت الحلوى الصّلبة والشّراب، ووُزّع اللّحم والرّز على الأثرياء والفقراء، وأُحرقت أغصان الزّيتون بينما قُرئ القرآن من بدايته حتّى نهايته، وردّد النّاس اسمه يوسف سينانتين بن عبد الله مرّات ومرّات، فكان بذلك رُقية فتحت القلوب الموصدة. وفي منتصف الوقت، تنشّق جَهان عبيرًا يعرفه معرفة لا غبار عليها، هو مزيج من العنبر والياسمين الّذي يعطّر معلّمه قفطانه به، فأجال النّظر حوله وتساءل عمّا إذا كان حاضرًا في المكان، يراقبهم من زاوية أو فجوة في جدار، مصغيًا لما يُقال في غيابه، مبتسمًا ابتسامته المعهودة.

فكّر جَهان في سانتشا، مدركًا أنّها في مكان ما من المنزل، وراء هذه الجدران، جبينها ملتصق على زجاج النّافذة الصّقيل، وشعرها القصير يلفّه حجاب شفّاف. وتألّم كثيرًا لأنّه علم أنها لا تستطيع العمل معه ومع زملائه بعد اليوم، وأنّ عليه أن يطرد هذه الخواطر من رأسه مثل سرب من غربان سود.

سار التّلاميذ بعد الصّلاة مدّة وجيزة ـ نيقولا وداؤود وجَهان. كانت السّماء مكفهرّة وملبّدة بالغيوم كأنّها تعكس مزاجهم. وتطايرت أوراق الشّجر اليابسة تحت النّسيم، وغاصت النّوارس بحثًا عن لقمة تأكلها. لم يعد لديهم من حديث يتجاذبون أطرافه، ولم يكن الحزن

Twitter: @ketab_n

العميق وحده سبب ذلك، بل ثمّة شيء آخر، شيء لم يكن موجودًا سابقًا. وفهم جَهان أنّ سنان كان طوال كلّ تلك السّنين الخيط غير المرئيّ الّذي يربطهم معًا. صحيح أنّهم أظهروا قدرًا من الغيرة البسيطة، لكنّ جَهان ظلّ يعزوها إلى حبّهم المشترك لمعلّمهم وإلى رغبتهم في التّفوّق أمامه. وبعد أن رأى سنان أنّهم، حقيقةً، مختلفون في ما بينهم أكثر ممّا هم يتشابهون، ثلاثتهم، ثلاث رياح عابرة، كلّ ريح تهبّ نحو وجهة مختلفة. ولم يكن هو وحده الّذي شعر بذلك، فقد راحوا يزِنون كلماتهم من فورهم كأنّهم غرباء يتمتّعون بأدب جمّ.

وبينما هم يشقّون طريقهم إلى الجهة الأخرى من إحدى الأسواق، توقّفوا لشراء بعض أرغفة الخبز بعصيدة العنب. لم يكن أحدهم قد أكل من الطّعام شيئًا في منزل العزاء، كما أنّ السّير زاد من جوعهم. وراح جَهان يساوم بائعًا جائلًا، فسمع من ورائه عطسة، فاختلس نظرة سريعة إلى الجانبين، فوجد أنّها لم تصدر عن شخص غريب، بل عن نيقولا الّذي غطّى وجهه إلى حدٍّ ما كأنّه شعر بالعار. ولمّا رفع يديه، كانت قطرة دم تتوسّط إحدى كفّيه.

سأل جَهان: هل أنت بخير؟

أومأ نيقولا برأسه صامتًا، عيناه نجمان مذنّبان في قبّة وجهه الهادئ. بدا داؤود غير متنبّه لهذا الأمر، إذْ كان منشغلًا بمراقبة سلحفاة يعرضها أحد الفلّاحين للبيع. ففي تلك الأيّام، كانت السّلاحف تحظى بإقبال شديد طمعًا فيها وفي ترسها الّذي يُطحَن ليصبح مسحوقًا ناعمًا ويؤكل مع شراب اللّبن لأنّه يشفي من أمراض كثيرة.

جلسوا لتناول طعامهم تحت أغصان متهدّلة من شجرة صفصاف، وانهمكوا بالقيل والقال عن النّاس الّذين حضروا مجلس العزاء والّذين لم يحضروه. لكنّ ثمّة سؤالًا واحدًا لم يتجرّأ أحد منهم على طرحه: من منهم سيحلّ محلّ معلّمهم؟ لا بدّ لهم من الانتظار حتّى فتح الوصيّة.

Twitter: @ketab_n

وإلى أن يحين ذلك الوقت، يصبح التّكهّن بالموضوع عبثًا لا طائل من ورائه، إذْ كيف يسعهم معرفة ما تحتويه الكلمات السّحريّة وما مكتوب في النّجوم، في حين أن تقيّ الدّين نفسه لم يعرف؟ لهذا، أخذوا يتكلّمون في شتّى الموضوعات، كلمات جافّة لا تضيف شيئًا لأيّ شيء، ليمضي بعد ذلك كلّ واحد في سبيله.

في اليوم التّالي، استُدعي جَهان إلى مكتب رئيس الخصيان الأبيض وأبلغوه بأنّه سوف يبدأ بالتّعليم في مدرسة القصر، وظيفة طيّبة السّمعة ملأته رعبًا وفخرًا في الوقت نفسه.

وعندما التقى تلامذته في وقت لاحق، رأى في وجوههم الغضّة البراءة وحبّ الاستطلاع، المباهاة والجهل، المواظبة والكسل. وتساءل عن الصّفة الّتي سيكون لها قصب السّبق على بقيّة الصّفات، وهل سيؤدّي التّعليم إلى أيّ تغيير أم إنّ سبلهم محدّدة سلفًا؟ ولو كان معلّمه على قيد الحياة لقال: لكلّ امرئ قسمته، لأنّ الله لا يكرِّر القسمة مرّتين.

انقضت الأسابيع وهو مستغرق في هذه الأفكار والشّواغل. وفي تلك اللّحظة عينها، فطن إلى أنّه لم يسمع شيئًا من داؤود أو من نيقولا. فبعث إليهما برسالة، لكنّ باله انشغل كثيرًا عندما لم يصله جواب من كليهما، لا سيّما من نيقولا. فداؤود رجل متزوِّج وله أطفال، وكانت سانتشا لا تزال تقطن في منزل المعلِّم سنان، وكان لجَهان شوتا وفراش في مأوى الحيوانات، وفراش آخر في مدرسة القصر. غير أنّ نيقولا لم يكن له من أحد سوى والديه العجوزين اللّذين وافتهما المنيّة مؤخّرًا. وأدرك أنّه لا يعرفه إلّا قليلًا. لقد عملا طوال تلك السّنين بمشقّة جنبًا إلى جنب، صيفًا وشتاءً، لكنّ كلّ واحد منهما ظلّ لغزًا أمام الآخر.

۞ ۞

Twitter: @ketab_n

في صباح يوم ثلاثاء، قرّر جَهان أن يزور نيقولا. كان الضّباب يشيع في المدينة والشّمس هالة مضبّبة من وراء كتل الغيوم الرّماديّة. كانت منطقة غالاتا تبدو للوهلة الأولى في الجهة النّائية من القرن الذّهبيّ كما هي من دون تغيير. فالبيوت المشيَّد نصفها بالحجارة ونصفها الآخر بالخشب، مرتّبة في صفوف كأنّها أسنان متسوّسة. ثمّة كنائس بلا أجراس، عبق الشّموع والبخور ينبعث من الأبرشيّات، وخليط من الأقوام يحتشد هنا وهناك: فلورنسيّون وبندقيّون وإغريق وأرمن ويهود ورهبان فرانسيسكانيّين.

امتطى جَهان جواده وراح يخبّ خببًا، يرنو إلى ما يحيط به. وبعد أن توغّل عميقًا في الأزقّة الخلفيّة، خفّ الزّحام، وهدأ المكان، هدوءًا تامًّا أكثر ممّا ينبغي. ثمّة خطب ما، فالمشربيّات موصدة والأبواب مقفلة، والكلاب الجائعة سائبة والقطط نافقة على الأرصفة ورائحة العفونة تنبعث من كلّ مكان. وعندما دخل الشّارع المؤدّي إلى منزل نيقولا، سرت في بدنه قشعريرة كأنّ نسمة باردة تغلغلت في جسمه. ثمّة صلبان مرسومة على بعض المنازل وأدعية باللّاتينيّة والإغريقيّة، ناقصة وغير مفهومة، مكتوبة على عجل.

ترجّل من فوق جواده، واقتربِ من إحدى العلامات، وكانت هي العلامة الوحيدة المثبتة على باب منزل نيقولا. لم يعرف كم أمضى من الوقت واقفًا يحدّق فيها، غير قادر على المضيّ في سبيله وغير راغب في الدّخول. اقترب منه أحد الجيران، وكان رجلًا محدودب الظّهر، وقال له: ماذا تريد؟

ـ صديقي يقطن هنا. كيريز نيقولا ـ هل تعرفه؟

ـ إنّني أعرف كلّ فرد. لا تدخل، بل ابتعد من هنا.

ـ ماذا حدث؟

Twitter: @ketab_n

ـ إنّها اللّعنة، لقد عادت؟

ـ أتعني. . . وأمسك جَهان عن الكلام مدركًا احتقار الرّجل جهله، فقد عاد الطّاعون من جديد، ثمّ أضاف: كيف لم نسمع به؟

قال الرّجل قبل أن ينصرف: أيّها الأبله! إنّك لا تسمع إلّا ما هو مسموح لك بسماعه.

لكنّ الرّجل لم يذهب بعيدًا، إذْ راح يراقب جَهان وهو واقف على عتبة باب في الجهة الأخرى من الشّارع، عيناه مثل فتحتين ضيّقتين.

خلع جَهان زنّاره ولفّه حول فمه وأنفه، ودفع باب منزل نيقولا. لو كان الباب مقفلًا لتركه ومضى في سبيله، لكنّه وجده مواربًا ومسنودًا إلى قطعة خشب حتّى لا يُغلق. إنّ من وضع هذه الخشبة في هذا المكان إنّما كان يهدف إلى العودة، وإنّه كان يعلم أنّ ما من أحد داخل المنزل كي يفتح له الباب.

ما إن دخل جَهان المنزل حتّى لطمته رائحة كريهة كأنّها ضربة غير متوقّعة، ووجد نفسه في دهليز ضيّق ونتن ومعتم. واضطرّ لأن ينتظر قليلًا كي تعتاد عيناه الظّلمة. كانت الحجرة الأولى خالية. وفي الحجرة الثّانية، شاهد تحت نور شمعة، رجلًا مستلقيًا على حصيرة، شعره الأسود يفتقر إلى بريق، بشرته ممتقعة، جبينه العالي يتصبّب عرقًا. نيقولا وليس نيقولا هو هذا الرّجل الّذي لم يحلق ذقنه منذ أيّام بعد أن كان حليقها طوال الوقت. وعلى مقربة منه تمثال خشبيّ صغير يمثّل رجلًا ذا لحية كستنائيّة وشعر طويل.

كان بجانبه طاسان فخّاريّان، أحدهما يحوي ماءً والآخر خلًّا، ثيابه مبلّلة بالعرق، شفتاه يابستان ومشقّقتان. وضع جَهان يده على جبينه، فوجده متّقدًا، وهنا جفل نيقولا، والتفت إليه بعد جهد جهيد من دون أن يراه.

Twitter: @ketab_n

ـ هذا أنا جَهان!

كانت أنفاس نيقولا تخرج بغير انتظام، محدثة صوتًا كصوت فرقعة قطعة خشب تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل أن تخمد نارها.

قال نيقولا بصوت خشن ومبحوح: ماء.

شرب الماء بنهم. وتمكّن جَهان من أن يشاهد من خلال قميص نيقولا المفتوح بقعًا على صدره، ولطخة أرجوانيّة تميل إلى اللّون الأسود وورمًا خبيثًا تحت إبطه. تملَّكه إحساس رهيب بالهروب من هذا المنزل المفعم بالآلام، ولكن في الوقت الّذي همس فيه عقله بالجبن، تسمَّر جسده في مكانه. وسرعان ما صكّ السّمعَ صوتُ طرق على الباب، ولاحت للعيان راهبتان ترتدي كلّ واحدة منهما رداءً أسود طويلًا، وتضع على فمها كمّامة بيضاء من الموسلين.

سألته الرّاهبة الأكبر سنًّا: من أنت؟ ماذا تريد؟

قال جَهان: أنا صديقه. لقد عملنا معًا تحت إشراف رئيس المعماريّين الملكيّ الرّاحل.

غشي المسافة بينهما صمت يثير الوجل. قالت المرأة: آسفة إن كنت كلّمتك بخشونة. ظننتك لصًّا.

تملّك الرّعب جَهان، وخشي أن تكون هذه المرأة ذات العينين الشّبيهتين بالصّخر من حيث هدوئهما وتقدّمهما في السّنّ قد اكتشفت أمره. استرسلت الرّاهبة في كلامها من دون أن تعرف ما يجول في ذهنه من أفكار: لا يأتي إلى هذه البيوت سوى اللّصوص.

ـ اللّصوص؟

ـ نعم، إنّهم يأتون لسرقة... لم تكمل عبارتها، بل سارت ناحية نيقولا وساعدته في أن يشرب من وعاء أحضرته معها، ومسحت جبينه بقطعة قماش مبلّلة بالخلّ، ولمسته من دون أي إشارة تدلّ على

Twitter: @ketab_n

الاشمئزاز الّذي كان قد شعر به جَهان. في هذه الأثناء، كانت الرّاهبة الأخرى منهمكة في إزالة البراز من على الملاءة.

رغب جَهان في أن يسألهما إن كانتا لا تخافان الموت، لكنّه احتفظ بأفكاره لنفسه، وهمس: هل ثمّة آخرون غيره؟

ـ لا، ولكن سيكون هناك آخرون.

بدأ نيقولا بالسّعال، وراح الدّم ينزف من فمه وأنفه. وعندما شاهدت الرّاهبة الأكبر سنًّا الرّعب الّذي كسا وجه جَهان، قالت: يتعيّن عليك أن تمضي في سبيلك، إذْ ليس في وسعك عمل أيّ شيء.

سألها جَهان والحزن يعصر قلبه لمّا سمع هذه العبارة، وإن كان قد ارتاح قليلًا لها: كيف يمكنني أن أقدّم مساعدة؟

لم تقل الرّاهبة سوى كلمة واحدة: بالدّعاء.

خطا جَهان نحو الباب خطوات متّئدة، ثمّ توقف وقال: لمن هذا التمثال؟

قالت الرّاهبة مبتسمة ابتسامة تنطوي على وهن: القدّيس توماس، وليّ النّجارين والبنّائين والمعماريّين وعمّال البناء. وهو معروف أيضًا بلقب «المتشكّك»، لأنّه كان يشكّ في كلّ شيء، ولم تكن بيده حيلة إزاء ذلك، غير أنّ الله أحبّه رغم ذلك.

بعد مرور يومين تناهى إلى سمع جَهان أنَّ نيقولا وافته المنيّة، وهكذا رحلت عن هذا العالم الّذي كلّ ما فيه متقلّب، متغيّر، أكثر الأرواح الّتي عرفها بعد المعلّم سنان استقرارًا ومدعاة للثّقة، ثمّ حلّ دور الآخرين. المئات منهم. فقد انتقل المرض من غالاتا إلى أُسكودار ومنها إلى إسطنبول ليعود بعد ذلك إلى غالاتا كأنّ يدًا غاضبة أرجعته إليها.

مرّة أخرى، خرج النّاس بغالبيّتهم إلى الشّوارع متظاهرين وباحثين

Twitter: @ketab_n

عمن يلقون عليه باللّائمة. ولم يكن القصر بمنأى عن المرض، فقد قضى التّوأمان الصّينيّان المسؤولان عن رعاية القرود نحبهما شأنهما شأن بقيّة البشر، فانقلبت القرود عدوانيّة، لا تعرف طعم السّعادة في الأقفاص الملكيّة، حيث كانت أجدادها ضيفة مرفّهة. أمّا تاراس السّيبيريّ، فقد توارى عن الأنظار في سقيفته يتملّكه إحساس بالعار لأنّه بقي على قيد الحياة حتّى هذه السّنّ.

بعد ذلك توفّي سانغرام، فقد لفظ أنفاسه الأخيرة بعيدًا من موطنه وهو الرّجل الطّيّب القلب وخادم السّراي الوفيّ، والّذي ظلّ يتمنّى لو قفل راجعًا إلى هندستان. أمّا الضّحيّة التّالية، فكان سيمون بائع الكتب في بيره، ووافقت زوجته على بيع كلّ كتبه لقاء حفنة من المال بعد أن احتال عليها بعض الباعة الجائلين، فرحلت تلك الكتب الثّمينة مكدّسة على ظهر عربات مهلهلة بعد أن جاءت من مختلف أرجاء المعمورة وانتقلت من بيره إلى أماكنها الجديدة. وقد ضاع عدد كبير منها أثناء الرّحلة. كم تمنّى سيمون لو أنّه أصبح مسؤولًا عن مكتبة فخمة! لكنّه لم يتمكّن من أن يخلّف مجموعاته من تلك الكتب لشخص يقدّرها حقّ تقديرها.

ظلّ جَهان يفكّر في الضّحيّة المقبلة بعد أن علم بكلّ هذه الأخبار لاحقًا، وانتظر قلقًا. لكنْ، لسبب لم يعرف كنهه، تجاهله المرض وواصل رحلته جنوبًا مثل طائر مفترس، ملقيًا ظلًّا كئيبًا على القرى والبلدات الّتي كان يمرّ بها. في مقبرة النّصارى الّتي لا تبعد كثيرًا من موقع كنيسة عذراء النّبع الّتي شيّدها الإمبراطور يوستينيانس ولم يعد لها من أثر سوى النّبع المقدّس، كانت شاهدة قبر نيقولا قد كُتب عليها: صعد المعماريّ نيقولا إلى السّماوات كالأبراج التي بناها.

لترقد روحه في قبّة السّماء،
وليكن القدّيس توماس رفيقه.

Twitter: @ketab_n

وجد جَهان شوتا بمفرده لدى عودته إلى القصر. وما إن رأى الفيلُ مروِّضَه حتّى ابتهج وراح يضرب الأرض بقوائمه، فما كان من جَهان إلّا أن ربّت على خرطومه وقدّم له الكمثرى والمكسّرات الّتي أحضرها معه. كان من دأب شوتا أن يشمّها في الماضي قبل وصول جَهان بوقت طويل، لكنَّه فقد في الآونة الأخيرة حاسّة شمِّه كما وهنت قواه.

تربّع جَهان على برميل وراح يقصّ عليه نبأ وفاة نيقولا، وكان الحيوان مصغيًا لكلّ كلمة من كلماته، يومض عينيه على عادته. وعندما انخرط جَهان بالبكاء، التفّ خرطوم شوتا حول صدره وعانقه. مرّة أخرى، تولّد الانطباع لدى جَهان بأنّ الفيل الأبيض فهم كلّ كلمة تفوّه بها له.

بعد مضيّ مدّة قصيرة، تناهى إلى سمعهما صوت وقع أقدام، ولاح ظلّان على الباب. ابن سانغرام الّذي حلّ محلّ والده، والّذي يشبهه شبهًا كبيرًا من حيث الملامح والسّلوك، كأنّ الأب بُعِث حيًّا وأنّ الموت لم يكن سوى لعبة، وكان في صحبته آبي، راعي شوتا.

قال سانغرام الابن، وهو سعيد لمرأى الرّجل الّذي عرفه وأحبّه كأنّه عمّه: جَهان هنا!

قال جَهان بصوت أجشّ: أنا هنا، ولكن أين كان هو؟

ثمّ أشار إلى آبي قائلًا: لماذا تترك الفيل من دون رعاية؟ عنده ظفر مكسور. أتدري كم هو مؤذٍ؟ لا بدّ من أن نقلّمه ونغسله. المكان قذر هنا. متى نظّفته آخر مرّة؟

تمتم آبي معتذرًا، وأمسك بفرشاة وراح يكنس الأرضيّة كيفما

Twitter: @ketab_n

اتّفق. كان شعاع الشّمس المتسلّل من بين الشّقوق الخشبيّة قد جعل الغبار يلتفّ كالدّوامة. وهنا اقترب منه سانغرام الابن محدّقًا بقلق: هل سمعت الخبرَ؟

ـ أيّ خبر؟

ـ داؤود حصل على ترقية.

ـ ماذا تقول؟

ـ الكلّ يتحدّث عن ذلك. لقد أصبح صديقك رئيس المعماريّين الملكيّ.

قال جَهان متلعثمًا: داؤودنا؟

ـ حسنًا. إنّه لم يعد داؤودنا. لقد أصبح في منصب أعلى.

قال سانغرام الابن موضّحًا وهو يشير إلى السّقف، حيث نسج عنكبوت بيته وعلقت به ذبابة ماتت منذ زمن بعيد: أتعني... أنّهم فتحوا الوصيّة؟

رمق سانغرام الابن جَهان بنظرة تنمّ عن شفقة واضحة، وقال: نعم، الواضح أنّ معلّمك رغب في أن يكون هو خلفًا له.

قال جَهان متلعثمًا: حسنًا... هذا شيء حسن.

وشعر بالدّوار كأنّ هوّة انفرجت تحت قدميه، وراح يهوي فيها سريعًا.

Twitter: @ketab_n

بعد مضيّ بضعة أيّام، أعتقت كايرا زوجة سنان عددًا من عبيد المنزل حسب الأعراف المتّبعة. وكانت سانتشا أوّل الّذين أُعتقوا.

كان جَهان قد ساورته الظّنون بأنّ كايرا لها مشاعر مختلطة إزاء هذه المحظيّة الّتي تحيا تحت سقفها امرأة تشاطر زوجها أشياء لم تقدر هي قطّ على مشاركته إيّاها. فإذا كانت غير راضية على تنكّر سانتشا بثياب الرّجال وخروجها للعمل في مواقع البناء، فلا بدّ أنّها قد احتفظت بمشاعرها لنفسها... مع هذا، فإنّ جَهان ساوره شكّ في أنّ كايرا تعرف بغرام سانتشا والمعلّم، وأنّها لم يرقها ذلك قطّ. وكانت المرأتان قد جعلتا هوّة صامتة وسحيقة بينهما لم يستطع أحد جَسرَها ولا حتّى سنان نفسه. والآن، بعد أن رحل سنان، فإنّ آخر وجه كانت تتمنّى كايرا رؤيته هو وجه سانتشا. لكنّها على الرّغم من ذلك لم تعاملها معاملة سيّئة، بل اشترت لها الثّياب والعطور وأنعمت عليها بالبركة قبل أن تعتقها. هكذا باتت سانتشا دي هيريرا حرّة وهي ابنة الطّبيب الإسبانيّ الذّائع الصّيت بعد أن أمضت عقودًا من الزّمن في الأسر في إسطنبول.

بعثت برسالة إلى جَهان. كلماتها ذات حماسة وتوجُّس. وسألته على استحياء ما إذا كان في وسعه أن يساعدها في ترتيب رحيلها، لأنّها لا تعرف ماذا ينبغي أن تفعل، ولا من أين تبدأ. وقالت إِنّها تودّ أن تحظى بمساعدة داؤود أيضًا، لكنّه لا يعلم شيئًا عن الحقيقة. كانت في بعض الأوقات غير متأكِّدة من هويّتها: هل هي يوسف البنّاء أم نرجس المحظيّة؟! فما كان من جَهان إلّا أن أسرع في الرّد على رسالتها:

سانتشا المحترمة،

Twitter: @ketab_n

كانت رسالتكِ سببًا في سعادتي وحزني. فقد سعدت لأنّكِ أصبحت حرّة في الذّهاب في نهاية المطاف، وحزنت لأنّك سوف ترحلين. سوف أحضر وأساعدك يوم الخميس القادم. لا تقلقي بشأن الاستعداد. فأنت كنت مستعدّة لهذا الوضع منذ زمن طويل، طويل جدًّا.

في اليوم المحدَّد، زارها جَهان في بيت سنان، وللمرّة الأولى منذ أن التقيا، شاهدها ترتدي ثوبًا أخضر بلون الزّمرّد يبرز لون عينيها، وعلى رأسها الّذي لا يزال قصير الشّعر حجابًا يلائمه كالّذي ترتديه السّيّدات في بلاد الفرنجة.

قالت له على استحياء تحت نظراته المحدِّقة فيها: لا تحدِّق فيَّ على هذا النّحو، فأنا أشعر بأنّني قبيحة.

احتجّ جَهان قائلًا: كيف يمكنك التّفوّه بهذا الكلام؟

ـ هذه هي الحقيقة. فقد تقدَّمت بي السّنّ، ولم تعد هذه الثّياب الجميلة مناسبة لي.

قال جَهان على عجل مناكدًا إيّاها بعد أن رأى ازدياد تورّد وجنتيها: لو أنّ البنّائين كانوا يعلمون بوجود مثل هذا الجمال بين ظهرانيهم طوال تلك السّنين، لتوقّفوا عن العمل وراحوا ينظمون الشّعر بكِ، ولما كان في وسعنا أن نشيِّد مبنًى واحدًا.

ضحكت ضحكة قصيرة وخفضت بصرها، ومرّرت أصابعها على طيّات ثوبها وقالت: إنّه ضيّق أكثر ممّا ينبغي، فأنا لا أستطيع التّنفّس. كيف تدبِّر النّساء أمورهنّ وهنّ مرتديات مثل هذه الثّياب؟

ـ سوف تعتادينه عمّا قريب.

قالت مبتسمة ابتسامة سرعان ما تلاشت: لا، سوف يتطلّب منّي ذلك سنوات، وعندذاك أكون قد رحلت عن هذا العالم. ليته رآني بهذا المظهر.

Twitter: @ketab_n

كانت السّماء فوقهما زرقاء صافية، ساكنة سكون المرآة. تناهى صوت صرير عربة خارج المنزل. وعندما نظر جَهان من النّافذة، شاهدها مملوءة بأقفاص تحتوي على صقور غطّت عيونها بغماء. ولما كان انتباهه قد تشتَّت، فإنّه لم يدرك أنّ سانتشا كانت قد أجهشت بالبكاء وهي واقفة بجواره. فتًى كان فتاة، وأبكم يتمتّع بنعمة الكلام، ومحظيّة لكنّها معماريّ. هكذا كانت تعيش حياة تملأها الأكاذيب ومنفصلة إلى طبقات، لا يقلّ شأنها في ذلك عن حياة جَهان.

سألها جَهان: ما الّذي يزعجك؟ ظننتك ستفرحين بعد أن أصبحت حرّة.

قالت من غير اقتناع: إنّني سعيدة، لكنّ... قبره هنا، وكلّ ما فعلناه معًا. آثاره واضحة على هذه المدينة أكثر من أيّ سلطان.

قال جَهان: لقد رحل المعلّم، لكنّك لن تتخلّين عنه.

حاولت ألّا تأتي على سيرته، باذلة قصارى جهدها من دون طائل: أتظنّه كان يحبّني؟

تردّد جَهان، ثمّ قال: أعتقد أنّه أحبَّك، وإلّا ما الّذي دفعه إلى السّماح لكِ بالانضمام إلينا؟ لو اكتشف أحد أمرك لغرق في المتاعب.

قالت سانتشا بشيء من الفخر والاعتزاز: لقد وضع نفسه في موضع الخطر بسببي، لكنّه لم يحبّني. لم يحبّني كما أحببته.

لم يردّ جَهان هذه المرّة، ولم يبدُ على سانتشا أنّها كانت تنتظر جوابه.

قالت: طرق سمعي أنّ ثمّة سفينة بندقيّة سوف تبحر بعد أسبوعين.

أومأ جَهان برأسه موافقًا، فقد شاهد بضع مرّات في الأيّام القليلة الماضية الصاري المتوسّط الّذي يعلو الصّاري الأدنى يخيِّم فوق السّطوح والأشجار، ثمّ قال: سوف أعدّ الترتيبات.

Twitter: @ketab_n

قالت سانتشا: سأكون شاكرة لك.

لاح القلق والانزعاج في عينيها، وقالت: رافقني. ليس ثمّة ما يربطك بهذا المكان.

دُهِشَ جَهان عندما سمعها تتكلّم بمثل هذا الكلام، لكنّه على الرّغم من ذلك، قرّر ألّا يأخذ كلامها على محمل الجدّ.

ـ آه، وفي وسعنا أن نشيّد البيوت الفخمة للنّبلاء الإسبان.

أمسكت يده، فشعر بلمستها ناعمة وباردة.

ـ وقد نجد لنا راعيًا. لقد أجريت بعض التّحريات، وفي مستطاعنا أن نهتمّ ببعضنا بعضًا.

رنا جَهان إلى ملامحها المألوفة لديه وشعر بوخزة في فؤاده، ورأى ما كانت تراه. كانت ذكرى المعلِّم توحّدهما، قلباهما في شغل شاغل عن كلّ شيء سوى مهنتهما، لكن في وسعهما العمل معًا. الحبّ ليس ضروريًّا. يُستحسن الاستغناء عنه، لأنّه لا يسبِّب سوى العذاب والألم.

قالت متمهِّلة كأنّها تزن كلّ كلمة من كلماتها: لو كنت أصغر سنًّا، لكان في وسعنا أن ننجب أطفالًا.

أشرق وجه جَهان على الرّغم منه، وقال: إناثًا لهنّ عيونك وشجاعتك. ذكورًا لهم حنانك وحبّ استطلاعك. وأضاف: وشوتا؟

ـ شوتا عجوز، كان سعيدًا في السّراي وسيظلّ على ما يرام. أمّا أنا وأنت، فينبغي لنا المضيّ قدمًا في بناء...

قال جَهان متذكِّرًا عبارة معلِّمهما: الحكمة لا تأتي من السّماء، بل تنبع من الأرض، من العمل الشّاقّ.

قاطعته سانتشا قائلة: القبّة. يتعيّن علينا بناء القبب الّتي تذكِّر النّاس بوجود الله، وأنّه ليس إله الانتقام وإله الجحيم، بل هو إله الرّحمة والمحبّة.

Twitter: @ketab_n

أسند جَهان رأسه إلى يديه، وأغمض عينيه.

ثمّ أردفت: إنّني خائفة. لقد مضى وقت طويل منذ أن ابتعدت عن أرض والديّ، وأنا غريبة اليوم على أساليب الحياة هناك.

قال جَهان محاولًا طمأنتها: سوف تكونين على ما يرام.

ـ سأكون كذلك إن أتيتَ معي. ما رأيك؟

في تلك اللّحظة، أدرك جَهان أنّ الحياة هي مجموعة الخيارات الّتي لم يلجأ إليها المرء، الطّرق الّتي يشتاق إليها لكنّه لم يطرقها. ولم يشعر في حياته بما شعر به الآن من عاطفة تجاه سانتشا، اللّحظة الّتي أدرك أنّه سوف يرفضها. كانت ترى الرّفض في وجهه، في مقاومته. فومضت عيناها بوميض الاستياء، لكنّها لم تبك، فقد احتفظت ببكائها لمعلّمها الّذي كان حبّها الأوحد والوحيد.

قال جَهان: أرجوك اذكريني.

غير أنّ صوتها المنكسر قليلًا هو الّذي كشف عن خيبتها عندما قالت: لن أنسى أبدًا.

بعد أسبوع واحد، كانت السّفينة البندقيّة ذات الصّواري الثّلاثة ودفّة القيادة المستديرة، على استعداد للعودة إلى الوطن. كان التّجّار البندقيّون قد أخذوا يفقدون امتيازاتهم بسبب التّجّار الفرنسيّين والهولنديّين والإنكليز. وكان الحزن قد أضنى القبطان مثل السّترة الّتي كانت مشدودة على جسده. ولكن، على الرّغم من ذلك، ثمّة ما يكفي من الضّجيج لإبعاد فكره عن القلق، كإقبال التّجّار وإدبارهم وهم ينقلون البراميل، والباعة المنادين على بضائعهم. وثمّة رهط من المسافرين المنتظرين على أحد الجوانب: قساوسة من اليسوعيّين وراهبات كاثوليكيّات ومسافرون وبريطانيّ كريم الأصل مُحاطًا بخدمه. أمّا ما عدا هؤلاء، فالبقيّة الباقية

Twitter: @ketab_n

من النّاس كانوا بحّارة أجلاف.

حجب جَهان عينيه من أشعّة الشّمس وجال ببصره حوله عاجزًا عن رؤية سانتشا في أيّ بقعة. وفطن إلى أنّها ربّما غيّرت رأيها، ولعلّها أدركت عندما استيقظت من نومها أنّ بلاد طفولتها بعيدة ومراوغة وأنّها حلم يستحيل استعادته. ولكن، بينما كان يسير سيرًا متعرّجًا وسط براميل منتظرة التّحميل، شاهدها أمامه، ظلّها يبتعد عنها كأنّ ذلك الظّلّ هو وحده الّذي قرر أن يبقى هنا.

ولدهشته البالغة، وجد أنّها عادت إلى ثياب عملها، ووقفت إلى جانبه كأنّها رجل من الرّجال.

يروقني هذا أكثر.

نظر جَهان بحثًا عن حمّال، لكنّه لم يجد أحدًا.

ـ أين حاجيّاتك؟

أشارت إلى حقيبة ظهر مرميّة على الأرض.

ـ ورداؤك؟ وهدايا كايرا؟

ـ لا تقل لها شيئًا، فقد تصدّقت بها على الفقراء. فتحت حقيبتها وأطلعته على العلبة الخشبيَّة المنقوشة الّتي صنعها لها سنان وبجانبها عدد من الرّقوق وقلادة قليلة القيمة.

ـ سوف آخذ هذه معي، فقد تركها المعلّم لي.

سارا صامتين إلى أن وصلا المعبر الّذي يربط السّفينة باليابسة.

قالت: لم تسنح لي الفرصة كي أودّع داؤود، بلّغه تحيّاتي وتمنيّاتي الطّيّبة. إنّني لا أصدّق أنّه أصبح الآن رئيس المعماريّين الملكيّ.

قال جَهان مستغرقًا في التفكير: سوف أبلّغه.

الحقّ أنّ جَهان نفسه لم تسنح له الفرصة ليهنّئ داؤود، كما لم يرقه أن يهنّئه. أخذ نفسًا عميقًا، وقال: احذري من أن يكتشف أحد أنّك

Twitter: @ketab_n

امرأة. وإذا ما شعرت بأيّ...

اعتدلت في وقفتها، وقالت: يمكنني أن أهتمّ بنفسي.

ـ أعرف ذلك.

رفعت بصرها إليه، وقالت: بالأمس... راودني حلم فظيع. فقد رأيتك في ورطة، وناديتني، لكنّني لم أستطع العثور عليك. كن حذرًا.

صاح أحدهم من وراء عجلة قيادة السّفينة آمرًا، فشعر جَهان بغصّة في حلقه، فكلّ شيء يتغيّر وينساب انسياب الرّمل من بين الأصابع. فهذه مهرماه عبرت الهوّة العظيمة، ولم يستطع الانتظار حتّى يلحق بها عندما تدنو ساعته. ورحل المعلِّم ونيقولا. كما أنّه لا يلتقي داؤود إلّا نادرًا، في حين لم يبق لشوتا عمر طويل حتّى يرحل أيضًا عن هذا العالم. وها هي سانتشا ترحل الآن. لقد أخطأ عندما شعر بالشّفقة على نيقولا عندما كان وحيدًا. فهو وحيد مثله تمامًا. واعترته رغبة شديدة في مرافقة سانتشا الوحيدة الّتي اهتمّت به، ولم يستطع تحمّل ذلك. كان يتمنّى أن يسافر برفقتها لولا الفيل.

في عصر ذلك اليوم، وتحت صيحات النّوارس ونور الشّمس الشّفّاف كالموسلين، راح جَهان يراقب السّفينة تشقّ طريقها بيسر وسهولة وسط المياه، ومع كلّ نبضة قلب، كانت تأخذ التّلميذة الصّامتة وقصّتها بعيدًا، بعيدًا من هذا المكان.

Twitter: @ketab_n

عثر جَهان على كاتب لمساعدته في كتابة رسالة إلى داؤود بعد أن عجز عن تجسيد أفكاره على الورقة. وبعد أن أصغى الرّجل إليه، بدأ يكتب دون توقّف، أللّهم إلّا عند غمس القلم في المحبرة. ولمّا فرغ، أمسك جَهان الورقة وهي تقطر بالتّحيّات والأمنيات، وكلّفه ذلك مبلغًا مقداره ستّة إسبرات.

لم يكن جَهان يتوقّع ردًّا فوريًّا، بخاصّة من رجل علا شأنه علوًّا كبيرًا، لكنّ داؤود بعث بردّه، وكانت رسالته مختومة بالشّمع الأحمر، ومكتوبة بخطٍّ رشيق من لدن كاتب من الطّبقة الأولى. وأوضح له في رسالته أنّ كلّ شيء حدث بسرعة: بعد أن فتح جلالة سلطاننا، أمدّ الله في عمره إلى مئة عام، وصيّة المعلّم سنان وعلم برغبته الأخيرة، أغدق عليّ شرفًا ملحوظًا، أنا عبده المتواضع. ووضع رداء معلّمنا الثّمين على كتفيَّ الضّئيلتي القدر. وسأل داؤود، كأنّه يحتاج إلى من يؤكّد كلامه: كيف يمكنني أن أرفض؟! وطلب من جَهان أن يأتي لزيارته، وسوف يشاطر أحدهما الآخر الذّكريات والحديث عن الأعمال المقبلة، كما كان شأنهما في الأيّام الخالية.

غير أنّ جَهان لم يستطع زيارته بقدر ما كان يرغب القيام بها. قلبه ليس صافيًا، وساوره القلق بأنّ داؤود سيلاحظ ذلك في عينيه، سيرى الغيرة تنبعث من مساماته. فهما كانا على قدم المساواة حتّى وقت قريب. أمّا اليوم، فإنّ الحظّ حالف صديقه في قسمته. وفهم جَهان أنّ أصعب شيء يمكن تقبّله بين النّاس من ذوي المراكز المتساوية هو ما يحصل عليه أحدهم من ترقية، بينما يظلّ الآخرون في مكانهم. في تلك

Twitter: @ketab_n

اللّحظات النّادرة الّتي لم تساوره فيها الغيرة والحسد، استحوذ عليه الشّعور بالذّنب. وبدلًا من أن يشعر بالسّعادة من أجل داؤود ويدعو له بالنّجاح والتّوفيق، حسده على حسن حظّه. ولو كان سنان على قيد الحياة، لشعر بالخزي والعار منه.

بقي منتظرًا، ومرّت الأيّام. وسواء رغب أم لم يرغب، فإنّ أخبار داؤود ظلّت تطرق سمعه مثل الاحتفال الّذي أُقيم على شرفه ومُنح فيه إزميلًا ذهبيًّا وأكياسًا من النّقود وختْم المعلّم سنان المتمثّل بخاتم منقوش من حجر اليشم الكريم. وانهالت عليه من كلّ حدب وصوب نتف من الأخبار ومنها، أنّه شوهد مرتديًا قفطانًا باهظ الثّمن لا أحد يستطيع ارتداءه إلّا بموافقة السّلطان، وأنّه شديد الولع بالمحظيّات الشّركسيّات اللّواتي ملأ بهنّ جناح الحريم الخاصّ به، وأنّه تزوّج للمرّة الثّانية والثّالثة، كلّ زوجة ذات جمال أخّاذ يسلب الألباب كأنّها حوريّة، وأنّه يمتلك الطّواويس المتبخترة في فنائه وصقرًا جيء به إليه من سمرقند. وساورت الظّنونُ جَهان بأنّ نصف هذه الحكايات لا أساس له من الصّحّة. أمّا النّصف الآخر منها، فكان يكفي لكي يملأ قلبه أسًى ومرارة.

ظلّ جَهان يلقّن الدّروس في مدرسة القصر، ووجد عزاءً في براءة تلاميذه. أمّا في اللّيل، فكان يجلس وحيدًا في فراشه يرسم خرائط لمبانٍ لن تشيَّد أبدًا، أحدها يمثّل حديقة تسرح فيها الحيوانات البرّيّة وتمرح، والنّاس يسيرون في متاهة من الأنفاق ذات الألواح الزّجاجيّة الكبيرة الّتي تمكّنهم من مراقبة الحيوانات من دون أن يعرّضوا أنفسهم للخطر. فقد شوتا ثلاثة أظافر أخرى، وساور جَهان الشّكّ في أنّ الحيوان مصاب بمرض غامض. فأمسك عن اتّهام آبي بإهماله. فقد شاخ الفيل كما شاخ جَهان نفسه وإن كان لا يرغب في تقبّل الحقيقة. تلقّى بعد مرور شهر رسالة تخبره بأنّ ثمّة مبنًى سوف يُشيّد على التّلّ

Twitter: @ketab_n

الرابع ـ مسجد جديد ـ وأنّه عُيِّن رئيسًا للعمّال، وسيجزل له العطاء، وهذا يوضِّح عِظَمَ ثقة داؤود به. وفي حين كان الحسد يحرقه حرقًا، قرّر صديقه أن يكرمه، لهذا لم يستطع جَهان أن يتحاشى رؤيته بعد الآن. فكتب له رسالة بنفسه هذه المرّة وشكره فيها على منحه هذا الامتياز، وطلب منه الإذن بزيارته، فما كان من داؤود إلّا أن بعث له برسالة يدعوه فيها إلى زيارته في منزله الجديد في منطقة أيّوب القريبة من القرن الذّهبيّ.

لم يكن صعبًا على جَهان العثور على المنزل، فأهل الحيّ كانوا يلغطون به، فهو منزل ذو حديقة عذبة الرّائحة وتمتدّ على مدى البصر. ولم يكن مضطرًّا لقرع الباب، فهناك من كان في انتظاره، إذْ رحّب به عند البوّابة الحديديَّة خادم، وقاده عبر ممرّ إلى المنزل، وبعد ذلك إلى حجرة فسيحة نيِّرة جنوبيّة. ولمّا أصبح بمفرده، اختلس نظرة حوله، فلم يجد من الأثاث إلّا القليل، لكنّه أثاث فخم يضمّ خزانة مرصّعة بعرق اللّؤلؤ وطاولات صغيرة واطئة من التّصميم نفسه، وأريكة تعلوها وسائد مزركشة وشمعدانات مذهّبة مثبّتة على الجدران، وسجّادة فارسيّة من الحرير لها من الرّونق والبهاء ما يجعل المرء يفقد جرأته على السّير فوقها. وفي وسط الحجرة، ثمّة كانون خامد.

وانساب من مكان ما رنين جرس حالم إثر هبّة نسيم. كان الصّمت الثّقيل يخيِّم على المنزل كلّه، لا تسمع فيه أصوات النّساء من جناح الحريم ولا قعقعة عجلة من الشّارع. كما أنّ صيحات النّوارس لم تصل إلى سطح هذا المنزل. وتساءل جَهان عن رد فعلّ زوجة داؤود تجاه هذا التّغيّر، وتجاه الزّوجات الجديدات. سوف يظلّ ما شاهده جَهان هنا واحدًا من مظاهر الحياة الّتي ستثير تساؤلاته، لكنّه لن يكتشفها. بعد برهة، جاء خادم آخر معلنًا أنّ مولاه على استعداد لمقابلته، فما كان من جَهان إلّا أن سار في أعْقابه وارتقى السّلالم إلى الطّبقة العليا واضعًا

Twitter: @ketab_n

إحدى يديه على الحاجز كأنّه يستمدّ منه العزم والقوّة.

كان داؤود قد ازداد وزنًا، وارتدى قفطانًا لازورديًا، واعتمر عمامة عالية، وشذّب لحيته قصيرًا على نحو دائريّ. كان مظهره مختلف تمامًا، وهو جالس حول طاولة مصنوعة من خشب الجوز، ممسكًا بيده ريشة بعد أن وقّع وثيقة ما. وكان ثمّة أربعة تلاميذ يسهرون على خدمته، اثنان من كلّ جهة، أيديهم متشابكة ورؤوسهم محنيّة. أمّا ثيابهم فمن زيّ واحد.

عندما شاهد جَهان يدخل الغرفة في أعقاب خادمه، وقف وانفرجت أساريره.

ـ وأخيرًا!

مرّت لحظة ملؤها الضيق احتار فيها جَهان كيف يسلِّم على هذا الرّجل الّذي كان حتّى الأمس صديقه، لكنّه أضحى الآن معلِّمه. كاد ينحني له، لكنّ داؤود تقدّم نحوه ووضع يده على كتفه.

ـ ربّما أنا المعلِّم خارج هذه الغرفة. أمّا هنا فنحن صديقان.

على الرّغم من الارتياح الّذي شعر به جَهان وهو يسمع هذا الكلام، إلّا أنّ صوته كان ذا نبرة خشنة تنمّ عن الإحساس بالذّنب وهو يعبِّر عن أمنياته الطّيّبة، مُعْتذرًا عن عدم زيارته قبل الآن.

قال داؤود: ها أنت هنا الآن.

أخبره جَهان بأنّ يوسف ترك المدينة، لكنّه لم يسترسل في الخوض في التّفاصيل. وإذا كان داؤود يرتاب في حقيقة هوية سانتشا، إلّا أنّه لم يفصح عن ذلك، بل تمتم: لم يبق إلّا اثنان.

ـ ماذا تعني؟

ـ لم يبق من الأربعة إلّا أنا وأنت الآن. نحن وريثا سنان وينبغي لكلّ واحد منّا أن يساعد الثّاني.

Twitter: @ketab_n

دخل خادم أسود البشرة الغرفة حاملًا صينيّة وعليها شراب، فوضعها على إحدى الطّاولات الواطئة هادئًا هدوء الهمس. أمّا التّلاميذ الواقفون في الجانب الآخر من الغرفة، فلبثوا واقفين من دون حراك. وفكّر جَهان في أنّهم مثل صفّ من شتلات، جذورها غائرة في السّجّادة نزولًا إلى الطّبقة الأرضيّة.

كان الشّراب الورديّ رائعًا، قُدِّم لهما بكبش القرنفل ومبرَّدًا بمسحوق الثّلج من جبال بورصة - امتياز لا يحظى به إلّا الأثرياء. وبجانب الشّراب طبق يحوي مختلف أنواع البقلاوة، وطاس من القشطة.

ما إن فرغا من تناول الشّراب، حتّى قال داؤود: ثمّة عمل كثير لا أستطيع إنجازه بنفسي. كما أنّ زوجاتي كثيرات التّذمّر، قائلات لي: إنّك رئيس المعماريّين الملكيّ، لكّنك لا ترمِّم السّور حول المنزل.

ابتسم جَهان، بينما استرسل داؤود: إنّني بحاجة إلى رجل نزيه مثلك يقف إلى جانبي، أن يكون يدي اليُمنى. سوف نفعل كلّ شيء معًا وستكون رئيس عمّالي.

عبّر له جَهان عن شكره وامتنانه لفضله، وفي الوقت نفسه، فكّر في تلاميذه في مدرسة القصر مدركًا بحزن أنّه يتعيّن عليه التّوقّف عن التّعليم.

لا بدّ من أنّ تشوّش فكر جَهان كان واضحًا، فسأله داؤود: ما خطبك؟ أتجد صعوبة في تلقّي الأوامر منّي؟

قال جَهان، وإن كان هو وداؤود يعلمان أنّ هذا صحيح: هذا غير صحيح.

ـ في هذه الحالة، ليس ثمّة ما يستدعي النّقاش، ثم عبّر عن إعجابه بالتّصفيق وأردف: والآن، كُل.

Twitter: @ketab_n

بينما انهمكا في تناول البقلاوة، أخبر داؤود جَهان بالتّغييرات الّتي يتمنّى إدخالها. ففي ظلّ سلسلة من أحداث التّمرّد والمناوشات الّتي أرهقت منطقة سهول الأناضول، بات يصعب كثيرًا جلب موادّ البناء منها. وتوقّف بناء المساجد الكبيرة لأنّ الخزينة ليس فيها ما يكفي من المال. لقد أصبحت الأيّام السّالفة في طيّ النِّسيان، فمن دون غنائم الحرب المقدّسة لم يعد في مقدور أيّ سلطان إنفاق مبالغ طائلة على البناء. وإذا ما أُريد للتّعمير أن يستمرّ في العاصمة وأن يتطوَّر، فلا بدّ من الانتصار في الحروب قريبًا وبعيدًا.

قال داؤود بلهفة وحزن: هل رأيت؟ لقد وافت المنيّة معلِّمنا في الوقت المناسب، ولو ظلّ على قيد الحياة حتّى يومنا هذا لانسحق قلبه من شدّة الحزن.

أذنت الشّمس بالمغيب من وراء النافذة، فاصطبغت الغرفة بصبغة برتقاليّة ناعمة كالحرير، وواصل الاثنان ثرثرتهما عن الحرفيّين الّذين يفضِّلون العمل معهم، والّذين لا يروقهم التّعامل معهم. إنّها ثرثرة قوامها الهزل والمزاح لا أثر مباشرًا لها ولا وزن مثل كرّات رفيعة من الرّمل.

في هذه الأثناء، جاء رسول حاملًا رسالة مهمّة على ما يظهر من خلال مظهرها. جلس داؤود خلف مكتبه، وإلى جانبيه تلاميذه. ولما رأى جَهان مدى استغراقه في الرّسالة، وقف، لكنّ داؤود قال له وهو ينظر إلى قارورة الحبر: ابق هنا، وسنتناول العشاء معًا.

- لا أريد أن أضيِّع وقتك.

قال داؤود: إنّني أصّر على ما قلت.

وقف جَهان إلى جوار النّافذة برهة، لأنّه لم يكن لديه ما يفعله، وراح يراقب قارب صيد ينساب مع التّيّار مبتعدًا رويدًا رويدًا من ذلك

Twitter: @ketab_n

الخطّ الّذي يحتضن فيه البحر السّاحل، ثمّ اقترب شيئًا فشيئًا من رفوف الكتب في ركن الغرفة، وتنشّق رائحة الحبر والرّقّ والورق والزّمان، ومرّر يده على كعوب الكتب، ولمح عنوان كتاب «حربنا ضد الأتراك» لمؤلّفه الراهب الغريب لوثر و«كتاب الحاكم» الّذي كان قد أهداه كاتبه الإنكليزي إليوت لملكه. ووجد بحوثًا من مكتبة الملك ماثياس، ملك هنغاريا. ورأى من بين تلك المجلّدات السّميكة والرّقيقة كتاب دانتي «الكوميديا الإلٰهيّة»، وهو الكتاب الّذي أهداه إيّاه بائع الكتب سيمون، والّذي أعطاه لمعلّمه بعد أن واظب على قراءته مرّات ومرّات. جذبه من على الرّفّ بيدين مرتعشتين وشعر بثقله المألوف لديه وراح يتصفّحه. إنّها نسخته، بلا ريب. الواضح أن داؤود استولى على مجموعة كتب المعلّم سنان.

اقترب أحد الخدم وأضاء شمعة في شمعدان قريب، فازداد ظلّ جَهان طولًا على الجدار كما ازداد قلقًا. لمحت عيناه كتاب «العمارة» لمؤلّفه فيتروفيوس، فما كان منه إلّا أن جذبه من على الرّف وأمسك به برهة، فهو الكتاب الّذي انتقل من بودا إلى إسطنبول. وعندما أعاد الكتاب إلى موضعه، وقعت عيناه على رفّ في مؤخّر الرّف، وكان مجعّدًا إلى حدٍّ ما، فبسطه أمامه، وسرعان ما عرف أنّه خريطة مسجد السّليميّة، فبهت إعجابًا بروعته الآن أكثر من السّابق، ولاحظ علامات مؤشّرة بقلم آخر بحبر ذي لون فاتح كأنّ شخصًا ما اشتغل على الخريطة بعد إكمالها، وغيَّر مختلف أقسام البناء. واستنتج أنّ المعلّم هو الّذي أجرى تلك التّعديلات. وربما كان سنان يدرس الأخطاء فيها وسببها. وفتّشت عينا جَهان بحثًا عن تاريخ في حواشي الرّقّ، فوجده مؤرّخًا في الثّامن عشر من نيسان ١٥٧٣. حاول أنّ يتذكّر ما كانوا يفعلونه في ذلك اليوم، لكنَّه لم يتوصّل إلى شيء. وازدادت الهمهمات ارتفاعًا حوله، فشاهد داؤود قد فرغ من عمله وراح يمطر الخدم بتعليمات تخصّ إعداد

Twitter: @ketab_n

طعام العشاء. فما كان من جَهان إلّا أن أعاد الرِّقّ إلى موضعه، وانضمّ إلى داؤود.

كان طعام العشاء يتألّف من شراب اللّبن البارد، والرّز بلحم الضّأن والدّيك بصلصة الحامض وطائر التّدرّج بمرق لحم البقر، والبورك المحشوّ بلحم الضّأن، وطبق كبير بيضويّ الشّكل يتصاعد منه بخار لحم لم يتمكّن جَهان من معرفة ماهيّته.

قال داؤود، وإن لم يكن لائقًا أن يتفاخر المضيف بالطّعام الّذي يقدِّمه لضيفه: أُرسل لنا هذا من السّماء.

سأل جَهان، وإن لم يكن لائقًا أن يسأل الضّيف عن الطّعام الّذي يقدِّمه له مضيفه: ما هو؟

ـ إنّه لحم غزال! اصطيد بالأمس.

تقلّصت معدة جَهان وهو يتذكّر الأيل الّذي شاهده في الغابة أثناء انتظاره السّلطان سليمان. واضطرّ لأن يأكل قليلًا من لحم الغزال كي لا يبدو فظًّا.

ـ إنّه يذوب في الفم. وقد لاحظت أنّ مذاق اللّحم يكون ألذّ إذا كان الحيوان قد اصطيد في وقت مبكِّر. الخوف يفسد النّكهة.

راح جَهان يلوك لقمة من لحم الغزال في فمه، وقال: لم أعرف أنّك خرجت إلى الصّيد.

تنبّه داؤود إلى قول الضّيف، فأبعد عنه الطّبق، وقال: لم أخرج أنا، لأنّني لا أملك الوقت للصّيد. ولا تظنّني أمتلك الشّجاعة للصّيد أيضًا.

وبينما هما يفترقان، ودّع داؤود ضيفه إلى الباب، وهنا تنبّه جَهان إلى عطر يعطّر ثياب صديقه - عطر خالص غير ممزوج بماء ومستخلص من الأوراق - عطر سرعان ما ذاب في نسيم اللّيل، ولم يسنح له الوقت كي يتذكّر أين ومتى سبق له أن تنشّقه.

Twitter: @ketab_n

كان جَهان، كلّما تمكّن من الخلاص من بقيّة دروسه في مدرسة القصر وعمله الجديد في البناء برفقة داؤود، يهرع إلى شوتا. وكان يأخذ تصاميمه معه ويرسم في الزّريبة جالسًا على كومة من التّبن يسمّيها المروِّضون الآخرون مناكدة باسم «العرش». وكان شوتا ينظر إليه جذلًا، وإن كان غير متأكّد من أنّه كان يراه لأنّ بصره الّذي لم يكن يومًا في حالة جيّدة، قد تدهور.

كان آبي المسكين يبذل قصارى جهده، ليس لأنّه كان يهاب غضب جَهان، بل لأنّه أحبّ الفيل الأبيض. ولكن على الرّغم من كلّ جهوده، فقد فقدَ شوتا سنًّا أخرى وهي إحدى أسنانه الثّلاثة الّتي بقيت له، ولم يعد في وسعه أن يلوك الطّعام، أو أن يعضّ بعد اليوم. ولم يضطرّ جَهان لوضعه فوق أحد الموازين الضّخمة الّتي يستخدمها البحّارة في مرفإ كاراكوي كي يعرف مقدار ما فقده من وزن. وكان شوتا يغفو مؤخّرًا واقفًا على قوائمه في نوبات متقطّعة وفي غير انتظام، ويفقد توازنه ويترنّح إقبالًا وإدبارًا. وكانت حركاته أثناء شربه الماء أو استحمامه أو سيره في الحديقة تتباطأ، ويتهدّل رأسه. وقبل أن يدرك ما يحدث، سرعان ما كان يخلد إلى النّوم، ويتيه في عالم الأحلام. تألّم جَهان وهو يرى الحيوان عاجزًا ومشوَّشًا. ورآه بضع مرّات يحدّق باشتياق إلى شجرة الزّيزفون الّتي لطالما أحبّ أن يقضم منها.

قدّموا له الطّعام عجينة قوامها أوراق الشّجر والمكسّرات والتّفّاح بعد طحنها ومزجها بالماء وأُفرغت في جوفه بواسطة قمع. وعلى الرّغم من أنّه كان يسكب معظم الطّعام، إلّا أنّ جزءًا منه كان يجد طريقه إلى

Twitter: @ketab_n

معدته. لم يحاول شوتا أن يجرِّب الهروب مجدّدًا، فقد أضحى كثير الجلوس، رافضًا حتّى أقصر نزهة إلى البركة. وراح آبي يزيل روثه وينظّف حوض علفه ويسقيه الحليب والشّراب، وكان الكلّ يدركون أنّ المخلوق كان يذوب ذوبان قطعة من الشّمع على نار.

كان جَهان عندما يرجع إلى مأواه، يجد صعوبة في النّوم، ويتقلّب يمنة ويسرة مفكّرًا في أحوال شوتا. وفي واحدة من مثل هذه اللّيالي المؤرقة الّتي كان الصّمت المألوف قد شمله فيها، بدأ يفكّر في وصيّة معلّمه، ولم يستطع أن يصدّق أنّ سنان لم يذكره ولم يذكر شوتا في أمنياته الأخيرة. فالمعلّم الّذي كان يعرفه ويحبّه، لا بدّ من أن يكون قد ترك شيئًا ما، صغيرًا كان أم كبيرًا للمخلوقين اللّذين اشتغل برفقتهما عن قرب مدّة طويلة من الزّمان. فقد أخذت سانتشا معها علبة وقلادة وعددًا من الخرائط والتّصاميم قائلة إنّ المعلّم أعطاها إيّاها. ألم يترك سنان لُهما شيئًا؟ ربّما ترك سنان، ولكن لم يهتم أحد بإخبار جَهان عن موضوع تافه إلى هذا الحدّ. وإذا كان المعلّم قد ترك هديّة لشوتا، فإنّ جَهان أراد أن يعلم بها من دون أيّ تأخير، لأنّ الفيل كان يحتضر بلا أدنى شكّ، وهذا ما أدّى به إلى الذّهاب لمقابلة رئيس الخصيان الأبيض.

ـ أريد أن أسألك عن وصيّة المعلّم سنان. هل رأيتها؟

رمشت عينا الرّجل الزّرقاوان المؤطّرتان بالكحل، وقال: لماذا تسألني؟

ـ لأنّك أهمّ موظّف في القصر أستطيع التّحدّث إليه.

ـ حسنًا... لقد رأيت الوصيّة.

انفرجت أسارير جَهان، وقال: هل فيها أيّ ذكر لشوتا؟

ـ بعد أن طرحت عليّ هذا السؤال الآن، أتذكّر أنّه ترك كسوة

Twitter: @ketab_n

جميلة للفيل. وسوف أتأكّد بنفسي من حصول الفيل عليها.

قال جَهان مقطِّبًا حاجبيه، وهو يرنو إلى قدميه كأنّهما تزعجانه: إنّي متشكِّر جدًّا. وماذا... عنّي؟

ـ أمّا أنت فقد ترك لك معلِّمك كتبَه.

ـ إذًا، لماذا لم يخبرني بذلك المعلِّم داؤود؟ لقد شاهدت كتب المعلِّم سنان في بيته. أتعني أنّ تلك الكتب هي خاصّتي؟

قال كامل آغا بنفاد صبر: لا بدّ أنّها غير تلك الكتب. أنت كثير الأسئلة أيّها الهنديّ. سوف أتدبّر أمر إرسال الكسوة إليك، فضلًا عن الكتب الخاصّة بك. والآن عد من حيث أتيت، وتوقّف عن إضاعة وقت طويل مع ذلك الحيوان. فأنت معماريّ، وعليك أن تتصرّف على هذا الأساس.

أومأ جَهان برأسه، ولكنّ ثمة شيئًا ليس على ما يرام.

في عصر اليوم التّالي، وبعد مرور ثلاثة أسابيع على هروب شوتا، عاد جَهان من الصّفّ ليجد آبي جالسًا على صخرة يبكي. قال آبي من دون أن يكمل عبارته: الحيوان...

دخل جَهان الزّريبة بهدوء، فوجد شوتا وحيدًا يتنفّس بصعوبة، ففرك له خرطومه براحتي كفَّيه وقدّم له ماءً، لكنّه رفض أن يشربه. ركّز الفيل عينيه البنيّتين المائلتين إلى الحمرة على مروِّضه، فرأى جَهان فيهما آثار كلّ طريق، قصيرًا كان أم طويلًا، سارا فيه معًا. تذكّر كيف أنزل شوتا من على متن السّفينة قبل خمسين عامًا، مغطًّى بالقاذورات والبراز، موشكًا على الانهيار.

قال جَهان والدّموع تتحدّر من عينيه: آسف. كان يتعيّن عليّ أن أهتمّ بك اهتمامًا أكبر.

Twitter: @ketab_n

في ذلك اليوم، لازم جَهان الفيلَ ولم يتركه، ونام بجانبه في تلك اللّيلة مصغيًا إلى أنفاسه الثّابتة. وإذا كانت قد ساورته أيّ أحلام، فإنّه لا يتذكّرها. وفي الصّباح، فتح عينيه على صوت طائر نقّار الخشب على شجرة قريبة كأنّه يرسل رسالة مشفّرة. كانت الزّريبة هادئة، يلفّها الصّمت، فلم يرغب جَهان في أن يدنو من شوتا ويلقي نظرة عليه، لكنّه دنا ونظر. كان الفيل مضطجعًا من دون حراك، منتفخ البدن كأنَّ الرّيح اندفعت في خرطومه ونفخته أثناء نومه.

قال جَهان في نفسه بعد أن غسل الحيوان وعطّره، ووضع عليه البلسم: ينبغي أن يحظى بجنازة تليق به.

واضطرّ لأن يأخذ قسطًا من الرّاحة بعد أن أضناه ذلك. وتذكّر كيف أن نوربانو حفظت جثّة السّلطان سليم إلى أن تربّع ابنه على العرش، ثمّ عثر على قوالب من الثّلج، ولكن من دون فائدة، لأنّ الفيل حيوان أضخم ممّا ينبغي والثّلج أقلّ مما هو مطلوب. بيد أنّه كان مصرًّا على حفظ الجثّة إلى أن يحين موعد الاحتفاء به احتفاءً يليق بعظمته.

في غضون ساعة، وصلت كلمات جَهان إلى كامل آغا القرنفليّ، فهرع إلى مأوى الحيوانات بصفته مشرفًا على كلّ شيء بما في ذلك الحزن والجنون. تناهى إلى سمعي أنّك تريد احتفاءً.

قال جَهان: لقد أرسل شاه عظيم شوتا إلى سلطان عظيم.

قال رئيس الخصيان الأبيض: إنّه حيوان لا أكثر.

ـ حيوان ملكيّ.

قال رئيس الخصيان الأبيض مشدوهًا أكثر ممّا هو منزعج من هذا السّلوك الّذي انتهك القواعد والأعراف: كفاك حمقًا وغباءً. دّعه، فالمبعوث الفرنسيّ سوف يشرِّح جثّته.

شهق جَهان شهقة تنمّ عن ألم ممضّ كأنّه تلقّى ضربة على أمعائه،

Twitter: @ketab_n

وقال: أتعني أنّ المبعوث سوف يشقّ بطنه؟ لن أسمح له بذلك!

ـ هذه إرادة السّلطان.

ـ لكنْ، هل...

غير أنّ جَهان لم يستطع إكمال عبارته، فقد كان يريد أن يقول: هل يعلم السّلطان أن هذا الحيوان ليس اعتياديًّا؟ وهو سؤال تردّد صداه في أعماق روحه. وتمنّى لو أنّ المعلّم سنان لا يزال على قيد الحياة، لأنّه يعرف كيف يتصرّف ويعرف كيف يتكلّم.

في ذلك النّهار، زُيّنت جثّة شوتا بالأكاليل والزّهور ووُضعت فوق عربة يجرّها خمسة ثيران، وراحت تجوب شوارع إسطنبول على هذه الحال للمرّة الأخيرة. اشرأبّت أعناق النّاس احترامًا وبهجة. وصفّقوا وهتفوا وصاحوا. وتخلّوا عن أعمالهم واقتفوا أثر العربة بدافع حبّ الاستطلاع أكثر ممّا هو دافع الشّفقة. سار جَهان في المقدّمة، يحدّق إلى الأفق أمامه، ومن فوق ومن وراء الجموع المحتشدة، غير راغب في أن يشاهد أحدًا. وصل حزينًا وبائسًا إلى مقرّ المبعوث، وسلّم السّفير جثّة الفيل كأنّه يسلّم جزّارًا خروفًا مخصّصًا للذّبح.

Twitter: @ketab_n

استُدعي جَهان في اليوم التّالي إلى حجرة رئيس الخصيان الأبيض، وكان الشّيء الأوّل الذي خطر في باله هو أنّ هذا الرّجل سوف يوبِّخه لبقائه في مأوى الحيوانات اللّيلة الّتي قضى فيها شوتا نحبه في نهاية الأمر. كان جَهان قد تحدّى أوامره ورفض تسليم المبعوث الفرنسي الجثّة من دون أن يغيّر ذلك شيئًا. فقد مضى التّشريح قدمًا، غير أنّ ذلك كان يكفي لإشعال غضب رئيس الخصيان الأبيض على مدى الأعوام المقبلة.

انحنى جَهان انحناءة بطيئة ومتردِّدة على أثر اقتياده إلى الحجرة، وانتظر وهو يحدِّق إلى الأرضيّة الرّخاميّة.

فرقع الأمر فرقعة السّوط: ارفع رأسك!

امتثل جَهان للأمر وحدّق في عيني رئيس الخصيان الأبيض للمرّة الأولى منذ وصوله القصر وتلقّيه صفعة لا تُنسى منه، تلك العينين الزّرقاوين زرقة شوك الجمال الغامقة.

ـ كنت أراقبك طوال هذه السّنين. لقد صعد نجمك صعودًا سريعًا، ولم يحقِّق غيرك من المروِّضين ما حقّقته أنت، لكن ليس هذا هو السّبب الّذي دفعني إلى الإعجاب بك. هل أخبرك بالسّبب؟

ظلّ جَهان صامتًا، إذْ لم تكن لديه أيّ فكرة عن إعجاب كامل آغا به.

ـ إنّ كلّ ديفشرمة[1] مصنوع من الحديد المذاب، وأعيد صبّه. وأنت واحد منّا أيّها الهنديّ. الأمر الغريب أنّ أحدًا ما لم يعِد صبّك،

---

(١) ديفشرمة devshirme: لقب الجند الجدد الّذين جُمعوا من الولايات المسيحيّة في الدّولة العثمانيّة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

بل أنت الّذي فعلت ذلك بنفسك. لكن، أتعرف أين ارتكبت خطأ؟

ـ لا أعرف أيّها الأفندي.

ـ الحبّ!

تهدّلت زاويتا فمه كأنّ الكلمة الّتي نطق بها تركت أثرًا حامضًا على لسانه، أضاف: ثمّة عدد كبير من التّلاميذ في مدينتنا، بل المئات منهم. وهم يحترمون معلّميهم. أمّا أنت فأحببت معلّمك. وينطبق الشّيء نفسه على الفيل. كانت مهنتك تتطلّب العناية به وأن تتأكّد من امتلاء معدته. لكنّك أحببت الحيوان.

ـ ليس ذلك عملًا صادرًا عن وعي، بل كان عفويًّا.

قال الخصي وهو يتنهّد: لا تحبّ أحدًا حبًّا أكثر ممّا ينبغي. وبما أنّ معلّمك قد رحل عن هذا العالم، فسوف أقوم مقام الوصيّ عليك، فكن مخلصًا لي ولن تتكبّد أيّ خسارة.

ـ لست في حالة حرب أيّها الأفندي.

تظاهر الرّجل بأنّه لم يسمع هذه العبارة، بل قال: سوف أساعدك. ثمّة منزل يغسلون فيه اليأس ويسمّونه حمّام الأحزان.

رمشت عينا جَهان متذكّرًا الاسم من لحظة موغلة في القدم قد تكون من حياة غير حياته.

نذهب إلى هناك وننسى. كل شيء. أتفهم؟

قال جَهان مرتبكًا: أفهم.

ـ حسنًا، استعدّ. سوف أصطحبك إلى ذلك المكان في هذه اللّيلة.

بعد ان أرخى الظّلام سدوله، جاء خادم ليرافق جَهان، وكان رجلًا ضخم الجثّة، عريض المنكبين، وهو أصمّ وأبكم كغيره من الخدم. تابع جَهان سيره وراء شعلة الخادم إلى الجهة الأخرى من الفناء، ودخلا بابًا خلفيًّا مخفيًّا إلى حدٍّ ما. ولم يعرهما أحد أيّ اهتمام. وكان في وسع

Twitter: @ketab_n

جَهان أن يعتقد أنّهما غير مرئيّين لولا الذّباب الّذي كان يحوم فوق رأسيهما ويندفع اندفاعًا أعمى إلى فم ومنخري كلّ واحد منهما، والأصوات الّتي كانت تصدر عن أقدامهما وهي تطرق الممرّات المرصوفة بالحصباء.

كانت السّماء فوق المدينة كسوة مخمليّة، شديدة السّواد وليست زرقاء. ثمّة عربة تجرّها أربعة جياد تنتظرهما، لكنّ جَهان تمكّن تحت الضّوء الباهت من رؤية المشابك المذهّبة والألواح العاجيّة المنقوشة والنّوافذ ذات السّتائر المسدلة الّتي لا يمكن أيّ عين أن تخترقها. كان رئيس الخصيان الأبيض جالسًا داخل العربة مرتديًا عباءة ذات حافّة مكسوّة بالفرو. وما إن استقرّ جَهان في مقعده حتّى نقر الخصي بعصاه سقف العربة، فانطلقت بهما.

سارت العربة بسرعة وضوضاء، ما دفع جَهان إلى الاعتقاد جازمًا بأنّ ثمّة أشخاصًا يشاهدونهما، خبّازون في طريقهم لعجن عجين الخبز وأمّهات يُرضعن أطفالًا ثقل عليهم النّوم، ولصوص يهربون بما سرقوه، وسكارى يكرعون زجاجة أخرى أو تقاة في طريقهم لأداء صلاة إضافيّة. كم منهم عرف برحلات رئيس الخصيان الأبيض اللّيليّة، وبقي صامتًا لا يتفوّه بشيء عنها؟ ثمّة أسرار تعرف عنها المدينة قاطبة، وبالرّغم من ذلك بقيت مستورة.

ترجّلا من العربة بالقرب من زقاق خلفيّ على درجة بالغة من الضّيق والظّلمة ما دفع جَهان إلى التّردّد في الدّخول. سار الحوذيّ في المقدّمة حاملًا مصباحًا لا يكاد يضيء أيّ شيء. كانت البيوت المتداعية جاثمة مثل نسوة عجائز، منتشرة يمنة ويسرة. وبعد مرور مدّة بدت دهرًا، وصلوا إلى بوّابة مزخرفة، فطرق رئيس الخصيان الأبيض على الباب ثلاث طرقات بمحبسه وانتظر، ثمّ طرق مرّتين بيديه العاريتين، فأجاب صوت من الدّاخل: هايسينيث؟

Twitter: @ketab_n

فردّ رئيس الخصيان الأبيض: هايسينيث.

شقّ التّنفّس على جَهان لحظة واحدة، وساوره الشّكّ في أنّ الخصيّ كان يعرف الكنية الّتي كانت والدته قد منحته إيّاها عندما كان صبيًّا. وهنت عزيمته وخمدت همّته، ولم يشعر بأيّ رغبة في دخول المنزل برفقة هذا الرّجل، لكنّ البوّابة كانت قد فُتحت.

رحّبت بهما أقصر امرأة شاهدها جَهان في حياته. كان كلّ شيء فيها صغيرًا، يداها وذراعاها وقدماها ما عدا صدرها.

ضحكت وقالت: ألم تشاهد قزمًا من قبلُ، أم أنَّك لم تشاهد امرأة؟

تورّد وجه جَهان خجلًا، ما دفعها إلى الإفاضة في الضّحك بصوت عالٍ، ثمّ التفتت إلى كامل آغا، وسألته: أين عثرت عليه؟

ـ الاسم جَهان وهو معماريّ، موهوب لكنّه رقيق الحاشية، سريع التّأثّر.

قالت: حسنًا، لدينا العلاج. مرحبًا بك في حمّام الأحزان.

كان المكان مألوفًا لدى رئيس الخصيان الأبيض، فما كان منه إلّا أن رمى بنفسه على وسائد كبيرة لامعة، وأمر جَهان بأن يحذو حذوه. وقبل أن يمضي وقت طويل، ظهرت للعيان خمس محظيّات يحملن آلات موسيقيّة: عودًا ودفّين صغيرين وقيثارة ونايًا. جال ببصره من وجه إلى آخر حتّى استقر على وجه المرأة الأخيرة، إذْ كان جبينها العريض وأنفها الدّقيق التّقاطيع وذقنها الحادّ وعيناها الواسعتان البندقيّتان تحمل كلّها شبهًا كبيرًا بمهرماه. فشعر جَهان بالدّوار. وهنا التفتت ناحيته، وابتسمت تنمّ عن مشاكسة كأنّها أدركت مدى تأثيرها فيه، وانطلقن كلّهن بغناء لحن طروب.

قُدِّمت لهما صينيّة فضّيّة عليها كرات من المعجّنات لونها بلون

Twitter: @ketab_n

الزّعفران وحجمها بحجم الجوز. اختار جَهان واحدة منها، وأمسك بها بعناية بين إصبعين من أصابعه. أمّا كامل آغا، فأمسك بثلاث كرات سرعان ما ازدردها الواحدة تلو الأخرى، ثمّ استراح في مجلسه وأغمض عينيه. فتشجّع جَهان ودفع الكرة في فمه، فتبيّن له أنّ طعمها غريب، كريه وحلو في البداية، ثمّ كثيرة التّوابل مثل حبوب مطحونة والعترة البرّيّة. جيء بعد ذلك بالخمرة في غرافات حمراء اللّون. شرب منها بحذر أوّل الأمر، لا يستطيع الوثوق بأيّ فرد.

جلست المرأة القزم بجانبه، وقالت: طرق سمعي أنّك فقدت حبيبًا.

ـ إنّه فيلي.

انتظر جَهان الضّحكة الخافتة منها، لكنّها لم تصدر، بل قالت بعد أن ملأت قدحه: أعرف شعورك، فقد كنت أملك كلبًا، وعندما نفق، تحطّمت. لم يفهم أحد، وقالوا إنّه كلب من كلاب الصّيد يا زينب. ماذا يعرفون؟ يُستحسن عقد الصّداقات مع الحيوانات لا مع البشر.

قال جَهان وهو يأخذ جرعة أخرى: أنتِ على حقّ. الحيوانات أكثر صدقًا.

استمرّ صوت الموسيقى، وراح يتصاعد، وأعيدت صينيّة كرات المعجّنات، وفي هذه المرّة تناول جَهان قطعة أكبر حجمًا وشرب كمّيّة أكبر من الخمر لتسهيل الهضم. بذل قصارى جهده كي لا يلمح المرأة الشّبيهة بمهرماه من دون جدوى، إذْ كانت حتّى ابتسامتها الملائكيّة والتواء شفتها السّفلى التواءً قليلًا يماثلان ابتسامة مهرماه والتواء شفتها تمامًا. وكانت طيّات خمارها تؤطّر وجهها، شبه شفّاف وخفيف مثل ضباب الصّباح. وبدت مرتاحة وواثقة أكثر من بقيّة النّساء. لعلّها لا تملك من الهموم إلّا النّزر اليسير.

Twitter: @ketab_n

أعاده صوت زينب إلى رشده: أترغب في أن أطلعك على ثيابه؟

ـ ماذا؟

ـ ثياب كلبي. أتريد رؤيتها؟

ـ أودّ ذلك.

نظر رئيس الخصيان الأبيض إليهما نظرة عابسة، لكنّه لم يقل شيئًا، إذْ كان مخمورًا تمامًا. فرح جَهان بالتّواري عن أنظاره، ولحق بزينب إلى تجاويف البيت، حيث قادته إلى حجرة مترامية الأطراف كلّ ما فيها صغير: السّرير والطّاولات الواطئة والسّجّادة. في أحد أركان الحجرة، ثمّة خزانة صغيرة مصنوعة من خشب الورد وفيها عشرات الأدراج، وتحتوي على أوشحة وفرو وسترات جلديّة متناهية في الصّغر. شاهد جَهان أيضًا ما يشبه الصّديريّة. لا بدّ من أنّ الكلب كان مخلوقًا صندوقانيًّا لأنّ كلّ شيء كان محكمًا ومضغوطًا. تنهّدت زينب قليلًا، وقالت: كان كلبًا صغيرًا عندما عثرت عليه، فتّشت عن أمّه في كلّ مكان إلى أن اقتنعت في نهاية المطاف أنّه، مثلها، ليس لديه من يعتمد عليه. ومنذ ذلك الوقت لم نفترق.

ناولها جَهان منديله، فأخذته ممتنّة وتمخّطت، وحدّقت إليه كأنّها تشاهده من جديد، وقالت: ضعني على الكرسيّ.

كانت خفيفة الوزن خفّة طفل. قالت وعيناها ترنوان إليه: مضت عليّ ثلاثون سنة وأنا في هذه المهنة، رأيت فيها الجحيم والنّعيم. والتقيت ملائكة وشياطين. وقد بقيت على قيد الحياة لأنّني كنت مطبقة الفم، ولم أتدخّل في شؤون الآخرين، لكنّني أُغرمت بك، فأنت تبدو رجلًا لطيفًا.

تناهى إلى سمعهما صوت قعقعة صادر من الحجرة المجاورة. لعلّه فأر انحشر بين ألواح الأرضيّة الخشبيّة، فما كان منها إلّا أن خفضت

Twitter: @ketab_n

صوتها حتّى بات همسًا.

ـ الخصيّ، احترس منه.

ـ لماذا تقولين هذا الكلام؟

قالت وهي تثب من عن الكرسيّ: حسبك أن تأخذ حذرك.

بعد أن رجعا إلى الحجرة، كان الغناء لا يزال متواصلًا وإن كانت الألحان قد باتت حزينة بعد أن كانت مرحة. جلست زينب بجانب رئيس الخصيان الأبيض وراحت تطرب لمرحه وإطرائه وتقدِّم له الطّعام والشّراب.

تهدّلت عينا جَهان بعد أن استند إلى مسند خلفه، وكاد يستسلم للنّوم لولا الصّوت الّذي علا فوق صوت الموسيقى: هل تسمح؟

كان الصّوت منبعثًا من النّسخة المطابقة لمهرماه، فكاد قلب جَهان يتوقّف لحظة.

جثت أمامه ومرّرت ردني ثوبها على ركبتيه وصبّت له كأسًا من الخمر. ولمّا أفرغه في جوفه، أخلعته حذاءه، وضغطت بقدميه على ثدييها وراحت تحكّهما بهما برفق. انتاب جَهان الذّعر والهلع واشتدّا في أعماقه اشتداد السّوداء. كان يخشى أن يتملكها، فأمسك بيديها، ولم يعرف ما إذا كان يريد بذلك منعها من لمسه أم منع نفسه من لمسها.

سألته: هل تروقك يداي؟

ـ أنت تذكِّرينني بامرأة.

ـ حقًّا؟ هل هي امرأة أحببتها؟

أفرغ جَهان كأسًا أخرى في جوفه، وراقبها وهي تملأها له.

ـ أين هي الآن؟

قال: وافتها المنيّة.

قبّلته، وقالت: مسكينة.

Twitter: @ketab_n

كانت شفتاها بطعم الشّراب المثلّج، وأبعد لسانها عن لسانه وتراجع. لكنّ جَهان اشتعلت غريزته على الرّغم منه، فأمسكت به بقوّة وضغطت كفّيها على مؤخّر عنقه. سرعان ما أدرك جَهان أنّ الآخرين تواروا عن الأنظار: عازفات الموسيقى وزينب ورئيس الخصيان الأبيض.

سأل جَهان بصوت مشحون بالقلق: أين الآخرون؟

ـ اهدأ. كلّ واحد في حجرته، ونحن على ما يرام هنا.

تبادلا القبلات مجدّدًا، وأرشدت يده إلى أنحاء جسدها، صعودًا ونزولًا، مشجّعة إيّاه على مداعبة نهديها وردفيها الواسعين والمدوّرين، ثمّ جذب تنورتها إلى أعلى، فأصدرت طبقات القماش حفيفًا تحت ثقله. وتنقّلت أصابعه بين ساقيها وداعبت كهفها الرّطب والمعتم. كان متسارع الأنفاس عندما ارتمى فوقها بعد أن خلع ثيابه ونزع عنها ثيابها، وعجز عن التّوقّف.

همست في أذنه: يا أسدي!

عضّ على رقبتها، برقّة أوّل الأمر، ثمّ بعنف.

قالت متقطّعة الأنفاس: نادني باسم مهرماه.

صدح صوت مدوٍّ في رأس جَهان، فأبعدها عنه، وترنّح وهو يحاول الوقوف قائلًا: كيف عرفت اسمها؟

جفلت، وقالت: أنت أخبرتني به.

ـ لا، لم أخبرك.

ـ بل أخبرتني. قبل لحظة. ألا تتذكّر؟

هل أخبرها؟ إنّه غير متأكّد. قالت وهي تشاهد ذهوله وارتباكه: لقد دارت الخمرة برأسك. أقسم لك أنّك أخبرتني به.

أمسك جَهان رأسه بين يديه وتغلّب عليه الغثيان. لعلّها صادقة.

Twitter: @ketab_n

كان من شأنه أن يصدِّقها لولا تلك الرّعشة الصّغيرة الّتي ظهرت واضحة على فكِّها، ربّما هي ردّ فعل تلقائيّ أو إشارة تنمّ عن توتُّر.

قال: أتوسّل إليكِ أن تذهبي.

قالت مبتسمة ابتسامة لاذعة، ودفعت نفسها تجاهه: لا تكن طفلًا!

شعر جَهان بأنّه وقع في فخّ بعد أن غاص رأسه في نعومة صدرها، وأمسك برسغيها بإحكام، فصارت أصابعها بيضاء، وخيّل إليه في لحظة أنّه يوشك أن يستسلم لسحرها وفتنتها، لكنّه بدلًا من ذلك، دفعها دفعة قويّة وسريعة، فسقطت على الأرض سقطة ثقيلة، فشهقت شهقة لم تكتمل، ثمّ ران صمت، ترنّح جَهان وتعثّر وهو يشاهد أوّل مرّة الحاجز الحديدي المحيط بالمدفأة الّذي هوت عليه وارتطم رأسها به. قبل أن يتمكّن من جمع شتات أفكاره، فُتح الباب ودخلت زينب الحجرة مهرولة وهي تصيح وتصرخ. انحنت فوق المرأة وأصغت لأنفاسها، فاكفهرّ وجهها.

زعقت زينب: إنّها ميّتة.

التفتت إلى جَهان، واتّسعت عيناها رعبًا وهلعًا.

لقد قتلت عشيقة رئيس الخصيان الأبيض.

Twitter: @ketab_n

خرج جَهان من الغرفة يجري بأسرع ما تستطيع ساقاه أن تحملاه واتّجه إلى الحديقة، ومنها إلى الزّقاق المظلم، خائفًا من أن يثب عليه شبح من الأشباح في أيّ لحظة. في الوقت الّذي وصل فيه إلى الشّارع، كان جبينه يتفصّد عرقًا وصدره يعلو ويهبط على نحو جعله متأكّدًا من أنّ صوته يُسمع في حمّام الأحزان. ما إن خطا خطوة حتّى هاجمته موجة من اليأس والقنوط. ليس له هدف يتّجه إليه، فهو لا يستطيع الرّجوع إلى مأواه في القصر لأنّ ذلك هو المكان الأوّل الّذي سيفتّش فيه عنه رئيس الخصيان الأبيض. في وسعه أن يطلب مساعدة المروّضين في المأوى، لكنّه لا يثق بهم، إذْ يكفيه خائن واحد.

في اللّحظة الّتي استبدّ به الرّعب، خطرت بباله فكرة: داؤود. فمنزله واسع جدًّا يكفي كي يتوارى فيه عن الأنظار بضعة أيّام، إن لم تكن بضعة أسابيع، بل يمكن لداؤود الذّائع الصّيت والشّخصية البارزة أن يعثر له على وسيلة تحميه من غضب رئيس الخصيان الأبيض. لكنّ المشكلة هي أنّه لا يستطيع السّير إلى حيّ أيّوب في منتصف اللّيل وسيكون بحاجة إلى جواد. كانت العربة الّتي أقلّتهما تنتظر في إسطبل قريب. اتّجه إلى ذلك المكان داعيًا الله أن يكون الحوذيّ نائمًا.

لكنّه لم يكن نائمًا. الحقّ أنّه كان في منتهى اليقظة وفي حالة سرور. كان هذا الرّجل يقتدي بمعلّمه. ففي حين كان رئيس الخصيان الأبيض يقصف ويعربد متعاطيًا الحشيش والخمر، كان خادمه يستمتع بلهوه ولعبه. خطا جَهان على أطراف أصابع قدميه وفي غاية الهدوء، وإن لم يكن مضطرًّا لذلك، لأنّ الحوذيّ والمومس كانا في شغل شاغل عنه، فلم يتنبّها له. أمّا الجياد، فوقفت ساكنة مصغية وإن كانت جافلة،

Twitter: @ketab_n

مشنَّفة آذانها، مفتّحة العينين، تتحسّس ما يدور حولها.

اقترب جَهان من أحد الجياد الأربعة وكان لا يزال موثَّقًا إلى العربة، وكان فحلًا، لونه الرّمادي أشدّ غمقًا من حصباء الشّارع، قاده ببطء شديد إلى البوّابة بعد أن أمسك به من اللّجام. في تلك اللّحظة، أطلق الحوذيّ صيحة تنطوي على إحساسه باللّذة، وعجّل في اندفاعه. جذب جَهان لجام الحيوان بقوّة أكبر ممّا كان يريدها، فهزّ الجواد رأسه، لكنّه لحسن الحظّ لم يصهل، فما كان من جَهان إلّا أن تضرّع ليذهب بسلام. لا بدّ أنّه اختار أكثر الجياد الأربعة خنوعًا وطواعية، لكنّه لم يستطع أن يحول بينه وبين التّفكير في أنّ ثمّة شبحًا ما يقوده، شبح مهرماه أو شبح نيقولا أو شبح المعلّم سنان. ربّما هو شبح شوتا نفسه. لديه كثير من الأشباح.

قبل أن يمضي وقت طويل، كان جَهان يشقّ طريقه بأقصى سرعة، والرّيح تلاعب شعره. لم يعد خائفًا من الجنّ الّذي يأوي إلى الزّوايا المظلمة، وتقبّل حقيقة أنّ الجانّ أقلّ مدعاة للخوف من البشر. وحرص على أن يظلّ في الظّلام متجنّبًا الحرّاس، إلى أن وصل إلى منزل داؤود. ذهل الخدم لمرأى ضيف في مثل هذه السّاعة المنحوسة، اصطحبوه إلى معلّمهم في الطّبقة العليا، وإن كان قد أوى إلى فراشه.

حرّك داؤود قدميه وفي عينيه نظرة حيرى، وقال: هل كلّ شيء على ما يرام؟

قال جَهان: عفوًا، ليس لديّ مكان آخر ألجأ إليه.

قبل جَهان شراب المسك الّذي أتى به أحد الخدم إليه. كانت يداه ترتعشان ارتعاشًا جعله يسكب قليلًا منه على السّجّادة. حاول أن يمسح البقعة بردنه، ما زاد الطّين بلّة. وعجز عن النّظر أمامه، حدّق إلى الأرض، فرأى ما فشل في رؤيته في زيارته الأولى. غريبة هي التّفاصيل التّافهة الّتي تستحوذ على المرء عندما تقع أحداث فظيعة، رأى الآن أنّ السّجّادة هي سجّادة المعلّم سنان.

Twitter: @ketab_n

لقد... قتلت امرأة.

امتقع وجه داؤود، وقال: من هي؟ وكيف؟

قال جَهان وهو لا يعرف كيف يكمل جملته: خليلة رئيس الخصيان الأبيض...

لكنّه راح يقدّم شرحًا لأحداث تلك اللّيلة، السّيِّدة القزم والعازفات والمحظيّة الّتي حاولت إغواءه وأفلحت في محاولتها، لكنّه لم يأتِ على ذكر شبهها المروِّع بمهرماه.

قال جَهان وهو يحاول أن يتنشّق الهواء: لا أدري... كانت الأمور غريبة مؤخّرًا. أعتقد أنّها ذات صلة بالمعلِّم سنان.

هنا، عقد داؤود حاجبه، وقال: إنّ المعلِّم، أسكنه الله فسيح جنّاته، بعيد من تفاهات هذا العالم.

ـ صحيح، رحمه الله. لكنّني ورثتُ تركتَهُ. قلت لي قبل يوم إنّه لم يعد سوانا، أنا وأنت. توقّف جَهان عن الكلام قليلًا وحدّق إلى صديقه تحديقًا عميقًا، وأضاف: قد تكون أنت أيضًا في خطر.

أبعد داؤود هذه الفكرة عنه بإشارة من يده، وقال: لا تقلق، لا يمكن أن يحدث شيء لي.

قال جَهان ذاهلًا، واهتزّ جسده مثل طفل بحاجة إلى عزاء: لقد قتلتها...

ـ سوف أتحقّق من الأمر صباح الغد، أمّا الآن، فينبغي أن تأخذ قسطًا من الرّاحة.

بناءً على أمر داؤود، جرى إعداد سرير وآنيَة فيها تين وتمر، وإبريق

Twitter: @ketab_n

من شراب الغبيراء، لكنّ جَهان لم يأكل ولم يشرب إلّا قليلًا، ورقد رقودًا مضطربًا.

نام على الرّغم من الشّياطين التي كانت تطارد روحه. وعندما استيقظ من نومه، كان الوقت ضُحًى، رأى ثيابًا جديدة على الأريكة، فارتداها ممتنًّا وذهب لرؤية داؤود الّذي كان في انتظاره في الطّبقة الأرضيّة برفقة أطفاله الثّلاثة، وكان الأصغر ابنة لم تتجاوز سنّ الرابعة. أمّا الصّبيّان. فكانا نسخة عن أبيهما، والواضح أنّهما كانا متيّمان به.

شعر جَهان بغصّة، فهو بلا زوجة وبلا ذريّة. وقد جاء إلى هذه المدينة، مدينة الظّلال والأصداء بنفسه، وبعد مرور سنوات طويلة، ها هو وحده من جديد.

همس داؤود كي لا يسمعه الأطفال: لديّ خبر مزعج. كنت على حقّ، فقد توفّيت المرأة على ما يبدو.

شهق جَهان، وراح يتنشّق الهواء بصعوبة، فقد كان حتّى تلك اللّحظة يتمنّى أن تكون قد أُصيبت بجرح بسيط.

سأله داؤود برقّة: ماذا ستفعل الآن؟

ـ لا يمكنني البقاء في إسطنبول. يجب أن أرحل.

ـ يمكنك البقاء عندنا قدر ما تريد.

انفرجت أسارير جَهان، وتأثّر بكرم داؤود. وفكّر في أنّ أيّ رجل مرموق بمنزلة داؤود من شأنه أن يتحاشى رجلًا في مأزق. صحيح أنّه جاء إلى هنا ليمضي بعض الوقت، لكنّه بعد أن شاهد الآن أطفال داؤود الصّغار، أدرك أنّه لا يستطيع أن يضعهم في موضع الخطر.

ـ إنّني مدين لك، ولكن ينبغي لي الذّهاب، وهذا أفضل.

فكّر داؤود قليلًا، وقال: ثمّة بستان على مقربة من ثريس يملكه والد زوجتي، فإذا لجأت إليه، فإنّك ستكون في مأمن إلى أن تهدأ

Twitter: @ketab_n

الأمور. سأعطيك جوادًا. اذهب، وانتظر أخباري.

قرّرا أنّ المستحسن الانطلاق تحت جنح الظّلام. هكذا أمضى جَهان النّهار يلعب مِع الأطفال، لكنّه كان يجفل لأدنى صوت قادم من الخارج. وبعد العشاء، أعطاه داؤود جوادًا وعباءة لتدفئته وكيسًا من النقود، وقال له: كن نقيّ القلب، زكيّ النّفس، فإنّك سترجع في غمضة عين.

ـ كيف سأكافئك؟

قال داؤود: لقد كبرنا معًا، هل تتذكّر ما قاله المعلّم؟ لسنا إخوة فحسب، بل شهود على رحلة أحدنا الآخر.

أومأ جَهان برأسه، حنجرته مضغوطة إلى أبعد الحدود. وتذكّر بقيّة العبارة: شهود على رحلة أحدكم الآخر. لهذا سوف تعلمون إن كان أحدكم سيضلّ عن طريقه. سيروا في طريق الحكماء، اليقظين، المحبّين والعاملين بجدّ.

عانق أحدهما الآخر، وشعر في لحظة بأنّ في عناقهما ثمة دقّات غير واضحة، قلب ثالث ينبض بجانب قلبيهما، كأنّ سنان نفسه كان حاضرًا معهما، يراقب ويصغي ويدعو.

Twitter: @ketab_n

سار جَهان سيرًا بطيئًا وثابتًا وسط الظّلال، وغذّ خطاه وسط الشّوارع المظلمة. كان قد عقد عزمه على ألّا يغادر إسطنبول من دون إشادة أخيرة بذكر شوتا، وهو ما لم يخبر داؤود به. فوصل إلى مقرّ إقامة السّفير الفرنسيّ، وساوره الأمل في أن يغفر له السّفير لأنّ من غير اللائق زيارة مبعوث ـ أو أيّ شخص آخر ـ من دون دعوة.

لكنّ الخادم الّذي فتح له الباب فكّر تفكيرًا مغايرًا. فمعلّمه كان يحبّ النّوم ولا يمكن إزعاجه بأيّ حال، غير أنّ جَهان كان لجوجًا. وصدرت عنهما أصوات ارتفعت على نحو أدّى إلى سماعهما صوت رجل نائم من داخل البيت.

ـ من هذا يا أحمد؟

ـ متسوّل صفيق أيّها المعلّم.

ـ أعطه قليلًا من الخبز، واتركه يمضي في سبيله!

ـ إنّه لا يريد خبزًا، يقول إنّه مضطرّ لأن يكلّمك عن الفيل.

ـ آه!

ثمّ أعقب ذلك صمت قصير.

ـ دعه يدخل يا أحمد.

كان الشّخص الّذي شاهده جَهان في الرّدهة لا يشبه أبدًا السّفير الّذي عرفه، لأنّه كان من دون شعر مستعار ولا مساحيق تجميل، وكان يرتدي ثياب نوم تصل إلى ركبتيه وتكشف ضخامة كرشه.

قال جَهان وهو ينحني انحناءة طويلة: أرجو المعذرة على تطفّلي عليك.

Twitter: @ketab_n

سأل السّفير: من أنت؟

ـ إنّني مروِّض الفيل الّذي شرَّحته يا صاحب السّعادة.

قال المسيو بريفيه متذكِّرًا المروِّض الصّفيق الوجه الّذي سلَّمه جثّة الفيل على مضض: فهمت.

تفوّه جَهان بالكذبة الّتي أعدّها في طريقه.

ـ راودني حلم فظيع ليلة أمس، كان الفيل المسكين فيه متألِّمًا، ويتوسّل إليّ أن أدفنه.

قال المسيو بريفيه: لكنّنا دفنّاه. فالجثّة بدأت تتعفّن كما أعتقد، لهذا عمدنا إلى دفن الحيوان.

شعر جَهان بطعنة مؤلمة تخترق صدره.

ـ أين قبره؟

لم يعرف الرّجل، إذْ كان قد طلب من الخدم التّخلُّص من الجثّة، فامتثلوا لأمره. وعندما لاحظ الحزن الّذي استحوذ على جَهان، قال له: رفِّه عن نفسك أيّها الصّديق. تعال، ثمّة شيء أريد أن أُطلعك عليه.

دخلا معًا حجرة تحتشد بالكتب والملاحظات والتّذكارات، كان المسيو بريفيه على العكس من غيره من المبعوثين الّذين كان معظم اهتمامهم ينصبّ على صراع القوى، إذْ كان يمتلك معلومات واسعة عن الإمبراطوريّة العثمانيّة، وكان يتكلّم التّركية والعربيّة والفارسيّة بطلاقة. وبدا أنّ، بعد درس المؤلّفات المكتوبة، ساورته رغبة شديدة في تأسيس مطبعة عربيّة في باريس حتّى تنتقل الكتب بالحرِّيَّة الّتي يتنقَّل بها السّفراء.

فهم جَهان الآن السّبب الّذي حال دون غضب المسيو بريفيه عندما جاء إلى بيته من غير دعوة. الحقّ أنّه كان سعيدًا، اذْ وجد شخصًا يمكنه أن يكلِّمه عن التّشريح الّذي أجراه. كان متشوِّقًا جدًّا إلى الإفاضة في الحديث عن إنجازاته، فسلّم جهانًا التّخطيطات الّتي رسمها.

Twitter: @ketab_n

وعلى الرّغم من أنّه لم يكن رسّامًا ماهرًا، إلّا أنّه وضع كلّ التّفاصيل الدّقيقة عن تشريح الفيل.

قال: في يوم من الأيّام، سأكتب بحثًا حتّى يعلم النّاس، فهم لا تتاح لهم الفرصة كلّ يوم لمشاهدة أحشاء مثل هذا المخلوق الرّائع.

انزلق بصر جَهان، من دون إرادته، إلى رفّ عليه ناب لامع، صقيل ومتلألئ. وتابع السّفير نظرات جَهان، وقال له. تذكار من القسطنطينيّة.

سأل جَهان: هل يمكنني لمسه؟

عندما رأى إيماءة السّفير، أمسك بالنّاب بحرص شديد، اجتاحته موجة من الكآبة، وفاضت عيناه بالدّموع. رمقه المسيو بريفيه صامتًا، تقلّص وجهه وهو يجاهد نفسه. وفي نهاية المطاف، تنهّد وقال: أعتقد أنّك يجب أن تأخذ النّاب.

ـ حقًّا؟

قال السّفير: الواضح أنّك أحببت الحيوان أكثر من أيّ شخص آخر.

لوّح بيده في إشارة تدلّ على عدم اكتراث أو على مشاركة وجدانيّة، أو على كليهما، وأضاف: لديّ رسومي، وهي كافية لأن تثير إعجاب كلّ فرد في باريس.

قال جَهان بصوت حزين: إنّني ممتنٌّ لك.

انطلق جَهان وبيده النّاب وكان مفعمًا بالأمل مقارنة باللّيلة الماضية، وكان النّاب يشعّ بوهج تدفّأت به روحه، كأنَّ شوتا كان يرافقه. وكان يحمل حقيبة ظهر على كتفه تحتوي على بعض الحاجيّات الّتي سمح له المسيو بريفيه بأخذها: مجرفة وشمعة ووشاح أحمر وخيط، وكانت في ذهنه خطّة.

Twitter: @ketab_n

كان ذا هدفٍ وهو يمتطي صهوة جواده. وعندما وصل إلى مسجد مهرماه، ترجّل من على ظهر الجواد، وسار على امتداد الأسوار الخارجيّة، فلمح شجرةَ الأرجوان ذات الزّهر الجميل المتفتّح، عند ذاك، راح يحفر حفرة عميقة ومستطيلة. كان في وسعه أن يحتفظ بالنّاب لنفسِه، لكنّه فكّر في أنّ ذلك ينطوي على أنانيَّة، لأنّ شوتا يستحقّ بلاطة قبر. وإذا كان للسّلاطين والوزراء والأثرياء صروح هائلة تحمل أسماءهم، فإنّ الفقراء والمعدمين عند رحليهم عن هذا العالم يملكون أدعية أقربائهم وأنسبائهم وصلواتهم. وإذا كان كلّ فانٍ يترك وراءه أثرًا، صغيرًا كان أم كبيرًا، فإنّ الحيوانات لا تترك أيّ أثر. فكانت تخدم وتحارب وتعرِّض حياتها للخطر من أجل سادتها، وعندما تنفق، كأنّها لم تكن موجودة قطّ. لهذا لم يرغب جَهان في أن ينتهي الأمر بشوتا كذلك، بل أراد أن يبقى خالدًا، موضع تقدير النّاس ومحبّتهم. وربّما كان هذا كفرًا لكن لا بأس، إذْ كان يتألّم عندما يفكِّر في أنّ شوتا لم يستطع أن يذهب إلى السّماء. وفكّر، إذا دعا النّاس له، فإنّ فرصته في الصّعود إلى السّماء ستكون أفضل.

وضع النّاب بعناية داخل الحفرة، وقال: وداعًا. إلى اللّقاء في الجنّة. سمعت أنّ ثمّة أشجارًا لطيفة ثمارها صالحة للأكل.

في تلك اللّحظة، غشّاه صمت غريب. فللمرّة الأولى، وجد أنّه في حالة سلم مع نفسه، وأنّه جزء من كلّ شيء، وأنّ كلّ شيء جزء منه. وفكّر في أنّ مركز الكون ليس في الشّرق ولا في الغرب، بل هو في المكان الّذي يستسلم فيه المرء للحبّ. أحيانًا يكون المركز في البقعة الّتي يدفن فيها المرء حبيبًا له. وراح يهيل التّراب عليه في الحفرة، مجرفة إثر مجرفة، إلى أن سوّيت التّربة، ثمّ استخدم الخيط لتحديد حافّات الحفر. وتخيّل موضع رأس شوتا، فوضع غصنًا يابسًا عنده وربطه بالوشاح، ووضع بجانبه الشّمعة، وجلس بجواره واضعًا رِجْلًا

Twitter: @ketab_n

فوق رِجْل، وأصبح كلّ ما يحتاج إليه الآن هو أن ينتظر مرور شخص ما، أيّ شخص.

لم يستغرق انتظاره وقتًا طويلًا، إذْ اقترب منه أحد رعاة الماعز، وكان شابًّا في مقتبل العمر، رشيق القوام، حدّق إلى القبر، ثمّ إلى جَهان، ثمّ إلى القبر مجدّدًا.

وقال: ما هذا أيّها الأفندي؟

ـ قبر.

تحرّكت شفتا الشّابّ بسرعة داعيًا ومبتهلًا، ثمّ سأل: من توفّي؟ أهو شخص معروف؟

ـ صه. احترام.

اتّسعت عينا راعي الماعز السّوداوان، وسأل: من هو؟

ـ قدّيس، جبار.

ـ لم أسمع بقدّيس في هذه المنطقة.

ـ لم يكن يريد أن يعرفه أحد على مدى مئة سنة.

ـ كيف عرفته إذًا؟

جثا الشّابّ بجانب جَهان، ومال برأسه إلى الجانب كأنّه يأمل في أن يخطف نظرة إلى الجثّة من تحت التراب.

ـ هل يعالج الأمراض؟

ـ إنّه يشفي كلّ مرض.

ـ أختي عاقر وقد تزوَّجت منذ ثلاثة أعوام وما زالت تنتظر.

ـ أحضرها إلى هذا المكان، إذْ سيساعدها القدّيس، وأحضر زوجها أيضًا لعلّه هو السّبب في عدم الإنجاب.

ـ ما اسمه؟

ـ بابا شوتا.

Twitter: @ketab_n

تمتم راعي الماعز بالاسم، مغاليًا في الاحترام والتقدير: بابا شوتا!

وقف جَهان ببطء، وقال: لا بدّ لي من الذّهاب. راقب هذا القبر وتأكّد من عدم عبور أحد فوقه، فأنت سادن ضريح بابا شوتا. هل يمكنني الوثوق بك؟

أومأ راعي الماعز برأسه برزانة، وقال: لا تقلق نفسك أيّها الأفندي وسوف ألتزم بتعهُّدي.

هكذا حصلت مدينة التّلال السّبع والمراقد المئة، القديمة والموغلة في القدم، المسلمة والنّصرانيّة واليهوديّة والوثنيّة على قدّيس آخر يُزار في أوقات اليأس وأوقات الفرح.

Twitter: @ketab_n

بعد أن واصل جَهان رحلته، وصل إلى نقطة تقاطع طرق، الطّريق الأيمن يقود إلى جهة الشّمال ويمتدّ فوق قيعان أنهر جافّة حتّى ثريس، وهو الطّريق الّذي نصحه داؤود بأن يسلكه. أمّا الطّريق إلى يساره، فمتعرج غربًا ويمتدّ فوق أراضٍ منبسطة وتلال متموِّجة، وهو طريق أكثر روعة، لما فيه من خضرة وجمال وإن كان غير مفضّل لأنّه لم يكن طريقًا مباشرًا ووعرًا فحسب، بل كان أيضًا خطرًا يجوب قطّاع الطّرق غاباته. كاد جَهان ينعطف يمينًا كما كان مخطّطًا له عندما خطرت فكرة بباله. لو كان شوتا على قيد الحياة لاختار الطّريق الثّاني، لهذا ومن دون تفكير أو أيّ سبب معيّن، سلك هذا الطّريق.

ظلّ الجواد يخبّ في طريقه خببًا في بداية الأمر، وراح جَهان يستمتع بالمنظر، فالهواء عابق برائحة الصّنوبر والوحل والرّطوبة. وجاب المنطقة مدفوعًا بدافع غريزيّ، منحرفًا عن الطّريق المتّفق عليه. وسرعان ما أذنت الشّمس بالمغيب وظهر القمر هلالًا رقيقًا وشاحبًا من جهة الشّرق. هنا تذكّر جَهان الحانة الّتي تناول فيها برفقة داؤود طعامهما عندما كانا تلميذين شابّين متحمّسين، لدى عودتهما من روما. وإذا لم تخنه الذّاكرة، فإنّ موقعها في هذه المنطقة.

عندما عثر على الحانة، كان الظّلام قد أرخى سدوله. فأخذ سائس حصانه إلى الإسطبل بينما دخل هو. فرأى أنّ كلّ شيء كما كان: الغرف الخانقة في الطّبقة العلويّة وقاعة الطّعام الفسيحة والكثيرة الضّوضاء في الطّبقة الأرضيّة ورائحة اللّحم المشويّ القويّة. ينبغي أن تكون طبيعة المكان الّذي لم يتغيّر عاملًا مطمئنًا له، مبدِّدًا خوفه وشكوكه، في عالم

Twitter: @ketab_n

كلّ ما فيه يثبط الهمّة، غير أنّ الأمر لم يكن كذلك، وبدلًا من ذلك، ملأه يأسًا هائلًا، إذْ اكتسحت ذاكرتَه صورُ حمّام الأحزان ووجه المحظيّة وهي تميل فوقه لتقبّله بعد أن تحوّل إلى وجه مهرماه. وعلى الرّغم من أنّه علم باستحالة ذلك، فإنّ جانبًا منه شعر بأنّه قتل حبيبته وأنّه كان في أعماقه يريد قتلها.

جلس حول طاولة خشبيّة غير صقيلة بالقرب من المدفأة، تساوره أفكار محمومة، مصغيًا إلى فرقعة الخشب من بين طنين الضّحك والقيل والقال. وكان الخدم ينطلقون يمنة ويسرة، يبدو من مظهرهم أنَّهم إخوة. وبعد مدّة قصيرة، جاءه شخص في ريعان الشّباب ليدوّن طلباته. سأل جَهان بصوت مرح عن هويّته ووجهته. رأى جَهان في عينيه البريق الّذي كان يتمتّع به عندما كان شابًّا، حبّ استطلاع طائش عن العالم ورغبة خفيّة في الرّحيل عن مسقط رأسه معتقدًا أنّ الحياة الحقيقيّة تكمن في مكان آخر.

عندما أحضر الشّابّ يخنته، بقدْر يتصاعد منه بخار لحم البقر والخضراوات في مرق كثيف تملأه التّوابل، قال له جَهان: لم تكن مولودًا بعد عندما زرت هذا المكان آخر مرّة.

قال الفتى باهتمام: صحيح؟ لا بدّ من أنّ أبي هو الّذي اهتمّ بك.

سأله جَهان والطعام يملأ فمه: أين هو؟

ـ آه، موجود، لكنّه يعاني من صعوبة السّمع في أذنه اليمنى. أمّا اليسرى، ففي حال جيّدة. سوف أخبره بشأنك لأنّ كلّ ما يفعله في هذه الأيّام هو الحديث عن الماضي.

أومأ جَهان برأسه وعاد إلى طعامه. وبينما هو يمسح الطّاس من اليخنة بقطعة كبيرة منِ الخبز، لاح صاحب الحانة للعيان، وكان قد ازداد وزنًا وأصبح كرشه بحجم برميل وشكلِهِ، وشاهد الشّابّ يشير إليه

Twitter: @ketab_n

ويهمس بشيء ما في أذن أبيه، وفي ثانية، كان الرّجل يقف بجانب جَهان.

- يقول ابني إنّك معماريّ، وإنّك مررت بنا أثناء طريق عودتك منذ زمن.

قال جَهان رافعًا صوته: صحيح. مررت بهذا المكان برفقة صديقي.

رمشت عينا الرّجل، ووقف معتدلًا لحظة، ثمّ قال بصوت هادئ: أتذكّر.

لكنّ جَهان لم يصدِّقه، إذْ كيف يمكنه أن يتذكّرهما، بينما هو يشاهد مئات الزّبائن يقبلون ويدبرون؟ جلس صاحب الحانة قبالته كأنّه قرأ ما يدور في ذهن جَهان من أفكار تنمّ عن عدم تصديقه، وقال: إنّني أتذكّركما، فقد كان رفيقك رجلًا غريبًا، وقلت في نفسي: هل هما صديقان أم عدوّان؟

حدّق إليه جَهان محتارًا: ماذا تعني؟

- طلب منّي ساطورًا، فسألته: ماذا تريد أن تفعل به؟ ففي هذه المنطقة ينتشر كلّ أنماط الأشقياء والمجرمين، ونحن لا نريد إثارة المشكلات، إذْ كيف لي أن أعرف أنّه لن يقتل أحدًا به؟ ووعدني بإرجاعه ووفى بوعده.

دفع جَهان طبقه الفارغ جانبًا، وشعر بالغثيان فجأة. غير أنّ ملامح وجه الرّجل أشارت إلى أنّه لم يفرغ من حكايته.

- راودني الشّكّ، فتلصّصت من خلال الباب، وكنت أنت في الطّبقة الأرضيّة، وكذلك بقيّة النّاس.

سأله جَهان: ماذا رأيت؟

قال وهو يلفظ الكلمات بتهكُّم: كان صديقك يمزّق الكتاب ذا

Twitter: @ketab_n

الغلاف الجلديّ، وراح يقطّعه إربًا إربًا كأنّه شجرة.

قال جَهان: لقد سرقونا. رسومي... وصحيفتي كلّها اختفت.

ـ لا أيّها الأفندي. لا شيء يسرق من حانتي، فنحن ندير مكانًا حسن السّمعة. أمّا صديقك، فقد أتلف لك مقتنياتك. الله وحده يعلم ماذا فعل بالقصاصات.

ـ لكن... ما سبب إقدامه على ذلك الفعل؟

ـ هه! إذا عرفت السّبب، فتعال وأخبرني به، لأنّني أنا شخصيًّا لا أعرفه.

بعد أن انصرف الرّجل، طلب جَهان جعّة من صنع تلك المنطقة. وسرت في جسده قشعريرة كأنّ الرّيح تهبّ في عظامه. ولمّا فرغ من تناول مشروبه، ترك إكراميّة جيدة وعاد إلى الإسطبل.

ـ هل أطعمت جوادي؟

ـ نعم أيّها الأفندي.

ـ جهّز السّرج.

ـ هل أنت راحل؟ ثمّة عاصفة متوقّعة في الأجواء، والغابة خطرة في اللّيل.

قال جَهان: لست ذاهبًا إلى الغابة، بل سأرجع إلى المدينة.

امتطى جَهان جواده عازمًا على الرّجوع إلى إسطنبول، وسار وسط صفوف أشجار الدّردار فوق جداول الماء المتدفّقة والمحدثة خريرًا، وكانت العاصفة تطارده مثل كلب صيد يسير في أعقابه. وراح الجواد يجفل عند قصف كلّ رعد. اقتربت العاصفة أكثر وبات دويّها أشدّ عند كلّ منعطف. تمكّن إلى حدٍّ ما من تفادي المطر، بينما كانت السّحب الرّصاصيّة الهاربة تطارده. واندفع باتّجاه حقول مظلمة، مظلمة ظلامًا شاملًا وتامًّا كأنّه يريد أن يبتلع بقيّة الظّلال - الواحد تلو الآخر. سأل

Twitter: @ketab_n

نفسه إن كان هذا هو شكل الموت. وإذا كان كذلك، فإنّه ليس مخيفًا جدًّا، لكنّه يتّسم بالعمق والتّغلغل.

راح جَهان يقطع واديًا تنتشر فيه جلاميد ضخمة تشبه على مسافة بعيدة شيوخًا متجمّعين طلبًا للدّفء. وبينما هو يمرّ في تلك المنطقة، ساوره شعور غريب بأنّهم يراقبونه، محدِّقين إليه ببلادة لأنّهم شاهدوا ما يكفي من الحماسة الّتي انتهى بها المطاف إلى كارثة ولم يعد لديهم أيّ حماسة خاصّة بهم.

انحرفت العاصفة يمينًا على مقربة من إسطنبول، فقطعت طريقه ووصلت إلى المدينة قبله. ورأى صاعقة تبرق على بعد مسافة منه مضيئة بذلك القباب والتّلال بألق أزرق ساطع. وفي وهج ذلك الضّوء المنهمر عموديًّا تقريبًا، بدت السّماوات كأنّها انفتحت لتكشف عن قبّة الكون وإن كان ذلك لأقصر مدّة. مرّة أخرى فكّر جَهان في جمال هذه المدينة وإن كان قلبها من صخر. وسرعان ما تحوّل الطّريق المبلّل من تحت قوائم الجواد إلى طرق مبلّطة بالحصباء. فأسرع إلى بوابة بلغراد الّتي كانت المدخل الوحيد الّذي خمّن أنّه لن يكون مغلقًا في هذه السّاعة.

كان على حقّ. فقد كان انكشاريّون يقفون حرّاسًا بدروعهم وسيوفهم وخوذاتهم العالية. كان أحد هؤلاء يغالب النّعاس وهو واقف على قدميه. فأخبرهم جَهان بأنّه معلّم مدرسة القصر وأطلعهم على ختمه. طرحوا عليه بضعة أسئلة وهم في شكّ من أمره، لكنّهم لم يظهروا له قلّة أدب خشية أن تكون له ارتباطات ومعارف في السّراي. وأخيرًا تركوه يمضي في سبيله بعد أن شعروا بالضّجر.

لبث جَهان مدّة ممتطيًا جواده وهو يراقب البحر الّذي بات الآن بلون الحبر من مسافة بعيدة. كانت العاصفة الهوجاء والسّريعة تهبّ من خلف الجملونات، مقتلعة الشّتلات الصّغيرة، دافعة البحر إلى أن يرغي ويزيد. وسرعان ما بدأ المطر يهطل بغزارة. كان السّكّان يطلقون على

Twitter: @ketab_n

مثل هذه العواصف الغزيرة الأمطار عبارة «يوم الحساب الصّغير»، بمعنى أنّ العالم يجري تدريبات على الطّوفان الأخير. وبقدر ما بذل جَهان من جهود جبّارة ليبقى تحت حافّات المباني النّاتئة وهو على ظهر جواده، إلّا أنّه كان يقطر من البلل عندما وصل إلى منزل داؤود. تناهى إلى سمعه نباح كلب في مكان ما، وصوت رجل يصيح بلغة لم يألفها، ثمّ ساد صمت زادت من سطوته ضوضاء متواصلة أكثر ممّا بدَّدته.

عندما زار هذا البيت أوّل مرّة، لم يتنبّه إلى مقدار الحماية الّتي كان يتمتّع بها ـ أسوار عالية وبوابات حديد وسياج من الشّجيرات. وتذكّر كلمات داؤود: تتذمّر زوجاتي، إذْ يردِّدن: أنت رئيس المعماريّين الملكيّ، لكنّك على الرّغم من ذلك لا تصلح السّور حول المنزل. وبعد أن أحكم وثاق الجواد إلى عمود، سار باتّجاه السّور المحيط بالحديقة الخلفيّة، باحثًا عن الجزء الّذي يحتاج إلى إصلاح وترميم، فوجد في مكان، بضعة عواميد قد انثنت وتهشّمت. بعد أن تقدّم مسافة قصيرة، تداعى عمودان، فأحدثا فجوة تكفي لمرور المرء بينهما. رحّبت به الحديقة بأريج عطرها النّفّاذ. ذرع المكان إقبالًا وإدبارًا مفكِّرًا في أفضل وسيلة لاقتحام المنزل.

كان دخوله أسهل ممّا كان يتوقّع، فقد كان يعلم أن البيت المحصّن تحصينًا جيّدًا، يعاني من نقص واحد على وجه العموم: صلف مالكه. فمثل هذا المنزل لم يشهد من يقوم على التّأكُّد منه بانتظام بسبب الثّقة بعدم إمكان أيّ لصّ بانتهاك دفاعاته. بهذا، فإنّ أعلى سور يتداعى وينهار، وينثلم أشدّ الأوتدة مضاءً. وتمكّن من الزّحف من خلال نافذة خشبيّة اتّضح بعد ذلك أنّها مرتخية من مفاصلها، ووجد نفسه على ما يبدو ـ أو على ما تشير رائحته ـ إلى أنّه مخزن حفظ الأطعمة. وبعد أن اعتادت عيناه العتمة، تمكّن من تحسّس طريقه بخطوات متّئدة وثابتة. كانت تحيط به جرار العسل ودبس القصب وبراميل جبن الماعز والزّبدة

Twitter: @ketab_n

وخيوط الخضراوات والفواكه المجفّفة وأوعية الحبوب والمكسّرات، ولم يستطع منع نفسه من الابتسام عندما فكّر في ما يمكن أن يفعله شوتا بمثل هذه الأطعمة. وتذكّر تلك اللّيلة الّتي تسلل فيها إلى المرصد الملكيّ بينما راح قلبه ينبض نبضات عنيفة. كان كلّ شيء مختلفًا يومذاك، إذْ كان معلِّمه على قيد الحياة، موفور الصِّحّة والعافية، وكان شوتا حيًّا أيضًا، وكان هو شخصيًّا عاشقًا مغرمًا.

ثمّة مصباح ينشر نوره الباهت في زاوية من زوايا الممرّ، فما كان من جَهان إلّا أن حمله وارتقى السّلالم إلى الطّبقة العليا. بدت له الغرفة الّتي تناول فيها العشاء برفقة داؤود في ذلك اليوم أكثر رحابة كأنّها اتّسعت بعد الغروب. اقترب من رفوف الكتب لا يدري عن أيّ شيء يبحث، لكنّه متأكِّد من أنّه سوف يستدلّ على الكتاب إذا ما لمحه. لم يكن لديه وقت لفحص الرّقوق، وهذا هو ما سوف يفعله الآن. وبعد أن فتح أحد تلك الرّقوق، راح يدرسه، لكنّه لم يجد فيه ما هو غير مألوف. وأمضى وقتًا أقصر في النّظر إلى الرّسمين الآخرين، أحدهما يمثِّل سوقًا والآخر محجرًا صحيًّا. وهنا انساب من جوف المنزل خفيف مثل خفقة جناح حشرة، فتصلّب ظهره، ولبث ساكنًا ومصغيًا. لا صوت. لا شيء سوى الظّلمة والهدوء الّذي يبعث على الحذر.

فتح لفّافة ورق، واستدلّ على خطّ يد معلِّمه.

تلميذي المخلص جَهان،

جئت اليوم لزيارتك ولكن لم يُسمح لي. هذه هي المرّة الثّانية الّتي يمنعوني فيها. قيل لي إنّها أوامر الصّدر الأعظم. سأحاول الاتّصال بسلطاننا من أجل الحصول على إذن خاصّ. وإلى أن يتحقّق ذلك، فإنّني سأرسل إليك هذه الرّسالة حتّى تعلم أنّني أدعو لك بالخير يا ولدي وأنّني لا أستمتع بشيء خارج المنزل في حين تقضي وقتك وراء تلك الجدران.

Twitter: @ketab_n

شهق جَهان، إذْ بالرّغم من كلّ شيء، زاره معلِّمه في السجن وأنّه حاول الاتّصال به، لكنّه أخفق. سرعان ما خطرت بباله فكرة أخرى. لماذا لم يتسلّم هذه الرّسالة؟ لماذا، أو مَن الّذي أبقى الرّسالة بعيدة منه طوال هذا الزّمن؟

ارتعشت يدا جَهان وهو ينعم النّظر باللّفافة الأخرى، وكانت تشتمل على قنوات مياه كيركجسميّ، حيث وقعت الحادثة الثّالثة الكبرى وقُتل فيها ثمانية عمّال ومن بينهم صلاح الدّين. مرّة أخرى، شاهد خطّ يد معلِّمه، ضربات رقيقة من سنّ قلمه الذّهبيّ. ثمّة نسخة ثانية مكتوبة بلون مختلف قليلًا، تشبه خطوطها تلك الخطوط الّتي وجدها على رقّ مسجد السّليمانيّة. ولدى تفحُّصه العلامات المخربشة، تبيّن له أنّها البقع الّتي حدثت فيها الإصابات.

أمّا في التّصميم الثّالث ـ مسجد ملا جلبي ـ فقد لاحظ جَهان من التّفاصيل ما كاد يصيبه بالاختناق. فهو حتّى تلك اللّحظة، كان يركِّز في المنطقة المحيطة بالسّقالة. أمّا هنا، فثمّة علامات على نصف القبّة الّتي تعلو المحراب. وسرعان ما طافت الذّكرى في رأسه، وتذكّر كيف أخبرته سانتشا بقصّة أسرها أثناء جلوسهما في تلك البقعة وكان وجهها ممتقعًا ولكنتها مرحة وظلّها طويلًا على العشب. وتذكّر الرّجال ـ أحدهم شقيق صلاح الدين ـ وهم يطوفون أثناء حديثها ويتجوّلون وتذكَّر أنَّه شعر بأنّ ثمّة أمرًا ما. وتخيّلهم هو وسانتشا لصوصًا صغارًا يسرقون الموادّ من موقع البناء، وهو ما كان يحدث في أغلب الأحيان. ليس ثمّة نهاية للأشياء الّتي يسرقها النّاس ويهربون بها بسبب الفقر، وأحيانًا بدافع المتعة لا أكثر.

وأدرك الآن أنّ أولئك الرّجال كانوا حاضرين للقيام بأعمال تخريب للمبنى بصفته جزءًا من مؤامرة أخرى. كانوا في انتظاره وانتظار سانتشا حتّى يغادران. ولكن، بما أنّهما بقيا في مكانهما، فقد منعوهم فعليًّا من

Twitter: @ketab_n

تنفيذ ما كان قد طُلب منهم تنفيذه. وبدلًا من ذلك، وقعت الحادثة على الجانب الآخر من المصلّى. ثمّة شخص يدوّن ملاحظات على تصاميم المعلِّم سنان ليس بعد الحوادث لكي توضع الأخطاء الّتي ارتكبت موضع الدّرس والتّمحيص، بل قبلها. أسقط جَهان اللّفافة من يده وهو في خضمّ الذّعر الّذي استبدّ به، ولعن ارتباكه، وجثا على ركبتيه ليلتقطها، وكان لا يزال منحنيًا عندما دخل الغرفة ثلاثة رجال.

كان داؤود مرتديًا ثياب نومه وإلى كلّ جانب من جانبيه أحد خدمه، واقفين قبالته تمامًا.

ـ انظرا مَن الّذي أتت لنا به اللّيلة! ظننته لصًّا لكنّ الواضح أنّه صديق.

نهض جَهان ببطء، ولم يحاول أن ينكر أيّ شيء.

ـ ما الّذي تبحث عنه؟

قال جَهان وقد تفصّد جبينه بالعرق: مسجد ملّا جلبي.

قال داؤود مبتسمًا ابتسامة سرعان ما تلاشت: إنّه ليس أفضل مساجدنا، لكنّه أجمل المساجد الّتي شيّدناها.

صمت هنيهة، وعندما تكلّم مجدّدًا، كان صوته خشنًا وقويًّا.

ـ كان ينبغي أن أتلف هذه الرّسوم منذ زمن بعيد، لكنّني لم أستطع، لأنّها كانت تذكِّرني بأيّامنا، وبزماننا الذّهبيّ. إنّها غلطة، كما أرى الآن. انظر كم كلفّتني رقّتي.

اختلس جَهان نظرة خاطفة إلى الرّجلين الواقفين وراءه، فرأى عيونهما تلمع في ضوء الشّموع الّتي يحملونها. وسرت قشعريرة في أوصاله عندما استدلّ على أحدهما. الأخرس والأصمّ الّذي قاده إلى عربة رئيس الخصيان الأبيض قبل بضعة أيّام. شعر بأنّه في عالم آخر.

سأله داؤود: لماذا رجعت؟ ألم أوفِّر لك جوادًا سريعًا ومكانًا آمنًا؟

Twitter: @ketab_n

ردّ جَهان ردًّا لاذعًا: صحيح، لكي تبعدني عن طريقك.

- كن شاكرًا، لأنّ الشّيطان وحده ينكر الجميل.

- إنّ الشّيء الّذي لا أفهمه هو قولك إنّك تريدني أن أكون رئيس عمّالك. لماذا هذه الخدعة؟

- لأنّني كنت أفهم والله شاهد على ما أقول. في البدء، فكّرت في أنّنا يمكن أن نعمل معًا، لكنّك أفسدت كلّ شيء، وطرحت أسئلة أكثر ممّا ينبغي عن وصيّة المعلّم. لماذا لا تتقبّل الأمور على علاّتها؟

نظر داؤود إلى النّافذة وراء جَهان، وكانت الأمطار تهطل غزيرة عليها. وقال متمتمًا، منهكًا على ما يبدو ومحبطًا إلى أبعد الحدود: كنتَ دائمًا فضوليًّا على نحو لا يفيدك.

- أنت ورئيس الخصيان الأبيض متواطئان.

ردّد داؤود: متواطئان؟ يا لها من صفة قاسية!

- ماذا تسمّي هذا؟

تجاهل داؤود السّؤال واسترسل في كلامه: طلبت منه ألّا يصطحبك إلى بيت الرّذيلة لأنّ الفكرة ليست جيّدة، لكنّه لم يستمع إلى كلامي، وظنّ أنّه يستطيع شراءك بالبغايا والحشيش.

حدّق إلى جَهان كأنّه ينشد السّلوى، وأضاف: لو تركني أعالج الأمر بنفسي لما حدث أيّ شيء من هذه الأشياء.

قال جَهان: كان المعلّم دائم القلق خشية أن يفقد تصاميمه، لكنّه لم يفقدها، بل كنت أنت تسرقها. والحوادث... أنت الّذي دبّرتها. شقيق صلاح الدّين. لقد عمل ذلك الغلام عندك ولم يعرف قطّ أنّك أنت من قتل شقيقه. كم عدد الآخرين الّذين خدعتهم؟ كيف استطعت ذلك؟

ساد صمت قصير، قال بعدها داؤود للخادمين: انصرفا وانتظرا خارجًا.

Twitter: @ketab_n

لو أنّ الرّجلين مصابان بالّصمم والبكم، كما كان جَهان يظنّ، فلا بد أنّهما تدرّبا على قراءة الشّفاه، لأنّهما خرجا من فورهما، ولم يبق في الغرفة سواهما. وشعر جَهان بأنّ الغرفة ازدادت برودة، واشتدّت عتمة، بعد أن أخذ الخادمان الشّموع. وكان الضّوء الوحيد المتبقّي في الغرفة هو ضوء ذلك المصباح الصّغير والخجول الّذي كان قد حمله جَهان معه من الطّبقة الأرضيّة.

قال جَهان بشفتين يابستين: كنت أنت المدبِّر طوال الوقت. عندما كنّا نرمِّم آيا صوفيا، أنت تحدَّثت مع الأهالي، فازدادت الأمور سوءًا. ماذا قلت لهم؟

قال داؤود: الحقيقة.

قذف داؤود الكلمة من بين شفتيه كأنّ نارًا تقذف جمرًا، وأضاف: قلت لهم إنّهم طردوا من بيوتهم كي يستمتع السّلطان وأتباعه برؤية مَعْبَد الكُفَّار.

توقّف داؤود، كأنّ الذّكريات اكتسحته، ثمّ أردف: أنت ونيقولا سهلا الانخداع، تصدِّقان كلّ ما يقال. لقد رشوت أولئك الأطفال، وطلبت منهم أن يستدرجاكما إلى سقيفتهم وأن يجعلاكما تشاهدان الأب المريض والهرة... كنت أعلم أنّكما سوف تتأثّران بالمشهد.

قال جَهان: كنت تعلم أنّنا سوف نغضب من المعلِّم. لقد خنته.

نظر داؤود نظرة يشوبها الألم، وقال: لم أفعل شيئًا من هذا القبيل.

ـ لقد فعلت كلّ ما في وسعك كي تؤذيه، أليست هذه خيانة؟

قال داؤود بهدوء: لا، ليست خيانة.

قال جَهان محاولًا أن يكبت الرّعشة في صوته المتهدِّج: شاهدنا لوحة عندما كنّا في روما. مريد انقلب خائنًا. ألم تجد نفسك متماهيًا وإيّاه؟

Twitter: @ketab_n

ـ أتذكَّر اللّوحة، لكنّني لم أكن مريدًا، ومعلِّمنا لم يكن يسوع.

ـ توماسو... ذلك الرّجل... والإيطاليّون... ألم يسعوا للحصول على تصاميم المعلِّم، أم إنّ تلك كانت حيلة من حيلك؟

ـ توماسو، نعم. رجل نهم، لكنّه تافه، عديم الشّأن، وقد استخدمته مدّة، ولم أعد بحاجة إليه بعد ذلك.

كان جَهان قد رأى حتّى في تلك اللّحظة مزيجًا من المشاعر على وجه داؤود، غضب وحزن ونفور، إلّا أنّ الشّيء الوحيد الّذي لم يره هو النّدم.

ـ ألا تشعر بأيّ ندم؟

ـ ندم؟ من أجل أيّ شيء؟ أنت تريد أن تعتقد بأنّني غير نزيه، وأنّني تابع الشّيطان...

شاب صوت داؤود شيء من الوهن، لكنّه علا من جديد: صحيح أنّني كذبت على معلِّمنا، وزعمت أنّ لي أسرة في القرية، وكتبت لها رسائل وأرسلت لها الهدايا، ولكن كلّ ذلك كان كذبًا وافتراءً.

ـ لا أفهم.

ضحك داؤود ضحكة تنقصها الكياسة، وقال: ليس لي قريب في القرية، فقد قُتلوا جميعًا على يدي سلطانك العظيم.

ـ أيّ سلطان؟

قال داؤود وقد لاح عليه نفاد الصّبر: وهل هذا مهمّ؟ أليسوا متشابهين؟ سليمان؟ سليم؟ مراد. الأب، الابن، الحفيد. ألا يواصلون تكرار ما فعله أجدادهم؟

قال جَهان: أشعر بالحزن بسبب ما حدث لأسرتك.

ـ كان السّلطان هو سليمان. فالحصاد كان بائسًا، ولم نتمكّن من دفع الضّريبة. ولم نكن من طائفة الشّيعة، لكنّ الكثيرين قالوا لنا إنّنا

Twitter: @ketab_n

يجب أن نوضّب حاجيّاتنا ونغادر إلى شاه إيران بحلول فصل الشّتاء، فهناك أفضل من هذا المكان. ألقى شعراؤنا القصائد، وأطلقت نساؤنا الأغاني. سلطانك يريد أن يلقّننا درسًا، وهذا ما حدث حقًّا. كنت يومذاك في سنّ العاشرة.

هدأت الأمطار الغزيرة خارج المنزل وتحوّلت رذاذًا، وترامى إلى سمع جَهان صوت قارب صيد يجذّف في منطقة قريبة.

ـ قطعوا رؤوس البعض، وتركوها فوق أوتدة ثلاثة أيّام، وازداد عدد النّاس الّذين ثاروا على الوضع، فعُلِّقت أجسادهم في مهبّ الرّيح على مدى أسبوع، وما زلت أراهم حتّى اليوم في أحلامي. لقد ثار الكلّ. فجاءوا من جديد ودكّوا القرية من أسسها.

ـ كيف نجوت؟

ـ خبّأتني أمّي في مخزن حفظ الأطعمة وأغلقت الباب ورائي. وانتظرت. كنت جائعًا ولست خائفًا. صبيّ غبيّ. وعندما خرجت من مخبإي، كان الوقت ليلًا، ورأيت القمر منيرًا فوق الجثث. إخوتي، أعمامي، أمّي...

مرَّت برهة قبل أن يتكلّم جَهان من جديد: لماذا لم تخبر المعلِّم سنانًا بذلك؟ كان من شأنه أن يمدّ لك يد العون.

ـ حقًّا؟!

نظر داؤود إليه نظرة ازدراء، وأضاف: وهل يبعث المعلِّم الموتى؟ هل يشبه يسوع في هذا الأمر؟

ـ لقد أحبّك المعلِّم كأنّك أبنه.

ـ وأنا أحببته كأنّه أبي، أب مخطئ، مسؤول ومُلام. معماريّ عظيم، لكنّه جبان رعديد، لم يتفوّه بكلمة واحدة ضدّ القسوة أو الظّلم. وحتّى عندما كنت تتعفّن في السّجن، لم يحرِّك ساكنًا!

Twitter: @ketab_n

ـ عليك أن ترحمه. ماذا كان في وسعه أن يفعل؟ فالأمر ليس بيده.

ـ كان في استطاعته أن يقول للسّلطان، دع تلميذي يذهب وشأنه يا مولاي، وإلّا فإنّني لن أشيّد لك.

ـ هل فقدت رشدك؟ لو فعل ذلك لكان الموت مصيره.

ردّ عليه داؤود: لو مات لكانت ميتته مشرّفة، لكنّه بدلًا من ذلك كتب لك رسائل تعيسة.

اكفهرّ وجه جَهان عندما استوعب ذلك الكلام، وقال: أكنت تعرف بها؟ لقد وثق بك وسلّمك الرّسائل، وأخبرته بأنّك عثرت على وسيلة ترسل بها الرّسائل إليّ في السّجن، لكنّك لم ترسلها. لقد أردتني أن أخاصم معلّمي.

هزّ داؤود كتفيه كأنّ ملاحظة جَهان عديمة الصّلة بالحديث، وقال: كلّ ما كان يريده هو الاستمرار في البناء. مشروع إثر مشروع. لكن، مَنِ الّذي سيصلّي في هذه المساجد. هل سيداهمهم المرض أو يشعرون بالجوع؟ لا يهمّ. في كلّ عام، عمل، عمل. من أين تأتي الموارد الماليّة. حرب أخرى. مجزرة أخرى. هل اعترض؟ لم يكن يهمّه أيّ شيء.

ـ هذا غير صحيح.

ـ إنّ كلّ مسجد عظيم شيّدناه، إنّما شيّدناه بفضل الموارد الماليّة المستحصلة من الفتوحات. فقد كان الجيش المتوجّه إلى ساحة الوغى يدكّ القرى دكًّا، ويقتل عددًا أكبر من أبناء قومي. إنّ معلّمنا لم يهتمّ بكلّ هذه الأحزان، ورفض أن يفهم أنّه لولا سفك الدّماء لما حصل على المال، ومن دون الحصول على الأموال لما شُيِّد بنيان في العاصمة.

ـ كفى!

Twitter: @ketab_n

خفض داؤود صوته، وقال بحذر كأنّه يخاطب طفلًا مشاكسًا ومتكدِّرًا:

ـ أنت من بلد آخر، ولا يمكنك أن تفهم هذا.

تهدّلت كتفا جَهان، وقال: لستُ الوحيد في فبركة القصص. إنّني يتيم، ولم تسبق لي مشاهدة هندستان. ولم أقبّل يد شاه. تلك كذبة.

تأمّله داؤود، وقال: أكان المعلِّم يعرف ذلك؟

ـ أظنّ ذلك، فقد كان يحميني.

ـ والفيل؟

قال جَهان: القدر، فالله هو الّذي أتى بنا إلى هنا.

ـ إذًا ثمّة شيء واحد مشترك بيننا، ومع هذا، فأنت لست أنا.

ثمّ توقّف داؤود عن الحديث فجأة، وتابع: تعلّمتُ أنّ الرّجال نوعان، نوع يهوى السّعادة ونوع ينشد العدالة. وأنت تحنّ إلى حياة سعيدة، أمّا أنا فأحنّ إلى العدالة. لهذا لن نتّفق.

خطا جَهان باتّجاه الباب، لكنّ داؤود صاح به: إلى أين تظنّ أنّك ذاهب؟

ـ أنا لا أريد ان أكون بقربك.

ـ أيّها الأحمق، لا يمكنني أن أتركك تمضي في سبيلك.

لم يخطر ببال جَهان حتّى تلك اللّحظة أنّ في وسع داؤود أن يُلحق الأذى به. فقال داؤود كأنّه يريد أن يساعده لفهم هذه النقطة: أنت تعرف أكثر ممّا ينبغي الآن.

فتح جَهان الباب، فاعترض طريقه الخادمان، ودفعا به إلى داخل الغرفة.

صاح جَهان: قل لكلبيك أن يتركاني وشأني.

قال داؤود وهو ينصرف من الغرفة: المؤسف أن تنتهي الأمور على

Twitter: @ketab_n

هذا النّحو. وداعًا أيها الهنديّ.

كان الذّهول قد استبدّ بجَهان، واستغرق لحظة واحدة كي يتصرّف، وراح يصيح بأعلى صوته. المؤكّد أنّ في المنزل بعض النّاس الّذين سوف يسمعون صوته ويأتون لمعرفة ما يحدث. أطفاله، زوجاته، محظيّاته.

ـ النّجدة! النّجدة!

دفعه أحد الرّجلين دفعة قويّة طرحته أرضًا، فحاول أن يستعطفهما، لكنّ الكلمات غصّت في حلقه. فتنفّس تنفّسًا عميقًا واستعدّ للخنق الّذي كان يتوقّعه، لكنّ ذلك لم يحدث. غرّد طائر خارج الغرفة، وانبلج الفجر وطلع الصّبح.

ضرباه على مؤخّر رأسه بشيء صلب وثقيل، فمادت الأرض تحت قدميه، وكان تغريد الطّائر آخر صوت سمعه قبل أن يسودّ كلّ شيء في عينيه.

Twitter: @ketab_n

ثمّة كسوة صلبة وثقيلة مثل النّسيج الموشّى بالقصب والمعروف بالبروكار، حول رأسه، تعوق تنفسه وتحجب نظره. أراد أن يزيحها جانبًا، لكنّه كان مكتوف اليدين والقدمين. وتمكّن من خلال فتحة في ذلك القماش من أن يلمح ما يحيط به. ثمّة غمامة غشيت بصره، لكنه راح يدرك شيئًا فشيئًا أنّ ما من شيء يغطّي وجهه، بل إنّ عينيه لم تبصرا. كانت عينه اليمنى متورّمة، لا تطرف، ومغمضة. أمّا اليسرى، فكانت نصف مفتوحة ترفّ برعب في محاولة لفهم المكان الّذي هو فيه.

تذوّق جَهان طعم الدّم في فمه. لا بدّ من أنّه عضّ لسانه أثناء المشاجرة. تذكّر أنّه لا بدّ قد حدثت مشاجرة، فالألم ما زال يدويّ في جمجمته، والأسوأ من هذا كلّه، الألم الّذي كان يسري في قدمه اليمنى. وجنته تلسعه وإن تأخّرت معرفته سبب ذلك إلى وقت لاحق. وتذكّر كيف أنّ داوؤد خرج من الغرفة، تاركًا إيّاه تحت رحمة حرّاسه، وكيف توقّف كلّ شيء. الشّيء الآخر الّذي تذكّره هو أنّه كان في عربة تنطلق بسرعة البرق الخاطف. ولم يتوقّع الأصمّان الأبكمان الجالس كلّ واحد منهما إلى أحد جانبيه، أن يثوب إلى رشده من فوره، فراحا يضربانه من جديد، فما كان منه إلّا أن أخذ يردّ على ضرباتهما. وفي غمرة احتدام عواطفه وهيجانه الشّديد، فتح باب العربة وقفز منها والجياد لا تزال تعدو عدوًا سريعًا جدًّا. وسقط في ساقية، والتوت قدمه. هكذا وجده الأصمّان الأبكمان، ثمّ اسودّت الدّنيا في ناظريه مجدّدًا.

بدأ صدره يؤلمه بينما هو يتنفّس هواءً فاسدًا ولاذعًا. لمست أنامله

Twitter: @ketab_n

السّطح الصّلب، مؤكّدة ما كان يرتاب فيه: كان مضطجعًا فوق أرضيّة ترابيّة وموثوقًا في كوخ في مكان ما. ثمّة همس متواصل في مكان بعيد، وجده، ويا للغرابة! مهدّئًا. لا بدّ أنّه قضى نحبه. ولم يستطع معرفة كم من الوقت لبث وهو على تلك الحالة. وعندما أفاق وعاد إلى وعيه، شعر ببرودة شديدة أدّت إلى اصطكاك أسنانه. وفكّر في أنّ عينه الأخرى قد أغمضت أو أنّ اللّيل أرخى سدوله.

في المرّة الأولى الّتي ألحق فيها القذارة بسرواله، كان الإحساس بالعار أسوأ من الرّائحة. لم يعد يهمّ بعد ذلك. كان في وسعه تحمّل الجوع، أمّا العطش، فكان رهيبًا. كان الظّمأ يشقّ جسده على النّحو الّذي تشقّ فيه فأس قطعة من الخشب، ويمضي في طريقه حتّى يصل إلى أوردته. ظلّ يتلّمظ بشفتيه كأنّه تناول حلوى سائغة. فضحك. وخشي أن يكون قد بدأ يفقد صوابه.

أدرك لاحقًا أنّ صوت الهمس الخافت الّذي سمعه من مكان بعيد ليس إلّا صوت البحر، فكان علمه بذلك مهدّئًا ومرعبًا في آن. مهدّئًا لأنّه كان يحبّ المحيط دومًا، يضاف إلى ذلك، لعلّه ليس بعيدًا من إسطنبول. ومرعبًا لأنّه ذكّره بحكايات المحظيّات اللّواتي قدّموهن لقمة سائغة للأسماك. صرخ طالبًا النّجدة، مرّات ومرّات. ولكن لم يأته أحد. لو كان شوتا في هذا المكان لأخبره بمدى غرابة أن يموت وحيدًا ومن دون أن يسمع أحد به في مدينة محتشدة بالنّاس ومملوءة بالضّجيج.

وبينما هو يعود إلى رشده مرّة ويغيب عن الوعي مرّة أخرى، مضى الزّمن ثقيلًا متباطئًا. وكان يغفو بين نوبات الألم الّذي يجتاحه ويستيقظ مذعورًا، كأنّ روحه ترفض الإقرار بالهزيمة. واستبدّ بروحه غضب عارم لم يعرف مصدره. فهو تلميذ سنان العظيم الّذي لم يتسلّق كلّ تلك الدّرجات لينتهي به المطاف إلى هذه النّهاية المهينة. ولكن، على رغم افتراقه عن داؤود، إلّا أنّه لم يستطع أن يصدّق لحظة واحدة أنّ داؤود

Twitter: @ketab_n

سوف يتركه ليموت. لكنّ داؤود لم يأتِ على الرّغم من كلّ ذلك. كما لم يأتِ أحد من تابعيه. ولم يستطع جَهان أن يخمِّن ما إذا كان الوقت فجرًا أم غروبًا، ولا كم من الوقت مضى منذ أنْ اقتيد إلى هذا المكان. كم يومًا يستطيع الكائن البشريّ أن يبقى على قيد الحياة من دون ماء؟ يمكن الفيلة أن تعيش أربعة أيّام على أبعد تقدير. هذا ما قرأ عنه ذات مرّة. ولم يكن يعرف إن كان حظّه أوفر.

راوده حلم عن مهرماه، تضحك وهي تحت تعريشة سلطان العسل، وهي في سنّ الثّالثة عشرة، جسدها لم تمسسه يد باستثناء يدها هي، وجهها لم يشوّهه الحنق والغضب الشّديد، وروحها لم يفسدها الطّموح. كانت كما التقاها أوّل مرّة، فتاة سعيدة.

همست ومدّت يدها إليه: تعال.

حاول جَهان أن يتقدّم باتّجاه الحديقة حيث كانت تنتظره، لكنّ شيئًا ما لفت نظره وهو في منتصف المسافة إليها، صوتًا صادرًا من الجهة الأخرى. وقع خطوات، لكنّها ليست على مقربة من الباب. شخص ما يحاول اقتحام المكان، صوت عالٍ وحادّ، يشبه صوت أداة رتيبة تضرب على الخشب. لا بدّ من أنّ الباب مفتوح لأنّ تيّارًا من هواء بارد تسلّل إلى الدّاخل.

سمع صوتًا: الطّريق سالك. اذهب!

شيء ما ثقيل الوزن سقط على الأرض محدثًا دويًّا قويًا. رجل. وتبعه رجل آخر. سار الاثنان على أطراف أصابع الأقدام غير متنبِّهين إلى جَهان. فراح المصباح الّذي يحملانه ينير فسحة صغيرة من المكان.

ـ ابحث عن ذلك الصّندوق. لا بدّ أنّه هنا.

ـ أوه، ما هذه الرّائحة؟!

ـ أعتقد أنّه جرذ نافق.

Twitter: @ketab_n

ـ أأنت متأكّد من وجود كنز في هذا التّجويف؟

ـ كم مرّة أخبرتك؟ كان هذان البليدان يحملان شيئًا كبيرًا. وقد رأيت ذلك بأمّ عيني.

ـ عينان صاحيتان أم مخمورتان؟

ـ إنّني أعرف ما أقول أيّها الأبله. ثمّة سرّ في هذا المكان.

اقشعرّ بدن جَهان. لصّان. في وسعهما أن يقطّعاه إربًا إربًا. ومع هذا، فإنّه لا يملك شيئًا كي يفقده، هو في عداد الموتى في كلّ الأحوال. وندت عن شفتيه آهة جافّة.

ـ ما هذا؟

ـ ما هذا؟ شهق جَهان.

صاح أحد اللِّصَّين بصوت يفيض خوفًا: من هناك؟

لو لم يتكلّم جَهان لأطلق الاثنان سيقانهما للرّيح معتقدَين أنّه روح شرّيرة.

قال جَهان متوسّلًا: النجدة!

لم يستغرقا وقتًا طويلًا في العثور عليه وسط الصّناديق والأقفاص. استسلم جَهان لمصيره واستبدّ به الذّهول، لكنّه ثاب إلى رشده مرتعشًا. كان أحد الرّجلَين يمسك بكتفيه ويهزّه كأنّه أغصان شجرة توت أرضيّ.

ـ ماذا تفعل؟ لقد تعرّض المسكين لضرب مبرح.

ـ أحاول أن أوقظه.

ـ نعم، أحسنت. لقد ضُرب ضربًا شديدًا.

ـ أيقظه إذًا.

ـ اذهب وأحضر قليلًا من الماء.

أفرغا دلوًا من ماء البحر على رأس جَهان، فأحرق الملح الجروح والخدوش على جلده، وغار إلى عظامه، فتأوّه متألّمًا.

Twitter: @ketab_n

في تلك اللّحظة، تناهى إلى المسامع صوت آخر ـ صوت خشن ومألوف إلى حدٍّ ما.

ـ هه! ماذا يجري هنا؟

ـ لقد عثرنا على هذا الشّخص هنا. يبدو كأنّ أحدًا عامله معاملة خشنة أيّها الزّعيم.

اقترب وقع خطوات الأقدام أكثر.

ـ الرّجل يحتضر من شدّة الظّمإ أيّها المغفّلان! لقد ضربوه بشدّة كأنّه سجّادة قديمة وقذرة، فماذا أنتم فاعلون؟ تصبّون ماء البحر على جروحه؟ ارجعا إلى الوراء! ابتعدا أيّها الجزّاران!

سمع صوت سدّادة جراب الماء وهي تُفتح، بلّل الرّجل منديله بماء عذب وضغط به على شفتيه. فتوسّل جَهان إليه وهو يحاول أن يمتصّ قطعة القماش:

ـ زدني!

ـ تمهّل أيّها الأخ! لا تسرع!

راحوا يمسحون وجهه يدفعهم حبّ الفضول لمعرفة الرّوح المعذّبة من تحت الدّماء والوحل والقذارة، أراد جَهان أن يقول شيئًا، لكنّ كلّ كلمة وكلّ شهقة كانتا منهكتين أكثر ممّا ينبغي. فتهدّل رأسه.

قال الرّجل نفسه بصوت هادر: يا الله! قرِّب هذا المصباح. لتسقط السّماء على رؤوسنا. إنّه جَهان! هذا الرّجل لا عقل له! الحلزون أفضل منه! إنّني أصادفه متجمّدًا في الماء وألتقيه في السّجن والآن هو بين القمامة! إنّه في ورطة دائمًا!

تمتم جَهان متلعثمًا: با... لا... بان!

ـ نعم أيّها الصّديق!

انفجر جَهان ضاحكًا ضحكة رجل مجنون.

Twitter: @ketab_n

قال أحد الغجريّين: لقد فقد صوابه أيّها الزّعيم!

وقال الآخر: أيّها الرّجل المسكين!

غير أنّ بالابان هزّ رأسه نافيًا لكلا الرّجلين، وقال برقّة: لا، إنّه يملك قوّة فيل، هذا الأخ. وسوف يكون في خير.

حرّروا جَهان من وثاقه وساعدوه على الوقوف على قدميه، وإن لم يكن قادرًا على السّير، فقد كانت قدمه اليمنى في حالة سيّئة، أرجوانيّة اللّون، وشديدة الورم. أمسك الرّجلان به، واضعًا كلّ واحد منهما نفسه تحت إحدى ذراعيه. وما إن أصبحوا خارج المبنى حتّى وخزت الرّيح جَهان وخزَ شظايا الزّجاج، لكنّه لم يأبه بها. فقد انتهى كلّ شيء. مرّة أخرى في حياته، وبينما هو يهبط سريعًا إلى أسفل، مستعدًّا للعبور إلى العالم الآخر، إذا بيد غجريّ تجذبه إلى الوراء وتبعده.

Twitter: @ketab_n

وضعت زوجة بالابان الّتي أخذت على عاتقها مهمّة العناية بجَهان لبخة على جروحه وذرق الطّير على خدوشه، وأرغمته صباح مساء على شرب نقيع بلون الصّدإ وبمذاق ليس بأفضل منه. وأعلنت أنّها مضطرّة لخياطة الجرح الغائر في وجنته، والّذي كان ينزف كلّما حرّك عضلة من عضلات وجهه. وكان لها ما أرادت. لم ترتعش أصابعها مرّة واحدة حتّى عندما راح يصرخ ويركل متألّمًا. ولمّا فرغت، طمأنته إلى أنّه من الآن فصاعدًا سيكون له عدد كبير من العاشقات لأنّ النّساء كنّ مغرمات بالرّجال المصابين بالنّدوب في ساحات القتال.

احتجّ جَهان بوهن: أنا لم أقاتل في أيّ معركة.

ـ ومن يعرف ذلك؟ سوف تسقط النِّساء في طريقك سقوط الإجاص الطّازج. صدّقني.

قالت ذلك، وبصقت في كفّها وبصمتها على الحائط، ثمّ أردفت: لكن، يبدو أنّ قدمك في حالة سيّئة. لقد استدعينا معالجًا.

ـ من؟

قالت قولًا تكتنفه الأسرار: سوف ترى. وعندما ينتهي من علاجك، سوف تصبح قويًّا كما كنت سابقًا.

لم يبدُ الرّجل الّذي جاء بعد ظهر ذلك اليوم مثيرًا لدهشة جَهان، إذْ كان خشنًا، ضامرًا، هزيل الجسم، رثّ الثّياب، تتدلّى ملعقة خشبيّة من رقبته. كم كان مخطئًا، إذْ أعلن بلمحة خاطفة إلى قدم جَهان أنّها ليست مكسورة، إنّما عظمها مخلوع. وقبل أن يتمكّن جَهان من أن يسأل عن معنى كلامه، دفع الملعقة في فم جَهان وأمسك قدمه بيده ولواها، فندت

Twitter: @ketab_n

عن جَهان صرخة كان لها من القوّة ما دفع الحمام في باحة مسجد السّليمانيّة إلى الإصابة بالخوف والهلع. بعد ذلك، أطلعه المعالج على آثار أسنانه على الملعقة. الواضح أن آثار أسنانه لم تكن هي الآثار الوحيدة.

عندما أصبح في وسع جَهان الكلام، قال: كلّها آثار عظام مكسورة؟

ـ قسم منها، والقسم الآخر لنساء في لحظات الولادة، فهنّ يتّصفن بعضّات أشدّ وأقوى، وزِدْ تنبُّهًا إلى بولك.

أوضح له أنّ للّون الأصفر ستّة ظلال، وللأحمر أربعة، وللأخضر ثلاثة وللأسود ظلّين، وأنّ المعالج لا يضيّع وقته في النّظر إلى المريض، بل يفحص بوله ليتأكّد من إصابته. وتلبية لأمر المعالِج، عكف جَهان على التبوّل في «نونيّة»، وراقب الرّجل يدور كالدّوامة ويتنشّق السّائل ويرشفه.

قال المعالج:

ـ ليس ثمّة نزيف في الأعضاء. بداية إصابة بمرض الاستسقاء. نزوع إلى الحزن والانقباض. أمّا ما عدا ذلك، فكلّ شيء على ما يرام من النّاحية الباطنيّة.

استسلم جَهان لنوم هانئ لم يكدِّره مكدِّر على مدى يومين بعد أن تمّت خياطة جروحه ومعالجة قدمه واستحمامه وإطعامه ووضعه في الفراش. وعندما فتح عينيه في عصر اليوم الثّالث، وجد بالابان بجانب فراشه يحوك سلّة ينتظره حتّى يستيقظ.

ـ مرحبًا بك في عالم الأحياء! إنّني أفكّر أين سأنقذك في المرّة المقبلة.

ضحك جَهان ضحكة خافتة وإن كانت قد آلمته بسبب الدّرزة في خدِّه.

Twitter: @ketab_n

ـ كيف حال الفيل؟

ـ لقد مات شوتا.

ـ آسف أيّها الأخ. يا له من خبر محزن!

استغرقا في التّأمّل برهة، وكان جَهان أوّل من كسر حاجز الصّمت قائلًا: هل تعتقد أنّ الحيوانات تذهب إلى السّماء؟ إنّ الأئمّة ينكرون ذلك.

ـ ما الّذي يعرفونه عن الحيوانات؟ الفلّاحون هم الأدرى. وكذلك الغجر. أمّا الأئمّة فلا يعرفون شيئًا.

أمسك بالابان عن الكلام، ثمّ استأنف حديثه بعد قليل: لا تفكّر. فعندما أذهب إلى السّماء، فسوف أكلّم الله، وإذا أخبرني أنّه لا مكان للمخلوقات، فسوف أتوسّل إليه أن يستثني شوتا من ذلك.

أشرقت عينا جَهان بالسّعادة، وقال: أنت تسرق، وتشرب الخمر وتقامر وترشو. هل تعتقد أنّك ستذهب إلى الجنّة على الرّغم من كلّ ذلك؟

ـ حسنًا أيّها الأخ... إنّني أنظر إلى الصّالح في عين نفسه، المعتقد أنّه أقوَم أخلاقًا من الآخرين، وأقول لنفسي، إذا كان هؤلاء النّاس سيذهبون، فأنا متأكّد من أنّني سأذهب لأنّهم ليسوا بأفضلَ منّي. هكذا أقيس الخطايا.

ثم صبَّ بالابان لنفسه كأسًا من الخمر، وتابع كلامه: المؤسف أنّه لن يرى والده.

ـ مَن؟

ـ صغيرُ فيلك.

ـ هل لشوتا صغير؟

ـ نعم، أتظنّ أنّ كلّ ذلك الجهد ذهب أدراج الرّياح؟ مسكينة

Twitter: @ketab_n

كلبهار. ظلّت حبلى مدّة طويلة. هل تعرف ذلك؟

قال جَهان مومئًا برأسه: نعم، إنّ حمل الفيلة طويل.

ـ طويل؟ بدا بلا نهاية!

ـ ماذا سمّيته؟

ـ تذكّر أنّك أخبرتني بأنّ أربعة فيلة تحمل الكون. فإذا تحرّك أحدها من مكانه، حدثت زلازل. هذا ما قلته لي. أخذ جرعة أخرى، وأردف: لقد سمّيته بانجي، ويعني خمسة، إذْ قد يضطرّ أحدها للوقوف في الوسط كما تعلم.

تقلّصت حنجرة جَهان.

ـ هل ترغب في رؤيته؟ أعني حفيدك؟

ـ بالتّأكيد.

اصطُحبَ جَهان إلى الزّريبة بعد أن وُضِعَ فوق محفّة يجرّها جواد، وهناك شاهد صغير شوتا يهزّ خرطومه الرّماديّ مثل سحابة عاصفة. طلب جَهان من السّائس أن يقرّب المحفّة قليلًا حتّى يتمكّن من لمس الحيوان، وراح يربّت على خرطوم الصغير تحت أنظار الفيلة الأمّ، وقُدِّم له قطعة من المكسّرات تقبّلها ببهجة واغتباط، وأخذ يتنشّق بحثًا عن أخرى، كان ذكيًّا ومرتابًا ومتيقّظًا. فاضت عينا جَهان بالدّموع لأنّ شعورًا عابرًا راوده بأنّه يشاهد شوتا أمامه.

ثمّة شيء ما منه في هذا المخلوق الّذي لم يشاهد والده الّذي كان يشبهه شبهًا كبيرًا باستثناء لونه.

غادرا الزّريبة، وأخذ الجواد يسير بوهن وبطء. وبينما هما يعبران الفناء، اشتمّ جَهان رائحة في نسمة الهواء، أرسلت إشارة إلى جزء خفيّ من دماغه، فصاح: قف!

هرع الموجودون إليه معتقدين أنّه أُصيب بأذًى.

سأل جَهان: من أين مصدر هذه الرّائحة؟

Twitter: @ketab_n

قال بالابان: ما من شيء يتعفّن في هذه المنطقة. اضطجع.

كشّر أحد الغلمان، وقال: أعرف عمّا يتكلم. المرأة تحرق بعض الأعشاب.

قال بالابان: اذهب وأحضرها.

بعد مدّة قصيرة، جيء بامرأة تمشي مشية معتدلة ولها شاربان أسودان. قالت: يقول الزّعيم إنّك تريد رؤيتي.

قال جَهان: ما هذا الشّيء الّذي تحرقينه؟

بدت على ملامح وجهها نظرة انزعاج، وقالت: نبتة أُذن الدّبّ، ونحن نضعها في النّار صباح كلّ يوم إثنين. وعندما يكون القمر بدرًا، دخانها يطرد الأرواح الشّرّيرة، إذا كان لديك أعداء، فيستحسن بك أن تغليها وأن تستحمّ بها. أتريد قليلًا منها؟

ـ أخبريني... من يستخدمها، أعني ما عدا الغجر؟

تأمّلته قليلًا، وقالت: الّذين لديهم مشكلة في التّنفّس، فهم يحملونها معهم إلى كلّ مكان.

تمتم جَهان جزعًا: المصابون بالرّبو... ثمّ أغمض عينيه وشعر بأنّ الأرض مادت من تحت قدميه. في تلك اللّيلة، تحلّقوا حول نار قوامها فحم عضويّ مستخرج من المستنقعات، رمت زوجة بالابان ملحًا فيها. فتفجّرت الجمرات شررًا ذهبيّ اللّون. قال جَهان وعيناه ثابتتان أمام هذا المشهد: ينبغي أن أنطلق فورًا.

أومأ بالابان برأسه متوقّعًا منه أن يسمع ما قال: إلى أين؟

ـ ثمّة شخص واحد لا بد لي من زيارته، ثمّ أفكّ ارتباطي بهذا البلد.

كان داؤود على حقّ، عندما قال إنّ جَهان ليس رجلًا منتقمًا. لكنّه كان مخطئًا إلى حدٍّ ما أيضًا، فقد أدرك جَهان أنّه لم يكن ينشد السّعادة وحدها في الحياة، بل كان يتوق أيضًا إلى الحقيقة.

Twitter: @ketab_n

حدّقت إلى الماء في الطّاس الفضّيّ، سطحه تحوّل إلى موجات صغيرة، وقعره بات أسود اللّون. فقطّبت جبينها لأنّ ما رأته لم يرقها. وشقّ صوت مثل الصفير الأجواء في كلّ مرّة تنشّقت. كانت حالتها قد ازدادت سوءًا على مدى السّنوات الماضية، ثمّ وضعت يدها المرتعشة والبارزة الشّرايين على رأس القطّ.

ـ هل ترين ما الذي يدبّره؟ لعلّه ليس غبيًّا على أيّ حال.

ألقت نظرة خاطفة إلى النّافذة الّتي كانت تسمح بنفاذ تيّار من الهواء. كم مرّة أمرت الخادمة بأن تبقيها مغلقة، لكنّ الفتاة البلهاء كانت تفتحها على مصراعيها كلّما وجدت الفرصة سانحة زاعمة أنّ الغرفة حارّة وخانقة. صحيح أنّها كانت تبقي النّافذة مفتوحة لطرد الرّوائح لأنّها كانت تعلم أنّ الجوّ لم يكن مفعمًا برائحة ضراطها وعرقها فحسب، بل كانت تبعث رائحة تشبه تلك الصّادرة عن كتاب قديم تفوح منه رائحة الغبار، بغضّ النّظر عن عدد المرّات الّتي يُمسح من فوقه. كانت الخادمة تخافها، تخاف السّاحرة، وهو الاسم الّذي أطلقه الكلّ عليها من وراء ظهرها.

كانت ترتدي ثوبًا حريريًّا، زاهيًا ومزركشًا أكثر ممّا ينبغي، فلا يناسب كبر سنّها على حدّ قول البعض، لكنّها لم تلتفت إلى تلك الأقاويل. كان النّسيج الأملس النّاعم لا يكفي للتّخفيف من حدّة ألم مفاصلها أو كتفيها المقوّستين. كان جسدها مقبرة الذّكريات، مشوّشًا بمرور الأيّام كأنّه ظلّ يتراقص على جدار. كانت قد توقّفت عن مخاصمة الله، ولم تعد تسأله عن سبب تركها على قيد الحياة في حين

Twitter: @ketab_n

قبض روح كلّ فرد قبل فوات الأوان وبسرعة فائقة. كانت تحمل سنوات عمرها لعنة اعتزّت وتفاخرت بأنّها نزلت عليها. مئة وواحد وعشرون عامًا. هذا هو عمرها. وفقد شعرها لونه الأحمر وتموّجه، لكنّه لا يزال أشدّ كثافة من ضفيرة أيّ غادة، وصوتها قويًّا لا يعرف التّهدّج، صوت امرأة شابّة لا تزال تسكن في أعماقها.

ابتعدت عن الطّاس كأنّها خشيت من أن يكون الرّجل منشغلًا بمراقبتها مثلما كانت تراقبه طوال تلك الأعوام. مدّت يدها إلى كيس على الطّاولة، وفتحته ونثرت ما فيه من أعشاب على كفّها وراحت تتنشّق. عندما هدأ الصّوت المنبعث من صدرها إلى حدٍّ ما، تمتمت:

لقد عثر علينا ذلك الهنديّ، وهو آت للبحث عنا!

Twitter: @ketab_n

كانوا يسمُّونه «مأوى اللّواتي لا حظوة لهنّ». منزل عملاق يتوارى إلى حدٍّ ما من خلف أشجار الصّنوبر والأسوار العالية. هذا هو المكان الّذي أُرسلت إليه المحظيّات اللّواتي فقدن حظوتهنّ عند السّلطان، أو لم ولن يحصلن عليها في الوقت المناسب. وقد تجد أولئك الغيُورات أو الطّامحات إلى آخر مدى تورّطن في دسائس محاطة بسرّيّة تامّة، أنفسهنّ تحت هذا السّقف بعد أن فقدن فرصتهنّ في الارتقاء إلى القصر. كما كانت تنتهي إلى هذا المنزل أيضًا خادمات الحريم والسّراري اللّواتي بلغن من الكبر عتيًّا، أو اشتدّت عليهنّ وطأة المرض، فلم يعدن قادرات على العمل. نتيجة لذلك، كانت المقيمات في هذا المنزل مجموعة مختلفة من الشّابّات والعجائز، الجميلات والعاديّات، الموفورات الصّحّة والمريضات.

كان مكانًا تنقصه البهجة، نادرًا ما ردّدت سقوفه أصداء الضّحك، والسّجّاد لم تطأه إلّا ما ندر، هذا إن وطأته أصلًا، أقدام راقصة. المرارة تنبعث من المداخن مثل بخار يتصاعد من طبق يملأه الأزيز. الغناء النّادر الّذي يتردّد بين جدران البيت هو غناء شجيّ بمعظمه، لا يترك وراءه منديلًا واحدًا جافًّا إلّا وقد تبلّل بفيض من الدّموع. المقيمات هنا لا يفكِّرن في المستقبل لأنّ ما من مستقبل في الأفق يستدعي التّفكير، ولا حاضر أيضًا. لا شيء سوى الماضي. ينظرن إلى الأيّام الخوالي، مستاءات من هفوات ارتكبت وفرص ضاعت وطُرق لم تُسلك وشباب ضاع هدرًا. في ليالي الشّتاء الباردة بردًا شديدًا تجمّد فيها دعاؤهنّ في الجوّ فلا يصل إلى الله، كانت كثيرات منهنّ يخالجهنّ الشّعور بأنّ أفئدتهنّ تتجمّد أيضًا على امتداد الأرض الصّلبة خارج

Twitter: @ketab_n

المنزل، بغضّ النّظر عن عدد الخصوات الّتي قمن بغليها ووضعها في أسرّتهنّ.

قلّة منهنّ رضيت بالأمر الواقع وبما آل إليه وضعها، وإن تحوّلت كثيرات إلى حاقدات يحملن الضّغينة بين جنباتهنّ. وثمّة كثيرات اتّصفن بالورع والتّقوى ووهبن ما تبقّى من حياتهنّ لله. لكنّ هذا الورع ما كان ليعني الرّكون إلى الوديعة لأنهنّ لم يكنّ يومًا وديعات. وإذا ما سألتهنّ أو سألت أيّ واحدة منهنّ، فستقول لك إنّ كلّ شيء، خيرًا كان أم شرًّا، إنّما هو بيد الله، لكنّهنّ يتفاخرن ويتباهين بما حقّقنه من إنجازات، متّهمات الأخريات بأنّ التّوفيق لم يحالفهنّ. كان الفرق واضحًا وضوحًا شديدًا بين عالم حريم السّلطان ونظيره الكئيب. وإذا كان عالم الحريم منضبطًا ومستقرًّا في قوانينه وقواعده، فإنّه كان عالمًا خصبًا رقراقًا ومتقلّبًا أيضًا، السّاكنات فيه لهنّ أمنياتهنّ وتطلّعاتهنّ الّتي يضنّون بها. وفي اللّيل تكثر أحلامهنّ. أمّا في «مأوى اللّواتي لا حظوة لهنّ»، فإنّ الأحلام هي الّتي كانت تتلاشى أوّل الأمر، ثمّ تتلاشى الحالمات من بعدها.

في هذا المنزل، كانت حسنة خاتون تقيم على مدى السّنوات الخمس عشرة الماضية، وإن كانت تخاف أشدّ الخوف من النّساء الأخريات اللّواتي أقصتهنّ إلى كوخ صغير مؤلّف من ثلاث حجرات في الجانب البعيد من الحديقة الثّانية. ولم تحتجّ أو تعترض، وإذا ما أرادت الذّهاب إلى المنزل الّذي وقفته لها الأميرة مهرماه، فإنّ في وسعها الذّهاب، لكنّها وجدته منزلًا رحيبًا، مترامي الأطراف، خانقًا بما يحتويه من فضاءات خاوية. المكان هنا أفضل مهما كان متواضع الشّأن. يُضاف إلى ذلك، أنّها لم تكن مضطرّة لمشاهدة الفناء يوميًّا، بما فيه من ورود وزهور، عبيرها النّفّاذ يسحق صدرها مسبّبًا لها صفير الصّدر والسّعال. لقد ازدادت إصابتها بالرّبو سوءًا، غير أنّها لم تطلب

Twitter: @ketab_n

المساعدة. في وسعهنّ أن يشعرن نحوها بالبغضاء أو الخوف أو أن يتحاشينها وينأين بأنفسهنّ عنها، إذا ما رغبن في ذلك، لكنّها لن تسمح لواحدة منهنّ أن يُشفَق عليها أبدًا.

ـ ربّما مصيرهنّ كلّهنّ جهنّم.

هكذا مطّت شدقها في الكلام قبل أن تدرك أنّها تكلّمت بصوت عالٍ. غالبًا ما كانت تجد نفسها تتفوّه بعبارات دفينة في رأسها وكان يستحسن بقاؤها فيه.

خطت خطوات بطيئة ومدّت يديها باتّجاه المدفأة، إذْ كانت تشعر بالبرد دومًا، ولم يكن ثمّة فرق بين الرّبيع والصّيف، لهذا كانت النّيران مضطرمة، وعندما تشعر بالدّفء قليلًا، فإنّها تمسك بفرشاتها وتلتفت إلى القطّة على حافّة النّافذة، وتقول لها: هلّا سمحت لي بأن أجعلك جميلة؟ ثمّ تمسك بالقطّة وتجلس على الأريكة لتمشّط شعرها. كانت القطّة تجلس ساكنة بينما تنبعث من عينيها نظرة تنمّ عن ضجر.

ثمّة طرق على الباب، لاح للعيان بعده عبد لا يزيد عمره عن سبع سنوات. قال بصوت مخشوشن: وصل رسول أيّتها الجدّة، حاملًا إليك رسالة عاجلة.

ـ قل لذلك الكذّاب، أيًّا يكن، أنّه لم يعد لي أيّ شيء. اطرده.

فغر الفتى فاه وهو ينظر إلى قدميه، جزعًا لا يقوى على النّظر إلى تحديقها.

ـ لِمَ هذا التّلكّؤ أيّها الفتى الجاهل؟

ـ قال الرّسول إذا رفضت مقابلتي، فيجب أن أخبركِ بأنّه أتى برسالة من الأميرة مهرماه.

جفلت حسنة خاتون لدى ذكر الفتى هذا الاسم، وطار الدّم من وجنتيها. وتمالكت رباطة جأشها، فهي امرأة لا تنحني أمام التّهديدات،

Twitter: @ketab_n

وقالت: كم دفع لك لقاء هذا؟ ألا تخجل؟

تهدّلت شفة الفتى السّفلى، ونشج وكاد ينفجر باكيًا بسبب توبيخها مجدّدًا.

قالت: ما فائدة الصّياح في وجهك؟ اذهب وأحضر الوغد اللّئيم وسوف أنتقده انتقادًا لاذعًا بنفسي.

لم يكن مسموحًا للذّكور بدخول «مأوى اللّواتي لا حظوة لهنّ» إلّا إذا كانوا من الخصيان أو الصّبيان. كما لا يمكن دخول الغرباء على وجه التّحديد. لكن على الرّغم من ذلك، كانت للمربّية قوانينها الخاصّة بها. فثمّة بعض الفوائد إذا ما خافها الآخرون.

بعد لحظة، ظهر جَهان ووراءه الغلام الّذي أغلق الباب، وانتظر خارجه لأنّه لم يتجرّأ على الدّخول.

ـ هذا أنت إذًا!

رمق أحدهما الآخر بنظرات تنمّ عن كره لم يحاول أيّ واحد منهما إخفاءه. فرأى جَهان كم شاخت وهزلت على نحو لا يصدَّق. وكانت كلّ بوصة في وجهها متغضّنة، وبدت مقوّسة الظّهر، كبيرة الأذنين، وظهر من تحت وشاحها خيط من شعر أبيض، مخضّب بالحنّاء في أطرافه. وكما كان التّعرّف يصعب إليها، فإنّ تحديقها الصّارم المدروس يتغيّر.

قالت بصوت أجشّ ومبحوح: كيف تتجرّأ على التّفوّه باسمها؟ ينبغي لي أن أعاقبك جلدًا بالسوط.

قال جَهان: لم يكن لديّ خيار، وإلّا لما رأيتني يا دادة.

انكمشت عندما سمعت بالاسم الّذي كانت مهرماه وحدها، ولا أحد غيرها، تناديها به. فغرت فاها وران عليها صمت غاضب.

كان جَهان يراقب كلّ حركة من حركاتها لأنّه كان يعلم مدى تأثير

Twitter: @ketab_n

الكلمة فيها. وقف معتدلًا، منتصب القامة، ولم ينحنِ ولم يقبِّل يدها، فلم تفتها وقاحته. قالت: لأيّ سبب أنا مدينة لك بهذه الزّيارة وقلّة الأدب؟

تقدّم جَهان خطوة باتّجاهها، فتنبّه الآن إلى القطّة البيضاء كالثّلج المنكمشة في حضنها. وأخرج بعناية دبّوس الشّعر الّذي كان سرقه منها منذ سنوات طويلة، ووضعه على الطّاولة أمامها حتّى تراه، وقال لها: أريد أن أعيد لك هذا الشّيء، فهو ملكك.

قالت منتقدة نقدًا لاذعًا: كم أنت كريم! إنّ من هي في سنّي تحتاج إلى دبّوس شعر. أهذا هو سبب حضورك؟

ـ جئت لأخبرك بأنّني سوف أغادر نهائيًّا.

قالت حسنة خاتون مبتسمة ابتسامة تفضّلت بها عليه: مع السّلامة إذًا.

ـ لكن قبل أن أغادر، ثمّة حساب بيننا ينبغي تسويته.

ـ بيني وبينك؟! لا أظنّ ذلك.

لسعت سخريتها جَهان، فأغمض عينيه لحظة، ووجّه كلامه إلى الظّلمة داخل أجفانه: كنتِ أكثر من مربّية، فقد بذلت عنايتك بمهرماه مذ كانت طفلة صغيرة. كانت هائمة بك وتطلعك على كلّ أسرارها.

ـ لقد ربّيتها لأنّ السّلطانة خُرّم، غفر الله لها روحها المتفسّخة، لم يكن لديها الوقت لتربية أطفالها، بخاصّة ابنتها، ولا حتّى عندما بلغت سنّ الزّواج، ثم أرادت أن تجعل منها ضحيّة بريئة في آلاعيبها.

توقّفت حسنة خاتون عن كلامها لحظة، ثمّ أضافت: أتدري أنّني كنت مرضعتها أيضًا؟ وأنّها رضعت من حليبي؟ ثمّ لمست صدرها الذّاوي بفخر واعتزاز.

لم يقل جَهان شيئًا وشعر بالحزن يتسلّل إليه وهو ما يعرفه معرفة

Twitter: @ketab_n

جيّدة، بل أكثر ممّا ينبغي.

ـ عندما اشتعلت مهرماه بالحمى، سهرت أنا، وليس أمّها، إلى جانبها، وعندما سقطت، لففت ركبتيها وكفكفت دموعها. وعندما مرّت بدورتها الشّهريّة الأولى، هرعت إليّ، وحسبت أنّها ستموت. يا للمسكينة! إنّنا نصفع البنت في مثل هذه الحالة، لكنّك لا تستطيع أن تصفع أميرة، لهذا طوّقتها بذراعيّ، وقلت لها: لن تموتي يا صاحبة السّموّ، فأنت امرأة الآن».

مدّت يدها النّحيلة وداعبت القطّة فوق حضنها.

ـ ماذا كانت السّلطانة تفعل باستثناء استخدام أطفالها لكتابة الرّسائل للسّلطان؟ «ارجع من الحرب يا أسدي وعد إلى أحضاني. لقد أضرم غيابك في فؤادي نارًا لا سبيل إلى إطفائها. أطفالك منبوذون، وابنتك مهرماه تذرف الدّمع»، وما إلى ذلك من كلام تافه.

ـ كيف تعرفين ما كتبت في رسائلها؟

ندت عنها ضحكة قويّة، عالية، ملء شدقيها، وقالت: ليس ثمّة أسرار في جناح الحريم. كانت السّلطانة زوجة ماكرة لكنّها مهملة، شُغفت بأبنائها لكنّها نسيت ابنتها.

زمّ جَهان شفتيه بعد أن تربّصت به ذكرى عصر يوم من الأيّام، إذْ تذكّر مهرماه وهي تُسِرُّ له بوحدتها، وأدهشته لشعورها بذلك الشّعور وهي المرأة الّتي تملك كلّ شيء.

ـ عندما كانت الأميرة طفلة صغيرة، تيسّر لها أفضل المعلّمين، إذْ أراد والدها أن تكون واسعة الاطلاع والمعرفة. كنت تحضرين الدّروس برفقتها، وكانت مهرماه تحبّك حبًّا جمًّا، وإذا لم تكوني على مقربة منها، لم تكن تصغي للدّروس. وكلّ ما تعلّمته هي، تعلّمته أنتِ أيضًا.

ـ وهل هذه خطيئة؟

Twitter: @ketab_n

قال جَهان: لا أبدًا. إن خرّم لم تتنبه إلى أيّ حدٍّ وهبتك مهرماه نفسها لأنّها كانت منشغلة الانشغال كلّه بالسّلطان، وبتدبير المكائد، فتركتك تسيطرين على ابنتها، إلى أن حدث شيء ما، إذْ لم تعد ترغب خرّم في أن تكوني في الجوار بعد ذلك.

ـ كيف تعرف كلّ هذا الأمور؟

ـ أخبرتني مهرماه، لكنّني لم أربط الأشياء الّتي قالتها ببعضها بعضًا، حتّى هذه اللّحظة. ما سبب انزعاج السّلطانة منك؟

ـ السّلطانة. . . بدأت تسعل كأنّ اسمها سمّ يتعيّن عليها إخراجه من بدنها. وعندما تكلّمت ثانية، بدا صوتها منهكًا: أرادت خرّم أن تذهب إلى بورصة برفقة أطفالها، لكنّ مهرماه لم ترغب في السّفر، وكانت في سنّ التّاسعة. وقالت لوالدتها: «سأذهب إذا رافقتنا دادة». عند ذاك، أدركت خرّم أنّ ابنتها تحبّني أكثر ممّا تحبها.

ـ وطردتك.

ـ الله يعلم أنّها طردتني. حاولت التّخلّص منّي مرّتين.

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟ كيف رجعت؟

ـ امتنعت مهرماه عن تناول الطّعام، ومرضت مرضًا شديدًا، فخاف الجميع عليها من الموت. واضطرّوا لأعادتي. وما إن وصلت إلى القصر، حتّى طلبت طاسًا من الشّوربة وأطعمتها بنفسي.

سألها جَهان: هل حدث ذلك عندما بدأ النّاس يتقوّلون؟ لقد وصفوك بأنّك ساحرة، واتّهموك بأنّك سحرت الأميرة.

ـ كانت السّلطانة أكبر ساحرة، الكلّ يعرف ذلك، فهي الّتي كانت تروّج الشائعات عنّي. آه، الشّرّ متأصّل فيها.

قال جَهان وقد أخذته الدّهشة، ووقف متسمّرًا في موضعه: حرب ساحرتين.

Twitter: @ketab_n

رشقته حسنة خاتون بنظرة ازدراء، وقالت: حسنًا، لقد توفّيت وما زلت في عالم الأحياء.

سرت قشعريرة في جسد جَهان، وقال: والمرّة الثّانية؟ قلت إنّ السّلطانة طردتك مرّتين.

ـ حدث ذلك... عندما خُطبت مهرماه لرستم باشا، لم ترغب خرّم في أن أكون على مقربة. هل تصدِّق؟ أرسلتني لأداء فريضة الحجّ في وقت كانت ابنتي بأمسّ الحاجة إليَّ. أركبوني سفينة، والله يشهد كم بكيت.

ـ سمعنا أنّ سفينتك هاجمها القراصنة في طريق العودة.

ـ ادّعاء كاذب. أمسكت عن الكلام فجأة بعدما ألمّت بها نوبة أخرى، وتشنّج جسمها، لكنّها أردفت بعد قليل: أرادت السّلطانة أن تقضي عليَّ، فرتّبت قضيّة الهجوم على السّفينة حتّى أُقتل أو أُودع السّجن. إمّا هذا أو ذاك، لا فرق عندها بين الاثنين.

ـ كيف هربت؟

رفعت بصرها إلى أعلى، مغرورقة العينين، وقالت: ابنتي هي الّتي أنقذتني، اذْ أضربت عن تناول الطّعام وبكت بكاءً مرًّا أدّى بالسّلطان سليمان إلى إرسال أسطول عثمانيّ لإنقاذي، أنا المربّية! من سمع بمثل هذا الحدث؟

ـ ما مصدر قوّتك يا دادة؟

ـ أتظنّه السّحر؟ إنّ مصدر قوّتي هو الحبّ! ابنتي تحبّني!

مال جَهان إلى أمام محدِّقًا إلى القطّة، وقال: وأنتِ أحببت مهرماه أيضًا. لكنّك لم تكوني شغوفة بها وحدها... كنت أفكّر في هذا. لقد كنت مغرمة بالسّلطان، كيف غفلتُ عن ذلك؟

اكفهرّ وجهها.

Twitter: @ketab_n

أضاف جَهان: كنت تتحرّقين شوقًا إليه.

قالت باعتزاز: وكان هو يتحرّق إليَّ، ويرغب فيَّ وليس في خرّم. كانت تلك المرأة المشاكسة عثرة في طريقنا.

قال جَهان برقّة إلى حدّ الهمس: هل تعتقدين ذلك حقًّا؟ لقد فقدت صوابك وطار عقلك. أنت تعيشين في أحلامك. وفي رغباتك.

لم تصغ إليه.

ـ لولا تلك المرأة الشّيطانة لكانت مهرماه ابنتي، لكنّها كانت ابنتي حقًّا. وكنت أعلم دومًا ذلك. ابنتنا. ابنتي وابنة السّلطان سليمان.

صمت الاثنان، صمتها كان مكفهرًا، وصمته مربكًا. وكان هو أوّل من بدأ الكلام.

ـ عندما وافت المنيّة السّلطانة، أصبحت مهرماه أقوى امرأة في عموم الإمبراطوريّة. كنتِ أنت غائبةً عن المشهد، في الظّلال، غير مرئيّة ولا يخامر الشّكّ أحدهم فيك. فجأة، غيرّ جَهان الحديث، وسألها: لمَ القطّة ساكنة؟

قالت حسنة خاتون: إنّها نائمة. لا تقلق راحتها. لماذا جئت إلى هنا؟

ـ للتّوصّل إلى الحقيقة...

ـ الحقيقة فراشة: فهي تحطّ على هذه الزّهرة أو تلك. وأنت تركض وراءها حاملًا شبكة، فإذا أمسكت بها، فأنت سعيد لكنّها لن تعيش طويلًا. الحقيقة مسألة دقيقة.

ظّللت غمامة وجهها.

ـ كان دميتك على مدى سنوات. أنت الّتي خرّبت مباني معلّمي. ولقي ناس حتفهم. لماذا؟

ضغطت حسنة خاتون بقوّة على القطّة، فلم يصدر أيّ صوت منها

Twitter: @ketab_n

ولا حتّى هزّة ذيل.

ـ لم يخامرني الشّكّ فيك يا دادة، بل لم يخامر الشّكّ أحدًا، إذْ من ذا الّذي يرتاب في مربّية؟ كنت ذكيّة، إذْ لم تتركي أيّ أثر.

قالت بمرارة: لا بدّ من أنّ ثمّة أثرًا، وإلّا لما جئت إلى هنا.

ـ الأعشاب الّتي كنت تحرقينها من أجل الرّبو المصابة به. فقد كانت ثياب مهرماه وشعرها عابقة بالرّائحة نفسها. قبل أيّام، كانت الرّائحة نفسها تنبعث من ثياب داؤود. وقد تذكّرت هذا في وقت لاحق.

قالت وهي تعتدل في جلستها: لديك حاسّة شمّ قويّة أيّها الهنديّ.

قال جَهان ممسّدًا لحيته: علّمني فيلي. لقد استخدمتِ داؤود، لكنّه خرج عن السّيطرة، ولم يعد يستمع إليك.

جذبت القطّة إليها، وكانت لا تزال مثل صخرة.

ـ لماذا فعلت هذا؟ من أجل الثّروة؟ من أجل القوّة؟ من دفع رشوة لك؟ الإيطاليُّون؟ هل أرادوا إيقاف معلِّمي عن عمله؟

قالت حسنة خاتون: آه، صه! يا له من كلام فارغ! أتريد معرفة الحقيقة؟ استمع إليَّ! أتعتقد أنّني كنت قادرة على فعل ما فعلت من دون موافقة أميرتك؟

قال جَهان: أنت تكذبين. فمهرماه ميِّتة، ولا يمكنها الدّفاع عن نفسها. كيف يمكنك توجيه اللّوم لها؟ حسبتك تحبّينها.

ـ أحببتها أكثر من أيّ شخص آخر. أكثر من أيّ شيء. لهذا نفّذت لها ما طلبته منّي، ولم أسألها عن السّبب.

ـ كذّابة!

قالت بصوت أجشّ ومبحوح: إنّنا نصدّق ما نريد أن نصدِّقه.

لاح القلق وانشغال البال على محيّا جَهان مثل عاصفة توشك أن تهبّ.

Twitter: @ketab_n

ـ ما الّذي يدفع مهرماه إلى الرّغبة في إضعاف معلّمي؟

ـ إنّها لا تحمل أيّ ضغينة تجاه معلّمك. وهناك الكثيرون على الضّدّ من والدها.

ـ السّلطان سليمان؟

ـ كان أعظم السّلاطين وأعظم الخطّائين، سامحه الله. أنا لا أمقته لأنّني أعرف أنّ خرّم السّليطة هي الّتي ضلّلته. غير أنّ مهرماه لم تنظر إلى الأمور على هذا النّحو، فهي لم تقدر على توجيه اللّوم إلى أمّها. لهذا، وجّهته إلى الشّخص الّذي أحبّته أكثر من أيّ شخص آخر، والدها.

ـ إنّني لا أفهم.

ـ كان السّلطان سليمان ومهرماه قريبين جدًّا من بعضهما، فهي ابنته الوحيدة، جوهرته. وعندما كانت طفلة صغيرة، كان يصطحبها معه إلى كلّ مكان يذهب إليه، لكن تغيّر كلّ شيء بعد ذلك. فقد أصبح صارمًا، مخيفًا، يرى الأعداء في كلّ مكان، وراح يهمل شأن ابنته. فاستاءت مهرماه، وإن لم تشكُ أو تتذمّر، ثمّ أعدم السّلطان صدره الأعظم، الرّجل الّذي كانت تناديه مهرماه: عمّي، وتحبّه حبًّا جمًّا، ثمّ قتل صدرًا آخر. وشيّد معلّمك مسجدًا له. بعد ذلك، قتل أولاده ـ إخوة مهرماه. فتحطّمت تمامًا، ومزّقها حبّها لأبيها وكراهيّتها له. كم من مرّة انتقلت ابنتي الجميلة من غرفتها إلى جناح الحريم لأنّها كانت تريد الابتعاد عن السّلطان! ثم عادت أدراجها إلى مكانها السّابق... كانت تشمئزّ منه. وكانت تهيم به. يا لابنتي المضطربة! كانت مهرماه أكثر ثراءً من الخزينة، ولم يكن هناك من هو أقوى منها، غير أنّها كانت منسحقة القلب، ولم يفدها زواجها برستم شيئًا، إذْ لم تعرف طعم السّعادة إلى النّهاية. فلم ترغب به البتّة.

Twitter: @ketab_n

شعر جَهان بالدّوار، فسار ناحية صندوق في أحد أركان الحجرة وجلس فوقه، واستطاع من موضعه أن يشاهد القطّة وهي في حضن المرأة العجوز. كانت ذات عينين غريبتين، إحداهما خضراء مثل حجر اليشب والثّانية زرقاء شاخصة.

غمغم جَهان: بدأت الحوادث بمسجد السّليمانيّة. لقد حاولت إيقاف عملنا.

ـ كانت مهرماه تعرف أنّها لن تستطيع إلحاق الهزيمة بوالدها، ولم تكن لديها نيّة لتحقيق ذلك، بل إن كلّ ما كانت تريده هو تعقيد الأشياء أمامه. فالمسجد الّذي كان معلّمك يشيّده من شأنه أن يخلّد السّلطان سليمان وأن يظهر عظمته لذرّيّته، فقرّرنا أن نخفّف من سرعتكم. إنّه انتقام صغير.

قال جَهان: وكنت في حاجة إلى تلميذ ليكون بيدقك.

ـ فكّرنا في كلّ واحد منكم. كان نيقولا مخلوع الفؤاد، ولم يكن في وسعنا الوصول إلى يوسف، الصّموت الّذي لا يفتح فمه مطلقًا. أمّا أنت، فقد تركناك جانبًا، وفكّرنا في أنّ داؤود هو الأفضل: غاضب وطموح.

ـ لكنّ داؤود لم يكن ليطيعكما إلى ما لا نهاية!

ـ كان مطيعًا في البداية، لكنّه انقلب جشعًا. لم نؤذه، وإن كان في وسعنا إيذاؤه. أعرف الآن أنّ تلك هي غلطتنا. فبعد رحيل السّلطان، استدعته مهرماه وأخبرته بأنّ كلّ شيء قد انتهى. فأقسم أنّه سوف يتوقّف، لكنّه لم يتوقّف، وراح يتحدّى أوامرها سرًّا. كانت لديه مشكلة مع معلّمك على ما أعتقد.

شعر جَهان بالغثيان، وقال: شممت رائحة أعشابك على داؤود بعد وفاة معلّمي. لماذا بقيت على صلة به؟

Twitter: @ketab_n

مرّت لحظة قبل أن تردّ.

ـ أرادني داؤود أن أساعده كي يصبح رئيس المعماريّين الملكيّ. وقال إنّني إذا لم أساعده، فإنّه سوف يخبر الكلّ بما كنّا نفعل طوال تلك السّنين.

ـ لقد ابتزّك!

تهدّل فكُّها.

ـ ماذا حدث لوصيّة معلّمي؟ هل أراد أن يكون داؤود خلفًا له؟

قالت بصوت هادئ: لا، كان يفكّر فيك أنت.

رنا إليها جَهان مذهولًا.

ـ لقد كتب ذلك معلّمك في وصيّته. أرادك أنت. تلك هي رغبته. وقد احتفظ بنسخة من وصيّته في بيته ونسخة أخرى في محفوظات المعماريّين في فيفا.

ـ هل هذا هو سبب استيلاء داؤود على المكتبة برمّتها؟ لقد أتلف الوصيّة.

قالت: أراد أن يطمئنّ إلى عدم وجود أيّ نسخة أخرى في أيّ مكان آخر. لقد عرفت كلّ شيء الآن. ارحل، فأنا منهكة.

التفتت ناحية النّافذة بعد أن فقدت اهتمامها به، وبدا وجهها صخرة منحوتة في ضوء الشّمس الغاربة. ونفذت تصرّفاتها إلى صميم جَهان، عدم اكتراثها ولا مبالاتها وليس برودها. لم تندم على أيّ شيء، حتّى بعد أن أصبحت في هذه السّنّ قريبة جدًّا من الموت.

قال جَهان: هل أحبّتني؟

ـ لماذا تسأل هذا السّؤال السّخيف؟

ـ أريد أن أعرف ما إذا كان حبّها كذبة أيضًا. لأنّني كنت أشعر بالذّنب إذا رغبت في امرأة أخرى.

Twitter: @ketab_n

رمقته بنظرة هي مزيج من الاحتقار والاشمئزاز، وقالت: من أنتَ بحقّ الجحيم؟ مروِّض حيوانات؟ فأر يحاول الوصول إلى جبل! عبد من عبيد السّلطان مغرم بابنة السّلطان الوحيدة! والآن لديك الجرأة والوقاحة كي تسألني إن كانت مغرمة بك؟ يا لك من ساذج!

استطاع جَهان أن يرى القطّة كاملة عندما حرّكت المرأة ذراعها. إنّها كارداموم، القطّة العجوز منذ الأيّام الخالية، محنّطة، وبدلًا من عينيها ثمّة جوهرتان، إحداهما صفير والثّانية زمرّد.

ـ كنت تروقها، كأنّك حيوان صغير أليف، كأنّك رداء، كأنّك قطعة حلوى كالّتي تتذوّقها، لكنّك تصاب بالسّأم إذا أكلتها يوميًّا. لا، إنّها لم تحبّك قطّ.

زمّ جَهان شفتيه من دون أن ينبس بكلمة.

همست قائلة: مغفّل. مغفّلي الجميل. هكذا كانت تصفك. لهذا، كانت تهواك على هذا النّحو، ولكن هل تسمّي ذلك حبًّا؟

نهض جَهان، وترنّح. في وسعه أن ينهي هذا كلّه. في استطاعته أن يقتلها في ذلك الزّمان وذلك المكان. أن يخنقها بوشاحها. الباب مغلق. ولن يعرف أحد ذلك. وإذا ما عرفوا، فلن يرثي لموتها أحد. تقدّم بضع خطوات باتّجاهها، ورأى الرّعب في نظراتها.

ـ كم عمرك يا دادة؟ لا بدّ أنّك تجاوزت المئة عام. هل صحيح أنّك محكومة بالبقاء على قيد الحياة؟

كادت حسنة خاتون تضحك، فأوقفها سعال جافّ في منتصف الكلام وهي تقول: لست الوحيدة...

سألها جَهان جزعًا: ماذا تعنين؟

كان يعرف الجواب وإن خانته الكلمات:

سأل نفسه هل ثمّة حرفيّ أو فنّان أو رجل ذو طموحات عظيمة لا

Twitter: @ketab_n

يريد أن يحيا سنوات طويلة كما عشت أنا؟ وهزّ جَهان رأسه.

ـ إذا كنت تعنين معلّمي، فهو رجل مثاليّ يُحتذى به. وهذا شيء لا صلة له بساحرة مثلك.

ـ كم كان عمره عندما توفّيّ؟

تحوّلت وقوقتها سعالًا.

وقبل أن تتمكّن من التقاط أنفاسها، خطف جَهان القطّة المحنّطة من بين يديها وقذف بها في النّار، فالتهب فرو كاردامو وتألقت الجوهرتان في أتون النّيران.

صرخت بعد فوات الأوان بصوت ممزّق: لا!

ـ دعي الأموات يرقدون بسلام يا دادة.

بينما كانت تراقب القطّة وهي تحترق، ارتعش ذقنها باهتياج، وقالت: أتمنّى أن تتعذّب بحروقك أيّها المعماريّ.

أسرع جَهان نحو الباب بأقصى سرعته وفتحه، ولكن ليس قبل سماعه كلماتها الأخيرة: أتمنّى أن تجثو على ركبتيك وتتضرّع إلى الله القدير أن يأخذك، فقد بلغ السّيل الزّبى... بلغ السّيل الزبى. أتمنّى من الله أن يسمع تضرّعك... وأتمنّى أن يراك وأنت تتعذّب وأن يرحمك. آه، يا تلميذ سنان المسكين، ولكن أرجو ألّا يُميتك على الرّغم من ذلك.

Twitter: @ketab_n

راح بالاابان يرسل في صباح كلّ يوم رجلًا من رجاله إلى الميناء قائلًا له: تأكّد من أن العاصفة قد مرّت والغيوم انقشعت.

كان الصيّاد يرجع في كلّ مرّة حاملًا الخبر نفسه: لا تزال السّحب هناك أيّها الزعيم، ولم تذهب إلى أيّ مكان آخر.

كان رجال داؤود يجوسون تلك المنطقة، يفتّشون المسافرين ويفحصون المراكب أثناء تحميلها. وعندما سمع جَهان بهذه الأخبار، أدرك أنّ التّخلّي عن فكرة السّفر بحرًا معقول أكثر، وأنّه ينبغي له أن ينسلّ إلى إحدى العربات المتوجِّهة خارج بوّابات المدينة. وعندما يصبح في مأمن، فإنّ في وسعه أن يجرِّب حظّه في ميناء آخر، ربّما سميرنا أو تسالونيكي. غير أنّه عزم على السّفر من مدينة إسطنبول على النّحو الّذي جاء فيه إليها، على رغم خطورة ذلك. وقد أدرك داؤود هذا الأمر إلى حدٍّ ما، فهو يعرف جَهان معرفة جيدة.

رسم جَهان وبالاابان معًا خطّة مشتركة، وقرّرا أن يذهبا إلى الميناء متنكِّرين توخيًّا للسلامة.

قال جَهان مقترحًا: يمكنني أن أمرّ بصفتي غجريًا.

إذا ذهب الاثنان معًا مُرْتَدِيان الثّياب نفسها، فقد ينجحان في سعيهما على رغم صعوبة ذلك.

غير أن بالاابان لم يقتنع، فقد يزيد هذا من تعقيد الأمور ـ برًّا وبحرًا.

ـ أنت لا ترغب في أن يعاملوك على النّحو الّذي يعاملوننا به أيّها الأخ. فالغجريّ لا يعني جنّة. فكّر في أن يرتدي جَهان ثياب تاجر، لأنّه إذا ما ولّد الانطباع بأنّه على سعة من المال وذو شأن، فقد تصاحبه

Twitter: @ketab_n

متاعب أقلّ عند الرّكوب، ولكن ما إن تصبح السّفينة في عرض البحر، حتّى يسرقه البحّارة. ينبغي على جَهان إذًا، أن يبدو محترمًا لا ثريًّا. وفي نهاية المطاف، تقرّر أن يظهر بمظهر فنّان إيطاليّ حالم نوعًا ما، يطوف في أرجاء الشّرق عارضًا مواهبه للبيع، وأنّه عائد الآن إلى وطنه، أكبر سنًّا وأكثر حكمة. وإذا ما سأل أيّ شخص عن لوحاته، فإنّه سيقول إنّها شُحنت في وقت مبكر، وإذا سارت الأمور كما هو متوقّع، فإنّه سيصل إلى مدينة فلورنسا بعد عشرة أيّام.

لم يجد بالابان ورجاله صعوبة في العثور على الثّياب الملائمة لجَهان، وإن كان العثور على الحجم الملائم يتطلّب خبرة ومهارة. سلّموا جَهان كيسًا يحتوي على ملابس، قميص من الكتّان وسترة بردنين غريبين، وسترة جلديّة من دون ردنين وبنطال قصير يُربط فوق الرّكبتين. كانت كلّ قطعة من هذه الثّياب فضفاضة، ومصنوعة من قماش فاخر.

كشّر بالابان عن أسنانه عندما شاهد جَهان، وقال له: لقد انكمشت يا سنيوري جَهانيوني!

ضحكا ضحك الصّبيّين الكائنين في أعماقهما.

فقد سرق رجال بالابان كاتب قاضي البندقيّة الأول في رابعة النهار، وهو على ما يبدو رجل مفتول العضل أكثر من جَهان، لكن بعد أن أجرت زوجة بالابان بعض التّغييرات، باتت الثّياب مناسبة تمامًا. وأصرّت على أن تخضّب شعر جَهان ولحيته بالحنّاء، ولمّا فرغت، لم يستطع تلميذ سنان من الاستدلال على نفسه أمام المرآة إلّا بصعوبة. وتوّج زيّه بقبّعة مخمليَّة، بنفسجيّة وسوداء. كانت كدماته في هذا الوقت قد تماثلت للشّفاء، ولم تبقَ سوى النّدبة على وجنته، ذكرى عن ليلة يُستحسن أن ينساها.

Twitter: @ketab_n

في يوم رحيل جَهان، ارتقى بالابان ورجاله عربة يجرّها حمار، ومزدانة بالورود والأشرطة تكريمًا له. وكان عددهم كبيرًا جدًّا، ما أدّى إلى صعوبة سير الحمار. وبعد أن صبّوا اللّعنات على القانون الّذي يمنع الغجر من ركوب الجياد وخصامهم في ما بينهم، حاول أحدهم إقناع الآخر بالتّخلُّف عن الرّكب من دون طائل، لأنّ كلّ واحد منهم كان يريد أن يرافق جَهان. في نهاية الأمر، هيّأوا ثلاث عربات، فراحت تسير في الطّرقات في موكب مبهرج، متجاهلة نظرات سكّان المدينة الّذين فغروا أفواههم دهشة وذهولًا من جهة أولى وازدراء من جهة ثانية، كأنّهم تحدّروا من آدم آخر وحوّاء أخرى.

وفي منتصف الطّريق، أطلق عمّ بالابان عقيرته بالغناء، فحمل النّسيم صوته الأجشّ والخشن والرّخيم في آن، وأخرج أحد الغلمان نايًا من القصب من تحت زنّاره وبدأ يعزف عزفًا يناسب الغناء.

عندما سأل جَهان عن حكاية الأغنية، قال بالابان بصوت خافت جدًّا دفع جَهان إلى أن يمدّ بعنقه إلى أمام حتّى يسمعه: هذا الرّجل مقدم على الزّواج والكلّ سعيد، يرقص ويشرب. لهذا، راح يرقص، ويبكي.

ـ ما سبب بكائه؟

ـ إنّه يحبّ الفتاة. مغرم بها. وهي تحبّه. لكنَّ أهلها سوف يزوّجونها برجل آخر.

شعر جَهان بضيق في صدره في حين هدأت الموسيقى ـ هدأ الغناء أوّلًا، ثمّ اللّحن. لا بدّ من أنّ الوجوم مُعدٍ، إذْ شاع الصّمت. وعندما اقتربت العربات من المرفإ، توقّفت فوق إحدى التّلال.

قال بالابان: يُستحسن أن تترجّل هنا.

وثبوا من على العربات، واحدًا تلو الآخر، فخلع جَهان عباءته الّتي كان يلبسها ليخفي الزّيّ الإيطاليّ تحتها، وعانق كلّ واحد منهم، مقبّلًا

Twitter: @ketab_n

أيادي كبار السنّ، ووجنات الأطفال. في هذه الأثناء، لم يتحرّك بالابان، بل مال فوق العربة وراح يقضم قشّة. وعندما فرغ جَهان من توديع الكلّ، خطا باتّجاه بالابان، ولاحظ أنَّ في يد الغجريّ شيئًا ما، دائريّ الشّكل، أزرق اللّون كأنّه بيضة من بيوض طائر أبو الحنّاء المغرِّد.

ـ ما هذه؟

ـ رقية، أعدّتها العجوز لك، لحمايتك من عين الحسد. البسها بالمقلوب في البحر، وبالوجه الصّحيح عند وصولك إلى الشّاطئ.

عضّ جَهان على شفته ليكتم النّشيج الّذي كاد يطفر من حلقه، وقال: إنّني ممتنّ لك.

ـ اصغِ إليَّ، لقد أجرينا استفسارات بشأن المومس. يبدو أن ثماني نساء كنّ في حمّام الأحزان.

ـ صحيح؟

ـ سمعت أنهنّ ما زلن ثماني مومسات، ولم تغادر أو تأتي أيّ واحدة.

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إنّ ثمّة جنازة. شيء غريب. إنّني لا أريدك أن تتعذّب طوال حياتك. ربّما لم تقتل أيّ امرأة أيّها الأخ. كان كلّ شيء نصبًا واحتيالًا.

قال جَهان:

ـ لكنّ المرأة القزم... كانت بجانبي.

تنهّد بالابان: يحزنني أنّك سوف ترحل. ويسرّني أيضًا أنّك سوف ترحل. فأنت تبالغ في إيلاء الآخرين ثقتك في إسطنبول مبالغة لا يمكنك العيش فيها أيّها الأخ.

Twitter: @ketab_n

جذب زعيم الغجر جَهان إليه على نحوٍ مرتبك ولكمه على بطنه ممازحًا، لكمة أخ لأخيه، وقال: من ذا الّذي سأنقذه بعد اليوم من الورطة؟

ـ يمكنك أن تنقذ ابن شوتا. هلّا اعتنيت به؟

ـ آه، لا تقلق. سوف نخبره عن والده العظيم.

بينما راح جَهان يبحث عن الكلمات الّتي لم يعثر عليها، وثب بالابان إلى العربة، وأمسك باللّجام، ربّتوا على كتف جَهان. وما إن استقرّوا في أماكنهم حتّى اندفعت العربات إلى أمام. ولوّح الكلّ له باستثناء بالابان. انتظر جَهان في مكانه حتّى يلتفت إليه بالابان ويختلس نظرة خاطفة إليه للمرّة الأخيرة، لكنّه لم يلتفت، وشاهد شعره الطّويل ينساب في مهب الرّيح. كان زعيم الغجر يحدّق إلى أمام. وبينما هم يوشكون على الاستدارة حول أحد منعطفات الطّريق، توقّفت العربة ونظر بالابان وراءه، وعلى الرّغم من بعد المسافة، إلّا أنّ جَهان حسب أنّه شاهد شبح ابتسامة على وجه زعيم الغجر، فرفع يده مودّعًا، وفعل بالابان الشّيء نفسه، ثمّ ذهبوا في سبيلهم.

اندفعت موجة من الألم في أعماق جَهان، حادّة مثل نصل انغرز في جسده، فجلس فوق جذع شجرة مستغرقًا في التّفكير. لم يكن يدري ما تخبّئه له العناية الإلهيّة، وها هو يغور فيها متهوّرًا تهوّر الجاهلين. ولكن، على الرّغم من ذلك، لا سبيل أمامه للعودة. ففي حين راحت الشّمس تزداد إشراقًا، انطلق بدوره في طريقه.

كان المرفأ، كعهده دومًا، يحتشد بالمسافرين والملّاحين والعبيد. وما إن خطا نحو رصيف المرفإ حتّى ابتلعه ضجيجه ورحابته. كان واحدًا من أفضل المرافئ كما قيل. ففي إمكان السّفن أن تدخله من دون استخدام المجاذيف أو الدّعاء حتّى تملأ الرّيح أشرعتها. وكان في وسع

Twitter: @ketab_n

الربّانة الوثوق بالتّيّار المائيّ الّذي يساعدهم على الرسوّ. كان الجانبان المتناقضان في البوسفور يمكن الاعتماد عليهما والتّنبّوء بهما، على عكس المدينة نفسها، وفي هذا النّهار، ثمّة عدد كبير من المراكب والسُّفن، وإن كان جزء قليل منه مستعدًّا للإبحار. وكانت سفينة واحدة بثلاثة صواري، فخمة ورائعة، مهيّئة للإبحار إلى البندقيّة. إنّها السّفينة الّتي كان جَهان يقصدها.

بعد ان أضحى جَهان الآن فنانًا إيطاليًّا، راح يحدِّق معجبًا إلى كلّ ما هو طريف وغريب، رافعًا قبّعته احترامًا لكلّ امرأة، راهبة كانت أو غادة عذراء. ورأى حُجّاجًا وكهنة يسوعيّين يرتدون قلنسوات وثيابًا خشنة، ووجهاء لا تزال آثار بقع الحبر الدّائمة على أصابعهم. ثمّة كاتب يجلس إلى طاولة متنقّلة، والنّاس متحلّقون حواليه يراقبون ريشته تبتكر السّحر. وسرعان ما انخرط جَهان في حديث مع بائع ألبانيّ اشترى منه عصيرًا حلو المذاق. وثمّة رجل آخر يحاول أن يقود جوادًا ذا غماء ـ فحلًا أسود أصيلًا ـ من الشّاطئ إلى السّفينة. وتساءل جَهان عن المكان الّذي سيؤخذ إليه الحيوان وفكّر في إنْ كان في وسع الحيوان الجميل أن يتحمّل مشاقّ الرِّحلة.

بينما كان جَهان واقفًا في مكانه يراقب المشهد، رأى على مرمى بصره رجلي داؤود الأصمّين الأبكمين يشقّان طريقهما وسط حشود النّاس ويتّجَهان إليه. حبس جَهان أنفاسه وراح يرشف من عصيره، فمرّا به من دون أن يلتفتا إليه.

بعد لحظة واحدة، صكّت الأسماع صرخة مدويّة: قف أيّها السّافل!

كان الجواد الرّائع قد وقف على قائمتيه الخلفيّتين ودفع الرّجل إلى الماء، فانفجر المرفأ بالضّحك، وسرعان ما طغى عليه الصّراخ والزّعيق، إذْ اندفع الجواد نحو المعبر وواصل سيره إلى النّظارة، لكنّه لم

Twitter: @ketab_n

يستطع التّقدّم بالحرّيّة الّتي كان يتمنّاها بسبب ما كان يعترض طريقه من صناديق وبشر. ومع هذا، وفي غمرة اندفاعه وعدم رغبته في التّوقّف، راح يدوس على كلّ ما يعترض طريقه.

كان الرّجل بعد إنقاذه من المياه قد ثارت ثائرته وراح يصرخ مصدرًا الأوامر ومستنزلًا اللّعنات. فما كان من جَهان إلّا أن لحق به، وسأله: ما اسم الجواد؟

ـ لماذا تسأل بحقّ الجحيم؟

قال جَهان فاقدًا الصّبر: أخبرني باسمه!

رفع الرّجل حاجبيه، وقال: إيبوني!

هرع جَهان وراء الجواد، وكان الغماء قد انزلق عن عينيه، لكنّ رؤيته ما يحيط به لم تزده إلّا رعبًا وهلعًا. صاح جَهان مرّات ومرّات بصوت هادئ لا خداع فيه قدر المستطاع: إيبوني!

لكنّ الجياد لا تعرف لنفسها أسماء، إلّا أنّ في وسعها أن تلتقط النّبرة المألوفة إذا سمعتها، مثلما يمكنها أن تفهم المقصود من ورائها.

أخذ الجواد يدور ويدور بعد أن وجد نفسه محاطًا من كلّ جانب، وبدأ يصهل ويهزّ رأسه هزًّا ينمّ عن توتّر، فوقف جَهان أمامه مبيّنًا له يديه الخاويتين وطفق يقترب منه رويدًا رويدًا، متفوّهًا بكلمات مهدّئة واحدة تلو الأخرى. وما كان الجواد ليسمح لجَهان بالاقتراب منه لولا أنّه كان منهكًا حقًّا. وبعد أن أمسك جَهان بلجامه، بدأ يمسّد عنقه برقّة.

التفت جَهان إلى الوراء بدافع غريزيّ، فشاهد على بعد بضع خطوات منه الأصمّين الأبكمين يرشقانه بنظرات محدّجة لا تومض لها عيونهما، وملامح وجهيهما تصعب قراءتها. هل ساورتهما الشّكوك أم إنّ المشهد جذبهما؟ ولم يتجرّأ جَهان على اختلاس نظرة ثانية بعد أن رآهما المرّة الأولى. شعر بأنشوطة تطوّق فؤاده، وتحدّر خيط من العرق

Twitter: @ketab_n

أسفل مؤخّر عنقه، وشعر بأنّ ثيابه ثقيلة مضحكة عندما فطن إلى أنّها سوف تكون مزعجة له إذا ما اضطرّ لأن يجري بسرعة. لديه كيسان من النّقود، الأوّل داخل ردائه والثّاني مخاط بحافّة قميصه، بفضل زوجة بالابان. وإذا ما اضطرّ لأنّ يركض، فإنّ النّقود ستصدر رنينًا يزيد من ضيقه.

في تلك اللّحظة الّتي كان يفكّر فيها بالخيارات المتاحة له، انقسم الحشد الغفير من النّاس، كأنّه قطع إلى نصفين بسكّين غير مرئيّ، وجاء السّفير الفرنسيّ، الرّجل الّذي قام بتشريح جسد شوتا بفضول لا يشوبه أيّ انفعال. كانت إلى جانبه، زوجته مرتدية صدريّة مزركشة، وثوبًا مخمليًّا أخضر، وممسكة بمنديل على أنفها كي لا تشتمّ الرّائحة العفنة الّتي تزكم الأنوف. كانت تجمع حاجبيها بعبوس عندما مرّت وزوجها من أمامه من دون أن يستدلّا عليه وهما في طريقهما إلى السّفينة الّتي كان قد عزم على السّفر على متنها. وكان في أعقابهما عدد غير قليل من الخدم يحملون أقفاصًا وصناديق تنبعث من داخلها أصوات مختلف أنواع الحيوانات. كان السّيّد والسّيّدة بريفيه في طريق عودتهما إلى فرنسا يصطحبان الحيوانات الخاصّة بهما.

كانت الحيوانات تضمّ طواويس وعنادل وببّغاوات، ريشها لامع لمعان وقت الرّبيع، وثمّة صقر وعقاب وطير غريب هائل المنقار، هديّة من السّلطان. إلّا أنّ القردين ـ ذكرًا وأنثى ـ هما اللّذان دفعا النّاس إلى التّزاحم من أجل أن يحظوا بمشاهدتهما لأنّهما كانا يرتديان ثياب النّبلاء ويراقبان النّاس بملابسهما المخمليّة والحريريّة بعيون وجلة وسعيدة في آن. وكانت أنثى القرد تكشف عن أسنانها بين وقت وآخر كأنّها تضحك على البشر على النّحو الّذي كانوا يضحكون فيه عليها.

انسلّ جَهان مبتعدًا، وخطا خطوات سريعة وثابتة منتهزًا فرصة الضجّة ولم يستدر لاختلاس نظرة إلى ورائه قطّ. سار في طريق متعرّج

Twitter: @ketab_n

وسط الأقفاص والحبال والألواح الخشبيّة وبين البحّارة والحمّالين والمتسوّلين. شاهد سفينة على بعد مسافة منه، وخطر بباله أن يكون داؤود قد فكّر في أنّه عازم على السّفر إلى روما وأنّه نصح حرّاسه بمراقبة كلّ السّفن والمراكب المتّجهة إلى المرافئ الإيطاليّة. ففكّر في أنّ الحكمة تقتضي منه ركوب سفينة تبحر باتّجاه معاكس، وعندذاك يمكنه أن يهبط في الميناء الأوّل ويذهب إلى بلاد مايكل أنجلو. وصل إلى السّفينة بعد أن ساوره ذلك الاعتقاد وارتقى اللّوح الخشبيّ السّميك الموصل إلى متنها.

قال القبطان بعد أن استمع له: إنّنا لا نقبل الغرباء على ظهر سفينتنا، كيف يمكنني أن أعرف أنّك لست مجرمًا.

قال جَهان وهو يخشى أن يطلب القبطان منه أن يرسم لوحة تمثّل برهانًا يؤيّد مزاعمه: إنّني فنّان، أرسم المناظر الطّبيعيّة.

ـ يا لها من مهنة تثير الضّحك! هل تتلقّى أجرًا لقاء ذلك؟

ـ إن عثرت على كريم مهتمّ...

قال الرّجل بصرامة:

ـ عجيب! بعضهم يكسر ظهورنا. أنت تحيا حياة لذيذة. لا، لا يمكنك أن تأتي معنا، لأنّك سوف تجلب لنا الحظّ السّيّئ.

قال جَهان: إنّني أجلب الحظّ الميمون، وفي وسعي أن أؤكّد لك ذلك، واسمح لي أن أقدّم لك هذا لأبرهن على صدق ما أقول. أخرج محفظته وأفرغ محتوياتها فوق الطّاولة. فشخصت عينا القبطان، ومدّ يده إلى قطعة من النّقد وعضّ على حافّاتها، وقال: عظيم! هيّا بنا. ابق في العنبر، وباستطاعتك تناول الطّعام برفقة الرّجال، ولا تدعني المحكّ هنا.

أومأ جَهان إيماءة أنيقة، وقال: أعدك بذلك.

Twitter: @ketab_n

لم يكن مقرّرًا رفع المرساة والإبحار إلّا بعد يوم، فأمضى جَهان وقته منتظرًا في مقصورة تحتيّة تفتقر إلى التّهوئة، ولم يمتلك الجرأة على الصّعود إلى ظهر السّفينة إلّا بعد أن أبحرت. كانت المدينة تتلألأ من على مسافة بعيدة، بأسواقها ومقاهيها ومقابرها المحتشدة بأشجار البتولا وبلاطات القبور. إنّها المناطق الّتي تعلّم فيها الحبّ وتعلّم أيضًا ألّا يثق بالحبّ. وشاهد مآذن مسجدي السّليمانيّة وشاهزاد، الأب والابن. ورأى قبّة آيا صوفيا تلمع في الأفق. كما شاهد مسجد مهرماه، تكتنفه الأسرار مثلما اكتنفت المرأة الّتي سُمِّي باسمها.

وضع جَهان يده اليُمنى على فؤاده وحيّا المساجد، معترفًا بما رافقها من عرق ودعوات وآمال أثناء تشييدها. ولم يوجِّه تحيّته إلى النّاس، بل إلى الصّخر أيضًا وإلى الخشب والرّخام والزّجاج والأسلوب الّذي اتّبعه معلِّمه في تعليمه. ولحقت النّوارس بهم فترة، تزعق مودِّعة إيّاهم. وعندما عصفت الرّيح أشدّ من ذي قبل، عادوا إلى المدينة. الغريب أنّ إجازتهم بدت كئيبة مثل كآبته.

Twitter: @ketab_n

في البداية، قال جَهان في نفسه: اللّعنة... كيف يمكن أن تدعوها كذلك بينما هي هبة، إلّا أنّه بدأ يدرك شيئًا فشيئًا كيف أنّ الحياة غلبته بالحيلة والدّهاء لأنّ ما تقبله على أنّه هبة سوف يعلم لاحقًا أنّه من عاديّات الدّهر، وأنّ ما تلقّاه بصفته من منغِّصات الحياة سوف يراه نعمة. غير أنّه عاد وفكّر متّبعًا نصيحة دادة: أيُّ فنّان أو معماريّ من بين كلّ فنّاني العالم ومعماريّيه لا يتمنّى العيش مئة سنة أو أكثر، من دون أن يخشى أنّ الوقت سينتهي وهو في خضمّ عمل جديد قد يُصبح أفضل الأعمال الّتي أنجزها؟ تجنّب جَهان الخوف من الإخفاق لأنَّه لا يخاف الموت. ولمّا أصبح بمنأًى عن هذا الهاجس، بات في وسعه الإكثار من التّصاميم، والتّصميم على نحو أفضل، وربّما حتّى أفضل من معلِّمه.

هكذا، سافر من مرفإ إلى مرفإ تملأه العزيمة والحماسة. فذهب إلى روما وفرنسا وإنكلترا وسلمنكة، حيث توقّع أن يلتقي بسانتشا، لكنّه لم يعثر لها على أثر.

كثرت الطّلبات عليه وهو يعمل بجدّ من دون أن يطلب إلّا القليل من المال، فضلًا على معلوماته. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن عضوًا في أيّ نقابة ولا يمكن توظيفه، إلّا أنّه استطاع أن يشتغل بكلّ طاقته على نحو غير مسبوق، واضعًا التّصاميم لغيره من المعماريّين لقاء أجر أقلّ ممّا يستحقّ دومًا. انزعج قليلًا لأنّ السّحر الّذي منحه القوّة والسّنوات الإضافيّة لم يجعله يبدو أصغر سنًّا ولو يومًا واحدًا. وفي الوقت الّذي لم تظهر عليه أيّ علامة من علامات الوهن والضّعف، إلّا أنّه تحمّل عبء عمره. وسأله النّاس عن عمره بعد أن شعروا بأنّ ثمّة شيئًا غريبًا، شيئًا مبهمًا...

Twitter: @ketab_n

وعندما أجابهم بأنّه في السّادسة والتّسعين، السّابعة والتّسعين، الثّامنة والتّسعين، حدّقوا به وعيونهم متّسعة ولمع الشّك في عيونهم، وهم يتساءلون إن كان قد عقد حلفًا مع الشّيطان، وإن كان قد سمع ذات مرّة أحدهم يتفوّه بهذا بصوت عالٍ. وكان يصادفه هذا الشّيء نفسه مهما كان الطّريق الّذي يسلكه، جنوبًا أو شمالًا. إنّ البشر يشتركون جميعًا في فقدانهم الثّقة، إن لم يكن فقدانهم العاطفة، في أيّ شخص يتجاوز عمره السّنوات المحدَّدة.

في ذلك الوقت، بدأ جَهان يفكِّر في احتمال أن تكون السّاحرة على حقّ. ربّما عقد معلِّمه اتفاقًا معها، إذْ إنّ سنان عاش سنوات أطول ممّا عاشها أيّ حرفيّ بارز في أنحاء الإمبراطوريّة. كما أنّه شيّد من المباني ما يزيد على أيّ عدد يمكن أن يحلم به أيّ إنسان فانٍ. لا بدّ من أنّ الرّوائح كانت أحيانًا تنبعث منه انبعاث روائح أعشاب حسنة خاتون، وبعد أن أعياه كلّ شيء، لا بدّ من أنّه طلب وضع حدٍّ لذلك. وقبل وفاته بوقت قصير، ربّما زار السّاحرة. زيارة أخيرة. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ أنّ ثمّة طريقة لفكّ السّحر، وأنّ جَهان ضيَّع على نفسه هذه الفرصة برحيله عن إسطنبول.

مرّت السّنوات. مئة سنة تقريبًا. وركب البحر متوجِّهًا إلى البرتغال، ومن هناك يمكنه أن يبحر إلى العالم الجديد كما قيل له. وفي عصر يوم مشمس، لاحظ وهو واقف في مقدِّمة السّفينة، رجلًا رشيق القوام، ممشوقًا. فوثب قلبه من بين ضلوعه. إنّه بالابان، جالسًا بين حبل ملفوف ومربط للحبال. ومن دون أدنى تفكير، اندفع إلى أمام يضحك ضحكة خافتة إلى أن تنبّه بعد فوات الأوان إلى أنّه ليس بالابان.

ـ معذرة! ظننتك شخصًا آخر.

قال الغريب: صديقًا على ما أظنّ. تعال واجلس قبل أن تغيب الشّمس.

Twitter: @ketab_n

أفاض في الحديث عن مشكلاته بصوت يعلو وينخفض. وزعم أنّه ارتكب من الآثام والخطايا حدًّا جعله يهرب، وها هو يعود أدراجه إلى أسرته رجلًا أكثر حكمة. ولمّا أرهقه الحديث، سأل: ما مهنتك؟

ـ بنّاء. إنّني معماريّ.

ـ أوصيك بالذّهاب إلى أغره إذًا. إنّ الشّاه جَهان الّذي تحمل أنت اسمه يشيِّد اليوم قصرًا تخليدًا لذكرى زوجته.

جذبت الفكرة جَهان على الرّغم من أنّه هزّ كتفيه.

ـ ماذا حدث لها؟

قال الغريب بصوت حزين: توفّيت أثناء الإنجاب. كان زوجها في غاية الإخلاص لها.

ـ ذلك ليس طريقي.

قال الرّجل ببساطة: غيِّر طريقك.

في عام ١٦٣٢، وصل جَهان إلى هندستان لكي يطّلع على الخطط الخاصّة بهذا القصر الّذي كان النّاس يتحدّثون عنه بذهول.

Twitter: @ketab_n

تزور بعض المدن لأنّك تريد أن تزورها، وتزور أخرى لأنّها تريدك أن تزورها. في اللّحظة الّتي وطأت فيها قدما جَهان مدينة أغره، راوده الشّعور بأنّها كانت تجذبه وترشده إليها. وفي طريقه إليها، طرقت سمعه أمور كثيرة عن الشّاه وعن المدينة الّتي أرادها أن تكون مدينة عظيمة بحيث إنّه لدى وصوله إليها شعر بأنّه يعود أدراجه إلى منطقة سبق له أن حلَّ فيها. فطاف في أرجائها، وتنشّق روائحها اللّاذعة والفيّاضة، فيما كانت أشعّة الشّمس تلامس بشرته، وألم واهن يتسرّب إلى ندبته.

ذهب جَهان لمشاهدة البناء على ضفاف نهر يامونا. وهناك عرّفه أحد المسافرين، وكان يرطن قليلًا بالتّركيّة، إلى أحد رسّامي الخرائط. وبعد أن استمع إلى مؤهّلاته، وشاهد ختم سنان، اصطحب ذلك العامل جَهان إلى رئيس العمّال، وكان رجلًا طويل القامة قويّ البنية، بارز الأنف، كثّ الحاجبين، مبتسمًا على استحياء. وسرعان ما راق لجَهان وكان اسمه مير عبدالكريم.

قال بصوت تقوّى من خلال شرح التّفاصيل للنّاس، الأدنى والأرفع مقامًا على حدٍّ سواء: مُعلِّمُكَ كان رجلًا عظيمًا.

انكبَّ على التّصاميم القليلة الّتي كان جَهان قد أتى بها معه، وتأمّل فيها تأمّلًا ينطوي على عناية دقيقة. وضع مير عبدالكريم كوبًا من الحليب بالعسل ومجموعة من الأقلام على الطّاولة وأطلع جَهان على عدد من التّصاميم الخاصّة بمشروع البناء، مستفسرًا عن رأيه في كلّ واحد، فأجاب جَهان عن جد. لم يقل المشرف شيئًا وإن أوحى تألّق عينيه البهيج برضاه عن الأجوبة، ثمّ طلب من جَهان أن يرسم خريطة لأرضيّة

Twitter: @ketab_n

تستند إلى قياسات زوّده بها في ذلك المكان وفي تلك اللّحظة. ولمّا فرغ جَهان من مهمّته، ظهر الارتياح على محيّا المشرف. وقال وهو يتنفّس تنفّسًا يوحي بالطّمأنينة والاسترخاء: لا يمكنك الذّهاب إلى أيّ مكان قبل مقابلة الوزير الأعظم.

هكذا وجد جَهان نفسه وقد استدعاه الشّاه بعد جولة أخرى من التّعارف. تذكّر جَهان، بشكل أو بآخر، السّلطان سليمان عندما شاهد الشّاه متربّعًا فوق عرش الطّاووس، تتألّق عيناه، بأجفانهما الصّقيلة، بالكبرياء والضّياع، وبشاربيه اللّذين أكسباهما الحزن والغمّ بياضًا شديدًا، وخلت ثيابه من المجوهرات والزّركشة.

تفجّع الشّاه لوفاة زوجته المحبوبة ممتاز محلّ ـ قدوة القصر ونبراسه الّذي يُهتدى به ـ المرأة الّتي أنجبت له أربعة عشر ولدًا في ثمانية عشر عامًا. ودُفنت جثّتها على ضفاف نهر تابتي، والآن تُنقل رفاتها إلى أغره لإعادة دفنها دفنًا نهائيًّا.

كان الشّاه قد أحبّها أكثر من أيّ امرأة أخرى وعلى حساب زوجاته الأخريات. وقيل إنّ ولهه وثقته بها كانتا تدفعانه إلى جعلها تقرأ كلّ أوامره، وإذا وافقت عليها، فإنّها تختمها بالختم المهيب اللّائق بالملوك. ولم تكن قرينته فحسب، بل كانت أيضًا رفيقته ومستشارته وكاتمة أسراره. وكان في غيابها لا يرقأ دمعه، فظلّ يرتاد الأجنحة المخصّصة لها ليلًا، كأنّه يطارد أريجها ـ أو شبحها ـ وعندما يواجهه خواء حجراتها، ينفجر باكيًا.

لو كان جَهان التقى الشّاه المفجوع بفقد زوجته والّذي يشاطره اسمه، وهو في مقتبل الشّباب، لانهارت أعصابه، واتّقد وجهه وتعرّق كفاه وارتعش صوته خشية أن يتفوّه بما هو خطأ. لكنّه لم يعد في طور الشّباب. ولمّا كان الآن بلا أسرار وبلا مستقبل، فإنّ في وسعه أن يتوقّف عن تقريع نفسه وأن يكون مراقبًا لا أكثر، هادئًا، رابط الجأش

Twitter: @ketab_n

وحرًّا. وتمنّى بعد فوات الأوان، لو أنّه اكتسب ذلك المزاج الجديد، أيًّا كان مصدره، في وقت مبكّر من حياته أثناء وقوفه أمام كلّ سلطان وسلطانة وصدر أعظم مرّ بهم في حياته. وراح الآن يعتزّ بمزاج معلّمه الرّائق الّذي استخفّ به ذات مرّة وانتقص منه.

استفسر الشّاه عن أعمال سنان الّتي كان، ويا للعجب، على اطلاع واسع بها! وكان جَهان يجيب عن كلّ سؤال بإجابة مقتضبة وصريحة. كان الشّاه لا يتكلّم اللّغة التّركيّة على العكس من جدّه الحاكم بابور الّذي كانت لغته الأمّ هي لغة جَهان نفسها. فتحدّثا بمساعدة ترجمان يترجم من الفارسيّة إلى التّركيّة ومن التّركيّة إلى الفارسيّة، وكانت الكلمات المشتركة يتمسّكان بها مثل فراشات سقطت في شبكة بينهما.

بعد أن انتهى اللّقاء، أُرشد جَهان إلى طريق الخروج، فراح يمشي إلى الخلف، وهنا قال الشّاه: سمعت أنّك لم تتزوج قطّ. لماذا؟

توقّف جَهان، خافضًا بصره، وكان الصّمت أثقل من العسل وهو يخيّم على القاعة كلّها الّتي لاحت لجَهان كأنّها تنتظر ما سيقول.

ـ لقد أعطيت امرأة قلبي يا صاحب السّموّ.

ـ ماذا حدث؟

قال جَهان: لا شيء.

إنّ الّذين كبروا، ولديهم قصص حبّ انتهت في آخر الأمر نهاية مرحة أو سعيدة أو نبيلة أو مأساويّة، لم يتمكّنوا من فهم رأي كثر من النّاس بأنّ جهد الحبّ ضائع في نهاية المطاف.

ـ لم أقدر على الوصول إليها، كما أنّها لم تحبّني. ولم يكن ذلك شيئًا مقصودًا.

قال الشّاه: ثمّة نساء كثيرات.

كان جَهان يودّ أن يقول الشّيء نفسه له: لماذا يتفجّع على زوجته

Twitter: @ketab_n

حتّى الآن؟ إلّا أنّ الشّاه فهم ما لم يستطع جَهان التّعبير عنه بالكلام. ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يقول: وربّما لا.

في عصر اليوم التّالي، تلقّى جَهان رسالة من القصر ترشّحه واحدًا من الرّئيسين المعماريّين الملكيّين لبناء الضّريح المضيء، وسيتلقّى مكافأة ماليّة كبيرة، فضلًا عن مكافآت مناسبة كلّ ستّة أشهر. لكنّ سطرًا واحدًا في الرّسالة استوقفه: إنّني أطلب منك يا جَهان خان رومي، بنّاء الذّكريات وسليل المعلّم سنان المحترم الّذي لا يُعلى عليه، والّذي حذا حذوه العالم قاطبة، أن تساهم في إنشاء هذا الضّريح العظيم، والّذي سوف يستحضر إعجاب الأجيال تلو الأجيال إلى يوم الدّينونة عندما لا يبقى حجر فوق حجر تحت السّماء.

وافق جَهان رغمًا عنه، وانضمّ إلى فريق البنّائين وعلى الرّغم من أنّه في بلد غريب لا يعرف أحدًا فيه، ولا يملك ماضيًا يستعيده إذا ما أثبت الحاضر أنّه منهك أكثر ممّا ينبغي، إلّا أنّه، ويا للغرابة، شعر بأنّه في دياره!

كان المشروع هائلًا، باهظ الكلفة، محفوفًا بالصّعوبات، وعمل بسرعة فائقة آلاف العمّال والبنّائين وقاطعي الحجر وعمّال المحاجر والبنّائين بالآجر وبالملاط والنّجّارين. وكان ممكنًا سماع مختلف اللّغات تنتقل من منطقة إلى أخرى: نحّاتون من بخارى وعمّال محاجر من أصفهان ونقّاشون من تبريز وخطّاطون من كشمير ورسّامون من سمرقند ومزخرفون من فلورنسا وجوهريّون من البندقيّة. يبدو أنّ الشّاه الّذي عقد عزمه على رؤية البناء مكتملًا بأسرع وقت ممكن قد استدعى كلّ حرفيٍّ على وجه البسيطة يمكن أن يكون ذا فائدة له. هيمن وتسلّط بعناده وصلابته على كلّ شخص وعلى نحو لم يترك فيه إلّا الرّسم والتّصميم. وكانت معرفته القليلة بالمهنة قد زادت من تعقيد الحياة وصعوبتها أمام معماريّيه. ولم يصادف جَهان في حياته ملكًا منغمسًا كلّ

Twitter: @ketab_n

هذا الانغماس في البناء، وكان الشّاه يعقد كلّ يومين مؤتمرًا لهم فيطرح عليهم الأسئلة ويوضّح الأفكار ويخرج بمتطلّبات جديدة ومستحيلة، وهو ما تميل إلى فعله الرّؤوس المتوّجة في أغلب الأحيان.

كان الشّاه جَهان رجلًا أودع غضبه في الحديد، وحبّه للمجوهرات وحزنه في الرّخام الأبيض. وكتب جَهان، بإشرافه، الرّسائل إلى عدد من البنّائين في إسطنبول يدعوهم إلى الحضور. وابتهج عندما وافق تلميذه المفضّل عيسى على المجيء. وشعر نحوه بالمودّة والإعجاب ونحو كلّ ما يمكنه أن يحقّقه بمواهبه وشبابه. وتساءل ما إذا كان المعلّم سنان قد نظر إليهم بمثل نظرته ومشاعره. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ ما يبعث على الأسى أنّ جَهان لم يفهم.

ثمّة فيلة في الموقع، تحمل من دون كلل أثقل قطع الرّخام والألواح الخشبيّة. وكان جَهان يراقبها أحيانًا وقت العصر وتحت الشّمس الآذنة بالمغيب وهي تخوض في البرك، فتسري في بدنه عاطفة تجاهها. ولم يستطع منع نفسه من التّفكير في أنّ هذا العالم سيكون مكانًا أكثر أمنًا، وربّما أكثر سعادة، لو أنّ الجنس البشريّ استطاع أن يحيا حياة أكثر شبهًا بحياة الحيوانات ومن دون أن يفكّر في الماضي أو في المستقبل، ومن دون أكاذيب وغرور.

Twitter: @ketab_n

تزوّجتُ. فقد تذكّر الشّاه حديثنا، وأصدر أوامره بالعثور على عروس طيّبة القلب لي. فامتثلوا لأمره، وكانت زوجتي الّتي تصغرني بستّ وستين سنة امرأة طيّبة الخلق، واسعة الاطّلاع. وعندما أصبحت في الشّهر الثاني من حملها، فقدت كلّ أفراد أسرتها في أحد الفيضانات. وكما ذكرت الشّاعرة ميراباي ذات مرّة، فقد رفضت أن تنضمّ إلى محرقة جنازة زوجها. كانت عيناها أشدّ حلكة من كلّ أسراري، ابتسامتها على استعداد لأن يفترّ ثغرها عنها في كلّ وقت، شعرها الأسود اللّامع يتطاير بين أصابعي مثل مياه معطّرة. وكنت أخبرها في اللّيالي، وأنا مندهش من صورتها الجانبيّة المنعكسة في ضوء الشّمعة، بما كانت تعرفه من قبل: «إنّني أكبر ممّا ينبغي يا أمينة. عندما أموت، يجب عليك أن تتزوّجي من جديد». لكنّها كانت تردّد في كلّ مرّة: «لا تصبّ اللّعنة علينا، والآن اصمت».

في فصل الخريف التّالي، رُزقت أمينة بطفل ذكر ذي غمّازتين. أحببته كأنّه ولدي. وسمّيته سنان، ولمّا تذكّرت كنية معلّمي الأولى، أضفت إليه الاسم جوزيف. كما أنّني احترامًا لأهل زوجتي، سمّيته معتمدًا تيمّنًا باسم والد زوجتي. وها هو الآن ابننا: سنان جوزيف معتمد، لا أحد يشبهه في هذا الفضاء الواسع المحتشد بأعداد لا تُحصى من الأرواح وبأعداد أكبر من الآلهة، ينمو تحت سماء أغره، فيزداد طولًا كلّ يوم، ويزداد قوّة، فتًى عثمانيّ في الهند على الرّغم من أنّني هنديّ مزيّف في الأراضي العثمانيّة.

كانت له سيماء أمّه المشرقة وعيناها البندقيّتان، العبوس الظّاهر

Twitter: @ketab_n

أحياناً على جبينه يشير إلى نفاد صبره وفضوله عن الآليات الدّاخليّة في كلّ شيء يراه. ولما بدأت أسنانه بالظّهور، راحت أمّه وخالاته الكثيرات العدد يضعن مختلف الأشياء أمامه لتقديس الطّريق الّذي من شأنه أن يتّبعه في الحياة، شظيّة مرآة، ريشة طائر، سوار ذهبيّ، وشمع الأختام. فإذا اختار المرآة، فإنّه سيكون توّاقًا للجمال، رسّامًا أو شاعرًا. وإذا اختار الرّيشة فسيكون كاتبًا. أمّا السّوار، فتاجرًا، والشّمع، موظّفًا ذا مكانة مرموقة.

كان سنان جوزيف معتمد يلبث ساكنًا برهة، يحدّق في الأشياء المبعثرة قرب قدميه، كأنّها تحتوي على أحجية ينبغي حلّها. أمّا النّساء، فلبثن في الوقت نفسه ينادين عليه ويغرينه كي يلتقط ما يفكّر به، إلّا أنّه كان يتجاهلهنّ، ثمّ يمدّ يده ويتشبّث بالرّقية المتدلّية من رقبتي الّتي أعدّتها العجوز لي لحمايتي من عين الحسد.

سألتني أمينة وقد لاح عليها القلق: ماذا يعني هذا؟

فضحكت ضحكة قصيرة وجذبتها إليّ من دون اعتبار لما قد تفكّر فيه أخواتها. قلت: «ما من سوء، صدّقيني!». كلّ ما هنالك هو أنّه سيتّخذ قراراته بنفسه بغضّ النّظر عمّا يُوضع أمامه.

عندما كنّا نخرج نحن الثّلاثة، كانت البلدة كلّها تحدّق فينا ببلاهة. وكنت أحيانًا أصادف رجالًا يلمّحون بنكات بذيئة وضحكات لا تستسيغها الأذن بأنّني رجل محظوظ لامتلاكي مثل هذه الزّوجة: أو يسألون كيف أشبعها وأنا في مثل هذه السّنّ. لهذا، كنّا نجد لنا طريقًا آخر للسّير في الشّوارع. وكانت زوجتي تسبقني في سيرها، حاملة الطّفل بين ذراعيها، وأنا متلكّئ وراءها، أسير سيرًا بطيئًا، مستغرقًا في التّفكير فيهما، في رقّتها وهي تمسّد رأس الطّفل بابتسامته الواثقة الأخّاذة، بهمهماتهما الشّبيهة بزفيف الأمواج النّائي القادم من مدينة باتت الآن بعيدة جدًّا. أستوعب هذا كلّه، وأفكّر في لحظة أخرى من لحظات

Twitter: @ketab_n

الزّمن بأنّهما سيظلّان يتنزّهان بعد أن أكون قد رحلت عن هذا العالم، وأنّ ما من شيء سوف يتغيّر. وبدلًا من أن تملأني هذه الأفكار حزنًا، كانت تجعلني مفعمًا بالأمل. نعم، أمل عظيم.

لا شيء في حياتي يذكّرني بمهرماه، لا صوتها ولا أسارير وجهها ولا طبعها. في اللّيالي الّتي تنيرها النّجوم، وعندما تضطجع فوقي، ويغطّي دفئها جسدي مثلما يغطّيه رداء، وأكون خجلًا من شيخوختي، مثارًا بنعومتها، فإنّها كانت تنسلّ إليَّ مثل غمد ينسلّ منه سيف، يبتلع جمالها قبحي وتهمس في أذني: «أرسلك الله إليَّ». أعرف أنّني ما كنت لأسمع قطّ بمثل هذه الكلمات من مهرماه، حتّى لو كان مقدّرًا لنا أن نحيا معًا. لا، لم يكن في وسع زوجتي أن تكون أكثر اختلافًا عنها، ولم يكن في وسعي أن أكون أكثر رضًى. لكن، على الرّغم من ذلك، لم يمضِ يوم واحد منذ أن غادرت إسطنبول من دون أن تمرّ مهرماه في خاطري. ما زلت أذكرها. ما زلت أتألّم ألمًا متنقّلًا يسري في أوصالي، من طرف إلى آخر فلا أستطيع التّأكّد من أنّها كانت هذه الأطراف موجودة. إنّها الظّلّ الّذي يتبعني إلى كلّ مكان، يخيّم عليّ عندما أشعر بالاكتئاب، ويجرّد روحي من ضيائها.

بعد مرور سنة على بدء عملي عند الشّاه العظيم، طُلب منّي أن أصمّم قبّة للضّريح المضيء الّذي سموه الآن تاج محلّ. أنا الآخر تغيّر اسمي، فعلى الرّغم من أنّهم لا يزالون يدعونني جَهان خان روميّ، إلّا أنّ الكلّ، بمن فيهم الأطفال الصّغار، راح يدعوني بصانع القبّة.

أفتّش الموقع في صباح كلّ يوم. مسافة طويلة أمشيها مستغرقة منّي وقتًا لا بأس به. قبل أيّام جاءني أحد المبتدئين وإلى جانبه فيل، وقال: «لماذا لا تدع الحيوان يحملك أيّها المعلّم»؟

ساعدوني على امتطاء صهوة الفيل، وجلست داخل الهودج ورنوت إلى العمّال يكدحون من دون توقّف، يشيّدون المباني، ويشيّدون

Twitter: @ketab_n

للحاكم ويشيّدون لأجدادهم، ويشيّدون من أجل هدف نبيل، ويشيّدون من دون معرفة السّبب، وكنت أنا سعيدًا في مكاني المرتفع بمفردي، لا في المكان المنخفض برفقتهم، لأنّني لم أستطع الحيلولة دون أن تنحدر الدّموع على وجهي، وكنت أبكي بكاء الرّجل العجوز الضّعيف الّذي آلت إليه نفسي.

كنت أدرك أنّني لن أظلّ على قيد الحياة عندما ينتهي بناء تاج محلّ. وإذا لم توافني المنيّة قريبًا، فهذا يعني أن لعنة داده لا تزال سارية المفعول. وعندذاك يتعيّن عليّ أن أرحل عن هذه البلاد بمفردي. لقد تركت تعليمات لعيسى ولتلاميذي إذا ما أرادوا السّير على منهجي واتّباع نصحي - على أيّ حال، لا يعرف المرء إن كان تلاميذه سيواصلون مسيرته مثلما لا يعرف من الّذي سيخذله. لا يهمّ. سوف يشمخ البناء، سواء أكنت موجودًا أم لا. سأفعل داخل تاج محلّ ما فعله معلّمي داخل قبّة مسجد شاهزاد، البناء الأوّل العظيم الذي شيّدناه، حيث لم تقع أيّة حوادث مؤسفة، ولم يشهد أيّة خيانات، وكنّا مثل رجل واحد، سوف أخبّئ في مكان ما بعض التّفاصيل عن مهرماه، لا تستطيع الاستدلال عليها سوى عين الخبير: قمر وشمس يعانق أحدهما الآخر عناقًا محتومًا لا سبيل إلى مقاومته ـ هذا معنى اسمها.

طُلب إلينا أن نكتب على مرمر خالص: «شُيِّد هذا الصرح في هذا العالم لإظهار عظمة الخالق». وددت لو أُضيفت عبارة: «وحبّ كائن بشريّ آخر...».

صمّمت الحدود الأربعة لتاج محلّ لتكون متماثلة كأنّ ثمّة مرآة مثبّتة في أحد الجوانب، وإن لم يكن في وسع أحد معرفة ذلك الجانب. صخرة منعكسة في الماء. الله منعكس في البشر. الحبّ منعكس في تحطّم القلوب. الحقيقة منعكسة في الحكايات. إنّنا نحيا ونشقى ونموت تحت القبّة اللّامرئية نفسها. فقراء وأغنياء، محمّديّين ومتنصّرين، أحرارًا

Twitter: @ketab_n

وعبيدًا، رجالًا ونساء، سلاطين ومروِّضين، معلِّمين وتلاميذ... لقد توصّلت إلى الاعتقاد بأنّنا إذا وصلنا شكلًا واحدًا، فإنّه شكل القبّة، ففي هذه الأشكال، تتلاشى كلّ الفروق ويمتزج كلّ صوت مميّز، حزينًا كان أم بهيجًا، بصمت كبير قوامه الحبّ الّذي يطغى على الكلّ. عندما أفكّر في هذا العالم على هذا النّحو، أشعر بالدّوار وبالحيرة ولا أستطيع أن أحدِّد أين يبدأ المستقبل وأين ينتهي الماضي: أين يسقط الغرب وأين ينهض الشّرق.

Twitter: @ketab_n

كلمة المؤلّفة

لست متأكدة إن كان الأدباء يختارون موضوعاتهم أو موضوعاتهم هي الّتي تأتي لتختارهم نوعًا ما. أنا شخصيًّا، أشعر بأنّني من النّوع الثّاني برواية «الفتى المُتَيَّم والمعلِّم». فقد شعّت فكرة الرّواية أوّل مرّة في عصر يوم مشمس، في إسطنبول، عندما كنت في سيّارة أجرة متوقِّفة بسبب ازدحام الطّريق. كنت أرنو إلى خارج النّافذة عابسة، متأخِّرة عن موعد عندما لمحت عيناي في الجانب الآخر من الشّارع مسجدًا يطلّ على البحر. إنّه مسجد ملّا جلبي، أحد بدائع سنان القليلة الشّهرة، ثمّة صبيّ غجريّ يتربّع على الجدار المجاور له، يضرب على علبة من صفيح مقلوبة رأسًا على عقب. فكّرت في أنّني قد أبدأ بتخيّل قصّة مع المعماريّ سنان وفيها غجر إذا لم يصبح الطّريق سالكًا حالًا، ثمّ تحركّت السّيّارة ونسيت الفكرة تمامًا إلى أن وصلني بعد أسبوع كتاب بالبريد، وكان كتاب «عصر سنان: الثّقافة المعماريّة في الإمبراطوريّة العثمانيّة» لمؤلفته غولرو نيجيبوغلو، أرسله إليّ صديق عزيز. وجذبت أنظاري صورة داخل الكتاب تمثّل لوحة للسّلطان سليمان، فارع القدّ وناعمًا في قفطانه. إلّا أنّ الأشكال الظّاهرة في مؤخّر الصّورة هي الّتي استحوذت على انتباهي استحواذًا كبيرًا، إذ ثمّة فيل ومروِّضه أمام مسجد السّليمانيّة، يتسكّعان عند حاشية الصّورة كأنّهما يوشكان أن يهربا، غير

Twitter: @ketab_n

متأكّدين ممّا يفعلان في الإطار نفسه، جنبًا إلى جنب مع السّلطان والصّرح المشيّد له. لم أستطع أن أحيد ببصري عن هذه الصّورة. لقد عثرت عليّ القصّة.

أردت أثناء تأليف هذا الكتاب أن أفهم عالم سنان وعوالم التّلاميذ الكبار والعمّال والعبيد والحيوانات الّذين كانوا حاضرين معه. غير أنّ التّحدّي الأكبر الّذي يواجه الكاتب عندما يؤلّف كتابًا عن فنّان عاش منذ زمن بعيد، إنّما يتمثّل في إعادة بناء الزّمن. فقد كان بناء أيّ مسجد يستغرق ما بين سبع إلى تسع سنوات، وقد شيّد سنان أكثر من ٣٦٥ مبنًى بمختلف الأحجام. لهذا، ولأجل إيقاع السّرد، قرّرت أن أتخلّى عن التّسلسل الزّمني الصّارم وأن أبتكر إطارًا زمنيًّا خاصًّا بي، وتندرج في الخطّ الزّمنيّ الجديد الأحداث التّاريخيّة الحقيقيّة. فعلى سبيل المثال، تزوَّجت مهرماه في سنّ السّابعة عشرة فعلًا، إلّا أنّني أردتها أن تتزوّج متأخِّرة كي أمنحها وجهانًا، مدّة زمنيّة أطول يقضيانها معًا. أمّا زوجها رستم باشا، فقد توفّي عام ١٥٦١، لكنّني أردته أن يعيش سنوات أطول من أجل البناء القصصيّ. وإذا كان القبطان غاريث شخصيّة متخيّلة تمامًا، إلّا أنّه مستمدّ من شخصيّات البحّارة الأوروبيّين الّذين انضمّوا إلى البحريّة العثمانيّة، وكذلك من بحّارة عثمانيّين غيّروا ولاءاتهم. وقصص هؤلاء لم تُسرد بعد.

كان قرار إدخال تقيّ الدّين في القصّة في مرحلة سابقة زمنيًّا قرارًا واعيًا. الحقّ أنّه أصبح رئيس الفلكيّين الملكيّ في عهد السّلطان مراد، غير أنّ خطّ سير المرصد كان مهمًّا في نظري، لهذا السّبب، غيّرت تاريخ وفاة الصّدر الأعظم سوكولو. أمّا الرّسام ميلكيور والسّفير بوزبيك، فهما شخصيّتان تاريخيّتان وصلا إلى مدينة إسطنبول عام ١٥٥٥ تقريبًا، إلّا أنّني ابتكرت لحظات وصولهما ومغادرتهما.

ووجدت في كتب كثيرة، إشارات إلى مجموعة من المعماريّين

Twitter: @ketab_n

العثمانيّين في روما، لكنّ العمل الّذي كانوا يمارسونه فيها ظلّ غامضًا. وتخيّلتهم مثل تلميذيْ سنان، جَهان وداؤود. وكان ثمّة فيل حقيقيّ يدعى سليمان في فيّينا، سرد قصّته خوزيه ساراماغو سردًا جميلًا في كتابه «رحلة الفيل».

أخيرًا، هذه الرّواية من صنع الخيال، إلّا أنّ الأحداث التّاريخيّة والنّاس الحقيقيّين كانوا لي دليلًا وإلهامًا. واستفدت فائدة كاملة من مصادر متعدِّدة بالإنكليزيّة والتّركيّة، بدءًا بكتاب «رسائل تركيّة» لمؤلّفه أوغر غيسلين دي بوزبيك وانتهاءً بكتاب «إسطنبول في القرن السّادس عشر: المدينة والقصر والحياة اليوميّة» لمؤلّفه متين آند.

كان سنان يردِّد دومًا: «أتمنّى أن يجري العالم جريان الماء»، وأنا لا يمكنني إلّا أن أتمنّى أن تجري هذه القصّة جريان الماء في قلوب قرّائها.

أليف شافاك

Twitter: @ketab_n

شكر وتقدير

خالص شكري إلى هؤلاء النّاس الرّائعين: لورنا أوين لقراءتها نسخة أوّليّة من هذه الرّواية، ولملاحظاتها المدهشة؛ ودونا بوبي لمقترحاتها الواضحة ومساهمتها الفريدة، كيث تايلور لحكمته وصبره، آنا ريدلي لإسنادها ولابتساماتها، لهيرميوني طومسون لكرمها ولفريق بنغوين المدهش في المملكة المتّحدة.

إنّني ممتنّة، بخاصّة، إلى محرّريّ الرّئيسين على كلا جانبي الأطلسي: فينيتشيا باترفيلد وبول سلوفاك. إنّ العمل معكما والشّعور بالارتباط ذهنيًّا وروحيًّا، ومشاركتكما بالشّغف نفسه تجاه القصص ورواية القصص، كان متعة وامتيازًا وقوّة لي. إنّ المحرّر الجيّد نعمة حقيقيّة للرّوائي، وقد أُنعم عليَّ بمحرّرين عظيمين.

إن وكيلي الرّئيس جوني جيلر حلم كلّ مؤلّف على وجه اليقين. فهو يصغي ويفهم ويشجّع ويعرف. وكانت ديزي ميريك وكريستين فوستر وفريق وورلد رايتس في وكالة كيرتس براون مدهشين. أرغب أيضًا في توجيه الشّكر إلى بانكاج ميشرا وتيم ستانلي على ملاحظاتهما وأحاديثهما في المراحل الأولى من الرّواية وإلى كاميلا شمسي لمساعدتها إيّاي في

Twitter: @ketab_n

العثور على اسم الفيل الأبيض. امتناني إلى غولرو نيجيبوغلو الّتي كانت مساعدة مدهشة لما قدّمته من آراء شخصيّة تخصّ التّاريخ ومؤلّفها الرّائع عن عمارة سنان. أتوجّه بالشّكر الخاص لاوغور جانبلين (آغا إيغور) وميريك ميكيك اللّذين لا يضاهيهما أحد.

يصعب علي التّعبير عن امتناني لأيّوب الّذي يعلم أنّني زوجة فظيعة ولعلّه لا يعلّق أيّ آمال على حدوث أيّ تطوّر، ولأسباب لا يمكنني أبدًا فهمها، لا يزال يقف إلى جانبي. شكري الجزيل إلى زيلدا وظاهر.

نشرت هذه الرّواية أوّل مرَّة في تركيا وإن كانت مكتوبة باللّغة الإنكليزيّة أوّل الأمر. إنّني مَدينة بشكري الجزيل إلى القرّاء على اختلاف مشاربهم الّذين أبدوا ملاحظات على القصّة وعلى الشّخصيات والّذين، لدهشتي البالغة، احتضنوا شوتا كأنّه وجه من وجوه الماضي مفقود منذ زمن بعيد.

أليف شافاك

تشرين الثّاني ٢٠١٤

Twitter: @ketab_n

يصل جهان، الفتى الهندي البالغ من العمر اثنيْ عشر عامًا، إلى قصر توبكابي في اسطنبول مع هديّة للسلطان: فيل أبيض صغير يُدعى شوتا. في هذه المدينة، تتغيّر حياةُ جهان بفضل شخصيّتين بارزتين: ابنة السلطان، مِهرماه، التي تفتنه؛ والمعماريّ الشهير سِنان الذي يتبنّى تدريبَه على بناء المَساجد والقصور والجُسور والحمّامات والمدارس، والأهمّ على اكتشاف الذات وإعمار الروح.

رواية مذهلة تصحبنا شافاك من خلالها إلى القصور وجنائنها، حيث الحيوانات والمروِّضون والوزراء الخبثاء والجواري الحسان؛ وإلى هذه المدينة / البوتقة التي تنصهر فيها الأديان والثقافات وتختلط فيها ألوانُ الفقر والجريمة؛ وإلى دواخل النفس المظلمة والمشرقة في آن...

"أليف شافاك في أوجها تحدّثنا عن قبب الاكتشافات". ***The Independent***

"شافاك: روعة الهندسة المعماريّة كاستعارة لبناء ذواتنا". ***The Guardian***

"ملحمة عن السلطة والحرّيّة، عن الإبداع والتزمّت... لكنّها قبل كلّ شيء، عن الحبّ... حبّ التعلّم وتعلُّم الحبِّ..." ***Financial Times***

"أفضل رواية كتبتها شافاك حتى اليوم. تجربة ساحرة ومضيئة ومتألّقة". ***The National***

أليف شافاك: روائيّة وناشطة تركيّة. صدر لها عن دار الآداب:

قواعد العشق الأربعون، لقيطة إسطنبول، شرف، قصر الحلوى.

www.elifshafak.com

دار الآداب

هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
[illegible]/٧٩٥١٣٥
ص.ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

معرض الشارقة الدولي للكتاب SHARJAH INTERNATIONAL BOOK FAIR

ISBN: 978-9953-89-493-5
9 789953 894935

تصميم الغلاف: نجاح طاهر